

الردة في الإسلام

(قراءة تاريخية وفكرية في الأصول والاتجاهات والنتائج)

حسن خ . غریب

[illegible]

دارالكنوز الأدبية



中国书画函授大学肇庆分校

الردّة في الإسلام

(قراءة تأملية وفكرية في الأصول والافتقادات والنتائج)

حسن خ. غريب

الردّة في الإسلام

(قراءة تاريخية وفكرية في الأصول والاتجاهات والنتائج)

توزيع دار الكنوز الأدبية

بيروت - لبنان

حسن خ. غريب
الردة في الإسلام
الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 1999م.
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

توزيع دار الكنوز الأدبية
بيروت-لبنان
ص.ب. /7226-11
هاتف-فاكس: 01/739696

محتويات الكتاب

١١ - المقدمة

الفصل الأول : إعتناق الإسلام بين الحوار و الإكراه

- ١٥ تمهيد
- I - الحوار ثابت قيمي في الدعوة إلى الإسلام. ١٧
- II - مرحلة الدعوة إلى الإسلام بالقوة. ٢٤
- III - القتال متغير مرحلي في الدعوة إلى الإسلام. ٣٥
- IV - الردة سيف مسلط على رقاب المسلمين. ٣٩
- الآيات التي تناولت مبدأ الردة. ٣٩
- الأحاديث النبوية التي تناولت مبدأ الردة. ٤٨
- الردة لغة. ٤٨
- الردة فقهاً: من هو المرتد؟ ٤٨
- ما هي عقوبة المرتد عن دينه؟ ٥٧
- حديث الفرقة الناجية من النار. ٦٩
- V - إستنتاجات الفصل الأول. ٧٢

الفصل الثاني: مرحلة التأسيس لتكفير الجماعة

- ٨٣ تمهيد
- I - ماهي المسافة التي تفصل بين تعارضات الصحابة ومواقفاتهم مع الرسول،
وبين النص ؟ ٨٥
- ١ - تشكيك بعض المسلمين في عدالة الرسول. ٨٥
- ٢ - موافقات عمر بن الخطاب مع القرآن ومع الرسول. ٨٦

٣ - الحوادث التي تُروى عن معارضة بعض الصحابة للرسول: ٨٧

أ - صلح الحديبية. ٨٧

ب - رزية يوم الخميس. ٨٨

ج - سرية أسامة بن زيد. ٩٢

٤ - ما حصل من شقاق بين المسلمين بعد وفاة الرسول مباشرة: ٩٤

أ - التأسيس لفتنة الإمامة/الخلافة. ٩٤

ب - التأسيس لفتنة الردة العامة. ٩٥

٥ - إستنتاجات: ٩٥

II - الخلافة الراشدة:

مرحلة التأسيس لشقوق عامودية في داخل الدعوة الإسلامية.

- أولاً: الخلفاء الراشدون: القضايا - التمايزات. ١٠٥

١ - خلافة أبي بكر الصديق: البيعة - الفتنة. ١٠٥

أ - صفاته. ١٠٥

ب - البيعة - الفتنة. ١٠٦

ج - الإشكاليات التي حصلت في عهد أبي بكر: ١٠٨

- الأولى والثانية: الردة العامة؛ وبعثة أسامة بن زيد.. ١٠٩

- الثالثة: إشكالية ميراث الأنبياء. ١١٣

- الرابعة: إشكالية ما حصل بين خالد بن الوليد

ومالك بن نويرة. ١١٧

٢ - خلافة عمر بن الخطاب: الإستخلاف خوفاً من الفتنة.. ١٢٢

أ - صفاته. ١٢٢

ب - إستخلاف عمر خوفاً من الفتنة. ١٢٣

ج - تمايزات خلافة عمر بن الخطاب: ١٢٣

٣ - خلافة عثمان بن عفان: الشورى ونخبة النخبة. ١٣٥

أ - صفاته. ١٣٥

ب - خلافته. ١٣٥

ج - الإشكاليات والتأسيس لنشأة

المعارضة المسلّحة في وجه السلطة. ١٣٥

د - ماذا قيل في مقتله؟ ومن الذي قتله؟ ١٣٨

٤ - خلافة علي بن أبي طالب

- وبيعة الهروب من الفتنة إلى الفتن ١٤١
- أ - صفاته ١٤١
- ب - خلافته ١٤٢
- ج - إنتشار الفتنة واشتداد المعارضة المسلّحة: ١٤٢
- الفتنة الأولى: إشكالية حرب الجمل (علي وعائشة). ١٤٣
- الفتنة الثانية: إشكالية حرب صفين (علي ومعاوية). ١٤٧
- الفتنة الثالثة: إشكالية حرب النهروان
- (علي والخوارج). ١٤٩
- د - قراءة في أسباب انتشار الفتن المسلّحة ١٥١
- ثانياً: الخلافة الراشدة : القضايا - التقاطعات. ١٦١

الفصل الثالث: إفراق الأمة سياسياً

(مقدمات تاريخية وسياسية للعصرين الأموي والعباسي)

- تمهيد ١٧٣
- I - العصر الأموي: ١٧٦
- ١ - الصراع - الفتنة الأموي - الشيعي ١٧٧
- ٢ - الصراع - الفتنة الزبيرية - الشيعي ١٨٢
- ٣ - الصراع - الفتنة الزبيرية - الخوارجي ١٨٣
- ٤ - الصراع - الفتنة الزبيرية - الأموي ١٨٦
- ٥ - الصراع - الفتنة الخوارجي - الأموي ١٩١
- ٦ - المتغيرات على الصعيد السياسي - الديني ١٩٦
- II - العصر العباسي: ١٩٩
- ١ - الصراع الأموي - الأموي ١٩٩
- ٢ - تحالف المعارضة العباسي - الشيعي ٢٠٢
- ٣ - كيف اختتم العصر الأموي ، وابتدأ العصر العباسي؟ ٢٠٤
- ٤ - الصراعات - الفتنة في العصر العباسي: ٢٠٥
- أ - الصراع - الفتنة العباسي - العباسي ٢٠٧
- ب - الصراع - الفتنة بين الخلفاء العباسيين وأعمدة سلطتهم ٢١٠
- ج - الصراع بين السلطة وبين أصحاب الأهواء السياسية،
- والفرقية، والطبقية، والعرقية. ٢١٤

- د - الصراع - الفتنة العباسي - الشيعي:
الإسماعيلية - الفاطمية - القرمطية - الحشاشون ٢٢٢

الفصل الرابع: إفتراق الأمة عقائدياً

(العلاقة الجدلية بين الصراعات السياسية وإفتراق الأمة إلى مذاهب دينية)

- تمهيد ٢٤٣
- I - الفرق المذهبية الإسلامية وإتجاهاتها العقائدية ٢٤٥
- ١ - إتجاهات الفرق في العصر الأموي: ٢٤٥
- ٢ - إتجاهات الفرق في العصر العباسي: ٢٥٠
- أ - الفرق السنية ٢٥٥
- ب - الفرق الشيعية ٢٦٢
- II - الإتجاهات اللاتقليدية في الفكر الإسلامي: ٢٧١
- ١ - إتجاهات المعرفة الجدلية وعلم الكلام ٢٧١
- ٢ - إتجاهات المعرفة الصوفية والتجربة الروحية ٢٧٣
- ٣ - إتجاهات المعرفة البرهانية والفلسفية ٢٧٦
- III - السياسيون والفقهاء في الصراع مع الإتجاهات اللاتقليدية ٢٨٥
- ١ - جبهة الخصوم السياسيين ٢٨٧
- ٢ - جبهة الخارجين على علم الكلام: ٢٩٠
- أ - تيار تكفير الفرق الإسلامية،
وبالبحثين عن الفرقة الناجية من النار ٢٩٠
- ب - التيار الأشعري ٢٩١
- ج - تيار أبي حامد الغزالي ٢٩٣
- IV - من تكفير الفرد إلى تكفير الجماعة ٢٩٥
- ١ - ماذا جاء في النص حول الفرقة الناجية من النار؟ ٢٩٥
- ٢ - أهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية من النار ٣٠٠
- ٣ - الشيعة هم الفرقة الناجية من النار ٣٠٣
- V - ماذا جنى الإسلام والمسلمون من مبدأ الاتهام بالردة؟ ٣٠٧

الفصل الخامس: الغرب المسيحي يجتاز مسافة الردة

- تمهيد ٣١٣
- I - الردة في المسيحية ٣١٥

١ - الردة في الكتاب المقدس.....	٣١٥
٢ - الردة في النص الكنسي.....	٣١٥
II - قراءة تاريخية في تطور الكنيسة واللاهوت.....	٣٢٢
III - قراءة تاريخية في علاقة الكنيسة مع الدولة.....	٣٢٩
IV - الإصلاح الديني يُعهد الطريق أمام الفلسفة.....	٣٣٦
١ - العوامل التي أسست لمرحلة الإصلاح الديني.....	٣٣٦
٢ - الإصلاح الديني خطوة على طريق إنهاء دور الكنيسة السياسي.....	٣٤٢
٣ - أعلام الإصلاح الديني في أوروبا وانقسام المسيحية.....	٣٤٤
٤ - الإصلاح الكاثوليكي والإصرار على محاربة المرتدّين.....	٣٥٣
V - قراءة تاريخية في صراع اللاهوت مع العلم والفلسفة.....	٣٥٥
١ - مصطلحات لا بدّ من تعريفها: أ - اللاهوت. ب - الفلسفة.....	٣٥٥
٢ - العوامل التي مهّدت للفلسفة.....	٣٥٦
أ - الثورة الاقتصادية والتجارية.....	٣٥٧
ب - تطور حركة التعليم وانتشار الثقافة:	
انتشار اللغات القومية - انتشار الجامعات - اختراع الطباعة...٣٥٨	
ج - حركة الترجمة عن الحضارات الأخرى.....	٣٦٠
د - فلسفة ابن رشد	
كانت الرائد المؤثر في تغيير الاتجاهات الفلسفية القروسطية...٥٦١	
٣ - الفلسفة في موقع الهجوم العقلي،	
والكنيسة في موقع الدفاع بسيف مبدأ الردة.....	٣٦٤
VI - الغرب المسيحي يجتاز مسافة الردة فينال العقل الأوروبي استقلاله.....	٣٦٦
١ - العقل الأوروبي يتقدم لحيازة موقع التوازن مع اللاهوت.....	٣٦٦
٢ - العقل الأوروبي يكسب الجولة: تقدم العقل الفلسفي	
والعلمي، وانحسار تأثير مبدأ الردة.....	٣٧١
الفصل السادس: هل يمكن المقاربة بين الردة وعصرنا الحاضر ؟	
- تمهيد.....	٣٧٩
I - الضياع بين السلطة والمعارضة يسبق حركة التبشير بالإحياء الإسلامي..٣٨٢	
١ - المذهبية في خدمة السلطان.....	٢٨٢
٢ - الفرق الصوفية تنازع علماء الدين دورهم.....	٣٨٤
٣ - المذهبية النصوصية في خدمة المعارضة.....	٣٨٧

- II - حركة التبشير بالإحياء الإسلامي : تيارات وتنظيمات. ٣٨٩
- ١ - تيارات التبشير بالإحياء الإسلامي. ٣٨٩
- ٢ - تيارات الصراع بين التغريب والتقليد. ٣٩٧
- ٣ - الانتقال من التبشير إلى التنظيم في حركة الإحياء الإسلامي. ٤٠٠
- أ - حركة الإخوان المسلمين. ٤٠٣
- ب - حزب التحرير الإسلامي. ٤١١
- ج - المذهب الوهابي بين نظامه السياسي. ٤١٣
- د - الشيعة الإثني عشرية تتبنى خط التنظيم الحزبي الإسلامي. ٤١٥
- III - حركة الإحياء الإسلامي وسيادة مبدأ الإتهام بالردة. ٤١٩
- ١ - هل يمكن تأسيس مرجعية إسلامية دينية مركزية مُلزمة؟ ٤٢٠
- أ - لم يكن النص الديني الإسلامي جامعاً مانعاً وأضحاً ٤٢٠
- ب - التباين في المواقف حول الاجتهاد والتأويل والتفسير. ٤٢٣
- ٢ - هل يمكن الاتفاق حول هُوية النظام السياسي للدولة الإسلامية؟ ٤٢٦
- أ - مواقف الفرق السُنية. ٤٢٧
- ب - مواقف الفرق الشيعية. ٤٣١
- ج - وللآخرين مواقف حول الخلافة. ٤٣٦
- ٣ - نماذج من التناقضات في داخل حركة الإحياء الإسلامي. ٤٣٧
- أ - النموذج اللبناني. ٤٣٧
- ب - النموذج المصري. ٤٤٥
- ج - النموذج الجزائري. ٤٤٥
- ٤ - حديث الفرقة الناجية من النار أصل يقف عليه المسلمون
- أنظمة وفرقا وعلماء - طلباً للنجاة الفرقة. ٤٤٨
- أ - هل يلتقي نظامان إسلاميان في رحلة إسلامية سياسية وعقائدية؟ ٤٤٨
- ب - نصّ إجهادي يكفر نصّاً إجهادياً. ٥٤٢
- IV - إشكالية مقارنة النص الإسلامي مع انتشار العولمة/ الأنسنة. ٤٥٦

في نتائج البحث:

- بعد ألف وأربعمائة سنة من التكفير والتكفير المضاد، ما هي النتائج؟ ٤٧٦
- كشف بالمصادر والمراجع ٤٨٣

المقدمة

لماذا البحث عن الردة في الإسلام؟
هل الإسلام وحده - كدين - يتميز بالإيمان بالردة، أم أن الأديان الأخرى لها مبادئها المشابهة؟

وهل توصل أصحاب الأديان الأخرى إلى حل لإشكالية مبدأ الردة؟
وهل من الممكن الإسلامي أن يتوصل الفقهاء المسلمون إلى حل ما؟
يتناول البحث العلمي كل ظاهرة فكرية يفترض أنها تشكل عائقاً أمام تطور المجتمع البشري الذي يدين بها. كما أنه يضع تحت مجهر النقد أي قانون أو عرف سائد أو مذهب فكري أو تقاليد أو عادات اجتماعية يحتل حيزاً في الحقل الثقافي المعرفي لشعب من الشعوب يُشتَمُّ منه أنه يتنافى مع مصلحة هذا الشعب في التطور، أو يعيق عملية التغيير نحو الأصلاح... وعادة ما تكون المسلمات الثقافية - سواء كانت وضعية أو دينية - عاملاً أساسياً في كبح عملية التغيير أو منعها من الانطلاق...

فالردة في الإسلام - كما هي في المسيحية أو اليهودية، ومن قبلهما الوثنية - مظهر ثقافي له من صفات القداسة ما لا يدع أحداً من المتدينين أن يتجرأ على المساس به، وهو يعبرُ أصدق تعبير عن حالة التجميد القسري التي يتعرض لها الفكر البشري، وأداة ضاغطة على العقل لفرض الجمود عليه ضد أن يعمل في سبيل تطوير المعتقد والفكر...

ليس ذلك فرضية نظرية بقدر ما هو واقع ملموس؛ وعلى الرغم من ذلك - وأمانة للبحث العلمي - فقد انطلقنا منه كفرضية نظرية، فعملنا على قراءة أصولها واتجاهاتها من خلال نصوص و وقائع التاريخين السياسي والعقائدي

لشتى الفرق الإسلامية، ومنها الحية حتى الآن بشكل خاص تارة، وبقراءة النصوص التي لها علاقة بهذين الجانبين قراءة نقدية تارة أخرى.

لهذا السبب فقد سلكنا في بحثنا هذا خطوات البحث الاجتماعي؛ وهذا المنهج يستند إلى وصف الحالة في مراحلها التاريخية، وفي جذورها الفكرية. فكان لا بد من أن نقرأ الأصول التاريخية لمبدأ الردة في تسلسل زمني - كما حدثت بالفعل - وفي وصف اتجاهاتها الفكرية العقائدية. إن هذا المنهج جعل بحثنا يُكثّر من الوصف المستند إلى كتب التراث التاريخية، وبما نحسب أن له علاقة وثيقة بمسائل بحثنا الرئيسية.

لم يكن رائدنا في البحث أن نصف ما كان وعفى الله عما كان؛ ولكننا، ولأهمية هذا المبدأ - مبدأ الردة - في صياغة اتجاهاتنا الثقافية وتأثيراتها الحاسمة في تكوين وبناء سلوكنا الاجتماعي والسياسي، والذي ما زال - حتى الآن - يلعب دوراً مؤثراً في تشتت الإسلام، فكرياً وسياسياً، في حياتنا الحاضرة، كان من أهم أهداف البحث أن يعمل على مقارنة الأصول والاتجاهات التاريخية - في السياسة والعقائد - مع النتائج التي ترتبت على مسيرة مجتمعاتنا العربية والإسلامية في الماضي السحيق والقريب على حد سواء، والذي ما زالت تأثيراته مخيمة بشكل جدي ومُعيق لمسيرة التغيير في البنى الثقافية والاجتماعية والسياسية لمجتمعاتنا.

ولأن أول ما تتصور أذهان المتعصبين في المذاهب والفرق، من شتى الأديان السماوية، أن البحث في مسألة الردة عن الدين هو أمر خطير، لأن هذا يعني - حسبما يرون - أنها دعوة إلى الخروج عن الدين بسهولة، وهذا يتناقض بل ويتصادم مع النصوص الدينية في كل من الأديان السماوية الثلاثة. ولهذا قمنا بمقارنة ما جرى في أوروبا منذ عدة قرون - على الصعيد المسيحي - من حيث النص والتطبيق، ووصفنا نتائج الصراع الذي كان حاصلًا هناك حول مبدأ الردة عن المسيحية في محاولة منا إلى الإلحاح على تجربة خاضها دين سماوي، وتوصل منها إلى نتائج صَبَّت في مصلحة المسيحية السياسية والمسيحيين أولاً، وفي مصلحة التطور البشري ثانياً... وتساءلنا: هل يمكن الاستفادة من هذه التجربة على الصعيد الإسلامي؟

وأخيراً فليقل لنا فقهاء شتى الفرق والمذاهب والتيارات والاتجاهات الإسلامية، وهم في وقفة أمام ضمائرهم وليس أمام عدسات وسائل الإعلام وميكروفوناتهما، إذا ما سألناهم هل هم يمارسون الدعوة الفعلية إلى الوحدة مع زملائهم من المذاهب الأخرى كما يصرّحون؟ أم أنهم يلتجئون إلى الدعوة المذهبية الخالصة، وإلى تبيان خلاصهم وحدهم من النار في الآخرة من دون أصحاب الفرق الأخرى، الذين هم - من دون شك - سوف يكونوا وحدهم وقوداً للنار؟

إنه بلا شك، وبلا مواربة، وبلا مجاملة إعلامية علنية، تدل النصوص المنشور بعضها في العلن وبعضها الآخر في السر، أن ما تفعله الكثرة الكثيرة من الفقهاء هو غير ذلك تماماً؛ وهم يمتشقون سيف الردة - سيف تكفير الآخرين المسلول بأيديهم بشكل دائم - أما إذا حاول البعض منهم أن يكون عطوفاً، وإذا ما أراد أن يمارس الرحمة على الآخرين فأنهم يضعونهم في دوائر التفسير أو التضييل أو التبديع... وهي منزلة ليست في الجنة ولكنها ليست في النار أيضاً.

جميل شعار الوحدة الذي يطلقونه في العلن، ولكن الأجل منه أن يُطلق هذا الشعار في السر والاجتماعات الخاصة أيضاً. فممارسة التقية بين فقهاء ومنتسبي المذاهب في العلن ليس هو الحل الوجدوي، وإنما الحل البديل هو أن نمارس شعارات الوحدة في السر، أيضاً، في سبيل أن نغيّر البنى الثقافية لأوسع القطاعات الشعبية المتعددة، التي بدون تغيير مفاهيمها السلفية، ليس للوحدة أية نتائج يمكن أن تكون إيجابية.

أما كيف السبيل للوصول إلى البديل الوجدوي؟

إننا نرى - حسب نتائج البحث - أن ينظر فقهاء المذاهب والفرق الإسلامية إلى مبدأ الردة نظرة موضوعية جادة، لكي تصبّ نتائج هذه الموضوعية في مصلحة وحدة الإسلام والمسلمين - إذا كنا حريصين عليها بالفعل، وهذا ليس بالأمر العسير - ولن تكون هذه الموضوعية جدية وصادقة إلا بالنظر إلى النص الديني بشكل ديناميكي متغير بعيداً عن جمود النظرة السلفية؛ ففي النظرة السلفية لمبدأ الردة من النتائج الأكثر من سلبية على كل مسيرة الدعوة الإسلامية منذ وفاة الرسول حتى الآن.

وعسى أن يكون في البحث الذي قمنا بتحقيقه ما يلفت نظر فقهاء المسلمين -
على شتى انتماءاتهم واتجاهاتهم - ويدفعهم إلى التعالي عن مذهبياتهم وفئوياتهم،
وما يعينهم في الوصول إلى شاطئ الأمان بعد أن قطعت الدعوة الإسلامية بحراً من
الصراعات - الفتنة طوله ألف وأربعماية سنة حتى الآن، وكان فيها مبدأ الردة
المحرك الرئيس.

الفصل الأول

إعتناق الإسلام بين الحوار والإكراه

تمهيد

مرّت الدعوة الإسلامية، في أثناء حياة الرسول، بمرحلتين مكانيتين، وأسلوبين متميّزين/متعارضين:

- المرحلة المكيّة، ومدتها ثلاث عشر سنة، وكان أسلوبها الواضح: الدعوة بالحوار والموعظة الحسنة .

- المرحلة المدينية، ومدتها عشر سنوات، وكان أسلوبها الدعوة بالجهاد والقتال واستخدام القوة .

بين الحوار والإكراه، جاءت آيات قرآنية وأحاديث نبويّة، تبدو في ظواهرها متناقضة ومتباينة، وكأنه لا لحمية بينها؛ لهذا السبب استخدمها كل عالم/فقيه مسلم وكأنها جزر لا ترابط بينها. فالذي يصل منهم إلى إحدى هذه الجزر يحسب أنها منفصلة عن غيرها، فيعمل على استنباط الأحكام منها دون ما رابط مع غيرها من الجزر الأخرى في بحر النص الإسلامي الواسع؛ كيف لا، وبشكل خاص عندما يُسبَغ على النص قدسية، فلا يمكنه بعدها أن يجادل فيه.

بدورنا، نحسب أن كثيراً من النصوص، التي تُسمّى بالمتشابهات، قد فقدت، بل صاع عنها الربط المكاني والزماني وخصوصية الحدث، مما جعل أكثر فقهاء المسلمين يعتقدون أنها قوانين ثابتة تصلح لكل زمان ومكان وخاصية. ويلتبس الأمر أكثر لأن الظرف التاريخي والجغرافي والاجتماعي كان غير واضح أو غير ثابت أو غير موثوق. ويستدل على وجود هذه

الإشكالية من كثرة الروايات وتعدد مصادرها وتعارضها. فالغموض ، بشكل عام، هو السائد في علاقة النص بالحدث. ويتضح الظن بالالتباس أكثر، إذا عُرف أن عصر تدوين الأحداث والسنة النبوية قد ابتدأ بعد أكثر من مئة وخمسين سنة من حصولها.

فإذا لم يكن النص المحكم بغير حاجة لمعرفة الظرف لكي يصبح تفسيره أقرب إلى الصحة، فإن النص المتشابه هو بحاجة ماسة إلى معرفة دقيقة بهذا الظرف.

وعلى الرغم من أن فقهاء المسلمين قد واجهوا حل هذه المشكلة على قاعدة النسخ والمنسوخ، فإنهم وقعوا في كثير من الزلل في أكثر من وجه؛ ومن ذلك: أنهم لم يتفقوا تماماً على تحديد هذه القاعدة، بل إنهم تناقضوا فيها أيما تناقض من جهة، وأنهم قد ثبتوا المتغير المرحلي على حساب تحريك الثابت القيمي من جهة أخرى.

كان هذا التغليب يحصل، كما نحسب، بسبب من تسابق الفقهاء على احتلال مواقع العصبوية الشديدة، والمغلقة أحياناً، إلى تحميل الدعوة الإسلامية الكثير والكثير من المثاليات؛ ويصبح هذا الاتجاه أكثر وضوحاً عندما يأخذ التسابق بين الفرق الإسلامية أقصى مدياته لاحتلال مكانة الفرقة الناجية من النار.

إستناداً إلى هذه الملاحظات، وقع الفقه الإسلامي في مطبات كثيرة حول تحديد مبدأ الردة، تعريفاً وأصولاً وأحكاماً؛ كان ذلك يتم على الرغم من تسابق الفرق الإسلامية إلى إشهار سيف الردة بشدة وحدّة على رقاب المتسبين إلى صفوف الإسلام.

لهذا حاولنا أن نسعى إلى تفسير تاريخي وسبي فكري لهذه المسألة. وفي هذه المحاولة نحسب أننا بدأنا طريقاً شائكاً، ولكنه في الوقت ذاته، وبواسطته، نحاول أن نردم بعضاً من الثغرات التي لم يعطها فقهاء الدين اهتماماً في سبيل الوصول إلى أقرب ما يمكن من السلامة في استنباط الأحكام حول مبدأ الردة في الإسلام.

I - الحوار ثابت قيمى فى الدعوة إلى الإسلام

(جاء فى الصحيح: "عجب ربك من قوم يُقادون إلى الجنة فى السلاسل"، يعنى الأسارى الذين يُقدّم بهم بلاد الإسلام فى الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يُسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة^(١). أو أنهم يضمرون الكفر، أو النفاق، خوفاً على رقابهم من القطع؛ أو يدفعون الجزية وهم صاغرون.

قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة ٢: ٢٥٦). وهى من الآيات التى أنزلت فى المدينة؛ وقد تأوّل علماء المسلمين فى تفسيرها، وتباينوا حول تحديد الظرف الذى أنزلت فيه والجهة المقصودة منها.

(جاء عند الطبري (ت سنة ٣١٠هـ* ٩٢٣م) فى تفسير الآية: "كانت المرأة فى الجاهلية تنذر إن ولدت ولداً أن تجعله فى اليهود، تلتمس بذلك طول بقائه. قال: فلما جاء الإسلام وفيهم منهم. فلما أحليت النضير [السنة الرابعة للهجرة] قالوا يا رسول الله أبنائنا وإخواننا فيهم. قال: فسكت عنهم رسول الله). فأنزل الله تعالى ذكره لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي. قال: فقال رسول الله: (قد خيّر أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فهم منهم، قال فأجلوهم معهم"^(٢)).

(وفى رواية أخرى نقلها الطبري: "قال نزلت فى رجل من الأنصار يقال له أبو الحصين، كان له إبنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت. فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا، أتاهم إبنائهم أبي الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا فرجعا إلى الشام معهم. فأتى أبوهما إلى رسول الله، فقال إن إبنى تنصرا وخرجا فاطلبهما. فقال لا إكراه فى الدين، ولم يؤمر يومئذ

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير (ج ١): دار الأنلس: بيروت: ١٩٨٤: ط ٥: ص ٥٥٢.

(٢) الطبري: جامع البيان فى تفسير القرآن (٣م): دار الجليل: بيروت: د. ت. د. ط: ص ١٠.

بقتال أهل الكتاب، وقال أبعدهما الله، هما أول من كفر [...] ثم إنه نسخ لا إكراه في الدين، فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة^(١).

(وفي رواية أخرى قال: "كان ناس من الأنصار مُسترضعين في بني قريظة [أو بني النضير، وكلاهما جماعتان من اليهود] فأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت لا إكراه في الدين"^(٢)).

(وقال آخرون: "هذه الآية منسوخة، وإنما نزلت قبل أن يُفرض القتال. ذكر من قال ذلك [...] كان رسول الله بمكة عشر سنين لا يُكره أحداً في الدين؛ فأبى المشركون إلا أن يقاتلوهم فاستأذن الله في قتالهم، فأذن له"^(٣)).

(وجاء عند ابن كثير (ت سنة ٧٧٤هـ* ١٣٧٣م) شواهد أخرى على أن آية ﴿لا إكراه في الدين﴾ قد نُسخت بآية ﴿أذن للذين يقتلون بأنهم ظلموا﴾^(٤).

(ويرجح الطبري أن الصواب في قول من قال: "نزلت هذه الآية في خاص من الناس؛ وقال عنى بقوله تعالى ذكره ﴿لا إكراه في الدين﴾ أهل الكتائب والمجوس، وكل من جاء إقراره على دينه المخالف دين الحق وأخذ الجزية منه، وأنكروا أن يكون شيء منها منسوخاً"^(٥).

كانت آية (الإذن بالقتال) قد نزلت في السنة الأولى للهجرة؛ أما أمر إجلاء يهود بني النضير فقد حصل في سنة أربعة للهجرة، وإجلاء بني قريظة في سنة خمس للهجرة^(٦).

أما وإن آية ﴿لا إكراه في الدين﴾، كما جاء في ترجيح الطبري، قد نزلت في الذين يدفعون الجزية، فإننا نرى أن المعاهدة التي وافق عليها الرسول يهود المدينة (بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة)، لم تأت إطلاقاً على ذكر الجزية؛ لكن ما جاء ذكره، أنه "على سكان المدينة، من مسلمين وغير مسلمين، أن يتعاونوا مادياً وأدبياً وعسكرياً، وعليهم أن يردوا متساندين أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم"^(٧). ولهذا السبب نرى، على العكس مما يراه الطبري، أن الآية ﴿لا إكراه في الدين﴾ لم تنزل في خاص من الناس الذين هم من أهل الكتائب.

(١) م . ن : ص ص ١٠ - ١١ .

(٢) م . ن : ص ١١ .

(٣) م . ن : ص ١١ .

(٤) ابن كثير : تفسير ابن كثير (ج ١) : م . س : ص ٥٥٢ .

(٥) الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن (٣م) : م . س : ص ١٢ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية (٣م) : دارومكتبة الهلال : بيروت : ١٩٩٨ : ط ١ : ص ص ١٦٥ و ١٩٨ .

(٧) شلي، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١) : مكتبة النهضة المصرية : القاهرة : ١٩٨٩ : ط ١٣ : ص ٢٨٦ .

وهنا، نرى من المفيد أن نقوم باستعراض لما جاء من تفسيرات عند عدد من العلماء المسلمين، مراعين في ذلك مختلف العصور، والاختلاف الحاصل بين الفرق الإسلامية :

يقول أبو القاسم الخوارزمي (٤٦٧ - ٥٣٨هـ/١٠٧٥ - ١١٤٤م) : "لا إكراه في الدين، أي لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. أي لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار" (١).

أما محي الدين بن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨هـ/١١٦٥ - ١٢٤٠م) ، فيقول في تفسير الآية ما يلي: "لا إكراه في الدين، لأن الدين بالحقيقة هو الهدى المستفاد من النور القلبي اللازم للفترة الإنسانية، المستلزم للإيمان اليقيني [...] والإسلام الذي هو ظاهر الدين مبني عليه، وهو أمر لا تدخل للإكراه فيه، والدليل على أن باطن الدين وحقيقة الإيمان، كما أن ظاهره وصورته الإسلام ما بعده" (٢).

وابن كثير (ت سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) يقول في تفسير الآية ما يلي: "أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلية دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة؛ ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً" (٣).

وجاء في تفسير الجلالين ما يأتي: "﴿لا إكراه في الدين﴾ على الدخول فيه ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ أظهر بالآيات المبينات أن الإيمان رشد والكفر غي، نزلت فيمن كان له من الأنصار أولاد أراد أن يكرههم على الإسلام" (٤).

وجاء عند محمد جواد مغنية (أواسط القرن ٢٠م) : لا إكراه في الدين أنه: "لو نظرنا إلى هذه الكلمة مستقلة عن السياق لفهمنا منها أن الله سبحانه لم يُشرع حكماً فيه شائبة الإكراه، وإن ما يُكره عليه الإنسان من أقوال أو أفعال لا يترتب عليه أي شيء في نظر الشرع لا في الدنيا ولا في الآخرة [لكن المراد هنا] أن الإسلام لا يُلزم أحداً باعتناقه قسراً وإجباراً،

(١) الخوارزمي، أبو القاسم: الكشف (١م) : الدار العالمية: بيروت: د. د. ط: ص ٣٨٧.

(٢) بن عربي، محي الدين: تفسير القرآن الكريم (١م) : دار الأندلس: بيروت: ١٩٨١: ط ٣: ص ١٤٤.

(٣) ابن كثير: تفسير ابن كثير (ج ١) : م. س. : ص ٥٥١.

(٤) تفسير الجلالين : الوحدة الإسلامية : القلم : ١٣٧٣هـ* ١٩٥٤م: ص ٥٧.

وإنما يلزم الجاحد بالحجة والبرهان فقط" (١). لهذا السبب، يتابع مغنيّة: "إذا كان المراد [من الآية] الإنشاء والنهي عن الإكراه في الدين يكون المعنى: أيها المسلمون لا تُكروهوا أحداً على قول لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بعد أن قامت الدلائل والبيّنات على التوحيد والنبوة". ثمّ يتساءل مغنيّة: إن هذا لا يجتمع مع قول الرسول: "أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم". ولأن الإسلام - يتابع مغنيّة - أجاز القتال لأسباب منها الدفاع عن النفس، ومنها البغي، ومنها إظهار الإسلام باللسان من المعاندين له وللمسلمين، لمصلحة تعود على الجميع، وهذه المصلحة يقدرها المعصوم أو نائبه، ولا يجوز لأيّ مسلم كائناً من كان أن يقاتل من أجل النطق بكلمة الإسلام. وفيما عدا ذلك لا يجوز لأحد أن يُكره أحداً من أجل كلمة لا إله إلا الله (٢).

يقول محمد حسين فضل الله: "ليس هناك إكراه في الدين، لأن عناصر الإيمان واضحة بينة الرشد، كما أن عناصر الكفر ظاهرة الغي... فقد شاء الله للناس أن يحصلوا على الإيمان باختيارهم، بعد أن أعدّ لهم وسائله، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيّ عن بينة... ولم يشأ أن يخلق الإيمان فيهم خلقاً، تماماً، كما يخلق أجسادهم" (٣).

وفي ظننا، أن الخطأ الذي وقع فيه خالد بن الوليد عندما بعثه رسول الله، بعد فتح مكّة، إلى بني جذيمة داعياً للإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً فقتل منهم من قتل. فقام الرسول، حينما بلغه الخبر: "فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى إنه ليرى مما تحت منكبيه، يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات" (٤).

بعد أن استعرضنا جملة من نماذج التأويلات والتفسيرات الخاصة بآية ﴿لا إكراه في الدين﴾، ووجدنا ما وجدناه من اختلافات متباعدة بينها، ومن ثغرات تشمل عدم الدقة في الحوادث التاريخية التي استندنا إليها؛ نرى أن هذا نموذج واحد من نماذج الاختلافات الكثيرة التي وصلت أحياناً إلى حدّ التناقضات الحادة بين مختلف العلماء المسلمين وفرقهم.

وحيث أن للتفسير مذاهب شتى ومختلفة، ويجمع هذه المذاهب منهج الفصل بين الآيات، بحيث تحسب الآية الواحدة موضوعاً مستقلاً بذاته؛ نرى - بدورنا - أن نقوم بمحاولة قد تكون

(١) مغنيّة، محمد جواد: التفسير الكاشف (١م): دارالعلم للملّيين: بيروت: ١٩٨١: ط٣: ص ٣٩٦.

(٢) م. ن: ص ٣٩٧.

(٣) فضل الله، محمد حسين: الإسلام ومنطق القوة: الدار الإسلامية: بيروت: ١٩٨١: ط٢: ص ١٩٨.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية (٤م): م. س: ص ٦٥ - ٧٢.

مفيدة، وهي الجمع بين الآيات المتناثرة بين شتى سور القرآن الكريم. وسوف نحاول أن نربط بينها لعلنا - حسب هذا المنهج - نستطيع أن نصل إلى أقرب ما يمكن من الحقيقة والموضوعية. فلنبدا بهذه المحاولة، أي تجميع الآيات التي لها علاقة بأسلوب الحوار في الدعوة الإسلامية: - ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة ٢: ٢٥٦. وهي مدنية). - ﴿ادْعَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٦: ١٢٥. وهي مكية).

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ (الكهف ١٨: ٢٩. وهي مكية).

- ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا تُفْسِدْهُمْ بِمَعْلُومٍ﴾ (الروم ٣٠: ٤٠. وهي مكية).

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ٥: ١٠٥. وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٧٧. وهي مدنية).

- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ١٠: ٩٩. وهي مكية).

- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية ٨٨: ٢١ - ٢٢. وهي مكية).

- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام ٦: ١٠٧. وهي مكية).

- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا، إِنْ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ (الشورى ٤٢: ٤٨. وهي مكية).

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد ١٣: ٤٠. وهي مكية).

تحاول مختلف الاتجاهات في التفسير والتأويل أن تعطي هذه الآيات صفة مرحلية، أي أنها كانت منزلة لمرحلة محدودة؛ أو أنها كانت تمهيد للأمر بالجهاد. ولهذا بعد أن نزل الأمر بالقتال، يقول المفسرون، نسخ ما قبله من آيات تدعو إلى نبذ الإكراه، ولهذا عد بعضهم أن الحوار مسألة مرحلية مهّدت للمرحلة المحكمة وهي القتال. يعبر محمد حسين فضل الله عن ذلك قائلا: "لما كان الإسلام ينظر إلى الفكرة كأساس للتماسك والتوازن الاجتماعي، الذي يمثل الوحدة المرادفة للقوة... ولذا فإن المسؤولية الإسلامية تفرض على المسلمين، أفراداً

وجماعات، أن يعملوا على تقوية الفكرة في ذاتها، وبالتوفر على جانب العمق فيها بالإضافة إلى الامتداد والشمول، لتحافظ على نموها الطبيعي المزدهر، ويتحركوا - في هذا الاتجاه - نحو الصراع الفكري في إطار الفكر السليم فيلتزم بنتائجه أياً كانت؛ أم تمثلت بالعنف، في الكلمة أو في غيرها، لمن لا يريد الحوار بل يصرّ على التخريب أو التهديم . . " (١) .

لم تكن كل الآيات التي تدعو إلى الحوار مكّية، وإنما بعض آيات الحوار أنزلت في المدينة - كما مرّ معنا في أثناء تجميع الآيات التي تدعو للحوار - وهذه حقيقة يمكننا الاستناد إليها في مناقشة إشكالية العلاقة بين الحوار والإكراه في النص القرآني .

إن آيات الحوار أنزلت في المرحلة المكيّة حسبما يجمع علماء المسلمين، فجاءت آيات القتال التي أنزلت في المدينة لتنسخ الآيات المكيّة التي تدعو إلى الحوار. وحول هذه المسألة لا بدّ من الإشارة إلى أن آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ - مثلاً - هي آية مدنية، وقد أنزلت بعد نزول الآيات التي تأذن/تأمر بالقتال. فلماذا، إذا - حسب قواعد التفسير المتفق حولها - لا تكون هذه الآية قد نسخت الإذن بالقتال؟ أو ليس من الجائز الموضوعي أن يكون استخدام أسلوب القتال بالدعوة للإسلام هو المسألة المرحلية/الثانوية اقتضته ظروف المرحلة، بينما القاعدة الثابتة هي عدم الإكراه؟

أما تأويل المعنى - كما يراه فضل الله -: "فقد شاء الله للناس أن يحصلوا على الإيمان باختيارهم... ولم يشأ أن يخلق الإيمان فيهم خلقاً، تماماً، كما يخلق أجسادهم". فكأنني به يريد أن يغلف الإكراه برباط من حرير. أو لم يقل الله تعالى: ﴿...وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ...﴾؟

أما نحن فنحسب أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لآمن من في الأرض جميعاً، ولكنه لم يشأ ذلك، ليس لغيب في إرادته/مشيئته - معاذ الله - وإنما لأن مشيئته مطلقة لا رادّ لها. لكنه خلق هذه المشيئة في نفوس البشر، ليست مشيئة الإيمان فحسب - كما يرد عند فضل الله - وإنما خلق مشيئة الكفر أيضاً: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾. ولهذا السبب نهى الله النبي عن إكراه الناس لكي يكونوا مؤمنين ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟﴾

إننا نحسب أنه لو كان الكفر يضرّ الله، لما كان قد خلق للناس مشيئة الكفر.

ولكان قد فرض، وهو قادر على ذلك - منذ أن خلق الناس على الأرض - إرادته بأن يكونوا جميعاً مؤمنين. بل ولكان يسرّ لكل الأديان السماوية أن تصل إلى العالم الجديد/

(١) فضل الله، محمد حسين: الإسلام ومنطق القوة: م. س: ص ١٢٠

القديم، كالقارة الأمريكية مثلاً، التي اكتشفت منذ خمسمائة عام تقريباً؛ وإنه لا يزال، حتى الآن، يوجد في مجاهلها أقوام لم تصلهم أية دعوة سماوية.

لقد خلق الله مشيئة الإيمان والكفر في نفس الإنسان، وأعطاهما فرصاً متساوية. فهل هاتان الصفتان: الإيمان والكفر، بما يتعلّق بمكوناتهما العقلية، هما مطلقتان؟

لا شك أن تعريف كل منهما يأتي بشكل نسبي، يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن دين إلى آخر، ومن فرقة إلى أخرى حتى في داخل الدين الواحد. وبشكل أولي نتساءل: هل تعريف كل منهما يُعدُّ واحداً عند مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية؟

إننا نرى أن مسألة الإكراه في الدين، رفضه أو القبول به، مسألة عامة، وقيمة مطلقة، لا مجال للتخصيص فيها كما سبق أن استدللنا عليها من خلال مناقشتنا لعدد من التفسيرات والتأويلات.

ولعلنا نكون صائبين إذا قلنا أن كل حكم عام ومطلق يُخضع القضايا الجزئية، المستندة إلى وقائع وظروف وبيئات خاصة، إلى أحكامه وليس العكس.

فمسألة نبد الإكراه، كمفهوم مطلق، تُدّ حقيقة لا يناقش فيها إثنان، سواء كان وضع الذي يناقش وضعياً أم دينياً. ولهذا فإذا اضطر المشرع إلى ضرورة فرض الإكراه في حالات خاصة، فلن تصبح الضرورة الخاصة قاعدة ناسخة والمفهوم/القيمة العامة شاذاً منسوخاً.

II - مرحلة الدعوة إلى الإسلام بالقوة

وحيث أن مرحلة الدعوة إلى الإسلام بالقوة قد ابتدأت مع البدايات الأولى لهجرة الرسول إلى المدينة (يثرب)، نرى أنه من المفيد أن نعرض، تاريخياً، وبشكل مختف، لأهم الخطوات التي حصل فيها قتال بين المسلمين من جهة، وبين كل من قريش والمشرّكين من جهة أخرى.

منذ بدء الدعوة أقام رسول الله في مكة على أمر الله صابراً محتسباً، مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء^(١). داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجادلهم بالتي هي أحسن (النحل ١٦: ١٢٥). وكان يصبر على أذاهم. وتتابع عليه المصائب عندما توفيت زوجته خديجة بنت خويلد، ثم عمه أبو طالب. ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تفعله في حياة عمه. فخرج الرسول إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف؛ لكنهم لم يفعلوا بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبّونه ويصيحون به^(٢).

رجع الرسول إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به. وكان يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ولكنهم كانوا يابون عليه، مثل بني كندة وبنّي كلب وبنّي حنيفة وبنّي عامر^(٣). ولكنه لقي، أخيراً، نقلاً من الأنصار من (يثرب/ المدينة) استجابوا لدعوته في العقبة وبايعوه على بيعة النساء^(٤).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (م ٢) : م . م . م : ص ١٠.

(٢) م . م . م : ص ١٦ - ٢٠.

(٣) م . م . م : ص ٢٢ - ٢٦.

(٤) م . م . م : ص ٢٩.

كثّر عدد الأنصار في البيعة الثانية، وتعاهدوا مع الرسول على مبايعته قائلين: "لنمنعك مما نمنع منه أزرنا...". وقال الرسول: "أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسلم من سلمتم^(١)".

أثارت هذه البيعة حفيظة قريش، فخرجوا في طلب الأنصار^(٢).

لم يؤذن للرسول بالحرب قبل بيعة العقبة، ولم تحلّ له الدماء؛ إنما كان يُؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، وكانت قريش قد اضطهدت من أتبعه من المهاجرين حتى فتنّوهم عن دينهم ونفّوهم من بلادهم؛ فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب فراراً منهم؛ ومنهم من بأرض الحبشة، ومنهم من في المدينة^(٣).

هاجر العديد من المسلمين إلى المدينة، وأقام الرسول في مكة بعد أصحابه من المهاجرين، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا حبس أو قُتِل. وخافت قريش من أن أصحاب الرسول المهاجرين قد أصابوا منعة، فحذروا خروج الرسول إليهم، وحاولوا منعه من ذلك؛ لكنه استطاع الخروج إليها^(٤).

قدم رسول الله المدينة يوم الإثنين لثني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وكان يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة؛ وكانت هجرته بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة^(٥).

ألّت بالمسلمين، في مطلع هجرتهم إلى المدينة، متاعب اقتصادية جمّة متعددة الأسباب منها: أن الأنصار فتحوا بيوتهم للمهاجرين، الذين كانوا يعيشون في حياة كفاف غالباً، فالتجارة في أيدي اليهود، وأكثر الأراضي الزراعية والبساتين في أيديهم أيضاً. دفعت تلك الأسباب بالمهاجرين المكّيّين، المشهورين في مجال التجارة والمال، إلى الاعتماد على أنفسهم فدخلوا سوق التجارة بخبرة أهل مكة وحماسهم، فنجحوا بذلك أيما نجاح^(٦).

يقول طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ* ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م): "أما في أول عهد الإسلام بالظهور فكان النبي وأصحابه مستضعفين، فقد كان هذا الجهاد [بين النبي وقريش] جديلاً

(١) م . ن : ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) م . ن : ص ص ٤٢ - ٤٣ .

(٣) م . ن : ص ص ٥٥ - ٥٦ .

(٤) م . ن : ص ص ٦٦ - ٦٧ .

(٥) م . ن : ص ١٦٧ .

(٦) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١) : م . ن : ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

خالصاً، وكان النبي يكاد يقوم وحده بإزاء الكثرة المطلقة من قومه، يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات، فيبلغ منهم و يفحمهم ويضطرهم إلى الإعياء. وهو كلما بلغ من ذلك حظاً إنتصر له من قومه فريق حتى تكوّن له حزب ذو خطر، ولكنه لم يكن حزباً سياسياً". أما بعد هجرته إلى المدينة - يتابع طه حسين - فكانت هذه الهجرة "قد وضعت مسألة الخلاف بين النبي وقريش وضعاً جديداً، جعلت الخلاف سياسياً يعتمد في حله على القوة والسيف بعد أن كان دينياً يعتمد على الجدال والنضال بالحجة ليس غير" (١).

ما هو السبب الذي جعل النضال النبوي يعتمد على القوة والسيف بعد هجرة النبي محمد إلى المدينة ؟ يجيب طه حسين على ذلك، بما مضمونه: إن الهجرة إلى المدينة جعل النزاع بين النبي وقريش يرتفع من مستوى النزاع الديني إلى مستوى النزاع السياسي والاقتصادي والديني، أي على السياسة...، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل قريش إليها بتجاريتها في الشتاء والصيف (٢).

وإذا أضفنا عامل المتاعب الاقتصادية التي عانى منها المهاجرون، الذين شكّلوا عبئاً اقتصادياً على الأنصار أيضاً؛ ولأن قبائل الجزيرة العربية كانت تستند إلى أسلوب الغزو كمصدر أساسي في كسب معيشتها، تتضح ساعتئذ، من خلال هذه الأسباب مجتمعة، أهمية استخدام أسلوب القوة والقتال الذي أخذ الرسول يُعِدُّ نفسه لها، ويُعِدُّ المسلمين للقيام بأعبائها.

بعد قدوم الرسول إلى المدينة، أقام فيها بقية شهر ربيع الأول وربع الآخر وجماديين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالاً وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ثم خرج غازياً في صفر بعد اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة (٣).

(١) حسين، طه: في الأدب الجاهلي: دار المعارف: مصر: ١٩٦٩: ط ١٠: ص ١١٧.

(٢) م . ن : ص ١١٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية (٢م) : م . س : ص ١٦٧ . قضى عمر بن الخطاب على خلاف بين المسلمين، وذلك أنه حسب السنة التي هاجر فيها الرسول كلها سنة أولى (أي عشرة أشهر تمتد من ربيع الأول حتى ذي الحجة) . وحسب أن مطلع المحرم من العام الثاني هو مطلع عام ثان، مفترضاً أن الهجرة كانت قد حدثت في مطلع العام السابق. وساد هذا الاتجاه بعد ذلك، وأصبحنا نحتفل بالهجرة في مطلع المحرم بدلاً عن ربيع الأول. [راجع : أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (١م): م. س: ص ٢٨٢] . - يقول السيوطي إن هذا التاريخ قد تم بمشورة من علي بن أبي طالب. [راجع: السيوطي: تاريخ الخلفاء: دار صادر: بيروت : ١٩٩٧ : ط ١: ص ١٦٠ .]

كان قرار الرسول بالغزو: أنه لما عنت قريش، أذن الله لرسوله في القتال، فكانت أول آية نزلت بالإذن له بالحرب، بعد مرور سنة على مقدمه إلى المدينة: ﴿وَإِذْ أَوْفَىٰ لِلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا...﴾ (الحج ٢٢ : ٤٠)؛ أي أنه أحل لهم القتال لأنهم ظلموا^(١).

غزوات وسرايا الرسول في خلال السنة الثانية للهجرة *

- غزوة ودّان : كانت أول غزواته. وادعته فيها قبائل بني صخر. ثم رجع إلى المدينة، فأقام فيها بقية صفر و صدرًا من ربيع الأول^(٢).

- سرية عبيدة بن الحارث: سار إلى ماء الحجاز، فلقي جمعًا عظيمًا من قريش، لكنه لم يحصل^(٣) بينهم أي قتال.

- سرية حمزة بن عبد المطلب : سار إلى سيف البحر، فلقي أبا جهل، ولم يكن بينهم قتال^(٤).

- غزوة بواط: لم يلق فيها حربًا ورجع إلى المدينة؛ فلبث فيها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادي الأول^(٥).

- غزوة العشير: نزل فيها جمادي الأول وليال من جمادي الآخرة. وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني حمزة. ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حربًا^(٦).

- سرية سعد بن أبي وقاص: بلغ فيها الخرار من أرض الحجاز. ولم يلق حربًا^(٧).

- غزوة سفوان (غزوة بدر الأولى): لم يقم رسول الله في المدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليال قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كرز بن جابر الفهري، وهو من قريش، على

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (٢م) : م . س : ص ص ٥٥ - ٥٦ .

* - الغزوة هي التي يشارك فيها الرسول؛ أما السرية فهي بعثة له دون أن يشارك فيها .

(٢) ابن هشام: مختصر السيرة النبوية: دار النفائس: بيروت: ١٩٧٩: ط٢: ص ١١٢.

(٣) م . ن : ص ١١٢ .

(٤) م . ن : ص ١١٢ .

(٥) م . ن : ص ١١٣ .

(٦) م . ن : ص ١١٣ .

(٧) م . ن : ص ١١٣ .

إبل و مواشي المدينة؛ فخرج رسول الله في طلبه، فلم يدركه. فرجع إلى المدينة فأقام فيها بقية جمادي الآخرة ورجباً وشعبان^(١).

- سرية عبدا لله بن جحش: وفيها اعترض المسلمون سبيل تجارة لقريش، وقتلوا أحدهم وأسروا اثنين، وكان ذلك خلافاً لأمر الرسول، ونقضاً لمعاهدة تحريم القتال في الأشهر الحرم (رجب - ذوالقعدة - ذوالحجة - ومحرم) بين قبائل الجزيرة العربية؛ فنزلت في أعقاب هذه الحادثة، وبعد الخلاف الذي حصل حولها بين قريش والمسلمين من جهة، وبين المسلمين أنفسهم من جهة أخرى، آية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ...﴾ (البقرة ٢: ٢١٧). وكانت هذه أول معركة حصلت بين المسلمين وقريش^(٢).

- غزوة بدر الكبرى: سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجارتهم. فندب المسلمين إليهم، وقال: هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. ولما خرج المسلمون حصلت معركة بدر الكبرى بينهم وبين قريش؛ انتصر المسلمون فيها يوم الجمعة صبيحة عشرة من رمضان. وبعد أن جمع المسلمون الغنائم، اختلفوا فيها (بين الذين كانوا يقاتلون وبين الذين كانوا يحرسون رسول الله). لكن الرسول قسم النفل، الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء. فكان جميع من شهد بدرًا من المسلمين، من المهاجرين والأنصار، من شهدها منهم ومن ضرب له بسهم وأجر ثلثماية رجلاً وأربعة عشر رجلاً^(٣).

- غزوة بني سليم: بعد قدوم الرسول من بدر الكبرى، أقام بالمدينة سبع ليالٍ ثم غزا بنفسه بني سليم. فأقام في الكدّر (ماء من مياه بني سليم) ثلاث ليالٍ، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حرباً. فأقام فيها بقية شوال وذو القعدة^(٤).

- غزوة السويق: ابتدأ الحرب فيها أبو سفيان ثاراً لبدر الكبرى، فحرق نخيلاً للأنصار، وقتل اثنين منهم. فخرج رسول الله في طلبه فلم يدركه. لكن الرسول وافق المسلمين على طلب منهم للقيام بغزوة أخرى^(٥).

(١) م . ن : ص ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) م . ن : ص ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) م . ن : ص ص ١١٦ - ١٣١ .

(٤) م . ن : ص ١٣١ .

غزوات الرسول في خلال السنة الثالثة للهجرة

- غزوة ذي أَمَرَ: بعد غزوة السويق، أقام الرسول في المدينة بقية ذي الحجة، ثم غزا نجداً. فأقام فيها صفرًا كله، ولم يلق حرباً. فرجع إلى المدينة، وأقام فيها شهر ربيع الأول كله^(١).

- غزوة الفرع - بجران: أقام فيها ربيع الآخر وجمادي الأول، ولم يلق حرباً.

- سرية زيد بن حارثة إلى القردة: خاف قريش طريقهم، التي يسلكون إلى الشام، بعد أن كان من وقعة بدر ما كان، فسلخوا طريق العراق؛ فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان ومعه فضة كثيرة؛ فبعث رسول الله زيد بن حارثة، فأصاب تلك العير وما فيها^(٢).

- غزوة أحد: ردًا على غزوة بدر، اجتمعت قريش مع من أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة؛ وأعدت جيشاً لغزو المسلمين. فكانت معركة أحد التي سقط فيها سبعون شهيداً للمسلمين، و إثنان وعشرون قتيلاً للمشركين. وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال^(٣).

- غزوة حمراء الأسد: فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال (أي اليوم التالي لمعركة أحد)، أذن رسول الله في الناس بطلب العدو. وكان يقصد من خروجه إرهاب العدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وإن الذي أصاب المسلمين لم يوهنهم عن عدوهم. ولما بلغ أبا سفيان ذلك، وهو قد نوى مع قريش العودة لاستئصال شأفة المسلمين بعد أن أنهكوا في وقعة أحد. يقول ابن هشام: إن هذه الأخبار قد نثت أبا سفيان عن القيام بما نوى^(٤).

- يوم الرجيع: قدم على رسول الله، بعد أحد، رهط من قبائل الهون، وطلبوا منه أن يبعث معهم نفرًا من أصحابه لتثقيفهم في الدين، وتعليمهم شرائع الإسلام. بعث الرسول معهم ثلاثة من أصحابه، لكن الرهط غدر بالثلاثة وقتلهم^(٥).

(٥) م . ن : ص ١٣٢ .

(١) م . ن : ص ١٣٢ .

(٢) م . ن : ص ١٣٤ .

(٣) م . ن : ص ص ١٣٦ - ١٤٩ .

(٤) م ، ن : ص ص ١٤٩ - ١٥٢ .

(٥) م . ن : ص ص ١٤٢ - ١٥٤ .

- حديث بئر معونة: بعث رسول الله أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين إلى أهل نجد يدعوهم للإسلام. فلما نزلوا في بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، خرج جماعة من بني سليم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ^(١).

- غزوة بني النضير: طلب رسول الله من بني النضير إعانتة في دفع دية قتيلين من بني عامر، كان قد قتلها أحد أصحاب الرسول؛ وسبب دفع الدية هو أن رسول الله كان قد عقد للرجلين القتيلين جواراً، أما القاتل فكان يجهل ذلك.

أرادت اليهود الغدر برسول الله وقتله. لكنه، بعد أن كشف نواياهم، أمر الرسول بالتهير لحربهم والسير إليهم. ولأنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه المسلمين، طلبوا من الرسول أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت إبلهم من أموالهم إلا السلاح، ففعل الرسول ذلك. فخلّ بنو النضير الأموال (النخيل) لرسول الله، فقسّمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار ^(٢).

غزوات الرسول في خلال السنة الرابعة الهجرية :

- غزوة ذات الرقاع: بعد غزوة بني النضير، أقام الرسول في المدينة شهر ربيع الآخر وبعض جمادي من السنة الرابعة. ثم غزا نجداً حتى نزل نحلاً (موضع في نجد من أرض غطفان)، وهي غزوة ذات الرقاع. فلقي فيها جمعاً عظيماً من غطفان، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب ^(٣).

- غزوة بدر الآخرة (شعبان): لم يحصل قتال ^(٤).

غزوات الرسول في خلال السنة الخامسة الهجرية :

- غزوة دومة الجندل (ربيع الأول) : لم يحصل قتال ^(٥).

- غزوة الخندق (شوال) ألب نفر من اليهود (بنو النضير وبنو نائل) الأحزاب على الرسول ، ثم مع قريش ثم غطفان. فلما سمع الرسول بذلك، وما أجمعوا عليه، ضرب خندقاً

(١) م . ن : ص ١٥٧ .

(٢) م . ن : ص ١٦٠ .

(٣) م . ن : ص ١٦١ .

(٤) م . ن : ص ١٦٤ .

(٥) م . ن : ص ١٦٥ .

حول المدينة. ولأن موازين القوى قد مالت لصالح المشركين، واشتدَّ البلاء على الناس في المدينة، تصالح الرسول مع غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه وعن أصحابه. لم يرض بعض أصحاب الرسول بذلك، لهذا فسخ عقد المصالحة. ثم حصلت فتنة بين أطراف حلف المشركين، حيث شكَّك بعضهم بنوايا بعض؛ فانسحب أبو سفيان من المعركة، ولحقت به غطفان. ولما أصبح رسول الله، إنصرف عن الخندق مع المسلمين إلى المدينة، ووضعوا السلاح^(١).

- غزوة بني قريظة: فلما كانت الظهر، أي بعد غزوة الخندق مباشرة، أمر الرسول الناس: إن كل سامع مطيع لا يصلِّي العصر إلا ببني قريظة؛ والسبب أنهم نقضوا العهد مع الرسول بتحالفهم مع الأحزاب في غزوة الخندق. فعل المسلمون بما أمروا به، وحاصروا بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، حتى أجهد الحصار العدو. لهذا السبب نزل بنو قريظة على حكم الرسول فيهم. أما الرسول فقد حَكَم أمرهم لسعد بن معاذ، الذي بدوره حكم عليهم أن تُقتل رجالهم، وتُقسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء، ونفذ الرسول الحكم بهم، فكان عدد الرجال بين ستمائة وتسعمائة رجلاً. وقسَّم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين. وبعث بسبي من سباياهم إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً^(٢).

غزوات الرسول في خلال السنة السادسة الهجرية :

- غزوة بني لحيان: كانت ثاراً ليوم الرجيع، وذلك بسبب أن قبائل الهون قد قتلت ثلاثة من أصحاب الرسول، بعد أن غدرت بهم. لم يحصل قتال في هذه الغزوة^(٣).

- غزوة بني قرد: أغار رجال من غطفان على إبل للرسول، وكان معها رجل وامرأة. فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة مع الإبل، لم يستطع المسلمون أن يستقلوا سوى الإبل^(٤).

- غزوة بني المصطلق (شعبان) سمع الرسول أن بني المصطلق يجمعون له؛ فخرج إليهم وهزمهم. فقتل منهم من قتل، ونقل (غنم) أبناءهم ونساءهم وأموالهم وأفادها عليه. في أثناء هذه

(١) م . ن : ص ص ١٦٥ - ١٧٣ .

(٢) م . ن : ص ص ١٧٤ - ١٨١ .

(٣) م . ن : ص ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) م . ن : ص ص ١٨٢ - ١٨٣ .

الغزوة، إقتل مهاجر وأنصاري على الماء، فاستجد كل منهما بأصحابه، وكادت تقع فتنة بين المهاجرين والأنصار. استطاع الرسول أن يقضي عليها بحكمة وروية^(١).

- قصة صلح الحديبية: (في آخر سنة ست للهجرة) سعى رسول الله إلى مكة للحج؛ فظنّت قريش أنه جاء للقتال. وبعد أن اتضحت الأمور، دعت قريش الرسول لعقد معاهدة صلح على شرط أن يرجع عن الحج في ذلك العام، خوفاً من أن تحدث العرب أنه دخل مكة عنوة. فصالحهم الرسول على ذلك. لكن عمر بن الخطاب عارض هذا الصلح، وعندما وجد إصراراً من الرسول تراجع عن معارضته. وقد وافق عدد من المسلمين عمراً في معارضته^(٢).

غزوات الرسول في خلال السنة السابعة الهجرية :

- غزوة خيبر (المحرم): كان الرسول قد عقد مع يهود خيبر معاهدة تقضي بالحياد؛ لكنهم لم يلتزموا بها، خاصة، بعد أن عقدوا حلفاً مع قريش ضد الرسول. فتوجّه إليهم وأجلاهم عن المنطقة، عندما سنحت له الفرصة، تخلصاً من شرهم ومؤامراتهم. أصاب منهم سبايا (منهن صفيّة التي تزوّجها). وحاز منهم ما حاز من أموال. وقد صالحهم في آخر حصن لهم على أن يحقن دماءهم، ويحوز على أموالهم كلها^(٣).

غزوات الرسول في خلال السنة الثامنة الهجرية:

- غزوة مؤتة (جمادى الأولى): أرسل رسول الله بعثة إلى الشام بثلاثة آلاف مقاتل. فنزلوا في معان من أرض الشام. فلما بلغ الخبر هرقل (ملك الروم) نزل بمائة ألف مقاتل. فكّر المسلمون بأمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله فنخبره بعدد عدونا، فيما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. لكن عبد الله بن رواحة شجّعهم على القتال قائلاً: فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة. فوافقهم الناس. ولما التقى الطرفان، قُتل قادة المسلمين؛ فاستلم الراية خالد بن الوليد فعاد بهم إلى المدينة. إتّهمهم الناس "بالفرار"، لكن رسول الله قال عنهم إنهم "الكرّار"^(٤).

- فتح مكة (رمضان): حصل قتل وثأر بين بكر وخزاعة. كان بنو بكر قد دخلوا في عقد قريش وعهدهم بعد صلح الحديبية؛ ودخلت خزاعة في عقد الرسول وعهده. ساعدت

(١) م . ن : ص ص ١٨٤ - ١٨٨ .

(٢) م . ن : ص ٢٠٥ .

(٣) م . ن : ص ٢١١ .

(٤) م . ن : ص ص ٢١٣ - ٢١٩ .

قريش بني بكر، فنقضوا بذلك ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق؛ فاستنصرت خزاعة الرسول.

بعثت قريش أبا سفيان إلى الرسول ليشدّ العقد ويزيد المدة (ليؤكد المعاهدة) . لكن الرسول لم يقابل أبا سفيان، فعاد إلى قريش. أمر الرسول الناس بأن يجهّزوا أنفسهم لمهاجمة مكة بعشرة آلاف مقاتل من المسلمين.

خرج العباس بن عبد المطلب، بتكليف من قريش، طالباً لقاء الرسول ليستأمنه على قريش ويتدخل من العباس أسلم أبو سفيان أمام الرسول. وبناء على طلب العباس، وفي سبيل تكريم أبي سفيان، جعل له الرسول شيئاً يفخر به عندما يدخل المسلمون مكة قائلين: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..." .

جاء أبو سفيان إلى قومه ليمنعهم عن قتال المسلمين. فدخل الرسول مكة من دون قتال؛ ولم يتعرض لأحد من أهل مكة قائلين: "إذهبوا فأنتم الطلقاء". لكنه في المقابل أمر بقتل عدد منهم كانوا يتعرضون له بالأذى، أو أنهم ارتدوا عن الإسلام. وقد حطّم الأصنام كلّها ^(١). كان عدد الذين أمر الرسول بقتلهم سبعة، فقتل ثلاثة منهم، أما الأربعة الآخرون فقد عفا الرسول عنهم بعد شفاعة بعض أصحابه لهم ^(٢).

- غزوة حنين (بعد الفتح): أعدت قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم، وعدد آخر، لقتال الرسول. فخرج إليهم بألفين من أهل مكة، وعشرة آلاف من أصحابه. أعدّ المشركون كميناً للمسلمين في أحد أودية تهامة؛ فانهزم المسلمون بفعل المباغلة. لكن الرسول ثبت، وجمع رجاله فقلب الموازين، وهزم المشركين، ففرّوا باتجاه الطائف ^(٣).

تحصّن المشركون في الطائف، فحاصروهم المسلمون بضعاً وعشرين ليلة؛ وقتلهم قتالاً شديداً، لكن الرسول رحل عنها من دون أن يفتحها ^(٤).

بعد عودته من الطائف، قام الرسول بتوزيع غنائم حنين، ومعه من هوازن سبي كثير: ستة آلاف من الذراري والنساء؛ ومن الإبل والشاء ما لا يدرى عدّته. طلب منه وفد من هوازن، كان قد أسلم، أن يردّ عليهم الأهل من دون الأموال، ففعل الرسول وكذلك بعض المسلمين، فردّوا عليهم الأهل من دون الأموال. أما الذين امتنعوا عن التنازل عن حقّهم، فقال لهم

(١) م . ن : ص ص ٢١٩ - ٢٣٧ .

(٢) شلي، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١) : م . س : ص ٥٢٣ .

(٣) ابن هشام : مختصر السيرة النبوية : م . س : ص ص ٢٣٨ - ٢٤٧ .

(٤) م . ن : ص ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .

الرسول: "أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض (إبل) من أول سبي أصيبه"، فاستجاب الممتنعون لما قال الرسول فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم. أعطى الرسول، من الإبل والغنم، المولتفة قلوبهم نصيباً أكبر من الآخرين؛ لكنه لم يعط الأنصار منها شيء فغضبوا، فأقنعهم الرسول لما قال لهم: "ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رجالكم؟" (١).

غزوات الرسول في خلال السنة التاسعة الهجرية :

- غزوة تبوك (رجب): أخبر الرسول المسلمين أنه يريد الروم، وسار بهم. ولما انتهى إلى تبوك أتاه صاحب (أيلة)، فصالحه وأعطاه الجزية؛ كذلك فعل أهل (جرباء وأذرح). وقد أتت سرية، بقيادة خالد بن الوليد، بملك دومة - وهو نصراني - أسيراً إلى الرسول، فحقن دمه وصالحه على الجزية. فأقام الرسول بضع عشرة ليلة في تبوك، ثم رجع إلى المدينة (٢).

- سنة الوفود: لما افتتح رسول الله مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. إذ أنه لما افتتحت مكة، ودانت قريش للإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته. فدخلوا في دين الله أفواجا، يضربون إليه من كل وجه (٣).

- حجة الوداع : وفي حجة الوداع قال: "إني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه ... تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين أخوة..." (٤).

(١) م . ن : ص ص ٢٥١ - ٢٥٦ .

(٢) م . ن : ص ص ٢٦٢ - ٢٧١ .

(٣) م . ن : ص ص ٢٧١ - ٢٩٦ .

(٤) م . ن : ص ٢٩٧ . - لقد ورد نص آخر عند ابن عبد ربه: "وأهل بيتي" بدلا من "سنة نبيه" التي وردت عند ابن هشام. راجع: ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٣): دار ومكتبة الهلال: بيروت: ١٩٩٠ : ط ٢: ص ٢٣٨

III - القتال متغيّر مرحلي في الدعوة إلى الإسلام

إن إشكالية الاشتباك بين أسلوب الحوار وأسلوب القوة في الدعوة إلى الإسلام، هي إشكالية تاريخية، قديمة ومتجددة؛ وهي تطرح نفسها بجدّة على صعيد الجماعات و الأفراد في الدعوة إلى الإسلام .

وحيث أننا عرضنا، فيما سبق من بحثنا هذا، لمسألة أسلوب الحوار؛ نرى أنه من الضروري أن نعرض لطرف الإشكالية الآخر، وهو أسلوب القوة.

حيث أن علماء المسلمين والباحثين الآخرين قد حددوا مرحلتين مرّت فيهما الدعوة للإسلام: مرحلة الحوار المكيّة، ومرحلة القتال المدنيّة؛ سوف نرصد، بدورنا، خطى من سبقنا؛ لكن ليس على قاعدة أن آيات الإذن بالقتال قد نسخت آيات الحوار، بل سنرصد هذه المسألة في سياقها التاريخي، وليس في سياقها العقيدي/ الفقهي:

- كانت أول آية بالإذن بالقتال قد نزلت في السنة الأولى للهجرة، وهي: ﴿أذن للذين يقتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا...﴾ (الحج ٢٢ : ٣٩ و ٤٠). وهي مدنية). أي إنه أحلّ لهم القتال لأنهم ظلموا. ونزلت، بالإذن بالقتال، آيات أخر في حالات حددها النص القرآني كما يأتي:

- للدفاع عن الإسلام و قتال الظالمين: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة ٢ : ١٩٩). وهي مدنية).

- أو قتال أهل البغي: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (الحجرات ٤٩ : ١٠) وهي مدنية).

- أو للدفاع عن النفس: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (البقرة ٢ : ١٩٠). وهي مدنية).

- أو قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية: ﴿وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون﴾ (التوبة ٩ : ٢٩ . وهي مدنية). وقد أنزلت في السنة الثامنة الهجرية، في الوقت الذي كان يَعدُّ فيه الرسول لغزوة ضد الروم ^(١).

- جاء في حديث للرسول: "أميرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى" (رواه مسلم والبخاري) ^(٢).
ومعنى قوله: "وحسابهم على الله" أي فيما يسترونه و يخفونه دون ما يُخجلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة.

ذكر ذلك الخطابي قال: وفيه من أظهر الإسلام وأسرُّ الكفر يُقبل إسلامه في الظاهر، وهذا قول أكثر أهل العلم ^(٣).

لكن هذا النوع من الجهاد والقتال - يقول محمد باقر الناصري (النصف الثاني من القرن ٢٠م): "لا يجوز إلا بإذن المعصوم أو نائبه تحرراً من الفوضى" ^(٤). وقد جاء عند محمد جواد مغنية، كما مرَّ معنا في بداية البحث، ما يتوافق مع ما يقوله الناصري .

أما محمد حسين فضل الله فيعتقد أن القرآن قد عبّر عن أمرين لا ثالث لهما: إما القتال، وإما الإسلام، وذلك لقوله تعالى: ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون...﴾ (الفتح ٤٨ : ١٦) ^(٥). وهو يستدل على ذلك، أيضاً، من "حديث الإمام جعفر الصادق (ع): إن الله عزَّ وجلَّ بعث رسوله بالإسلام إلى الناس عشر سنين فأبوا أن يقبلوا حتى أمره بالقتال، فالخير في السيف و تحت السيف. " ^(٦).

إن الأمر، أو الإذن بالقتال، جاء مشروطاً، كما هو واضح من الآيات التي اتخذناها شواهد. ومن هذه الشروط ما يلي: الظلم الذي يلحق بالمسلمين، أو الدفاع عن الإسلام، أو قتال أهل البغي، أو للدفاع عن النفس، أو دفع الجزية .

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (ج ٤) : م . س : ص ص ٢١٣ - ٢١٩.

(٢) النووي: شرح الأربعين حديثاً النووية: دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٨٣: د . ط: ص ٣٤ .

(٣) م . ن : ص ٣٦ .

(٤) الناصري، محمد باقر: مختصر مجمع البيان في تفسير القرآن (١م) : بيروت: ١٩٨٠: ط: ص ٢٩٧.

(٥) فضل الله، محمد حسين: الإسلام ومنطق القوة : م . س : ص ١٩٩ .

(٦) م . ن : ص ٢٠٠ .

وهكذا نجد أنه بين الحوار والقوة في الإسلام مسافة العام والخاص. فالآيات التي تدعو للحوار، كأسلوب للدعوة للإسلام، ليست مشروطة، وإنما هي مطلقة عامة، مثلها مثل القيم الأخلاقية المطلقة: كالعدل والمساواة والكرم والشجاعة والحوار والتي هي أحسن، والامتناع عن الإكراه، أو منع استخدامه.

فلا يجوز اشتراط العدل، كقيمة عليا، بأية شروط، كأن تقول: على الإنسان أن يكون عادلاً إلا إذا... أو أن تقول: إني سوف أكرهك على قبول رأيي إذا لم تقتنع بالبراهين التي سأقدمها لك... الخ.

فأما القتال والقوة، فمن الموضوعية أن يكون استخدام أحدهما أو كليهما مشروطاً: كأن يكون هذا الاستخدام ضد من يعمل على منع تطبيق القيم الأخلاقية والاجتماعية المطلقة؛ أو لمنع الإكراه وليس لفرضه، حيث أن منع الإكراه هو من القيم المطلقة التي لها علاقة بمفهوم الحرية [كيف استعبدتم الناس وقد ولدته أمهاتهم أحراراً؟].

ومن هنا، ولأنه حسب قناعتنا، يُعدُّ الإكراه منافياً لحرية الإنسان؛ والحرية حقيقة مطلقة؛ وتأتي حرية الاعتقاد والرأي، المشروطتان بعدم تشكيل خطر مادي أو معنوي على حرية الآخرين، وهي جزء أساسي من حرية الإنسان. ولأن القوة والقتال هما أسلوبان لحماية المثل العليا، فأحرى بهما أن يتوجَّها إلى حماية حرية المعتقد، كمثال أعلى؛ وليس استخدامهما لإكراه الآخرين على أن يعتنقوا ما ليس لديهم قناعة به. ولهذا قال الله تعالى: إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

إن بين الدعوة إلى منع الإكراه والدعوة إلى القتال والقوة، كأسلوب للدعوة إلى الإسلام، مسافة تناقض، حاول معظم العلماء المسلمين، إن لم يكن كلهم، أن يعالجوها بمنطق التوفيق والتبرير لترجيح استخدام القوة والإكراه أكثر منها إلى جانب استخدام الحوار. بل إن الحوار - كما يراه كثيرون من هؤلاء العلماء - قائم على أساس أن المسألة التي هي موضوع للحوار هي مسألة مُسَلَّم بها، فلا يمكن النقاش فيها. فهم يعنون بالحوار - إذا آمنوا به - أنه فسحة من الزمن تُعطى للطرف الآخر، ليس لكي يقدم براهينه، وإنما أعطيت له لكي يتراجع، في أثنائها، عن قناعاته السابقة - حتى ولو كان مكرهاً - لصالح الاقتناع بالأسباب التي أقتنع بها المحاور الآخر، والتسليم بها وليس غير ذلك على الإطلاق.

لذلك، وكما نحسب، أن ما يسمونه حواراً، ليس بالحوار المتعارف عليه، أي أن تقول رأيك وأقول رأيي، فإذا لم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر، يذهب كل منا إلى سبيله، بل إنه على أحد طرفي الحوار - سواء كان مسلماً أم غير مسلم - أن يصل في نهاية الحوار، مُكرهاً، إلى مرحلة الاقتناع ببراهين/مسلمات الطرف المسلم، أو الذي يدّعي الإسلام. فالحوار، في هذا

المعنى، أن يُعطَى المحاور فسحة من الوقت لكي يراجع في خلالها حساباته من أجل التراجع عن قناعاته الشخصية، وليس هناك أي سبيل آخر سوى القتال والقتل.

ففي الواقع، وحسب ما توصلنا إليه من خلال عرض الآيات المتعلقة بالحوار والقتال، وجدنا أن منع الإكراه في الدين هو أصل قيمى ثابت، دينى وأخلاقى واجتماعى؛ بينما وجدنا أن القتال واستخدام القوة لنشر الدعوة الإسلامية هو فرع مرحلى متغير؛ فلا يمكن - والحال كذلك - أن ينسخ الفرع المرحلى المتغيرَ الأصليَ القيمى الثابت.

وفي هذا المجال، لا يمكننا إلا أن نسجل، من ناحية أخرى، أن منع الإكراه هو حكم عام واضح؛ وإن هذا المنع تم التأكيد عليه، ليس في مراحل الدعوة الأولى، أي مرحلة الحوار المكثفة فحسب، وإنما تم التأكيد عليه في مرحلة المدينة أيضاً، أي مرحلة الإذن بالقتال.

إن هذه المسألة، إشكالية العلاقة بين استخدام القوة في الدعوة إلى الإسلام، وبين منع الإكراه في الدعوة إليه، تناولنا في نقاشنا لها المعنى العام الذي يطال المشركين والكافرين وأهل الكتاب والباغين والظالمين؛ لكن ليس هذا المعنى هو الوجه الوحيد للإشكالية، بل هناك وجه آخر، وهو الوجه الذي يحدد أسلوب مواجهة من أسلم ثم ارتدَّ عن إسلامه، سواء على صعيد الفرد المسلم أو على صعيد الجماعة المسلمة.

IV - الردّة سيف مسلّط على رقاب المسلمين

يتوفر بين أيدي الباحث، حول مبدأ الردّة في الإسلام، عدّة من الآيات القرآنية، وعدّة من أحاديث الرسول، وعدّة من التفسيرات والتأويلات، التي اختصّت بها كل فرقة من الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها.

١ - الآيات التي تناولت الردّة :

- ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة ٢ : ٢١٧ . وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً، وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران ٣ : ١٧٧ . وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ (محمد ٤٧ : ٣٢ . وهي مدنية).

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعْرَءَ عَلَى الْكَافِرِينَ، يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المائدة ٥ : ٥٤ . وهي مدنية).

- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (آل عمران ٣ : ٨٦ - ٨٧ . وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد ٤٧ : ٢٥ - ٢٧ . وهي مدنية).

- ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُدًى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء ٤ : ١١٥ . وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (آل عمران ٩ : ٩٠ . وهي مدنية).

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء ٤ : ١٣٧ . وهي مدنية).

حيث إن الآية ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ...﴾ (البقرة ٢ : ٢١٧) كانت الآية الأولى التي أنزلت حول الردة، والتي كان سبب نزولها واضحاً في الزمان والمكان والظرف المحيط بها، فإننا سنسرد القصة كاملة، ثم سنقف عند مختلف التأويلات والتفسيرات التي دارت من حولها، آخذين بعين الاعتبار شواهد من معظم الاتجاهات، التي حاولت تفسيرها، على صعيد الفرق والمذاهب والعصور. ومن حيث أن هذه التفسيرات لم تأخذ جانب الظرف الكامل لأسباب النزول، كان لا بدّ أماناً من أن نتبّع الرواية الكاملة من المصادر المتفق على صلاحيتها^(١).

جاء في رواية ابن هشام ما يلي: في أوائل السنة الثانية للهجرة، بعث رسول الله - في أواخر شهر رجب (وهو من الأشهر الحرم) - عبد الله بن جحش في سرية، وبعث معه ثمانية رهط [رجال] من المهاجرين، وليس فيهم من الأنصار أحد؛ وكتب له كتاباً على أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، فيمضي ساعتئذ إلى ما أمره به، على ألا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار عبد الله مدة يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة - بين مكة والطائف - فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة؛ ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتية منهم بخبر؛ وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان يريد الشهادة ويرغب بها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع؛ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله، فمضي ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد.

(١) نحسب أن رواية ابن هشام هي من أكثر الروايات التي اتفق عليها العلماء للمسلمون. لذا فإننا، بشكل أساسي، سنعتمد عليها في البحث. وهناك بعض الإضافات التفصيلية التي لا غنى عنها في التقييم، والتي لم يذكرها ابن هشام، سنقوم بنقلها بين [...]، حيثما كان ذلك ضرورياً، عن كل من الخوارزمي وابن كثير والطبري.

سلك على طريق الحجاز، حتى إذا كان بمعدن (مكان فوق الفرع) ، يقال له بحران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، بغيراً لهما، كانا يتعقبانه. فتخلفا عنه في طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به غير لقريش تحمل زيباً، وأدماً (جلداً)، وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي .

فلما رأهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم؛ فأشرف لهم عكاشة بن محصن (من أصحاب عبد الله بن جحش)، وكان قد حلق رأسه. فلما رأوه آمنوا، وقالوا عمار (حجاج) لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم (عبد الله بن جحش وأصحابه) فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب [وخافوا إن لم يتداركوا هذه الغنيمة، ويتهزوا هذه الفرصة، دخل أولئك في الحرم، فيتعذر عليهم ذلك، فأقدموا عليهم عالمين بذلك^(١)]. فقالوا: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام؛ فتردد عبد الله بن جحش وأصحابه، وهابوا الاقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان؛ وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعرير والأسيرين، حتى قلموا على رسول الله المدينة.

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس و المغنم [ولما نزل الخمس، في القرآن، كما قسمه عبد الله بن جحش^(٢)]؛ فعزل لرسول الله خمس العير، وقسم سائرهما بين أصحابه. فلما قدموا على رسول الله المدينة؛ قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. فوقف العير والأسيرين. وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً؛ فلما قال رسول الله ذلك، سقط في أيدي عبد الله بن جحش وأصحابه، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. [وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال^(٣)]. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال؛ فقال من يرد عليهم من المسلمين؛ ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا بشعبان.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٣) : مكتبة المعارف: بيروت: ١٩٩٥: د. ط: ص ٢٥١.

(٢) م. ن. : ص ٢٤٩ .

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (١٤) : مؤسسة عز الدين: بيروت: ١٩٩٢: ط ٣: ص ٥٢٣.

تفاعل اليهود بما حصل، وتوقعوا حرباً طويلة بين المسلمين وقريش. فلما أكثر الناس في ذلك، [وقال أصحاب سرية عبد الله بن جحش: ما نبرح حتى تنزل توبتنا^(١)] أنزل الله على رسوله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون﴾ (البقرة ٢ : ٢١٧) ^(٢). فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله العير والأسيرين ^(٣).

فلما تجلّى عند عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم: ﴿إن الذين آمنوا، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ فوضعهم الله من ذلك أعظم الرجاء.

وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشرّكين. وقال عبد الله بن هشام: هو أول قتيل قتله المسلمون، وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون... ^(٤).

هنا انتهت الرواية التي وردت في السيرة التي كتبها ابن هشام، إضافة إلى بعض التفاصيل التي لم يذكرها في سيرته وإنما وردت في بعض كتب التاريخ الأخرى؛ وإننا نرى من المفيد أن ننقل عدداً من التفسيرات التي وردت في كتب بعض العلماء المسلمين:

جاء عند الطبري أن: "القول في تأويل قوله عزّ ذكره ﴿من يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر﴾ (يعني بقوله جلّ ثناؤه (من يردد منكم عن دينه) من يرجع عن دينه؛ وقوله ﴿فيمت وهو كافر﴾، يقول من يرجع عن دينه - دين الإسلام - ﴿فيمت وهو كافر﴾ فيمت قبل أن يتوب من كفره، فهم الذين حبطت أعمالهم، يعني بقوله ﴿حبطت أعمالهم﴾ بطلت وذهبت، وبطولها ذهاب ثوابها وبطول الأجر عليها، والجزاء في الدنيا والآخرة. وقوله ﴿وأولئك أصحاب النار فيها خالدون﴾ يعني الذين ارتكّبوا عن دينهم فماتوا على كفرهم هم

(١) الخوارزمي، أبو القاسم: الكشاف (ج ١) : م . س : ص ٣٧٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (م ٢) : م . س : ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (م ١) : م . س : ص ٥٢٤.

- راجع، أيضاً، ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٣) : م . س : ص ٢٥٠.

(٤) م . ن : ص ٢٥٠.

أهل النار المخلدون فيها، وإنما جعلهم أهلها لأنهم لا يخرجون منها، فهم سكانها المقيمون فيها كما يقول هؤلاء أهل محلة كذا. . يعني سكانها المقيمون فيها، ويعني بقوله ﴿هم فيها خالدون﴾ هم فيها لا بثون لبثاً من غير أمد ولا نهاية ^(١).

وجاء عند النيسابوري: ومن ﴿يرتدد﴾ ومن يرجع ﴿منكم عن دينه فيمت وهو كافر﴾ باق على الردة ﴿فأولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ ، أما في الدنيا فلما يفوته من فوائد الإسلام العاجلة، فيقتل عند الظفر به، ويقاقل إلى أن يظفر به، ولا يستحق من المؤمنين موالاة ولا نصراً ولا ثناءً حسناً، وتبين زوجته و يحرم الميراث. وأما في الآخرة فيكفي في تقريره قوله: ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ^(٢).

وجاء عند الخوارزمي: "بعث رسول الله (عبد الله بن جحش على سرية في جمادي الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين، ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا إثنين، واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف؛ وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادي الآخرة، فقالت قريش: قد استحلّ محمد الشهر الحرام - شهراً يأمن فيه الخائف، ويذعر [ينصرف] فيه الناس إلى معاشهم - فوقف رسول الله (العير. وعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا؛ وردّ رسول الله (العير والأسارى. وعن ابن عباس (ر): لما نزلت أخذ رسول الله (الغنيمة)؛ والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و(قتال فيه) بدل الاشتغال من الشهر. [..] وقرأ عكرمة قتل فيه - قل قتل فيه كبير - أي إثم كبير. وعن عطاء أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام ، فحلف بالله ما يحلّ بالناس أن يغزو في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يُقاتلوا فيه، وما نسخت. وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. [لكن الذين قالوا أنها نسخت استندوا إلى الآية المذكورة، وأرجو أن لا يكون قد غاب عن بالهم نصّها الكامل: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم...﴾ (التوبة ٩: ٥. وهي مدنية).

يتابع الخوارزمي: "ومن ﴿يرتدد منكم﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردّه إليه ﴿فيمت﴾ على الردة ﴿فأولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ لما يفوتهم بإحداث الردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام وباستدامتها والموت عليها من ثواب

(١) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن (ج ٢) : م . س : ص ٢٠٧ .

(٢) م . ن : ص ٢٠٧ [راجع هوامش المصدر المذكور] .

الآخرة. وبها احتج الشافعي على أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها، وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلماً^(١).

٢ - استنتاجات :

من خلال متابعة ظروف إنزال الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...﴾ (ومن خلال متابعة ما ورد من تفسيرات لها، لا بدّ من تسجيل بعض الملاحظات/ الإشكاليات :

أ - أصبح من الواضح أنّ عبد الله بن جحش وأصحابه قتلوا الحضرمي القرشي طمعاً بالغنائم على الرغم من معرفتهم أن ما فعلوه كان في الشهر الحرام، ومن دون تكليف من الرسول، والدليل قوله لهم أنه لم يأمرهم بذلك، ثم غضبه عليهم، وامتناعه عن تسلّم العير والأسرى إلا بعد أن نزل إليه الإذن الإلهي بأن يفعل؛ فعملهم هذا، إذا، يعدّ مخالفاً لما يقوله محمد الناصري: "إن الإسلام لا يجيز قتال أحد في الشهر الحرام، إلا من أصرّ على القتال وابتدأ به"^(٢).

في مواجهة المشكلة/ المحنة التي حصلت بين الرسول من جهة، وبين عبد الله بن جحش وأصحابه - بشكل خاص - من جهة أخرى، كيف كان المخرج/ الحل؟

إن الله تعالى قد أنزل تلك الآية اتقاء لفتنة كان من الممكن أن تقع بين المسلمين أنفسهم، وهي كادت أن تقع، بدليل أن عبد الله بن جحش وأصحابه - حسب الخوارزمي - قالوا: "ما نبرح حتى تنزل توبتنا". فالله تعالى أنزل آية: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (مُشْرِعاً للمسلمين بأن يقاتلوا المشركين في الأشهر الحرم لكي يمنع ما كان من الممكن أن يحصل من فرقة بين المؤيدين لعبد الله بن جحش وبين الذين انتقدوه)؛ وهو تعالى - كما نحسب - شرّع القتال في الأشهر الحرم، كتدبير مرحلي؛ وهدّد الذين كان من الممكن أن يرتدّوا عن الإسلام - في مرحلة من أدق المراحل حرجاً - بالخلود بالنار إذا ما فعلوا ما كانوا ينوون فعله.

ب - نقلاً عن الخوارزمي: "وعن عطاء أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام، فحلف بالله ما يحلّ بالناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت"^(٣).

(١) الخوارزمي، أبو القاسم: الكشاف (ج ١) : م . س : ص ٣٥٧.
(٢) الناصري، محمد باقر: مختصر مجمع البيان في تفسير القرآن (١٤) : م . س : ص ٢٩٦.
(٣) الخوارزمي، أبو القاسم: الكشاف (ج ١) : م . س : ص ٣٥٧.

يقول الناصري: "وإنما أباح الله تعالى للنبي (قتال أهل مكة عام الفتح، فقال: "إن الله أحلها في هذه الساعة، ولا أحلها لأحد من بعدي إلى يوم القيامة..."^(١).

والحال هكذا، أنكر بعض العلماء المسلمين نسخ الأمر في الامتناع عن القتال في الأشهر الحرم، فكيف حصل تسويغ القتال في هذه الأشهر لعبد الله بن جحش، إذاً؟
إن الاختلاف في التأويل و التفسير بين العلماء المسلمين، لآيات القرآن الكريم، مسألة تتكرر وتزداد كلما واجه الإسلام معضلات جديدة تتطلب اجتهادات جديدة.

ج - بعد أن حسب عبد الله بن جحش خمس الغنائم للرسول، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغنم له؛ قال ابن إسحق: "فلما انقضى أمر بدر [الكبرى، والتي جاءت زمنياً بعد حادثة سرية عبد الله بن جحش]، أنزل الله عز وجل فيه من القرآن الأنفال بأسرها، فكان مما نزل منها في اختلافهم في النفل، حين اختلفوا فيه ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله والرسول إن كنتم مؤمنين﴾ (الأنفال ٨: ١. وهي مدنية)^(٢). ثم علمهم مقاسم الفيء وحكمه فيه حين أحله لهم، فقال: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمتمم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾ (الأنفال ٨: ٤١. وهي مدنية)^(٣).

وبالتدقيق في هذه المسألة نستدل على أن الله والرسول إنما يُشرعان ما قد يراه المسلمون صالحاً لهم في شؤون الدنيا، وفي إدارة الشأن العام للناس.

يروي السيوطي (ت في العام ٩١١هـ* ١٥٠٦م): بما يعزز هذا الاستنتاج ما يلي: - كان عمر بن الخطاب يرى الرأي فينزل به القرآن عن عمر قال: "وافقت ربي في ثلاث؛ قلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (البقرة ٢: ١٢٥). وقلت: يا رسول الله، يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن يحتجن، فنزلت آية الحجاب؛ واجتمعت نساء النبي في الغيرة، فقلت: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ (التحریم ٦٦: ٥). فنزلت كذلك.

(١) الناصري، محمد باقر: مختصر مجمع البيان... (١م): م. س: ص ١٤١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (٢م): م. س: ص ٢٣٢.

(٣) م. ن: ص ٢٣٧.

قال عمر: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ٢٣: ١٢ - ١٤).

و عندما عارض عمر صلاة النبي على عبد الله بن أبي قائلًا: أعلى عدو الله ابن أبيّ تصلي؟ فنزلت الآية: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ (التوبة ٩: ٨٤). وهناك العديد من الأمثلة على هذا النحو^(١).

د - جاءت العقوبات، التي أنزل بها نص في القرآن، على المرتدين كما يلي:
* من ارتدّ عن دينه لن يضرّ الله شيئاً .

* وإنما سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه .

* أما العقوبة الدنيوية فهي: إحباط أعمالهم في الدنيا .

* أما الذين يزدادون كفراً فلن تقبل توبتهم، ولم يكن الله ليغفر لهم .

* وأما العقوبة في الآخرة فهي: إحباط أعمالهم في الآخرة - نُصليهم جهنم وساءت مصيراً - إذا تعرفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .

وعلى مثل ما ازدادت الخلافات بين العلماء المسلمين حول تأويل وتفسير آيات القرآن، فقد اختلفوا في تأويل الآيات التي أنزلت حول المرتدين؛ وهذا مثال على ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (المائدة ٥: ٥٤).

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية ما يلي: من يرجع منكم عن دينه الحق، الذي هو عليه اليوم، فيبدله ويغيّره بدخوله في الكفر: إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر، فلن يضرّ الله شيئاً؛ وسيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه. يقول: فسوف يجيء الله بدلاً منهم ﴿المؤمنين الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا﴾ بقوم يحرم من الذين ارتدوا وبدلوا دينهم، يحبهم الله ويحبون الله، وكان هذا الوعد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتدّ بعد وفاة نبيه محمد .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء : م . س : ص ص ١٤٨ - ١٥٢ .

واختلف أهل التأويل - يتابع الطبري - في أعيان القوم الذين أتى الله بهم المؤمنين وأبدل المؤمنين مكان من ارتدّ منهم. * فقال بعضهم: هو أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردّة.

* وقال آخرون: يعني بذلك قوماً من أهل اليمن، وقال بعضهم إنهم أهل اليمن جميعاً. * وبعضهم قال: هم رهط أبي موسى الأشعري. يستدلّون على ذلك أنه عندما نزلت هذه الآية، أو ما رسول الله إلى أبي موسى بشيء كان معه. فقال: هم قوم هذا. وبعض الروايات تقول: إن رسول الله (قال: هم قومك يا أبا موسى. وعندما نزلت الآية قال عمر: أنا وقومي يا رسول الله. قال: لا بل هذا وقومه، يعني أبا موسى الأشعري) . * وبعضهم قال: هم قوم سبأ.

* وقال آخرون: هم أنصار رسول الله^(١).

* ينقل النيسابوري حول تفسير الآية ذاتها ما يلي: هم الفرس؛ لما رُوِيَ أنه (سئل عن هذه الآية فضرب يديه على عاتق سلمان وقال: هذا وذووه؛ ثم قال: لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس.

* وقالت الشيعة: نزلت في علي (ر) لما رُوِيَ أنه (دفع الراية إلى علي يوم خيبر؛ وكان قد قال: لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله^(٢)).

- واختلفوا، أيضاً، حول الذين وصفهم القرآن بالمرتدّين؛ فيقول الطبري من خلال تفسيره لآية ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: (إن أهل التفسير اختلفوا فيمن عني به: * فقال بعضهم: عني به أهل قبلتنا من المسلمين.

* وبعضهم قال: هم الخوارج.

* وقال آخرون: عني بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان الذي آمن حين أخذ الله من صلب آدم ذريته و أشهدهم على أنفسهم بما بين في كتابه .

* وقال آخرون: هم المنافقون الذين كانوا أعطوا كلمة الإيمان بالسنتهم، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم.

* وقيل: إنه عني بذلك جميع الكفار، وإن الإيمان الذي يُؤبّخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: ألسن برّبكم أقالوا: شهدنا^(٣).

(١) الطبري: جامع البيان .. (ج ٦) : م . س : ص ص ١٨١ - ١٨٤ .

(٢) النيسابوري: " غرائب القرآن " : هامش: جامع البيان ... (ج ٦) : م . س : ص ١٦٥ .

(٣) الطبري: جامع البيان .. (ج ٤) : م . س : ص ٢٧ .

٣ - الأحاديث النبوية التي تناولت الردّة :

حدثنا يحيى عن مالك، عن زيد بن أسلم؛ أن رسول الله قال: "من غيّر دينه فاضربوا عنقه". يقول مالك بن أنس: ومعنى قول النبي: (فيما نرى والله أعلم، من غيّر دينه فاضربوا عنقه، أنه من خرج من الإسلام إلى غيره^(١)).

وعن ابن مسعود قال: "قال رسول الله (: لا يَجِلُّ دم امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة ". رواه البخاري ومسلم^(٢).

٤ - الردّة لغة :

جاء في الصحاح: (رَدَدَ) : رَدَّه عن وجهه يَرُدُّه رَدًّا و مردًّا : حَرَفَه . ورَدَّ عليه الشيء إذا لم يقبله، كذلك إذا خَطَأَه.

والارتداد: الرجوع، ومنه المرتد.

والردّة (بالكسر) : مصدر قولك رَدَّه يَرُدُّه رَدًّا و رِدَّة .

والرِدَّة : الإسم من الإرتداد^(٣).

٥ - الردّة فقهاً :

أ - من هو المرتد ؟

(يُعرّف الرسول المرتدّ بأنه " التارك لدينه المفارق للجماعة " ^(٤) .

(يقول النيسابوري: "واعلم أن الردة أغلظ أنواع الكفر حكماً، وإنها تارة تحصل بالقول الذي هو كفر كجحد جمع عليه، وكسب نبي من الأنبياء. وأخرى بالفعل الذي يوجب استهزاء صريحاً بالدين، كالسجود للشمس والصنم، وإلقاء المصحف في القاذورات، وكذا لو اعتقد وجوب ما ليس بواجب " ^(٥) .

(١) بن أنس، مالك: الموطأ: دار إحياء العلوم : بيروت: ١٩٨٨ : ط ١ : ص ٥٥٩.

(٢) النسوي : شرح الأربعين حديثاً النووية : م . س : ص ٤٨ .

(٣) الجوهري، إسماعيل: الصحاح (ج ٢) : دارالعلم للملأين: بيروت: ١٩٨٧ : ط ٤ : ص ٤٧٣.

(٤) النسوي : م . س : ص ٤٨ .

(٥) النيسابوري: " غرائب القرآن . . " : راجع هامش: تفسير الطبري (٢م) : م . س : ص ٣١٨.

(وجاء عند جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨ هـ * ٧٠٠ - ٧٦٦ م) : إن المرتد هو : " من يرغب عن الإسلام، وكفر بما أنزل على محمد (بعد إسلامه ... " (١) .

(وقال الشيخ الأردبيلي (؟ هـ * ؟ م) في شرح الإرشاد - باب الحدود : المقصد الثالث، في الارتداد : " يتحقق الارتداد من مسلم بالغ عاقل، إما بفعل دال عليه، مثل عبادة غير الله تعالى... وإما بقول دال على الخروج عن الإسلام، والإهانة بالشرع والشارع، والاستهزاء به؛ سواء كان عناداً أو سخرية أو اعتقاداً... أو ينكر ما عُلِمَ من الدين ضرورة، مثل إنكار وجوب الصلاة والصوم والزكاة... وإما بمجرد الهزل والمزاح... " (٢) .

(أما المذهب الوهابي فيتوسّع أكثر في دائرة التحريم والتكفير، فالمروق عن الإسلام - في المذهب الوهابي - يكون في الحالات التالية :

* في الغلو: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (النساء ٤ : ١٧١). فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الآلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أنصرتني... يُعَدُّ شرك وضلال (٣) . ولا يُعفى القائل من الطعن فيه حتى لو زعم أن ما يفعله هو "باب حاجته إلى الله و شفيعه عنده، وهكذا كان عبّاد الأصنام سواء"، وذلك استدلالاً من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر ٣٩ : ٣) (٤) .

* الحلف بغير الله، وقد نهى الرسول عنه: "ومن حلف بغير الله فقد أشرك" (٥) .

* ومن ذبح لغير الله فهو كافر مرتد لا تُباح ذبيحته (٦) .

* طلب الخوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجّه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، لأن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وإن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه: ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبا ٣٤ : ٢٣) (٧) . ومن استغاث بالموتى

(١) مغنية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦) : دارالجواد: بيروت: ١٩٨٢ : ط ٤ : ص ٣٠٨ .

(٢) م . ن : ص ٣١٢ .

(٣) النجدي، عبد الرحمن: الدور السنّة (ج ١) : دار العربية: بيروت: ١٩٨٢ : ط ٢ : ص ٢٥٩ .

(٤) م . ن : ص ٢٦٢ .

(٥) م . ن : ص ٢٦٠ .

(٦) م . ن : ص ٢٦١ .

(٧) م . ن : ص ٢٦٣ .

"فقد فعل الشرك الأكبر الذي بعث محمداً (بإنكاره وتكفير من لم يتب منه... وإن الإسلام لا يستقيم إلا بمعادة أهل هذا الشرك، فإن لم يعتهم فهو منهم" (١).

* "والأحجار التي تقصد للتعظيم وللتبرك والتقبيل، لا يجوز إيتاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها وبها" (٢).

* "فأما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال، أو الخمر، أو الزنا، أو الميسر، ونكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، وغير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد بمحودها أو تركها الذي يكفر الواحد بمحودها" (٣).

* "إن النذر الذي يقع من أكثر الذين يأتون إلى قبور بعض الصالحاء متوسلين إليهم بتقديم بعض النذور إليهم، إذا فكّت حاجتهم، هو "كفر يكفر به المسلم" (٤).

(لكن عبداً لله الهرري (أحد فقهاء المسلمين المعاصرين) يقف متناقضاً مع ما تذهب إليه الوهابية، فهو يقول بأنه نقل الكثير عن حفاظ المحدثين من التوسل بالنبي بعد وفاته، والنذور على قبور الأولياء؛ وإنهم كانوا لا يعبأون بإنكار التوسل إلى الأنبياء والأولياء. ويرد على قول أحمد بن تيمية وأتباعه - مثل محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الوهابية - قائلاً: بأنه يلزم أن يكون جمهور الأمة، الذين هم مئات الملايين، على ضلال؛ ويكون هو، والشرذمة التي اتبعته، على هدى. وقد ثبت أن جمهور الأمة لا يضلّون، دلّ على ذلك حديث أبي داود في افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، حيث قال: "وواحدة في الجنة وهي الجماعة" أي الجمهور (٥). وينقل الهرري من بدع الوهابية - كما يحسب - التي سنّها محمد بن عبد الوهاب، أنه قال بتحريم الصلاة على النبي جهراً من المؤذن عقب الأذان. وقد سيق إليه رجل مؤذن أعمى، فقيل له: هذا صلى على النبي جهراً عقب الأذان، فأمر بقتله فقُتِل (٦).

(١) م . ن : ص ٢٦٤ .

(٢) م . ن : ص ٢٦٤ .

(٣) م . ن : ص ٢٦٥ .

(٤) م . ن : ص ٢٦٨ .

(٥) الهرري، عبداً لله : المقالات السنّية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية: دار المشارع: بيروت: ١٩٩٦: ط ٣: ص ١٦٩.

(٦) م . ن : ص ٢١٧ .

(جاء عند السيد سابق (فقيه معاصر): الردّة هي الرجوع في الطريق الذي جاء منه، وهي مثل الارتداد، إلا أنها تختص بالكفر. والمقصود هنا: رجوع المسلم، العاقل، البالغ، عن الإسلام إلى الكفر باختياره دون إكراه من أحد، سواء في الذكور أو الإناث^(١))
(يقول عبدا لله الهرري: "إن كل عقد أو فعل أو قول يدل على استخفاف بالله أو كتبه أو رسله أو ملائكته أو شعائره، أو معالم دينه أو أحكامه أو وعده ووعيده، كفر"^(٢)).

ب - على من يقع تطبيق حد الردّة :

(يشترط النيسابوري في صحة الردّة "التكليف، فلا تصحّ ردّة الصبي والمجنون. وهاهنا بحث أصولي، وهو أن جماعة من المتكلمين ذهبوا إلى أن شرط صحة الإيمان والكفر هو الموافقة، فالإيمان لا يكون إيماناً إلا إذا مات المؤمن عليه ؛ والكفر لا يكون كفراً إلا إذا مات الكافر عليه"^(٣)).

(وقد "احتجّ الشافعي على أن الردّة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها، وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلماً"^(٤)).

(أما الأردبيلي فيعتقد أنه: "لا عبرة بفعل الصبي وقوله ما لم يبلغ، ولا المجنون ما لم يفق، ولا المكروه ما لم يرتفع الإكراه. وإنما يتحقق الارتداد من مسلم بالغ عاقل"^(٥)).

(أما محمد جواد مغنية فيرى، أيضاً، أنه: "لا يتحقق الارتداد بكلي قسميه [المرتد عن فطرة والمرتد المّلي] إلا مع العقل والبلوغ والاختيار. قال صاحب الجواهر: لا عبرة بارتداد الصبي، حتى لو كان مراهقاً... ولكنه يؤدّب بما يرتدع به... وأيضاً لا عبرة برّدّة المجنون حال جنونه... ولا برّدّة المكروه الذي رُفِعَ التكليف عنه"^(٦)).

(وجاء عند السيد سابق أن الردّة هي: "رجوع المسلم العاقل، البالغ، عن الإسلام إلى الكفر باختياره دون إكراه من أحد - سواء ذلك في الذكور والإناث - فلا عبرة بارتداد المجنون ولا الصبي، لأنهما غير مكلفين"، وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ بَعْدَ

(١) السيد سابق: فقه السنة (٢م) : دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٨٣ : ط ٥ : ص ٤٥٠.

(٢) الهرري، عبدا لله : بغية الطالب : دار المصانيع: بيروت : ١٩٩١ : ط ٢ : ص ٣٥.

(٣) النيسابوري : "غرائب القرآن" : راجع الطبري، هامش: تفسير الطبري (٢م) : م. س : ص ٣١٨.

(٤) الخوارزمي ، أبو القاسم : الكشف (ج ١) : م . س : ص ٣٥٧ .

(٥) مغنية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦) : م . س : ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٦) م . ن : ص ٣١٢ .

إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم ﴿ (النحل ١٦ : ١٠٦) ^(١) .

ولهذا، يتابع السيد سابق: " إن كل فرد يدين بالولاء للإسلام يعتبر عضواً في الجماعة المسلمة، ويصبح فرداً من أفراد الأمة الإسلامية تجري عليه أحكام الإسلام ، وتطبق عليه تعاليمه. ولأن المسلمون يختلفون اختلافاً بيناً في قواهم البدنية والنفسية والعقلية والروحية، فمنهم من يقترب من الإسلام، ومنهم من يتعد عنه؛ إلا أن هذا الابتعاد لا يخرج المقصّر عن دائرته ما دام يدين بالولاء لهذا الدين؛ لهذا مهما تورط المسلم في المآثم واقترب من جرائم، فهو مسلم لا يجوز اتهامه بالردة" ^(٢) .

فالمسلم - يتابع السيد سابق - لا يُعدّ خارجاً عن الإسلام، ولا يُحكّم عليه بالردة إلا إذا انشرح صدره بالكفر، واطمأن قلبه به، ودخل فيه بالفعل... وكان لا بدّ من صدور ما يدلّ على كفره دلالة قطعية لا تحتل التأويل، حتى تُسبب إلى الإمام مالك أنه قال: "من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً، و يحتمل الإيمان من وجه؛ حُيِّل أمره على الإيمان" ^(٣) .

(أما الحرري، فيتعارض مع ما قاله السيد سابق، إذ يقول: "يجب على كل مسلم حفظ إسلامه، وصونه عما يفسده ويطله و يقطعه وهو الردّة، والعياذ بالله تعالى. (قال النووي وغيره: الردّة أفحش أنواع الكفر) . وقد كثر في هذا الزمان التساهل في الكلام حتى إنه يخرج من بعضهم ألفاظ تخرجهم عن الإسلام، ولا يرون ذلك ذنباً، فضلاً عن كونه كفراً، وذلك مصداق قوله: ("إن العبد يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها في النار سبعين خريفاً"، أي مسافة سبعين عاماً في النزول...) والحديث رواه الترمذي وحسنه، وفي معناه حديث رواه البخاري و مسلم. وهذا الحديث دليل على أنه لا يشترط في الوقوع في الكفر معرفة الحكم، ولا انشراح الصدر، ولا اعتقاد معنى اللفظ كما يقول كتاب (فقه السنة) [والمقصود هنا السيد سابق] ^(٤) .

ج - من هو المسلم المكلف ؟

من هو المسلم وما هي شروط إسلامه، التي يصحّ معها تطبيق حدّ الردّة عليه ؟

(١) السيد سابق: فقه السنة (٢م) : م . س : ص ٤٥٠ .

(٢) م . ن : ص ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

(٣) م . ن : ص ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٤) الحرري، عبد الله : بغية الطالب : م . س : ص ٣٥ .

بداية، نرى أن تحديد هوية المسلم مسألة ضرورية للدخول في البحث عن الإجابة عن التساؤلات/ الإشكاليات، التي نراها ماثلة في أثناء المقارنة بين الحكمين، الواردين في كل من القرآن والسنة، على المرتبة عن الإسلام .

لكي يصح أن يكون الإنسان مسلماً، هناك مبدآن:

- الأول: أن ينطق بالشهادتين: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ؛ وهذا ما كان يطلبه الرسول وأصحابه، في أثناء غزواتهم أو سراياهم، من المشركين لكي يرتفع السيف عنهم. وكان يُعدُّ شرطاً كافياً لاعتناق الإسلام. لكن الروايات والتأويلات كَثُرَتْ، وتشعبت الشروط الواجب توفُّرها في من يصحُّ أن يكون مسلماً.

- فالقرآن الكريم يشترط عدم الشرك بالله، لا إله إلا الله، ليصحَّ أن يكون المرء مسلماً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٤ : ٤٨).

- ويأتي في المعنى ذاته حديث رُوِيَ عن الرسول (يقول فيه: "كلكم يدخل الجنة إلا من أبى وهو لم يقل لا إله إلا الله" ^(١)).

- وفي رواية أخرى، نُقِلَ عن الرسول (حديث يقول فيه: "من قال لا إله إلا الله. وكفر بما يُعبد من دون الله، حُرِّمَ ماله ودمه، وحسابه على الله" ^(٢)).

- يروي ابن هشام أنه لما حضرت الوفاة أبا طالب، عم الرسول، جاء إليه أشراف قريش ليكلّموه، فقالوا: "قد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه... ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه...". ولما عرض أبو طالب ما قالت قريش له، أجاب الرسول: ("نعم، كلمة واحدة تُعطُونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه" ^(٣)).

- وجاء في سيرة ابن هشام، أيضاً، رواية عن خالد بن الوليد تدلّ على أن لفظ كلمة أسلمنا كافية لاعتناق الإسلام: لما بعث الرسول (خالد بن الوليد إلى تهامة، ليدعو إلى الله

(١) رواه الطبري، والسيوطي نقلاً عن: جولد تسيهر، أجتس: مذاهب التفسير الإسلامي: دار إقرأ: بيروت: ١٩٨٣ : ط ٢ : ص ١٨٠ .

(٢) نقلاً عن: ابن عبد الوهاب، سليمان: تيسير العزيز الحميد: للكتب الإسلامي: بيروت: ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م: ط ٥ : ص ١٤٦ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية (٢م) : م . س : ص ١٨ .

عز وجل، وطيء بني جذيمة: "ولما أتاهم خالد، قالوا: صباناً، صباناً [أسلمنا]، أي يقولون أنهم دخلوا في دين محمد" (١).

- وفي حديث آخر للرسول (رواه مسلم والبخاري) يشترط فيه أن يشهد، من يريد الإسلام، بالشهادتين إضافة إلى أعمال أخرى: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى" (٢).

- أما المعتزلة فلا يعلّون الإيمان بالله والرسول شرطاً كافياً لاعتناق الإسلام، وإنما أن يكون هذا الإيمان مصحوباً بالعمل، فهم: "يجعلون الدخول في نطاق السعداء في الحياة الأخرى، ليس متوقفاً على الإيمان بالله فحسب، بل يطلبون زيادة على ذلك التسابق في العمل، بأداء أوامر الله والعمل بها، واجتناب حرمانه على وجه صارم؛ أما الإيمان وحده، أي الاعتقاد النظري بمبادئ الإسلام الأساسية، والتصديق بالله والرسول، فلا يمكن عدّه ضماناً لدخول المؤمنين الصادقين الجنة" (٣).

- يقول البغدادي (ت في العام ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م): "يختلف المنتسبون إلى الإسلام في الذين يدخلون بالاسم العام في ملة الإسلام. زعم أبو القاسم الكعبي في مقالاته أن قول القائل أمة الإسلام تقع على كل مقرّ بنبوّة محمد، وإن كل ما جاء به حق كائناً قوله بعد ذلك ما كان. وزعم قوم أن أمة الإسلام كل من يرى وجوب الصلاة إلى جهة الكعبة؛ وزعمت الكرامية - بحسمة خراسان - أن أمة الإسلام جامعة لكل من أقرّ بشهادتي الإسلام لفظاً. وقالوا كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن حقاً، وهو من أهل ملة الإسلام، سواء كان مخلصاً فيه، أو منافقاً مضمر الكفر فيه والزندقة" (٤).

- يقول عبد الله الهجري، إن: "المكلف هو البالغ العاقل الذي بلغته دعوة الإسلام، أي من بلغه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكان صحيح السمع لم يكن أصم؛ وليس شرطاً لبلوغ الدعوة أن تبلغه عقائد الإسلام بأدلتها، بل يكون مكلفاً بمجرد أن يبلغه أصل الدعوة، ولا يكون له عذراً أنه لم يكن فكّر في حقية الإسلام برهة من الزمن، لأن الرسول

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (٤م) : م . س : ص ٦٧ .

(٢) النروي: شرح الأربعين حديثاً النووية : م . س : ص ٣٤ .

(٣) جولد تسيهر، أجتس : م . س : ص ١٨٢ .

(٤) البغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق: دار الآفاق الجديدة: بيروت: ١٩٨٠: ط ٤: ص ٨ - ٩ .

ما كان يجهل الكفار برهة من الزمن ليفكروا، بعد أن يبلغهم دعوة الإسلام، في حقيقتها يوماً ولا يومين ولا أكثر من ذلك" (١).

يتابع الهرري: "وعلى أن من سمع في الآذان الشهادتين، وهو يفهم العربية، فهو مكلف؛ فإن مات ولم يسلم إستحقّ عذاب الله المؤبد في النار" (٢).

إلا أن الهرري يتناقض مع نفسه، وينسف كل ما حسبته ثوابت في شروط تبليغ الدعوة إلى الإسلام، وذلك من خلال تأكيد أن الإنسان مسير، وليس له إرادة في الاختيار، فهو يقول: "إن العبد لا يصير مسلماً إلا بأن يجعله [الله] مسلماً، وذلك يدل على أن الإسلام يحصل بخلق الله"، ويستدل على ذلك بالآية التالية: ﴿وَرَبَّنَا اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ (البقرة ٢ : ١٢٨) (٣). وكأننا بالهرري، من خلال هذا الاعتقاد، يؤكد أن الإنسان مكلف بالإسلام قبل أن يولد، وهذا يعني أنه لا لزوم لإنذاره أو إبلاغه، وسيان كان بالغاً أو غير بالغ، أو كان أصمّاً أو أنه كان ذا سمع.

- في معرض انتقاده الكثير من نقائص التاريخ العربي الإسلامي، يقول حامد حسن: "لما احتضّر أبو طالب، عمّ الرسول، وقف الرسول على رأسه، وعيناه دامتان، قائلاً: قلها يا عم وأنا أضمن لك الجنة. والضمير في (قلها) للشهادة. ولكن هذا التاريخ - وعلى ذمته - يروي أن أبا طالب لم يقلها، رغم حرص الرسول، وإشفاقه على عمّه" (٤).

يتابع حامد حسن، منتقداً: "أبو طالب، الذي كفّل الرسول صغيراً، وتعهّده يافعاً، ودعمه شاباً، وصانه وحمّاه رسولاً وداعياً إلى الله؛ نافح عنه بماله وأبنائه وقومه، قولاً وفعلاً، وكافح بجهد وسيفه، وعارض دونه بعرضه، وبكل ما أوتي من قوة وعدّة وجهد وطاقة... تحدّى قريشاً... ليحفظ محمداً ورسالة محمد... وأبو طالب هذا لم يقل الشهادة، شعار الإسلام وعماده... هذا ما تعلّمنا إياه التاريخ III ولكن هذا التاريخ نفسه، تعلّمنا أن أبا سفيان، قائد المشركين في مكة... صاحب معارك بدر وأحد والخندق وغيرها... قالها!! قال الشهادة وحسّن إسلامه، وضمن له الجنة" (٥).

(١) الهرري، عبدالله: بغية الطالب: م. س: ص ٨.

(٢) م. ن: ص ٨.

(٣) الهرري، عبدالله: الغارة الإيمانية في ردّ مفاسد التحريية: دارالمشريع: بيروت: ١٩٩٤: ط ٢: ص ٦.

(٤) راجع ابن هشام: السيرة النبوية (٢م): م. س: ص ١٨.

(٥) حسن، أحمد علي: المسلمون العلويون في مواجهة التجني: الدار العالمية: بيروت: ١٩٨٥: ط ١: ص ٨ - ٩.

- الثاني: أن يكون مولوداً مسلماً على الفطرة: جاء في الصحاح: الفِطْرَة (بالكسر): الخلقة. وقد فَطَّرَهُ، يَفْطُرُهُ (بالضم) فطراً، أي خَلَقَهُ .

والفِطْر: الابتداء والاختراع .

قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يُخْتَصِمَانِ في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها ^(١) .

وعن ولادة الإنسان على الفطرة، جاء في صحيح مسلم: عن أبي هريرة، قال رسول الله: ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرّانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة وقرأوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (الآية) ^(٢) .

(وإليك عدد من الروايات التي نقلها مسلم في صحيحه:

- "ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم يقول اقرأوا فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القويم" .

- "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه، فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت لو مات قبل ذلك؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين؟" .

- "ما من مولود يولد إلا وهو على الفطرة" .

- "إلا على هذه الفطرة حتى يبين عنه لسانه" .

- "ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبر عنه لسانه" .

- "من يولد على هذه الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرّانه، كما تنتجون الإبل، فهل تجدون فيها جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها . قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين؟" .

- "كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه، فإن كان مسلماً فمسلماً. كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها" ^(٣) .

(١) الجوهرى ، اسماعيل بن حماد : الصحاح (ج ٢) : م . س : ص ٧٨١ .

(٢) صحيح مسلم (م ٤) : دار المعرفة : بيروت : د . ت : د . ط : ص ٥٢ .

(٣) م . ن : ص ٥٣ - ٥٤ . - راجع ، أيضاً، مالك بن أنس: الموطأ : م . س : ص ١٨٩ .

(أما ابن حزم الأندلسي (ت في العام ٤٥٦هـ* ١٠٦٤م) فيقول: "إن النذارة لا تلزم إلا من بلغته [الدعوة] لا من لم يبلغه، وإنه تعالى لا يعذب أحداً حتى يأتيه رسول من عند الله عز وجل. فصَحَّ بذلك أنه من لم يبلغه الإسلام أصلاً فإنه لا عذاب عليه" (١).

(يقول محمد جواد مغنّية: "كل مولود تكوّن من نطفة، وأبواه أو أحدهما مسلم، حين نزول النطفة في رحم أمه، فهو بحكم الإسلام؛ فإن بلغ مسلماً، أي اختار الإسلام عند بلوغه بالقول أو بالفعل، إن كان كذلك انتقل من المسلم حكماً إلى المسلم حقيقة؛ وإن بلغ كافراً، أي اختار الكفر عند بلوغه، أنتقل من المسلم حكماً إلى الكافر حقيقة" (٢).

من يحمل هذه الشواهد نستنتج أن شرط النطق بشهادة واحدة يُعدُّ ضرورةً أساسية، وشرطاً كافياً عند بعضهم و غير كافٍ عند البعض الآخر، في انتماء المرء إلى الإسلام. ثم يأتي بعده شرط تعلّم أصول الدين وفروعه. إلا أن شرط التعلّم ليس مُلزماً عند البعض، وفي هذا المعنى جاء عند محمد رضا المظفر أن المسلم: إما أن يجتهد لنفسه، وإما أن يحتاط، وإما أن يقلّد المجتهد الجامع للشرائط (٣)؛ أي بمعنى أنه إذا لم يستطع الاجتهاد ولا الاحتياط فمن واجبه الديني، كحدّ أدنى لا يمكن النزول عنه، أن يقلّد أحد المجتهدين:

كما وإن الهرري يُعَدُّ: أن من بلغته الشهادتان، أو سمع بهما بالآذان، شرطاً كافياً لتكليفه بالإسلام، إلا أنه ليس شرطاً لبلوغ الدعوة أن تبلغه عقائد الإسلام بأدلتها.

إن هذا يؤكّد أن شرط النطق بالشهادتين، أو مجرد الاستماع إليهما، يُعدُّ ضرورياً وكافياً لكي يصبح الإنسان مسلماً. أما فيما يختصّ بالمسلم المولود على الفطرة، فليس هناك من شرط مطلوب توفّره، لكي يصبح الإنسان مسلماً. فهو قد خُلِقَ مسلماً منذ أن أصبح نطفة في رحم أمه؛ أي أن الله تعالى خلقه مسلماً.

د - ما هي عقوبة المسلم المرتد عن الإسلام؟

إذا كنا نريد أن نتكلم عن عقوبة المرتد عن الإسلام، تواجهنا أكثر من إشكالية؛ ومنها إشكالية الجبر والاختيار.

لو كان الإنسان مُجبراً - كما تدلّ على ذلك آيات من القرآن الكريم، وأحاديث من السنّة النبوية - فليست هناك أية فائدة في نقاش مسألة العقوبة على المرتد. فأما إذا كان الإنسان

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ٤): د ار الجيل: بيروت: ١٩٩٦: ط ٢: ص ١٠٥.

(٢) مغنّية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦): م. م. س: ص ٣١٠.

(٣) المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية: د ار الزهراء: بيروت: ١٩٨٣: ط ٤: ص ٦٧.

مُخَيَّراً فسوف تختلف الصورة، وسوف يتَّجه البحث اتجاهات أخرى، عندها سيجد الباحث ثقباً كثيرة يستطيع أن يتسلَّل منها لمناقشة ما أتى به الفقهاء المسلمون، وهذا لن يكون بمعزل عن عقبة المواجهة مع بعض التفصيلات في النص المقتس. وعلى هذا الأساس سنعمل جاهدين للتوصل إلى ما نستطيع بلوغه مما نحسبه يصب في مصلحة الإسلام والمسلمين.

(أما في حالة أن يكون الإنسان مُجَبَّراً، أي أن الله تعالى قد خلق مع الإنسان أفعاله، فنجد العديد من الآيات والأحاديث، التي سنختار منها ما يكفي للدلالة :

- ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْأَمْرِ أَعْلَمُ بِمَا نَحْنُ بِهٖ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الطلاق ٦٥ : ٣).
- ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّبِينٍ﴾ (النحل ٢٧ : ٧٤).
- ﴿...لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (سبأ ٣٤ : ٣).
- ﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّ شَيْءٍ فَلَهُ أَمْرٌ فَلَا يُخَافُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئاً﴾ (آل عمران ٣ : ١٥٤).

- وقال رسول الله (ص) في حديث له: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة في مثل ذلك، ثم يُرْسَلُ الملك فينفخ فيه الروح و يُؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" (١).

- ومن قول لابن مسعود عندما سأله رجل: وكيف يشقى رجل من غير عمل؟ فيجيبه أنه سمع رسول الله (ص) يقول: بأن الله يخلق الإنسان ثم يحدّد جنسه وأجله، ورزقه، ويسجّل ملك كل ذلك بالصحيفة (٢).

- وفي رواية عن الرسول أنه قال: "ليس أحد منكم ينجيّ عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله منه بمغفرة ورحمة" (٣).

(أما في الحالة الثانية، حيث يُعَدُّ الإنسان مُخَيَّراً، أي أنه يَخْتار أفعاله، فتتفرّع حالات إحداث العقوبة إلى مستويين : من كان غير مسلم ثم دخل الإسلام على أساس النطق بالشهادتين. ومن كان مسلماً بالفطرة، أي من كان أبواه أو أحدهما مسلماً.

.. المسلم الناطق بالشهادتين .

(١) صحيح مسلم (٤م) : ٢ . م : ص ٤٤ .

(٢) م . ن : ص ٤٥ .

(٣) م . ن : ص ١٤٠ .

(جاء في حديث للرسول: "من غيّر دينه فاضربوا عنقه".

(وفي حديث آخر: "لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ...، ...، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

يتفق العلماء المسلمون، من مختلف العصور والمذاهب، على أن عقوبة المرتد عن الإسلام هي القتل. لكنهم يتباينون في آرائهم حول الشروط التي يجب توفّرها قبل إنزال هذه العقوبة. وإليك عددًا من الشواهد والأقوال:

(حدثني مالك عن... أنه قال: قدم عليّ عمر بن الخطاب رجل من قبيل أبي موسى الأشعري. فسأله عن الناس، فأخبره. ثم قال له عمر: هل كان فيكم من مُغْرَبَةٍ؟ فقال: نعم. رجل كفر بعد إسلامه. قال: فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه. فقال عمر: أفلا حبستموه ثلاثًا، وأطعمتموه كل يوم رغيفًا، واستبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله؟ ثم قال عمر: اللهم إني لم أحضر. ولم أرضَ إذ بلغني^(١).

(جاء عند النيسابوري: من يرتد عن دينه: في الدنيا لما يفوته من فوائد الإسلام، فيُقتل عند الظفر به... وتبين زوجته ويحرم الميراث. وأما في الآخرة فيكفي في تقريره قوله: ﴿وأولئك أصحاب النار فيها خالدون﴾^(٢).

(جاء عند جعفر الصادق: "من يرغب عن الإسلام، وكفر بما أنزل على محمد (بعد إسلامه فلا توبة له. وقد وجب قتله، وبانت امرأته، وقُسِّمَ ما ترك على ولده"^(٣).

(جاء عند النووي: "وقوله التارك لدينه، المفارق للجماعة، عامّ في كل مرتدّ عن الإسلام بأي إرادة كانت، فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام"^(٤).

(يقول صاحب الجواهر: لا عبرة بارتداد الصبي، حتى لو كان مراهقًا، ولكنه يُؤدّب بما يرتدّ به"^(٥).

(أما مالك بن أنس فيرى: "أنه من خرج من الإسلام إلى غيره، مثل الزنادقة وأشباههم. فإن أولئك، إذا ظهر عليهم قُتلوا ولم يُستأبوا، لأنه لا تُعرف توبتهم. وإنهم كانوا يُسرون الكفر ويُعلنون الإسلام. فلا أرى أن يُستأب هؤلاء، ولا يُقبل منهم قولهم. وأما من خرج من

(١) بن أنس، مالك: الموطأ: م. س: ص ٥٦٠.

(٢) الطبري: جامع البيان... (ج ٢): م. س: ص ٢٠٧.

(٣) مغنية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦): م. س: ص ٣٠٨.

(٤) النووي: شرح الأربعين حديثًا النووية: م. س: ص ٤٩.

(٥) مغنية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦): م. س: ص ٣١٢.

الإسلام إلى غيره، وأظهر ذلك، فإنه يُستتاب؛ فإن تاب وإلا قُتِل. وذلك لو أن قوماً كانوا على ذلك، رأيت أن يُدعوا إلى الإسلام، ويُستتابوا؛ فإن تابوا قُبِلَ ذلك منهم. وإن لم يتوبوا قُتِلوا. ولم يعن بذلك، فيما نرى والله أعلم، من خرج من اليهودية إلى النصرانية؛ ولا من النصرانية إلى اليهودية؛ ولا من يغيّر دينه من أهل الأديان كلها إلا الإسلام. فمن خرج من الإسلام إلى غيره، وأظهر ذلك، فذلك الذي عُني به. والله أعلم (رواه البخاري في كتاب "الجهاد" (١)).

(أما الروائية فقالت: إنه كل شرك وضلال يصدر عن مسلم، فإن تاب صاحبه وإلا قُتِل (٢). أو يصدر عن طائفة، فإنه من امتنع "من شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة... يجب قتال الطائفة الممتنعة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله، ويلتزموا شرائع الإسلام، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، ملتزمين ببعض شرائع الإسلام... وإنهم يُقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام" (٣).

(ويرى السيد سابق أن الإسلام قرّر عقوبة معجّلة في الدنيا للمرتدّ، فضلاً عما توعدّه الله به من عذاب ينتظره في الآخرة، وهي عقوبة القتل (٤).

وإن المسلم - يتابع السيد سابق - إذا ارتدّ ورجع عن الإسلام، تغيّرت المعاملة التي كان يُعامل بها كمسلم: فسخ زواجه - لا يرث أحداً من أقاربه المسلمين - يفقد أهليته للولاية على غيره (٥).

(أما عند المعتزلة "فمن لم يؤدّ الأعمال التي أمر الله بها في الشرع، ومن يتعدّى أيضاً حدود الشرع ولو في أمور تافهة فحسب، لا يجوز أن يعزّي نفسه بتعريف عابر أو سطحي بالنار، كما يفسح له أهل السنة الأمل في ذلك؛ بل معدود بكونه فاسقاً أو عاصياً وبرغم إيمانه، من الفريق المخلّدين في النار، إلا أن يتوب وهو حي بعد توبة نصوحا، ويندم ندماً صادقاً على آثامه مع التخلّي عنها" (٦).

(أما محمد جواد مغنية فيقسم المرتدّين إلى فئتين: المرتدّ عن فطرة، والمرتدّ المُلّي.

(١) بن أنس، مالك: الموطأ: م. س: ص ٥٥٩.

(٢) النجدي، عبد الرحمن: الدرر السنية (ج ١): م. س: ص ٢٥٩.

(٣) م. ن: ص ٢٦٦.

(٤) السيد سابق: فقه السنة (٢م): م. س: ص ٤٥٥.

(٥) م. ن: ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٦) جولدسيهر، أجتس: م. س: ص ١٨٣.

أما عن المرتدّ المّلي فهو يقول: "هو الذي كان كافراً حقيقة عند بلوغه، ثم أسلم، ثم ارتدّ ورجع عن الإسلام؛ أما إذا بلغ كافراً فإنه يُستتاب ويُدعى إلى الإسلام، فإن أجاب فذاك، وإن أصرّ على الكفر قُتل إن كان رجلاً^(١) .

لكن مغنية، ذاته، يقول: إن الله يّين للمسلمين: "أن الكافر لا يُعاقب على كفره في هذه الحياة بمنع الرزق عنه والتضييق عليه كي يُضطرّ إلى الإيمان... وليس لأحد أن يعامله بذلك، حتى ولو كان رسولاً من عند الله: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠ : ٩٩)^(٢) .

مما سبق، نرى أن هناك عقوبتان تُفرض على المرتدّ عن الإسلام، كما أجمع عليه العلماء المسلمون، استناداً إلى الحديث النبوي وإلى آيات القرآن :

- الأولى : الحساب في الآخرة، وهي العقوبة التي فرضها الله تعالى في كتابه الكريم.

- الثانية : الحساب في الدنيا، وهي عقوبة القتل، التي فرضها الرسول في حديث له.

(وفي تفسير، جاء عند أحمد مغنية، في تأويله للآية: ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء ٤ : ٨٠) ؛ يقول: "أما من أعرض ولم يصغِ فالله خصمه، وهو الذي يحاسبه ويعاقبه، إنا أرسلناك أيها النبي لتكون بشيراً ونذيراً، ولم نرسلك لتكون حافظاً لهم من التمرّد ومسؤولاً عنهم في حالة العصيان"^(٣) .

(وجاء في تفسير ابن كثير: "من تولى عنك غاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء"^(٤) .

(ومحمد جواد مغنية قال: "إن وظيفة الرسول تحدّدها كلمة الرسول نفسها، كما تحدّد كلمة الشمس معناها، أما الحساب والعقاب فالله، لا إلى الرسول: ﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية ٨٨ : ٢٦)"^(٥) .

لم تكن عقوبة القتل للمرتد عن الإسلام محل خلاف بين الفقهاء المسلمين، وإنما ذهبوا في الشروط التي تميز القتل مذاهب شتى، إلا أن التوسع أو التضييق فيها لم يُغيّر أو يُبدّل في نوعية العقوبة، ومن هذه الشروط:

(١) مغنية ، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج٦) : م . س : ص ص ٣١٠ - ٣١٤ .

(٢) مغنية ، محمد جواد : التفسير الكاشف (١م) : م . س : ص ٤٢٦ .

(٣) مغنية، أحمد: خلاصة التفاسير في أوضح المعاني: المكتبة الحديثة: بيروت: د. ط: د. ت: ص ١١٤ .

(٤) ابن كثير : تفسير ابن كثير (ج٢) : م . س : ص ٣٤٥ .

(٥) مغنية ، محمد جواد : التفسير الكاشف (٢م) : م . س : ص ٢٨٨ .

- إشرط البعض استتابة المرتد قبل إنزال عقوبة القتل فيه؛ وأما البعض الآخر فلم يشترط ذلك.

- على الرغم من أنه لا يُعتدّ برِدّة الضبي، إلا أن بعض الاجتهادات أجازت تأديبه بما يرتدع به.

- عقوبة الردّة تطبّق على المسلمين من دون غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى. لكن هذه الأحكام، المستندة إلى حديث للرسول، بقتل المسلم المرتد، تتواجه مع روايات أخرى نقلت عنه؛ ففي تفسير آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، مثلاً، نقل بعض العلماء المسلمين روايات يختلف البعض منها عن البعض الآخر، حول أسباب النزول؛ ولا يُشتَمُّ منها كلها، على الرغم من اختلافها، ما يدلُّ على فرض أية عقوبة دنيوية أو غيرها على المرتدين عن الإسلام، أو على أبناء المسلمين الذين انتسبوا إلى أديان أخرى. وسنتقل مضمون بعض هذه الروايات:

(الرواية الأولى: تنصّر ولدان مسلمان، من أب مسلم، فلم يطلبهما الرسول ولم يفرض عليهما أية عقوبة، قائلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾^(١) .

(الرواية الثانية: لما أجلي رسول الله بني النضير في السنة الرابعة للهجرة؛ كان بينهم بعض أبناء المسلمين، الذين نذرهم أهلهم في الجاهلية لليهودية، فلم يُكرههم الرسول على الإسلام، بل طلب أن يُخيروا، فإن اختاروا اليهود يتمّ إجلاؤهم معهم^(٢) .

(الرواية الثالثة: كان ناس من الأنصار مُسَرِّضِينَ في بني قريظة، فأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام، فنزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٣) .

فإذا كانت هذه الروايات تنفي استخدام أسلوب قتل المرتد. وإذا كان الله تعالى لم يفرض عقوبة دنيوية تتجاوز التهديد بالعذاب في الآخرة، ولا تصل إلى حد القتل في الدنيا. وإذا عدنا إلى مضمون التفسيرات التي تناولت آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ والتي تدلُّ على منع استعمال الإكراه بالدعوة إلى الدين، وطال هذا المنع النبي بالذات، فهل يجوز قتل المرتد لغیره من المسلمين؟ فلماذا - مع كل ذلك - يُجمع المسلمون على استخدام عقوبة قتل المرتد بدلاً من استخدام أسلوب التخيير وهو الأسلوب الذي استخدمه الرسول بالفعل؟ فهل مردّد ذلك لخطورة يُلجِئُها المرتدّ بالإسلام؟ وما هي درجة هذه الخطورة؟

(١) الطبري: جامع البيان... (٣م) : ٢. س : ص ص ١٠ - ١١ .

(٢) ٢. م. ن : ص ١٠ .

(٣) ٣. م. ن : ص ١١ .

يقول السيد سابق: "إن الإسلام، كمنهج عام للحياة ونظام شامل للسلوك الإنساني، لا غنى له من سياج يحميه ودرع يقيه؛ فإن أي نظام لا قيام له إلا بالحماية والوقاية والحفاظ عليه من كل ما يهز أركانه، ويزعزع بنيانه، ولا شيء أقوى في حماية النظام ووقيته من منع الخارجين عليه؛ لأن الخروج عليه يهدد كيانه ويعرضه للسقوط والتداعي .

إن الخروج على الإسلام - يتابع السيد سابق - والارتداد عليه إنما هو ثورة عليه، والثورة عليه ليس لها من جزاء إلا الجزاء الذي اتفقت عليه القوانين الوضعية، فيمن خرج على نظام الدولة وأوضاعها المقررة.

فإن أي إنسان - والكلام للسيد سابق - سواء كان في الدول الشيوعية، أم الدول الرأسمالية - إذا خرج على نظام الدولة فإنه يُتهم بالخيانة العظمى لبلاده، والخيانة العظمى جزاؤها الإعدام. ويحسم السيد سابق الأمر قائلاً: فالإسلام في تقرير عقوبة الإعدام للمرتدين منطقي مع نفسه، ومتلاق مع غيره من النظم^(١).

أما عبد القادر عودة (فقيه إسلامي معاصر) فيقول: "تعاقب الشريعة على الردة بالقتل؛ لأنها تقع ضد الدين الإسلامي وعليه يقوم النظام الاجتماعي للجماعة، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة هذا النظام، ومن ثم عُوقب عليها بأشد العقوبات استئصالاً للمجرم من المجتمع وحماية للنظام الاجتماعي من ناحية، ومنعاً للجريمة وزجراً عنها من ناحية أخرى ... وأكثر الدول اليوم تحمي نظامها الاجتماعي بأشد العقوبات تفرضها على من يخرج عن هذا النظام أو يحاول هدمه أو إضعافه... فالقوانين الوضعية اليوم تعاقب على الإخلال بالنظام الاجتماعي [بالعقوبة نفسها] التي وضعتها الشريعة لحماية النظام الاجتماعي الإسلامي"^(٢).

إنه من المنطقي أن يعمل أي نظام سياسي على حماية نفسه بالقوانين الرادعة؛ ويأتي القانون الجنائي، الذي هو "مجموعة القواعد التي تحدد الأفعال المجرمة والمعاقب عليها"^(٣)، هادفاً إلى توفير الأمن الاجتماعي للمواطنين، وإلى حماية المؤسسات التي يقوم عليها المجتمع^(٤).

ويقوم القانون الجنائي، أيضاً، بوظيفة سياسية تتجسد بحماية الدولة لدستورها ونظمها ومؤسساتها وسلامة الوطن وأمنه واستقراره^(٥). والقانون الذي وافق عليه المجتمع، أخذ

(١) السيد سابق: فقه السنة (٢م) : م . س : ص ٤٥٧ .

(٢) عودة، عبد القادر: التشريع الجنائي الإسلامي: مؤسسة الرسالة: بيروت: ١٩٨٥: ط ٦: ص ٦٦٢.

(٣) العوجي، مصطفى: النظرية العامة للجريمة (ج ١) : مؤسسة نوفل: بيروت: ١٩٨٤: ط ١: ص ٢١.

(٤) م . ن : ص ٢٧ .

(٥) م . ن : ص ٣٣ .

المجتمع على عاتقه إنزال العقاب بمن يخالفه، بعد أن نزع هذا الحق من أيدي الأفراد وحصره بيد السلطة القضائية^(١).

فهل الإرتداد، كما جاء وصفه آنفاً، يُعدُّ جريمة مُتصلة بالنظام الاجتماعي، ويهدّد سلامة المجتمع وأمنه واستقراره؟

وهل الإرتداد عن الإسلام هو خروج على نظام الدولة، وتهمة بالخيانة العظمى للبلاد؟ وهل صحيح أن جرائم الإخلال بالنظام الاجتماعي هي ذات مستوى واحد؟ بمعنى: هل إن الجريمة هي ذاتها الجنائية، والجنحة، والمخالفة؟

وهل حرية المعتقد هي جريمة على مستوى الخيانة؟ وهل حرية المعتقد الديني هي إخلال بالنظام الاجتماعي؟

هنا يميّز مصطفى العوجي (قانوني لبناني معاصر) بين الجريمة الدينية وبين الجريمة الاجتماعية، وهو يَعدُّ "أن هذا التمييز جوهرى في الفقه الإسلامى، لأن الشريعة كانت ترعى المسلمين وغير المسلمين من الشعوب التي حكمها المسلمون"^(٢).

فإذا كانت حرية الاعتقاد الديني جريمة جنائية، تشكّل إخلالاً بالنظام الاجتماعي، وبالتالي خيانة عظمى تستحقّ القتل؛ فما هو مصير مواطني الدولة - ذات النظام الإسلامى - من غير المسلمين؟

فإذا كان الجواب نعم، فعلى الدولة الإسلامية أن تحاكم هؤلاء على هذا الأساس. لكن هذا لم يحصل في كل تاريخ الدولة الإسلامية، باستثناء ما حصل مع يهود بني النضير وبني قريظة... أما إذا كان الجواب لا، فإن المرتدّ عن الإسلام لن يشكّل، أيضاً، الخطورة التي يتوهم المسلمون أنها موجودة. إنما الخطورة الشديدة، التي كانت تتعرض لها الدولة الإسلامية؛ فإنما كان مصدرها، أساساً، نابعاً من حروب الفتنة بين شتى الفرق الإسلامية، والتي امتدّت قروياً طويلة دون أن تهدأ؛ وإن هدأت فإنما كانت تنتظر الوقت المناسب لكي تطلّ برأسها من جديد.

إن القانون الوضعي قد ميّز بين حرية المعتقد، ومنها حرية الأديان، وبين الجرائم التي تُعدُّ خطراً على الأمن الاجتماعي، مثل: السرقة، والزنى، وجرائم القتل... وجريمة التجسس لصالح أعداء الدولة.

(١) م . ن : ص ٥١ .

(٢) م . ن : ص ١٤٨ .

وقد ميّز القانون الوضعي، أيضاً، بين أفعال الإنسان الجرمية العادية، التي يرتكبها بدافع أناني لتحقيق مكسب شخصي دنيء وغير شريف، وبين الدافع السياسي المتجرد عن الأنانية والذاتية والمصلحة الشخصية، ويرمي إلى تحقيق أهداف يعتقد أنها سامية ومشرفة؛ إلا أنه استثنى من الصفة السياسية الجرائم التالية: الجرائم الواقعة على أمن الدولة الخارجي - الخيانة - التجسس - العلاقات غير المشروعة مع العدو^(١).

إن هذه الجرائم المستثناة من حق الاستفادة من الحقوق السياسية - لا تشمل في الواقع الردّة عن الدين - فهي من الممكن أن يرتكبها مسلم لم يرتدّ عن دينه، وقد يرتكبها مرتدّ دون أن يعلن ارتداده، وقد يرتكبها من أعلن الردّة. وقد يمتنع عن ارتكابها غير المسلم من مواطني الدولة الإسلامية.

فلو كان وجود أديان أخرى، غير الإسلام، يهدد أمن الدولة الإسلامية، لما كانت العهود الإسلامية المتلاحقة، منذ عصر دولة الرسول في المدينة وصولاً لآخر دولة إسلامية عرفتها البشرية، قد سمحت ببقاء أية أديان أخرى في داخل الثغور الإسلامية.

وحيث أن وجود أديان أخرى لا يُشكّل خطراً على أمن الدولة، فوجود مرتدّين عن الإسلام - في داخل هذه الدولة - لن يُشكّل، أيضاً، خطراً عليها. ولهذا نرى أن التفاوت في الأحكام بين المسلم المرتد عن الإسلام وبين غير المسلم، أصبح أمراً نظرياً يتعدّد كثيراً عن الواقع؛ ويتعرّز هذا الاعتقاد في ظل الدولة العصرية، سواء كانت إسلامية، أم غير إسلامية؛ وسواء كانت دولة دينية أم دولة علمانية.

- من وَلَدَ وكان أبواه أو أحدهما مسلماً :

(جاء في صحيح مسلم: "عن عائشة، أم المؤمنين، قالت: "دُعِيَ رسول الله (إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت يا رسول الله: طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: أو غير ذلك يا عائشة. إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم" (٢).

(وجاء عند مالك بن أنس: قال رسول الله: "إن الله تبارك وتعالى خلق آدم. ثم مسح ظهره يمينه، فاستخرج منه ذرية. فقال خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية. فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون. فقال

(١) م . ن : ص ٢٢٠ .

(٢) صحيح مسلم (ج ٨) : م . ن : ص ٥٥ .

رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال: فقال رسول الله: "إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيُدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيُدخله به النار" (١).

(يذكر ابن حزم الأندلسي: رُوِيَ عن رسول الله: "أن خديجة أم المؤمنين (ر) قالت: يا رسول الله، أين أطفالي منك؟ قال: في الجنة. قالت: فأطفالي من غيرك؟ قال في النار. فأعادت عليه، فقال لها: إن شئت أسمعك تضاعفهم" (الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ٦) ص ٢٠٨ (٢). لكن ابن حزم يظن أن هذه الرواية ساقطة (غير صحيحة) (٣).

(وعندما سئل النبي: "أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين" (٤).
(يقول مغنية: "إذا أسلم الأب جرّ الولد إلى الإسلام، فمن أدرك من ولده دُعِيَ إلى الإسلام، فإن امتنع قُتِل" (٥).

(أما ابن حزم فيقول: "فصح أنه لا يُجزى أحد بما لم يعمل وبما لم يسن". وذلك استدلالاً من قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (غافر: ٤٠ : ١٧). و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٠). ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ٦ : ١٦٤) (٦).

(يقول تقي الدين النبهاني (مؤسس حزب التحرير الإسلامي - أواسط القرن ٢٠ م):
"فتعليق المثوبة أو العقوبة بالهدى والضلال يدلّ على أن الهداية والضلال هما من فعل العبد وليس من فعل الله" (٧).

-
- (١) بن أنس، مالك: الموطأ: م. س: ص ص ٦٨٩ - ٦٩٠.
(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (ج ٤): م. س: ص ١٢٧.
(٣) م. ن: ص ١٢٩.
(٤) صحيح مسلم (ج ٨): م. س: ص ٥٣.
(٥) مغنية، محمد جواد: لقيه الإمام جعفر الصادق (ج ٦): م. س: ص ٣١٢.
(٦) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ٤): م. س: ص ١٣٣.
(٧) النبهاني، تقي الدين: الشخصية الإسلامية (ج ١): ص ٧٤. نقلًا عن عبد الله الحرري: الغارة الإيمانية في رد مفاسد التحريرية: دار المشاريع: بيروت: ١٩٩٤: ط ٢: ص ٤.

(يرى عبداً لله الحرري، أن "المكلف هو البالغ العاقل الذي بلغته دعوة الإسلام، أي من بلغه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكان صحيح السمع لم يكن أصم...ومن مات قبل البلوغ فليس عليه مسؤولية في الآخرة" ^(١) .

فالحرري، إذاً، لا يحمل الأطفال - كل الأطفال - مسؤولية الحساب في الآخرة، فيتناقض مع ما يقول في كتاب آخر له: يحسب الحرري بأن كل من يقول إن الإنسان مخير هو مخالف للقرآن والحديث وصريح العقل، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ (الفرقان ٢٥: ٢). و﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (القمر ٥٤: ٤٩). و﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ (الأعراف ٧: ١٥٦). و﴿إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك فقل كل من عند الله﴾ (النساء ٤: ٧٨) ^(٢) . أو ﴿هل من خالق غير الله﴾، وهذه الآية وحدها تكفي لإبطال عقيدة [من قال بأن الإنسان يخلق أفعاله] ويخلص الحرري إلى تكفير القائل بها ^(٣) .

ما هو حكم أولاد المشركين ؟

(عن الرسول قال: "...إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم" ^(٤) . وعندما سُئل الرسول: "أفرايت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين" ^(٥) .

(رُوي عن سلمة بن يزيد الجعفي، قال: " أتيت أنا وأخي رسول الله (فقلنا له: إن أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تُقرئ الضيف، وتصل الرحم، فهل ينفعها من عملها ذلك شيء؟ قال: لا. قلنا: فإن أمنا وأدت أختاً لنا في الجاهلية [لم تبلغ الحنث] ^(٦) . فقال رسول الله: المؤودة والوائدة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم" ^(٧) .

(١) الحرري، عبد الله: بغية الطالب: م. س: ص ٧.

(٢) الحرري، عبد الله: الغارة الإيمانية...: م. س: ص ٤ - ٦.

(٣) م. ن: ص ١١.

(٤) صحيح مسلم (ج ٨): م. س: ص ٥٥.

(٥) م. ن: ص ٥٣.

(٦) وردت هذه الجملة في بعض الروايات. راجع ابن حزم: الفصل في الملل... (ج ٤): م. س: ص ١٢٩.

(٧) م. ن: ص ١٢٧.

(يقول ابن حزم: إن الرسول علم أنها بلغت الحنث بخلاف ظن أخويها، فلا يجوز إلا هذا القول "لأن كلامه لا يتناقض ولا يتكاذب ولا يخالف كلام ربه عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْدَّةُ سَلَّتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير ٨١ : ٨) ^(١) .

(لما أتيت بسبايا طيء وُجدت جارية مكتملة صفات الجسد والأدب. فذكرت أمام رسول الله صفات والدها، وقالت إنها ابنة حاتم الطائي. فقال النبي: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً... خلّوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق... ثم تابع رداً على سؤال: والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق ^(٢) . ويُروى أيضاً أن الرسول قال لابن حاتم الطائي: "إن أباك أراد أمراً فأدركه (يعني لكى يقال عنه أنه كريم، ورجل هذه نواياه لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة) ^(٣) .

(وجاء عند ابن حزم أنه صحّ عن النبي "بأن أطفال المشركين في الجنة". وعلى الرغم من ذلك، فقد اختلف الناس في حكم من مات من أطفال المسلمين والمشركين، ذكورهم وإناثهم فقالت الأزارقة والخوارج: أما أطفال المشركين ففي النار. وذهبت طائفة أخرى: إلى أنه يُوقد لهم، يوم القيامة نار، ويُؤمرون باقتحامها، فمن دخلها منهم أدخل النار ^(٤) .

هـ - من هي الجهة التي تنفذ عقوبة القتل بالمرتد؟

من يحمل الروايات، التي وردت، يُستدل أن ولي الأمر هو الذي يُثبت الاتهام، وهو الذي يُنفذ العقوبة :

(جاء عند السيد سابق أن الإسلام قرّر عقوبة القتل على المرتد، أما الذي ينفذ فهو أنه: "لو قتله مسلم من المسلمين لا يُعتبر مرتكباً جريمة القتل، ولكن يُعزّر [تُخفف عقوبته] لافتياته على الحاكم" ^(٥) .

(وجاء عند جعفر الصادق: "على الإمام أن يقتله ولا يستبّه" ^(٦) .

(١) م . ن : ص ١٢٩ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٢) : م . س : ص ٢١٣ .

(٣) م . ن : ص ٢١٣ .

(٤) ابن حزم: الفصل في الملل... (ج ٤) : م . س : ص ١٢٥ .

(٥) السيد سابق: فقه السنة (م ٢) : م . س : ص ٤٥٥ .

(٦) مغنية ، محمد جواد : فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٦) : م . س : ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(أما الهري فيقول أنه: "يجب [على كل مكلف] أمر من رآه تاركاً شيئاً [من الواجبات الدينية] أو يأتي بها على غير وجهها، بالإتيان على وجهها، ويجب عليه قهره على ذلك إن قدر عليه" ^(١) .

(ونفى محمد جواد مغنية أن يُعاقب الكافر على كفره بمنع الرزق عنه "وليس لأحد أن يعامله بذلك، حتى ولو كان رسولاً من عند الله" ^(٢) .

كان عمر بن الخطاب قد امتنع من الحاكم الذي نفذ عقوبة القتل بالمرتد، وتبرأ من ظلمه في تطبيق العقوبة، لأنه لم يتخذ الاحتياطات التي كان الرسول حريصاً عليها عندما تبرأ مما فعله خالد بن الوليد، إذ كانت ردة فعل الرسول، وكذلك ردة فعل عمر، تدل على أن الحاكم قد يخطيء في تطبيق الحدود؛ فكيف يكون الأمر لو أن أي مسلم أصبح مخولاً بتطبيق الحدود كما افترض ذلك كل من السيد سابق والهري على سبيل المثال؟ وإننا نتساءل كم تصبح الأمور سائبة إذا ما حمل أي مسلم السيف لكي يقتص به من المرتدين؟ ألن يجد من أولي الأمر - من المسلمين أو غيرهم - من يرفع يديه إلى السماء متبرئاً من عمل هؤلاء السيافين؟ وهل من الجائز أن ينوب أي فرد مسلم مهما بلغ من التقى عن الدولة ومؤسساتها وقوانينها وشرائعها؟ فلو استجاب مسلم ما لفتوى، وأنزل العقاب - الذي يحسبه شرعياً - بأحد المسلمين بتهمة الردة - والالتهام بها سهل ويسير - وتبين لدى فئة من المسلمين أن الاتهام باطل، فهل يكون اجتهاد من اجتهد مأجوراً أجراً واحداً لأنه اجتهد وأخطأ؟

٦ - حديث الفرقة الناجية من النار :

إن تحديد هوية المسلم، في ما له علاقة إلى أية فرقة إسلامية ينتسب، كشرط لازم وضروري لكي ينجو من عذاب الدنيا والآخرة، كان من الإشكاليات التي نشأت منذ وفاة الرسول، وتشعبت، وما زالت مستمرة، إلى ما ينأهز المائي فرقة. وعلى الرغم من أن هذه المسألة من المسائل التي سوف نعود إليها في المراحل اللاحقة من بحثنا هذا، إلا أنه من الأهمية أن نعرض أصولها التي استندت إليها لما لها من علاقة وثيقة بمبدأ الردة .

(في حديث للرسول قال: " إفرقت بنو إسرائيل إلى إحدى وسبعين فرقة، وافرقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة" ^(٣) . قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال: منهم ما أنا عليه أنا وأصحابي".

(١) الهري، عبد الله : بغية الطالب : م . س : ص ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) مغنية، محمد جواد : التفسير الكاشف (١م) : م . س : ص ص ٤٢٦ .

يرى حسن حنفي (مفكر إسلامي معاصر) أن هذا الحديث: "مشكوك في صحته، ليس متواتراً، والتواتر هو شرط اليقين في الأدلة السمعية. و الاتفاق مع الحس والعقل أحد شروط التواتر" (١).

(وفي رواية أخرى، أخبر النبي: "ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة، والباقون هلكى. قيل: ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة. قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي". وقال: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق إلى يوم القيامة" (٢).

(وفي حديث رواه مسلم: "ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعماية ألف [لا يدري أبو حازم، الذي روى الحديث، أيهما أصح]. قال: متماسكون، أخذ بعضهم بعضاً لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم" (٣).

(وفي رواية أخرى، مضمونها: أن الرسول استشفع أمام الله عز وجل بأمة الإسلام، ثم بكى. ولما سأل جبريل الرسول (ص) عن سبب بكائه: "قال الله: يا جبريل إذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك" (٤).

ما هي تأثيرات هذا الحديث على مستقبل الإسلام بعد وفاة الرسول؟

ولأن هذه المسألة هي أحد محاور بحثنا اللاحقة، والتي سوف نعود إليها بالتفصيل؛ إلا أنه يمكننا أن نلقي بعض الضوء على ما نظن أنه سوف يؤسس لإشكالية في مستقبل الإسلام. كانت معاقبة المرتد عن الإسلام من الغايات الأساسية للمحافظة على وحدة الجماعة الإسلامية. أما حديث افتراق الأمة الإسلامية، فهو دليل على أنه مكتوب على الإسلام أن يتفرق ولا يتوحد، وهو يتناقض مع مبدأ الردة، الذي من غايات تطبيقه الرئيسة المحافظة على وحدة الإسلام. لذا سوف نرى أن هذا الحديث سوف يؤسس لتنافس حاد بين المسلمين، فتكثر الفرق والملل، وسوف تعمل كل واحدة منها على إبراز جوانب إيمانها من جهة، ونقد الفرق الأخرى وتبيان بدعها وضلالاتها بقصد تكفيرها من جهة أخرى.

(٣) مسند أحمد (ج ٣) : ص ص ١٢٠ و ١٤٥ .

(١) حنفي، حسن: من العقيدة إلى الثورة (ج ٥) : دار التنوير: بيروت: ١٩٨٨ : ط ١: ص ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : دار صعب: بيروت: ١٩٨٦ : د . ط: ص ١٣ .

(٣) صحيح مسلم (ج ١) : م . س : ص ١٣٧ .

(٤) م . ن : ص ١٣٢ .

إن هذا التنافس بين الفرق له وجهه البارز في تعميق الفرقة بين المسلمين: فإنه بالقدر الذي تعمل فيه الواحدة منها على إسقاط الفرق الأخرى، فكأنها تعمل على إزاحة من يتنافسها على حيازة موقع الفرقة الناجية من النار.

٧ - إستنتاجات

للمشركين عفو عن شركهم إذا لم يعتلوا .
ولأهل الكتاب عفو عنهم إذا دفعوا الجزية .
ولأهل البغي عفو عنهم إذا فاؤا (رجعوا) إلى أمر الله .
وللمسلمين المنافقين سلامة من القتل بفعل شطارتهم بالتمويه . فالمسلمون المؤمنون يُقيمون
الظاهر من المسلم، ولا يتدخلون في الباطن منه .
فمنع استخدام القوة ضد المشركين، وأهل البغي، وأهل الكتاب، مشروط بامتناع العدوان
والبغي ودفع الجزية .
أما ردة المسلم عن الإسلام فليست مشروطة إلا بالعودة إلى الإسلام، وإلا فإن البديل هو
القتل؛ فلماذا ؟

من يضمن أن عودة من سيعود عن ردة إلى الإسلام خوفاً من القتل ستكون عن إيمان
صحيح ؟ أو ليس الاحتمال الأكبر لعودته أن يكون التستر بالإسلام حفاظاً على الحياة، والنتيجة
أن يكون مسلماً منافقاً؟ فهل يحمل المسلم المنافق خيراً للإسلام ؟
بين العقوبة الأخروية، الخلود في النار، التي فرضها الله تعالى على المرتدين؛ وبين العقوبة
الدنيوية، القتل، التي فرضها حديث الرسول، مسافة مليئة بالتساؤلات المشروعة/الشرعية والعقلية .
فرداً على هذا التباين، أضحي التسابق على التنازل في إبداء الخضوع في سبيل اتخاذ فتاوى
أشد قسوة، سنة دائمة عند معظم التيارات والفرق الإسلامية، إن لم يكن كلها. وأخذت هذه
الفرق، بدلاً من فتح باب التيسير تشريع فتاوى التعسير على أوسع أبوابها. وهنا نرى تراجيحاً
شديداً عند العلماء المسلمين - على شتى تياراتهم وفرقهم - إلى استدراج الأحكام والأوصاف
الأشد قسوة، التي أُطلقت على من حسبوهم مرتدين، الذين - لسبب عقلي أو نقلي - انتقدوا
جانباً أو أكثر من جوانب النص الإسلامي .

لقد وُصِفَتْ، ما حسبوها ردة، بأنها أشد أنواع الكفر على الإطلاق، ونَعِدُ هذه الأوصاف
أنها وسيلة للزلفى إلى الله تعالى؛ فكان إنزال أشد العقاب (القتل) ، على المسلم الذي غير دينه أو

حاول أن يجتهد كما اجتهد غيره، ليس إلا إرضاء لله تعالى - كما يحسبون - في الوقت الذي لم يفرض هو بعزته وجلاله مثل هذه العقوبة.

ففي مجال إملأ مساحة الفراغ والتباين الموجود بين النصين القرآني والنبوي، لماذا لم يعط العلماء/ الفقهاء أرجحية لصالح النص القرآني الذي أنزل من أجل هذا السبيل ؟
إن ذلك لم يحصل - كما نحسب - لأن الفقهاء المسلمين ضيعوا، في غمرة السيول من الجدالات المذهبية الراكضة وراء حيازة موقع الفرقة الناجية من النار باللجوء إلى المزيد من الزلفى لله، أيهما الأصل - النص القرآني أم النص النبوي - وأيها الفرع، في معرض المقارنة بين الحكم الآلهي و الحكم النبوي .

لو قُيِّض لنا أن نحصل على تاريخ واضح لأسباب النزول ، وللظروف التي دفعت بالرسول ليحدث بما حدث به من أحاديث نسبت إليه حول مسألة الردة، لكان ذلك خير مساعد في فهم مساحات التباين بين ما جاء في النص القرآني وما جاء في النص النبوي. فعلى الرغم من ذلك سنحاول، بما نستطيعه من الجهد وبما توفر لدينا من معطيات ووقائع تاريخية مؤكدة ، أن نصنع فيما بينها في محاولة لإعطاء رأي حول هذه الإشكالية .

كانت أول محاولة للفتنة بين صفوف المسلمين قد حصلت من ذيول الالتباسات التي أحدثتها وقائع ما جرى بعد سرية عبدا لله بن جحش، والتي تمت في أول عهد الرسول في المدينة، والتي دار الجدل فيها حول مسألة القتال في الشهر الحرام:

- ردّ فريق من المسلمين في مكة على المشركين أن القتال لم يتم في الشهر الحرام.
- وفريق آخر، مؤيداً موقف الرسول، أنب عبدا لله بن جحش على ما أقدم عليه من قتال في الشهر الحرام.

- الرسول نفسه غضب على عبدا لله بن جحش لأنه قاتل في الشهر الحرام.
- عبدا لله بن جحش وأصحابه امتنعوا عن تغيير موقفهم وأصروا على أن تنزل توبتهم.
- تدخل اليهود نافخين بالنار، فرحين بأن يحصل قتال بين المسلمين وقريش.
- استمرت قريش في التآليب على المسلمين بأنهم ارتدوا عن اتفاق تحريم القتال في الأشهر الحرم . كما إنها اتهمت الرسول بنقض العهود والمعاهدات .

في ظل هذا الانقسام أصبحت الأبواب مشرعة، في داخل دائرة الاحتقان، على أسوأ الاحتمالات، منها:

- كاد المسلمون أن يقتلوا بين مدافع عن عبدا لله بن جحش، وبين متهم إياه (فريق معه وفريق ضده) .

- فإذا وقعت الحرب بين قريش وبين المسلمين، في الوقت الذي يعاني فيه المسلمون من تشتت وفرقة في المواقف، حيث كانت الفتنة قد بدأت تنخر صفوفهم، ستكون الغلبة لقريش الموحدة الصفوف، المدعومة من اليهود.

أما الذي كان عليه أن يحسم أمر المسلمين ويوحد صفوفهم، فلم يكن إلا الرسول قادراً أن يعطي الحكم الفصل. فنزلت آية: (يسألونك عن الشهر الحرام...ومن يرتدد منكم عن دينه ... (إلى آخر الآية) ... (لتعالج أمرين:

- الأول: أحلّ للمسلمين قتال المشركين في الشهر الحرام، وهذا ما يضمن براءة عبدا لله بن جحش وأصحابه، وهي الحل الذي يُعيد للمسلمين وحدتهم .

- الثاني: تهديد المسلمين الذين كانوا على وشك الارتداد عن الإسلام بإحباط أعمالهم (إبطال ثوابهم) في الدنيا والآخرة؛ وإنهم بارتدادهم عن الإسلام سوف يكونوا من أصحاب النار هم فيها خالدون .

ولهذا، وبعد أن أصبح المسلمون في موقع عسكري قوي، وبعد أن ازدادت سرايا الرسول وغزواته؛ ولما كثر القتال بين المسلمين والقبائل العربية التي لم تدخل الإسلام، ومنها التجمعات اليهودية، أصبح الكثيرون من المسلمين الخائفين على حياتهم، أو الخائفين من ويلات القتال، وهم الذين أطلق القرآن عليهم صفة المنافقين، أقرب إلى أن يرتدوا عن الإسلام، وهذا ما يمكن أن يُحلّ الضعف في نفوس من لم يدخل الإيمان قلوبهم بسبب من حلالة انتمائهم للإسلام.

كانت الردة، في مثل تلك الظروف حيث كان الإسلام طريء العود، من أفحش أنواع الكفر، أي من أشد الأخطار التي يمكن أن يواجهها الإسلام فعلاً، ليس لأسباب عقيدية دينية، وإنما لأسباب تهديدها لأمن الجماعة المسلمة في مواجهة عدو كثير العدد والعدة.

فأرد الحاسم والمناسب، في مثل ظروف كذلك التي كانت فيها النتيجة المحتملة: إما حياة الإسلام أو موته، كان يجب أن يكون قاسياً حتى لو كان قتل المرتدين هو العقوبة المفروضة. كان الارتداد عن الإسلام، في تلك الظروف أيضاً، يُعثلُ خطراً أمنياً وعسكرياً أكثر منه خطراً عقيدياً دينياً. فالعقيدة الدينية كانت بطاقة هوية تثبت صحة انتماء الفرد إلى الدولة الحديثة العهد بالتأسيس في حينه، وكان الخروج عن العقيدة هو خروج عن الدولة.

لهذا، وكما نحسب، كانت مساحة التباين واضحة بين النصين القرآني والنبوي:

فالحكم القرآني يُعدُّ - كما نرى - ثابتاً قيمياً لا يتغير بتغير الزمان والمكان إلا في ما له علاقة ببعض التفاصيل، والتي قامت بتحديثها أحكام الناسخ والمنسوخ، التي وإن توسّع الفقهاء المسلمون في مساحاتها، فلا بد من إعادة النظر في هذه المساحات لتقريبها أكثر من الواقع المعاش.

أما النص النبوي فيمكن أن يلحق به التغيير، فهو قد يكون محكوماً بمرحلة أو ظرف أو موقف تقتضيه مصلحة الدفاع عن قيم أو مصالح عامة في ظرف من الظروف الخاصة.

فاستمرار التسابق على الحكم بالقتل على التارك لدينه، إستناداً إلى الحديث النبوي، من دون النظر إلى اختلاف الظروف، أصبح عند الفقهاء حكماً ثابتاً، بينما الحكم الثابت - الذي نصر عليه القرآن - أصبح عندهم متغيراً مرحلياً.

ماذا جاء من أحكام في النص القرآني حول أسلوب الدعوة للإسلام، والعقوبة المفروضة على التارك لدينه؟ ما هي الأحكام التي نصت عليها السُّنة النبوية حول المسألة ذاتها؟ أين تقع نقاط الالتقاء، ونقاط الافتراق؟ وهل من تسوية بينهما؟

- إن النص الوحيد الثابت هو النص القرآني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ و ﴿قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ و ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكَ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ و ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ...

- أما الأحاديث النبوية: "من ترك دينه فاقتلوه"، "وأمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا..."؛ فإنه على الرغم من الإجماع عليها بين الفرق الإسلامية كافة، إلا أن بعضهم قد أكثر من شروط صحة الإسلام أمام الأفراد والجماعات؛ وبعضهم قد أقل منها. وأخذوا يحاسبون بعضهم البعض بالتبديع والتفسيق والتكفير؛ وكانت كل فرقة منها تستند في أحكامها إلى الشروط التي وضعتها من طرف واحد استناداً إلى اجتهاداتها الخاصة بها، فلم يبق لمبدأ الردة في الإسلام - في مثل هذه الحال - إلا مهمة اتهام الآخرين بالردة وتكفيرهم؛ ففقدت الضوابط، وفلت السيف من عقاله. وبدورنا، وإذا حاولنا أن ننظر إلى هذه النصوص من خلال المنظور السوسيولوجي والتاريخي، فسرى أنها جاءت منعزلة عن هذا السياق.

حتى وإن عُرفَ ظرف النطق والعمل بها، فإن الروايات التاريخية التي يُستدلُّ منها على صحة الأحاديث قد دُوِّنت في عصور متأخرة جداً عن زمان حدوثها. يقول محمد أركون (مفكر عربي معاصر): "إن القرون الهجرية الأولى هي فترة صعبة جداً على الدراسة لأنها غائصة في أعماق الزمن؛ ولأن الوثائق الصحيحة المتعلقة بها نادرة؛ فالمصادر التي تتحدث عن هذه القرون التأسيسية من تاريخ الإسلام هي جميعها مصادر متأخرة، بمعنى أنها كُتبت بعد منتصف القرن الثاني الهجري (أي بعد ١٥٠ سنة على الأقل). وإذن فهي لم تُدَوَّن وقت حصول الأحداث أو فور حصولها كما يتوهم عموم المسلمين، وإنما بعد حصولها بزمان طويل"^(١).

(١) أركون، محمد: "حوار مع محمد أركون..." (٣٥ - ٤٤) : مجلة دراسات عربية : بيروت: العدد ٦/٥ : آذار/ مارس: ١٩٩٨: ص ٤٠.

إقتضت الظروف التي كانت محيطة بالرسول، في أثناء قيامه بالدعوة للإسلام، وضع عدد من الأحكام - جاء بعضها نصاً قرآنياً وبعضها الآخر حديثاً نبوياً - التي تُنظّم شؤون المسلمين؛ كان بعضها يتغير بتغير تلك الظروف. ويُقرُّ العلماء المسلمون بوجود آيات ناسخة وآيات منسوخة؛ فالناسخ يُمثلُ الحكم الجديد والمنسوخ يُمثلُ الحكم الملغى. إن وجود الناسخ والمنسوخ يدل دلالة واضحة على حتمية تغير الظروف، وعلى وجوب تغير الأحكام بما يتلاءم مع الظروف الجديدة؛ فالأحكام، إذاً، لم تكن تنزل بمعزل عن سياقها التاريخي: الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

رفض العلماء المسلمون أن ينظروا إلى النص من خلال خصائصه التاريخية، على العكس مما فعله الرسول ومما فعله النص القرآني. وكان ما فعلوه هو أنهم نظروا إلى النص على أساس جامد من القدسية، وتحريم المساس به، فتحول النص الديني، عندهم، من تاريخيته إلى مستوى التجريد الخالص؛ فأخذ هؤلاء يناجون الله - في لحظات الخلوة - وكان هذا النص أصبح بمنأى عن كل ما يحدث في المجتمع من سياسات وتقاليد وأعراف وتحزبات وصراعات، وكلها تجعل المجتمعات في حركة دائمة متغيرة، والدليل على ذلك مواكبة النص الدائمة - في خلال حياة الرسول - وفي أقل من عشرين سنة من عمر الدعوة الإسلامية، لتلك المتغيرات حيث كان حكم جديد لظرف جديد ينسخ حكماً قديماً كان يتناسب مع ظرف قديم. أفلا يمكن - إستناداً إلى حكمة الناسخ والمنسوخ، من جهة؛ وإلى تغير بعض الأحكام النبوية، من جهة أخرى - أن يتجرأ الفقهاء، من أجل مصلحة البشرية في وجوب التطور، أن يقرّبوا من حين إلى آخر بين النص والواقع، آخذين جانب الثوابت من القيم الإسلامية والإنسانية؟

لمثل هذه الأسباب، وخلافاً لما عمل - ولما زال يعمل - به الفقهاء المسلمون، سوف نرى في المراحل التاريخية اللاحقة، أن التاريخ عندما كان يتحرك، كان النص الديني يتراكم باستمرار لمواجهة حالة التطور، فيُنحَل منه وإليه، إلى درجات التضارب والتناقض والتصارع بين النصوص الفرقية/الملهية؛ ولم تكن حركة النص الديني - في خلال مئات من السنين - سوى خدمة لحركة التاريخ في مختلف وجوهها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

لنفترض، كما يفترض علماء الدين المسلمين في خلواتهم وفتياهم، أن النص في القرآن والسنة منعزل عن سياقه التاريخي والواقعي؛ فماذا نجد حول مسألة الانتماء إلى الإسلام وحول الردة عنه، وحول الأحكام التي صدرت على المرتد عن الدين؟

- أولاً: في مسألة الانتماء: حذر الله من استغلال الإكراه في الدعوة إلى الإسلام، قائلاً: (لا إكراه في الدين)؛ وترك حرية اختيار الإيمان أمام البشر أو حرية الكفر: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

بالإضافة إلى نفي الإكراه وتحذير النبي والمسلمين من استغلاله إلا بشروط دقيقة، أمر الله الرسول والمؤمنين بالتزام حدود حريتهم واحترام حرية الآخرين بالاختيار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. وأمر الله النبي، أيضاً، بأن دوره ليس في إكراه الناس على الإيمان، لأن الله قادر على إكراههم إذا شاء: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إلى جانب الآيات التي تمنع الإكراه أتى في القرآن آيات تأذن للمسلمين بالقتال بشروط: إذا ظلموا، أو لقتال الفئة الباغية، أو للدفاع عن النفس، أو قتال أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية. وعلى العكس من ذلك فقد جاء في حديث للرسول ما يحض على القتال في سبيل فرض الإسلام: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا..."; فهل يعني هنا بكلمة الناس - كل الناس - أم أن هناك جماعة محددة؟ وهل معنى (الناس) هنا عام أم خاص؟

إذا كان المقصود (بالناس) المعنى العام، فإن فيه ما يتناقض مع ما جاء في القرآن. أما إذا كان المقصود هو المعنى الخاص، فيكون حديث الرسول ظرفياً ومؤقتاً ومتغيراً له علاقة بظرف خاص، وحادث معين. وهذا ليس فيه ما يتناقض مع حرية الإيمان كثابت قيمي.

- ثانياً : في مسألة الردة : بعد أن عرفنا الظروف التي أنزلت لأجلها آية ﴿مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾ ، ثم تحذير المرتدين من الخلود في النار؛ أصبح من الواضح، أيضاً، أن الذين يرتدون عن الإسلام ﴿...لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا...﴾ ، وليس من العسير أن ﴿...يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾.

أصبح الأمر واضحاً وجلياً أن من يرتدد عن دينه لن يوقع ضرراً على المؤمنين وعلى الله تعالى، لأن الله قادر - إذا شاء - أن يعوّض الإسلام والمسلمين بأفضل منهم، محبة وإيماناً بالله وبالإسلام. وعلى الرغم من كراهية الردة عند الله فقد جاء ما يحذر المرتدين من أعمالهم من أن حساباً ينتظرهم في الآخرة .

- ثالثاً : في مسألة الأحكام على المرتد :

(في أحكام القرآن: قيمت وهو كافر - إحباط أعمال المرتد في الدنيا وفي الآخرة - وهو من أصحاب النار خالداً فيها - لعنة الله عليهم والملائكة والناس أجمعين - يضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

(في أحكام السنة: الحكم بالقتل .

(في أحكام السلف: الاستتابة قبل التنفيذ .

من الواضح أن الله قد أجلَّ حساب المرتدين إلى الآخرة، وذلك على الرغم من أن الفقهاء المسلمين قد استدّلوا بأن في كلام الله ما يدل على عقوبة دنيوية : ﴿... فأولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا...﴾، لكن ليس في إحباط الأعمال أية إشارة، من قريب أو بعيد، حول القتل .
أما الحكم الدنيوي، أي ما جاء في أحكام السُّنة فيه أمور ثلاثة: الحساب كمبدأ - الاستتابة - القتل.

فالحساب كمبدأ يعني أن الله لم يفوّض الرسول نفسه بالسيطرة على البشر بحيث أمره: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، وإذا ﴿أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا...﴾. فدور الرسول - حسبما جاء في النص القرآني - هو البلاغ وحسب، وعلى الله الحساب ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾؛ وعلى الرغم من ذلك فقد أسبغ العلماء المسلمون على الرسول، وعلى أنفسهم، أيضاً، مهمة حساب البشر. ولم يقف بعضهم عند هذا الحد فتجاوزوا كل ذلك وأمروا بتكليف أي مسلم كان في تنفيذ حكم القتل من دون العودة إلى الحاكم وإرغام من لا يطبّق بعض أحكام الدين على تطبيقها. ولننظر إلى ماذا سوف تؤول إليه الأمور إذا طبّق مسلم هذه الأحكام تقليداً لفتوى أحد الفقهاء والتي تتعارض مع فتوى فقيه آخر .

أما الاستتابة فيبدو أن العلماء المسلمين لم ينفقوا كثيراً عند حالة التعجب التي وقف عندها النص القرآني قائلاً: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة...﴾ (التوبة ٩ : ١٠٤). وجاء، أيضاً: ﴿إنما التوبة على الله...﴾ (النساء ٤ : ١٧). وجاء ، أيضاً، أنه: ﴿هو الذي يقبل التوبة عن عباده...﴾ (الشورى ٤٢ : ٢٥).

وعلى الرغم من كل ذلك فإن عدداً كبيراً من الفقهاء - حتى الآن - يحاسب ويستتيب ويهدد بالقتل، وينفذونه في معظم الأحيان .

فبين حكم الله، في إرجاء الحكم على المرتدين وغيرهم إلى الآخرة - وهو الحكم الأصل الثابت - وبين حكم السُّنة والسلف، وهو الفرع المتغيّر، تقع مسافة الظرف السياسي والأمني والاجتماعي، أي الظروف المحيطة بالحدث المتغيّر.

كانت العقيدة الدينية في أثناء حياة الرسول على التصاق شديد بالوضع السياسي. فالدعوة الجديدة كانت بحاجة إلى إطار سياسي يحميها من المناهضين لها وكانوا كثيرين في البداية. فلهذا السبب أسّس الرسول دولته في المدينة، وجمع الأنصار فيها والمهاجرين، فأصبحت تشكّل ملجأً آمناً لكل من اعتنق الدعوة الجديدة .

عمل الرسول على تأمين الاستقرار الاقتصادي والأمني للدولة المدينة. فإذا كان الاستقرار الاقتصادي قد أصبح آمناً بواسطة الغنائم التي كانت تدرّها السرايا والغزوات، وفرض الجزية على أهل الكتاب؛ فإن الاستقرار الأمني كان يتطلّب توفير قوانين تحميها. ولن يغرب عن البال أن

الدولة - أية دولة - تُطبَّقُ قوانين استثنائية عندما تمر في ظروف استثنائية، وهي التي تُعرَفُ في المصطلح القانوني في عصرنا هذا بقوانين الطوارئ.

كانت مصلحة دولة المدينة، في بداية تأسيسها، لا تسمح بأي اختراق أمني، لأنها كانت لا تزال طرية العود محاطة بكثير من الأعداء من الخارج، وبعدد غير قليل من الداخل من الذين لم يكتمل إيمانهم بها وبالدعوة الجديدة، من الذين لم يكونوا متحمسين جداً للدفاع عنها، لأنهم كانوا في غير ثقة من إمكانية استمرارها .

كان يُعدُّ المرتد عن الدين، في مثل تلك الظروف، مرتدّاً عن الدولة، أيضاً؛ وكان هذا الارتداد يشكل خطراً أمنياً على سلامة الدولة الطرية العود، وعلى الأمن النفسي للجماعة المسلمة التي لم يتسن بعد لقوة إيمانها أن تشتد وتعمق. فالأمن هنا - كما نحسب - كان أمناً معنوياً للجماعة المسلمة من جهة، وأمناً مخابراتياً (سياسياً وعسكرياً) يُعنى بأسرار الدولة السياسية والعسكرية.

إنطلاقاً من هذه الظروف الخاصة والمرحلية، كان الحكم على المرتد عن الإسلام يحمل وجه الدفاع عن أمن الدولة. لم تكن الدعوة الإسلامية تخشى الاختراق العقيدي/الديني - بمعنى الارتداد عن الدين - بدليل ما حملته المرحلة المكيّة، أي مرحلة ما قبل تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، من دعوة واضحة و ملزمة للرسول بالحوار وبالنّي هي أحسن سواء مع المسلمين أو مع غيرهم. إن ما يدفعنا إلى حساب أن الارتداد لم يكن يحمل معنى الارتداد على العقيدة، معزل عن الظرف السياسي والأمني، لأن الإسلام ليس دعوة سرّية؛ وإنما هي بالأساس دعوة علنية تعمل على نشر مبادئها في خارج الجماعة المسلمة. فالتبشير بها في العلن هي من المهمات الأساسية المطلوبة من المسلمين. لذلك ليس في الإسلام، كعقيدة، من الأسرار الدينية ما يُخشى من إفشائه و تسريه إلى المشركين من قريش أو غيرها؛ لكن ما كان يُخشى عليه من أسرار هو تسريب ما كان له علاقة بالدفاع والهجوم وسريّة تحركات السرايا والغزوات، وهي أسرار لا يتعدى خطرها أمن الدولة السياسي والعسكري .

إن زوال الظروف المرحلية التي استدعت مواجهة مرحلية بقوانين مرحلية - شبيهة بحالة الطوارئ - يفترض زوال النتائج التي ترتبت عليها لتترك المكان للأحكام القيمية الثابتة، وهي حرية الاختيار، ومنع الإكراه.

يتفرّع عن المسألة الأم، لا إكراه في الدين، ثلاث مسائل فرعية، إلا أنها لا تقلُّ عنها أهمية في تأثيرها على الحياة الفكرية للإسلام، كما وأن لها تأثير على مدى تطور الإسلام وتقلّعه، وهي:

- الأولى : هل الإسلام دين الفطرة ؟ إننا نتساءل: وماذا يعني ذلك ؟ أين يلتقي هذا المبدأ مع مسألة (لا إكراه في الدين) وأين يفرق عنها ؟

لا شك أن آية (لا إكراه في الدين) تتناقض مع ما جاء في حديث الرسول: "إن المرء يولد على الفطرة... إذا كانت الفطرة - كما جاء تعريفها في الصحاح - تعني الخَلْقَة، لأنه لا يلتقي الاختيار في الآية مع الجبر في الحديث.

فالخَلْقَة/ الفطرة تكون هنا بمعنى الغريزة؛ مثل غريزة التناسل والجوع وحب البقاء وحب الأم لطفلها... وقد جاء في تعريف الغريزة ما يلي: "هي نمط سلوكي موروث، خاص بنوع حيواني، قليل التباين بين فرد وآخر؛ يجري وفق وتيرة زمنية قليلة التعرض للتقلبات، فيبدو النمط الغريزي كأنه جواب غائية إشباع الفرد أو النوع (تغذية، حماية، تناسل) دون وعي التناسق الضروري، وربما دون وعي الغاية المنشودة. بهذا تعتبر الغريزة نقيضة السلوك الذكي"^(١).

يشارك في هذه الغرائز كل من الإنسان والحيوان، يقدم عليها من دون تفكير، وهي تشكل شرطاً ضرورياً لاستمرار الحياة؛ بل إنه بدون ممارستها تنقرض الحياة الحيوانية والحياة البشرية؛ فيمكن للإنسان - مثلاً - أن يموت جوعاً.

أما الدين، بشكل عام، والإسلام بشكل خاص لأن المسلمين يقولون بأنه دين الفطرة، ليس بغريزة شبيهة بواحدة مما تكلمنا عنه، وإلا كان الامتناع عن تلبية الحاجات الدينية، إذا صح أن هناك فطرة دينية، تعني انقراض الجنس البشري أو موته بسبب عدم تلبية تلك الحاجات؛ لكن ما نراه أن الجنس البشري مستمر الوجود منذ بدء الخليفة، سواء من كان منه مؤمناً بالأديان السماوية أو بغيرها من الأديان الوثنية.

فالتناسل والجوع والعطش وحب البقاء... يُعَدُّ كل منها غريزة ضرورية لا تستمر الحياة من دونها. أما الدين فهو غير ذلك كلياً؛ فهو حاجة روحية فحسب، وإلا كان من اللازم أن نعتقد أن هناك غريزة الانتماء للإسلام، وغريزة الانتماء إلى المسيحية... وهلم جراً.

إستناداً إلى ذلك نحسب أن للفطرة، التي وردت في حديث الرسول، مضمون إجتماعي أي بمعنى التقليد أو العرف. وقد جاء في تعريف التقليد ما يلي: "يُؤْخَذُ بمعنى المحاكاة والنقل. فيكون التقليد متعدد المعاني: قبول قول الغير بلا دليل (تصديق)، وقبول قول الغير للاعتقاد فيه (تألهب). وقد ذهب الأشعري إلى أن التقليد كاف للإيمان، فعارضه أبو هاشم المعتزلي بالقول: لا بد لصحة الإيمان من الإستدلال"، وإن السلوك التقليدي "سلوك مألوف، معروف من قبل، حدث وما زال يحدث على النحو عينه. وهو السلوك الخاضع لسلطان الماضي (عادة القدماء:

(١) خليل، خليل أحمد: مفاتيح العلوم الإنسانية: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٠: (المادة ١٠٣٢: غريزة): ص ٣٠٥.

عادة التمثيل بما قيل وحدث)، ولآداب الحياة السالفة، وللموروث/المألوف، لدرجة التكريس المعياري أو العرفي^(١).

فحديث الفطرة لا علاقة له بإكراه/إجبار المرء على اعتناق دين آباءه؛ وإعماله علاقة بتقليد الأبناء للآباء؛ فهم يقلدونهم بمختلف عاداتهم الاجتماعية، منها والدينية. فيتوارث الأبناء عن الآباء العادات والأعراف بلا دليل، لكنهم في المقابل يقومون بتطويرها وتحديثها أو تعديلها أو إلغائها.

من إسباغ قدسية لا يمكن الجدل فيها أو حولها، باعتبار المسلم مفطوراً/مخلوقاً على الإسلام؛ وقع الفقهاء المسلمون في متاهة/فخ لا يمكن الفكك منه، لماذا؟ إذا كنا، استناداً إلى الحديث النبوي، نعتقد أن كل من يولد من أبوين مسلمين يجب أن يكون مسلماً بالفعل، لأن نطفة المسلم إذا دخلت رحم المرأة تصبح بحكم الإسلام، فإن هذا لن يعني إلا أن الله قد خلق المسلم مسلماً، فلا رادّ - إذا - لإرادته لأنه ليس لإرادته تبديلاً. إن ما ينطبق على خلق المسلم مسلماً منذ أصبح نطفة في رحم أمه، ينطبق - أيضاً - على خلق المسيحي مسيحياً، وعلى خلق الوثني وثنياً.

إذا صحّ هذا القول يعني أنه من الواجب الامتناع عن الدعوة للإسلام سواء كانت الدعوة بالقوة أو كانت بالحوار؛ لأن الدعوة في ظل هذه الأسباب هي محاولة من الإنسان لمنع إرادة الله في خلقه.

- الثانية : مسألة الجبر والاختيار: لم تستطع الحركات الإسلامية، منذ نشأة علم الكلام حتى الآن، أن تحسم الرأي في هذه الإشكالية الفلسفية، أي بمعنى التوفيق بين طرفيها المتناقضين على صعيد النص الديني الإسلامي؛ وهي قد بقيت ميداناً للتكفير المتبادل بين الفرق التي تقول أن الإنسان مخلوق مع أفعاله، ومصيره الأخروي مُسجّل في اللوح منذ ولادته، وبين الفرق القائلة بأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت.

وحيث أن هذه المسألة قد استهلكت القرون الطويلة من الجدل الديني والكتابة فيها والمناظرات التي دارت حولها، نحيل من يهتم بتفصيل أكثر إلى آلاف الكتب والمصنفات الخاصة بها. لكننا في الوقت ذاته، ولما له علاقة ببحثنا، كان لابد إمامنا - وانسجماً مع منهجنا في اعتماد العقل الناقد - إلا أن نسجّل عدداً من الملاحظات:

لو كان مبدأ الجبر هو الثابت، أي أن الله عز وجل يخلق في الإنسان أفعاله - وهو قادر على ذلك من دون أية مناقشة - لكان من الواجب الديني الإيمان على المسلمين أن لا يعملوا ضد ما

(١) م . ن : ص ١٢٦ - ١٢٧ : (للادة ٤١٦ : تقليد) .

أراد الله، أي أنه من العيب أن ندعو إلى الإسلام من هو مكتوب عليه أن لا يكون مسلماً بإرادة من الله؛ ومضيعة للوقت أن ندعو إلى الإسلام من كان مكتوباً عليه أن يكون مسلماً بإرادة من الله أيضاً. ففي حالة القول بالجبر - وهو حكماً ضد آيات الكسب والاختيار - سوف تنتفي شرعية الدعوة الإسلامية بحجة أن المسلم مخلوق مسلماً، والمسيحي مخلوق مسيحياً، والمشرِك مخلوق مشركاً... والمؤمن مخلوق مؤمناً، والمنافق مخلوق منافقاً. فلماذا، إذا، نستهلك الوقت في تصنيف و في تأليف مئات الألوف من الكتب والمحاضرات والمجادلات والمناظرات ١١؟

ـ **الثالثة :** حديث الفراق الأمة والفرقة الناجية من النار: إن ما نحسب أنه يُمثل خطورة في مسيرة التاريخ الإسلامي، ليس ما يحمله مبدأ الاتهام بالردة وفرض العقوبة على الأفراد، لأن الخسائر مهما كانت ستبقى محدودة؛ لكن ما نحسب أنه يشكل الخطورة الفعلية هو ما أسبغه الفقهاء المسلمون من قدسية على هذا المبدأ، من جهة؛ ولارتباطه مع حديث الفرقة الناجية من النار من أصل ثلاث وسبعين فرقة من جهة ثانية.

وإذا ما حسبنا أن الحديث الذي نُسب إلى الرسول صحيحاً ومُجمَعاً عليه - وهو حديث افراق الأمة والفرقة الناجية - ذا علاقة وثيقة بمبدأ الردة في الإسلام، لأصبح من الواضح أمامنا مدى الخطورة الذي يمثله هذا المبدأ على مسيرة الدعوة الإسلامية، منذ وفاة الرسول حتى الآن، والذي ما زالت آثاره مستمرة .

وحيث أننا سوف نتناول مدى انعكاس تطبيق هذا المبدأ على مسيرة الإسلام والمسلمين عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، نرى أنه من المفيد الإشارة إلى أنه - استناداً إلى هذا الحديث - سوف تعمل كل فرقة إسلامية، في تسابق محموم بين كل الفرق، على اكتساب موقع الفرقة الناجية متبعة أسلوب تكفير الفرق الأخرى، واستخدام مبدأ الاتهام بالردة ضد منافسيها كمبرر لاستباحة دماءها؛ وقد استباحت كل فرقة دماء أصحاب الفرق الأخرى، جماعات وأفراداً. وهذا ما سوف نُطِلُّ عليه بالتفصيل في الفصول اللاحقة من هذا البحث.

الفصل الثاني

مرحلة التأسيس لتكفير الجماعة

- تمهيد

بعد فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ؛ وبعد ملاحقة فلول المشركين إلى الطائف، وحصارهم فيها، ثم القضاء عليهم عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب النبي محمد و لا بعداوته. ساءت ضربة إلى الوفود من كل وجه، فدخلوا في دين الله أفواجا. وهكذا استتب الأمر للإسلام في كل شبه الجزيرة العربية.

وانتهت مرحلة أخرى في تاريخ الإسلام بعد إخضاع الجزيرة العربية بكاملها. ودخل الإسلام في مرحلة نوعية عندما أخذت الأبصار تتجه نحو بلاد الروم، في أواخر حياة الرسول، فكانت غزوة تبوك التي قادها بنفسه مفتحاً عصراً جديداً في حياة الإسلام. وكانت الفوائد الاقتصادية من أهم نتائج تلك الغزوة إذ فرض الرسول فيها الجزية على النصارى من أهل الكتاب.

ولما جهّز الرسول لحملة أخرى على بلاد الروم، يأمرة أسامة بن زيد على رأس الكثيرين من كبار الصحابة، ألم المرض به ووافته المنية .

منذ تلك اللحظة أخذت الدعوة الإسلامية تواجه عدداً من الإشكاليات: سواء في علاقة الصحابة مع الرسول (قبل وفاته بمدة قصيرة)، أو بين بعض المسلمين مع بعضهم الآخر، أو بين من لم يكن قد اكتمل إيمانه بالإسلام من العرب وبين المسلمين الآخرين. وأخذت هذه الإشكاليات تتوالد، ويتسع نطاقها، كما ونوعاً.

ولما كان سلاح النص الديني، في بدايات المرحلة التي تلت وفاة الرسول، هو السلاح الأمضى بيد صاحب السلطة ويبد المعارضة؛ أخذ كل طرف بمتشق هذا السلاح للدفاع عما يدعيه حقاً لنفسه، أو دفاعاً عن موقفه ورأيه في ما يجري، فكان كل طرف يفلح في الحصول على ما يريد.

ولما ابتدأ عصر الخلافة الراشدة، كان يُعدُّ - كما نحسب - العهد الذي أسسَ لأكثر الإشكاليات. نتيجة لهذا الفرض كان لابد من تخصيص فصل من هذا البحث يهتم بدراسة تلك المرحلة دراسة نقدية، ولهذا سنحاول من خلاله أن نلّم بقدر ما نستطيع عن أسباب نشأة هذه الإشكاليات، مستنديين، في سبيل هذه الغاية، إلى ما توفر لدينا من نصوص دينية وروايات تاريخية.

I - ما هي المسافة التي تفصل بين

تعارضات الصحابة، ومواقفاتهم مع الرسول، وبين النص؟

كان الرسول، في أثناء مرحلة المدينة، يشارو أصحابه في الأمر - أحياناً - فيستمع إلى ما يقدمون من آراء فيأخذ بها؛ وفي أحيان أخرى يستمع إليهم ولا يأخذ بأرائهم فيقتنعون؛ وفي أحيان لا يقتنعون بل يتخذون - من جانبهم - مواقف تتعارض معه حتى وإن أغضبته.

في ما يلي، من بحثنا هذا، سوف نقوم بسرد لعدد من الروايات حول حوادث تناقض فيها بعض المسلمين مع الرسول، في أثناء حياته، والتشكيك - أحياناً - بعدالته في أثناء توزيع غنائم الغزوات؛ أو حول مواقفهم معه في مسائل عديدة؛ أو حول تعارضاتهم معه في مسائل أخرى.

١ - تشكيك بعض المسلمين بعدالة الرسول في أثناء توزيع الغنائم:

نقلًا عن صحيح مسلم سنسرد عددًا من نماذج ما كان يُقال من بعض المسلمين، حول تلك المسألة، وردود الرسول عليهم:

- كأن يُقال: " يُعطي قريشاً و يتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ". فيجيب ﷺ: "إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم" ^(١).

- ويُقال: "إن هذه لقسمة ما عدلَ فيها، وما أريدَ فيها وجه الله". فيُجيب ﷺ: "فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله... يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر" ^(٢).

- يُقال: "يا محمد أعدل". فيُجيب: "ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل" ^(٣).

(١) صحيح مسلم (ج ٣) : ٢٠٢ م : ص ١٠٥ .

(٢) ٢٠٢ م : ص ١٠٩ .

(٣) ٢٠٢ م : ص ١٠٩ .

- غضبت قريش في أثناء توزيعه لبعض الغنائم، وقالوا: "أيعطي صاديد نجد ويدعنا؟" فيجيب ﷺ: "إنما فعلت ذلك لأتألفهم" (١).
 - قال رجل: "إتق الله يا محمد". فأجابه ﷺ: "فمن يطع الله إن عصيته، أيامني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟" (٢).

٢ - موافقات عمر بن الخطاب مع القرآن ومع الرسول:

يروى السيوطي بعضها فيقول: إن بعضهم أوصلها إلى عشرين. ومن الروايات التي قيلت في التأكيد على ذلك:

﴿كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن. أو إن في القرآن لرأياً من رأي عمر. أو ما قال الناس في شيء، وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر. ومن بعض هذه الموافقات التي يرويها السيوطي ما يلي:

﴿عن عمر قال: "وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؛ فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (البقرة ٢: ١٢٥). وقلت: يا رسول الله، يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهم يمتحنين؛ فنزلت آية الحجاب (سورة النور ٢٤: ٣١). واجتمعت نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلت: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ (التحریم ٦٦: ٥). فنزلت كذلك".

﴿نزلت هذه الآية: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ (المؤمنون ٢٣: ١٢). فلما نزلت قال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون ٢٣: ١٤).

﴿لما توفي عبد الله بن أبي، دعي رسول الله للصلاة عليه، فقام إليه، وقام عمر حتى وقف في صدر الرسول ﷺ وقال له: يا رسول الله، أعلى عدو الله ابن أبي تصلي؟ فنزلت الآية ﴿ولا تصلي على أحد منهم مات أبداً﴾ (التوبة ٩: ٨٤).

﴿لما استشار رسول الله الصحابة في قصة الإفك، قال عمر: من زوجها يا رسول الله؟ قال ﷺ: الله. قال عمر: أفنظن أن ربك دلس عليك فيها؟ ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ (النور ٢٤: ١٦). فنزلت كذلك.

﴿رفع عمر تلاوة ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما﴾.

(١) م. ن: ص ١١٠.

(٢) م. ن: ص ١١٠.

﴿ ورد في "الكامل" لابن عدي - وهو حديث ضعيف - عن أبيه عن عمر أن بلالاً كان يقول، إذا أذن: أشهد أن لا إله إلا الله، حي على الصلاة. فقال عمر: قل في إثرها: أشهد أن محمداً رسول الله. فقال الرسول: "قل كما قال عمر" ^(١).

٣ - الحوادث التي تُروى فيها معارضة بعض الصحابة للرسول.

أ - صلح الحديبية:

عقد الرسول صلحاً بينه وبين قريش، على أن يرجع المسلمون عن الحج إلى الكعبة في السنة السادسة الهجرية، على أن يعود المسلمون إليها في العام التالي؛ واشترطت قريش هذا خوفاً منها أن تتحدث العرب أن محمداً قد دخل مكة عنوة. "فجاء عمر بن الخطاب، وأتى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فقيم نعطى الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني أبداً. [وفي رواية ابن كثير، قال الرسول ﷺ لعمر: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني] ^(٢). قال عمر: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت لا ^(٣). قال [الراوي]: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق... (الخ) [فأجابه أبو بكر]: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه أبداً. قال [الراوي]: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم. فطابت نفسه ورجع" ^(٤).

﴿ أما عند الطبري فقد وردت الرواية ذاتها؛ لكنه يذكر فيها - خلافاً لما رواه مسلم - أن عمرًا قد أتى إلى أبي بكر ليشاوره قبل أن يكلم الرسول ^(٥).

بعد الذي حصل، كان عمر بن الخطاب يقول: "ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به" ^(٦).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ١٤٨ - ١٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٤): ص ١٦٨.

(٣) م. ن: ١٧٦.

(٤) صحيح مسلم (ج ٥): م. س: ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري (١٤): مؤسسة عز الدين: بيروت: ١٩٩٢: ط ٣: ص ٦٣٤.

- راجع، أيضاً، ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٤): م. س: ص ١٦٨.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري (١٤): ص ٦٣٤.

→ وجاء في تاريخ ابن الأثير، أن ليس عمر بن الخطاب قد اغتاض من معاهدة الصلح لوحده، ولكن بعض أصحاب النبي ﷺ قد فعلوا مثله أيضاً، لسبب أنه: "كان أصحاب النبي لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، [وقد كان رأى في المنام أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ المفتاح^(١)]، فلما رأوا الصلح، دخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ... إلى أن قال رسول الله ﷺ: إنا قد أعطينا القوم عهدنا على ذلك فلا تغدر بهم". ولكن أصحاب الرسول، على الرغم من موافقتهم على الصلح، بقوا مغتاضين؛ فقد ذكر ابن الأثير أنه "لما فرغ النبي ﷺ من قضيته، قال: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فما قام أحد، حتى أنه قال ذلك مراراً؛ فلما لم يقم أحد منهم، دخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يا نبي الله أخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنتك وتحلق شعرك. ففعل. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا"^(٢)

≈ يقول اليعقوبي (مؤرخ من العصر العباسي): "فأمر رسول الله المسلمين أن يحلقوا وينحروا هديهم، فامتنعوا ودخل أكثر الناس الريب؛ فحلق رسول الله ونحر فحلق المسلمون ونحروا"^(٣)

→ جاء عند ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) أنه بعد أن عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش: "عَظُمَ ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم، وقد كان النبي ﷺ علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام، وأن الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين، وهو أعلم بما علمه ربه"^(٤)

ب - رِزِيَّة يوم الخميس: تُظهر هذه المسألة التنازع الذي حصل بين الرسول وأصحابه، في نزاعه الأخير، قبل وفاته. وسنسردها حولها عدداً من الروايات التي وردت في كتب التراث:

→ جاء في رواية الطبري أنه: "لما اشتد برسول الله وجعه، قال: اتنوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي أبداً". فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع. فقالوا: إن رسول الله يهجر^(٥) [يهذي^(٦)].

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (ج٢): دار صادر: بيروت: ١٩٩٥: ط٦: ص٥٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٩٨: ط٣: ص٩٠.
- راجع، أيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية (ج٤): م. س: ص١٧٦.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (ج٢): م. س: ص٥٥.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٩٢: ط١: ص٤٣٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص٩٦.

→ وفي رواية ابن كثير قال الرسول لصحابته الذين كانوا ملتجئين حوله: "هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً. فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع [وفي رواية أخرى، قالوا: ما شأنه يهجر]، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا. فمنهم من يقول: قُربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. ومنهم من يقول غير ذلك. فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا. فقال ابن عباس: إن الرزية [المصيبة] كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغظهم" (٢).

→ أما الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ / ١٠٨٧ - ١١٥٤م) فقال في روايته: "فأول تنازع وقع في مرضه ﷺ عن عبد الله بن عباس (ر)، قال: "لما اشتد بالنبي ﷺ مرضه، الذي مات فيه، قال: إئتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي. فقال عمر (ر): إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط، فقال النبي: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع. قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ" (٣).

→ وجاء في رواية ابن سعد (١٦٨ - ٢٣٠هـ / ٧٨٥ - ٨٤٥م): "لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب؛ فقال رسول الله: هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده! فقال عمر: إن رسوا، الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قُربوا يكتب لكم رسول الله، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما كثر اللغط والاختلاف، وغموا رسول الله ﷺ، فقال: قوموا عني! فقال ابن عباس: "الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم" (٤).

(٦) جاء في الصحاح (ج ٢): م. س: ص ٨٥١ ما يلي: "والهجر أيضاً: الهذيان. وقد هجر المريض: يهجر هجراً، فهو هاجر والكلام مهجور. أي قالوا فيه غير الحق. ألم ترى إلى المريض إذا هجر، قال غير الحق.. وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغي".

(١) جاء في الصحاح (ج ١): م. س: ص ٥٣ ما يلي: "وقد رزأته رزية، أي أصابته مصيبة".

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٥): م. س: ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): م. س: ص ٢٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢م): دار صادر: بيروت: د. ت: د. ط: ص ٢٤٤.

- صحيح مسلم (ج ٥): م. س: ص ٧٦.

﴿ وجاء في بعض الروايات: لما امتنعوا عن إعطائه ما طلب، أوصى بثلاث: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة، فلا أدري قالها فتسيتها أو سكت عنها عمداً" (١).

تأتي أهمية هذه الحادثة، من أنها تشكّل مفصلاً سياسياً أساسياً في استمرارية أو عدم استمرارية الوحدة الإسلامية، عقيدة وسياسة. فمنها انطلق أول خلاف سياسي بين المسلمين في الوقت الذي لم يكن فيه النبي قد دُفِنَ بعد، وهذا السبب هو الذي قاد إلى اختلافات دينية لم تتوقف آثارها التجزيئية/التفتيتية على الإسلام حتى الآن.

ومن حيث أنها تشكّل تأسيساً للكثير من الافتراقات، والتي سوف نعاينها في المراحل اللاحقة، وتتمحور حول الاتهام بالارتداد عن الإسلام، كما سوف تفعل كل فرقة من الفرق الإسلامية ضد غيرها من الفرق الأخرى. ولأنه لن نخوض في تفصيل ذلك في هذا الفصل نرى أنه لا بد من إنارة التاريخ، الذي ذكرنا بعضاً من رواياته، بعدة من لوائح الاتهام المتبادلة بين فرقتين إسلاميتين أساسيتين :

هنا لا بد، قبل أن نستعرض بعض تلك اللوائح، من طرح عدد من الأسئلة/ التساؤلات، التي حاولت كل فرقة أن تُجيب عنها وفقاً لاتباعها وأهوائها:

لماذا تنازع القوم - أصحاب الرسول - بين مؤيد لإعطائه ما طلب، وإطاعته واجب ديني ملزم كما جاء في النص القرآني المحكم، وبين رافض لذلك، ونحن لا نشك بعلم الرافضين أن هناك نص قرآني ملزم؟

لماذا غضب الرسول وأمرهم بالخروج من عنده عندما كثرَ لفظهم وتنازعهم؟
لماذا قال القائلون: وحسبنا كتاب الله فقط دون أي ذكر لسنة النبي، أو ليست أساساً ثانياً للتشريع؟

لماذا اتهم النبي بالهجر؟

لماذا حسب ابن عباس أن عدم كتابة ما كان يؤد الرسول كتابته مصيبة وأية مصيبة؟
﴿ فعن رزية يوم الخميس يقول ابن كثير: "وهذا الحديث مما قد توهم به بعض الأغبياء من أهل البدع من الشيعة، وغيرهم كل مدّع، أنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمشابهة، وترك المحكم، وأهل السنة يأخذون بالمحكم" (٢).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢م): م. س: ص ٢٤٢.

- راجع: صحيح مسلم (ج ٥): م. س: ص ٧٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٥): م. س: ص ٢٢٨.

≈ يقول أهل السنة بأن عمراً أحسّ بشدة مرض النبي فأشفق عليه وأراد أن يريجه^(١).
 ⇨ ويقولون أيضاً لعلّه: "لم يكن قاصداً لكتابة شيء من الأشياء، وإنما أراد مجرد اختبارهم لا غير، فهدى الله عمر الفاروق لذلك دون غيره من الصحابة... وكان صاحب إلهام من الله تعالى، وقد أراد التخفيف عن النبي إشفافاً عليه من التعب الذي يلحقه بسبب إملاء الكتاب في حال المرض والوجع؛ وربما خشي أن يكتب النبي أموراً يعجز الناس عنها، فيستحقون العقوبة بسبب ذلك... ولعلّه خاف من المنافقين أن يقدحوا في صحة ذلك الكتاب لكونه في حالة المرض، فيصير سبباً للفتنة؛ فقال: حسبنا كتاب الله لقوله تعالى: ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾، وقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾^(٢).

⇨ وربما اعتذر بعض أهل السنة، أن عمر بن الخطاب "فهم من قوله ﷺ: لا تظيلوا، أنكم لا تجتمعون على الضلال. وكان (ر) يعلم أن اجتماعهم على الضلال مما لا يكون أبداً، وبسبب ذلك لم يجد أثراً لكتابه"، ولهذا فالأولى، أن يقال: "إن هذه قضية في واقعة كانت منهم على خلاف مسيرتهم، كفرطة سبقت، وفتنة ندرت، ولا نعرف وجه الصحة فيها على التفصيل"^(٣).

≈ أما عن موقف الشيعة فيرد شرف الدين (١٢٩٠ - ١٣٧٧هـ/١٨٧٣ - ١٩٥٧م):
 ليتهم لم يفاجئوه "بكلمتهم تلك - هجر رسول الله - وهو محتضر بينهم... وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون﴾^(٤). إن قولهم: "هجر رسول الله، يقطع بأنهم كانوا عالمين أنه إنما يريد أمراً يكرهونه"^(٥). وهم إذ قالوا: "حسبنا كتاب الله، حتى كأنه [أي الرسول] لا يعلم بمكان كتاب الله منهم"^(٦).

- يقول محمد السماوي (كان سنياً وتشيعاً) إن عمر بن الخطاب، وأكثر الحاضرين، فهموا قصد الرسول ﷺ؛ لأنه سبق أن قال لهم: "إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعشرتي

(١) نقلاً عن، السماوي، محمد التيجاني: ثم اهتديت: مؤسسة الفجر: لندن: ١٩٩١: د. ط: ص ٩٩.

(٢) نقلاً عن: شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات: مؤسسة الوفاء: بيروت: ١٩٨٠: ط ٢١: ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٣) م. ن. : ص ٢٩٠.

(٤) م. ن. : ص ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٥) م. ن. : ص ٢٩١.

(٦) م. ن. : ص ٢٨٦.

أهل بيتي، فإن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً؛ وفي مرضه قال: "هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً" (١).

- يقول شرف الدين إنهم علموا أن الرسول: "إنما أراد توثيق العهد بالخلافة، وتأكيد النص بها على علي خاصة، وعلى الأئمة من عثرته عامة، فصللوه عن ذلك" (٢).

ج - سرية أسامة بن زيد :

→ جاء في رواية ابن سعد أنه: في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة الهجرية، أمر رسول الله الناس بالتهيؤ لغزو الروم؛ وأمر عليهم أسامة بن زيد. وعلى الرغم من أن الرسول حُمَّ وصُدِّعَ في اليوم التالي فقد عقد لأسامة لواء يده. ولم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدبَ في تلك الغزوة. وكان فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص. فتكلم قوم وقالوا: يُستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين! فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً؛ فخرج وخاطب الناس: "أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعتم في إمارتي في أسامة، لقد طعتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إنه كان للإمارة لخليقاً، وإن أباه من بعده لخليق للإمارة". فالتحق به المسلمون. ولما ثقل رسول الله ﷺ، جعل يقول: أنفذوا بعث أسامة! وتوفي الرسول، ولما بُويجَ لأبي بكر، كَلَّمَ في حبس أسامة فأنبى. وكَلَّمَ في عمر أن يأذن له في التخلف ففعل" (٣).

→ يروي الطبري: إن المنافقين اعترضوا على تأمير أسامة، فردّ النبي عليهم: "إنه لخليق لها" (٤).

→ و يروي ابن كثير أنه: لما توفي النبي ﷺ، وصمم أبو بكر على تجهيز جيش أسامة، قال بعض الأنصار لعمر بن الخطاب: "قل له فليؤمّر علينا غير أسامة، فذكر له عمر ذلك؛ فيقال أنه أخذ بلحيته، وقال: "ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أؤمر غير أمر رسول الله ﷺ؟" (٥).

(١) السماوي، محمد التيجاني: م . س: ص ١٠١ . - جاء عند ابن عبد ربه أن رسول الله قال في خطبة الوداع: "فإني قد تركت فيكم ما أن أعدتم به لم تضلوا: كتاب الله وأهل بيتي". راجع: العقد الفريد (ج ٣) : م . س : ص ٢٣٨ .

(٢) شرف الدين، عبد الحسين : م . س : ص ٢٨٢ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢م) : م . س : ص ١٨٩ - ١٩١ .

(٤) الطبري : تاريخ الطبري (٢م) : م . س : ص ٩٢ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ٦) : م . س : ص ٣٠٥ .

﴿ ويروي ابن هشام: كان الناس قالوا في أمرة أسامة: أُمِّرَ غلاماً حدثاً على جُلَّةِ المهاجرين والأنصار ﴾^(١).

﴿ و عند ابن خلدون أن الأنصار طلبوا أن يُولَّى عليهم أسنٌ من أسامة ﴾^(٢).

﴿ أما في رواية الشهرستاني فقد جاء أن الرسول ﷺ في مرضه قال: "جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه. فقال قوم: يجب علينا امثال أمره، وأسامة قد برز من المدينة. وقال قوم: قد اشتدَّ مرض النبي ﷺ، فلا تسع قلوبنا مفارقتة والحالة هذه؛ فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره" ﴾^(٣).

وكمثل الكثير من القضايا، وقعت بين الفرق الإسلامية خلافات في تأويل وتفسير موقف الرافضين بالمشاركة في سرية أسامة بن زيد، خلافاً لأوامر الرسول. وللقاريء نموذجاً عنها: ﴿ يقول الشهرستاني أنه ربما عدَّ المخالفون، أن ما حصل أثناء مرض النبي ﷺ، وحول تأمير أسامة بن زيد أنه: "من الخلافات المؤثرة في أمر الدين. وليس كذلك، وإنما كان الغرض كله إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب، وتسكين ثائرة الفتنة المؤثرة عند تقلب الأمور" ﴾^(٤).

﴿ ويرى بعض أهل السنة: أنه لما تمَّرض الرسول ﷺ: "فَتَقَلَّ فَخِيفَ عَلَيْهِ، فلم تسمح نفوسهم بفراقه وهو في تلك الحال.. ولم يكن لهم مقصد في ثاقلمهم إلا انتظار إحدى الغائتين: إما قُرَّةَ عيونهم بصحبته، وإما الفوز بالتشرف في تجهيزه. وأما طعنهم، قبل وفاة رسول الله ﷺ، في تأمير أسامة، مع ما وعوه ورأوه من النصوص قولاً وفعلًا على تأميره... فلم يكن منهم إلا لحدائته... ونفوس الكهول تأبى - بجبلتها - أن تنقاد إلى الأحداث... وأما طلبهم عزل أسامة بعد وفاة الرسول، فقد اعتذر عنه بعض العلماء بأنهم ربما جوزوا أن يوافقهم الصديق على رجحان عزله لاقتضاء المصلحة... والإنصاف أني لا أعرف وجهاً يقبله العقل في طلبهم عزله بعد غضب النبي من طعنهم في تأميره" ﴾^(٥).

يتابع بعض أهل السنة، حول مقاصد من عارض النبي بما عارضوه به، بالقول: "لا يرتاب ذو مسكة في حُسن مقاصدهم، وإيثارهم المصلحة العامة في كل ما كان منهم في تلك

(١) ابن هشام: السيرة النبوية (ج ٤): م. س: ص ٢٤٦.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٤٦٩.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): م. س: ص ٢٣.

(٤) م. ن: ص ٢٣.

(٥) نقلاً عن، عبد الحسين شرف الدين: م. س: ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الموارد، إذ كانوا يتحرّون فيها الأصلح للأمة، والأرجح للملّة، والأقوى للشوكة، فلا جناح عليهم في شيء مما فعلوه، سواء عليهم أتعبّدوا بالنصوص أم تأوّلوها^(١).
 ﴿ يعطي عبد الحسين شرف الدين تفسيراً شيعياً لما حصل، قائلاً: "إن تخلف من تخلف عن جيش أسامة، كان أن رسول الله أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفو الأمر من بعده لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب، على سكون وطمأنينة. فإذا رجعوا، وقد أبرم عهد الخلافة، وأحكّم لعلّي عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد... ولكنهم فطنوا إلى ما دبر به، فطعنوا في تأمير أسامة، وثاقلوا عن السير معه" ^(٢).

٤ - ماذا حصل من شقاق بين المسلمين، بعد وفاة الرسول مباشرة، ولماذا؟

لقد صورت كتب التراث خشية المسلمين، بعد وفاة الرسول، من احتمالات سيئة قد تقع، ينقل ابن هشام بعضها، فيقول: "أبلغنا أن الناس بكوا على رسول الله ﷺ حين توفاه الله عز وجل؛ وقالوا: لوددنا أننا متنا قبله، إنا نخشى أن نفتن بعده"^(٣).

وعظمت مصيبة المسلمين "فكانت عائشة تقول: لما توفي رسول الله، إرتدت العرب واشربأت [برزت] اليهودية والنصرانية. ونجم [ظهر] النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم"^(٤).

لقد واجه المسلمون، بعد وفاة الرسول محتين كانتا في غاية الجدة؛ وكانت لهما تأثيرات بالغة الأهمية في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهما: الإمامة/ الخلافة ومسألة الردة العامة.

١ - التأسيس لإشكالية الخلافة/ الإمامة:

يقول الشهرستاني: ما سئل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سئل على الإمامة في كل زمان^(٥).

﴿ ويقول عبد الحسين شرف الدين: "إن أعظم خلاف وقع بين الأمة، اختلافهم في الإمامة. فإنه ما سئل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سئل على الإمامة؛ فأمر الإمامة، إذاً، من أكبر الأسباب المباشرة لهذا الاختلاف"^(٦).

(١) م . ن : ص ٣٠٩ .

(٢) م . ن : ص ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية (ج ٤) : م . س : ص ٢٥٥ .

(٤) م . ن : ص ٢٥٩ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ٢٤ .

(٦) شرف الدين ، عبد الحسين : المراجعات : م . س : ص ٣٤ .

إننا سوف نعود إلى هذا الموضوع، في الجزء الأخير من هذا الفصل، بعد أن نكون قد اطلعنا على ما يفيدنا - في هذا البحث - من وقائع ما حصل في خلال مرحلة الخلافة الراشدة.

ب - التأسيس لمسألة الردة العامة:

إبتدأت هذه المسألة تظهر في أواخر أيام الرسول، وانتهت فصولاً في عهد خلافة أبي بكر الصديق. كان أهل الردة - كما جاء عند النيسابوري - إحدى عشرة فرقة؛ ثلاث منها كانت في عهد الرسول، وهي:

- ردة بني مدلج: ورئيسهم ذو الحمار الأسود العنسي؛ كان كاهناً وقد تنبأ في اليمن، واستولى على بلاده، وأخرج عمال رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل، وإلى سادات اليمن بقتاله. فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي. وأخبر رسول الله ﷺ بقتله في الليلة التي قُتل فيها؛ وقبض رسول الله من الغد.

- ردة بني حنيفة: وهم قوم مسيلمة، الذي تنبأ، وكتب إلى رسول الله ﷺ عارضاً عليه اقتسام الأرض مناصفة. فرفض رسول الله ذلك. فحاربه أبو بكر، وقُتل على يدي وحشى قاتل حمزة، الذي قال: " قتل خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام".

- ردة بني أسد: وهم قوم طليحة بن خويلد، الذي تنبأ؛ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فانهزم، بعد القتال، إلى الشام؛ ثم أسلم وحسن إسلامه^(١).

كان طليحة قد أمر أصحابه بترك السجود في الصلاة، وقال: "إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وتقبح أديباركم شيئاً، أذكروا الله، أعبلوه قياماً"^(٢).

ولأن مسألة الردة اتسعت في الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول مباشرة، وبعد البيعة لأبي بكر؛ سوف نعود إلى الكلام عنها - لأسباب منهجية - في الفقرات اللاحقة من هذا الفصل.

٥ - استنتاجات:

لو كان مستوى العلاقة بين النبي محمد ﷺ وبين أصحابه خاصة، وبينه وبين المسلمين عامة، علاقة تكافؤ دنيوي، لما كنا قد وقفنا أمام روايات التاريخ بمثل هذا الاهتمام، ولما أوليناها تلك الأهمية الخاصة في بحثنا هذا. والسبب عائد إلى أن العلاقة بين طرفين قد تكون على مستوى من إثنين:

- الأول: علاقة بشر يُخطئون مع نبي قد يخطيء: ففيها ما يوفر الحد الأدنى من التكافؤ الدنيوي في الحوار حول ما يحصل من مفارقات أو تناقضات في الرأي. لكن النص الإسلامي

(١) النيسابوري: "تفسير غرائب القرآن": هامش الطبري: جامع البيان... (ج ٦): م. س: ص ١٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ٢٠٥.

واضح في تحديد العلاقة بين الرسول وبين البشر، ففيه أن الله على الرغم من أنه أمر رسوله بالقول: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم... ﴾ (فصلت ٤١ : ٦) فقد أرسله ليطاع: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله... ﴾ (النساء ٤ : ٦٤).

- الثاني : علاقة البشر الذين يُخطئون مع نبي معصوم عن الخطأ: فطاعته واجبة من وجوب طاعة الله: ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول... ﴾؛ فهو المطاع وهم المطيعون من دون نقاش أو جدال أو تنازع: ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر ٥٩ : ٧). ويكون الإيمان صادقاً بمقدار طاعة الناس للنبي، لأنه، كما يقول النص: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (النساء ٤ : ٦٥). والعصيان إثم كبير: ﴿ ...ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ (الأحزاب ٣٩ : ٣٦).

إن هذه النصوص، وبخاصة منها ﴿ فلا وربك لا يؤمنون. . ﴾، كما يقول ابن حزم مُحْكَمَة: " هذا هو النص الذي لا يحتمل تأويلاً، ولا جاء نص يخرج عنه ظاهره أصلاً، ولا جاء برهان بتخصيصه في بعض وجوه الإيمان" ^(١).

وكل ما أفسح النص فيه من مساحة للمسلمين في تكافؤ العلاقة بينهم وبين الرسول هي أن يشاورهم في الأمر؛ لكن هذه المشاورة مشروطة بما قاله الله في كتابه: ﴿ وشاورهم في الأمر... فإذا عزم فتوكل على الله ﴾ (آل عمران ٣ : ١٥٩). يقول محمد حسين فضل الله، في تفسيره لهذه الآية: "ولذلك اتجهت الآية الكريمة إلى النبي محمد ﷺ لتطلب منه إمضاء الرأي، بعد المشاورة، سواء كان على وفق الشورى، أو على خلافه..." ^(٢). فالشورى في الإسلام - حسب فضل الله - القائمة على الأكثرية/ الكثرة العددية "لا تمنح الموقف قوة فكرية، كما لا تمنحه قوة عسكرية من ناحية الأساس، بل الموقف للنوعية هنا وهناك..." ^(٣).

وحيث لم يأت أي تخصيص للعلاقة بين النبي وبين أي من المسلمين، ولا بتخصيصه في بعض وجوه الإيمان، كما قال ابن حزم؛ يبقى النص هو سيد الأحكام والأصل فيها، ليطال المسلمين كافة من دون أي تمييز .

وحول هذه المسألة يؤكد ابن حزم على قدسية النص، وبأن الفقهاء المسلمين (وهو أحدهم) لا يأتون بأية أحكام من عندهم، فهو يقول: "إننا لم نعلم من عندنا بآرائنا، ولا كفرنا

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ٢) : م . س : ص ٢٩٣.

(٢) فضل الله ، محمد حسين : الإسلام ومنطق القوة : م . س : ص ١٥٣.

(٣) م . ن : ص ١٥٤ .

بظننا وهوانا، وهذه خطة لم يؤتها الله عز وجل أحداً دونه، ولا يُدخِلُ أحد أحداً، بل الله تعالى يُدخِلُها من يشاء^(١).

ولأننا حسبنا أن العلاقة بين النبي وبين صحابته خاصة، وجميع المسلمين عامة، كانت محددة قواعدها بالنص؛ اتخذنا في بحثنا منهج استخدام الحادثة ومقارنتها مع النص؛ وفي هذا السبيل قمنا في التدقيق، أحياناً، ببعض ألفاظها وتتبّع بعض تفصيلاتها، على الرغم من وعورة المسلك.

إن ما حدا بنا إلى اتخاذ هذا المسلك هو أن بعض الفقهاء المسلمين أعطوا الألفاظ التي تصدر عن المسلم، وكذلك التفصيلات اليومية المعيشية، أهمية قصوى في تفسيراتهم وتأويلاتهم، وبالتالي في فتياهم. ولأجل ذلك استند بعضهم، في أثناء تعريفهم للمسلم المرتد، إلى حديث للرسول: "إن العبد يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها في النار سبعين خريفاً"^(٢). لهذا، وإذا جئت إلى ما كدّسه الفقهاء المسلمون، في ذلك التعريف، من لوائح الإتهام، لوجدت شروطاً لا يستطيع الإفلات منها حتى القلة القليلة من المسلمين إلا ويقع تشكيك في إسلامه؛ ويكون فريسة لمباضع الكثيرين من الفقهاء وأحكامهم. إلا أنهم - في الوقت ذاته - يسوّغون المبررات والأسباب في سبيل أن يرفعوا الخطأ عن بعض من أخطأ، أو يبررون من أعمالهم بما يضيف عليهم من هالات القدسية، لسبب أو لآخر، مستندين إلى نصوص قدسية.

لهذا، وبعد أن قمنا بجمع بعض النماذج الأكثر وضوحاً وبروزاً من الروايات، والتي توضح العلاقة بين النبي والمسلمين، نرى أنه من المفيد أن نذكر بعدد من النصوص التي ترسم حدود هذه العلاقة. ومن هذه النصوص، التالية:

- ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ..﴾ (النساء ٤ : ٥٩ . وهي مدنية).

- ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ..﴾ (النساء ٤ : ٦٤ . وهي مدنية).

- ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ..﴾ (النساء ٤ : ٨٠ . وهي مدنية).

- ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر ٥٩ : ٧ . وهي مدنية).

- ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ (الأحزاب ٣٣ : ٣٦ . وهي مدنية).

(١) ابن حزم : الفصل في الملل . (ج ٢) : م . س : ص ٢٩٨ .

(٢) الحرري ، عبد الله : بغية الطالب : م . س : ص ٣٥ .

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبّط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (الحجرات ٤٩ : ٩٧ . وهي مدنية) .
- ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك يُنت طائفة منهم غير الذي تقول، والله يكتب ما يُميتون فاعرض عنهم وتوكل على الله ﴾ (النساء ٤ : ٨١ . وهي مدنية) .

- ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (النساء ٤ : ٨١ . وهي مدنية) .

نستخلص من هذه النصوص عدداً من المسلّمات، التي على المسلم أن يضعها دستوراً في علاقته مع النبي:

لقد أمر الله الناس بأن يطيعوا الرسول، ويُن لهم أن طاعة النبي هي من طاعة الله.
فأوامر الرسول بالتحليل والتحريم واجبة الطاعة، ويقع وجوبها على المسلمين كافة. ولا خيرة لهم من أمرهم - في ذلك - شيئاً.

ولمخاطبة الرسول آداب، وليست كذلك التي تُتبّع بين الناس بعضهم مع البعض الآخر: كمثل رفع الصوت، أو الجهر بالانتقاد ...

إن الذين لا يلتزمون بالأوامر والنواهي، علناً وسراً، هم من المنافقين .
إن مقياس الإيمان، الذي يُحاسَب المسلمون عليه، هو أن يلتزموا بطاعة الرسول من دون حرج، ويُسلموا بهذه الطاعة علناً ومن دون نقاش. وكل من لا يفعل ذلك فهو ضالّ وأثم إلماً واضحاً. وإن الله سيحبط أعمال هؤلاء من دون أن يشعروا.

أنزلت جميع هذه النصوص - الشواهد في المدينة، وهذا يدل دلالة واضحة على أن النبي قد أخذ يواجه الكثير من الإشكالات في علاقته مع المسلمين، خاصة بعد أن اتسّعت دائرة الدعوة الإسلامية، وكثرت أعداد المسلمين، وتفرّعت القضايا/المعضلات/المشاكل الجديدة، بما تتطلبه من حلول جديدة. ويبدو، من خلال قراءة هذه النصوص - الشواهد، أن التعارض بوجهات النظر والآراء بين النبي وكثير من المسلمين كانت تكثر أيضاً.

كان في القلب من هذه الروايات - الشواهد يبرز أحد كبار صحابة الرسول وهو عمر بن الخطاب. لهذا السبب ستتخذ من مواقفه شاهداً أساسياً، على الرغم من أنه لم يكن الوحيد الذي تواجه مع الرسول بعدد من التعارضات. فإلماً جاء اختيارنا له لأهمية موقعه السابق في الجاهلية، ولأهمية موقعه القريب من الرسول بعد الإسلام؛ ولأنه - كما يصفه

أحمد شلي - كان "جريئاً كعادته، ولذلك نجده يترجم ما في نفسه وما في نفوس المسلمين من ثورة .." (١).

كأننا بعمر بن الخطاب، بموافقاته مع الرسول ومع الله - أحياناً - في بعض المسائل، والتي انعكست موافقات بينه وبين الوحي في عدد من الآيات؛ ولجراً فيه، ولعلاقة حميمة مع الرسول، قد رفع حجاباً/مسافةً كان يلزم أن يكون/ تكون ما بينه وبين الرسول بسبب من وضوح في النص حول حدود العلاقة بين الرسول وبين المسلمين. لقد سهّل هذا الأمر الطريق أمام عمر لكي يلعب - أحياناً - دور الند للند مع الرسول في عدد من الأمور التي كان يحكم فيها، والذي كان يرى في حكمه مصلحة للمسلمين. لم تكن بعض هذه الأحكام لتجد هوى وقبولاً في نفس عمر بن الخطاب. ومن هذه المواقف، التي استطعنا أن نتبعها في كتب التراث، في مكان سابق من هذا البحث، ونعيد التذكير بأهمها:

- موقفه المعارض لصلح الحديبية.

- موقفه الراض في الاستجابة لطلب الرسول، في أثناء احتضاره، بكتابة كتاب للمسلمين.

- موقفه المعارض في الصلاة على عبد الله بن أبي، وإصرار الرسول على الصلاة. فنزل الوحي مؤيداً لموقف عمر.

- موافقة الرسول لعمر في محنة الإفك التي تعرضت له عائشة زوجة الرسول.

- موافقة الرسول لعمر في ضرورة احتجاب نسائه، فنزلت آية الحجاب.

- موافقة الرسول على ما هدد به عمر زوجات النبي بطلاقهن، فنزل الوحي بذلك.

بين الموافقات والتعارضات هل كان عمر يأخذ بظاهر الآية: ﴿إنما أنا بشر مثلكم...﴾؟

وما هو موقفه من الآيات المحكمات، التي أنزلت بإلزام المسلمين بوجوب طاعة الرسول؟

تأتي هذه التعارضات والموافقات في موقعها الصحيح والعادي و الغير لافت للنظر. - كوجه ضروري للشورى إذا لم تكن مشروطة - لكن الشورى لم تكن ملزمة للرسول. وما عدا ذلك من النصوص، التي تفرض طاعة الرسول على المسلمين، هي نصوص مُحْكَمَةٌ وغير مخصصة أو محصورة لا بالأشخاص ولا بالإيمان.

إن ما تقدّم يفترض بنا أن نواجه عدداً من الأسئلة/ الإشكاليات:

(١) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١): م. س: ص ٥١٤.

هل كان الرسول يخطيء؟ وهل كان هذا هو السبب الذي دفع ببعض أصحابه، وبعض المسلمين - في أحيان كثيرة - إلى معارضته؟ هل كان الصحابة يخطئون بمعارضتهم للرسول؟ وهل يمكن تكفيرهم بذلك أم لا؟

جاء عند الآمدي، حول عصمة الرسول، ما يلي: "أما بعد النبوة فاتفق من أهل الشرائع قاطبة على عصمتهم [عصمة الأنبياء].. واختلفوا في جواز ذلك عليهم بطريق الغلط والنسيان" (١).

ويؤكد أحمد شلبي - حول العصمة - أن النبي "بشر جاء برسالة من عند ربه، فأداها أحسن أداء، وهو معصوم في تبليغها، ويمكن أن يسهو فيما سوى تبليغ الرسالة" (٢).

وإننا هنا نتساءل: هل حدد الفقهاء المسلمون ما حصل من سهو ونسيان وغلط مما وقع من النبي؟ وهل يعتقدون أن ما حصل من تعارض بين النبي وبين عمر بن الخطاب حول مسألة الخلاف على الصلاة على عبد الله بن أبي يأتي في داخل هذه الدائرة؟ (قبول النبي بالصلاة عليه - نصح عمر بالامتناع عن ذلك - إصرار النبي على الصلاة - نزول الوحي بما يؤكد أحقية عمر في اعتراضه).

لكن هل تلغي موافقات عمر بن الخطاب، مع الرسول ومع الوحي، تطبيق حد نص وجوب طاعة الرسول بفرض العقوبة الشرعية بحقه، من جراء معارضاته معه؟ فلو طبق النص، الذي أوجب طاعة الرسول، بتأنيب مرتكب المعصية / الممتنع عن طاعته، وذلك بإحباط أعماله، على كل مسلم؛ فهل يُحكم عليهم بما أوجبه الله تعالى من عقوبات؟ أم أننا لا نستطيع البوح بذلك؟

يقول أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥م) - إمام السلفية - وهو صاحب المنهج النصوي وأصوله، أن: "الأصل الأول: النصوص: فإذا وجد النص أفتى به، ولا يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه، كائناً من كان..". ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا قول صاحب... (٣).

لكن أصحاب أحمد بن حنبل، الذين اتبعوا هذا المنهج، وقعوا في شيء من التناقض - كما يقول محمد عمارة - عندما قالوا بإمكانية "تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد"، وهم يقيمون هذا المبدأ على أساس أن "الشرعية مبنية

(١) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام (ج ١): دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٨٩: ص ٢٣٤.

(٢) شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١): م. س. ص ٥٥٧.

(٣) عمارة، محمد: تيارات الفكر الإسلامي: دار الوجدة: بيروت: د. ط: ص ١٢٨.

على مصالح العباد في المعاش والمعاد"^(١). وضرب هؤلاء العديد من الأمثلة على أمور تغيّرت فيها الفتاوى والأحكام بتغير الأمكنة واختلاف المصالح:
فالقرآن والسنة قررا الحد على السارق؛ لكن (عام الرمادة - عام حصلت فيه مجاعة) جعل عمر بن الخطاب يرى إسقاط القطع عن السارق.
جعل القرآن والسنة الطلاق بلفظ الثلاث طلقة واحدة. ثم رأى عمر بن الخطاب أن تُغيّر الفتوى فجعله ثلاثاً.

كانت الإماماء - أمهات الأولاد - تُبْعَن على عهد النبي، لكن عمر منعها^(٢).
إن الاعتقاد بشقيه: عصمة النبي بتبليغ الرسالة؛ وجواز عدم عصمته بطريق الغلط والنسيان، يفسح المجال لمشاكل كثيرة في الاجتهاد حول كثير من الأمور التي لم يرد فيها نص، بل حتى تلك التي نصّ عليها بحديث نبوي. والسبب في ذلك يستند إلى أن الفقهاء المسلمين لم يحددوا تحديداً دقيقاً، تصريحاً أو تلميحاً، ما حصل من غلط عند الرسول أو نسيان. ولهذا تخرج فقهاء المنهج النصوصي من إبداء الرأي في إشكالية الحكم على من خالف النص، بوجوب طاعة الرسول؛ ووقف أهل السنة والجماعة موقفاً مماثلاً.

إننا نتساءل لماذا يتحرّج كل هؤلاء في الوقت الذي يقول فيه الرسول بكل وضوح: "ما أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا"^(٣).

إننا لا نحسب أن الفرق الإسلامية قد استفادت من مضمون هذا الحديث إلا ما يخدم أهواءها وعقائدها المنهجية؛ وكمثال على ذلك فقد جاء عند ابن حنبل - عن خلافت صحابة الرسول بين بعضهم البعض، أو بين بعضهم وبين الرسول - ما يلي: "لا يصح الخوض فيها، بل يجب العدول عن ذكرها، والوقوف عند محاسنهم وفضائلهم..."^(٤). وعلى من اتبع منهج أهل السنة والجماعة أن يعرف: "حق السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ... وترحم على جميع أصحاب محمد، صغيرهم وكبيرهم، وحدث بفضائلهم، وأمسك عما شجر بينهم"^(٥).

جاء في حديث للرسول، حول الصحابة، ما يلي: "لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه". ويقول مسلم، نقلاً عن النووي: "واعلم أن سب الصحابة (ر) حرام من فواحش المحرمات، سواء من لامس الفتن

(١) م . ن : ص ١٤٦ .

(٢) م . ن : ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) ابن حزم : الفصل في الملل ... (ج ٤) : م . ن : ص ٤٣ .

(٤) نقلاً عن محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي : م . ن : ص ١٣١ .

(٥) م . ن : ص ١٣٢ .

منهم وغيره، لأنهم يجتهدون في تلك الحروب متأولون...". ونقلاً عن القاضي - يتابع مسلم في صحيحه - : "وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومنهينا ومنهيب الجمهور أنه يُعزَّر ولا يُقتل" (١).

أما ماذا حول الموقف، الذي اتخذته مختلف الفرق الإسلامية، من الصحابة (موافقاتهم وتعارضاتهم) مع الرسول؟ وماذا عن أخطائهم وخلافاتهم؟

هنا جرى خلاف حول المبدأ من تقييم الصحابة، وتقييم أعمالهم؛ فانقسم المسلمون في الفتوى والموقف عندما تصدوا لهذا الأمر. ولكننا اختصاراً لكل المجلدات التي صُنِّفت حول الخلافات في هذه المسألة، يمكننا أن نقسم المختلفين إلى مذهبين رئيسيين، وهو تدبير نحسب أنه يفي بالغرض المطلوب:

- الأول: وهو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وقد نقلنا بعض ما قالوه، وما قاله أصحاب المنهج النصوصي، إلا أنه قد ورد في صحيح مسلم ما نحسب أنه يتناقض مع هؤلاء وأولئك. جاء في صحيح مسلم حديث للنبي يقول فيه: "أنا فرطكم [سابقكم/ متقدمكم] على الخوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً؛ وليردَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم. [فأقول]: إنهم مني. فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سحقاً، سحقاً لمن بدَّل بعدي" (٢). فمن هو المقصود بهذا الحديث يا ترى؟

فمن الواضح أن المقصود بالذين سيردون على الخوض، هم من الذين يعرفهم الرسول، أي هم من أصحابه، وهم من الذين سوف يخضعون للحساب، وسوف ينالون العقاب على أعمالهم التي قاموا بها بعد وفاته.

- الثاني: ويأتي على رأس هذا الفريق الشيعة الإثني عشرية. وحول هذا الأمر سننقل بعض ما قاله البعض من الفقهاء الشيعة:

«يقول عبد الحسين شرف الدين: "أفادت سيرة كثير من الصحابة [وهو لم يذكرهم بالإسم] أنهم كانوا يتعبئون بالنصوص إذا كانت متمحضة للدين، مختصة بالشؤون الأخروية؛ أما ما كان متعلقاً بالسياسة كالولايات والإمارات، وتدبير قواعد الدولة؛ فإنهم كانوا يرون التبعد به، والالتزام في جميع الأحوال بالعمل على مقتضاه، بل جعلوا لأفكارهم مسرحاً للبحث، ومجالاً للنظر والاجتهاد" (٣).

(١) صحيح مسلم (ج ٧) : م . س : ص ١٨٨ .

(٢) م . ن : ص ٦٧ .

(٣) شرف الدين ، عبد الحسين : المراجعات : م . س : ص ٢٧٩ .

﴿ يقول، مغنية: "إن المسلمين بجملتهم أظهروا طاعة الرسول، ولكنهم لم يكونوا جميعاً مخلصين فيما أظهروا، بل منهم فئة منافقة تخادع الرسول، وتُبيّتُ خلاف ما تبديه له من الطاعة. وهذه الآية [ويقولون طاعة، فإذا برزوا من عندك، بيّت طائفة منهم غير الذي تقول، والله يكتب ما يبيتون، فاعرض عنهم وتوكل على الله] (النساء ٤: ٨١) ردّ مفحم لمن ادّعى أن جميع الصحابة عدول، وإن مجرد الصحبة للرسول تعصم صاحبها من كل شبهة" (١).

إذا كان الشيعة قد أخضعوا الصحابة إلى مبضع النقد، على العكس مما فعله السُّنة، فإنما كي يخلصوا من خلال ذلك إلى تدعيم نظريتهم بالإمامة/ الخلافة؛ أي من هو من المسلمين يكون الأصلح في تطبيق النص المقدس. لهذا قال الشيعة بوجوب عصمة أولي الأمر: "فليست عصمة الإمام أقل أولوية من عصمة الرسول، لأن الإمام إذا لم يكن معصوماً لاحتاج إلى إمام آخر، وعلى الرعية أن تردّه إلى الصواب؛ مع العلم أن الرعية بحاجة إليه للاقتداء والالتزام به. والشيعة لا يسلّمون بأن إكمال الدين وعصمة الرسول تغنيانا عن المعصوم لأن الأحكام متجددة، والأحوال متغيرة. وحاجة الناس ليست فقط لإمام يحفظ الشرع، وإنما ليفسّر الأحوال المتجددة، ولا طريق لذلك إلا بالمعصوم الذي لديه التفسير الذي يفيد اليقين" (٢).

لم يكن المنهج السلفي النصوصي، ولا المنهج العام لأهل السنة والجماعة، ليستطيع أن يستجيب لما فرضه النص، أو يجيب عنه بما يكفي الحاجة من السؤال، وإنما كانت هناك قاعدة للهروب إلى الإمام؛ والسبب في ذلك هو الهروب عن المواجهة المباشرة مع إشكالية العلاقة بين النص والواقعة.

أما الشيعة عندما أرادوا أن يواجهوا المسألة بجرأة أكثر، وبنسق نظري أقرب إلى المنطق المجرد عندما حسبوا أن النص المقدس لا يمكن لغير إنسان قدسي أن يأوله ويطبّقه، فوقعوا في مواجهة صعبة مع المستحيل عندما قالوا بوجوب الإمامة للمعصوم، الذي يُعدّ - بنظرهم - الوحيد القادر على فهم النص وتطبيقه من دون أية ثغرات.

فإذا كان التطبيق صعباً في حالات نموذجية كان فيها النبي حياً، وكان صحابته على التصاق شديد به: فالرسالة جديدة، والنص متحد مع الواقعة والحادثة والحاجة، وقريب منها؛ والرسول الناطق بالنص، يفسّر ما غمضَ وما أشكل؛ والمرسل إليهم في عز عنفوان إيمانهم يعيشون أسباب نزول النص وظروف إنزاله؛ وعلى الرغم من كل ذلك فقد حصل الكثير من

(١) مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف (٢م): ٢. م: ص ٣٨٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب: الإمام والإمامة عند الشيعة: دارالحرارة: بيروت: ١٩٩٠: ط ١: ص ٩.

التعارضات بينه وأقرب أصحابه إليه، فكيف - بالأحرى - ستكون العلاقة بين المسلمين، في أوقات بعيدة جداً عن ظروف نشأة الإسلام وبين ولي الأمر؟

II - الخلافة الراشدة

(مرحلة التأسيس لشقوق عامودية في داخل الدعوة الإسلامية)

كان الخلفاء الراشدون أربعة، ولا يمكن تحليل الأحداث في عهد كل منهم بمعزل عما حصل في العهود الأخرى، لأن هناك تقاطعات معقدة بين العهود الأربعة؛ وفي الوقت ذاته هناك ما يميز كل عهد عن الآخر.

سنقوم بمحاولة، وبالقدر الذي نستطيع، استخدام فرز التمايزات بين الخلفاء وبين عهد كل منهم، والتي لها علاقة بالبحث من جهة؛ وتحديد القضايا - التقاطعات، أي القضايا المشتركة التي طبعت مرحلة الخلافة الراشدة عن غيرها من المراحل، من جهة أخرى.

ولأن بحثنا يتعلق بإشكالية الردة في الإسلام، فسوف يفرض علينا منهج انتقاء النصوص التاريخية ذات العلاقة المباشرة مع موضوع البحث. إلا أن هذا المنهج، على الرغم من إنتقائيته، لن يحجب ما قام به الخلفاء الراشدون من أعمال وإنجازات كان لها الأثر الأكبر في صناعة الصفحات البيضاء في التاريخ العربي - الإسلامي. فإذا لم ينصبّ اهتمامنا على هذا الجانب المضيء أو ذاك، فإن لنا عذراً المنهجي، لأن كتب التاريخ - بمصادره الأساسية أو مراجعه الموضوعية - قد أبرزت ذلك بما يكفي، وهي أكثر من أن تحصى، فعلى القارئ المهتم أن يتابع ذلك من خلال المصادر والمراجع المختصة.

أولاً: الخلفاء الراشدون: القضايا - التمايزات

١ - خلافة أبي بكر الصديق (١١ - ١٣هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤م) (البيعة الفلانة)

أ - صفاته: وهي كما جاءت في النص حسب الروايات التاريخية:

﴿ قال الله تعالى هو: ﴾ ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل سكينة عليه ﴾ (التوبة ٩: ٤٠). فأجمع المسلمون على أن صاحب المذكور هو أبو بكر^(١).

﴿ قال الله: ﴾ والذي جاء بالحق وصدق به ﴾ (الزمر ٣٤: ٣٣) وهو أبو بكر^(٢).
﴿ وأخرج أسد السُّنة في (فضائله)، قال: "ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يشكُّون أن أبا بكر خليفة رسول الله؛ وما كانوا يسمونه إلا خليفة رسول الله ﷺ؛ وما كانوا يجتمعون على خطأ ولا ضلالة" ﴾^(٣).

﴿ وأخرج الترمذي، أن رسول الله ﷺ "خرج ذات يوم فدخل المسجد، وأبو بكر وعمر، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما، وقال: هكذا نُبعثُ يوم القيامة" ﴾^(٤).

ب - البيعة - الفلّة: ابتدأت بيعة أبي بكر فصولاً من سقيفة بني ساعدة. وقد ذكر الطبري وقائعها في خطبة لعمر بن الخطاب، قال فيها: "حين توفي الله نبيه ﷺ، أن علياً والزبير ومن معهما [من بني هاشم] تخلفوا عنا في بيت فاطمة؛ وتخلّفت عنا الأنصار بأسرها؛ واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر. فقلت لأبي بكر: إنطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار... فأتيناهم وهم يجتمعون في سقيفة بني ساعدة... فقام رجل منهم، فحمد الله وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر قريش رهط بيننا؛ وقد دُفّت [وصلت] إلينا من قومكم دافّة. قال [عمر بن الخطاب]: فلما رأيتهم يريدون أن يحتزلونا [يقطعونا] من أصلنا ويغصبونا الأمر؛ وقد كنت زوّرت [حسّنت وزيّنت] في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر... فلما أردت أن أتكلّم، قال: على رسلك، فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنت زوّرت في نفسي أن أتكلّم به، لو تكلمت، إلا قد جاء به أو أحسن منه [قال]: إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش... ورضيت بكم أحد هذين الرجلين [وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة الجراح]... فلما قضى أبو بكر كلامه؛ قام منهم رجل، فقال: ... منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش... فارتفعت الأصوات وكثُر اللغط. فلما أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: يسط يدك أبايك، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون" ﴾^(٥).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ٦٧. راجع، مغنية: التفسير الكاشف (٤م): م. س: ص ٤٥.

(٢) م. س: ص ٦٨.

(٣) م. س: ص ٨٦.

(٤) م. س: ص ٧٠.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ١٠٣.

أما الأنصار فكانوا قبيلتين: الأوس والخزرج. وأما الخزرج فكانت تطلب الخلافة إلى سعد بن عباد. ولما رأت الأوس أن الخزرج تطلب الخلافة لها، قال بعضهم لبعض: "والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معها فيها نصيباً أبداً، فقوموا وبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه... فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر. وكادوا يطأون سعد بن عباد. فقال ناس من أصحاب سعد: إتقوا سعداً لا تطؤوه. فقال عمر: إقتلوه قتله الله. واشتد الخلاف بين سعد وعمر [وتماسكاً، فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق هنا أبلغ. فأعرض عمر، ثم طلب سعداً في البيعة فأبى^(١)]. وقال سعد: وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض علي ربي، وأعلم ما حسابي"^(٢). وتحول إلى داره، وأرسل إليه لمبايعة أبي بكر لكنه رفض قائلاً: "لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي، وأحضب سنان رعي، وأضربكم بسيفي..."^(٣).

وجاء في الأخبار أن سعداً لحق بالشام "فلم يزل هناك حتى مات، وإن الجن قتله"^(٤). ويروى أيضاً: "أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً يدعو سعداً إلى البيعة، وإنه فوض إليه قتله إن أبى، ولما رفض سعد رماه الرجل بسهم فقتله"^(٥).

أما ما روي عن بني هاشم، فإنهم وعلي والزبير بقوا ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة فبايعوه^(٦).

لكن علي بن أبي طالب، على الرغم من أنه تلقاً عن بيعة أبي بكر، فإنه بعد وفاة فاطمة - كما يروي مسلم في صحيحه - التمس مصالحة أبي بكر ومبايعته. وعندما التقاه قال: "إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك، وما أعطاك الله، ولم نفس عليك خيراً ساقه الله إليك؛ ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرايتنا من رسول الله ﷺ؛ فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناً أبي بكر"^(٧).

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٤٦٨.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ١١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ١٩٤.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٤٦٨.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ١٩٤.

(٧) صحيح مسلم (ج ٥): م. س: ص ١٥٤.

وعن عمر بن الخطاب، يروي الطبري، أنه قال: "لا يغرُّ امرءاً أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة [من دون تدبّر وتمهّل]؛ فقد كانت كذلك، غير أن الله وقى شرّها" (١).

إستناداً إلى ما نقلنا من الروايات حول مسألة الخلافة، كان لا بدّ من تسجيل الملاحظات التالية:

في قول عمر بن الخطاب، عندما قال: "حسبنا كتاب الله"، ما يتناقض مع رفضه طلب الرسول الذي كان راغباً في كتابة الكتاب (الذي لن يضل المسلمون من بعده)؛ لأنه لو كان النص القرآني يشمل كل الأحكام، ومنها مسألة خلافة الرسول، لكان عمر استطاع، ومعه المسلمون الأوائل وهم الأقرب والأفقه في تفسير النص، أن يجلبوا فيه حلاً جاهزاً يُقنع جميع المسلمين - في ذلك الوقت - بنص واضح قاطع مانع. ولأن ذلك كان غير واضح، كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرّها. ولو توقفت الأمور عند هذا الحد لانتهدت تلك المحنة، لكنها لم تتوقف بل اتجهت الأمور أكثر باتجاه المزيد من الفتنة. هذه الفتنة كانت تطل برأسها كلما توفي خليفة، وبُشِّر بالاعداد لبيعة خليفة آخر. وهذا ما سوف نتبعه في المراحل القادمة من هذا البحث.

يقول الشهرستاني: "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فأبى رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنهما تغرّ [عرّضا نفسيهما للهلاك] يجب أن يُقتلا" (٢).

وهكذا يتضح، من خلال سير الروايات، أن المسلمين انقسموا - بعد وفاة الرسول مباشرة - إلى ثلاثة اتجاهات:

- الأنصار: الذين طلبوا أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير. وهم لم يُجمعوا على بيعة أبي بكر.

- المهاجرون: حصروا البيعة في قريش، وصرّحوا بأحقّيتهم في الخلافة.

- بنو هاشم: تخلّفوا عن بيعة أبي بكر ستة أشهر. وعلى الرغم من أنهم بايعوه لكنهم أوضحوا أن لبني هاشم حقاً في الخلافة.

ج - الإشكاليات التي حصلت في عهد أبي بكر: وعلى العموم فقد واجهت أبا بكر، في أثناء خلافته، مسألتان هما الطابع العام، ومسألتان هما الطابع الخاص.

(١) الطبري: تاريخ الطبري (٢م) : ٢ : ص ١٠٣ .

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (١م) : ٢ : ص ٢٤ .

– الأولى والثانية: الردة العامة وبعثة أسامة بن زيد: وبسبب من التداخل بين المسألتين، نرى أنه من الأنسب، ومنعا للتكرار، أن نعالجهما معاً.

ابتدأت الردة في أواخر أيام الرسول. فإنه لما قبض الله نبيه محمد ﷺ، إرتدَّ العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل البحرين من عبد القيس. وقال المرتدُّون: نصلي، ونزكي، والله لا تغصب أموالنا^(١).

وإن "أكثر أهل مكة، لما توفي رسول الله ﷺ همّوا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا بذلك، حتى خافهم عتاب بن أسيد فتواري. فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم ذكر رسول الله ﷺ، وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فراجع الناس، وكفوا عما هموا به"^(٢).

كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة، ثلاث في عهد الرسول ﷺ – وقد تكلمنا عنها في موضع سابق من هذا الفصل – أما الفرق الباقية، فكان على أبي بكر أن يواجهها. ولم يرتد في عهد عمر بن الخطاب سوى فرقة واحدة، وهي غسان وهم قوم جيلة بن الأيهم^(٣).

→ ويروى أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها"^(٤).

→ ويروى أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: "يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم". فأجاب أبو بكر: "مضى النبي ﷺ وانقطع الوحي، لأجاهدنيهم ما استمسك السيف بيدي، وإن منعوني عقالا"^(٥).

→ ويروى، أيضاً، أنه لما وقعت الردة أشار كثير من الناس على الصديق أن لا يُنفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم، لأن ما جُهِز بسببه في حال السلامة. وكان من جملة ما أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشدَّ الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال: "والله لا أجلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفتنا"^(٦). ويروي

(١) الطبري: جامع البيان... (ج ٦): م. س: ص ١٨٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية (ج ٤): م. س: ص ٢٦٠.

(٣) النيسابوري: "غرائب القرآن": راجع الطبري، هامش: جامع البيان (ج ٦): م. س: ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٦): م. س: ص ٣١١.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ٩٣.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٦): م. س: ص ٣٠٤.

ابن الأثير أن عمرًا لما قال إلى أبي بكر: " فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سنًا من أسامة". وثب أبو بكر - وكان جالساً - وأخذ بلحية عمر، وقال: "ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله!"^(١).

أنفذ أبو بكر أسامة بن زيد إلى الشام كما أمر رسول الله قبل وفاته؛ وجُلَّ ما غير أبو بكر في بعثة أسامة، أنه طلب منه أن يتخلف عنه عمر بن الخطاب قائلاً: "إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل"؛ فأذن له. ثم أوصاهم فقال: "لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغفلوا [أخذ الشيء من الغنيمة قبل القسمة خفية]، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا أطفالاً، ولا شيخاً ولا امرأة...". وكانت بعثة أسامة نافعة للمسلمين؛ فإن العرب قالوا: "لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش. فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه"^(٢).

حصلت غارات على المدينة من قبل بعض المرتدين، فتصدى المسلمون لهم إلى أن عاد جيش أسامة. ولما استراحوا عقد أبو بكر الألوية لهم، وبلغ عددها أحد عشر لواء، وكتب أبو بكر كتاباً لكل أمير. وفصل كل أمير بجنده من ذي القصة (المكان الذي تجمعوا فيه)؛ ورجع الصديق إلى المدينة^(٣). ونرى من المفيد هنا أن نعرض لبعض الوقائع التي حصلت في أثناء التصدي للمرتدين:

➔ ردة طليحة : أنفذ أبو بكر خالد بن الوليد لقتال طليحة، فقتل خلقاً من أتباعه. وهرب طليحة فلاحق بالشام وبعث بشعر إلى أبي بكر يعتذر إليه، ويراجع الإسلام؛ فعفا عنه^(٤).

➔ ردة مسيلمة الكذاب: كان قد أسلم ثم تنبأ في العام ١٠ هـ، عقد أبو بكر في سبيل مواجهتها اللواء لخالد بن الوليد. فخرج مسيلمة فقاتله بمن معه من ربيعة، وغيرها، قتالاً شديداً. وقُتل من المسلمين خلق عظيم. ثم قُتل مسيلمة في المعركة^(٥)؛ قتله وحشى - قاتل حمزة - الذي قال: "قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام"^(٦).

لقي خالد جماعة الحنفي مع جماعة له، فأسروهم وضرب أعناقهم، واستبقى جماعة؛ وخطب خالد منه ابنته، فزوجه إياها. فكتب إليه أبو بكر: "توثب على النساء وعند أطناب بيتك دماء

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ٢٠٠.

(٢) م. ن: ص ٢٠٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٦): م. س: ص ٣١٥.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ١٢٩.

(٥) م. ن: ص ١٣٠.

(٦) النيسابوري: "غرائب القرآن": راجع الطبري، هامش: جامع البيان... (ج ٦): م. س: ص ١٦٢.

المسلمين ؟". وكان خالد قد صالح جماعة أيضاً "على الصفراء والبيضاء وربيع السبي"^(١). وقيل أنه، في القتال مع بني حنيفة، قُتِلَ ٦٦٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار من المسلمين، ومس بني حنيفة حوالي العشرين ألفاً^(٢).

→ أما بنو عامر فكانت تقدّم إلى الردة رجلاً وتؤخر أخرى، وتنظر ما تصنع أسد وغطفان. لكنهم عادوا إلى الإسلام بعد هزيمة أهل بُزَاقَة^(٣).

قال قُرّة بن هبيرة، من بني عامر، لعمر بن العاص: يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة؛ فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فسنستمع لكم ونطيع؛ فأجابه عمرو: أكفرت يا قُرّة؟^(٤). وخالد بن الوليد لم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطيء وسليم وعامر إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا، وعدوا على الإسلام حينما ارتدّوا؛ فأتوه بهم، فمَثَلَ بهم وحرّقهم...^(٥).

→ ردّة أبي الفجاءة السلمي: كان قد جاء إلى أبي بكر يطلب منه السلاح ليقاتل به أهل الردة؛ فأعطاه. لكنه نكث بعهده وقتل المسلمين في سليم وعامر وهوازن. فأمر به أبو بكر، فأسير، وأحرقه في المدينة مكبلاً^(٦). وبينما كان أبو بكر على فراش الموت قال: "ليتني لم أحرّق الفجاءة السلمي، إما أن أكون قتلته سريعاً، أو أطلقه نجيحاً"^(٧).

→ ردّة بني تميم: تشاغلّت تميم بعضها ببعض، بعضها يسير بالصدقات إلى أبي بكر، وبعضها الآخر يتخلف منتظراً. ولما أتتهم سُجّاح - مدّعية النبوة - وادّعها مالك بن نويرة؛ وكره بعض بني تميم ما فعل مالك. تابعت سُجّاح سيرها إلى بني حنيفة، فبلغ ذلك مسيلمة، فاجتمعوا، واتفقوا، وتزوجوا، وتصلحوا على غِلّة اليمامة. ولما فاجأهم خالد بن الوليد، انسحبوا، وبقيت سُجّاح في تغلب إلى أن نقلهم معاوية إلى الشام؛ فجاءت معهم، وأسلموا وأسلمت. وحسّن إسلامهم وإسلامها، وانتقلت إلى البصرة وماتت فيها^(٨).

→ أما فيمن ارتد في اليمن، ومنع الزكاة، فقد قاتلهم زياد بن ليلى البياضي، وسبى النعم وسبايا كثيرة، فعارضهم الأشعث بن قيس وانتزع السبايا من أيديهم.

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): ٢. م: ص ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): ٢. م: ص ص ٢٢٣.

(٣) ٢. م: ص ص ٢١٠.

(٤) ٢. م: ص ص ٢١٢.

(٥) ٢. م: ص ص ٢١١.

(٦) ٢. م: ص ص ٢١١.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): ٢. م: ص ص ١٣٧.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): ٢. م: ص ص ٢١٣ - ٢١٦.

ولما انتهى إلى أبي بكر عن ارتداد الأشعث، وما فعل، وجّه لزياد بن نبيد عوناً. فطلب الأشعث الصلح، وأخذ الأمان لعشيرته، فجيء به إلى أبي بكر في وثاق. فمنّ عليه أبو بكر، وأطلق سبيله، وزوّجه أم فروة أخته^(١). ولما كان أبو بكر على فراش الموت قال: "ليتني قدّمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه؛ فإنه يخيل إليّ أنه لا يرى شيئاً من الشر إلا أعان عليه"^(٢).

→ اجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا قلة منهم. قضى المسلمون، بقيادة العلاء بن الحضرمي، على المرتدين براً وبحراً. وأكثروا القتل فيهم فما تركوا بها مخبراً، وغنموا وسبوا^(٣).

→ إرتد أهل عُمان إلا قلة منهم؛ فقاتلهم المسلمون وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وسبوا الذراري، وقسموا الأموال، وبعثوا بالخمسة إلى أبي بكر^(٤).

→ وهكذا حصل مع الذين ارتدوا من أهل مهرة^(٥)؛ وحضروت وكندة^(٦).

إستطاع المسلمون، على العموم، أن يقضوا على الردة في الجزيرة العربية. وكان من أهم نتائجها على المسلمين أنه قُتل منهم بالآلاف، وبينهم كثيرون من حملة القرآن، مما دفع أبا بكر لجمع القرآن بطلب من عمر بن الخطاب^(٧). كانت عائلات المسلمين من الأموال والمغانم والسبايا الشيء الكثير. وبالطبع كانت خسائر المرتدين كثيرة جداً ومنها سقوط عشرات آلاف القتلى.

كان عدد القتلى، الذين سقطوا في حروب الردة، مذهلاً إذا ما قيس بأعداد من سقطوا طوال فترة القتال التي واجهتها الدعوة الإسلامية. تلك الخسائر السابقة كانت ١٣٩ شهيداً من المسلمين، و١١٢ قتيلاً من المشركين باستثناء من سقط لليهود في أثناء المعارك التي دارت معهم^(٨).

أما النتائج الإيجابية لحروب الردة فهي أنها قد أمنت للدعوة الإسلامية سبل الإستمرار والاستقرار، وذلك على الرغم من أنها خلقت الكثير من المآسي في صفوف العرب - المرتدين: من قتل وذبح وتشريد وسبي. وفي المقابل عُدّت مصدراً اقتصادياً مهماً للفئة الأخرى من العرب المسلمين الذين قاوموها.

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. ٢: ص ١٢٢.

(٢) م. ٢: ن: ص ١٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. ٢: ص ٢٢٥ - ٢٢٨.

(٤) م. ٢: ن: ص ٢٢٩.

(٥) م. ٢: ن: ص ٢٣٠.

(٦) م. ٢: ن: ص ٢٣٦.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. ٢: ص ١٣٥.

(٨) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١): م. ٢: ص ٥٤٩.

- الثالثة: إشكالية ميراث الأنبياء: لم تكن مسألة الإرث - كما هو معروف - موضع خلاف بين أبي بكر الصديق وبين فاطمة بنت الرسول، فحسب؛ وإنما كانت، أيضاً، بينه وبين زوجات الرسول - باستثناء عائشة (زوجة الرسول، وابنة أبي بكر الصديق) - من جهة، وبينه وبين العباس (عم الرسول) من جهة أخرى .

- الروايات التي جاءت حول مسألة الخلاف بين أبي بكر وفاطمة:

→ جاء في صحيح مسلم ما يلي: عندما أرسلت فاطمة بنت رسول الله إلى أبي بكر تسأله ميراثها من أبيها، مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر. فقال أبو بكر: إن رسول الله قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة". وأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً. فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك وهجرته، ولم تكلمه حتى توفيت^(١).

→ وجاء في صحيح البخاري: "عن عائشة أن فاطمة، بنت النبي، أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منه شيئاً. فوجدت فاطمة عليه في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت"، ودُفنت ليلاً بناءً على وصيتها حتى لا يحضر جنازتها أحد منهم^(٢).

→ أما ابن كثير فيروي: عتبت فاطمة بنت الرسول على أبي بكر الصديق "بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ. ولم تكن تعلم ما أخبرها به الصديق بأن الرسول قال: "لا نورث، ما تركناه صدقة". "فحججها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح. فسأله أن ينظر في صدقة الأرض التي بخير وفدك، فلم يجبها إلى ذلك؛ لأنه رأى أن حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله، وهو الصادق البار الراشد التابع للحق (ر)، فحصل لها - وهي امرأة من البشر ليست واجبة العصمة - عتب. وتغضب ولم تكلم الصديق حتى ماتت، واحتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء..."^(٣).

→ ويروي الشهرستاني أنه حصل خلاف بين فاطمة بنت الرسول وبين أبي بكر الصديق حول فدك - وهي قرية شمال المدينة كانت لليهود - ولما انهزم يهود خيبر خشي يهود فدك على أنفسهم، فسلموا قريتهم للنبي ﷺ دون قتال؛ فكانت خالصة له ينفق منها على نفسه،

(١) صحيح مسلم (ج ٥) : ٢٠٠ : ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (ج ٣) : ص ٥٥ : نقلاً عن السماوي، : ثم اقتديت : ٢٠٠ : ص ١٤٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ٥) : ٢٠٠ : ص ٢٤٩ .

وعلى بعض المحتاجين من بني هاشم. ودُفِعت فاطمة عن ذلك برواية عن الرسول ﷺ تقول: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة" (١).

→ رُوِيَ في طبقات ابن سعد: "أن فاطمة قالت لأبي بكر: من يرثك إذا مت؟ قال: ولدي وأهلي! قالت: فمالك ورثت النبي دوننا؟ فقال: يا بنت رسول الله، والله ما ورثت أباك أرضاً ولا ذهباً ولا فضة ولا غلاماً ولا مالا! قالت: فسهم الله الذي جعله لنا، وصافيتنا التي بيدك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما هي طعمة أطعمنيها الله، فإذا مت كانت بين المسلمين" (٢).

→ يروي ابن سعد أيضاً: "لما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ بُويعَ لأبي بكر في ذلك اليوم. فلما كان من الغد جاءت فاطمة إلى أبي بكر ومعها علي، فقالت: ميراثي من رسول الله أبي، فذك وخير وصدقاته بالمدينة أرثها كما ترثها بناتك إذا مت. فقال أبو بكر: يعني هذه الأموال القائمة، فتعلمين أن أباك أعطاكها، فوالله لئن قلت نعم، لأقبلن قولك ولأصدقنك! قالت جاءتني أم أيمن فأخبرتني أنه أعطاني فذك. قال: فسمعتة يقول هو لك؟ فإذا قلت قد سمعتة، فهي لك؛ فأنا أصدقك وأقبل قولك! فقالت: قد أخبرتك ما عندي" (٣).

→ يروي ابن سعد، أيضاً: جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه، وجاء معهما علي؛ فقال أبو بكر: قال رسول الله لا نورث، ما تركنا صدقة، وما كان النبي يقول فعلي. فقال علي: ورث سليمان داود. وقال زكريا يرثني ويرث من آل يعقوب. قال أبو بكر: هو هكذا، وأنت تعلم مثلما أعلم. فقال علي: هذا كتاب الله ينطق! فسكتوا، وانصرفوا (٤).

- مطالبة عم الرسول وزوجاته بميراثهم: لم تكن فاطمة هي الوحيدة التي طالبت بميراثها من النبي، بل فعلت ذلك زوجات الرسول، وعمه العباس أيضاً. وحول هذا الأمر جاء في صحيح مسلم ما يلي:

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١م): م. س: ص ٢٥.

- راجع، أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ١٠٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢م): م. س: ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٣) م. ن: ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٤) م. ن: ص ٣١٥.

﴿ أرادت أزواج النبي ﷺ ، أن يعشن عثمان بن عفان إلى أبي بكر فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ . قالت عائشة هن: أليس قد قال رسول الله ﷺ : "لا نورث ما تركنا فهو صدقة" ^(١) ﴾
 ﴿ عن عائشة، أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ ... الخ ^(٢) .

إننا نتساءل: على أية مسافة تقع هذه الروايات مما جاء في النقل والعقل ؟
 - في النقل : لقد نُقِلَت روايات تتناقض مع ما نُقِلَ عن لسان أبي بكر عن الرسول:
 ﴿ جاء في القرآن أن النبي زكريا خاطب ربه: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ (مريم: ٢) .

﴿ روى اليعقوبي أن فاطمة أجابت أبا بكر لما ذكر لها حديث الرسول ﷺ قائلة: "أبي الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ أما قال رسول الله: المرء يحفظ ولده؟ فبكى أبو بكر بكاءً شديداً... ^(٣) .

﴿ قال رسول الله ﷺ ، في باب النفقة، رداً على سؤال من أحد المسلمين: "إبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قربتك... وهكذا" ^(٤) .

﴿ قال رسول الله ﷺ : "إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد..." ^(٥) .
 ﴿ قال أبو بكر الصديق وهو على فراش الموت: "ليتني لم أفنش بيت فاطمة بنت رسول الله، وأدخله الرجال، ولو كان أغلق على حرب" ^(٦) .

﴿ جاء عند ابن حجر العسقلاني، أنه لما جاء أبو زيد حارثة - والد زيد بن حارثة - وكان زيد مولى لرسول الله، إلى الرسول ليفتدي ابنه زيداً. طلب رسول الله تخير زيد، فإذا اختار أهله سيرد إليهم دون فداء. ولما سُئِلَ زيد أجاب: "ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم". فقال أبوه: ويحك يا زيد، أختار العبودية على الحرية؟ قال زيد:

(١) صحيح مسلم (ج ٥) : ٢ . م : ص ١٥٣ .

(٢) م . ن : ص ١٥٥ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : ٢ . م : ص ١٢٧ .

(٤) صحيح مسلم (ج ٣) : ٢ . م : ص ٧٩ .

(٥) م . ن : ص ١١٨ .

(٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : ٢ . م : ص ١٣٧ .

قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما بالذي يختار عليه أحداً. فلما رأى الرسول ﷺ ذلك، قال: "إشهدوا أن زيدا بُني، يرثني وأرثه" ^(١).

→ جاء في صحيح مسلم، أن عمر بن الخطاب - ونحسب أنه تأوّل في النص الذي جاء على لسان أبي بكر - دفع صدقة الرسول ﷺ في المدينة إلى علي وعباس، وأمسك خيبر وفدك" ^(٢). وحول هذه الرواية جاء أنه لما أتى علي والعباس يختصمان عند عمر حول صدقة المدينة، قال عمر لهما: "عندما توفي أبو بكر، رأيتماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أنني صادق بار راشد تابع للحق فولّيتها؛ ثم جئتني أنت وهذا [علي والعباس]، وأنتما جميع، وأمركما واحد، فقلتما إدفعا إلينا؛ فقلت إن شتمت دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تعملّا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ، فأخذتماها بذلك... فإن عجزتما عنها فردّاهما" ^(٣).

ومن سياق الروايات يبدو أن في النص ما يتناقض مع حديث الرسول الذي نقله أبو بكر الصديق:

- إن الأنبياء تورث، حسب الكتاب والسنة .
- إن النبي محمد أوصى بالنفقة على الأولاد، وإن آل محمد يجب أن لا يأخذوا الصدقة من بيت مال المسلمين .
- لقد تصرف عمر بن الخطاب على عكس ما فعله أبو بكر الصديق .
- في العقل: ثمانية من زوجات الرسول، جميعهن باستثناء عائشة، وثلاثة من أقرب المقربين إليه، وهم:
ابنته فاطمة، وابن عمه وصهره علي، وعمه العباس، وجميعهم لهم مصلحة في ميراثه ، طالبوا أبا بكر بحقوقهم فيه. فحجّجه عنهم بحديث منقول عن الرسول ذاته. فكان لابد أن تثير هذه المسألة عدداً من الأسئلة:
- كيف ذكر الرسول حديثه أمام أبي بكر وعائشة وحدهما، بينما لم يسمع به أي واحد من أصحاب المصلحة المباشرة بالميراث ويفوق عددهم العشرة ما بين ذكر وأنثى؟
- هل يمكن للنبي أن يترك ثغرة، مثل هذه، ولا يُحذّر منها أقرب المقربين إليه، فيقعون بخطأ المطالبة بحق ليس لهم؟

(١) نقلاً عن، حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام (ج ١): مكتبة النهضة المصرية: القاهرة: ١٩٦٤: ط ٧: ص ١٨٧.

(٢) صحيح مسلم (ج ٥) : ٢ : م : ص ١٥٥ .

(٣) ٢ : م : ن : ص ١٥٢ - ١٥٣ .

- إذا كان النبي قد ذكر هذا الحديث أمامهم، وتعمّلوا الإنكار لمصلحة لهم، فهل يمكن أن ينكروا عمداً وهم ما هم عليه من الصلاح؟ أو هل من المعقول، لو فرضنا أنهم نسوا، أن يقع جميعهم في النسيان؟

- وإذا كان ما قاله أبو بكر وعائشة لم يكن صحيحاً؟ فهل لهما مصلحة في ذلك؟ وهل يمكن أن ينقلوا أحاديث غير صحيحة عن الرسول؟ وهل يمكن أن يقعوا في مثل ذلك، وهم على ما هم عليه من الصلاح؟

- ورد حديث للنبي يقول فيه: "فاطمة بضعة مني، من أغضبها فقد أغضبني"^(١). وهذه فاطمة قد غضبت، فعلاً؛ وأبو بكر هو الذي أغضبها. فهل لأبي بكر، بكل ما يتصف به من صفات لا ينافسه عليها كثيرون، أن يُغضب ابنة نبيّه؟ وإذا كان غضب فاطمة، بغير وجه حق، فهل يمكن لابنة النبي أن تفعل ما فعلته؟

- الرابعة: إشكالية ما حصل بين خالد بن الوليد ومالك بن نويرة: لم تأت هذه الإشكالية منقطعة الجذور عن أسباب غير واضحة، فهي قد جاءت في سياق سلوكي متكرر مارسه خالد بن الوليد في أكثر من ظرف، وأكثر من مكان وزمان. وما كنا لنهتمّ بها فيما لو كانت صادرة عن سياق سلوكي بشري عام، وإنما جاء اهتمامنا بها لأن لها علاقة بالنض الديني، وهو السبب الذي دفع بنا إلى حساباتها إشكالية لم تتوحد حولها وحدة الرؤية بين المسلمين.

سبقت هذه الإشكالية إشكاليات أخرى، كان السبب فيها خالد بن الوليد، فالتبس - حولها - على المسلمين تحديد رأي فقهي موحد واضح، وهذا بعض ما أتت الروايات التاريخية على ذكره:

- إشكالية ما حصل من قتل في بني جذيمة بأمر من خالد بن الوليد. وحولها قال الرسول، مستنكراً ما قام به فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" ثلاث مرات. ومع ذلك لم يُطبّق عليه الحد، ولم يُعزّل عن إمرة الجيش.

- إشكالية زواجه مع بنت مجاعة الحنفي، وكان قد عفا عنه، بعد أن كان قد طُبّق حد القتل بأعداد غفيرة من قومه. وعلى إثر هذا التصرف كتب إليه أبو بكر قائلاً: "تتوئب على النساء، وعند أطناب يتك دماء المسلمين؟". حول الواقعة ذاتها يروي الطبري أن أبا بكر قال:

(١) صحيح البخاري (٢): ص ٣٠٢؛ باب مناقب قرابة الرسول: نقلاً عن السماوي، محمد التيجاني: ثمّ التهديد: م. س: ص ١٤١.

"يا ابن أم خالد، إنك لفارغ تنكح النساء، وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يُحقن بعد" (١).

- أما بالنسبة إلى إشكالية خالد مع مالك بن نويرة، فهذه بعض الروايات:
﴿ رواية ابن الأثير: ولما انتهى أمر مسيلمة بموته، وعودة سُجاح إلى الجزيرة. وبعد أن فرغ خالد من فزارة وغطفان وأسد وطيء، سار يريد بطاح مكة وبها مالك بن نويرة. تخلف بعض الأنصار عن خالد بحجة أن أبا بكر لم يأمرهم بذلك. إلا أن إصرار خالد على المسير، جعل الأنصار نادمين، فقالوا: "إن أصاب القوم خيراً حرّمتموه، وإن أصيبوا ليحتبكم الناس"، فلحقوه. ولما قدم خالد البطاح، بث السرايا، وأمر بالدعوة للإسلام، وقتل من يمتنع. كان أبو بكر قد أوصاهم: أن يؤذّنوا إذا نزلوا منزلاً، فإن أذن القوم كفوا عنهم. وإن أجابوهم إلى داعية الإسلام، سألوهم الزكاة. فإن أقرّوا قبلوا منهم، وإن أبوا قاتلوهم. جاء قوم خالد، وكان فيهم أبو قتادة، بمالك بن نويرة مع نفر معه. وكان أبو قتادة فيمن شهد أن مالكا وقومه قد أذّنوا وأقاموا وصلّوا. لكن قوم خالد قتلوهم، فيما يُظن أنه سوء فهم منهم لما أمرهم به خالد؛ فهو قد أمرهم أن يُدفنوا أسراهم لأن البرد كان شديداً في الليل؛ وكانت هذه العبارة تعني في لغة القوم - قوم خالد - أن يقتلوهم. ولم ينتظر خالد من زوجة مالك أن تقضي عُدتّها فتزوّجها.

ويُروى أن أبا قتادة غضب لما جرى وأبلغ أبا بكر. ولما طلب عمر بن الخطاب عزل خالد لأنه أخطأ، قال أبو بكر: "هيه يا عمر، تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عنه". ودفع أبو بكر دية مالك إلى أخيه.

ويُروى أنه لما حضر خالد إلى المدينة، بعد أن استقدمه أبو بكر، قال عمر لخالد: "قتلت امرأة مسلماً ثم نزوت على امرأتها! والله لأرجمنك بأحجارك" (٢).

﴿ رواية ابن كثير: لما استقدم الصديق خالداً إلى المدينة، قام عمر بن الخطاب إليه، وقال: "أرئاء قتلت امرأة مسلماً ثم نزوت على امرأتها، والله لأرجمنك بالجنادل". أما الصديق فعذره وتجاوز عنه. واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة، وأخطأ في قتله (٣).

﴿ رواية اليعقوبي: كتب أبو بكر إلى خالد أن يتجه إلى مالك. "فسار إليهم، وقيل إنه كان نداهم [نداه: دفنه في النار لينضج]. فأتاه مالك بن نويرة يناظره، وأتبعته امرأته. فلما

(١) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٣): م ز س: ص ١٥٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ٦): م. س: ص ٣٢٣.

رآها خالد أعجبته، فقال: والله لانتلت في مثابتك حتى أقتلك؛ فنظر مالكاً، فضرب عنقه وتزوج امرأته. فلحق أبو قتادة بأبي بكر، فأخبره الخبر، وحلف ألا يسير تحت لواء خالد لأنه قتل مالكاً مسلماً. فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، إن خالداً قتل رجلاً مسلماً، وتزوج امرأته من يومها. فكتب أبو بكر إلى خالد، فأشخصه؛ فقال خالد: يا خليفة رسول الله، إني تأولت، وأصبت، وأخطأت" (١).

→ رواية الطبري: لم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يُكره إلا ما كان من مالك بن نويرة. فسار خالد بن الوليد إلى البطاح، وعليها مالك بن نويرة وقد تردد عليه أمره. وقد ترددت الأنصار على خالد وتخلّفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا إن نحن فرغنا من البزاة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا. فقال خالد: إن يك عهد إليكم هذا، فقد عهد إلي أن أمضي، وأنا الأمير، وإليّ تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأت له كتاب ولا أمر... وهذا مالك بن نويرة بحياننا، وأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم. فمضى خالد، وندمت الأنصار، وتذمروا وقالوا: إن أصاب القوم خيراً إنه لخير حُرمتهم؛ وإن أصابهم مصيبة ليجتنبكم الناس. فأجمعوا على اللحاق بخالد.

أما مالك فقال في الناس، بعد أن تردد عليه أمره: يا بني يربوع، إنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين، وبطأنا الناس عنه، فلم نُفلح ولم نُنجح، ففرقوا إلى دياركم، وادخلوا في هذا الأمر. ففرقوا على ذلك إلى أموالهم؛ وخرج مالك حتى رجع إلى منزله.

ولما قدم خالد البطاح، بثّ السرايا، وأمرهم بداعية الإسلام، وأن يأتوه بكل من لم يُجب، وإن امتنع أن يقتلوه. فجاءته الخيل بمالك في نفر معه، فاختلفت السرية فيهم، وفيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلّوا. فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة. فأمر خالد منادياً فنادى: أدفنوا أسراكم. وكانت في لغة كنانة، إذا قالوا: أدفنوا الرجل: أقتلوه. وفي لغة غيرهم: أدفنه فاقتله. فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوه، وقد اختلف القوم فيهم.

فقال أبو قتادة: هذا عملك. فزبره خالد، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر؛ فغضب أبو بكر على أبي قتادة حتى كلمه عمر فيه، لكنه لم يرض إلا أن يرجع إلى خالد، فرجع إليه، ثم قدم معه إلى المدينة؛ وتزوج خالد أم تميم، وتركها لينقضي طهرها؛ وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعابره.

قال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً، فإن لم يكن هذا حقاً عليه، أن تقيده؛ وأكثر عليه في ذلك. فقال أبو بكر: هيه يا عمر تأول فأخطأ فارتفع لسانك عن خالد. وودّى

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢٤) : ٢٠٢ : ص ١٣١ - ١٣٢ .

مالكاً. وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل؛ فأخبره خبره فعذره وقبل منه، وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك. ورفض أبو بكر طلب عمر في عزل خالد، قائلاً له: لا يا عمر لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين...

تتابع الرواية: كان مالك من أكثر الناس شعراً، وإن أهل العسكر أثنوا [إذا وضعتها على الأثافي] برؤوس القتلى القدر، فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكاً، فإن القدر نضجت وما نضج رأسه من كثرة شعره .

وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة، وقد كان عاهد الله أن لا يشهد مع خالد بن الوليد حرباً بعدها أبداً. وكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح. قال أبو قتادة، فقلنا: إنا المسلمون. فقالوا: ونحن المسلمون؛ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح. قال أبو قتادة: فوضعوها ثم صلبنا وصلوا...^(١).

→ وقيل أنه لما تولّى عمر بن الخطاب الخلافة، كان أول كتاب له أن عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش، وقال: "لا يلي لي عملاً أبداً"^(٢).

→ وقيل، أيضاً، أنه لما عزل عمر خالداً من قيادة الجيش، غضب خالد، وقال لمن حوله: "إن أمير المؤمنين استعملني على الشام، فلما استقر الأمر، وأصبحت الحال حنطة وعسلأ عزلي وولّي غيري". فنهض رجل من السامعين، وصاح: مهلاً يا خالد، فإن كلماتك تثير الفتنة"^(٣).

تعددت الروايات، وإنما توحدت حول تحميل خالد بن الوليد الخطأ:

خفف أبو بكر العبء عنه قائلاً: بأنه اجتهد فأخطأ، وهذا يعني أن له أجر واحد، لهذا السبب لم يجر الحد عليه من جراء قتله مسلماً أو أكثر. أما عمر فبقي مصرّاً على تحريم خالد، وانتظر إلى أن تولّى الخلافة، فعزله عن قيادة الجيش. أما أبو قتادة، الذي شهد كل الواقعة، فحلف أن لا يشهد مع خالد حرباً أبداً.

وأما النص فماذا يقول؟

- جاء في القرآن: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب عليه ولعنة، وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ (النساء ٤ : ٩٣).

- وجاء في الحديث: "لا يحمل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: ... والنفس بالنفس... والمحضن الزاني... (يقول مسلم في صحيحه)، والنفس بالنفس: أي وقاتل النفس عمداً بغير حق، يُقتل في مقابل النفس التي قتلها عدواناً"^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٣): م. س: ص ١٣٨ - ١٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): م. س: ص ٢٧٧.

(٣) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (١م): م. س: ص ٦١٢.

- وجاء على لسان عثمان: "أو قتل نفساً بغير حق" ^(١) .
- جاء في صحيح مسلم: "وما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويُخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فُتِحَتْ له أبواب الجنة". وعن عطاء قال: الكبائر السبع: "قتل النفس...ورمي المحصنة. . " ^(٢) .
- قال الرسول: "أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" ^(٣) .
- أوصى أبو بكر أمراء الجيوش والمسلمين: "...فإن أذن القوم كفوا عنهم..." .

(٤) صحيح مسلم (ج ٥) : م . س : ص ١٠٦ .
(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٦٢ .
(٢) صحيح مسلم (ج ٥) : م . س : ص ص ٢٥ - ٢٦ .
(٣) م . ن : ص ١٠٧ .

٢ - خلافة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ = ٦٣٤ - ٦٤٤ م)

(الإستخلاف خوفا من الفتنة)

- أ - صفاته: جاء في بعض الأحاديث النبوية^(١) :
- : "لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس مُحدِّثون [مُلهمون]، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر".
- : "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".
- : "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب".
- : "عمر سراج أهل الجنة".
- : "الحق بعدي مع عمر حيث كان".
- : "من أبغض عمر فقد أبغضني، ومن أحب عمر فقد أحبني، وإن الله باهى الناس عشية عرفة، وباهى بعمر خاصة؛ وإنه لم يبعث الله نبياً إلا كان في أمته مُحدِّث [مُلهم]، وإن يكن في أمتي أحد فهو عمر. قالوا: يا رسول الله، كيف مُحدِّث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه".

وقيل في عمر:

- عن ابن مسعود: "لو أن علم عمر وُضِعَ في كفة الميزان، ووُضِعَ علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم"^(٢).
- : "إن عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله تعالى"^(٣).

(١) نقلا عن السيوطي : تاريخ الخلفاء: م. س: ص ص ١٤٢ - ١٤٥.

(٢) م . ن : ص ١٤٦.

(٣) م . ن : ص ١٤٧.

ب - استخلاف عمر خوفاً من الفتنة: لما أصبح أبو بكر على فراش الموت، استخلف عمر بن الخطاب بعد مشاورات مع بعض الصحابة. قال البعض الآخر لأبي بكر: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أبا لله تخوفوني؟ أقول: اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك. ودعا أبو بكر عثمان بن عفان ونص عليه كتاب الاستخلاف، وقد جاء بعض ما فيه: "فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل أمريء ما اكتسب" (١).

وقال أبو بكر بعد أن استخلف عمر: "اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة" (٢).

ج - تمايزات خلافة عمر بن الخطاب: تميّزت خلافته بوجوه عدة كان من أبرزها:
- عهد التوسّع بالفتاوى الجديدة - التوسع بالفتوحات الإسلامية، وجزاءاتها الاقتصادية - إشكالية اغتياله.

- الأول: التوسّع بالفتاوى:

إشتهر عمر، كما عرفنا في مراحل سابقة من هذا البحث، بجراته على التعارض مع الرسول ببعض المواقف من جهة؛ وعلى توافقه مع النص القرآني والرسول من جهة أخرى. ربما تكون هذه السابقة قد أكسبته حصانة نفسية بالتعاطي، مع النص الكتابي والسني، بأقل ما يمكن من الخشية النفسية، وحررته من عقدة الخوف والرهبة؛ فميّزته عن غيره من الصحابة، الذين تعاطوا مع النص بخشية وتحفظ.

واستكمالاً لبنائه النفسي - الاجتماعي المتميّز، تابع عمر سلوكه السابق في التعاطي مع الشأن العام، من بعد أن أصبح ولياً لأمر المسلمين، صاحب السلطة السياسية والدينية في الدولة الإسلامية.

وإذا لم يكن بالإمكان، لأسباب منهجية، أن نأتي بكل الشواهد، التي طبعت علاقته المميزة مع النص، إلا أنه لا بد من متابعة عدد منها:

→ كان أول عمل قام به عمر أنه ردّ سبايا أهل الردة إلى عشائريهم، وقال: إني كرهت أن يصير السبي سُنّة على العرب (٣).

→ قام بعزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيش في الشام، وكان عمر سيء الرأي في خالد (٤). ما قام به عمر لم يفعله النبي بعد مقتل بني جذيمة، التي فعلها خالد؛ وما لم يفعله

(١) م. ن : ص ١٠٣. - أنظر ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣م): م. س: ص ٢٧٤.

(٢) م. ن : ص ١٠٤.

(٣) يعقوبي: تاريخ يعقوبي (٢م): م. س : ص ١٣٩.

أبو بكر بعد حادثة قتل مالك بن نويرة، وزواجه من امرأة مالك. وعندما بلغ الخبر خالداً بعزله، قال: "رَجِمَ الله أبا بكر، لو كان حياً ما عزلني" ^(١).

« سنُّ عمر قيام شهر رمضان، وكتب بذلك إلى البلدان. وأمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يصليا بالناس، فقبل له في ذلك: "إن رسول الله لم يفعله، وإن أبا بكر لم يفعله"؛ قال: "إن تكن بدعة فما أحسنها من بدعة" ^(٢).

« ولعمر بن الخطاب أوليات (أي كان هو أول من سنّها) مثل: أنه أول من تسنّى بأمر المؤمنين - وأول من كتب التاريخ بالحجرة - وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد - وأول من حرّم المتعة... ^(٣).

- إشكالية تحريم المتعة: أصبح تحريم عمر للمتعة إشكالية لم تطوها القرون الطوال من عمر الإسلام، فحوّلها اختلفت شتى الروايات وشتى الفتاوى للفرق الإسلامية، وما زال الخلاف مستمراً، شأنه شأن كثير من القضايا، وهو السبب الذي دفعنا إلى التوسع في بحثها، ليس لتغليب رأي على الآخر، وإنما بقصد إعطاء نموذج واضح عن الاختلاف حول النص المقدس وعلاقته بالنصوص التي يضعها البشر.

« جاء في القرآن، من بعد أن يُعَدَّدَ المحرّمات من النساء: ﴿وأحلّ لكم ما وراء ذلك، أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة...﴾ (النساء ٤ : ٢٤).

- إختلاف أهل التأويل حول تفسيرها. وقد جاء في تفسير الطبري ما يلي:

- قال ابن عباس: إذا تزوّج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها مرة واحدة فقد وجب صداقها كله. والاستمتاع هو النكاح ما هنا إذا دخل بها.

- قال السدي: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم؛ فما تراضيتن به من بعد الفريضة فهذه المتعة، الرجل ينكح المرأة بشرط إلى أجل مسمى، ويشهد شاهدين وينكح بإذن وليّها؛ وإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه برية، وعليها أن تستيريء ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، ليس يرث واحد منهما صاحبه، وهو نكاح المتعة.

- قال الحكم: إن آية ﴿فما استمتعتم به﴾ غير منسوخة.

(٤) م . ن : ص ١٣٩.

(١) م . ن : ص ١٤٠.

(٢) م . ن : ص ١٤٠.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م . س : ص ١٦٥.

- قال علي بن أبي طالب: لولا أن عمرا نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي.
- قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل ما تأوله بتحريم الله متعة النساء على غير وجه النكاح الصحيح^(١).
- إختلاف الروايات المنقولة عن الرسول، بين قائل بالإذن فيها وبين قائل بتحريمها.
- الروايات التي تقول أن الرسول أذن بالمتعة :

→ جاء في صحيح البخاري - كتاب النكاح - نقلاً عن محمد جواد مغنية، أن رسول الله قال لأصحابه في بعض حروبه: "قد أذن لكم أن تستمتعوا، فاستمتعوا... أيما رجل وامرأة توافقا في عشرة ما بينهما ثلاث ليال، فإن أحبب أن يتزايدا، أو يتاركا تركا"^(٢).

→ جاء في صحيح مسلم: "أن النبي ﷺ، عام فتح مكة، أمر أصحابه بالتمتع من النساء. قال: فخرجت أنا وصاحب لي من بني سليم حتى وجدنا جارية من بني عامر كأنها بكرة عطاء، فخطبناها إلى نفسها، وعرضنا عليها برديننا. فجعلت تنظر فتراني أجمل من صاحبي، وترى برد صاحبي أحسن من بردي. فأمرت نفسها ساعة ثم اختارتني على صاحبي..."^(٣).

→ يقول محمد جواد مغنية أنه جاء في كتب الحديث والفقه والتفسير، للسنة والشيعة، أن المسلمين اتفقوا قولاً واحداً على أن الإسلام شرع متعة النساء، وأن النبي أمر أصحابه بها. ولكن الكلام كثر حول تفسير آية ﴿النساء: ٤ : ٢٤﴾ : هل المراد بها الزواج الدائم فقط، أو زواج المتعة فقط، أو هما معاً. وعلى فرض إرادة المتعة، فهل نُسِخت هذه الآية، ونُسِخ معها زواج المتعة ؟^(٤).

- الروايات التي تقول أن النبي حرم المتعة:

"يا أيها الناس إني قد أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة"^(٥).

"أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة، ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها"^(٦).

(١) الطبري : جامع البيان ... (ج٥) : م . س : ص ٩ - ١٠ .
 (٢) مغنية، محمد جواد : فقه الإمام جعفر الصادق (ج٥) : م . س : ص ٢٤٨ .
 (٣) صحيح مسلم (ج٤) : م . س : ص ١٢٣ .
 (٤) مغنية، محمد جواد : التفسير الكاشف (٢م) : م . س : ص ٢٩٥ .
 (٥) صحيح مسلم (ج٤) : م . س : ص ١٢٢ .

: "إن نبي الله ﷺ عام فتح مكة أمر أصحابه بالتمتع من النساء... ثم أمرنا بفراقهن" ^(١).
 : في رواية منسوبة إلى علي بن أبي طالب: "إن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم
 خيبر..." ^(٢). إن الشيعة، بدون شك، يستغربون هذه الرواية لأن لهم في المتعة رأياً آخر
 كما سوف نرى لاحقاً.

- الروايات التي تقول أن عمر بن الخطاب هو أول من حرّم المتعة:

: جاء في صحيح مسلم - باب نكاح المتعة - عن جابر بن عبد الله أنه قال: "استمتعنا
 على عهد رسول الله، وأبي بكر وعمر". وفي الصفحة ذاتها جاء حديث آخر عن جابر يقول
 فيه: "ثم نهانا عنها عمر" ^(٣).

: وجاء عند السيوطي أن عمرأ هو أول من حرّم المتعة ^(٤).

: قال علي بن أبي طالب: "لو لا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي" ^(٥).

: دخلت نخوة بنت حكيم على عمر بن الخطاب، فقالت إن ربيعة بن أمية استمتع
 بامرأة، فحملت منه. فخرج عمر بن الخطاب فرعاً، يجرّ رداءه، فقال: "هذه المتعة، ولو كنت
 تقدمت فيها لرجمت" ^(٦).

: يقول عمر بن الخطاب: "متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أنهي عنهما
 وأعاقب عليهما" ^(٧).

- الروايات التي تنفي أن زواج المتعة قد نُسخ:

: ينقل محمد جواد مغنية روايات كثيرة عن أهل بيت الرسول، ذكرها الحر العاملي في
 كتاب الوسائل، يستدلون منها على أن آية المتعة لم تُنسخ. ومن هذه الروايات ما نُقلَ عن

(٦) م . ن : ص ١٣٣.

(١) م . ن : ص ١٣٣.

(٢) م . ن : ص ١٣٤ - راجع : بن أنس ، مالك : الموطأ : م . س : ص ٤٠٧.

(٣) م . ن : ص ١٣٢.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء : م . س : ص ١٦٥.

(٥) الطبري : جامع البيان... (ج ٥) : م . س : ص ٩.

(٦) بن أنس ، مالك : الموطأ : م . س : ص ٤٠٨.

(٧) نقلاً عن محمد السماوي التيجاني : ثم اهديت : م . س : ص ١٣٥.

- راجع، أيضاً: السيد سابق: فقه السنة (٢م) : م . س : ص ٤٢.

- راجع، أيضاً: مغنية ، محمد جواد : التفسير الكاشف (٢م) : م . س : ص ٢٩٨.

الإمام الصادق، وقد سُئِلَ: "هل نسخ آية المتعة شيء؟ فأجاب: لا، لولا ما نهى عنها عمر ما زنى إلا شقي" ^(١).

- الاختلاف في الآراء الفقهية حول المتعة:

إتفق السُّنة والشيعة على أن الإسلام شرَّع المتعة، واختلفوا حول صحة نسخها وتحريمها بعد الجواز والتحليل:

قالت السُّنة : حُرِّمَتْ بعد أن كانت حلالاً. وقالت الشيعة: كانت حلالاً ولا تزال إلى آخر يوم...

- فحول الروايات التي استند إليها السُّنة، في تحريم زواج المتعة، قال ابن رشد أنها متناقضة ومضطربة: "في بعض الروايات أن النبي ﷺ حرَّم المتعة يوم خيبر، وفي بعضها يوم الفتح، وفي بعضها يوم غزوة تبوك، وفي بعضها في حجة الوداع، وفي بعضها في حجة القضاء، وفي بعضها في عام أوطاس، وهو اسم مكان في الحجاز..." ^(٢).

وجاء في بعض مقالات السُّنة - السيد سابق -: "يُسمَّى الزواج المؤقت، والزواج المنقطع، وهو أن يعقد الرجل على المرأة يوماً أو اسبوعاً أو شهراً... ويُسمَّى بالمتعة، كأن لرجل ينتفع ويتبَّع بالزواج ويتمتع إلى الأجل الذي وقَّته وهو زواج متفق على تحريمه بين أئمة المذاهب" ^(٣). لكن السيد سابق - على الرغم من قوله: أنه زواج متفق على تحريمه بين أئمة المذاهب، يعود ليُقرَّ بأن الإجماع غير وارد، لأن بعض الشيعة خارجين عن هذا الإجماع" ^(٤).

وفي تعريض للسيد سابق بهذا الزواج، وعن مدى الأضرار الناجمة عنه يقول أن من أسباب تحريمه أنه: "يُقصد به قضاء الشهوة، ولا يُقصد به التنازل، ولا المحافظة على الأولاد، وهي المقاصد الأصلية للزواج، فهو يشبه الزنا من حيث قصد الاستمتاع دون غيره... ثم هو يضر بالمرأة، إذ تصبح كالسلعة التي تنتقل من يد إلى يد، كما يضر بالأولاد؛ حيث لا يجدون البيت الذي يستقرون فيه..." ^(٥).

(١) مغنية، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق (ج ٥): م. م. ص: ٢٤٨.

(٢) ابن رشد: البداية (ج ٢): نقلاً عن محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف (٢م): م. م. ص: ٢٩٧.

(٣) السيد سابق: فقه السُّنة (٢م): م. م. ص: ٤١ - ٤٢.

(٤) م. م. ن: ص ٤٣.

(٥) م. م. ن: ص ٤٨.

عندما تتناقض فرقتان، تدينان بدين واحد، حول نص مقلّس: إحداهما تقول بتحليله، والأخرى تقول بتحريمه. فهل تؤخذ المسألة بمثل تلك البساطة؟ وهل يمكن للنص المقدس أن يضيع في مثل تلك المتاهات؟ فأين هي قدسيته، إذا؟
إذا حالف الصواب فقهاء الشيعة، فأى حساب يترتب على فقهاء السنة من جرّاء قوهم بتحريم ما حلّ النص؟

وإذا حالف الصواب فقهاء السنة، فما هو جزاء فقهاء الشيعة؟
هل يكون الفريقان مأجوران، لأنهما اجتهدا: المصيب منهما له أجران، و المخطيء له أجر واحد؟

وهل ينال من يقلّد فقهاء أحد الفريقين: أجراً واحداً لمن قلّد المخطيء، وأجرين إثنين لمن قلّد المصيب؟

وهل يكون حساب الأفرقاء - كما جاء في فتوى سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٠ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٨٦ - ١٨١٨ م) - أنه من أطاع العلماء والأمرأ في تحريم ما أحلّ الله، أو تحليل ما حرّمه الله فقد اتّخذهم أرباباً من دون الله". والمقصود هنا - كما يقول سليمان - الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى، فهو مشرك...^(١).

وقال الشافعي: "أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد"^(٢).

هل يمكننا أن نحاسب فقهاء السنة والشيعة على قاعدة ما قاله سليمان بن عبد الوهاب، أو على قاعدة ما قاله الشافعي؟ إذا كان ذلك كذلك فلا بد أن يكون أحد الطرفين مشركاً، إذا...
لسنا بصدد البحث عن الفرقة الناجية من خلال هذه المسألة، لأنه - حسب النص - لا بد أن تكون هناك واحدة منهما أو كلاهما على خطأ. أو يكون الشافعي أو بن عبد الوهاب مخطئين؛ فاحتمالات التفسير والتأويل كثيرة وواسعة وقلما توافقت فرقتان على تأويل أو تفسير واحد.

أمانحن، فكيف نقرأ هذه المشكلة/الإشكالية؟

(١) بن عبد الوهاب، سليمان: تفسير العزيز الحميد: م. س: ص ٥٤٣.

(٢) م. ن: ص ٥٤٤.

كان المسلمون، الذين يشاركون في الغزوات والسرايا، يضطرون لترك زوجاتهم، ويتحملون عبء الانقطاع عن ممارسة الجنس لأشهر طويلة، السبب الذي قد كان يجنح بهم إلى ممارسة الزنى. ألم يكن الرسول يصطحب معه إحدى زوجاته إذا أراد سفراً؟ عن عائشة، قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه" ^(١).

لم تكن ممارسة الجنس مسألة صعبة المنال أمام المسلمين الغازين؛ لأن المشركين، بنسائهم وأطفالهم وأموالهم، يصبحون غنائم حرب للمسلمين؛ وإنه إذا غنم المسلم امرأة مشركة تحق له ملكيتها ^(٢) بكاملها، فيبقى نكاحه إياها مسألة ثانوية، لذا أحل الإسلام الاستمتاع بها بشروط.

لذا - خوفاً من أن يرتكب المسلم الزنى مع أية امرأة - أجاز الإسلام له أن ينكحها على شرط أن يؤتيها أجرها فريضة. ولم تحدد النصوص شروطاً غير هذه، مثل أن تقضي المرأة المتمتع بها عدتها قبل الزواج أو بعده. ومتبع النص القرآني والروايات سيرى ذلك بوضوح.

عاجلت الشريعة الإسلامية هذا الموقف التفصيلي في حياة المسلم، وإنه لم يكن يخفى عليها آثاره الاجتماعية المكروهة على بناء الأسرة المسلمة. وأجازت الشريعة هذه المسألة بنص قرآني وبإذن نبوي؛ أما الفقهاء المسلمون، فيما بعد، فقد كبلهم النص وافترقوا حول طريقة تطبيقه؛ وهكذا أصبح لكل فريق منهم نصه مُسبِغاً عليه صفة القداسة.

فسواء نُسِيخت هذه الآية أم لم تُنسخ، بحديث للرسول أو بأمر من عمر بن الخطاب، فإنما المشكلة/ الإشكالية تكمن وراء تكييل الفقهاء لأنفسهم، وتكييل المسلمين معهم بقدسية النص، الذي كان يُنسخ في مرحلة أو أخرى، غير آبهين بما يُنبئ عليه الطبع الإنساني من جهة، وواقع تطور بنية المجتمعات البشرية على مختلف الصعد الاجتماعية والنفسية والثقافية من جهة أخرى. إن معاشة الواقع الإنساني، في مكانه وزمانه وخصوصيته، قد يفرز ما ليس بحسبان أحد؛ فلماذا - والحال على هذا المنوال - يتفوق الفقهاء، ويسورون من حول أنفسهم ومن حول عباد الله بما يضيفونه من قدسية على مسائل قد لا يعرفون وجه الحكمة منها؛ وهذا ما يعبر عنه محمد جواد مغنية حول زواج المتعة - وهو يعتقد أنه لم يُنسخ - قائلاً: "إنها أحكام تعبدية لا نعرف وجه الحكمة منها، وكل ما نعرفه أن لها أشباهاً ونظائر في الشرائع..." ^(٣).

(١) ابن هشام: مختصر السيرة النبوية: م. س: ص ١٨٨.

(٢) مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف (٢م): م. س: ص ٢٩٣.

(٣) م. ن: ص ٢٩٣.

فلو وضعنا تحريم عمر بن الخطاب للمتعة - والأرجح أنه هو الذي أول من حرّمها - على مشرحة المحاكمة حول التزامه بالنص أو بافتراقه عنه، لكان مُداناً؛ ويستدعي الأمر أن يُطبّق عليه حدٌ مخالف للنص، أي أنه حرّم ما أحله الشرع. أما لو أخذنا تطور الواقع المعاش، كقاعدة للمحاسبة، لكان أمره بتحريم المتعة نتيجة موضوعية تصب في مصلحة بناء الأسرة المسلمة.

هل نظل ندور في حلقات التنظير الفقهي حول كل ما ليس له علاقة بالواقع المعاش، في الوقت الذي تلور فيه سُنّة التطور وتتحرك إلى الأمام؟ إن التطور يجري، فلا يرى الفقيه نفسه إلا وقد فاتته القطار، فيفرض الواقع عليه إلغاء ما كان من الواجب إلغاؤه بالإجتihad. ويأتي ما يسند قولنا هو ما جاء عند محمد جواد مغنية، في معرض تفسيره للآية ٢٥ من سورة النساء، والتي يدور مضمونها حول مسألة الإماء وأحكامهن إذ يقول: "إن الحديث عن الإماء وأحكامهن أصبح بلا جدوى بعد إلغاء الرق" (١). إلا أن الرق لم يلغ الفقه الإسلامي - تعبدًا بحرفية النص أو تفسيره بشكل جامد - وإنما تطور الظروف العالمية هو الذي فرض إلغاء استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وقد جاء التأكيد على ذلك في المعاهدات الدولية الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة.

وهكذا تبقى دوائر المناظرات الفقهية، حول موضوع نسخ زواج المتعة أو عدم نسخه، تدور وتندور منذ مئات السنين، في الوقت الذي يجد فيه المتذهبون، من السُنّة والشيعية، حلولاً ذاتية لمشاكلهم الجنسية في كل يوم وكل ظرف وكل مكان، بعيداً عن كل تلك المناظرات، وقد يكون بعيداً عن كل الأصول الدينية. ويحصل هذا في ظل المعاهدات الدولية التي تهتم بحقوق الإنسان ومن ضمنها حقوق المرأة. وهكذا تسقط بيزنطية في كل يوم، أما الجسد البيزنطي فمستمر من دون انقطاع .

- الثاني: التوسع في الفتوحات، والثروة في الثروة:

إذا لم يكن من مهمة هذا البحث أن يلقي الأضواء على إيجابيات التاريخ الإسلامي، وهذا له مبرراته المنهجية، إلا أنه لابد من التذكير أن عهد خلافة عمر بن الخطاب كان العصر الذهبي للفتوحات الإسلامية، وهي قد وصلت إلى بلاد فارس شرقاً، وبعض دول المغرب غرباً.

كان من تأثير هذه الفتوحات أنها فتحت، أيضاً، أبواب الثروة الاقتصادية الهائلة أمام العرب المسلمين. لكن ضخامة تلك الثروة قوبلت بغياب أي أسس للتنمية الاقتصادية، التي تسمح باستثمارها بشكل إنتاجي سليم، وإنما الاستهلاك كان الشكل السائد والوحيد.

(١) م . ن : ص ٣٠٠.

بالإضافة إلى ذلك، فقد وضعت الفتوحات عمر بن الخطاب أمام مستجدات ومعضلات حضارة جديدة على مختلف المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وهذه لم تكن موجودة قبل مرحلة التوسع. فوجد عمر بن الخطاب، في جدتها، ما يستدعي منه المبادرة إلى إصدار تشريعات جديدة تراعي تلك الظروف، لاسيما وأن الإسلام قد وجد نفسه محاطاً بتلك المعضلات، وكان مطلوباً منه الإجابة عليها.

إن التشريعات، التي أتى بها عمر بن الخطاب، بدت لكثير من الفرق الإسلامية وكأنها مخالفة للنص. وقد يكون في ذلك كثير من الصحة. إنما نحن نرى، بخلاف ما يرى المؤيدون لعمر والمعارضون له على حد سواء، إن مقياس محاسبته ليس بمقدار قربه أو بعده عن النص، وإنما هو مدى مقاربتة علاج تلك المشاكل أو عجزه عن ذلك، بما يتناسب مع المبادئ الأخلاقية، ومقاييس العدالة الاجتماعية والسياسية، التي أكد النص عليها.

وأما على مستوى الجزاءات الاقتصادية التي ضمنتها الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، فنرى من المفيد أن نقوم بتعداد بعضها بإيجاز يفيد في إلقاء ضوء كاشف على مدى أهميتها لبحثنا :

- بعد أن عزل عمر بن الخطاب خالداً من قيادة جيش المسلمين، في أثناء وجوده في الشام، قال خالد لمن حوله: "إن أمير المؤمنين استعملني على الشام، فلما استقر الأمر، وأصبحت الحال حنطة وعسلا عزلني وولى غيره."

كان ما قاله خالد بن الوليد يدل على كبر حجم الثروة التي أمتها الفتوحات للمسلمين العرب، في أوائل مراحل الاستيلاء على المناطق المحاذية للجزيرة العربية. لكن هذه الثروة سوف تزداد كبراً كلما تم افتتاح المزيد من البلدان، وهذا سوف يتضح لنا فيما يلي، نقلاً عن تاريخ يعقوبي.

- كان المسلمون يدركون أن فتح البلدان عنوة يُدرُّ عليهم أرباحاً أكثر مما لو عُقدت المصالحات بين المسلمين وبين أقوام البلدان المفتوحة. ولنا على ذلك مثال: لما أمر عمر بن الخطاب أبو عبيدة بن الجراح قيادة الجيش بدلاً من خالد، كان المسلمون يحاصرون دمشق؛ قام أبو عبيدة بتكليف خالد "بباب الشرقي" للمدينة. ولما عرف خالد أن أبا عبيدة عقد مصالحة مع صاحب دمشق، ولكي لا يخسر الغنائم، ألحَّ على (باب الشرقي) حتى فتحه عنوة، وقال لأبي عبيدة: إسرهم فإني دخلتها عنوة. فقال أبو عبيدة: لا، لقد أمتهم.

- لما هُزم الروم، طلبوا الصلح على أن يؤثروا الجزية.

- صالح أهالي حمص على أن يدفعوا للمسلمين خراجاً مقداره مائة وسبعون ألف دينار.

- عقد صلحاً مع أهل حلب و قنسرين ومنبج، ووضع عليهم خراجاً، كما كان الحال مع حمص.

- إستولى سعد بن أبي وقاص على أموال بنت أزدمرد - كسرى فارس - و فرقتها على المسلمين فطابت أنفسهم ، وحسنت قوتهم.

- بعد أن انتصر المسلمون على الفرس في القادسية، بعد فتح دمشق بشهر واحد - أي في السنة ١٦ هـ - بلغ سهم كل فارس أربعة عشر ألفاً، والراجل سبعة آلاف ومائة.

- حسن عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب أهمية احتلال مصر؛ فهي أكثر الأرض أموالاً. وافق عمر على ذلك قائلاً: سيأتيك كتابي سريعاً، فإن لحقت كتابي أمرت فيه الانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، فانصرف؛ ولكن إن دخلتها ثم جاءك كتابي فامض، واستعن بالله. وقبل أن يصل عمرو بن العاص إلى مصر، أتاه كتاب عمر؛ لكنه لم يفض الكتاب حتى نفد إلى أول قرية من مصر ففضه. وبهذا يكون عمرو بن العاص قد نفذ رغبته دون أن يخالف أوامر عمر. ولما دخل مصر، صالح المقوقس على أن يدفع له خراجاً قيمته ديناران عن كل رجل^(١).

- جُمِعَت غنائم اليرموك في الجابية، وكتبوا إلى عمر. فأمرهم أن لا يوزعوها حتى فتح بيت المقدس^(٢). وفي العام ١٦ هـ، وبعد أن صالح عمر أهلها، أمر أن تقسم الغنائم بين الناس بالسوية خلا للحم وجذام، وقال: "لا أجعل من خرج من الشقة إلى علوه، كمن خرج من بيته"^(٣).

- وفي العام ١٨ هـ، بعد أن افتتحت الرقة وسروج ونصيبين وسائر مدن الجزيرة، وكانت كلها صلحاً؛ وُضِعَ الخراج على الأرض وعلى رقاب الرجال: على كل إنسان أربعة وخمسة وستة دنانير^(٤).

- وفي العام ١٨ هـ، وهو عام الرمادة، حصل جذب وقحط ومجاعة شديدة. أجرى عمر الأقوات على عيالات قوم من المسلمين، وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال^(٥).

- لما قُتِحَ سواد الكوفة، بلغ خراجها ثمانين ألف درهم^(٦).

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : م . س : ص ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) م . ن : ص ١٤٢.

(٣) م . ن : ص ١٤٧.

(٤) م . ن : ص ١٥٠.

(٥) م . ن : ص ١٥٠.

(٦) م . ن : ص ص ١٥١ - ١٥٢.

- كان يأتي لصالح أهل المدينة من خراج البصرة والكوفة، ما بين العشرين ألف ألف والثلاثين ألف ألف^(١).

- فرض عمر العطاء في العام ٢٠ هـ، وقال: كثرت الأموال. فأشير عليه أن يجعل ديواناً. ووزع الأعطيات: آل الرسول - كل من شهد بدرًا - أهل مكة من كبار قريش - أمهات المؤمنين - أهل مكة الذين لم يهاجروا - أهل اليمن - مضر - ربيعة. وأعطى لكل فئة عطية تختلف عن الأخرى. وفرض لأشراف الأعاجم عطية، وقال: "قوم أشراف، أحببت أن أتألف بهم غيرهم"^(٢).

- بلغ خراج الإسكندرية أربعة عشر ألف دينار. وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يحمل طعاماً في البحر إلى المدينة يكفي عامة المسلمين؛ ففعل^(٣).

- بلغ خراج برقة ثلاثة عشر ألف دينار، وأن يبيعوا من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم في السنة الأولى للفتح^(٤).

- وفي العام ٢٣ هـ، فُتِحَت الأهواز، ووضِعَ عليها الخراج بالمثل الذي وُضِعَ على سائر العراق^(٥).

- الثالث: إشكالية اغتيال عمر بن الخطاب:

→ يروي ابن عبد ربه: إن من قتل عمر بن الخطاب هو غلام نصراني يدعى أبو لؤلؤة، بسبب ثقل الخراج المفروض عليه^(٦).

→ يروي اليعقوبي أنه بعد قتل عمر: "وثب ابنه عبيد الله، فقتل أبا لؤلؤة [وفي رواية أخرى أن أبا لؤلؤة قتل نفسه]، وابنته وامراته. وقتل الهرمزان أيضاً. وكان عبيد الله يحدث أنه تبعه، فلما أحس الهرمزان بالسيف، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

→ ويروي بعضهم أن عمراً أوصى أن يُقاد عبيد الله بالهرمزان. وإن عثمان أراد ذلك؛ وقد كان قبل أن يلي الأمر أشد من خلق الله على عبيد الله، حتى جرَّه بشعره، وقال: يا عدو

(١) م . ن : ص ١٥٢.

(٢) م . ن : ص ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٣) م . ن : ص ١٥٤.

(٤) م . ن : ص ١٥٦.

(٥) م . ن : ص ١٥٧.

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج ٤) : م . س : ص ٩٦.

الله قتل رجلاً مسلماً، وصية طفلة، وامرأة لا ذنب لها قتلني الله إن لم أقتلك. فلما وُلِّيَ رُدَّه إلى عمرو بن العاص^(١).

→ يروي المسعودي أن أبا لؤلؤة كان في أرض العجم غلاماً للهرمزان. فلما قُتِلَ عمر، شدَّ عبيد الله بن عمر على الهرمزان فقتله. وقال: لا أترك في المدينة فارسياً ولا في غيرها إلا قتلته بأبي. وكان الهرمزان عليلاً لما قُتِلَ عمر^(٢).

لقد تباينت آراء المسلمين حول هذه القضية :

- قال علي بن أبي طالب بقتل عبيد الله.

- وقال بعض المهاجرين: قُتِلَ عمر أمس، ويُقتلُ ابنه اليوم؟ فقال عثمان: أنا وليُّه وقد جعلتها ديةً وأحتملها في مالي. ولما وُلِّيَ علي الخلافة أراد قتله فهرب منه إلى معاوية بالشام^(٣).

- أكثر الناس في دم عمر، وأمسك عثمان عبيد الله بن عمر، فصعد عثمان المنبر، فخطب في الناس، ثم قال: ألا إني ولي دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته بدم عمر. فقال المقداد بن عمرو: إن الهرمزان مولى الله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله. قال: فتنظر وتنظرون. ثم أخرجهم عثمان من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً^(٤).

وهنا، أيضاً، خلاف آخر في تطبيق الحدود، وهو خلاف ليس عادياً، لأن الفرق بعيد بين الحكم بدفع الدية، وبين الحكم بالقتل على القاتل. وهل ألا يكون إثنان من كبار الصحابة، وخليفتان من خلفاء المسلمين، مستندين في حكمهما إلى النص؟ وهل يمكن القول أنه لو كان النص مُلزماً لكان من الواجب على ولي أمر المسلمين أن يطبقه؟ لكنه لم يفعل، وفي المقابل لم يلجأ كبار الصحابة إلى اتهام عثمان بالارتداد عن تطبيق النص، ولم يرغموه على ذلك. أو ليس في مثل هذه المسألة ما يدعو الفقهاء إلى التخفيف من تشددهم في ما يفتون ؟

(١) يعقوبي : تاريخ يعقوبي (٢م) : ٢٠٠ م : ص ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) المسعودي: مروج الذهب (١م): دار الكتاب اللبناني: بيروت: ١٩٨٢: ط١: ص ٦٦٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٢م) : ٢٠٠ م : ص ص ٤٦٧ - ٤٦٨.

(٤) يعقوبي : تاريخ يعقوبي (٢م) : ٢٠٠ م : ص ص ١٦٣ - ١٦٤.

٣ - خلافة عثمان بن عفان (٣ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٧ م)

(الشورى ونخبة النخبة)

أ - صفاته : سُمِّيَ بذي النورين لأنه تزوج ابنتي الرسول : رُقَيَّة، وبعد وفاتها تزوج أختها أم كلثوم^(١).

- عن علي قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعثمان : "لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة"^(٢).

ب - خلافته : قيل لعمر بن الخطاب وهو على فراش الموت: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، قال: ما أرى أحد أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر، الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ؛ فسمى الستة وهم: عبد الرحمن بن عوف - الزبير - علي - سعد بن أبي وقاص - طلحة - عثمان. وقال: يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الإمرة سعداً، فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمُر^(٣). وقد انتهت الخلافة إلى عثمان بعد المشاورات التي قام بها ابن عوف بين الستة الذين نصَّ عليهم عمر.

ج - الإشكاليات والتأسيس لنشأة المعارضة المسلحة في وجه السلطة: بدأت الفتن تظهر في أخريات أيام عمر. وبموته ضُعِفَ التوجيه والرقابة، فظهرت الآثام وانتشرت الشرور بين بعض الناس؛ وأخذ عثمان "يعمل أشياء لم يعملها سابقوه؛ أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء، ورآها عثمان صواباً أو ضرورة، وكانت هذه الأعمال هي الشرارة التي انطلقت منها الفتنة العارمة"^(٤).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م . س : ص ١٧٨.

(٢) م . ن : ص ١٨٤.

(٣) م . ن : ص ١٦٤.

(٤) شلي، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي (م ١) : م . س : ص ٦٢٣.

وُلِّيَ عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة، عمل ست سنين لم ينقم الناس عليه شيئاً. وإنه أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ فإن عمراً كان شديداً عليهم. فلما وُلِّيَهم عثمان لأن لهم ووصلهم، ثم تواتى في أمرهم، واستعمل أقباءه وأهل بيته في الست الأواخر. فكتب لمروان بخمس أفريقيا [وقيل بخمس مصر]. وأعطى أقباءه وأهل بيته المال؛ وتأول، في ذلك، الصلة التي أمر بها الله، وقال: إن أبا بكر وعمر تركا ذلك ما هو لهما، وإنني أخذته وقسمته في أقربائي. فأنكر الناس عليه ذلك^(١).

وكدليل من دلائل الغنى الذي أصابه المسلمون، يروي السيوطي أن عبدالرحمن بن عوف - أحد العشرة السابقين الأولين - تصدَّق مرة بأربعين ألفاً، وبقافلة من الشام كما هي^(٢). حصلت الثورة على عثمان، ومن أسبابها:

- كره ولايته نفر من أصحاب الرسول، لأنه قَرُبَ إليه قومه، هو كان يحبهم. فوُلِّيَ الناس اثنتي عشرة سنة، وكان كثيراً ما يُوَلِّيَ بني أمية ممن لم يكن له من رسول الله صحبة^(٣).
- أما قومه فقد ظلموا الناس فلم يعزلهم. كان يجيء من أمرائه ما يكره أصحاب محمد ﷺ. فكان يُستَعْتَب فيهم فلا يعزلهم^(٤).

- أساء إلى عبد الله بن مسعود وأبي ذكر وعمار بن ياسر^(٥).

لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا، قالوا لعبد الرحمن بن عوف (أحد الستة الذين اختارهم عمر): هذا عملك واختيارك لأمة محمد؟ قال: لم أظن هذا به. ودخل على عثمان وقال: إني إنما قدّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما. فقال عثمان: كان عمر يقطع قرابته في الله، وأنا أصل قرابتي في الله. فقال عبد الرحمن: لله عليّ أن لا أكلمك أبداً. فمات عبد الرحمن وهو لا يكلم عثمان^(٦).

كان عدد من الصحابة يتدخل لدى عثمان لكي يغير الأعمال التي سببت النقمة عليه؛ مثل ما فعل علي بن أبي طالب، وعمر بن العاص؛ فطُلبَ منه مرة التوبة عن أخطائه فأعلن قائلاً: "أنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلت، وأتوب إليه..."^(٧).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ١٨٨.

(٢) م. ن: ص ١٨٧.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ١٠٥.

(٤) م. ن: ص ١٠٦.

(٥) م. ن: ص ١٠٨. - راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ٤٩٤.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ١١٨.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٥٧١.

- راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ٤٩٥.

أما المسألة، التي عجلت بالثورة عليه، فكانت أنه لما قام ابن أبي سراح - عامنه على مصر - بظلم الناس، إلى الدرجة التي قام فيها بقتل رجل من مصر كان مبعوثاً إليه من قبل عثمان ذاته. فتحت إلحاح وضغط الصحابة، رضي عثمان أن يعزل ابن أبي سراح، ويولي مكانه محمد بن أبي بكر. وفي أثناء رحلة محمد إلى مصر، لكي يتسلم ولايتها، إذ هم بغلام أسود على بعير، كان يبدو عليه الارتباك. وبعد ضغط عليه اعترف أنه يحمل رسالة إلى عامل مصر. أخذ محمد بن أبي بكر الرسالة، فكان مضمونها ما يلي: إذا جاءك محمد وفلان وفلان، فاحتل لقتلهم، وابطل كتابهم، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي^(١). وبعد أن رجع الوفد إلى المدينة، سئل عثمان عن كتابه إلى ابن أبي سراح، فأنكر. فقالوا له: قد أحلّ الله دمك، وحصلوه في الدار^(٢). وكانت المدة التي حُوصِرَ فيها عثمان بداره تسعاً وأربعين يوماً، وقيل أكثر من ذلك^(٣).

طلب المعارضون منه أن يخلع نفسه لأنه ضعيف، فقال: "لا أنزع ما ألبسني الله، ولكن أتوب وأرجع"^(٤). وعندما حاصر الناس عثمان في داره، قال لهم: "بِمَ تستحقون قتلي وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، أو قتل نفس لغير نفس؟ [أو من قتل نفساً بغير حق]^(٥). والله ما فعلت ذلك في جاهلية وإسلام"^(٦). فقالوا: إنه في كتاب الله: "مثل من سعى في الأرض فساداً، ومن قاتل على البغي، وعلى منع الحق والمكابرة عليه، وأنت إنما تمسكت بالإمارة علينا، وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية، فلو نزعناها انصرفوا"^(٧).

واستمر الحصار، واستمر إصرار عثمان على موقفه بالامتناع عن خلع نفسه من الخلافة. فتسلل إليه محمد بن أبي بكر من مكان خلفي، لأن الباب الرئيس كان محروساً من أبناء علي، وقتله^(٨). ويقال أن طلحة بن عبد الله أعانه على ذلك. وكانت عائشة تحرّضه كثيراً^(٩).

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ١٠٨.

- راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ٤٩٤.

(٢) م. ن: ص ١١٠.

(٣) المسعودي: مروج الذهب (١م): م. س: ص ٦٣٥.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٥٧٢.

- راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ٤٩٦ وما بعدها.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣م): م. س: ص ٦٢.

(٦) المسعودي: مروج الذهب (١م): م. س: ص ٦٣٤.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٥٧٢.

(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ١٠٨.

ويقال أن محمد بن أبي بكر قال: "والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبني [يا محمد، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك] خرجت" ^(١).

ماذا قيل في قتل عثمان ؟

→ لم يقم عثمان بأعماله "ارتجالاً واستهانة، وإنما قام بها عن فلسفة وفكر واجتهاد هداية إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به. وهذا لا يلحق به ذنباً إن رأى بعض الناس أن طبيعة ما قام به عثمان مما يستدعي الذنوب" ^(٢).

→ ولما نفى عثمان أن يكون هو الذي كتب الكتاب إلى عامله في مصر، يقول ابن حزم: "فقد يُنفذ مثلها سرّاً ولا يعلمها أحد إلا بعد ظهورها" ^(٣). يتابع ابن حزم: "وحتى لو أن كل ما أنكر على عثمان يصح، ما حلّ بذلك قتله بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام، لأنهم إنما أنكروا عليه استيثاراً بشيء يسير من فضلات الأموال لم يحب لأحد بعينه فمنعها. وتولية أقاربه، فلما شكروا إليه عزلهم وأقام الحد على من استحقه. وإنه صرّف الحكم بن أبي العاص إلى المدينة [وهو عم عثمان، كان رسول الله قد طرده من المدينة، فنزل الطائف]، ونفى رسول الله ﷺ لحكم لم يكن حذاً واجباً... مؤبداً... وإنه ضرب عماراً خمسة أسواط، ونفى أبا ذر إلى الربرة، وهذا كله لا يبيح دمه" ^(٤).

من قتل عثمان بن عفان، إذا ؟

→ سأل رجل من بني ليث سعد بن أبي وقاص: من قتل عثمان؟ قال: قتله سيف سلّته عائشة، وشحذه طلحة، وسمّهُ علي. قلت: فما حال الزبير؟ قال: أشار بيده وصمت بلسانه" ^(٥).

→ سئل سعيد بن المسيّب: لِمَ خذل أصحاب محمد ﷺ عثمان بن عفان؟ فقال: قُتِلَ عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً، ومن خذله كان معلوّراً ^(٦).

(٩) م . ن : ص ١٠٦.

(١) المسعودي : مروج الذهب (١م) : م . س : ص ٦٣٥.

- راجع ، أيضا : العقد الفريد (ج٤) : م . س : ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) شلي ، أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي (١م) : م . س : ص ٦٢٣.

(٣) ابن حزم : الفصل في الملل... (ج٤) : م . س : ص ٢٢٤.

(٤) م . ن : ص ٢٢٤.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج٤) : م . س : ص ١١١.

(٦) م . ن : ص ١٠٥.

﴿ خرجت عائشة باكية، بعد أن قُتل عثمان، وهي تقول: قُتل عثمان مظلوماً. فقال لها عمار: أنت بالأمس تحرضين عليه، واليوم تبكين عليه! ^(١)﴾.

﴿ وعن محمد بن الحنفية - وهو مع علي في وقعة الجمل - إذ سمع علي صوتاً، فقال: ما هذا؟ قالوا: عائشة تلعن قتل عثمان. فقال علي: لعن الله قتل عثمان في السهل والجبل والبحر والبر ^(٢)﴾.

﴿ دخل المغيرة بن شعبة على عائشة، فقالت: يا أبا عبد الله لو رأيتني يوم الجمل قد أنفَذت النصل هودجي، حتى وصل بعضها إلى جلدي، فقال المغيرة لها: وددت والله لو أن بعضها قتلك. قالت: يرحمك الله، ولم تقول هذا؟ قال: لعلها تكون كفارة في سعيك على عثمان ^(٣)﴾.

﴿ روى اليعقوبي أنه لما انتهى أمر أصحاب الجمل، أصيب معاوية بالقلق، وأرسل في طلب ابن العاص، ليشاورة في الأمر. ولما تردد عمرو لأنه ليس - في ظنه - هناك أي سبب يدفعهم لقتال علي، أجابه معاوية: "نلزمه دم عثمان". فرد عليه عمرو: "واسؤتاه! إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت. قال: ولم يحك؟ قال: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام... وأما أنا فزكته عياناً، وهربت إلى فلسطين" ^(٤)﴾.

﴿ قال حسان بن ثابت لعلي: إنك تقول: ما قتلت عثمان، ولكن خذلته، ولم آمر به، ولكن لم أنه عنه. فالخاذل شريك والساكت شريك القاتل ^(٥). لكن علياً تبرأ من دم عثمان قائلاً: "والله لئن لم يدخل الجنة إلا من قتل عثمان، لا دخلتها أبداً. ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبداً" ^(٦)﴾.

ولنا كلمة أخرى ...

تدخل بعض صحابة الرسول أكثر من مرة لحسم الخلاف بين عثمان والمعارضة، لكنهم لم ينجحوا في إقناع عثمان على التراجع عن أخطائه؛ إن تعنيفهم له - كما تجمع الروايات

(١) م . ن : ص ١٠٨.

(٢) م . ن : ص ١١٧.

(٣) م . ن : ص ١١١.

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : م . س : ص ١٨٦.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج ٤) : م . س : ص ١١١.

(٦) م . ن : ص ١١٥.

- يعني أنهم كانوا يُخطئونه. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلوا، آخذين موقف الحياد، إلى أن دخل محمد بن أبي بكر على رأس مجموعة من المعارضة، ونُفذ فيه حكم القتل. إن النص القرآني واضح وجلي: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (الحجرات ٤٩ : ٩). فلو كانت المعارضة، التي حاصرت عثمان لأربعين يوماً، هي التي تبغي، لكان على المسلمين - جميعاً - أن يقفوا ضدها، وأن يقاتلوا إلى جانب عثمان. لكنهم لم يفعلوا، سواء منهم الذين حملوا قميصه، أو الذين حُمّلوا وزر قتله باتهامهم تارة بالتحريض وتارة أخرى بالسكوت.

أما حول تحميل المسؤولية للذين حملوا قميصه، فقد قال محمد بن سَلَمَة لعثمان، بعد أن اشتدت المعارضة ضده:

"الله الله يا عثمان في نفسك، إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك، وأنت ترى خذلان أصحابك لك، لا بد هم يُقوون عدوك عليك" (١).

أما لو كان عثمان هو الباغي، وهذا الأرجح، إستناداً إلى أنه لم يجد من الصحابة أحداً من كان يُقره على أعماله - ومنهم عائشة، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب - فقد عَنَّفَه الجميع، ودعوه إلى تصحيح أخطائه والتراجع عنها؛ بينما كان من الواجب عليهم - تطبيقاً للنص القرآني - أن يقفوا إلى جانب المعارضة للضغط عليه وإلزامه بأن يفيء إلى أمر الله، وإجباره على نزع نفسه من الخلافة، أو أن يتزعرها منه. لكن مواقفهم، بدلاً من ذلك، انقسمت بين حامل لقميصه، وبين من يسعى للتبرؤ من دمه.

(١) الطبري: تاريخ الطبري (٢م) : ٢٠٠ : ص ٤٩٦.

٤ - خلافة علي بن أبي طالب (٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م)

(بيعة الهروب من الفتنة إلى الفتن)

- أ - صفاته : بعض ما قيل في صفات علي بن أبي طالب :
- : هو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.
- : قال أحمد بن حنبل: ما ورد لأحد عن أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي.
- : عن النبي ﷺ أنه قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.
- : وقال الرسول ﷺ: أنت أخي في الدنيا وفي الآخرة.
- : وأيضاً: من آذى علياً فقد آذاني^(١).
- : "قُسِّمَتِ الحكمة عشرة أجزاء، فأُعطيَ علي تسعة أجزاء، والناس جزءاً واحداً"^(٢).
- : وقيل: "العلم ستة أسداس، لعلي من ذلك خمسة أسداس وللناس سلس، ولقد شَارَكْنَا في السلس حتى هو أعلم منا به"^(٣).
- : قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: "فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلُّوا: كتاب الله وأهل بيته"^(٤).
- : قال جبريل لعلي بن أبي طالب: "إني أحبك، وإن لك عندي مدحة أزفها إليك يا أمير المؤمنين: لواء الحمد بيدك يوم القيامة، تُزَفُّ أنت وشيعتك إلى الجنان (قد أفلح من تولاك) و(خسر من عاداك)"^(٥).

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء : م . س : ص ص ١٩٨ - ٢٠٦.

(٢) الحكيمي، محمد رضا: سلوئي قبل أن تفقدوني (ج ١): مؤسسة الأعلمي: بيروت: ١٩٨٥: ط ٧: ص ٥٢.

(٣) م . ن : ص ٥٤.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج ٣) : م . س : ص ٢٣٨.

(٥) الحكيمي ، محمد رضا : سلوئي قبل أن تفقدوني (ج ١) : م . س : ص ٤٨.

ب - مبايعته: بعد أن قُتِلَ عثمان، عدل الناس إلى علي فبايعوه قبل أن يُدفنَ عثمان، وقيل بعد دفنه. وقد امتنع علي من إيجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر قولهم له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب^(١).

→ بايعه طلحة و الزبير والمهاجرون والأنصار. وكان أول من بايعه وصَفَّقَ على يده طلحة بن عبيد الله. وقام الأشر، فقال: أبايعك يا أمير المؤمنين، على أن عليُّ بيعة أهل الكوفة. ثم قام طلحة و الزبير فقالا: نبايعك يا أمير المؤمنين على أن علينا بيعة للمهاجرين...^(٢).

→ يروي ابن كثير أنه لما بايعه طلحة و الزبير، سألاه أن يؤمِّرهما على البصرة والكوفة، فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنس بكما^(٣).

→ ويروي السيوطي: بايع جميع من كان موجوداً في المدينة، إلا طلحة والزبير بايعا كارهين غير طائعين. ثم خرجا إلى مكة وعائشة فيها^(٤).

→ كان الزبير من أصحاب رسول الله، وشهد معه معظم غزواته، وقال فيه الرسول: "إن لكل نبي حوارياً وحواريُّ الزبير". وقد بايع علياً بالخلافة، وأدعى أنه بايعه كارهاً، وخرج ضده يوم الجمل^(٥).

→ ويروي عن علاقة طلحة و الزبير، أنه "حين آخى الرسول ﷺ بين أصحابه، آخى بين الزبير و طلحة"^(٦).

→ ويروي اليعقوبي: "وبايع الناس إلا ثلاثة نفر: مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة"^(٧).

ج - انتشار الفتن، واشتداد المعارضة المسلحة: لما قُتِلَ عثمان، وبُويِعَ لعلي، ذرَّت الفتنة قرونها، وتجمعت المعارضة ضد علي في سرعة النار في الهشيم، واتجهت في اتجاهين رئيسين: - الأول: تَجَمُّع المعارضة في مكة بقيادة عائشة، ثم انتقل التجمع إلى البصرة؛ ومن هناك انطلقت حرب الجمل.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٢٦.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ١٧٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٢٧.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ٢٠٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣م): م. س: ص ١٠٠ - ١٠٧.

(٦) م. ن: ص ١٠٢.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ١٧٨.

- الثاني: تَجَمُّع آخر للمعارضة في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، ومنها انطلقت حرب صفين.

الفتنة الأولى: إشكالية حرب الجمل: نشبت بين علي وعائشة (٣٦هـ=٦٥٧م):
لما استقر أمر البيعة لعلي، دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان؛ فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وإنه لا يمكنه ذلك في الظرف الذي أُثِيرَت المسألة فيه^(١).

أخذ أكثر الصحابة يتجمعون في مكة طلباً للعمرة، وبينهم زوجات الرسول، وطلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعامل عثمان على اليمن، وعامله على البصرة... كانت عائشة موجودة، أيضاً، في مكة. ولما وصل خبر مقتل عثمان، أخذت تخطب في الناس، وتحثهم على القيام بطلب دمه. واتفق الجميع - باستثناء زوجات الرسول - على الذهاب إلى البصرة؛ وهناك يتقوون بالخيال والرجال. وجهز يُعَلَى بن أمية - عامل عثمان على اليمن - الناس. فأنفق فيهم ستمائة بعير وستماية ألف درهم. وأسهم ابن عامر - عامل عثمان على البصرة - بمال كثير^(٢). فلما وصلوا إلى البصرة، سيطروا على بيت المال فيها، ووزعوه على الناس^(٣).

→ يروي المسعودي أنه لما وصل أصحاب الجمل إلى البصرة وأخذوها، أرادوا بيت المال، فمانعهم الخُزَّان والموكلون به؛ فَقُتِلَ منهم سبعون رجلاً غير من جُرح؛ وخمسون من السبعين ضُربت رقابهم. وهؤلاء - كما يقول المسعودي - أول من قُتِلَ ظلماً في الإسلام وصبراً^(٤).

→ دخل ابن عباس على علي، بعد مقتل عثمان بخمسة أيام، وأخبره أن الزبير وطلحة مع عدد من المعارضين الآخرين خرجوا يطلبون دم عثمان.
فقال علي: "أما أنهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان، والله يعلم أنهم قتلة عثمان"^(٥).

بعد أن بلغ علياً خبر خروج أصحاب الجمل إلى البصرة، وكان يُعَدُّ للخروج إلى الشام، بعد أن بلغه ثمرد معاوية، فغير مسيرته من الشام إلى البصرة، فقصدتها في تسعمائة رجل^(٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٢٨.

(٢) م. ن: ص ٢٣١.

(٣) م. ن: ص ٢٣٣.

(٤) المسعودي: مروج الذهب (م١): م. س: ص ٦٤٨.

(٥) م. ن: ص ٦٤٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٣٤.

﴿ يروي المسعودي أن علياً سار من المدينة إلى البصرة بعد أربعة أشهر من تجمع المعارضة؛ وقيل سار في سبعماية راكب، منهم أربعماية من المهاجرين والأنصار، فيهم سبعون بدرياً. وبقيتهم من الصحابة ^(١).

إستطاع علي أن يجمع من أهل الكوفة - بعد وصوله إليها - تسعة آلاف رجل، وقيل إثنا عشر ألفاً ^(٢). ويروى أنه بعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفرا الناس، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحواً من سبعة آلاف، وقيل ستة آلاف. وانتهى علي إلى البصرة، وراسل القوم وناشدهم الله، فأبوا إلا قتاله ^(٣).

وعن سير المفاوضات يروى ما يلي :

﴿ عن يعقوبي: أنه لما قدم علي بن أبي طالب إلى البصرة، حاول مفاوضة أصحاب الجمل وعلى رأسهم طلحة والزبير؛ فأرسل إليهم: ما تطلبون وما تريدون؟ قالوا: نطلب بدم عثمان! قال علي: لعن الله قتلة عثمان. وأمر علي أصحابه أن لا يرموا بسهم؛ ولكن رجال من عسكر أصحاب الجمل، كانوا يصطادون عسكر علي بالسهم ويقتلون منهم. فكانت الحرب، وتساقطت القتلى بالآلاف ^(٤).

﴿ وعن ابن كثير: لعب التفاوض بين الكوفة والبصرة دوراً في رأب شقة الخلاف بين السلطة والمعارضة بقيادة علي وعائشة. وكادوا أن يتفقوا على حجب القتال، على أساس تأجيل الأعداء بالثأر لدم عثمان إلى الظرف المناسب. دفع هذا السبب بالمتضررين - كما يروي ابن كثير - وهم الذين حرّضوا على عثمان أو شاركوا في قتله، فأثاروا الفتنة التي كادت تنام على جبهة البصرة - الكوفة. وهكذا أشعلوا الحرب، التي لم يستطع الطرفان أن يسيطروا عليها؛ وكان قد تجمع لكل فريق ثلاثون ألف رجل، واقتتل القوم وسقطت الضحايا من الفريقين ^(٥).

﴿ يروي ابن حزم عن نوايا أصحاب الجمل، فيقول: "إنهم لم يعضوا إلى البصرة لحرب علي ولا خلافاً عليه ولا نقضاً لبيعته، فصيح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحاصل في الإسلام من جرّاء قتل أمير المؤمنين عثمان ظلماً ^(٦)". أما عن موقف علي فيقول: "ولم يكن

(١) المسعودي: مروج الذهب (١م): م. س: ص ٦٤٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٣٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب (١م): م. س: ص ٦٤٨.

(٤) م. ن: ص ٦٥١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٤٠.

(٦) ابن حزم: الفصل في الملل... (ج٤): م. س: ص ٢٣٨.

نهوض علي إلى البصرة لقتالهم. لكن موافقاً لهم على ذلك ليقوى بهم، وتجتمع الكلمة على قتلة عثمان" (١).

وتأكيداً لاستنتاجاته يقول: "وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتلوا ولا تحاربوا". لكن لماذا حصلت الحرب، على الرغم من النوايا الطيبة للفريقين؟ يقول: "فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة [المراوغة] والتدبير عليهم. فبيّتوا عسكر طلحة و الزبير، وبذلوا السيف فيهم؛ فدفع القوم عن أنفسهم، فردّعوا حتى خالطوا عسكر علي؛ فدفع أهله عن أنفسهم؛ وكل طائفة تظن ولا تشك أن الأخرى بدأتها بالقتال. فاختلط الأمر اختلاطاً لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه..." (٢).

حُسمت الأمور في القتال لصالح علي، وانهزم أصحاب الجمل. ولما خرج الزبير من الحرب يريد الرجوع إلى المدينة، لقيه الأحنف، فقال: "هذا الذي كان يفسد بين الناس". فتبعه رجلان ممن كان مع الأحنف، فطعنه أحدهما، وقتله الآخر (٣). أما طلحة فقتل في المعركة (٤). وأما عن عائشة، فقد أعادها علي بن أبي طالب إلى المدينة (٥).

بعض ما قيل في حرب الجمل: عن سعد بن أبي وقاص إلى معاوية: "وأما طلحة والزبير، فلو لزمّا بيوتهما كان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين" (٦).

ومن نتائج حرب الجمل :

→ روى الطبري أن عدد قتلى الجمل بلغ عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة. وفي رواية أخرى عشرة آلاف من البصرة، وخمسة آلاف من أهل الكوفة (٧).

→ ويروي المسعودي أن وقعة الجمل، التي حصلت في العاشر من جمادي الأول من العام ٣٦هـ = ٦٥٧م - بعد خلافة علي بخمسة أشهر وواحد وعشرين يوماً - قُتل فيها من

(١) م . ن : ص ٢٣٩.

(٢) م . ن : ص ٢٣٩.

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣م) : م . س : ص ١١٠.

- راجع ، تاريخ يعقوبي (٢م) : م . س : ص ١٨٣.

(٤) يعقوبي : تاريخ يعقوبي (٢م) : م . س : ص ١٨٢.

(٥) م . ن : ص ١٨٣.

(٦) م . ن : ص ١٨٧.

(٧) الطبري : تاريخ الطبري (٢م) : م . س : ص ٥٨٠.

أصحاب الجمل: من أهل البصرة، ثلاثة عشر ألفاً؛ ومن أصحاب علي خمسة آلاف. وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين: فالقليل يقول سبعة آلاف والمكثر يقول عترة آلاف^(١).

ولنا كلمة أخرى...

إن المكثّر في الإدانة، من الذين كتبوا أو أرخوا لحرب الجمل، يُحمّل أصحاب الجمل مسؤولية ما أُهديرَ من دماء المسلمين لأنهم خرجوا على الخليفة، ليس لسدّ الفتق الذي حصل في الإسلام بعد قتل عثمان ظلماً؛ فكان من الممكن أن يُسدّ هذا الفتق في المدينة، عوضاً عن تحمل مشقات السفر إلى البصرة وتكاليفه الباهظة، وتحمّل وزر قتل حراس بيت المال فيها. أما القليل في الإدانة فيقول إن الطرفين لم يسعيا إلى الحرب، وإنما يُحمّل وزرها لطرف ثالث في محاولة لتجهيل الفاعل. وأما الفاعل، وعلى الرغم من محاولة تجهيله، فكان في صفوف أصحاب الجمل، وأطلق شرارة فتنته من بين صفوف أصحاب طلحة والزبير، قاصداً إيصالها إلى مواقع جيش علي ليختلط الحابل بالنابل؛ وهكذا حصل، وانتصرت الفتنة، ويتحمل مسؤوليتها كل من يحاول التوفيقون من المؤرخين والفقهاء أن يعملوا على تبرئتهم من المسؤولية. ليس لنا من غاية في مثل هذا الرأي أن نغلب رأياً مذهبياً لصالح رأي مذهبي آخر، لأننا نعي تماماً أن الأهواء المذهبية تقود إلى قول ما يتناسب مع تلك الأهواء على حساب أي قول موضوعي، فكيف غابت الموضوعية عند المتلمهين من خلال تقييمهم لأسباب ونتائج حرب الجمل؟

إن منطق التسليم بمبدأ الامتناع عن الخوض في كل ما فعله صحابة الرسول، سلباً كان أم إيجاباً، تحت طائلة تكفير من يقدم على ذلك، هو السبب الذي لجأ من أجله معظم فقهاء المسلمين إلى منطق التوفيق بين المتناقضات وتبرير تزويجها بعضها إلى البعض الآخر. لقد فات التوفيقيون/ التسويويون من الفقهاء المسلمين أنهم ابتعدوا عن النص، الذي من أجل عدم الأخذ بإمكانية مقارنته مع الظرف فعلوا ما فعلوا. أما كيف حصل هذا؟ لا بد من أن نرفع السؤال/التساؤل، أو أن نطرح الإشكالية التالية: على أية مسافة يقف المنطق التوفيقي/ التسويوي بين النص والواقع؟

سقط في القتال، بين أطراف حرب الجمل، آلاف المسلمين من القتلى والجرحى، هذا إذا لم ندخل في الحساب عشرات الآلاف من الأرامل والأيتام. فهل من المعقول الديني أو حتى

(١) المسعودي: مروج الذهب (١م): ٢. م. س: ص ٦٤١.

الوضعي أن لا نَحْمِلُ المسؤولية لأحد مهما كان؟ أو ليس هناك باغ بين الفرقتين المسلمتين المتقاتلتين؟

يقول عز وجل: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا... ﴾، لكن الطائفتين: أصحاب الجمل وعلي، لم يتصالحا، بل اقتتلا؛ فأصبح من دون أي شك أن إحداهما قد بغت...

من هو الذي كان بإمكانه أن يُصْلِح بين المتقاتلتين؟ لم يكن هناك أي أحد، لأن الفتنة قد عمّت المسلمين: من المدينة، إلى البصرة، فالكوفة، فالشام... وأما الصحابة، بأكثرتهم الساحقة، فانقسموا بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك؛ وأما القلة منهم فقد اعتزلوا وأرجأوا الأحكام بحق أي من الطرفين إلى حساب الآخرة. وأما عامة المسلمين فقد انحازوا إلى هنا أو هناك، والبعض منهم كان ينتظر نتيجة ما يدور...

الفتنة الثانية: إشكالية حرب صفين بين علي ومعاوية (٣٧هـ/٦٥٨م):

لما قُتِلَ عثمان بن عفان، خرج النعمان بن بشير إلى الشام، ومعه قميص عثمان مُضْمَخ بدمه. وحمل معه أصابع نائلة - زوجة عثمان - التي قُطِعَتْ حين كانت تدافع عن زوجها يديها. فوضع معاوية الأصابع والقميص على المنبر ليراها الناس... وندبهم للأخذ بثأر عثمان. وقام جماعة من الصحابة يحرضون على المطالبة بدمه ممن قتله^(١).

أما علي، بدوره، فقد عزل معاوية عن ولاية الشام. ولما رفض معاوية أمر العزل، عمل علي على تجهيز جيش من المدينة للذهاب إلى الشام. لكنه تأخر عن ذلك بسبب ما اتخذته الفتنة من اتجاهات متسارعة: فإن أصحاب الجمل تجمعوا في البصرة رافعين شعار الشار لعثمان، وتردّد أهل المدينة عن الدخول في الصراع الدائر^(٢).

انتهت حرب الجمل في جمادي الآخرة من العام ٣٦ هـ؛ وأقام علي في البصرة خمس عشرة ليلة؛ ثم انصرف إلى الكوفة^(٣). وكانت نتائجها مُخَيِّبة لآمال معاوية، السبب الذي اندفع لأجله إلى التسارعة في سبيل كسب المؤيدين له. وتركزت اتصالاته مع عمرو بن العاص، الذي لم يقتنع بأسباب المطالبة بدم عثمان؛ لكنه لما وجد إصراراً لدى معاوية، قال له: "لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك". فوعده معاوية بولاية مصر، وكتب له بها وأشهد له

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٢٨.

(٢) م. ن: ص ٢٣١.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ٢٠٧.

شهوداً؛ ساعثذ بايعه عمرو، وتعاهدا على الوفاء. لكن معاوية لم يستطع أن يستميل إليه قيس بن ساعدة، عامل علي على مصر، ولا سعد بن أبي وقاص^(١).

بلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال، فسار إلى الشام حتى وصل صفين، وأرسل إلى معاوية يدعو ويأمره الرجوع. فأبى معاوية إلا الحرب. فكانت الحرب في صفين في العام ٣٧هـ. وأقامت بينهم أربعين صباحاً. [كان معاوية يقاتل علياً في صفين بمائة ألف ما فيهم من يُفرّق بين الناقة والجمال]^(٢). ولما ظهر أصحاب علي على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، دعا عمرو بن العاص معاوية إلى رفع المصاحف. ووافق معاوية على طلبه، فرفعها أصحابه، وقالوا: "ندعوكم إلى كتاب الله". تنازع أصحاب علي بين القبول والرفض. ولما خاف علي افتراق أصحابه، وافق على التحكيم. ثم تنازع أصحاب علي حول من يُكلّف بالتحكيم، فنزل عند رغبتهم بتكليف أبا موسى الأشعري على الرغم من رفضه له. أما معاوية فكلّف عمرو بن العاص^(٣).

بعد أن قبل علي بالتحكيم، ولما اعتزم أن يعث أبا موسى للحكومة، أتاه إثنان من الخوارج، وقالوا له: تب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم. فقال علي: قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وعاهدناهم. فقال حرقوى [أحد الخارجيين]: ذلك ذنب تبتغي التوبة منه. فقال علي: ليس بذنب، ولكن عجز من الرأي. فقال زوعة [الخارجي الآخر]: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله. ثم خرجا يناديان: لا حكم إلا لله^(٤).

→ يروي الشهرستاني أن الذين خرجوا ضد علي بن أبي طالب، حين أجرى أمر الحكيم، هم أنفسهم الذين فرضوا عليه تكليف أبي موسى الأشعري، على أن يحكم بكتاب الله تعالى^(٥).

وانتهى التحكيم، بأن خلع أبو موسى علياً، بحيلة مدبرة من عمرو بن العاص، الذي ثبت معاوية. وبدلاً من أن يؤدي التحكيم إلى إخماد الفتنة، فإنه كان سبباً في إشعالها، فولدت فتناً أخرى. وأخذ الناس يتنادون: حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب. وتضارب القوم

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ١٨٤ - ١٨٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب (٢م): م. س: ص ٢٩.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ١٨٧ - ١٨٩.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون (٢م): م. س: ص ٦٠٩.

(٥) الشهرستاني: الفصل في الملل... (ج ١): م. س: ص ١١٥.

بالسياط...ونادى الخوارج: كفر الحكماء، لا حكم إلا لله^(١). وأنكر علي شأن الحكيم
لأنهما: "نبذا حكم القرآن، وأتبع كل واحد هواه"^(٢).

→ يروي المسعودي أنه قُتلَ بصفيين سبعون ألفاً: خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام،
 وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق. وقُتلَ من الصحابة خمسة وعشرون صحابياً؛ وشارك
منهم في صفين، مع علي، ألفان وثمانمائة رجلاً^(٣). وابتداء من هذه اللحظة تواجه علي
بفتنتين: فتنة قتال الخوارج، ومواجهة فتنة المبايعه لخليفة ثان.

الفتنة الثالثة : إشكالية حرب النهروان بين علي والخوارج.

إنصرف علي إلى الكوفة، بعد انتهاء التحكيم . وانصرف الخوارج إلى قرية يقال لها
حروراء، بينها وبين الكوفة نصف فرسخ؛ وبها سُموا الحرورية، ورئيسهم عبد الله بن وهب
الراسي؛ وكان عددهم ثمانية آلاف. بعث إليهم علي رسولا يدعوهم إلى الرجوع فقتلوه؛
وبعثوا إلى علي: "إن ثبت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك. وإن أبيت
فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً، فإننا منك براء"^(٤). ولما وجد علي منهم إصراراً، قال لهم:
"لكم عندي ثلاثاً، ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه؛ ولا الفياء ما
دمتم معنا؛ ولا نقاتلكم حتى تبدأونا"^(٥).

وفي أثناء الحرب الدائرة بين علي والخوارج ، كانت تدور بينه وبين معاوية عدة من
الهجمات العسكرية، يسقط فيها أعداد أخرى من القتلى بين المسلمين: من مصر، إلى اليمن،
إلى الحجاز...^(٦). فكتب علي إلى الخوارج كتاباً يستحثهم فيه لقتال أهل الشام. فكتبوا إليه:
"إنك غضبت لنفسك ولم تغضب لربك، فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت، نظرنا بيننا
وبينك، وإلا فقد نابذناك على سوء"^(٧). دعا علي الخوارج إلى الرجوع والتوبة؛ فأبوا ورموا
أصحابه. وعندما كرر عليهم الطلب، ورفضوا، قال لهم: "الله أكبر، الآن حل قتالهم"^(٨).

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : ٢ . م . س : ص ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (٢م) : ٢ . م . س : ص ٦١٠ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب (١م) : ٢ . م . س : ص ص ٦٤١ - ٦٤٢ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب (١م) : ٢ . م . س : ص ٦٩١ .

(٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (٢م) : ٢ . م . س : ص ٦٠٩ .

(٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : ٢ . م . س : ص ص ١٩٣ - ٢٠٠ .

(٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (٢م) : ٢ . م . س : ص ٦١٠ .

(٨) المسعودي : مروج الذهب (١م) : ٢ . م . س : ص ٦٩٢ .

ولما فشلَ الحواريين علي والخوارج، إلا فئة منهم عادت إلى صفوفه، إلتحمت الحرب بينه وبين الفئة التي أصرت على الخروج عليه. وكان عددهم أربعة آلاف، فقتلوا جميعهم إلا عشرة في وقعة النهروان (٣٩هـ = ٦٦٠م)^(١). لكن ابن خلدون يروي أن علي قاتل الخوارج بعد أن لم يبق منهم سوى ألف وثلاثمائة رجلاً، فقتلوا جميعهم. ولم يفقد علي إلا سبعة من أصحابه^(٢). أما المسعودي فيقدر القتلى من أصحاب علي بتسعة، بينما لم يفلت من الخوارج إلا عشرة، وكان عددهم أربعة آلاف^(٣). ويقول ابن عبد ربه أن علياً قتل من الخوارج ألفين وثلاثمائة، وكان عددهم ستة آلاف^(٤).

لقد تركت حرب النهروان ندوباً تمخضت عن نتائج سلبية جديدة تركت بصماتها على مسيرة الإسلام في تلك المرحلة الصعبة والمريرة التي كان يمر بها في حقل مليء بالفتن. فماذا حصل من نتائج مباشرة، في إثر تلك الحرب؟

→ يروي ابن خلدون أن ثلاثة من الخوارج تذاكروا، فعابوا الولاة، وترحموا على قتلى النهروان، وقالوا: "ما نصنع بالبقاء بعدهم، فلو شربنا أنفسنا، وقتلنا أئمة الضلال، وأرحنا منهم الناس".

قال ابن ملجم - أحد الخوارج الثلاثة -: أنا أكفيكم علياً. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت. وحددوا السابع عشر من رمضان، وانطلقوا.

فأما ابن ملجم، فقد فاتح، في الكوفة، خوارجي يدعى شبيب، فأجابه: ويحك لا أجدني أنشرح لقتله مع سابقته وفضله. ولما ذكره ابن ملجم بقتلى النهروان، وهم من العباد الصالحين - حسب زعمه - وافقه شبيب على الأمر. ولقي ابن ملجم امرأة فائقة الجمال؛ فنحطها قبل أن يُقدم على التنفيذ، فاشتراط عليه "عبداً وقينة وقتل علي". فلما وافقها، بعثت معه رجلاً من قومها يدعى وردان لكي يساعده. ولما نفذ الثلاثة (ابن ملجم، ووردان، وشبيب) ما تواعدوا عليه من قتل علي بن أبي طالب، قبضَ علي ابن ملجم. فطلب علي من أصحابه أن يقتلوا ابن ملجم إذا مات^(٥).

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : م . س : ص ص ١٩١ - ١٩٣.
(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (٢م) : م . س : ص ٦١٢.
(٣) المسعودي : مروج الذهب (١م) : م . س : ص ٦٩٣.
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد (٢ج) : م . س : ص ٩٤.
(٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (٢م) : م . س : ص ص ٦١٦ - ٦١٧.

﴿ يروي المسعودي أنه لما خرج ابن ملجم لقتل علي، لقي رجلاً من أشجع، فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ فسأله الرجل: وما ذاك؟ قال: تساعدني على قتل علي. ولما تردد الرجل، قال ابن ملجم: ويحك، أما تعلم أنه قد حُكِّمَ الرجال في كتاب الله، وقتل إخواننا المصلين؟ فنقتله ببعض إخواننا^(١). واستطاع ابن ملجم أن يقتل علياً في سبع عشرة من رمضان من العام ٤٠هـ = ٦٦١م. ولما توفي علي، قطع القوم يدي ابن ملجم ورجليه، فلم يفرغ. فلما أرادوا قطع لسانه فزع. ولما سُئِلَ عن ذلك، قال: إني أكره أن تمر ساعة بي لا أذكر الله فيها^(٢). ويروى أنه بعد أن قطعوا أطرافه، أحرقوه بالنار^(٣).

د - قراءة حول انتشار الفتن المسلحة .

إقتل علي بن أبي طالب، في أثناء خلافته التي استمرت أربع سنوات، مع ثلاث طوائف من المسلمين. فكيف نظر الفقهاء المسلمون إلى هذا الاقتال؟

إستدل الشيعة، بالنص، على وجوب إمامة علي بن أبي طالب، وحسروا وجوب الإمامة فيه وفي ذريته - من زوجته فاطمة - من بعده. ويُعدُّ هذا الاعتقاد من أصول المذهب الشيعي بالإضافة إلى عصمة الإمام. فاستناداً إلى وجوب عصمة علي، ووجوب إمامته المنصوص عليها، يحدد الشيعة مواقفهم من مسائل الخلاف بين علي وبين الصحابة الآخرين. وعكس هذا الاعتقاد نفسه في تخطيط الشيعة لأصحاب الجمل، ومعاوية، والخوارج.

أما عن مواقف أهل السنة والجماعة، فسننقل بعضاً مما ورد عندهم حول هذه المسألة :

﴿ جاء عند الجرجاني أن أهل السنة والجماعة: "قالوا بإمامة علي في وقته. وقالوا بتصويب علي في حروبه بالبصرة وبصفين وبالنهروان. وقالوا بأن طلحة والزبير تابا ورجعا عن قتال علي، لكن الزبير قتله عمرو بن صرمون بوادي السباع بعد منصرفه من الحرب. وطلحة، لما هَمَّ بالانصراف رماه مروان بن الحكم، وكان مع أصحاب الجمل، بسهم فقتله. وقالوا إن عائشة (ر) قصدت الإصلاح بين الفريقين، فغلبها بنو ضبة والأزد على رأيها، وقاتلوا علياً دون إذنها حتى كان من الأمر ما كان. وقالوا في صفين إن الصواب كان مع علي (ر). وإن معاوية وأصحابه بغوا عليه بتأويل أخطأوا فيه، ولم يكفروا بخطئهم. وقالوا إن علياً أصاب في التحكيم غير أن الحكمين أخطأ في خلع علي من غير سبب أوجب خلعه، وخدع أحد الحكمين الآخر.

(١) المسعودي: مروج الذهب (١م): ٢. م. س: ص ٦٩٨.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): ٢. م. س: ص ١٥٤.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ٢. م. س: ص ٢٠٩.

وقالوا بمروق أهل النهروان عن الدين لأن النبي ﷺ سُمّاهم مارقين لأنهم كفّروا علياً و عثمان وعائشة وابن عباس وطلحة والزبير وسائر من تبع علياً بعد التحكيم. وأكفروا كل ذي ذنب من المسلمين. ومن أكفر المسلمين وأكفر أخيار الصحابة فهو الكافر منهم" (١).

﴿ يقول عبد الرحمن النجدي: "وأما الحروب التي وقعت بين الصحابة، فالصواب فيها قول أهل السنة والجماعة وهو السكوت عما شجر بينهم، والترضي عنهم، وموالاتهم، ومحبتهم كلهم رضوان الله عليهم أجمعين. وذلك أن الله تبارك وتعالى أخبر أنه قد رضي عنهم ومدحهم في غير آية من القرآن. وإنما فعلوا ما فعلوه من الحروب والقتال بتأويل، ولهم من الحسنات العظيمة الماحية للذنوب ما ليس لغيرهم" (٢).

يستحسن النجدي جواب عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي، لما سُئِلَ عن الحروب التي وقعت بين الصحابة، فقال: "تلك دماء طهّر الله يدي منها، أفلا أظهر لساني من الكلام [عنها؟]" (٣).

ويخلص النجدي إلى الحكم حول قتال علي لأهل الشام فيقول: "إنهم خارجون عن طاعة إمام معين، أو خارجون عليه لإزالة ولايته، فهم غير خارجين عن الإسلام، فإن سيرته معهم سيرة الأخ مع أخيه" (٤). لكنه يعتقد أن علياً أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه (٥).

﴿ ينقل الهرري عن الجرجاني في كتاب (الإمامة): "أجمع فقهاء الحجاز والعراق، من فريق الحديث والرأي، منهم مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والجمهور الأعظم من المتكلمين، أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين، كما قالوا بإصابته في قتال أهل الجمل. وقالوا، أيضاً، بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له، ولكن لا يجوز تكفيرهم ببيغيتهم" (٦).

إستناداً إلى عدد من شهادات أهل السنة، ومن خلال قراءتنا، نحسب أن موقفهم يستند إلى المنطق التسوي مع بعض النص وليس كله. فهم يحرصون على تجهيل الفاعل كي لا يتحملوا وزر إتخاذ أحكام يخشون، إذا ما اتخلوها، أن يطأهم الإثم. ومن هنا نرى أن ما قاله النجدي عن أن الله قد مدح الصحابة، يعدّه سبباً كافياً لمنع إدانتهم...

(١) البغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق: م. س: ص ٣٤٢.

(٢) النجدي، عبد الرحمن: الدرر السنية (ج ١): م. س: ص ١٤٢.

(٣) م. ن: ص ١٤٣.

(٤) م. ن: ص ٢٦٦.

(٥) م. ن: ص ١٤٣.

(٦) الهرري، عبد الله: المقالات السنية: م. س: ص ١٩١.

إن مثل هذا التأويل للنص الإسلامي فتح الباب واسعاً أمام الفقهاء للاستناد إلى الكثير من الشواهد المتواصلة المملوءة بالتأويل - التبريري، وخلفياته الإكثار من الزلفى طلباً للشفاعة - كما يحسبون - ولهذا امتلأت خزائنها بها ابتعاداً وتخرجاً من الاصطدام بالنص.

لم يأخذ مصير عشرات الآلاف من الضحايا المسلمين، الذين سقطوا في أثناء الإقتالات - الفتن، من الفقهاء أدنى اهتمام، بل انصبَّ اهتمامهم على تبرئة من كان من المنطقي أن يتحمل مسؤولية سقوطهم، لهذا فقد جهَّل الفاعل تعمداً لأهداف وأهواء سياسية، مستندين في سبيل ذلك إلى الجزء المناسب، من النص، لتلك الأهداف والأهواء.

هل تساءل الفقهاء المسلمون عن حقوق الضحايا؟ كأن يُقال: هل ماتوا بحق أم أنهم كانوا من المظلومين؟ ومن يتحمل وزر الظلم الذي لحق بهم؟ وهل يحصلون على حقوقهم إذا قيل أن فلاناً قد اجتهد بالحرب فأخطأ؟ هنا يصبح الطريف بالأمر أن المسؤول، عوضاً عن أن ينال جزاءه العادل، يُعطى أجراً واحداً، أي أجر المجتهد المخطيء.

ألم يأمر النص الديني أن يقتل ولي الأمر كل من يقتل نفساً بغير حق؟

يقف النص الإسلامي بوضوح وجدية ليأخذ حق نفس مسلمة واحدة قُتِلت بغير حق، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بقتل عشرات الآلاف من المسلمين؟ ألا يستدعي الأمر، من الفقهاء، أن يقفوا عند هذه المسألة بقليل من الجدِّية، وقليل من الجرأة الدينية؟ ألم يقل النص أن خير الجهاد كلمة حق تُقال في وجه ظالم؟ أم أنهم يستخدمون النص متى يشاؤون، ويتغافلون عنه في الوقت الذي يريدون؟

→ ومن نماذج التأويل التبريري - التسووي، سنأخذ مثلاً من ابن حزم، الذي دافع عن الجميع ودفع المسؤولية عنهم، وهو لا يشير من قريب أو بعيد لمن سقط من الضحايا، وكأنهم ماتوا جميعاً بالسكينة القلبية:

جاء، في معرض دفاعه عن الذين حاربوا علياً يوم الجمل ويوم صفين، ما يلي: "إن عثمان (ر) قُتِلَ مظلوماً، فالطلب بأخذ القود [القصاص: وأقصدت القاتل بالقتيل، أي قتلته به] من قاتليه فرض. قال عز وجل: ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ (الإسراء ١٧: ٣٣). وقالوا: ومن آوى الظالمين فهو إما مشارك لهم، وإما ضعيف عن أخذ الحق منهم. وقالوا: وكلا الأمرين حجة في إسقاط من فعل ذلك، ووجوب حربه" (١).

(١) ابن حزم: الفصل في الملل... (ج ٤): م. س: ص ٢٣٤.

ثم يدافع عن معاوية قائلاً: "وامتناع معاوية من بيعه علي، كامتناع علي من بيعه أبي بكر... لأن علياً لم يمتنع من بيعه أبي بكر من المسلمين غيره... وأما بيعه علي فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها؛ وما تابعه منها إلا الأقل [وهناك] أزيد من مائة ألف مسلم بالشام، والعراق والحجاز، كلهم امتنع من بيعته، فهل معاوية إلا واحد من هؤلاء في ذلك؟" (١).

يضع ابن حزم معاوية، فيما قام به من أعمال، في موقع المجتهد، فيقول: "لم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة. لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان ... فلم يطلب معاوية من ذلك إلا ما كان له من الحق أن يطلبه... وإنما أخطأ في تقديم ذلك على البيعة فقط، فله أجر الاجتهاد في ذلك، ولا إثم عليه. فما حُرِّمَ من الإصابة كسائر المخطئين في اجتهادهم الذي أخبر الرسول أن لهم أجراً واحداً، وللمصيب أجرين" (٢).

ثم يدافع عن علي قائلاً: "وقد علمنا أن من لزمه حق واجب، وامتنع من أدائه، وقاتل دونه، فإنه يجب على الإمام أن يقاتله وإن كان متأولاً؛ وليس ذلك بمؤثر في عدالته وفضله، ولا يوجب له فسقاً؛ بل هو مأجور لاجتهاده ونيتة في طلب الخير. فبهذا قطعنا على صواب علي (ر) وصحة إمامته، وإنه صاحب الحق، وإن له أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة؛ وقطعنا أن معاوية (ر)، ومن معه مخطئون مأجورون أجراً واحداً" (٣).

لماذا يعتقد ابن حزم أن ما فعله معاوية اجتهاد يستحق عليه أجراً واحداً؟

فحول تقديم معاوية مسألة الأخذ بآثار عثمان على البيعة لعلي، يتساءل ابن حزم عن كيف يحرم الآخرون معاوية من أجر اجتهاده في هذه المسألة، في الوقت الذي يستفيد فيه المخطئون غيره، من اجتهادهم بأجر واحد؟ فيقول: "ولا عجب أعجب ممن يميز الاجتهاد في الدماء والفروج... ويعذر المخطئين في ذلك. ويرى ذلك مباحاً لليث وأبي حنيفة والثوري، ومالك والشافعي... فواحد من هؤلاء يبيع دم هذا الإنسان، وآخر منهم يُحرِّمُه... وواحد منهم يبيع هذا الفرج، وآخر منهم يُحرِّمُه... ثم يُضَيِّقون ذلك على من له الصحبة والفضل... كمعاوية وعمرو ومن معهما من الصحابة..." (٤).

(١) م. ن: ص ٢٣٥.

(٢) م. ن: ص ٢٤١.

(٣) م. ن: ص ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٤) م. ن: ص ٢٤١.

﴿ وهذا ابن تيمية يخطيء علياً بن أبي طالب، فيقول عنه إنه كان "مخذولاً"، إنه قاتل للرئاسة والديانة؛ ويزعم ابن تيمية أن معاوية ارتكب ما فعله عن اجتهاد، وهو اجتهاد مأجور. فيرد الهرري على ذلك قائلاً: كيف يكون معاوية مجتهداً مأجوراً، وقد خرج عن طاعة أمير المؤمنين، ونازعه في إمارته، وخالف النصوص. وأريققت بهذا القتال دماء ألوف مؤلفة من المسلمين، منهم جماعة من خيار الصحابة والتابعين، فكيف يجتمع الأجر والمعصية^(١) ١٢.

﴿ يعجب محمد التيجاني السماوي - وهو من الذين انتقلوا من المذهب السني إلى المذهب الشيعي - من أنه كيف يحكم العقل السليم باجتهاد معاوية، ويُعطى أجراً على حربته إمام المسلمين، تحت ذريعة القياس على النص الذي يستدل منه فقهاء السنة بأنه ليس من الحق أن نحكم على الصحابة أو نحكم لهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ (البقرة ٢ : ١٤١).

ويعدد التيجاني أسباب عجبه بالتالي: حارب معاوية إمام المسلمين - قتل المؤمنين الأبرياء - قتل معارضيه بالسم - كان إمام الفئة الباغية - أخذ البيعة من الأمة بالقوة والقهر - حمل الناس على لعن علي وأهل بيته...^(٢)

أعطى الشيعة الحق في أحكامهم حول الصراعات - الفتن، كلّية إلى علي، وخطأوا المعارضة كلها. وطفى على أحكام السنة، المنطق التسويي، أو القياس التسويي، الذي ساوى في البراءة بين الجميع. وعرف تاريخ الصراعات الإسلامية - الإسلامية آراء أخرى تساوي في الإدانة بين الجميع. ومن هذه الآراء نسرد بعض الشواهد:

﴿ قالت الفرقة الكاملية من الرافضة الإمامية - كما يسميها عبد القاهر الجرجاني: "إن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي، وكفر علي بتركه قتالهم. وكان يلزمه قتالهم كما يلزمه قتال أصحاب صفين"^(٣)

﴿ مع أن الخوارج تفرقوا إلى أكثر من عشرين فرقة، كان يجمعهم - على اختلاف فرقهم - "تكفيرهم علياً وعثماناً، وأصحاب الجمل، والحكمين ومن صوبهما أو صوب أحدهما أو رضي بالتحكيم"^(٤)

(١) الهرري، عبد الله: المقالات السنّية: م. س: ص ١٩٠.

(٢) السماوي، محمد التيجاني: ثم اهتديت: م. س: ص ١٤٨.

(٣) البغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق: م. س: ص ٣٩.

(٤) م. ن: ص ٥٦.

﴿ يرد عليهم عبد القاهر الجرجاني قائلاً: "من أكفر المسلمين، وأكفر أعيان الصحابة، فهو الكافر منهم" ^(١).

لنرى الآن ماذا جاء في النصوص، وبما يُستدل من معناها أنها ذات صلة واضحة بما جرى بين علي، كخليفة للمسلمين، وبين المسلمين المعارضين له؛ وهنا نرى من المناسب أن نقتطف بعضاً من الأحاديث النبوية :

- نقل مسلم في صحيحه حديثاً عن الرسول يقول فيه: "من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه؛ فإنه ليس أحد من الناس خرج على السلطان شيراً فمات على ذلك، إلا مات ميتة جاهلية" ^(٢).

- وجاء أيضاً: "ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر" ^(٣).

- وجاء أيضاً: "إذا بُويعَ لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما" ^(٤).

هل كانت المشكلة، التي سببت الصراعات - الفتن، بين علي ومعاوية تتلخص في تحديد أولوية مسألتين: بيعه علي، أم المطالبة بدم عثمان؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال آخر: هل كان معاوية يريد حقاً مبايعة علي بعد أن يؤخذ الحق لدم عثمان؟

وهل سبق للذين بايعوا الخلفاء، الذين سبقوا علياً، أن اشترطوا عليهم تنفيذ مسائل قبل أن يبايعوهم؟

وهل يمكن للخليفة أن يقوم بتنفيذ الحدود قبل أن يتولى الإمارة؟ وهل لديه السلطة التي تخوله القيام بذلك؟

في رأينا لم تكن الإشكالية في تحديد أولوية إحدى المسألتين: دم عثمان، والبيعة؛ وإلا إذا كان ذلك صحيحاً، لكان من الواجب على معاوية - استناداً إلى العرف الذي اتبعه الخلفاء السابقون - أن يبايع علياً أولاً؛ ثم يطالبه بتطبيق أحكام الشريعة بحق قتلة عثمان، ثانياً.

ثم من هو الذي أعطى الحق لمعاوية بطلب دم عثمان؟ هل لعصبة: أي انتماء عثمان لبني أمية، عصبة معاوية؟

(١) م . ن : ص ٢٤٢.

(٢) صحيح مسلم (ج ٦) : ص ٢١ - ٢٢.

(٣) م . ن : ص ١٨.

(٤) م . ن : ص ٢٣.

أو لم يَنْهَ الإسلامُ عن العصبية، كما جاء في القرآن: ﴿... إنما المؤمنون أخوة...﴾ (الحجرات ٤٩: ١٠). أو كما جاء في حديث للرسول: "ومن قاتل تحت راية عُمَيَّةٍ [هي الأمر لأعمى لا يستبين وجهه]، أو يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، فقتلته جاهلية" (١).

وإذا كان الاستدلال على أحقية معاوية بالمطالبة بدم عثمان مستنداً إلى النص القرآني: ﴿ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لولِيِّه سلطاناً﴾ (الإسراء ١٧: ٣٣)، فهل السلطان/الولي هو أقرباء القتيل، أم هو ولي أمر المسلمين؟ فعلى هذا يجب النص القرآني، أيضاً، بقوله: ﴿وإذا جاءهم أمر من الخوف، أذاعوا به، ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لَعَلَّهم الذين يستنبطونه منهم﴾ (النساء ٤: ٨٣).

لنفترض أن الفقه قد يبرر موقف معاوية استناداً إلى صلة الدم والقربى، التي تربطه بعثمان، مع تناقضه مع النص؛ لكن ما هي الصلة التي تبرر مطالبة أصحاب الجمل بدم عثمان؟ وإذا صحَّ أنه من حق أقارب المقتول أن يطلبوا بدمه، فهل يصحَّ أن يقوموا بتحريض المسلمين على حمل السلاح في وجه السلطة لحملها على أداء واجبها؟ وهل إن جميع المسلمين أو أكثريتهم، لهم الحق أن يقوموا بمهمة السلطة التنفيذية، أم أنهم يفوضون أمر هذه السلطة للخليفة، الذي تمت مبايعته، لكي يدافع عنهم ويستعيد حقوقهم؟ إضافة إلى ذلك، وهو يُعدُّ أكثر خطورة - في السطو على النص - من كل ما سبق، فقد تناسى الفقهاء المسلمون مسألة مبايعة خليفتي في آن واحد: فعليّ خليفة بالمبايعة، لم ينزع نفسه عنها؛ ولم ينزعها عنه، أيضاً، الذين بايعوه؛ وثم بُويِعَ لخليفة آخر وهو معاوية. فكيف يستوي الأمر، إذاً، في ظل نص الحديث الذي يقول: "إذا بويِعَ لخليفتي فاقْتُلُوا الآخر منهما" (٢).

ومما يثير العجب والاستغراب، أن يتلاعب الأشعرية بالنص، كما يشاؤون، فهم جوزوا - خلافاً للنص - "عقد البيعة لإمامين في قطرين؛ وغرضهم إثبات إمامة معاوية في الشام باتفاق جماعة من أصحابه. وإثبات أمير المؤمنين علي بالمدينة والعراق باتفاق جماعة من الصحابة" (٣).

(١) م . ن : ص ٢١.

(٢) صحيح مسلم (ج ٣) : م . س : ص ٢٣.

(٣) راجع الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١١٣.

ومهما يكن ، ولو افترضنا أن النص النبوي ثابت - وهو كذلك باتفاق السنة والشيعه -
لكان من الواجب على الفقهاء المسلمين أن يتقيدوا به مهما انعكست النتائج، سلباً أو إيجاباً،
على هذا الطرف أو ذاك من دون محاباة.

ولأن الفقهاء لم يفعلوا ما كان يطلبه الواجب الديني أن يفعلوه، فهل من المستغرب أن
نتساءل: لماذا يتساهل الفقهاء بالنص هنا، ويتشددون فيه هناك؟

إننا نحسب أن السبب وراء ذلك هو إما أن يكون النص مقيداً ومُلزماً من دون جدل أو
اجتهاد. أو أن يكون خاضعاً لمصلحة الناس مراعيّاً ظروفهم وحاجاتهم المشروعة على قاعدة
العدالة والمساواة والأخلاق... ولأن الفقهاء يجوزون التساهل، فإن ذلك يعني إخضاعهم النص
لمصلحة الناس، وهذا أمر يصب في الدائرة الإيجابية، التي أرادت القوانين الآلهية أن تكون. لهذا
السبب نرى أن لا يختفي الفقهاء متى أرادوا - لمصلحة ما - وراء قدسية النص، وأن يطلبوا
مفعول قدسيته إذا كانت المصلحة تُوجبُ إبطالها.

- علاقة الموقف من الخوارج مع النص: الكيل بمكيالين.

أجمع المسلمون، سُنّة وشيعه، على وجوب قتال الخوارج. والسبب أن الخوارج شرّحوا
أعمال الخلفاء وأنصارهم، وبحثوا في من يستحق الخلافة منهم ومن لا يستحقها، ومن يكون
مؤمناً ومن لا يكون^(١). كما إنهم - يقول الشهرستاني - كانوا "أهل صلاة وصيام"^(٢).

تأكيداً لصحة كون الخوارج فرقة إسلامية، يروي الشهرستاني أنه قد نجح أحد رجال
الخوارج من حرب النهروان، وبقي إلى أيام معاوية، ثم أتى إلى زياد بن أبيه "فسأله زياد عن
أبي بكر وعمر (ر)، فقال فيهما خيراً. وسأله عن عثمان، فقال: كنت أوالي عثمان على
أحواله في خلافته ست سنين. ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها، وشهد عليه
بالكفر. وسأله عن أمير المؤمنين علي (ر)، فقال: كنت أتولاه إلى أن حكّم الحكمين، ثم
تبرأت منه بعد ذلك، وشهد عليه بالكفر. وسأله عن معاوية فسبّه سبّاً قبيحاً"^(٣).

يقول جولدتسيهر: "إستخرج الخوارج المتقدمون من القرآن نقاطاً يستندون إليها في
خصومتهم لعلي، وتصويب قتله على يد ابن ملجم، مثل الآية التي يدعون أنها نزلت في حق
علي: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه وهو أشدُّ

(١) أمين، أحمد: فجر الإسلام: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٧٥: ط ١١: ص ٢٥٨.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): م. س: ص ١١٥.

(٣) م. س: ص ١١٨.

الخصام» (البقرة ٢ : ٢٠٤). وكذلك الآية التي نزلت في قاتل علي: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ (البقرة ٢ : ٢٠٧) ^(١).

وفي المقابل استخرج الشيعة آيات تدل على نشأة حزب الخوارج: "رُوي أن ظهورهم ولعنتهم قد حصل التعبير عنهما في كلام الله قبل تحقق ذلك بثلاثين سنة. وقد وجد التفسير القديم إشارات إلى ذلك في القرآن. فقد حكى مصعب بن سعد أنه سأل أباه عن آيتي القرآن: ١٠٣ و ١٠٤ من سورة الكهف: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾، هل هم الحرورية [فرقة من الخوارج]؟ فأجابه أبوه بأن هذه الآية ليست على الحرورية، بل آية أخرى هي: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر به الله أن يوصل، ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء العذاب﴾ (الرعد ١٣ : ٢٥). هؤلاء هم الحرورية ^(٢).

جاء عند عبد الرحمن النجدي، وغيره من الفرق الدينية الأخرى، بجواز قتال علي بن أبي طالب للخوارج ^(٣)؛ وذلك لأنهم أغاروا على الناس وسفكوا الدم الحرام، واستباحوا دماء المسلمين وأموالهم ^(٤). وهو في مثل هكذا حكم يصدره على الخوارج، يتناقض مع حكمه الذي أنزله بأهل الشام وأصحاب الجمل. وحول هذا يقول: "ولهذا افترقت سيرته (ر) في قتاله لأهل البصرة وأهل الشام، وفي قتاله لأهل النهروان، فكانت سيرته مع البصريين والشاميين سيرة الأخ مع أخيه، ومع الخوارج بخلاف ذلك. وثبتت النصوص عن النبي ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصديق لمائعي الزكاة، وقاتل علي للخوارج" ^(٥).

هذا من نماذج تأويل الفقهاء لقتال علي مع الخوارج، والأسباب التي تجيز قتالهم والتي عدّها الفقهاء هي: أنهم سفكوا الدم الحرام واستباحوا دماء المسلمين.

وبمقارنة سريعة بين القتلى من المسلمين، الذين سقطوا في حرب الجمل، وحرب صفين، وحرب النهروان، قد تعطينا صورة واضحة على أن النص يُطبّق هنا وهناك بمكيالين:

- حرب النهروان: المقلل يقول أنه سقط من الخوارج ألف وثمانمائة رجل، ومن أصحاب علي سبعة رجال. والمكثر يقول أنه سقط من الخوارج أربعة آلاف رجل.

(١) جولد تسيهر : مذاهب التفسير الإسلامي : م . س : ص ٢٨٨.

(٢) م . ن : ص ٢٨٧.

(٣) النجدي ، عبد الرحمن : الدور السيئة (ج ١) : م . س : ص ٢٦٦.

(٤) م . ن : ص ١٤٣.

(٥) م . ن : ص ٢٦٦.

- حرب صفين : قُتِلَ فيها سبعون ألفاً: خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام؛ وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق. وقُتل من الصحابة خمسة وعشرون صحابياً فقط.
- حرب الجمل: وقُتل فيها ثلاثة عشر ألفاً من أصحاب الجمل، وخمسة آلاف من أصحاب علي.

إن نظرة سريعة على هذه الإحصاءات لا بد من أن تثير العجب، فلا يبقى مفر من رفع السؤال/ التساؤل: أيطبق النص هنا، ولا يطبق هناك، لماذا؟

كما إنه لا بد من أن نتساءل، أيضاً: إذا كان الخوارج قد تأولوا، كما تأول غيرهم، وتأويلهم يستند إلى نصوص دينية - كما أسند غيرهم تأويلاته - فلماذا، إذاً، ينال الغير أجراً على اجتهاده، بينما يُحرّم الخوارج من هذا الأجر؟

ومن جهة ثالثة نتساءل: لماذا يطبق النص القرآني: ﴿ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم. . . ﴾ على الآخرين، في الوقت الذي يُحرّم فيه الخوارج من الاستفادة من هذا النص؟

أفلا يصح، إذا قلنا، أن الفرق الإسلامية وفقهاءها قد طبّقوا نصوصاً لإدانة الخوارج لم يستخدموها لإدانة غيرهم؟

ثانياً : الخلافة الراشدة : القضايا - التقاطعات

مررنا على مسألة الخلافة، في أكثر من موقع سابق في هذا البحث؛ وسوف نتناول الموضوع ذاته في مواقع لاحقة؛ وقد يتبادر إلى الذهن مسألة التكرار، ولأننا - لأسباب منهجية - نعتمد استقراء المراحل التاريخية، لكي نلاحق الظاهرة أو الإشكالية في ظروفها التاريخية والدينية والسياسية، التي مرّت عليها أو فيها تلك الظاهرة أو الإشكالية، نرى أنفسنا ملزمين بمثل هذا التكرار - أحياناً - لمتابعة إستقرائية منهجية.

إستناداً إليه، نحسب أن ما قمنا باستقراءه من أحداث - حتى الآن - تمس مسألة الخلافة/الإمامة في عهد الخلافة الراشدة، يدلنا على أن الخلافة/الإمامة كانت من أشد المعضلات جدّة في تاريخ الدعوة الإسلامية. ولأن القرآن والسنة لم يأتيا بنص صريح واضح ومحكم، من أجل الاستناد إليه في تنظيم هذه المسألة، تحولت إلى إشكالية شائكة. وكانت هذه الإشكالية تؤدي، كلما خلا موقع الخلافة، إلى إشكاليات أخرى تستمر وتتواصل. وسوف تستمر هذه الإشكاليات طالما بقيت مسألة الخلافة مطروحة كحل أساس لأي نظام سياسي إسلامي.

إفترق المسلمون، في بدايات المرحلة التي أعقبت وفاة الرسول، إلى متأولين متعددين للنص، لأنه لم يكن بين أيديهم نصاً محكماً. يحسب بعض المسلمين أن الصحابة فوّتوا الفرصة عليهم عندما منعوا الرسول من كتابة ما أشار إليه في أثناء احتضاره، فظنّ فريق منهم أن هذا الكتاب كان له علاقة بتحديد أسس الخلافة.

حول هذا الموضوع/الإشكالية، أصبح من الواضح أن الإسلام لم يحدد في مصدره - الكتاب والسنة - قاعدة للمسلمين يمكنهم أن يقلّدوها في تعيين الخليفة. ينقل الطبري ما قاله أبو بكر، وهو على فراش الموت: "...وددت أني كنت سألت رسول الله: لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه فيه أحد..."^(١).

(١) الطبري : تاريخ الطبري (٢م) : ٢٠٠ : ص ٢١٦.

تعددت الأعراف والاجتهادات والتأويلات حول أسس شرعية لتعيين الخليفة. ولهذا كان اختياره - كما نحسب - يستند إلى اجتهادات فردية، وفي حدها الأقصى إلى شورى نخبوية: - فيعة الخليفة الأول كما وصفها عمر بن الخطاب: "كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها...".

- وبيعة عمر بن الخطاب كانت استخلاقاً، وضع فيه أبو بكر الصديق المسلمين أمام الأمر الواقع. ولما عُوِّبَ في ذلك، قال: "...اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة...".

- حدد عمر بن الخطاب طريقة البيعة للخليفة الثالث، وذلك بأن كلف نخبة ضيقة لاختيار واحد من بينها يكون خليفة من بعده. استطاعت تلك النخبة، بالتشاور فيما بينها مع بعض المشاورات الجانية التي أجراها عبد الرحمن بن عوف - واحد من أعضائها - وهي طريقة لا يمكن أن توصف إلا بأنها نوع من الشورى الفوقية، استطاعت أن تنقل الخلافة إلى عثمان بن عفان، من دون أية إشكالية.

- أما البيعة الرابعة، فكانت خوفاً من استفحال الفتنة بعد مقتل عثمان؛ وقد بويع لعلي بحجة "أن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير". وما خاف منه الذين بايعوا الخليفة الرابع قد وقع بشكل واسع، وعلى أكثر من جبهة - فتنة.

لقد دلّ استقرار الوقائع التاريخية على أن النص الإسلامي افتقر إلى وجود أسس تنظم مسألة الخلافة/الإمامة؛ لهذا السبب بقيت هذه المسألة عرضة لشتى الاجتهادات والتقديرات الفتوية، مما دفع بالتأويلات المذهبية، فيما بعد، إلى أن تصيغ نصوصها المنظمة لمسألة الخلافة؛ فأصبح، بعد عقود عديدة من الزمن، لكل فرقة/مذهب إسلامي نصوصاً خاصة بها تدعمها بنصوص من القرآن، تارة، وبنصوص من السنة النبوية، تارة أخرى؛ وبهذا أخذ الأمر يبدو وكأن كل نص ملهي حول الخلافة وكأنه نص مقدس. وباتت، بعدها، كل فرقة من الفرق الإسلامية تكيل التهم لغيرها من الفرق التي لا تدين بتعاليمها، فتبدعها أو تفسقها أو تضللها تحت حجة مخالفتها لنصوص الكتاب والسنة النبوية.

جاءت التأويلات والاجتهادات المنظمة لمسألة الخلافة/الإمامة، بصيغة النص المقدس، في أوقات متأخرة جداً عن عهد الخلافة الراشدة. وإن تأخرها لا يلغي صحة منهجية الاستناد إليها في قراءة هذه الإشكالية قراءة موضوعية. فهي بداية لم تكن واضحة الأسس في عهد الخلافة الراشدة، مما أوجد مساحة واسعة من التنازع حولها في أوقات لاحقة.

لا بد من الإشارة إلى أن النصوص، التي تدعم مواقف الفرق الإسلامية حول مسألة الخلافة، قد تأثرت بمذهب أهل الرأي، وذلك بعد أن أخذ هذا المذهب يشق طريقه، ويأخذ

دوره، وينتشر استخدامه في سبيل تدعيم اعتقادات مختلف الفرق الإسلامية حول شؤون الدين والسياسة. ولأن مذهب أهل النقل كان يفتقد إلى نصوص محكمة تحدد المسائل بوضوح، جاء مذهب أهل الرأي لكي يحاول أن يسد الثغرات التي تركها النص.

ولأن النصوص المتأخرة جاءت لتدعيم معتقدات الفرق، وكانت هذه النصوص كثيرة وكثيرة جداً، ولأنها ما زالت، حتى الآن، تستخدم كمادة أساسية في فتاوى الفقهاء على شتى فرقهم ومذاهبهم؛ ولأنها غير مُجمَع عليها، فإننا سنعتمد منهج الانتقاء منها، وبما يعبر بوضوح عن تلك المواقف، وذلك على الرغم من أنه قد يوافق البعض عليها أو يرفضها البعض الآخر. وعلى من يريد الاستزادة منها فعليه بمصادرها وهي أكثر من أن تحصى.

→ النصوص التي تعبر عن رأي أهل السنة:

→ جاء عند السيوطي: "أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله، أبو بكر ثم عمر، ثم علي، ثم سائر العشرة [المبشرون بالجنة]، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة ثم باقي الصحابة" (١).

→ سُئِلَتْ عائشة: "أي أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إلى رسول الله؟ قالت: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قالت: عمر. قلت: ثم من؟ قالت: ثم أبو عبيدة بن الجراح" (٢).

→ "وأخرج أحمد وغيره عن علي، قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر". وقال علي، أيضاً: "لا يُفَضِّلُنِي أَحَدٌ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدْتَهُ حَدَّ الْمَفْتَرِي" (٣).

→ عندما ظن أن الله سيتوفى النبي، قال العباس بن عبد المطلب لعلي بن أبي طالب: "إذهب بنا إلى رسول الله، فنسأله فيمن هذا الأمر من بعده، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا كلّمناه فأوصى بنا فقال علي: والله لئن سألتها رسول الله فمُنِعَناها لا يعطيناها الناس أبداً، فوالله لا نسأله أبداً" (٤).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. س: ص ٦٢.

(٢) م. ن: ص ٦٥.

(٣) م. ن: ص ٦٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢م): م. س: ص ٢٤٥.

- الطبري: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ٩٧.

﴿ وفي رواية أخرى: جمع العباس بن عبد المطلب بني عبد المطلب، وأرسل يطلب علياً ليستشيريه... فقال علي: يا عم وهل هذا الأمر إلا إليك؟ وهل من أحد ينازعكم هذا الأمر؟ ﴾ قال الراوي: فتفرقوا ولم يدخلوا على النبي^(١).

﴿ قيل لعائشة: أوصي رسول الله ﷺ؟ قالت: كيف أوصي، ولقد دعا بالطشت ليبيول فيها، فانحشت في حجري، وما شعرت أنه مات. وما مات إلا بين سحري ونحري^(٢). ﴾

﴿ وفي رواية أخرى: سأل كعب الأحبار عمراً: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: سل علياً. فقال علي: أسندته إلى صدري، فوضع رأسه على منكبي، فقال: الصلاة، الصلاة^(٣). ﴾

﴿ وفي رواية أخرى: قبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي^(٤). ﴾

﴿ قال رسول الله رداً على سؤال: ألا تستخلف علينا؟ فردّ قائلاً: "إني إن استخلف عليكم فتنقضون خليفتي ينزل عليكم العذاب". وقيل لعلي بن أبي طالب: "ألا تستخلف علينا؟ فقال: ما استخلف رسول الله فاستخلف^(٥)". ﴾

ولنا كلمة...

- تؤكد جميع هذه الروايات والأحاديث على أنه لا نص في النص له علاقة بالنص على خليفة ما سيتولّى ولاية الأمر بعد وفاة رسول الله.
- يناقض بعض الأحاديث بعضها الآخر. رواية ثم تأتي بعدها رواية أخرى مضادة لها.
- بعض الروايات له علاقة بإعطاء الأحقية لبني العباس بالخلافة.
- بعض الأحاديث تثير، بلا شك، استهجان الشيعة؛ ومن أهمها ما جاء فيه أن علياً أفتى بجلد كل من يفضلّه على أبي بكر وعمر، فلو صحّت الرواية لكان من الواجب أن يُجلّد عشرات الملايين من المسلمين. ونحن نتساءل من هو المكلف الذي يجب أن يطبّق الحد على كل أولئك؟
- في الوقت الذي لا يعتقد فيه السُّنة بأنه لا نص على الخليفة، ينقل النووي - أحد فقهاء السنة - حديثاً للرسول، فيه ما يتناقض مع اعتقادهم؛ وكأن النووي، ومن نُقل الحديث عنهم - أبو داود والترمذي - يؤكدون فيه وجود نص واضح على استخلاف النبي للراشدين.

(١) م . ن : ص ٢٤٦.

(٢) م . ن : ص ٢٦٠.

(٣) م . ن : ص ٢٦٢.

(٤) م . ن : ص ٢٦٣.

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء : م . س : ص ٢١.

المهديين، وهم: الذين شملهم الهدى، وهم الأربعة بالإجماع: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي^(١). وهذا نص الحديث: "قال ﷺ: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"^(٢). تأتي رواية هذا الحديث - إذا صححت - إلى نقض اعتقادات أساسية حول موضوع الإمامة/الخلافة: - الأول: إثبات وجود نص على خلافة/استخلاف(الخلفاء الراشدين)، في الوقت الذي ينفون فيه، استناداً إلى أحاديث أخرى، وجود نص على استخلاف أحد.

- الثاني: نفي أحقية قريش بالخلافة، من بني هاشم وغيرهم؛ وتؤكد هذا النفي عبارة (وإن تأمر عليكم عبد). وعلى الرغم من ذلك فلنا - من خلال نصوص الروايات - بعض التساؤلات حول ما قيل عن أحقية قريش بالخلافة:

علمنا سابقاً أن المسلمين انقسموا، في اجتماع سقيفة بني ساعدة حول تحديد هوية الخليفة إلى اتجاهات ثلاث:

- الأنصار: وقد طلبوا أن تكون الخلافة فيهم. ولما لم يوافق المهاجرون على ذلك، عرضوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير.

- المهاجرون من غير بني هاشم: حصروا الخلافة بقريش. وقد جاء في خطبة أبي بكر الصديق، في أثناء اجتماع السقيفة ما يلي: "إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش..."^(٣).

- المهاجرون من بني هاشم: ومنهم علي بن أبي طالب، لم يحضروا اجتماع السقيفة بسبب انشغالهم بدفن النبي. وتخلّف علي عن بيعة أبي بكر ستة أشهر. وعلى الرغم من تأخره بالمبايعة فقد حرص على التصريح بأحقية بالخلافة.

أما بالنسبة لإقناع فريق من الأنصار بأحقية قريش بالخلافة، فإننا نحسب أن ما قاله أبو بكر، حول هذا الحق، ليس هو الذي أقنع فريقاً من الأنصار بالمبايعة، وإنما الشقاق، الذي دبّ بين الأوس والخزرج - أكبر عشيرتين في المدينة - لأسباب عشائرية، هو السبب الذي حسم الموقف لصالح البيعة لأبي بكر. هذا السبب يشكك، أيضاً، بما جاء عند ابن حزم، الذي حسب أن رجوع الأنصار عن المطالبة لأنفسهم بالخلافة كان بسبب اقتناعهم بما قاله أبو بكر: "إلى أن الأمر لا يكون إلا في قريش" أولاً؛ وهم يقرّون و يقرّأون - كما يحسب ابن حزم -

(١) التروى: شرح الأربعين حديثاً النبوية: م. س: ص ٨٦.

(٢) م. ن: ص ٨٤.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (٢م): م. س: ص ١٠٣.

قوله تعالى: ﴿ لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا... ﴾ (الحديد ٥٧ : ١٠) ^(١) ثانياً.

لم يستعن أبو بكر بأي حديث للرسول لكي يثبت أحقية قريش بالخلافة، وإنما أعاد سبب أحقية قريش لعرف سائد عند العرب "إن العرب لا تعرف..."، في الوقت الذي كثرت فيه الأحاديث المنسوبة للرسول، والتي نحسب أنها نُجِلَّت فيما بعد، وإلا لكان أبو بكر قد استعان بأحدها، أو لكان سعد بن عبادة الأنصاري، الذي لم يبايع أبا بكر ولو على نصل السيف، قد سمع عنها. أو لو سمعها الأنصار من الرسول لما كانوا طالبوا أن تكون الخلافة فيهم.

وبالإجمال لو كان ثمة نص لما خفي على الأنصار، خاصة وأن أسباب نشره وانتشاره كثيرة. وقد نُقِلَت عن الرسول عدة روايات عن الحديث المذكور، ومنها، كما رواها مسلم: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم".

: "الناس تبع لقريش في الخير والشر".

: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس إثنان".

: "إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة. ثم [قال الراوي] تكلم بكلام خفي عليّ. فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش" ^(٢).

وهنا لا بُدَّ من أسئلة/تساؤلات:

- لماذا لم يدعم أبو بكر خطبته بأحد هذه الأحاديث نقلاً عن الرسول وهذا أقوى حجة، وإنما دَعَّم خطبته بما جرى العرف عليه عند العرب؟

- استخدم ابن حزم نص الآية: (الحديد ٥٧ : ١٠) لكي يبرّر اقتناع الأنصار، والأنصار هم من الذين شاركوا بالفتح، وتشملهم الاستفادة من إنجازات نصها، كما تشمل المهاجرين الأوائل على حد سواء. لكن المستغرب أن ابن حزم لم يطبق نص هذه الآية حينما أحدث توازناً بين علي ومعاوية، وهو لم يحسب حساباً دقيقاً أن الآية لا تساوي بينهما، فعلي أنفق وقاتل قبل الفتح؛ أما معاوية فقد أعلن إسلامه بعد فتح مكة - أي في السنة التاسعة للهجرة - فكان فتح مكة، إذاً، سابقاً لإسلام معاوية!!

واستطراداً: تدل هذه الآية/النص دلالة قاطعة على أن علياً أحق بالخلافة من معاوية. فهل أخطأ الصحابة، الذين بايعوا معاوية، وقد أصبح واضحاً أنهم خالفوا النص؟ وما هو حكمهم إذا اجتهدوا حول نص محكم؟

(١) ابن حزم: الفصل في الملل... (ج ٤): ٢٠٠ م. س: ص ٢٣٧.

(٢) صحيح مسلم (ج ٥): ٢٠٠ م. س: ص ٢ - ٣.

بعد أن كشفنا على بعض النصوص، التي استدلت منها بعض فقهاء السُّنة على نفي وجود نص باستخلاف أحد؛ وإنه على الرغم من وجود حديث يجمعون عليه، وهو في الوقت ذاته ينقض اعتقادهم بنفي النص على الخلافة - وهو ليس شرطاً أن يكون النص له علاقة باستخلاف آل بيت الرسول - ينتقل السنة إلى مرحلة انتقاد الشيعة فيما ذهبوا إليه بوجود نص على استخلاف علي بن أبي طالب وآل بيت الرسول.

﴿ يقول ابن كثير: "وأما ما يفتره كثير من جهلة الشيعة والقصاص والأغبياء من أنه [أي النبي] أوصى إلى علي بالخلافة، فكذب وافتراء عظيم يلزم منه خطأ كبير، من تخوين الصحابة وممالاتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه، وحرفهم إياها إلى غيره، لا لمعنى ولا لسبب. وكل مؤمن بالله ورسوله، يتحقق أن دين الإسلام هو الحق، يعلم بطلان هذا الافتراء، لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة، التي هي أشرف الأمم بنص القرآن، وإجماع السلف والخلف في الدنيا والآخرة، والله الحمد" (١).

﴿ ويقول ابن حزم أن المدافعين عن علي بن أبي طالب، يتهمون الذين لم يبايعوه بأنهم: "لم يعترفوا قط بالخطأ على أنفسهم في تأخرهم عن بيعته. قالوا [رداً على أنصار علي]: فإن كان فعلهم خطأ فهو أخف من الخطأ في تأخر علي عن بيعه أبي بكر. وإن كان فعلهم صواباً فقد برئوا من الخطأ جملة" (٢).

النصوص التي تُعبّر عن رأي الشيعة.

أما الشيعة فيعتقدون بوجود نص علي وجوب تأمير علي بن أبي طالب وذريته من فاطمة بنت الرسول. ومن جملة هذه النصوص، نعيد التذكير ببعض ما ورد منها في فقرات سابقة من هذا البحث:

﴿ قال رسول الله في خطبة الوداع: "فإني قد تركت فيكم ما إن أهتديتم به لم تضلوا: كتاب الله وأهل بيته" (٣).

﴿ بعض النصوص التي وردت في هذا البحث حول صفات علي يمكن القاريء أن يعود إليها في أماكنها.

﴿ النص - الاحتمال، من خلال رزية يوم الخميس، والذي حصل تناقض في تأويل الروايات حولها بين السنة والشيعة، ويمكن العودة إليها في موقع سابق من هذا البحث.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج٧): م. س: ص ٢٢٦.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل... (ج٤): م. س: ص ٢٣٥.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج٣): م. س: ص ٢٢٨.

→ تأويل عدد من نصوص القرآن، سنعود إليها في موقع لاحق من هذه الفقرة في هذا البحث.

→ يروي ابن الأثير رواية تدلُّ - إن صحَّت - على ملابسات/مبهمات، بحث عنها الفرق الإسلامية لتدعيم عقائدها الخاصة بالخلافة/الإمامة. أما الرواية فهي التالية:

قال عمر بن الخطاب لابن عباس: "يا بني عباس، أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد ﷺ؟ قال ابن عباس: إن لم أكن أدري فإن أمير المؤمنين يدريني. فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، فتبجحوا على قومكم ببحاً ببحاً. فاختارت قريش لأنفسها فأصابته ووقفت. أجاب ابن عباس: أما قولك: اختارت قريش لأنفسها فأصابته ووقفت: فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله، لكان الصواب يلها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: إنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوماً بالكراهة، فقال: ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ (محمد ٤٧: ٩). قال عمر: إنك تقول، إنما حرفوها عنك حسداً وبغياً وظلماً. هيهات، هيهات، أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً لا يزول. فأجاب ابن عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين، لاتصف قلوب قوم، أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، بالحسد والغش. فإن قلب رسول الله ﷺ من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عني يا ابن عباس. فأجابه: يا أمير المؤمنين إن لي عليك حقاً، وعلى كل مسلم، فمن حفظه فحفظه أصاب، ومن أضاعه فحفظه أخطأ^(١).

→ ويروي ابن الأثير، أيضاً: عندما طلب عبد الرحمن بن عوف (الحكم في مسألة اختيار خليفة بعد عمر) البيعة لعثمان، قال علي: ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا. والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك...^(٢).

وتثار هنا أسئلة/تساؤلات حول مسائل عدة، لها علاقة بالأسباب التي دفعت مسألة الإمامة/الخلافة إلى دائرة المبهمات الغامضة:

- ما هو السبب الذي من أجله أحجم الرسول - من بعد أن كان يريد أن يفعل - عن كتابة الكتاب، وقد طلب من أصحابه أن يعطوه الورق والقلم؟
- لماذا فوت بعض الصحابة، وأولهم عمر بن الخطاب وأبو بكر والأنصار، الفرصة على بني هاشم عامة، وعلي بن أبي طالب خاصة، من الاشتراك في اجتماع السقيفة، حيث عملوا منه على مبايعة أول خليفة يتولى أمر المسلمين من بعد وفاة الرسول؟

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٢م): ٢. م: ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٢) م. ن: ص ٤٦٤.

- ما هو السبب الذي لأجله بايع علي بن أبي طالب البيعات الثلاث لمن سبقه من الخلفاء، في الوقت الذي يعرف فيه - كما يحسب الشيعة - أن الكتاب والسنة قد نصّا على أنه هو الخليفة بعد الرسول، وليس أحداً غيره؟

لقد قمنا بانتقاء مجموعة من النصوص، عن عدد من فقهاء الشيعة، والتي يحسبون أنها أجوبة على مثل تلك التساؤلات:

﴿ يقول عبد الحسين شرف الدين: "أين كان الإمام [علي بن أبي طالب] من السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعته ليحتج عليهم [على الصحابة]؟ وأنى يتسنى الاحتجاج له أو لغيره بعد عقد البيعة، وقد أخذ أولو الأمر والنهي بالحزم، وأعلن أولو الحول والطول تلك الشدة؟". يتابع - شرف الدين - فالناس "كافة يعلمون أن الإمام وسائر أوليائه من بني هاشم وغيرهم، لم يشهروا البيعة، ولا دخلوا السقيفة يومئذ..." (١).

فهل اختار صحابة الرسول الشورى في تعيين الخليفة قبل مبايعته؟

﴿ يقول هاشم معروف الحسني: "ولو فرض أن الرسول ترك اختيار الخليفة من بعده إلى المسلمين - كما يدعون - لكان من اللازم التريث بينما يتهمون [بنو هاشم] من مواراة الرسول في قبره واختيار رأي الأكثرية من المسلمين، ولكنهم أرادوا استغلال موقف علي وبني هاشم المفجوعين، مخافة أن تفوت من أيديهم عندما ينتهي علي (ع) ومن معه من بني هاشم وثقات الصحابة الذين ألهتهم تلك الفاجعة عن كل شيء" (٢).

﴿ ويقول محمد مهدي شمس الدين، إن ما يمتاز به علي بن أبي طالب من أخلاقية وصفات لا يتفق معها الطمع بالوصول إلى السلطة: "ومن المؤكد أن الحكم عنده لم يكن مطلباً شخصياً، بل وسيلة إلى بلوغ غاية تتجاوز الأشخاص والأجيال والمصالح الخاصة، لتعم وتشمل ما بقي من عمر الدنيا، وما تضره القرون المقبلة من أجيال في كل الأوطان، وفي كل الأمم" (٣).

﴿ وفي المقابل كانت حال الأمة في وضع لا تحسد عليه، سواء اهتزاز إيمان المسلمين وانقسامهم إلى طامعين بالحكم وزاهدين به؛ أو الظروف المحيطة التي تزيص بها الدوائر - يقول شرف الدين - لذلك فإن: "السلف الصالح لم يتسن له أن يقهرهم يومئذ على التعبد بالنص فرقاً من انقلابهم إذا قاومهم، وخشية من سوء عواقب الاختلاف في تلك الحال... فأشفق في تلك

(١) شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات: م. س: ص ٢١٢.

(٢) الحسني، هاشم معروف: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: دار القلم: بيروت: ١٩٧٨: ط ١: ص ٢٦.

(٣) شمس الدين، محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٨٥: ط ١: ص ١٦٨.

الظروف أن يُظهرَ إرادة القيام بأمر الناس مخافة البائقة وفساد العاجلة، والقلوب على ما وصفنا، والمتفقون على ما ذُكر... وأهل الردة... والأمم الكافرة... والأنصار قد خالفوا المهاجرين...^(١).

فمن يتصف بمثل ما عند علي - يتابع شرف الدين - سيكون حريصاً أشد الحرص على مصلحة الدعوة الإسلامية. لهذا : "دعاه النظر للدين إلى الكف عن طلب الخلافة، والتجافي عن الأمور، علماً منه أن طلبها والحال هذه يستوجب الخطر بالأمة والتغريب بالدين، فاختر الكف إثارة للإسلام، وتقديمًا للصالح العام، وتفضيلاً للأجلة عن العاجلة"^(٢).

وكان لعلي بن أبي طالب أسوة حسنة بالرسول ﷺ ، عندما عدل عن كتابة كتاب للمسلمين لن يضلوا بعده، وذلك ضناً بمصلحة الدعوة الإسلامية - يتابع شرف الدين: "وإنما عدل [الرسول] عن ذلك، لأن كلمتهم [كلمة عمر بن الخطاب] تلك التي فاجأوه بها [إنه يهجر] اضطرتته إلى العدول، إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده في أنه : هل هجر فيما كتبه - والعياذ بالله - أم لم يهجر..."^(٣).

أو لم يستند الشيعة إلى النص - في قولهم - بوجوب إمامة علي بن أبي طالب وذريته من بعده، استناداً إلى الحديث النبوي: إني قد تركت فيكم ما إن اهتديتم به لم تضلوا: كتاب الله وأهل بيته...^(٤)

أفلا يعتقد الشيعة، اعتقاداً راسخاً، أن الرسول أراد من الكتاب الذي أراد أن يكتبه - في أثناء مرضه - أن يؤكد على النص السابق؟

فعلي بن أبي طالب، إذاً، لم يكن مُخيراً بولايته كسي يقبل الولاية أو يرفضها. فإذا كان مُخيراً، فالشورى على الرغم من صَوَرِهَا تُعدُّ صحيحة وسليمة. أما إذا كانت ولايته منصوباً عليها في القرآن والسنة النبوية، نصاً مُحْكَمًا، فلا حيرة له، إذاً، في أن يعتزل إذا كان من الواجب الديني أن يدافع عن النص.

الخلاف السني - الشيعي في ميدان التأويل والتفسير.

في معرض الخلاف الدائر بين السنة والشيعة، حول هذه المسألة، تدخل معركة التأويل والتفسير لعدد من آيات القرآن. فليس للحصر بل للإستدلال، سنقتلّم بعض النماذج حول تلك الخلافات:

→ جاء عند النيسابوري حول تفسير الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥)، ما يلي: "قِيلَ إِنَّ الصَّحَابَةَ

(١) شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات : م . س : ص ٢٨٢.

(٢) م . س : ص ٢٨٢.

(٣) م . س : ص ٢٨٧.

كانوا عند نزول الآية مختلفين في هذه الصفات، منهم من قد أتم الصلاة، ومنهم من دفع المال إلى الفقير، ومنهم من كان بعد الصلاة راکعاً؛ فنزلت الآية على وفق أحوالهم". لكنهم اختلفوا حول من هو الشخص المقصود، أو من هم المقصودون منهم. "روى عكرمة أنه أبو بكر... وعن ابن عباس أنه علي. . وعن عبد الله بن سلام قال لما نزلت هذه الآية: قلت يا رسول الله أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه على محتاج وهو راکع فنحن تتولاه... وعن أبي ذر: جاء سائل إلى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فجذف على الحاضرين، وكان علي راکعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم فرآه النبي ﷺ... فقال: اللهم اجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به أزري. وما أتم النبي ﷺ كلامه حتى نزل جبريل فقال: يا محمد اقرأ: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا... ﴾. فاستدلَّت الشيعة بها على أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب. وفسّروا بأن الولي هو الوالي المتصرف في أمور الأمة... لكن آخرين قالوا: بل المراد بالولي هنا الناصر والمحب" (١).

- ومن يحمل هذه الروايات يتمسك الشيعة برواية أبي ذر (٢).

- ويرى الخوارزمي، أيضاً، أن الآية المذكورة نزلت في علي (٣).

→ ينقل النيسابوري، من جهة أخرى، عن فخر الدين الرازي، حول تفسير الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه... ﴾ (المائدة: ٥٤). وقد جاء في تأويلها عند الشيعة أن المقصود فيها علي بن أبي طالب. فيقول الرازي: "هذه الآية من أدلِّ الدلائل على فساد مذهب الإمامية، لأن الذين اتفقوا على إمامة أبي بكر كأنهم أنكروا نصّاً جلياً على إمامة علي (ر)، ولكان كلهم مرتدّين. ثم لجاء الله بقوم تحاربهم وتردّهم إلى الحق. ولما لم يكن الأمر كذلك، بل الأمر بالضد، فإن فرقة الشيعة مقهورون أبداً، حصل الجزم بعدم النص" (٤).

ولنا كلمة...

- يُؤمر النبي بالتبليغ: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة: ٦٧) وعلى الرغم من ذلك، وهو المأمور

(١) النيسابوري: (غرائب القرآن...): راجع، الطبري، هامش: جامع البيان... (ج ٦): م. س: ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف (٣م): م. س: ص ٨١ - ٨٢.

(٣) الخوارزمي: الكشاف (ج ١): م. س: ص ٦٢٤.

(٤) النيسابوري: (غرائب القرآن...): راجع، الطبري، هامش: جامع البيان... (ج ٦): م. س: ص ١٦٦.

بالتبليغ، يعدل عن كتابة الكتاب الذي طلب لأجل كتابته الورق والقلم، والسبب في ذلك الخوف من فتنة تقع في صفوف الأمة الإسلامية.

- كانت بيعة أبي بكر الصديق فلتة - بدون تدبر وتمهل - وقى الله الأمة الإسلامية شرها. أي أن الأمة كانت قاب قوسين أو أدنى من الفتنة. وكانت هذه المسألة من الخطورة أن حذر الشهرستاني منها كل من يفكر بالعودة إلى مثلها، لأنه "من عاد إلى مثلها فاقتلوه".

- ويستخلف أبو بكر عمر بن الخطاب فيقول: "خفت عليهم من الفتنة...". إذ لو لم تكن الأمة الإسلامية - حينذاك - على مثل ما وصفها به أبو بكر الصديق، لما كان قد قال ما قال.

- ولدت في عهد عثمان بن عفان أكبر فتنة عرفتها الأمة الإسلامية، منذ وفاة الرسول، وفيها أقدم مسلمون على قتل خليفة الإسلام في وضوح النهار. وهل ما حصل إلا ما توقع به الرسول، ومن بعده أبو بكر، ومن بعده عمر؟

- وهذا علي بن أبي طالب يخشى، ويمتنع عن الإلحاح في طلب حقه بالخلافة المنصوص عليه - كما يحسب الشيعة - خوفاً من الفتنة التي خشي من وقوعها سابقوه. ولما وليها وقعت الفتنة تلو الفتنة في قلب الأمة الإسلامية.

بين وجود النص القرآني المأول؛ والنص المحتمل أن يكون بعض الصحابة قد منع الرسول من كتابته، كما يعتقد الشيعة؛ وبين غياب أي نص حول خليفة الرسول، كما يعتقد أهل السنة؛ إستند المسلمون الأوائل في اختيار أول خليفة لهم عن طريق الشورى الضيقة والفتوية، فكانت فلتة وقى الله المسلمين شرها، بُويع فيها لأبي بكر. من كل هذه الأسباب، التي شككت فاتحة وسابقة أصبح من العسير تبديلها، إبتداءً بالإسلام مسيرة طويلة، لم تكن ملائمة بالورود، وإنما كانت ملائمة بالأشواك والدماء أيضاً.

نحن ندري أننا لن نعيد التاريخ لنحاكمه في سبيل أن نحكم لهذا أو لذلك بالحق والإصابة، أو أن نحكم على الآخر بالباطل والخطأ... فنحن ندري، أيضاً، أن ذلك لن يجدي نفعاً إلا بالقدر الذي يسهل فيه الحوار في سبيل ردم ثغرات التاريخ الغابر بما يدفعنا للإستفادة منه في عصرنا الحاضر.

نحن ندري أن غيرنا، بعشرات الآلاف، حاولوا إعادة إحياء التاريخ لتصويب أو تخطئة هذا أو ذاك، لكنهم ماتوا ولم يحققوا شيئاً، ولم يتفقوا على وضع الحق في نصابه؛ بل على العكس من ذلك فإن المشكلة/الإشكالية بقيت عالقة ومستمرة وحيّة إلى الآن. فقد ولدت الإشكالية وما زالت إشكالية.

فمن آثارها السلبية أنها أبقت الفرقة والبعد والاضطراب والفتن طالما بقيت هذه المسألة ماثلة في نفوس الواقفين على حائط المبكى، فما الحائط قد رمته دموع السابقين، ولن ترممه دموع

اللاحقين. فالفناعات والاعتقادات نشأت وعاشت مسلّماً/مقدسات، أو فلنقل إن السلف أسبغ على معظمها صفة التقديس؛ وسوف تستمر الحال على هذا المنوال، ما لم تفصل ما يمكن أن يكون مقدساً عن كل ما نتوهم أنه مقدس.

سقطت الضحايا بالملايين على مذبح الصراع في سبيل إثبات صحة مواقف هذا أو ذاك من صحابة الرسول أو من مواقف التابعين أو تابعي التابعين، والكل يمتشق - في دائرة الصراع - سلاح النص، فيجد كل طرف ما يؤيد اعتقاداته. ولم ينتج الصراع إلا مزيداً من النصوص، ومزيداً من الدماء والأحقاد والضغائن.

أصبح من أهم همومنا، في ظل الفتن التي مزّقت الإسلام في الماضي والتي مازالت تعمل على تمزيقه في العصر الحاضر، أن نستدل من خلال البحث والتنقيب والمناقشة لعلنا نجد فائدة لنا ولمن اتخذ من الحوار سبيلاً للوصول إلى الحقيقة. وسيكون من مهمتنا أن نفتش عن المسافة التي تفصل بين تطبيق النصوص وبين أهواء وأوهام النفوس من جهة؛ وبين علاقة النصوص بمصلحة عباد الله الذين سخر لهم ما في السموات وما في الأرض من جهة أخرى. وبهذا تحولت أهواء النفوس بالمسلمين إلى التفتيش عن الفرقة الناجية من النار من بين الثلاث والسبعين فرقة التي نص عليها حديث نُسب إلى الرسول. وبواسطته انتقل المسلمون من مرحلة التكفير الإفرادي إلى التكفير الجماعي.

الفصل الثالث

إفتراق الأمة سياسياً

(مقدمات تاريخية وسياسية للعصرين الأموي والعباسي)

تمهيد

بعد اغتيال علي بن أبي طالب، آخر خليفة راشدي، حصل فراغ في القيادة السياسية - الدينية للدولة الإسلامية، على الرغم من مبايعة فئة من المسلمين لمعاوية بن أبي سفيان قبل مقتل علي. فجاءت عملية الاغتيال لتحسم إشكالية المبايعة لخليفتي في آن واحد - علي ومعاوية - لتُفرِّخ إشكاليات كثيرة مشابهة لها.

كان الفريق المؤيد لعلي قد أنهك من جراء خوضه سلسلة من المعارك المتواصلة: حرب الجمل - حرب صفين - حرب الخوارج، في الوقت الذي كان فيه معاوية وفريقه مرتاحاً نشطاً ممسكاً بأمور مؤيديه وطاعتهم له.

صبَّ هذا الوضع في مصلحة معاوية، الذي استطاع - فيما بعد - أن يزيج الحسن بن علي عن طريقه - وهو الخليفة الذي بُويِعَ بعد اغتيال والده. ولما لبَّى معاوية شروطاً طلبها الحسن منه في مقابل تنازله عن الخلافة إليه، عمل معاوية على التخلص منه بواسطة السم ونجح في ذلك. لم تكن المبايعة لمعاوية نهاية لنشاط حركة المعارضة ضد العهد الأموي، لأن تراكمات المرحلة السابقة قد ولّدت طوائف متعارضة متناحرة فيما بينها، وتجمّعها روح العداء للأمويين من جهة؛ وتفرّق عن بعضها لأسباب عقيدية وسياسية من جهة أخرى. فطُبِعَ الربع الأول من

العهد الأموي بطابع الصراعات - الفتنة، وعمّت هذه الصراعات مختلف القوى المعارضة للأمويين: تارة بين بعضها البعض، وتارة أخرى بينها وبين الأمويين.

سالت، في هذه الصراعات، الدماء الغزيرة، وأزهقت أرواح عشرات الألوف من المسلمين؛ ولم يسجل العهد الأموي انتصاراً حاسماً على أطراف المعارضة، حتى وإن استطاع أن يقضي على عدد منها؛ فحركة الخوارج - مثلاً - واصلت القتال طوال العهد الأموي، تقريباً، على الرغم من أنها أصبحت منهوكة القوى؛ وأما الأطراف التي كانت موالية لعلّي خاصة وبني هاشم عامة، فاستمرت بالعمل السري - لأسباب عقيدية - سياسية في سبيل تقويض العهد الأموي؛ وقد نجحت بالفعل في عملها.

فمنذ العهد الأموي تحوّلت الشورى/ البيعة/ الاستخلاف/ شورى نخبة النخبة/ بيعة الأمر الواقع، إلى ملئ عضوض يتوارثه الأبناء عن الآباء بطريقة ما يُسمّى بالعهد. واستمرّ الحال على هذا المنوال طوال العهدين الأموي والعباسي.

نشأت في هذه الأجواء معارضة مُتصلة ومتواصلة، في العهدين معاً؛ لكنها بلغت أقصى مستويات نضجها في العصر العباسي؛ ولم يكن من سلاح - لدى السلطة والمعارضة - أمضى من سلاح النص الديني.

عكفت شتى التيارات على النص لتستفيد منه في معاركها، ولما لم يكن النص شاقياً في أمور كثيرة، أكثر التيارات كلها من النحل على النص وفيه وله تارة، وكانت تارة أخرى تؤوله وتفسره، آخذة مصالحها وأهوائها مقياساً للنحل والتأويل والتفسير. فكانت كل فئة/فرقة تعمل في سبيل تدعيم أسس معارضتها، على صياغة نصها على أسس دينية. ولأن المعارضة كانت معارضات، والسلطة كانت سلطات، كان النص الديني سلاحها الفعّال والأقوى، فبدأت الأمة مسيرتها نحو التشتت والتمزق إلى فرق دينية - سياسية.

في المقابل كانت السلطة قد دخلت معترك الحرب الموجهة ضدها، ومن أهم أسلحتها كان النص الديني جاهزاً لخدمتها. وكانت هي الأقدر على دخول دائرة النحل والوضع في النص، والأقدر على تكفير الخصوم وملاحقتهم ومحاكمتهم. فانفتحت الحرب على مصراعيها بلباس ديني - سياسي.

أدّت الحرب السياسية - الدينية، وبالتالي حركة الفتوحات الإسلامية الواسعة، خدمات جُلّي للحركة العلمية في تلك المرحلة، فبلغت أوجها في العصر العباسي، لأن خزائن الحضارات الأخرى انفتحت أمام الحاجة العقلية والفكرية للنخب الإسلامية من عرب وغيرهم، ومن هنا

استفادت حركة الصراع الديني - السياسي من نتاج هذا الانفتاح، وشملت الاستفادة المعارضة والسلطة على حد سواء.

لم تكن حركة الصراع الديني - السياسي المستفيد الأوحده، بل إن حركة الانفتاح على الفكر الآخر دفع العقل العربي - الإسلامي نحو دائرة النشاط، وأخذ يُعطي ثماره في إنتاج عقولٍ عربية - إسلامية منفتحة، التي بدورها أخذت تتطلع إلى النص الديني بانفتاح وحرية وواقعية. وبهذا انطلقت حركة العقل المتكون الناشيء من دوائر الشك بحثاً عن اليقين لكن على قاعدة التوفيق بين العقل والنقل. منذ تلك اللحظة أخذ التاريخ الفكري الإسلامي والعربي يتعرّف على مرحلة التأسيس لدور العقل بشكل متواز ومتوافق مع النص، أحياناً؛ ومفترق عنه أحياناً أخرى.

وهنا انفتحت آفاق صراع جديد بين العقل والنقل، بين الفلسفة والدين؛ إلا أن العقل لم يستطع الصمود طويلاً، خاصة وأن أصحاب النقل رموا - بحماية من السلطة السياسية - بكل ثقلهم في الصراع من جهة، ولأن الأمة أصيبت بالتفتت والضعف السياسيين من جهة أخرى؛ فتغيّرت اتجاهات السلطة إلى مناحٍ أخرى... فماتت هي وتقهقر معها دور العقل.

I - العصر الأموي:

(٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦٢ - ٧٥٠م)

تولّى الخلافة أربعة عشر خليفة من بني أمية. وكان معاوية بن أبي سفيان هو مؤسس الدولة الأموية، فأحدث في نظام الخلافة الإسلامية المتعارف عليه في عهد الخلافة الراشدة، تطوراً جديداً، إذ تحولت الخلافة، في عهده، من عرف شورى النخبة والاستخلاف والعهد، إلى ملك عضوض يتوارث فيه الأبناء الخلافة عن آبائهم.

كان مقتل علي بن أبي طالب على يد الخارجي ابن ملجم في ١٧ من رمضان من العام (٤١هـ/٦٦٢م)، قد أزال عبئاً نصيباً عن كاهل المسلمين - وهو لن يكون الأخير - وهو إشكالية مبايعة خليفتين في آن واحد: علي ومعاوية. إلا أن ذلك لن يعفي المسلمين من إشكالية امتناعهم عن تطبيق النص الذي نُقِلَ عن الرسول، والوقوف، في سبيل تطبيقه بجرأة من يُضحّي بالغالي والنفيس في سبيل واجبه الديني من جهة، ولأن هذه الإشكالية سوف تتكرر طوال سنوات الفتن المسلحة، والتي غطّت معظم سنوات العصر الأموي من جهة أخرى.

واجه الأمويون سلسلة من الصراعات - الفتن مع قطاعات واسعة من المسلمين، كانوا يخوضون فيها الحرب لتثبيت الخلافة لهم: تارة بحد السيف، وتارة أخرى بالتهديد والوعيد، و تارة ثالثة بالتآمر بالسّم والاعتتيال.

أما نتائج هذا المسلسل فكان القضاء على بعضها في الربع الأول من عهدهم، واستمر بعضها إلى أواخر هذا العهد. فأما من قُضيَ عليه في المراحل الأولى فتحول، فيما بعد إلى ميدان العمل المعارض - سياسياً وعقائدياً. ولأن موضوع الصراعات - الفتن، التي أهرقت فيها دماء كثيرة بين المسلمين - له الأولوية في بحثنا بسبب من تأثيره البالغ في التاريخ الإسلامي لأنه أسس

لصراعات عقائدية - سياسية، ولأننا سوف نبحث هذا الجانب في المراحل اللاحقة، نرى أن نبدأ بمتابعة مسألة الصراعات - الفتن بجوانبها العسكرية.

لا بد من الإشارة إلى أن تلك الصراعات كانت متشابكة بين معظم أطرافها، إذ اختلط الصراع الأموي - الشيعي، بالصراع الشيعي - الزبيري، بالأموي - الخوارجي، بالخوارجي - الشيعي، بالخوارجي - الزبيري. وقد عبّرت الرواية التالية أصدق تعبير عن واقع الحال في تلك المرحلة: قال بعضهم بعد أن وصل رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان بن الحكم - الخليفة الأموي: "لقد رأيت في هذا الموضع عجباً رأيت رأس الحسين [شيعي] بين يدي عبيد الله بن زياد [أموي]. ورأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار [شيعي]. ورأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير [زبيري]. ورأيت رأس مصعب بين يديك" (١).

١ - الصراع - الفتنة الأموي - الشيعي:

بعد مقتل علي بن أبي طالب، بايع الناس ولده الحسن في رمضان من العام (٤٠هـ/ ٦٦١م). وقد بُيع لمعاوية في العام (٤١ - ٦٠هـ/ ٦٦١ - ٦٨٠م) من جديد في بيت المقدس. فتجددت الإشكالية القديمة: مبايعة خليفتين في آن واحد.

بدأت الأمور وكأن حروب الفتنة لن تنتهي. خرج معاوية إلى العراق لإخضاع الحسن. وفي المقابل جهّز الحسن جيوشه لمقاتلة معاوية (٢).

لقد خفّت حمى الحرب بعد صلح عُقَدَ بينهما. يروي ابن الأثير أن الحسن لما رأى أن الأمر قد تفرّق عنه، كتب إلى معاوية، وذكر شروطاً - في حال قبلها - سيتنازل له عن الخلافة (إعطائه أموالاً، وأن يمنع سب أبيه على المنابر...)، قبلها، ولكنه لم ينفذها جميعاً (٣).

أما السبب الذي كان من وراء تفرّق الأمر عن الحسن فقد أوضحها بنفسه في خطبة له أمام أهل الكوفة: "كنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودينكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان يطلبون بثاره، وأما الباقي فنحاذل، وأما الباقي فتأثروا..." (٤).

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): ٢. م. س: ص ٢٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣م): ٢. م. س: ص ٢٧١.

(٣) م. س. ن: ص ٢٧٢.

(٤) م. س. ن: ص ٢٧٢.

ولما سُئِلَ الحسن عن السبب الذي حمله على مبايعة معاوية، فقال: "كرهت الدنيا، ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد إلا غُلب. ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هواء."^(١)

أما بعض شيعة الحسن، ومن كان يرى رأي الخوارج، فقد قالوا: "كفر الحسن كما كفر أبوه من قبله". فشذُّوا عليه فنهبوا متاعه، وأرادوا أن يكون مصيره كمصير أبيه؛ فطعنه أحدهم بخنجر مسموم في فخذه، ولكنه لم يصب منه مقتلًا^(٢).

أما البعض الآخر فيقول إن تصرف الحسن كان سليماً، مستنداً إلى نص نُقِلَ عن الرسول، الذي كان قد أثنى على صنع الحسن في وأد الفتنة بين المسلمين، إذ قال: "إن إبنِي هذا سيّد، وإن الله سيصلح على يديه فئتين من المسلمين عظيمتين"^(٣).

تعددت آراء الباحثين واجتهاداتهم حول دوافع خطوة الحسن بالتنازل إلى معاوية: منهم من قال إن تخاذل أصحابه حوله قاده إلى هذه الخطوة. وبعضهم قال إنها عائدة إلى نصيحة له من جده الرسول بأنه سوف يُصلح بين فئتين عظيمتين. وبعضهم أيّدَه في خطوته تلك^(٤).

لكن الأمر لم يستتب لمعاوية بعد الصلح مع الحسن، لأن أنصار الحسن لم تُحلّ مشاكلهم بهذا الصلح. وحول ذلك يروي ابن الأثير أنه لما علم عبيد الله بن عباس "بما يريد الحسن من تسليمه الأمر لمعاوية، كتب إلى معاوية يسأله الأمان لنفسه على ما أصاب من مال وغيره، فأجابَه إلى ذلك"^(٥). وهكذا فعل أمير جيوش الحسن سعد بن قيس، إذ كتب إلى معاوية مشروطاً، لعقد الصلح معه، الأمان له ولشيعة علي على ما أصابوا من الدماء والأموال، فأعطاه معاوية ما سأل^(٦).

وفي العام (٤٩ هـ/٦٧٠ م) توفي الحسن مسموماً^(٧). وذُكِرَ أن امرأته جعدة بنت الأشعث سقته السُم؛ وقد كان معاوية دس إليها: أنك إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف

(١) م . ن : ص ٢٧٣.

(٢) الأصبهاني: مقاتل الطالبين: نقلاً عن: معروف، نايف: الخوارج في العصر الأموي: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨٦: ط٣: ص ١١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٢٧١.

(٤) معروف، نايف : م . س : ص ١١٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٢٧٤.

(٦) م . ن : ص ٢٧٠. راجع، أيضاً، الطبري: تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٨٤.

(٧) م . ن : ص ٣١٥.

درهم، وزوجتك من يزيد. فلما مات الحسن وقى معاوية لها بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه^(١).

كان دافع معاوية لقتل الحسن أن تخلو الساحة ليزيد؛ وكان قد مهد للحصول على البيعة له. وقد روت بعض كتب التراث أن البيعة ليزيد قد حصلت في العام (٥٦هـ/٦٧٦م): قال المغيرة بن شعبة لمعاوية: "يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء، والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له... [كي] لا تُسفك دماء، ولا تكون فتنة". ووعده بالحصول على تأييد أهل العراق^(٢).

أرسل المغيرة إلى معاوية وفداً ممن يعلم أنهم شيعة لبني أمية، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم. فقدموا إلى معاوية وزينوا له بيعة يزيد. فسأل معاوية موسى ابن المغيرة، الذي ترأس الوفد: "بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ فأجابه موسى: بثلاثين ألفاً. فأجابه معاوية: لقد هان عليهم دينهم"^(٣).

كتب معاوية إلى عماله بتقريظ يزيد، وأمرهم أن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار. ففعلوا. ورؤي أن يزيد بن المقنع العذري تكلم في اجتماع الوفود، فقال: "هذا أمير المؤمنين (وأشار إلى معاوية). فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد). ومن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه). فقال معاوية: إجلس فأنت سيد الخطباء"^(٤).

استطاع معاوية أن يحصل على البيعة ليزيد من أهل البصرة، وأهل الكوفة. وقصد المدينة فلقي اعتراضاً شبه شامل. فقال معاوية لرؤوس القوم، من أبناء الصحابة: "إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها، حتى يسبقه السيف إلى رأسه"^(٥). فبايع الناس خوفاً من القتل^(٦). وتسوفي معاوية في العام (٦٠هـ/٦٨٠م)^(٧).

(١) المسعودي: مروج الذهب (١م): م. س: ص ص ٧١٣-٧١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٣م): م. س: ص ٣٤٩.

(٣) م. ن: ص ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٤) م. ن: ص ٣٥٢.

(٥) م. ن: ص ٣٥٤.

(٦) م. ن: ص ٣٥٥.

(٧) م. ن: ص ٣٦٨.

حصل معاوية على البيعة لابنه يزيد (٦٠ - ٦٤هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤م) من أهل الشام والعراق والحجاز. أما بعد وفاته، فقد أرسل أهل الكوفة في طلب الحسين بن علي ليُسَلِّموا الأمر له^(١). وهكذا تمت بيعة أخرى لخليفته في آن واحد: يزيد بن معاوية، والحسين بن علي. لكن الحسين قُتِلَ في كربلاء على أيدي أصحاب يزيد، في العام (٦١هـ / ٦٨١م)^(٢)، في مجزرة طالت الأطفال، أيضاً، وأسیرت النساء من بيت آل الرسول. وقال عبد الله بن عباس، في رسالة إلى يزيد حول قتل الحسين، واستتصال أهل بيته: لقد قتل أصحابك الحسين "كأنما قتلوا أهل بيت من الترك والكفر"^(٣).

تجمّع بعض شيعة العراق في العام (٦٥هـ / ٦٨٥م)، بعد قتل الحسين، طلباً للثأر لدمه؛ لأنهم رأوا "أنه لا يغسل عارهم والإثم عليهم إلا قتل من قتله والقتل فيهم"^(٤)، وتطبيقاً للنص القرآني، الذي يدعو المسلم للتوبة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَرِّكُمْ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٢: ٣٧)^(٥). وزعموا عليهم سليمان بن صرد، الذي طلب منهم أن لا يتسرّعوا، لأنه - كما قال - "فرايت أن قتلة الحسين هم أشراف الكوفة، وفرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون كانوا أشدّ الناس عليكم". لذلك دعاهم، قبل أن يباشروا العمل، أن يجمعوا الناس من حولهم^(٦).

وفي الوقت ذاته جاءهم المختار الثقفي - كما ادّعى - برضى من "المهدي محمد بن الحنفية"^(٧). فاستقطب جماعة من أصحاب سليمان بن صرد^(٨). وقيل إنه جاء إلى الكوفة باتفاق مع ابن الزبير واعداء إياه بأن يستقطب الشيعة ليقاتلوا إلى جانبه^(٩).

-
- (١) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٢٣٩.
(٢) م . ن : ص ص ٢٢٩ - ٢٣٦. راجع، أيضاً : تاريخ يعقوبي (٢م) : م . س : ص ٢٥٤.
(٣) يعقوبي : تاريخ يعقوبي (٢م) : م . س : ص ٢٤٩.
(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٤٨٦.
(٥) يعقوبي : تاريخ يعقوبي (٢م) : م . س : ص ٢٥٧. وللمزيد من التفصيل راجع :
- المسعودي : مروج الذهب (٢م) : م . س : ص ٨٣.
- الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ص ٢٧٨ - ٢٨٤. و ص ص ٢٩٤ - ٣٠٦.
(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٤٨٨.
(٧) م . ن : ص ٤٨٩.
(٨) م . ن : ص ٤٩٥.
(٩) م . ن : ص ٤٩٥.

خرج سليمان بن صرد من قرقيسيا، ونزل في مكان يُسمَّى عين الوردية؛ فوجَّه مروان بن الحكم إليه من يقاتله؛ فالتحمت الفقتان، وسقطت القتلى من الطرفين في أكثر من موقعة، إلى أن قُتل سليمان وهُزِمَ أصحابه ^(١). وكان ذلك في العام (٦٥هـ/٦٨٥م).

لما قُتل سليمان بن صرد، قديم من بقي من أصحابه إلى الكوفة؛ وكان المختار الثقفي محبوساً، وأُفْرِجَ عنه بوساطة من عبد الله بن عمر. وفي العام (٦٦هـ=٦٨٦م) أعدَّ نفسه، وجمَّع الشيعة حوله، وكان قد ادَّعى أن محمد بن الحنفية أرسله إليهم ^(٢). ولما استوثقوا من صدق كلامه، تجمَّعوا حوله ^(٣). وخرج المختار ضد عبد الله بن مطيع، عامل ابن الزبير على الكوفة؛ واقتتل القوم، وانهزم أصحاب الزبير، ففرَّ ابن مطيع، وبايع الناس المختار ^(٤).

لما تجمَّع الشيعة من جديد بقيادة المختار الثقفي، نادوا: "يا لثارات الحسين بن علي؛ فواجههم عامل ابن الزبير على الكوفة؛ وكانت بينهما أشدَّ حرب وأصعبها. ولما هُزِمَ عامل الزبير بايع الناس لآل رسول الله؛ وعيَّن المختار عاملاً له على الموصل، فزحف إليه عبيد الله بن زياد، بعد أن كان قد قتل التَّوَّاب الأول سليمان بن صرد. لكن عامل المختار قتل ابن زياد، وحرَّقَ بدنه بالنار؛ وأرسل رأسه إلى علي بن الحسين في المدينة. ويُروى أن علياً لم يُرَ يوماً قط ضاحكاً منذ قُتل أبوه إلا في ذلك اليوم. تتبَّع المختار قتلة الحسين، فقتل منهم خلقاً عظيماً "وحرَّقَ بالنار، وعذَّب بأصناف العذاب" ^(٥). وكان من كبار الذين قُتلوا عمر بن سعد وابنه، الذي كان قائد الحملة التي قُتل فيها الحسين. وبعد أن قُتِلَا أُرسِلَ برأسيهما إلى محمد بن الحنفية ^(٦).

أما بعد مقتل المختار في العام (٦٧هـ=٦٨٧م)، على أيدي مصعب بن الزبير ^(٧)، انتهت الحركات العسكرية الشيعية، واستكانت. وأنه لما بُويع لعبد الملك بن مروان في العام (٦٥هـ/٦٨٥م)، ولما قُتل ابن الزبير، كتب محمد بن الحنفية يبيعه لعبد الملك، وليأخذ منه ميثاقاً لجماعته. فكتب عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف أن لا يتعرَّض لمحمد ولا لأحد من أصحابه. فلم يتعرَّض الحجاج لأحد من الطالبيين في أيامه ^(٨)، أي حتى العام (٩٥هـ/٧١٤م)، أي في

(١) م . ن : (٤) : ص ص ٣ - ١٠ .

(٢) م . ن : ص ٢٧ .

(٣) م . ن : ص ٢٩ .

(٤) م . ن : ص ٣٦ .

(٥) م . ن : ص ٢٥٩ . لمعرفة المزيد من التفاصيل، راجع: تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ص ٣١٦ - ٣٤٨ .

(٦) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٣٤٣ .

(٧) م . ن : (ج ٦) : ص ٣٧٠ .

(٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج ٤) : م . س : ص ١٨١ .

السنة التي توفي فيها الحجاج، وكانت إمرته علي العراق عشرين عاماً^(١). وقد اعتقد كثيرون من المسلمين أن الحجاج بن يوسف كان كافراً لأسباب كثيرة يرويها ابن عبد ربه^(٢). ويروى أن محمد بن الحنفية وابن عباس لم يبايعا عبد الله بن الزبير أو عبد الملك بن مروان فشرّداه. لكن ابن الحنفية بايع عبد الملك، بعد أن قُتل ابن الزبير، وبعد أن اجتمع الناس عليه^(٣). وهكذا همدت المعارضة الشيعية المعلنة للأمويين إلى أن برزت من جديد، في العام (١٢١هـ / ٧٣٩م)، حين خرج زيد بن علي بن الحسين يدعو لنفسه، ويأخذ البيعة من الشيعة في الكوفة^(٤)، على الرغم من نصيح البعض له بأن لا يقع في فخ وعود أهل الكوفة الكاذبة. لكنه خرج في أول ليلة من صفر من العام (١٢٢هـ / ٧٤٠م) وقد خلّله - فعلاً - بعض من بايعه^(٥). واقتلت جماعة زيد مع الحكم بن الصلت، والي الكوفة، ووقع قتلى كثيرون من الطرفين. وقُتل زيد في المعركة^(٦).

يروي المسعودي أنه في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) استشهد زيد بن علي بن الحسين في العام (١٢١هـ / ٧٣٩م) حينما عزم على المطالبة بالحق، فاتهمه هشام بأن نفسه تنازعه في الخلافة. فحاربه يوسف بن عمر الثقفي، فانهزم أصحاب زيد، وأُتخِن هو نفسه بالجراح، فمات متأثراً بها، ودُفِنَ سراً. لكن يوسف استخرجه من قبره وبعث برأسه إلى هشام، وصُلِبَ جسمه، وأمره هشام أن يحرقه ويذروه في الرياح^(٧).

٢- الصراع - الفتنة الزبيرية - الشيعي:

وجد ابن الزبير في استشهاد الحسين بن علي فرصة، فخلع يزيد بن معاوية. وأظهر البيعة لنفسه من داخل البيت الحرام^(٨). وهنا تظهر، إلى ساحة الصراعات - الفتنة، بيعة أخرى لخليفته في وقت واحد: يزيد بن معاوية، وعبد الله بن الزبير.

راجع، أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤م): م. س: ص ص ٥٤ - ٥٥.

(١) يعقوبي: تاريخ يعقوبي (٢م): م. س: ص ٢٩٠.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد (٥ج): م. س: ص ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٥م): م. س: ص ص ١٠٠ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١١١.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري (٧ج): م. س: ص ٨٧.

(٥) م. ن: ص ص ٩٢ - ٩٣.

(٦) م. ن: ص ص ٩٤ - ٩٥.

(٧) المسعودي: مروج الذهب (٢م): م. س: ص ص ١٨٩ - ١٩١.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري (٥ج): م. س: ص ٢٣٩. راجع أيضاً تاريخ يعقوبي (٢ج): م. س: ص ٢٤٧.

لما قُتلَ عبيد الله بن زياد (الأموي) سليمان بن صرد (الشيعة)، قَدِمَ من بقي من أصحاب سليمان إلى الكوفة؛ وكان المختار الثقفي محبوساً فيها؛ وأُفْرِجَ عنه بوساطة من عبد الله بن عمر. وفي العام (٦٦هـ/٦٨٦م) أعدَّ نفسه، وجمع الشيعة حوله^(١). وخرج المختار ضد عبد الله بن مطيع، عامل الزبير على الكوفة، واقتتل القوم، فانهزم أصحاب الزبير، وبايع الناس المختار^(٢).

ولما نُعِيَ يزيد بن معاوية، دعا الزبير إليه بني هاشم، فلم يبايعوه، فتحامل عليهم، وأظهر لهم العداوة والبغضاء حتى بلغ منه أن ترك الصلاة على محمد ﷺ في خطبته... وأخذ الزبير العديد من بني هاشم ليبايعوا له، فامتنعوا، فحبسهم في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو ليبايعنَّ أو ليحرقنَّهم بالنار. إلا أن المختار الثَّقَفي وجَّه إليهم جيشاً خلَّصهم من الحبس^(٣).

ولأن محمد بن الحنفية لم يبايعه إلا بعد أن يُجمِعَ الناس عليه، فقد شرَّده^(٤). ولما لم يكن بابن الزبير قوة على بني هاشم، أخرجهم من مكة^(٥). ثم وجَّه جيشاً إلى العراق بقيادة أخيه مصعب في العام (٦٨هـ/٦٨٨م)، فقاتل المختار الثقفي، وطال القتال بينهما. وكان عبيد الله بن علي بن أبي طالب في جيش مصعب؛ فاستغلَّ وجوده ليدعو إلى إبطال أحقية دعوى المختار بالدعوة إلى الأخذ بثار الحسين. ثم قتل المختار^(٦).

أما أصحاب المختار، وكان عددهم سبعة آلاف، فقد أعطاهم مصعب الأمان، إلا أنه نكث بوعده وضرب أعناقهم رجلاً رجلاً. ولم يتورع عن ضرب عنق زوجة المختار "فكانت أول امرأة ضُربَ عنقها صبراً"^(٧). وهكذا استراح الزبير، بلنوره، من جهة الشيعة، كما استراح الأمويون أيضاً.

٣ - الصراع - الفتنة الزبيرية - الخوارجي:

بعد أن تشدَّد الأمويون في ملاحقة الخوارج في العراق، تذاكروا في أمرهم، فأشار عليهم نافع بن الأزرق بالخروج إلى ابن الزبير في مكة، فلما رأوه على رأيهم جاهدوا معه، وإن لم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤م): ٢. م. س: ص ٢٧.

(٢) م. ن: ص ٣٦.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): ٢. م. س: ص ٢٦١. وراجع، أيضاً: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٣٥٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٥م): م. س: ص ١٠٠ و ١٠٨ و ١٠٩.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ٢٦٢.

(٦) م. ن: ص ٢٦٣. راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٣٧٠.

(٧) م. ن: ص ٢٦٤.

يكن يرى رأيهم فإنهم يدافعون عن بيت الله الحرام. فقدموا إلى عبد الله بن الزبير؛ فسُرَّ بمقدمهم، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية. فأحسَّ الخوارج، بعد موته، أنهم أخطأوا بقتالهم مع الزبير وهم لا يدرون لعلَّه ليس على رأيهم. حيثُذا قرروا امتحانه برأيه بعثمان بن عفان. لكن ابن الزبير امتدحه. فقالوا له: "بريء الله منك يا عدو الله. فقال: فبريء الله منكم يا أعداء الله". وتفرَّق القوم. فذهبت فئة منهم إلى البصرة، والفئة الأخرى إلى اليمامة.

فأما الفئة التي خرجت إلى البصرة، فكانت بزعامه نافع بن الأزرق، وكانوا يقولون: "لو خرج منا خارجون في سبيل الله، فقد كانت منا فترة منذ خرج أصحابنا، فيقوم علماءنا في الأرض فيكونون مصاييح الناس، يدعونهم إلى الدين، ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرب، فيكونون شهداء مرزوقين عند الله أحياء". وانتدبوا نافع بن الأزرق، فخرج بثلاثمائة رجل، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد، فكسروا أبواب السجون...

وبعد أن استتب الأمر لأهل البصرة، وخرج ابن زياد هارباً إلى الشام، تجرَّدوا للخوارج وأجلوهم عن مدبنتهم. فخرج ابن الأزرق ولحق به عبد الله بن صفار، وعبد الله بن إباح. ومنذ العام (٦٤هـ/٦٨٤م)، حصل الشقاق العقيد بين الخوارج: أي الأزارقة، والصفارية، والإباضية^(١).

وفي العام (٦٥هـ/٦٨٥م) اشتدَّت شوكة نافع بن الأزرق عندما اشتغل أهل البصرة بالاختلاف الذي حصل بين عشائر الأزد وربيعة وميم؛ فأقبل نحو البصرة، فدافع عنها أميرها حتى قُتل؛ وفي المقابل قُتل نافع بن الأزرق في هذه الحرب^(٢). وقد تدخل المهلب، عامل ابن الزبير على خراسان، في العام (٦٥هـ/٦٨٥م) فقاتل الخوارج في البصرة، وسقط منهم سبعة آلاف قتيل^(٣).

تابع أصحاب ابن الأزرق فنزكوا الأهواز؛ فولَّى ابن الزبير عامله المهلب بقتال الخوارج، ودفعهم عن البصرة. جرى القتال من موقع إلى موقع، وتساقطت القتلى، وأنهزم المهلب في مواقع حتى اقترب الخوارج من البصرة. فهاجمهم المهلب وقُتل أميرهم، فتشتتوا تجاه كرمان من أرض فارس. ثم عادوا فجمعوا أنفسهم وأمروا عليهم بجدة، وأغاروا على الجيوش التي

(١) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٥): ٢. س: ص ص ٢٨٤ - ٢٨٧.

(٢) ٢. م. ن: ص ٣٠٩.

(٣) ٢. م. ن: ص ٣١٣.

كان يرسلها ابن الزبير إلى البصرة، وأوقعوا بأصحابه. ثم رجع نجدة إلى اليمامة، ثم إلى البحرين، وكثر أصحابه. فأرسل مصعب بن الزبير إليه جيشاً قوامه أربعة عشر ألف مقاتل. فقتل منهم جمع غفير مما أخاف قائد الحملة. وبعث نجدة جماعة من أصحابه، على رأسهم عطية بن الأسود الحنفي، فاستولوا على اليمن، وأقاموا فيها شهراً. لكن عطية خالف نجدة وأتى كرمان فهزمه المهلب وقتله^(١). أما نجدة فتابع إلى صنعاء فأخذها. وأرسل أبا فديك إلى حضرموت وجبى صدقاتها^(٢). واختلف أصحاب نجدة حوله وولّوا أبا فديك، فلاحقه وقتله^(٣).

وفي العام (٦٨هـ/٦٨٨م) إقتل الأزارقة مع عامل ابن الزبير على فارس، وظفر بهم بسابور، ثم في إصطخر، ثم في تلمستان. فتوجّه الخوارج إلى البصرة، فاستعدّ لهم مصعب بن الزبير، وعامله على فارس. فشنّ الأزارقة الغارة على أهل المدائن، وقتلوا الولدان والنساء والرجال، وبقروا الحبالى. وفعلوا مثل ذلك في ساباط أيضاً^(٤). واستمر القتال أشهراً بين الطرفين، ولم يُحسم الأمر لأحد^(٥).

لما قُتل مصعب بن الزبير، بايع أصحابه عبد الملك بن مروان، فولّى أميرهم المهلب على إصطخر من أعمال فارس. وخرج أصحاب عبد الملك في طلب الأزارقة. لكن الأزارقة هزمهم^(٦). وتجمّع أصحاب عبد الملك من جديد بمساعدة المهلب - الزبيري سابقاً - وحشدوا ضد الأزارقة في الأهواز، وانتصروا عليهم دون أن يستأصلوهم^(٧).

غيّر الخوارج في العهد الزبيري "من أساليب حربهم واستراتيجية أهدافهم. فبعد أن كانوا يقاتلون كعصابات انتحارية لا أمل لهم في الغلبة والانتصار، صاروا يخوضون المعارك الكبيرة وجهاً لوجه. فيصمدون في ميادين القتال، ويهزمون ويهزمون. وبعد أن كانوا يكتفون بخلق المتاعب لنظام الحكم هنا أو هناك، صاروا يعملون على إسقاط هذا النظام في هذه المنطقة أو تلك، سعياً وراء إقامة دولتهم ورفع رايتهم. وما كان ذلك إلا بعد أن أصبحوا قوة لا يستهان بها. فالأزارقة استولوا على منطقة الأهواز، وأرض فارس وكرمان؛

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤م): ٢. م: ص ص ١٦-١٧.

(٢) م. م: ص ٢١.

(٣) م. م: ص ٢٣.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٦): ٢. م: ص ٣٧٥.

(٥) م. م: ص ٣٧٦.

(٦) م. م: ص ٣٩٧.

(٧) م. م: ص ص ٣٩٨-٣٩٩.

وشكّلوا - في بعض الأحيان - خطراً مباشراً على البصرة. والنجدية من جهة أخرى تمكّنوا من السيطرة على مناطق عديدة في الجزيرة العربية واليمن. ولكن ما يدعو للاستغراب أن كل جهة منهما كانت تعمل بمعزل عن الأخرى. ولو عملتا وفق خطة مشتركة لشكّلنا خطراً جدياً على أشد المناطق الإسلامية حساسية. وبذلك يمكن القول أن الانقسام المبكر في صفوف الخوارج، كان عاملاً مهماً وراء فشل مخططاتهم السياسية والعسكرية في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ وجودهم. وإذا كان الانقسام في صفوفهم قد شتت قواهم، فإن النزاع على الخلافة بين الزبيريين والأمويين كان عاملاً قوياً للخوارج في الوقت نفسه" (١).

٤ - الصراع - الفتنة الأموي - الزبيري:

استمر الصراع الأموي - الزبيري من العام (٦١١هـ/٦٨١م) إلى العام (٧٣هـ/٦٩٣م). بعد أن خلع الزبير يزيداً ودعا لنفسه، بعد مقتل الحسين بن علي في العام ٦١هـ، أصبح واضحاً أنه قد أراح يزيداً من قتال التوابين - الشيعة عندما قضى على المختار الثقفي، وعلى حركته.

تفرغ يزيد لقتال ابن الزبير، فأرسل مسلم بن عقبة إلى المدينة على رأس جيش قوامه إثنا عشر ألف مقاتل، وصرف لهم أعطياتهم كاملة بالإضافة إلى "معونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته". واستوصى خيراً بعلي بن الحسين. وقال لمسلم: "إدع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم؛ فإذا ظهرت عليهم أجحها ثلاثاً؛ فما فيها من مال...أو سلاح أو طعام فهو للجنّد" (٢). ولما دخل مسلم المدينة عنوة أباحها ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال (٣). وسميت وقعة الحرة، وحصلت في العام (٦٣هـ/٦٨٣م) (٤).

ومن جانب آخر "قدم الحصين بن غنم مكة، فناوش ابن الزبير الحرب فسي الحُرْم، ورماه بالنيران حتى أحرق الكعبة"، وكان ذلك، في العام (٦٣هـ) (٥). وقد تم إحراقها في العام (٦٤هـ)؛ قبل موت يزيد بتسعة وعشرين يوماً (٦).

(١) معروف، نايف: الخوارج في العصر الأموي: م. س: ص ١٥٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٢٤٤.

(٣) م. ن: ص ٢٤٨.

(٤) م. ن: ص ٢٤٩.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢م): م. س: ص ٢٥١.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٢٥١.

أُطْلِقَ عَلَى عَهْدِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِسْمِ الشُّؤْمِ: "فِي السَّنَةِ الْأُولَى قُتِلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَأَهْلُ بَيْتِ الرَّسُولِ. وَالثَّانِيَةِ اسْتَبِيحَ حَرَمُ رَسُولِ اللَّهِ، وَانْتَهَكَتْ حَرَمَةُ الْمَدِينَةِ. وَالثَّلَاثَةِ سُفِكَتِ الدَّمَاءُ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَحُرِّقَتِ الْكَعْبَةُ"^(١).

وَلَمَّا تَوَفَّى يَزِيدٌ فِي الْعَامِ ٦٤ هـ، أَرْسَلَ الْحَصِينَ بْنِ غَمْرٍ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ لِيَبَايِعَهُ فِي الشَّامِ. فَأَجَابَهُ أَنَّهُ لَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا قُتِلَ "بِأَهْلِ الْحَرَةِ أَمْثَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ"^(٢). وَنَدِمَ ابْنُ الزُّبَيْرِ - فِيمَا بَعْدَ - عَلَى رَفْضِهِ^(٣).

فَلَمَّا انْتَصَرَ حَصِينٌ إِلَى الشَّامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِقْنَاعُ ابْنِ الزُّبَيْرِ؛ وَكَانَ قَدْ بُوِيعَ لِمَعَاوِيَةَ بْنِ يَزِيدٍ فِي الْعَامِ ٦٤ هـ، فِي الشَّامِ، فَوَجَدَهُ قَدْ مَاتَ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ^(٤). وَقَدْ مَلَكَ مَعَاوِيَةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَقِيلَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرَ^(٥). وَيُرْوَى أَنَّهُ دُسَّ السُّمُّ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ طُعِنَ^(٦).

وَبَعْدَ أَنْ مَاتَ مَعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدٍ بَايَعَ أَهْلُ الشَّامِ كُلُّهُمْ الزُّبَيْرِ إِلَّا أَهْلُ الْأُرْدُنِّ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَهْلُ مِصْرَ. لَمْ يَرْضَ هَذَا رِجَالُ بَنِي أُمِيَّةَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ الشَّامِ، فَبَايَعُوا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ^(٧)، ثُمَّ لَخَالِدَ بْنَ يَزِيدٍ، ثُمَّ لَعَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ^(٨). وَهَذَا مِثَالُ آخَرٍ عَلَى مَبَايِعَةِ خَلِيفَتَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

أَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَبَايَعُوا لَابْنَ الزُّبَيْرِ: بَايَعَهُ الْبَصَرِيُّونَ تَخْلَصًا مِنَ النِّزَاعِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَدَفْعًا لَخَطَرِ الْخَوَارِجِ، وَتَفْضِيلًا لَهُ عَلَى مَرْوَانَ. وَبَايَعَهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ مِنْ أَجْلِ فَكِّ ارْتِبَاطِهِمْ بِبَنِي أُمِيَّةَ، وَثَارًا لِدَمِ الْحُسَيْنِ. وَهَكَذَا اجْتَمَعَ لَابْنُ الزُّبَيْرِ بَيْعَةُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ وَمِصْرَ^(٩).

لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الشَّامِ ابْنَ الزُّبَيْرِ اسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمُ الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ. فَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَبَايَعُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ وَلَا مَرْوَانَ، فَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي الشَّامِ عِنْدَ الضُّحَّاكِ "وَصَارُوا فِرْقَتَيْنِ: فَصَارَتْ

(١) الْيَعْقُوبِيُّ : تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ (٢م) : م . س : ص ٢٥٣.

(٢) م . ن : ص ٢٥٣.

(٣) الطَّبْرِيُّ : تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ (ج ٥) : م . س : ص ٢٥٣.

(٤) ابْنُ عَبْدِ ربه : الْعَقْدُ الْفَرِيدُ (ج ٤) : م . س : ص ١٧٦.

(٥) الْيَعْقُوبِيُّ : تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ (٢م) : م . س : ص ٢٥٥.

(٦) الطَّبْرِيُّ : تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ (ج ٥) : م . س : ص ٢٦٨.

(٧) ابْنُ عَبْدِ ربه : الْعَقْدُ الْفَرِيدُ (ج ٤) : م . س : ص ١٧٧.

(٨) الْيَعْقُوبِيُّ : تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ (٢م) : م . س : ص ٢٥٦.

(٩) معروف ، نَائِف : م . س : ص ١٣٥ - ١٣٦.

اليمانية مع بني أمية، والقيسية زييرية. ثم اجتلسوا بالنعال، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف^(١).

إستعدَّ الفريقان: الضحاك ومروان، فجمع كل منهما مؤيديه في مرج راهط، وكانت الغلبة في العدد تميل لصالح الضحاك. وبناءً لنصيحة عبيد الله بن زياد، كخدعة، دعا مروان الضحاك للمصالحة. ولما أمسك الضحاك مع القيسية عن القتال، فإذا بخيل مروان قد غشيتهم، فقتل الضحاك وتفرق أصحابه^(٢). و"قُتِلَ يومئذٍ من أشراف الناس، من أهل الشام ممن كان مع الضحاك، ثمانون رجلاً... وقتل أهل الشام يومئذٍ مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قط من القبائل كلها؛ وجاء برأس الضحاك رجل من كلب [من آل مروان]^(٣).

وبعيداً عن الشام والعراق، اندلعت فتنة في خراسان، بعد وفاة يزيد ومعاوية بن يزيد، عُرفت بفتنة عبد الله بن خازم، قُتِلَ فيها من بكر من وائل وحدها، يومئذٍ، ثمانية آلاف رجل^(٤).

أقبل مروان (٦٤ - ٦٥ هـ / ٦٨٤ - ٦٨٥ م) إلى دمشق ونزل الإمارة، ثم جاءته بيعة الأجناد. فقال له أصحابه أنهم لا يتخوفون إلا من خالد بن يزيد، ونصحوه بأن يتزوج من أمه "فإنها تكسره بذلك. ففعل"^(٥).

خرج مروان إلى مصر، فقاتل أهلها وسبى منهم ناساً كثيراً، فافتدوا منه^(٦). وهرب عامل مصر إلى ابن الزبير في الحجاز^(٧). فوجه مروان من يقاتل ابن الزبير. فطلب هذا مساعدة واليه في البصرة؛ فلقى جيش مروان، وقتلوا عامتهم، ولم يفلت إلا القليل^(٨).

لما عاد مروان إلى الشام من مصر، طالبه خالد بن يزيد بسلاح كان أعطاه له قبل خروجه إلى مصر، فأنكره مروان، وسب أمه قائلاً: "يا ابن رطبة الإست". فلما شكى خالد لأمه، ضمرت في نفسها شراً. ولما جاءها مروان بعد أيام، فرقد عندها "أمرت جواريتها فطرحن عليه

(١) ابن عبد ربه : العقد القرين (ج ٤) : م . س : ص ١٧٨.

(٢) م . ن : ص ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٣) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٢٧١.

(٤) م . ن : ص ٢٧٨.

(٥) ابن عبد ربه : العقد القرين (ج ٤) : م . س : ص ١٧٩.

(٦) م . ن : ص ١٧٩.

(٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (٢م) : م . س : ص ٢٥٧.

(٨) م . ن : ص ٢٥٦.

الوسائد، ثم غطته حتى قتلته، ثم خرجت، فصحن وشققن ثيابهن^(١). ويُروى أن مروان قُتل مسموماً على يد أم خالد^(٢).

كان مروان قد حصل على البيعة لابنه عبد الملك، ومن بعده عبد العزيز^(٣). فلما قُتل بايع الناس لعبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م)^(٤). وقد حصلت بيعته على الرغم من أن الناس كانوا قد بايعوا، سابقاً، لخالد بن يزيد، وعمرو بن سعيد بن العاص. وكان ابن الزبير ما زال على البيعة التي حصل عليها.

منع عبد الملك الناس من الحج، وذلك لأن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجّوا، بالبيعة، فاعترض الناس قائلين: "تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض من الله علينا". ف قيل لهم حديث منقول عن الرسول: "لا تشلّوا الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام البيت الحرام"^(٥).

ساد في هذه المرحلة متصارعان رئيسان: عبد الملك، وابن الزبير. لأن الشيعة - خصم الأمويين والزبيريين معاً - قد نجت حركتهم العسكرية، بعد استشهاد الحسين بن علي على أيدي الأمويين؛ وبعد مقتل المختار الثقفي على أيدي الزبيريين. وأما الخوارج - الخصم المشترك للجميع - فلم تستكن حركتهم. فبعد قتلهم للمختار الثقفي، وكفاية الأمويين شر قتاله، تابع الزبيريون ملاحقة الخوارج، فأجلاهم مصعب بن الزبير، وكانوا بقيادة نافع بن الأزرق، عن البصرة^(٦).

→ وفي العام (٧٠ هـ / ٦٩٠ م)، لما جهّز عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير في العراق، قال عمرو بن سعيد بن العاص: كان أبوك وعدني في هذا الأمر من بعده، وعلى ذلك جاهدت معه، فاجعل لي الأمر من بعدك، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء. فانصرف عنه عمرو راجعاً إلى دمشق واستولى عليها. رجع عبد الملك في إثره، واقتل القوم أياماً. إلا أن عمرو أراد أن يصطليح مع عبد الملك، فدخل عليه، فشدّ عبد الملك وثاقه. ولما طلب عمرو العفو عنه، أجابه عبد الملك: "ما اجتمع رجلان قط في بلدة على مثل ما نحن عليه، إلا أخرج أحدهما صاحبه". وعلى الرغم من كل الوساطات، فقد ذبح عبد الملك عمراً بيده. ورمى برأسه إلى الناس الذين

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): م. س: ص ١٧٩. وأيضاً: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٣٠٨.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢ م): م. س: ص ٢٥٧. وأيضاً: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٣٠٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (ج ٥): م. س: ص ٣٠٧.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (٢ م): م. س: ص ٢٥٨.

(٥) م. ن: ص ٢٦١.

(٦) م. ن: ص ٢٦٤.

تجمعوا لنصرته، فدخل أصحاب عمرو على بني مروان فجرحوهم. ويُروى أن عبد العزيز بن مروان ألقى المال إلى الناس، فلما نظروا إليه ورأوا الرأس، انتهبوا الأموال وتفرقوا^(١).

ولما ارتاح عبد الملك إلى هدوء الحال، سار بجيش لقتال مصعب بن الزبير في الأنبار؛ فكانت بين الفئتين حروب ووقعات، قُتل على أثرها مصعب، وأُتي برأسه إلى عبد الملك^(٢).

كان قطع الرؤوس، وإرسالها إلى الخلفاء والأمراء، أو إلى رؤساء المعارضة، قد أصبح عرفاً سائداً في تلك المرحلة. فهذا عامل يزيد بن معاوية على خراسان صار إلى طاعة الزبير، فقتله جماعة من أهل خراسان، وبعثوا برأسه إلى عبد الملك^(٣). وكان كلما خرج أحد على طاعته، يُقتل، ويُرسَل برأسه إليه^(٤).

وتعبّر الرواية التي نقلها اليعقوبي، أفضل تعبير عن واقع الحال الذي كان سائداً، فهو يقول أنه لما وصل رأس مصعب إلى عبد الملك، قال أحد الحاضرين: "لقد رأيت في هذا الموقع عجباً رأيت رأس الحسين بين يدي عبيد الله بن زياد. ورأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار. ورأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير. ورأيت رأس مصعب بين يديك"^(٥).

كانت مواقف المسلمين في البيعة للخليفة، أي خليفة، في ظل هذا الاقتتال - الفتنة، تتغير بسرعة اتجاهات السيف. وحول هذا الواقع يُروى أن عبد الملك، بعد أن قضى على مصعب بن الزبير، دعا المضياء بن علوان - كاتب مصعب - وقال له: "علمت أنه لم يبق من أصحاب مصعب، وبخاصة أهله، إلا كتب إلي يطلب الأمان والجوائز والصلوات والاقطاعات [فأجابه المضياء]: قد علمت يا أمير المؤمنين أنه لم يبق من أصحابك أحد إلا وقد كتب إلى مصعب بمثل ذلك. وهذه كتبهم عندي. قال: فحثني بها. فحثته بإضبارة عظيمة. فلما رآها قال: ما حاجتي أن أنظر فيها، فأفسد صنائعي، وأفسد قلوبهم عليّ. يا غلام أحرقها بالنار. فأحرقت"^(٦).

تحولت أنظار عبد الملك نحو الحجاز بعد مقتل مصعب بن الزبير، فوجّه الحجاج بن يوسف، في العام (٧٢هـ=٦٩٢م)، بعشرين ألفاً من أهل الشام إلى مكة. فدخل البيت بالمنجنيق، وتخاذل أصحاب عبد الله بن الزبير؛ فقال لهم: "أكلتم تمرى وعصيتم أمري". وقُتل

(١) الطبري: تاريخ الطبري (ج٦): م. س: ص ٣٨٢ - ٣٨٥.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (ج٢م): م. س: ص ٢٦٥. وأيضاً: تاريخ الطبري (ج٦): م. س: ص ٣٩٢.

(٣) م. س: ص ٢٧١.

(٤) م. س: ص ٢٧٩.

(٥) م. س: ص ٢٦٥.

(٦) م. س: ص ٢٦٦.

عبد الله بن الزبير في العام (٧٣هـ=٦٩٣م)؛ وصُلب ثلاثة أيام، وقيل سبعة. وقال عنه عبد الله بن عمر أن فيه ثلاث: إلحاد في الحرم، المسارعة إلى الفتنة، وبخل الكف^(١).

وهكذا كان العام ٧٣هـ، نهاية للصراع الأموي الزبيري. وقد قضى عبد الملك تسع سنين من عهده يقاتل فيها ابن الزبير^(٢).

لم تنتهِ الصراعات - الفتن، بين صفوف المسلمين فصولاً؛ لأن الخوارج، وعلى الرغم من أنهم لم يشكلوا خطورة، ولم يكن لدى الأمويين خوفاً من أنهم يستطيعون إسقاط نظامهم، خاصة وأن الزبيريين قد أنهكهم، إلا أنهم كانوا يشكلون إزعاجاً دائماً ومستمراً. كما أنهم كانوا نواة للمعارضة يُخشى من استفحالها إذا استعادت القوى المعارضة الأخرى نشاطها.

٥ - الصراع - الفتنة الخوارجي - الأموي:

كانت حركة الخوارج العسكرية ذات أهداف سياسية مدعّمة بالنص الديني. وإننا لأسباب منهجية، سنقوم بفصل الأسباب العقائدية عن المسيرة العسكرية - السياسية، حيث إننا سنعود إلى البحث في الجانب العقيدي في موقعه المناسب من هذا البحث، وذلك حينما نبحث مسألة الافتراق العقائدي - الديني في داخل الدعوة الإسلامية.

اتفق الخوارج، بشتى فرقهم، على مسلمات عقائدية دينية تقوم على تكفير علي وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس، والحكمين في معركة صفين، ومعاوية. فكانت هذه المسلمات تشكّل مرشد لهم لخوض الحرب ضد أي نظام سياسي إسلامي لا يوافقهم عليها. كان الجانب العسكري من تاريخ الخوارج في العصر الأموي "سلسلة من الثورات المسلحة، والحروب المتواصلة، التي لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف العناصر البشرية المتحاربة، وتبدّل مواقع القتال الجغرافية. فهو أشبه ما يكون بمسلسل حربي تعددت حلقاته، ومماثلت صورته، وكثر أبطاله"^(٣).

استمرت حركة الخوارج تقلق السلطة في كل من الكوفة والبصرة حتى نهاية عهد معاوية؛ وكانت تستهدف إزعاج نظام حكم بني أمية وإضعافه. وكانوا يخرجون في جماعات صغيرة لا تلبث أن تلقى مصيرها. ولكن على الرغم من الهزائم المتلاحقة، التي كانت تنزل بهم، فقد استمروا، ولم ينقرضوا لأنهم: "أناس نلّوا أنفسهم للموت في سبيل قضية ملكت

(١) م . ن : ص ٢٦٨ . راجع ، أيضاً: تاريخ الطبري (ج ٦) : م . س : ص ص ٤٠٠ و ٤٠٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٦) : م . ن : ص ٥٢١ .

(٣) معروف ، نايف : م . س : ص ١٠٨ .

مشاعرهم... ويبدو أن ذكرى مقتل أصحابهم في النهروان، التي كانت لا تزال آثارها ماثلة أمام عيونهم، ظلت عاملاً فاعلاً في تحريك عواطفهم للتضحية والفداء^(١).

كان للخوارج خصمان أساسيان، في تلك المرحلة، هما: شيعة علي، وأصحاب معاوية ومن بعده بني أمية. أما خصومتهم لابن الزبير فقد أصبحت غير ذات مغزى بعد مقتله في العام (٧٣هـ=٦٩٣م)، فهو لم يشكل فرقة دينية، ولا نظاماً سياسياً، لكي تستمر دعوته بواسطة، فالخصومة ضده ماتت بموته.

وأما خصومتهم لشيعة علي فقد استمرت بعد أن استكانت حركة الشيعة العسكرية، ولكنهم استمروا تياراً دينياً له عقائده ونصوصه ومريدوه، فالخوارج يفصلهم عن الشيعة تناقض شديد من بعد أن خرجوا على علي بن أبي طالب؛ فلأجل هذا السبب كان من الممكن أن تشتعل حالة الحرب بينهما في أية لحظة يستطيع الشيعة فيها أن يلتقطوا أنفاسهم.

أما استمرارهم في قتال بني أمية فلأن هؤلاء أسسوا نظاماً سياسياً يتوارث فيه الأبناء السلطة عن الآباء؛ لهذا عمل الخوارج على تقويض أسس هذا النظام من جهة، وعمل بنو أمية على الدفاع عن نظامهم بكل الوسائل المتاحة أمامهم من جهة أخرى.

لما استتب الأمر لمعاوية بعد أن بايعه الحسن، كان كثير من المسلمين قد سكتوا على مضض: إما لأن قادتهم تخلوا عنهم، وإما لأنهم أنفوا عن خوض حروب خاسرة، فانقادوا إلى معاوية بحكم الواقع المفروض.

أما الخوارج فلم يكونوا راضين عن معاهدة الصلح التي عقدها الحسن ومعاوية. فشعروا بالخطر على كياناتهم، لأن للفريقين المتصالحين مصلحة في القضاء عليهم^(٢). وكان الخوارج قد أعلنوا أن الحسن كفر كما كفر أبوه من قبله. وقبل أن يبرح الحسن من الكوفة، قالت الحرورية التي كانت اعتزلت بشهرزور: "قد جاء الآن ما لاشك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه"^(٣).

ولما تجمع الخوارج قرب الكوفة لقتال معاوية، طلب من الحسن أن يقاتلهم، فأجابته: "لو أثرت أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإني تركتك لصلاح الأمة وحقن دمائها"^(٤).

(١) م . ن : ص ١٣٠.

(٢) معروف ، نايف : م . س : ص ١١٤.

(٣) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٨٥.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٣م) : م . س : ص ٢٧٥.

وتغلب جماعة الخوارج على أصحاب معاوية^(١). لكن أهل الكوفة قاتلوهم بناء لطلب من معاوية، واستطاعوا القضاء عليهم في العام (٤١هـ/٦٦١م)^(٢).

فمنذ العام (٤٢هـ/٦٦٣م)، وبعد مقتل علي بن أبي طالب، حرّض حيان بن ظبيان السلمي، الذي كان يرى رأي الخوارج، على الدعوة "إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب". فإنه كما قال: "لا عذر لنا في القعود وولاتنا ظلمة، وسنة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يُظفرنا الله بهم نعهد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم. ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نُقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة"^(٣).

ولما اجتمعوا لكي يبايعوا أحداً منهم، أخذ ثلاثة من رؤوسهم يدفع الواحد منهم البيعة عن نفسه "فليس من الثلاثة رجل إلا قال لصاحبه تولّها أنت فإنني بك راضٍ، وإنني فيها غير ذي رغبة". وأخيراً بويع للمستورد التميمي^(٤).

وجه المغيرة بن شعبة - عامل معاوية على الكوفة - أهل الكوفة لقتال المستورد وأصحابه. وقد طلب منهم أن يُشركوا الشيعة في الجماعة التي سوف تقاتل الخوارج، لأنهم كما قال، هم "أشدّ استحقاقاً لدماء هذه المارقة وأجراً عليهم من غيرهم"^(٥).

وقال فيهم صعبعة بن سوحان، تحريضاً لأهل الكوفة: "لا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم وجماعة المسلمين، من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر... [فإن تعرفت بعضهم] تقرّبت إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دماءهم حلال"^(٦).

خرج المستورد في شعبان من العام (٤٣هـ/٦٦٤م) إلى المدينة ومكة واليمن، وقتل من قتل من المسلمين. وأقام الخوارج في المدينة شهراً يستعرضون الناس "ليس أحد ممن يُقال هذا أعان على عثمان إلا قتلوه"^(٧).

(١) م . ن : ص ٢٧٥.

(٢) م . ن : ص ٢٧٦.

(٣) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٥) : م . س : ص ٨٩.

(٤) م . ن : ص ٩٠.

(٥) م . ن : ص ٩٦.

(٦) م . ن : ص ٩٥.

(٧) م . ن : ص ٩٠.

ويُروى أن زياداً وابنه قتلوا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً، وحبس عبيد الله منهم أربعة آلاف^(١).

تواصلت مناقشات الخوارج ضد الأمويين طوال عهد معاوية، إلا أنه استطاع التقليل من خطرهم، وتقليص نفوذهم. ومما ساعده على مهمته، هو "ذلك الاستقرار الذي نعمت به الدولة الأموية بعد تنازل الحسن عن الخلافة، ثم حماس شيعة العراق في مقاتلة الخوارج. كما لا ننسى دور ولاية العراق، الذين استطاعوا بالشدة والعنف حيناً، والحكمة والحزم حيناً آخر، أن يحولوا دون تصاعد أمر هؤلاء الجماعة طوال عهد معاوية"^(٢).

وفي العام (٦٩٢هـ/٦٩٢م)، وبعد مقتل مصعب بن الزبير، بايع الزبيريون، بقيادة المهلب، عبد الملك بن مروان؛ وشاركوا أصحابه في قتال الأزارقة؛ لكنهم هُزموا في إصطخر من أعمال فارس. وانتصروا عليهم في معركة الأهواز من دون أن يستأصلوهم^(٣).

وفي العام ذاته خرج أبو فديك - أحد زعماء الخوارج - فدخل البحرين؛ وهزم الجند الذين بعثهم عامل عبد الملك لاستعادتها^(٤). إلا أن الحشد الكبير الذي بعثه عبد الملك في العام (٦٩٣هـ/٦٩٣م) إلى البحرين، أدى إلى قتل أبي فديك. وقُتل من الخوارج نحواً من ستة آلاف، وأسير ثمانمائة^(٥).

وفي العام (٦٩٤هـ/٦٩٤م) ولّى عبد الملك المهلب (الزبيري سابقاً) حرب الأزارقة^(٦). وفي العام (٦٩٥هـ/٦٩٥م) عهد عبد الملك ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف. وهذا بدوره طلب من المهلب أن يناهض الخوارج. فزحف إليهم وأجلاهم عن رامهریز من غير قتال شديد؛ فنزل الخوارج بسابور، فلاحقهم المهلب وعبدالرحمن بن مخنف، إلا أن الخوارج قتلوا عبد الرحمن^(٧). وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة. وكانت كرمان في أيديهم، فضاق عليهم مكانهم. واستطاع المهلب أن يُخرجهم عن فارس كلها، لكنه لم يستطع أن يقضي عليهم؛ فأمره الحجاج أن يستأصل شأفتهم؛ فقاتلهم ثمانية عشر شهراً، وعجز عن تنفيذ ما أُمِرَ

(١) م . ن : ص ٢٦٤.

(٢) معروف ، نايف : م . س : ص ١٣٠.

(٣) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٦) : م . س : ص ٣٩٦ - ٣٩٩.

(٤) م . ن : ص ٣٩٩.

(٥) م . ن : ص ٤٠٩.

(٦) م . ن : ص ٤١٠.

(٧) م . ن : ص ٤١٨.

به. وأخيراً وقع الخلاف بينهم فاقْتتلوا، ففترقوا، فضعفوا. وخرج قطري - أحد زعمائهم - بمن معه. وتدبر المهلب أمر الفئة الأخرى وقاتلها فاستأصلها^(١)، في العام (٧٧هـ/٦٩٧م).

وفي العام (٧٦هـ/٦٩٦م) خرج صالح بن مسرّح، لأن الجور قد فشا، وازداد ولاية بني أمية على الناس "غلوّاً وعتوّاً وتباعداً عن الحق، وجرأة على الرب". واستطاع صالح أن يهزم قوات محمد بن مروان أمير الجزيرة في سوريا^(٢). ثم تابع مسيره إلى الموصل، فلاحق به جيش مقداره ستة آلاف رجلاً، وهو بسبعين رجلاً، فاستطاعوا أن يهزموه، وقُتل صالح. وتابع بعده شبيب سيره إلى الكوفة؛ وفي طريقه إليها ضمّ إليه من ضم وهرب منه من هرب. فأرسل إليه الحجاج من يقاتله، فوقعوا في كمين أعدّه شبيب لهم. وتابع شبيب سيره إلى المدائن فاقتحمها، فأصاب دواباً وقتل جنداً؛ وتابع سيره إلى النهروان. ثم هزم قوة أخرى أرسلها الحجاج في طلبه. وتابع إلى تكريت، فأعدّ الحجاج لهم قوة من أربعة آلاف رجل؛ وكان مع شبيب مائة وستون رجلاً؛ وطالت المناوشة بين الفئتين مدة شهرين، واستطاع شبيب أن يوقع بهم؛ ثم عبر الفرات من ناحية بغداد باتجاه الكوفة. فسار في أثره ألفان من أصحاب الحجاج، والتقت الفئتان خارج الكوفة، فهُزم أصحاب الحجاج؛ وتابع مسيره نحو الحيرة، ولم يستطع أصحاب الحجاج أن ينالوا منه. وعاد إلى الكوفة ودخلها، وقتل من قتل، واتجه نحو القادسية. فأرسل الحجاج في طلبه ألفاً وثلاثمائة رجل فهُزموا. وتتابعت المعارك. وبدل على تابعها وعلى القوة التي كان يتمتع بها الخوارج ما قاله الحجاج للجموع من أهل الكوفة بعد أن أعياهم شبيب: "وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة، ومرة بعد مرة... وإني أقسم لكم بالله صادقاً، لئن عدتم لذلك لأوقعنّ بكم إيقاعاً، أكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه". وعلى الرغم من ذلك فقد هزم الخوارج، بقيادة شبيب، الكوفيين^(٣).

ودخل العام (٧٧هـ/٦٩٧م)، واستمر شبيب في قتاله ضد الحجاج، ودخل الكوفة ثانية. إلا أن غلاماً له يدعى حيّان طعنه طمعاً في الحصول على الأمان من الحجاج، لكنه لم يصب منه مقتلًا^(٤). وذكر أنه في هذا العام قد وقع الاختلاف بين الأزارقة أصحاب قطري^(٥).

وفي العام (٧٨هـ/٦٩٨م) هلك شبيب وقطري وعبد رب الكبير^(٦). وهم من أهم زعماء الخوارج في عصرهم. وإذا كان الحجاج والمهلب، بما أوتيا من بأس وجَلْد، قد استطاعا

(١) م . ن : ص ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢) م . ن : ص ص ٤٢٠ - ٤٢٣.

(٣) م . ن : ص ص ٤٢٤ - ٤٤٠.

(٤) م . ن : ص ٤٥٤.

(٥) م . ن : ص ٤٦٢.

القضاء على الأزارقة والصفورية معاً، وأخذوا حركة الخوارج، فإنه لم يُسمع بخروجهم طوال عهد عبد الملك. وكانت وفاة عبد الملك في العام (٨٦هـ/٧٠٥م).

وهذا موجز لأهم الأحداث التي جرت بين الخوارج وبين عدد من خلفاء بني أمية:
- إن استقرار عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ/٧٠٥ - ٧١٤م) سمح له باستئناف الفتوحات الإسلامية.

- وفي عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ/٧١٤ - ٧١٧م) كانت الخوارج لاتزال تلتزم جانب الخذر والسكينة، ولم يتشدد سليمان معهم.

- أما في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ/٧١٧ - ٧١٩م) فكان يتعامل معهم بالتساهل والحسنى، إلى أن ثاروا عليه في العراق؛ وبعد أن وجد منهم إصراراً، واجههم فانتصر عليهم. وكانوا قد نشطوا في عهده، وقادوا المعارضة، وكتلوا الناس حولهم.

- وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ/٧١٩ - ٧٢٣م)، فقد بادروا إلى قتال الكوفيين والحقوا الهزيمة بهم. إلا أن عامل يزيد جاء الخوارج بعساكر كثيرة، فقتلهم عن آخرهم. وأدت هذه الهزيمة إلى ضعف أمرهم لسنوات لاحقة.

- وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٣ - ٧٤٤م)، تحرك الخوارج بجماعات كان أخطرها حركة كثرارة^(١).

وانتهى أمر الخوارج في العصر الأموي، وانكسرت شوكتهم، ولم يعودوا يشكلون خطراً يُذكر على كيان الدولة الإسلامية فيما بعد؛ وكانت نهايتهم مقدمة لنهاية حكم الأمويين. وكانت ثورات الخوارج المتلاحقة، من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى سرعة زوال الأمويين^(٢).

٦ - المتغيرات على الصعيد السياسي - الديني:

كانت تراكمات الصراعات - الفتن، في العصر الأموي، على مختلف وجوهها، وبين مختلف القوى، نتيجة للتعبير عن أهداف سياسية، التجأ دعائها، من أجل تلك الأهداف، إلى تدعيم مواقفهم بالنص الإسلامي.

(١) م . ن : ص ٤٧١.

(٢) معروف، نايف : م . س : ص ص ١٧١ - ١٨٢.

(٣) م . ن : ص ١٨٣.

يقول طه حسين: "فقد أرادت الظروف ألا يستطيع العرب منذ ظهر الإسلام أن يخلصوا من هذين المؤثرين [الدين والسياسة] في لحظة من لحظات حياتهم في القرنين الأول والثاني"^(١). ويتابع قائلاً عن أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان يؤثر العصية على كل شيء، وقد ارتكب "وقعة الحرة التي انتهكت فيها حرمة الأنصار في المدينة، والتي انتقمت فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر، والتي لم تقم للأنصار بعدها قائمة. ولأمر ما يقول الرواة، حين يقصون وقعة الحرة أنه قُتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرًا، أي من الذين أذلوا قريشاً"^(٢).

في خضم هذه التطورات المليئة بالصراعات بدأت تتكون ملامح الانقسام الفرقي في داخل الدعوة الإسلامية:

لقد تجلّت الفرقة الشيعية، بعد أن تعمّدت بالدم لأكثر من خمس وثلاثين سنة، وتأسست فرقة الخوارج، أيضاً. وكان لكل من الفرقتين أهداف سياسية - دينية، عملت كل منهما لتحقيقها: الوصول إلى الخلافة؛ وتأسيس فكر ديني إسلامي يُدعم التطلعات السياسية. نشأت إلى جانب ذلك فرق أخرى تستند إلى النص الديني في مواكبتها لتطور الصراعات - الفن؛ لكنها لم تكن فريقاً مقاتلاً، وهي:

- فرقة القدرية: ونشأت في أثناء العصر الأموي، بعد أن بدأت ملامحها تتضح في العهد الراشدي. والقدرية تستند إلى مبدأ حرية الاختيار. كما أنها تتضمن بعداً سياسياً يطال حكم الأمويين. وفيها دعوة إلى الثورة عليهم واقتلاع ظلمهم^(٣).

- فرقة الجبرية: تقول إن الإنسان مجبور على أعماله، فهو لا قدرة له ولا اختيار. وإنما يخلق الله أفعاله^(٤). فكانت أفكار الجبرية سلاحاً دينياً في يد الأمويين للدفاع عن مواقعهم السياسية. فإنما الخلافة التي وصلت إليهم كانت أمراً من الله لا يد لهم فيه^(٥).

- فرقة المعتزلة: قالت حول مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين، مخالفة بذلك رأي الخوارج الذين قالوا أنه كافر. ورأي المرجئة الذين حكموا بأنه مؤمن، إذ جعلوا الإيمان مجرد

(١) حسين، طه: م. س: ص ١١٦.

(٢) م. ن: ص ١٢٣.

(٣) مروءة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية (ج ١): دار الفسارابي: بيروت: ١٩٨٠: ط ٣: ص ٥٦٤.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): م. س: ص ٨٧.

(٥) مروءة ن حسين: النزعات للمادية... (ج ١): م. س: ص ٥٦٤.

الاعتقاد الداخلي، وليس الإقرار باللسان أو الأعمال جزء من الإيمان. والمنزلة بين المنزلتين - حسب المعتزلة - أي في مرتبة وسط بين المؤمن والكافر؛ فليس هو، إذًا، بالمؤمن ولا بالكافر^(١). كسب الأمويون من أحكام المعتزلة، لأن المساواة بين علي ومعاوية في النقد يعتبرونه كسباً لمعاوية، لأن ذلك يجعلهما في ميزان نقدي واحد^(٢). أما على صعيد الفتوحات الإسلامية، فقد كشفت عن حاجة السلطة السياسية إلى الإجابة عن المشكلات الثقافية والحاجات العنصرية للداخلين في الدولة الإسلامية من غير العرب. وهكذا وُلِدَ الدافع عند النخبة من العلماء المسلمين إلى التفتيش عن حلول من داخل النص الإسلامي، والاستعانة بثقافات الشعوب الأخرى.

(١) م . ن : ص ٦٢٤.

(٢) أمين ، أحمد : فجر الإسلام : م . س : ص ٢٩٥.

II - العصر العباسي (١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م)

قيل لبعض بني أمية: وما كان سبب زوال ملككم؟ قال: اختلاف فيما بيننا، واجتماع المختلفين علينا^(١). وبهذا فقد أسهم عاملان رئيسان في إسقاط النظام الأموي: الصراع الأموي - الأموي. وتحالف المعارضة الشيعي العباسي.

١ - الصراع الأموي - الأموي :

استتب الأمر للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٤م) طوال عشرين عاماً؛ وحاول أن يحصل على البيعة لابنه مسلمة لكنه لم ينجح في ذلك^(٢). فخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٢٥ - ١٢٦هـ / ٧٤٤ - ٧٤٥م)، وكان خليعاً مدمناً للخمر^(٣). إلا أنه زاد أعطيات الناس، وعقد البيعة لإبنه: الحكم وعثمان، من بعده^(٤). وقد جاءت البيعة له من الآفاق، وكتب إليه العمال، وجاءته الوفود؛ وكتب إليه مروان بن محمد: "بارك الله لأمر المؤمنين فيما أصاره إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده"^(٥). لكن الوليد تابع سلوكه الماخن، السبب الذي أفسد عليه بني أمية أنفسهم، فرموه بالزندقة والكفر و غشيان أمهات أولاد أبيه^(٦).

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ج٤) : م . س ك ص ٢٢٩.

(٢) الطبري : تاريخ الطبري (ج٧) : م . س : ص ١٠٦.

(٣) م . ن : ص ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٤) م . ن : ص ١١٠.

(٥) م . ن : ص ١٠٩.

(٦) م . ن : ص ١١٧.

أخذ يزيد بن الوليد يطلب البيعة لنفسه، ويؤلب على الوليد بن يزيد^(١)؛ فبايع له أكثر أهل الشام^(٢). ثم دخل دمشق والوليد غائب عنها، فجمع كل منهما مؤيديه لمواجهة الآخر^(٣). ولما عاد إلى قصره في دمشق، قال الوليد مخاطباً الخارجين عليه: "ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ فردّ عليه أحدهم: إنا ما نتقم عليك في أنفسنا، ولكن نتقم عليك في انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أهلك"^(٤). ودخل جماعة يزيد على الوليد فقتلوه، وقطعوا رأسه^(٥).

بعد مقتل الوليد في العام (١٢٦هـ = ٧٤٥م) بويغ ليزيد بن الوليد بن عبد الملك. وثار أهل حمص، ودعوا إلى الطلب بدم الوليد. فواجههم يزيد وهزمهم وقتل منهم ثلاثمائة^(٦). ودعا أهل فلسطين والأردن إلى قتال يزيد فوجّه إليهم جيشاً، فلم يحصل قتال، فبايعوه^(٧). أما مروان بن محمد فقد كتب إلى أخ الوليد يطالبه بثار أخيه^(٨)؛ لكنه ما فتىء طويلاً حتى بايع يزيداً^(٩).

وبعد مقتل الوليد، اضطرب، في العام (١٢٦هـ / ٧٤٤م)، أمر بني أمية، وهاجت الفتنة: ➔ وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان محبوساً في عمان بأمر من الوليد؛ فخرج من الحبس، وأخذ ما كان بعمان من الأموال، وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد، ويعيبه بالكفر^(١٠).

➔ أغلق أهل حمص أبوابها وأقاموا النوائح، وهدموا دار العباس بن الوليد بن عبد الملك وسلبوه. ودعوا إلى الطلب بدم الوليد؛ وقتلوا من قتلوا، واقتلوا مع جماعة يزيد بن الوليد، فأنهزموا، فبايعوا^(١١).

➔ تمرّد أهل فلسطين وأهل الأردن، إلا أنهم بايعوا يزيداً^(١٢).

(١) م . ن : ص ١٢٠.

(٢) م . ن : ص ١٢١.

(٣) م . ن : ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٤) م . ن : ص ١٢٤.

(٥) م . ن : ص ١٢٦.

(٦) م . ن : ص ص ١٣٢ و ١٣٤.

(٧) م . ن : ص ١٣٥.

(٨) م . ن : ص ١٤٢.

(٩) م . ن : ص ١٤٩.

(١٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٤م) : م . س : ص ٤٨٧.

(١١) م . ن : ص ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

(١٢) م . ن : ص ٤٨٩.

→ إمتنع نصر بن سيار - عامل الوليد على خراسان - من تسليم عمله إلى منصور بن جمهور، عامل يزيد بن الوليد على العراق^(١).

→ حصل في اليمامة ما حصل في الأمصار الأخرى^(٢).

ولما توفي يزيد بعد خمسة أشهر، وقيل ستة أشهر بعد خلافته، في العام (١٢٦هـ/٧٤٤م)^(٣)، بويع إلى إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان في العام ذاته. لكن لم يتم له أمره "وكان يُسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة، فكان على ذلك أمره حتى قدم مروان بن محمد فخلعه" فمكث إبراهيم أربعة أشهر^(٤). إمتنع أهل حمص عن مبايعة إبراهيم، فبايعوا مروان بن محمد؛ فحشد الطرفان: إبراهيم و مروان، بمائة وعشرين ألفاً للأول، وثمانين ألفاً للثاني. وكثر القتل بينهم. فقتل سبعة عشرة ألفاً من جماعة إبراهيم، وأسير العدد ذاته أو ما يزيد عنه؛ ودخل مروان (١٢٧ - ١٣٢هـ/٧٤٥ - ٧٥٠م) دمشق، فبُويع له^(٥).

إنتفض في العام (١٢٧هـ/٧٤٥م) أهل حمص على مروان، فقاتلهم وقتل عامة من خرج عليه، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة. وكذلك فعل أهل الغوطة في دمشق، فاستباح مروان عسكرهم وأحرق المزة^(٦). وكذلك فعل أهل فلسطين، بقيادة ثابت بن نعيم، فانتصر عليهم أصحاب مروان؛ فأسروا ثابت مع أولاده الثلاثة؛ فقطعت أيديهم وأرجلهم، ثم صلبوا على أبواب دمشق^(٧).

بايع مروان لابنيه عبيد الله وعبد الله؛ واستقام له الشام ما خلا تدمر، فسير إليهم من قاتلهم، فهرب نفر منهم، وهدم سورها. وانفصل عن مروان عشرة آلاف من أهل الشام، ودعوا سليمان بن هشام إلى خلع مروان فأجابهم^(٨). واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من أهل الشام، فتصدى لهم مروان. واشتد القتال بينهما، وانهزم سليمان، وقُتل من أصحابه ما ينوف على ثلاثين ألف قتيل. فلجأ إلى حمص وبني ما هدمه مروان. وتجمع بعض من أصحابه،

(١) م . ن : ص ٤٩١.

(٢) م . ن : ص ص ٤٩١ - ٤٩٣.

(٣) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٧) : م . س : ص ١٥٠.

(٤) م . ن : ص ١٥١.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٥م) : م . س : ص ص ٣ - ٤.

(٦) م . ن : ص ٨.

(٧) م . ن : ص ٩.

(٨) م . ن : ص ٩.

فتعقبهم مروان وقتل منهم نحواً من ستة آلاف، وهرب سليمان إلى تدمر، ثم إلى العراق، وبايع الضحّاك، أحد زعماء الخوارج. وحاصر مروان حمص عشرة أشهر، وقصفها بالمنجنيق، وأغار أهالي حمص عليه؛ وأخيراً أنهى أمرهم، وتوجّه إلى قتال الضحّاك في العراق، فهزم أصحابه في أكثر من موقع^(١).

بايع أهل الموصل الضحّاك^(٢) في الوقت الذي كان فيه مروان يحاصر حمص، فأرسل مروان إلى ابنه عبد الله، فسار إلى الضحّاك بثمانية آلاف، لكن الضحّاك حاصره في نصيبين بمائة ألف؛ فسار إليه مروان في ماردین، وقُتل الضحّاك في العام (١٢٨هـ = ٧٤٦م)؛ فخلفه الخيري، فقُتل، وهُزم من بقي من أصحابه^(٣). وبايع الخوارج شيبان اليشكري، وبقي معه أربعون ألفاً، فانصرف إلى الموصل، فلحق به مروان وقاتلهم ستة أشهر وقيل تسعة. وانهزمت الخوارج في العام (١٢٩هـ / ٧٤٧م)^(٤)؛ لكنهم استمروا في القتال إلى أن وصل شيبان إلى سجستان، فهلك في العام (١٣٠هـ / ٧٤٨م)^(٥) على أيدي أبي مسلم الخراساني^(٦).

٢ - تحالف المعارضة العباسي - الشيعي :

أصبح من الواضح أن نظام بني أمية أخذ يترنح تحت وطأة الخلاف، الذي اشتدّت وتيرته في السنوات الأخيرة من عمره، بين أطراف النظام المؤثرة. وإن استطاع النظام الأموي أن يضع لمساته الأخيرة على إنهاء الصراعات العديدة المتداخلة، في الربع الأول من عهده، إلا أنه لم يستطع أن يخمّد غير السنة اللهيبي، بينما بقي الجمر تحت الرماد؛ وذلك لأن المعارضة - باستثناء حركة ابن الزبير - قد استقرت تحت أقنعة حركات سياسية سرّية، وفرق دينية تدعو لنفسها في الخفاء.

وقد تكون حركة الصراع الأموي - الأموي، التي اشتدّ لهيبها في السنوات الأخيرة من عمر النظام، قد شجّعت المعارضة السرية إلى البروز إلى العلن، خاصة وأن عودها قد اشتدّ بسبب انحياز حركة الموالي إلى جانبها. وهنا لا يمكن نسيان الدور غير المباشر للخوارج الذي

(١) م . ن : ص ص ١٠ - ١١.

(٢) م . ن : ص ٢١.

(٣) م . ن : ص ٢٢.

(٤) م . ن : ص ٢٥.

(٥) م . ن : ص ٢٦.

(٦) م . ن : ص ٤٦.

لعبوه في إضعاف البنيان السياسي والعسكري للنظام الأموي من خلال المعارك العسكرية المتواصلة التي أرهاقوه فيها.

في ظل الظروف الصعبة التي كان يعيشها النظام الأموي تزعم العباسيون حلفاً يضمهم مع شيعة علي في الكوفة، الذين كانوا يعملون على استعادة خلافة أبناء علي. وانضم إلى الحلف أهالي خراسان المؤمنين بالحق للملكي المقتدر، واستعادة أمجاد فارس، وثأراً لوضعهم الطبقي كموالي^(١). ويمكن الإشارة إلى أن خراسان أصبحت مقراً يلجأ إليه العرب الهاربون من وجه السلطة الأموية، وقد تزوج هؤلاء مع الفرس.

مرت الدعوة العباسية بالدور السري في الأعوام (١٠٠ - ١٢٧هـ/ ٧٢٠ - ٧٤٧م) إلى أن ابتداء دور الجهر والعلانية منذ العام (١٢٧هـ/ ٧٤٧م). وقد برز من زعمائها أبو مسلم الخراساني، وهو فارسي الأصل، وكان السواد الأعظم من مجندي دعوته من فلاحي فارس والموالي^(٢).

بعد أن همدت المعارضة الشيعية المسلحة، منذ مقتل المختار الثقفي في العام ٦٨هـ، بقيت الدعوة الشيعية السياسية - العقائدية ناراً تحت الرماد. لذا خرج زيد بن علي في العام (١٢١هـ/ ٧٤١م) على عامل هشام بن عبد الملك في الكوفة، بعد أن استحضر على البيعة لنفسه من أهل الكوفة، إلا أنه قُتل في العام ١٢٢هـ، وهرب ابنه يحيى إلى نينوى^(٣). وفي العام (١٢٥هـ/ ٧٤٥م)، قُتل يحيى بن زيد، فأحرق بالنار، وذُر رماده في الفرات^(٤).

→ وفي العام (١٢٤هـ/ ٧٤٤م) كان الأمويون يلاحقون أية دعوة تعمل ضدهم. فقام هشام بن عبد الملك بحبس جماعة كانت تدعو إلى ولد العباس في الكوفة^(٥).

→ وفي العام (١٢٦هـ/ ٧٤٦م) وجّه إبراهيم بن محمد، بعد موت أبيه محمد بن علي، الإمام أبا هاشم إلى خراسان حاملاً وصية أبيه. فبلغ الشيعة ما اجتمع لديهم من النفقات^(٦).

→ وفي العام (١٢٩هـ/ ٧٤٩م) قرّر بنو العباس إظهار دعوتهم بقيادة أبي مسلم الخراساني، ولبسوا السواد؛ وقدم إليه من يبايعه. وحصلت أول حرب بين أبي مسلم وجماعة نصر بن سيار، عامل مروان على العراق وخراسان^(٧).

(١) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج٣): م. س: ص ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) حتي، فيليب: تاريخ العرب: دار غندور: بيروت: ١٩٧٤: ط٥: ص ٣٤٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (ج٧): م. س: ص ص ٩١ - ٩٥.

(٤) م. ن: ص ١١٦.

(٥) م. ن: ص ١٠٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٤م): م. س: ص ٤٩٧.

دخل أبو مسلم إلى مرو - من أعمال خراسان - في العام (١٣٠هـ - ٧٥٠م)، وأمر بأخذ البيعة "بالطاعة إلى الرضا من آل بيت رسول الله"، وهرب نصر رافضاً الدعوة^(١). وأعمل أبو مسلم السيف بأصحاب نصر^(٢). ولما قُتل شيبان الخارجي على يد أصحاب أبي مسلم، وهرب نصر بن سيار من مرو، أصبحت خراسان في يد أبي مسلم^(٣).

→ وفي العام ذاته، دخل أبو حمزة الخارجي المدينة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً؛ ثم خرج إلى قتال مروان بن محمد في الشام؛ فوجّه مروان إليه جيشاً، بقيادة ابن عطية السعدي، فهزمهم في وادي القرى؛ وقُتل أبو حمزة، وانهزم بقية أصحابه إلى المدينة، فقتلهم أهلها. وتابع بن عطية إلى اليمن، وقتل عبد الله بن يحيى، طالب الحق لآل الرسول^(٤).

→ وفي العام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) أخذ مروان إبراهيم الإمام، فهرب أبو العباس إلى الكوفة، ولما وصل خبر مقتل إبراهيم، بُويع لأبي العباس^(٥).

وفي العام ذاته قصد مروان الزاب في مائة وعشرين ألفاً، وتجمع أصحاب أبي العباس؛ فحصلت مناوشات انتصر فيها أصحاب أبي العباس. وكان من غرق في نهر الزاب، من أصحاب مروان، أكثر ممن قُتل منهم؛ وغنم أصحاب أبي العباس سلاحاً كثيراً وأموالاً^(٦).

بعد أن هُزم مروان في الزاب، أخذ ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل مصر. تتبّعه صالح بن علي بأمر من أبي العباس، وكان الناس يبايعون العباسيين طوال الطريق الذي سلكه صالح. وأخيراً ظفر صالح بمروان في مصر، فقتله وأرسل رأسه إلى أبي العباس السفاح^(٧).

٣ - كيف اختتمَّ العصر الأموي، وابتدأ العصر العباسي؟

→ على مائدة عبد الله بن علي - قائد جيوش أبي مسلم - تجمع تسعون رجلاً من بني أمية. فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قُتلوا، وبسط عليهم الأنطاع؛ فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

(١) م . ن : ص ٤٤.

(٢) م . ن : ص ٤٥.

(٣) م . ن : ص ٤٧.

(٤) م . ن : ص ص ٥٠ - ٥١.

(٥) م . ن : ص ص ٦٣ - ٦٥.

(٦) م . ن : ص ص ٦٩ - ٧١.

(٧) م . ن : ص ص ٧٣ - ٧٥.

وأمر عبد الله بن بيش قبور بني أمية بدمشق: معاوية، ويزيد، وعبد الملك؛ لكنه وجد جثة هشام سليمة، لم ييل منها إلا أرنبه أنفه، فضربه بالسياط، وصلبه، وحرقه، وذرّاه في الريح. وتتبع عبد الله بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم؛ ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس، فقتلهم في نهر أبي فطرس... واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك.

→ وقتل سليمان بن علي جماعة من بني أمية في البصرة، وأمر بهم فجُروا بأرجلهم، وألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب^(١).

→ وفي العام (١٣٣هـ / ٧٥١م) قتل داوود بن علي من كان أخذ من بني أمية بمكة والمدينة^(٢).

→ ولكثرة ما قتل العباسيون من الأمويين وغيرهم، خرج شريك بن شيخ المهري بخراسان، في العام ١٣٣هـ، على أبي مسلم الخراساني ببخارى، ونقم عليه، وقال: "ما على هذا أتبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء. ونعمل بغير الحق". وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً، فوجه إليه أبو مسلم زياد الخزاعي، فقاتله وقتله^(٣).

→ وفي العام (١٣٤هـ / ٧٥٢م) قاتل خازم بن خزيمة أحد الخارجين على أبي العباس وقتل أكثرهم، فانهزم مع الباقين، فتبعهم خازم؛ وفي طريقه قتل خمسة وثلاثين من أحوال أبي العباس. وبدلاً من أن يقتل أبو العباس خازماً أرسله في طلب الخوارج، بقيادة شيان في البصرة - وهم صفرية - قصداً منه أن يدفعه لخطر الموت فيتخلص منه. فاقتتل معهم قتالاً شديداً فهربوا إلى عُمان. وهناك تصدّى للجلندي وأصحابه - وهم من الخوارج الإباضية - فاقتتلوا قتالاً شديداً سقط فيه شيان ومن معه. وأما الجلندي فقاتل خازماً وأصحابه، وكثر القتل في أصحاب خازم؛ إلا أنه في اليوم الثاني قُتل من الخوارج تسعمائة رجلاً؛ ثم أضرم خازم النار في بيوت أصحاب الجلندي، وفيها نساؤهم وأطفالهم. فقُتل الجلندي، وبلغ عدد من قُتل من أصحابه عشرة آلاف، بعث خازم برؤوسهم إلى أبي العباس^(٤).

٤ - الصراعات - الفتن في العصر العباسي .:

تتابعت أحداث الصراعات في داخل الدولة العباسية، منذ نشأتها حتى زوالها. وكانت هذه الأحداث، كمثيلاتها في العصرين الراشدي والأموي، دموية؛ إذ كانت تسقط فيها

(١) م . ن : ص ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٧) : م . س : ص ٢٣١.

(٣) م . ن : ص ٢٣١.

(٤) م . ن : ص ٢٣٣.

الضحايا بالمئات، وأحياناً بالآلاف، وأحياناً أخرى بعشرات الآلاف. وكانت الأحداث متواصلة ومستمرة، فإنه قلماً كانت تمر سنة واحدة من دون أن تكون ملوثة بالدم، ومزدهرة بالموتى، بل إن بعض السنوات كانت تشهد أكثر من فتنة.

إن المتتبع لتلك الأحداث، خاصة على صعيد إنجاز بحث محدود في حجم كتاب، على قاعدة المنهج المعرفي الاجتماعي، الذي يستند إلى الحدث - ووصفه وتحليله في سياقه التاريخي - كمادة رئيسة، سوف يُرهق من تجميع تلك الأحداث، ليس من حيث الجهد والعمل والوقت، وإنما من حيث شدة تزام هذه الأحداث وكثرتها. ويكفي أن نعرف أن العهد العباسي امتدَّ إلى مئات من السنين؛ وحيث أن الأحداث الدامية قد غطت تلك السنين كافة، لكي نستوعب حجم الصفحات التي سوف تفي بالغرض المطلوب.

في سبيل إنجاز هذا العمل، قمنا بجهد لم نكن نشعر به في أثناء بحثنا في العصور السابقة: الراشدي والأموي، إذ كان ما يميزهما أن مسرحهما كان ضيقاً في الحسابات الجغرافية، بينما كان يميز أحداث العصر العباسي، ما يلي:

- اتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية (من الصين شرقاً، حتى جنوب فرنسا غرباً) فيفصل شرقها عن غربها آلاف الكيلومترات.

- اتساع الأحداث، وكثرتها، وتعددتها.

- تنوع أسباب الأحداث: من دينية فرقية، إلى سياسية، إلى طبقية، فرقية... وكانت كلها تستند إلى نص ديني. وإذا ما استثنينا الصراعات التي كانت تحصل على ثغور الدولة الإسلامية - بين المسلمين وبين الدول المحيطة - وهي ليست من اهتمامات بحثنا، يبقى حجم الصراع كبيراً جداً، وأكثر من ملفت للنظر كونه كان يحصل بين أبناء الدولة الواحدة ذات الدين الواحد.

لوقام القاريء بتتبع كل تلك الأحداث، من خلال كتب التراث، لوجد أنها ستستهلك الوقت الكثير؛ وعلى الرغم من ذلك فإن فيها فائدة لأنها تُقرب الصورة بشكل أوضح إلى ذهن القاريء، وتلامس عقله وضميره بتأثيراتها الإنسانية، كما أنها تدفع إحساسه ووجدانه إلى تكوين أحكام أقرب إلى الموضوعية، لأنها تبين أمامه فداحة الإشكاليات التي كانت تحصل، ومدى تأثيراتها السلبية على وحدة الدولة الإسلامية وعلى وحدة الإسلام والمسلمين.

ولكي نستطيع تحقيق فائدة أكبر، ولكي يسهل علينا تقريب الصورة، حاولنا أن نقوم بمنهجية للبحث - حول أحداث العصر - تقوم على أسلوب تكثيف الحدث التاريخي من دون تجريده من المعطيات التي تُحدث أثراً في إحساس القارئ ووجدانه من جهة، وحاولنا أن نبتعد عن أسلوب الكتاب المدرسي، الذي يُجرّد الأحداث التاريخية من لباسها الحسي الإنساني من جهة ثانية؛ والابتعاد عن أسلوب السرد القصصي التاريخي، الذي يُغرق في التفاصيل المثيرة من جهة ثالثة. فعمادنا أن نُوفق إلى بلوغ ما نرمي إليه.

أما ما هو المقصود من مصطلح "العباسي"؟ وهل هو مصطلح محدد تحديداً دقيقاً؟ وهل له المنهج الواحد، دينياً وسياسياً واقتصادياً...؟

إننا نحسب أنه لم يكن يجمع عشرات الخلفاء العباسيين سوى مفهوم واحد هو المحافظة على استمرار الخلافة بين بني العباس، بحيث يتوارثها الأبناء عن الآباء، أي احتكار هذا الموقع السياسي بين الأخوة، أو بين أبناء الأعمام. وحتى هذا المفهوم كان يُؤلد صراعاً دائماً ومستمرًا بين بني العباس. فكان أحدهم يبايع الآخر ثم يعزله ليبايع آخر من داخل العائلة. وكانت عمليات التغيير غالباً ما تكون دموية. ومن أهم نماذج الصراعات في داخل الأسرة العباسية نقتطف أهمها، مما يلقي ضوءاً على ما كان يجري:

أ - الصراعات - الفتن العباسية - العباسية :

→ لما مات السفاح في العام (١٣٦هـ/٧٥٤م) ادّعى عبد الله بن علي - عم أبي جعفر المنصور - أن السفاح عهد إليه من بعده، وشهد له بعض أمراء العراق، فبايعوه. وتحصّن بجرّان، فبعث إليه أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني، فحاربه خمسة أشهر في نواحي الشام. وهزمه؛ فهرب عبد الله بن علي إلى البصرة، واختفى فيها إلى أن مات^(١) في العام (١٤٧هـ/٧٦٥م)^(٢).

→ في العام (١٩٤هـ/٨١٠م) خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد، وأمر بالدعاء إلى ولده في سائر البلاد. ثم آل الأمر بينهما إلى الشقاق فاحتفظ كل منهما ببلاده. كان المأمون أميراً على فارس، فحصنها وهيئ الجنود والجيوش، وتآلف الرعايا؛ وهزم المأمون جيوش الأمين^(٣). وفي العام ١٩٦هـ، عاد جيش المأمون إلى بغداد، بقيادة الحسين بن ماهان، الذي ألّب الفرس على

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٠) : م . س : ص ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) م . ن : ص ١٠٥.

(٣) م . ن : ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

الأمين وحُثِّم على القيام عليه. ولما واجهه الأمين هزم جيشه، وأخذ البيعة للمأمون. وانقسم أهل بغداد إلى فرقتين، فهُزِمَ حزب الأمين. أما الأمصار الأخرى فكانت تسقط أمام المأمون، ولم يبق للأمين إلا النزر اليسير، ودخل طاهر بن الحسين بغداد، فاشتدَّ الحال على أهلها، وثارَت الفتنة بين الناس، وجرت شرور عظيمة، وكثر الفساد والقتل^(١). وفي العام ١٩٧ هـ، ضاق الخناق على الأمين، ونُصِبَت المجانيق حول بغداد، وأُحْرِقَت محال كثيرة؛ ومُنِعَت الأغذية من الدخول إلى جانب الأمين، وجرت حروب كثيرة، كانت بعضها لصالح الأمين. واستمرت القلاقل والقتال والحريق والسرقات، ولم يبق أحد يرد على أحد كما هي عادة الفتن^(٢). وفي العام ١٩٨ هـ، ضاق الحصار على الأمين، واستطاعت جماعة طاهر بن الحسين، أن يذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه، وذهبوا برأسه إلى طاهر، وتركوا جثته، ثم سحبوها بذيل الفرس^(٣).

- وفي العام (٢٠٢ هـ/٨١٨ م) بُويع لإبراهيم بن المهدي - عم المأمون - ببغداد وخُلِعَ المأمون؛ وكان السبب أن المأمون بايع من بعده لعلبي بن موسى الرضا. ولما لم يستطع إبراهيم أن يؤمِّن أرزاق الجنود كثر النهب والسرقة^(٤).

وصل المأمون إلى العراق في العام ٢٠٣ هـ، ومات علي بن الرضا فجأة. فكتب المأمون إلى بني العباس يقول لهم: "إنكم نقمتم عليّ بسبب توليتي العهد من بعدي لعلبي بن موسى الرضا، وها هو قد مات، فارجعوا إلى السمع والطاعة". فأغلظ بنو العباس الجواب عليه. واستمرت الحروب في بغداد، وظهرت الفتن، وتفاقم الحال، واختلف الناس في إبراهيم والمأمون. وغلبت المأمونية، ودعا الناس للمأمون، وخلعوا إبراهيم^(٥). واختفى إبراهيم لست سنين إلى أن أُلْقِيَ القبض عليه في أحد أزقة بغداد، فعفا المأمون عنه^(٦). ومات في العام (٢٢٤ هـ/٨٣٩ م)^(٧).

→ وفي العام (٢٢٣ هـ/٨٣٨ م) أُقْنِعَ العباس بن المأمون أن يستولي على الخلافة من عمه المعتصم، فبايعه مجموعة من الأمراء. وقبل أن يفتك العباس بعمه - في أثناء اشتغاله بحصار عمورية - إنكشف أمره. فحبسه المعتصم، وانتقم من الأمراء الذين بايعوه، فقتل كل واحد

(١) م . ن : ص ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٢) م . ن : ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) م . ن : ص ٢٤١.

(٤) م . ن : ص ٢٤٩.

(٥) م . ن : ص ٢٤٩.

(٦) م . ن : ص ٢٦٤.

(٧) م . ن : ص ٢٩٠.

منهم بنوع لم يقتل به الآخر. ومات العباس متخوماً بعد أن أُطِعمَ بعد جوع شديد. وقُتِلَ في الصراع، أيضاً، جماعة من وُلد المأمون^(١).

→ وفي العام (٢٤٧هـ/٨٦٢م) قتل المنتصر والده المتوكل لأنه عزله عن ولاية العهد، ثم بايع لنفسه^(٢). وأكره المنتصر أخويه في العام ٢٤٨هـ، أن يخلعا نفسيهما من الخلافة، وبايع لابنه عبد الوهاب، لكنه مات في السنة ذاتها^(٣). فُبُويعَ للمستعين بالله، فخرجت عليه جمهرة من الأتراك، فالتفَّ حوله الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانتهت بغداد، وجرت فتن كثيرة^(٤).

→ وفي العام (٢٥١هـ/٨٦٥م) خرج المستعين بالله من سامراء إلى بغداد، فاضطربت الأمور بسبب خروجه. وفي بغداد وقعت فتنة شنعاء بين جند بغداد وجند سامراء. دعا أهل سامراء إلى بيعه المعتز، واستقرَّ أهل بغداد على المستعين. وأُخرجَ المعتز من السجن، فبايعه أهل سامراء، واستحوذ على بيت المال، وتحصَّن فيها ثم حاصر بغداد. وأخذ الطرفان يستجمعان الناس. وجرت بينهما حروب طويلة وفتن مهولة جداً، واستغرقت السنة بكاملها، فقُتِلَ من الطرفين خلق كثير. وكانت موازين القوى في بغداد بين مد وجزر. وأحدث حصار بغداد الجوع وضيق الحال^(٥). واستمر الصراع إلى أن خلع المستعين نفسه، وبايع للمعتز^(٦). عندئذ خلع المعتز أخاه إبراهيم من ولاية العهد وحبسه، فمات بعد خمسة عشر يوماً^(٧). وأرسل في طلب المستعين وقتله^(٨).

→ وفي العام (٢٥٥هـ/٨٦٩م) عجز المعتز بالله أن يدفع أرزاق الجنود، فطلب من أمه أن تعطيه مالاً، فرفضت. عذَّبه الجند حتى أجبروه على خلع نفسه؛ ووُلِّيَ بعده المهتدي بالله. ثم مارسوا عليه التعذيب بشكل أشد، فمات^(٩). وبعد مماته تبيَّن أن أمه تملك أموالاً طائلة^(١٠).

(١) م. ن : ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) م. ن : ص ٣٤٩.

(٣) م. ن : ص ٣٥٣.

(٤) م. ن : (ج ١١) : ص ٢.

(٥) م. ن : ص ٩.

(٦) م. ن : ص ١٠.

(٧) م. ن : ص ١١.

(٨) م. ن : ص ١١.

(٩) م. ن : ص ١٦.

(١٠) م. ن : ص ١٧. أنظر : تاريخ الطبري (ج ٩) : م. ن : ص ص ١٩٨ - ١٩٩.

→ وفي العام (٢٥٦هـ/٨٧٠م) قدم موسى بن بغا الكبير إلى سامراء مع جيش بناء لطلب المهدي. فأبطلوا باستقبالهم. فشكوا بخديعة. فأقاموه من مجلسه وانتهبوا ما كان في قصره، ثم أخذوه مُهاناً إلى دار أخرى. ولما اطمأن موسى أن المهدي لا يقف إلى جانب خصمه صالح بن وصيف، بايعه ثانية. وطلبوا منه تسليمهم بن وصيف، فلم يفعل، فأعدوا الكرة على إهائته. وكانت جراحة عظيمة على الخليفة، ويبدو أنها أصبحت عُرفاً. واستمر الأمر إلى أن قُتل المهدي^(١).

ب - الصراع - الفتنة بين الخلفاء وبين أعمدة سلطتهم:

بعد أن استقر الأمر لبني العباس، عملوا على تصفية حلفائهم. وكان الشك رائدهم في كل ما يحيط بهم، والقتل والتصفية كانا الحل الدائم. فأول شيء ابتدأوا فيه، كان القضاء على أهم أعمدة ثورتهم وسلطتهم، خاصة منهم الذين ساعدوهم ضد الأمويين.

→ أبو سلمة الخلال: كان أول من استقبل العباسيين الهاريين من الحميرية إلى الكوفة؛ وعلى رأسهم أبو العباس السفاح. وعمل على إخفائهم عن العيون. إلا أنه كان يريد تحويل الأمر إلى آل أبي طالب بعد أن بلغه الخبر عن موت إبراهيم بن محمد^(٢). فأصبح أبو سلمة متهماً عند آل العباس، الذين ظنوا أن ما فعله أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم. فطلب العباس من أخيه أبي جعفر المنصور أن يستوثق الأمر من أبي مسلم. لكنه استنكر ذلك، وأرسل إلى الكوفة من يقتل أبا سلمة ففعل^(٣).

→ أبو مسلم الخراساني: كان أبو جعفر المنصور يخشى أبا مسلم لما رأى من طاعة العساكر له - كيف لا والرجل من أهم القادة العسكريين على الإطلاق، الذين قدّموا أكثر الخدمات أثراً للعباسيين - فصارح أخاه السفاح، قائلاً: "لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً حتى تقتله". وامتنع السفاح عن ذلك^(٤).

ولما بُويغ للمنصور بالخلافة، بعد موت السفاح، كانت شكوكه قد ازدادت. فاستقدمه إلى العراق في العام (١٣٧هـ/٧٥٥م). فقتله وهو مائل بين يديه بعد استجواب طويل^(٥).

(١) م . ن : ص ص ٢١ - ٢٢.

(٢) الطبري : تاريخ الطبري (ج ٧) : م . س : ص ٢١٣.

(٣) م . ن : ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦. أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠) : ص ٥٣.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٠) : م . س : ص ٥٤.

(٥) م . ن : ص ص ٦٣ - ٦٦.

↔ نكبة البرامكة: كان البرامكة من أهم الدعائم السياسية لبني العباس، صداقة وقرابة وثقة. إلا أنه في العام (١٨٧هـ/٨٠٣م) كان فيها هلاكهم على يدي الرشيد. فقتل جعفر البرمكي، ودمر ديارهم واندست آثارهم، وذهب بصغارهم وكبارهم^(١). ورُوي أن الرشيد قطع رأس جعفر، وصلبه، وشُقَّت جثته باثنتين، وصُلِّيت ثم أُحْرِقَت بعد ذلك^(٢). ثم شُجِنَت السجون بالبرامكة، واستُلِّيت أموالهم كلها^(٣). ومات يحيى البرمكي - والد جعفر - في السجن^(٤). ويُروى أن الفضل بن الربيع - خصم البرامكة - قد سعى بهم لدى الرشيد، ولم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا^(٥).

↔ وفي العام (١٩٥هـ/٨١١م) خرج الخراسانية بقيادة طاهر بن الحسين، فجهَّز لهم الأمين جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن جبلة، فقتل عبد الرحمن وسقط ضحايا كثيرون في القتال^(٦). ثم وجَّه لهم جيشاً آخر في العام التالي، ولم يحصل قتال^(٧). وقد سُمِّه المأمون في العام (٢٠٨هـ/٨٢٤م)، فمات^(٨).

↔ الأفشين: وهو من أهم قواد المعتصم. إتهم أنه ساعد المازيار في العام (٢٢٤هـ/٨٣٩م). ورُوي أن المازيار قد اعترف عليه؛ فقبض على الأفشين وحوِّكِم وسُجِن إلى أن توفي في الحبس في العام (٢٢٦هـ/٨٤١م)؛ فأمر به المعتصم فصُلِّب ثم أُحْرِق، ثم ذُرِّي رماده في دجلة^(٩).

↔ ابن الزيات: كان وزيراً للوائق. وقد نقم عليه المتوكل على الله - جعفر بن المعتصم - فاعتقله في العام (٢٣٣هـ/٨٤٨م)، وعذَّبه عذاباً شديداً حتى مات. وجُرِّد من كل أمواله وممتلكاته^(١٠).

↔ وفي العام (٢٣٤هـ/٨٤٩م) خرج محمد بن مليس عن الطاعة في أذربيجان، وجاءته البعوث من كل جانب. فاقتتل مع جماعة المتوكل قتالاً شديداً، ثم أُسِر واستبيحت أمواله

(١) م. ن: ص ص ١٨٩ - ١٩٨.

(٢) م. ن: ص ١٩٠.

(٣) م. ن: ص ١٩١.

(٤) م. ن: ص ٢٠٤.

(٥) م. ن: ص ٢٦٣.

(٦) م. ن: ص ٢٢٦.

(٧) م. ن: ص ٢٣٥.

(٨) م. ن: ص ٢٦٠.

(٩) م. ن: ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(١٠) م. ن: ص ٣١١. - أنظر تاريخ الطبري (ج ٩): ص ٨١، فزى بأية وحشية أنزل العقاب به.

وحريمه، وقُتل كثير من رؤوس أصحابه، وأسير سائرهم^(١). وحُملوا إلى سامراء، فعفا المتوكل عنهم^(٢).

→ وفي العام (٢٤٩هـ/٨٦٤م) وقعت فتنة بين الأتراك، بسبب استئثار أطامش التركي - أمين المال في عهد المستعين بالله - بالأموال. فغضب الأتراك، وأحاطوا بقصر الخلافة، وسحبوا أطامش، وقتلوه ونهبوا أمواله^(٣).

→ وفي العام (٢٥٣هـ/٨٦٧م) خرج عبد العزيز بن أبي دلف - بناحية همدان - عن الطاعة. فسار إليه ابن بغا الكبير وهزمه في أكثر من موقعة، وقتل من أصحابه بشراً كثيراً، وأسر ذراري كثيرة؛ وبعث إلى المعتز سبعين حملاً من الرؤوس^(٤).

أصبح من الواضح أن العلاقات بين رجال السلطة كانت مشوبة بالخذر والشك. فلا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة. لم تكن تربطهم أية مبادئ دينية أو أخلاقية. فالسلطة كانت أساساً لا غنى عنها في سبيل امتلاك الثروة. ومواطن الثروة كانت في إيرادات الأمصار، وأمن الأمصار كان أمناً للثروة وتأميناً عليها. كانت الشعوب العاملة في الأمصار قاعدة لإنتاج الثروة. لذا كان التسابق يتم على قدم وساق في سبيل المحافظة على أمن السلطة بدءاً بالخلافة انتهاءً بأمرة الجيوش والحظوة بأمرة مصر من الأمصار، مروراً بالتسابق على كرسي الوزارة أو رئاسة اللواوين... وكان السيف والقوة أداة السلطة وأماناً لاستمرارها، فمن خضع طائعاً لأولي الأمر كانت حياته في مأمن، ومن لم يخضع فكان السيف خير المؤدين. وقلما كان السيف يستريح في غمده. . .

فإذا ما قمنا بفتح كتب التراث لشعرنا بأنفسنا فنقطع ونحن ننتظر السنة التي لا نقرأ فيها عن حدوث فتنة أو أكثر، فتنة تذهب ضحاياها بالآلاف؛ فنقطع الأنفاس ولا نجد عظة تستريح فيها من متابعة أخبار الفتن والقتل والسبي وقطع الأيدي والأرجل والرؤوس. فلا يهنا بال خليفة أو وزير أو عامل على مصر من الأمصار إذا لم يتوَّج إنتصاراته بالرؤوس المقطوعة، والأرجل المبتورة، والبطون المبقورة. . .

إقتل الأخ مع أخيه، والعم مع ابن الأخ، وابن العم مع ابن العم. . .
إقتل الخليفة مع وزرائه، وتأمّر الوزراء على الوزراء. . .
إقتل الخليفة مع عماله على الأمصار، واقتل العمال مع العمال. . .

(١) م . ن : ص ٣١٢.

(٢) م . ن : ص ٣١٣.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٤.

(٤) م . ن : ص ١٢.

إقتل الخليفة مع الثاثرين على ظلمه، واقتل الثوار مع الثوار. . .
نهب الخليفة جميع الموارد، ووزعها على قصوره وأهله وحاشيته. . .
ونهب الوزراء - الواسطة بين الناهب والمنهوب - وأتخموا. . .
نهب العمال على الأمصار - أداة القمع المباشر - وتربعوا على عروش من الجماجم المبحولة
بالدم والعرق. . .
كان الشعب يستجيب لأية دعوة تظهر في الأفق، لأنه كان يحسب أن الخلاص فيها،
ولكن. . .
كان سيف الخليفة هم جنوده، لأن الأرزاق كانت بين يديه ينعم عليهم منها. جنود كانوا
من العرب في البداية، فلما خشي منهم استبدلهم بالفرس، فاستغاث من شرورهم... فاستبدلهم
بالترك فأذلّوهم...
كانت ضحايا الخليفة من العرب، فأصبحت منهم ومن الفرس، ثم منهم ومن الترك...
واستمر الحال على هذا المتوال إلى أن أصبح الخليفة ضحية بأيدي المماليك والأتراك...
كان سيف السلطان (جنوده) وضحاياه من طينة واحدة: من الراكضين وراء لقمة العيش
... فاقتل الراكض مع الراكض، والجائع مع الجائع. . .
استقوى أمراء الجيوش، و أفرزوا نخبة من العسكريين، أخذت تتحكم بالقرار. ولأنهم سيف
الخليفة شعروا بقوة تأثيرهم وسلطتهم، فأصبحوا سيفاً مسلطاً على رقبة سلطانهم؛ فأصبح
الخليفة واجهة للنخبة العسكرية، تحكم بشرعيته الدينية؛ إلا أن شرعيته كانت وهمية لا أساس
لها، إلا ما توهم به العامة، أو ما شُبّه لها من فتاوى فقهاء السلاطين...
ضاعت الخلافة... وأصبحت الغاية امتلاكاً للسلطة بأي غطاء، أو أي ستار، في سبيل
امتلاك المال ... وأصبحت الخلافة - التي أرادها المسلمون أداة لفرض الشريعة السماوية في سبيل
خير البشر - عبثاً على الشريعة وعلى البشر معاً.
حسب البعض أن الحل لن يكون إلا في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي
هي أحسن؛ وحسب البعض الآخر أن الحل لن يكون إلا في الخروج على سلطة الظالم، والقتال
في سبيل فرض سلطة العادل.
وهنا سوف نلقي أضواءً على النماذج التي تنقل الكلمات إلى واقع واضح.

ج - الصراع بين السلطة وبين أصحاب الأهواء السياسية والفرقية والطبقية والعرقية:

إختلطت الأهواء وتداخلت؛ ولكل هوى صبغة كانت تدل إلى اتجاه النخبة التي تقود الصراع ضد السلطة؛ ربما لم تكن القواعد المقاتلة - وقود الصراعات - قانعة بأهداف تلك الأهواء، أو لم تكن بالمستوى الذي تعي منه أهداف ما كان يحصل من حولها، وإنما الذي كان لا شك فيه هو أن اختيارها طريق الثورة - أية ثورة - والمشاركة فيها، هو ظلم السلطة ولاعدالتها. لهذا السبب تداخل، في أحيان كثيرة، الديني - المذهبي مع العرقي مع الطبقي... وهنا ننقل بعض الشواهد، على أن نراعي في السرد التسلسل الزمني لها، من دون أن نعمل على فرزها إلى اتجاهات محددة:

- الصراع بين السلطة وبين الخارجين عليها في الأطراف:

→ في العام (١٤١هـ/٧٥٩م) خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور. وخلصوا أصحاباً لهم من داخل السجن، وقصلوا قصر المنصور. إلا أن جيوش المنصور حصدتهم عن آخرهم^(١).

→ وفي العام (١٤٢هـ/٧٦٠م) خلع عيينة - نائب السند - الخليفة، فقهر وهزم. وفي العام ذاته، نكث صاحب طبرستان العهد الذي كان بينه وبين المسلمين، فجهز له الخليفة وقهره^(٢).
→ وفي العام (١٤٣هـ/٧٦١م) غزا أصحاب المنصور بلاد الديلم لأنهم قتلوا من المسلمين خلقاً^(٣).

→ وفي العام (١٥٠هـ=٧٦٧م) خرج رجل يدعى إستاذ سيس فاستحوذ على أكثر بلاد خراسان، وكان معه ثلاثمائة ألف. فقتل من المسلمين خلقاً كثيراً، وهزم جيوشهم، وسبى خلقاً كثيراً. فوجه المنصور إليهم خازم بن خزيمة؛ فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً؛ وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ثم قتلهم جميعاً^(٤).

→ وفي العام (١٥٥هـ/٧٧٢م) دخل يزيد بن حاتم بلاد أفريقيا، وقتل من كان فيها من الخوارج. فقتل أمراءهم، وأسر كبارهم، وأذل أشرافهم^(٥).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠): م. س: ص ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) م. ن: ص ٧٧.

(٣) م. ن: ص ٨٨.

(٤) م. ن: ص ١٠٦.

(٥) م. ن: ص ١١٣.

→ وفي العام (١٦٠هـ/٧٧٧م) خرج رجل في خراسان يُدعى يوسف على الخليفة المهدي، والتفّ حوله خلق كثير. فأُسير، وقطعت يده ورجلاه، ثم ضُرب عنقه وأُعناق مع معه، وصُلبوا على جسر دجلة^(١).

→ وفي العام (١٦٢هـ/٧٧٩م) خرج عبد السلام اليشكري على المهدي بأرض قنسرين، وتبعه خلق كثير. فهزم جيوش المهدي، لكنه قُتل أخيراً^(٢).

→ وفي العام (١٦٣هـ/٧٨٠م)، خرج المقتع الزنديق بخراسان على المهدي؛ وكان يقول بالتناسخ؛ وأتبعه خلق من الطغام وسفهاء الأنام، والسفلة من العوام. فحُوصِر وقُتل؛ واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي^(٣).

→ وفي العام (١٨٠هـ/٧٩٧م) خرجت طائفة بمرجان، فأُنهى أمرها^(٤).

→ وفي العام (١٨٦هـ/٨٠٣م) خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو. فقاتله ابن الخطيب، وسبى نسائه وذرائه؛ فاستقامت خراسان^(٥).

→ وفي العام (١٩٠هـ/٨٠٦م) خلع رافع بن سيار - نائب سمرقند - الطاعة؛ ودعا إلى نفسه، وبأيعه أهل بلده، وطائفة كثيرة، واستفحل أمره^(٦). وفي العام ذاته نقض أهل قبرص العهد، فسبى أهلها، وقُتل منهم خلق كثير^(٧).

→ وفي العام (٢٠٨هـ/٨٢٤م) ذهب الحسن بن الحسين - أخو طاهر - فاراً من خراسان إلى كرمان، فعصى فيها. حاصره المأمون حتى خضع قهراً، وعفا عنه^(٨).

→ وفي العام (٢٣٤هـ/٨٤٧م) خرج محمد بن مليس عن الطاعة في أذربيجان، وجاءته البعوث من كل جانب. فاقتل مع جماعة المتوكل قتالاً شديداً؛ ثم أُسير واستبيحت أمواله وحرّمه، وقُتل كثير من رؤوس أصحابه، وأُسير سائرهم، وحُمِلوا إلى سامراء، وعفا عنهم المتوكل^(٩).

(١) م . ن : ص ١٣١.

(٢) م . ن : ص ١٣٥.

(٣) م . ن : ص ١٤٥.

(٤) م . ن : ص ١٧٥.

(٥) م . ن : ص ١٨٧.

(٦) م . ن : ص ٢٠٣.

(٧) م . ن : ص ٢٠٣.

(٨) م . ن : ص ٢٦١.

(٩) م . ن : ص ٣١٣.

→ وفي العام (٢٣٧هـ/٨٥٠) حاصر أهل أرمينيا البلد التي فيها يوسف بن يوسف - نائب أرمينيا - فقتلوه، وقتلوا طائفة كبيرة من المسلمين. فأرسل المتوكل جيشاً كبيراً؛ فقتل من أهلها - ممن حاصر المدينة - نحواً من ثلاثين ألفاً، وأسر منهم طائفة كبيرة^(١).

→ وفي العام (٢٣٨هـ/٨٥١م) حاصر بغا - قائد جيش المتوكل - مدينة تفليس، فخرج إليه صاحبها إسحاق بن اسماعيل؛ فأسير إسحاق، وضربت عنقه، وصُلب، ثم أحرقت المدينة. إحترق من أهلها نحو من خمسين ألفاً، وأسير من بقي منهم واستلبوا. ثم سار بغا إلى مدن أخرى، ممن كان أهلها يماثلون من قتل يوسف بن يوسف؛ فأخذ بثأره، وعاقب من تجرأ عليه^(٢).

→ وفي العام (٢٥٠هـ/٨٦٤م) وثبت الشاكرية والجند في أرض فارس على أميرها، فهرب، وانتهبوا داره^(٣).

→ وفي العام (٢٥٩هـ/٨٧٣م) تغلب رجل جمال على مدينة مرو، فانتهبها، وتفاقم أمره هناك^(٤).

- الصراع بين السلطة والخزمية :

→ في العام (١٩٢هـ/٨٠٨م) خرجت الخزمية في أذربيجان. فقتل منهم خلق كثير، وأسيرت ذراريهم وسبيت. فقتلت الرجال وبيعت الذراري في بغداد. وخرج رافع بن ليث في سمرقند، وكان قد خلع الطاعة^(٥).

→ وفي العام (٢٠٩هـ/٨٢٥م) جرت حروب مع بابك الخرمي الذي أسر بعض أمراء المسلمين^(٦).

→ وفي العام (٢١٢هـ/٨٢٨م) وجه المأمون جيشاً لمحاربة بابك الخرمي في أذربيجان^(٧).

→ وفي العام (٢١٤هـ/٨٣٠م) قتل بابك الخرمي خلقاً كثيراً من جيش المأمون^(٨).

(١) م . ن : ص ٣١٥.

(٢) م . ن : ص ٣١٧.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٦.

(٤) م . ن : ص ٣١.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٠) : م . س : ص ٢٠٧.

(٦) م . ن : ص ٢٦٣.

(٧) م . ن : ص ٢٦٦.

(٨) م . ن : ص ٢٦٨.

→ وفي العام (٢١٨هـ/٨٣٤م) دخل كثير من أهل همذان، وأصبهان، وماسبذان، ومهرجان، في دين الخرمية. وتجمع بشر كثير؛ فجهز المعتصم لهم جيوشاً كثيرة، وقاتل الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً، وهربت بقيتهم إلى بلاد الروم. وقد أسير منهم وقُتل مائة ألف مقاتل.

→ وفي العام (٢٢٠هـ/٨٣٦م) استفحل أمر بابك الخرمي، فأرسل المعتصم إليهم الأفشين؛ فاقتلوا قتلاً شديداً. فقتل الأفشين منهم أزيد من مائة ألف، وهرب بابك، وجرت بينهما حروب طويلة^(١).

→ وفي العام (٢٢١هـ/٨٣٧م) انتصر بابك على بغا الكبير، لكن الأفشين هزمه وقتل خلقاً من أصحابه، واستطاع أن يدخل مدينة بابك في العام ٢٢٢هـ، فاستباح ما فيها. وقد تم ذلك بعد حصار طويل وحروب هائلة، وقاتل شديد وجهد جهيد. ثم أمسك به، وقاده إلى المعتصم بسامراء في العام ٢٢٣هـ. فأمر المعتصم بقطع يديه ورجليه، وجزأ رأسه، وبقر بطنه، ثم صُلب في سامراء. وكان بابك قد قتل من المسلمين - في خلال عشرين سنة - مائتين وخمسة وخمسين ألف إنسان؛ وأسر خلقاً لا يُحصون. وكان ممن استنقله الأفشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستماية إنسان^(٢).

→ وفي العام (٢٢٤هـ/٨٣٩م) خرج المازيار - وهو من حلفاء بابك - في طبرستان، وأظهر المخالفة للمعتصم؛ ويروى أن الأفشين شجعه طمعاً ببلاد خراسان. فجهز المعتصم جيشاً كثيفاً، وجرت حروب طويلة، وقد أسير المازيار في نهايتها؛ فقُتل، ثم صُلب إلى جانب بابك الخرمي^(٣).

- صراع السلطة مع المسلمين العرب:

وثار المسلمون العرب ضد السلطة، إما لفتنة عشائرية، وإما لظلم لاحق، وإما لطمع في موقع سلطوي. . . :

→ في العام (١٦٢هـ/٧٧٩م) خرج عبد السلام اليشكري على المهدي، بأرض قنسرين، وتبعه خلق كثير. فهزم جيوش المهدي مرات عديدة، وقُتل بعدها^(٤).

→ وفي العام (١٧٦هـ/٧٩٣م) وقعت فتنة عظيمة في الشام بين النزارية وهم قيس، واليمانية وهم يمن. وهذا كان أول بدء أمر العشيرتين بحوران. وقُتل منهم في تلك السنة بشر كثير^(٥).

(١) م . ن : ص ص ٢٨١ - ٢٨٣.

(٢) م . ن : ص ص ٢٨٣ - ٢٨٥.

(٣) م . ن : ص ٢٨٩.

(٤) م . ن : ص ١٣٥.

(٥) م . ن : ص ١٤٥.

وتجددت الفتنة بينهما في العام (١٨٠هـ / ٧٩٧م) فعالجها جعفر البرمكي؛ ولم يدع في الشام فرساً ولا سيفاً ولا ربحاً إلا استلبه من الناس، إلى أن هدأت^(١).

→ وفي العام (١٩١هـ / ٨٠٧م) خرج أبو النداء في الشام^(٢).

→ وفي العام (١٩٤هـ / ٨١٠م) خلع أهل حمص نائبهم؛ فولّى الأمين عليهم غيره، فقتل طائفة من وجوه أهلها، وحرّق نواحيها؛ فسألوه الأمان، ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم^(٣).

→ وفي العام (١٩٥هـ / ٨١١م) خرج السفيناني في الشام ودعا لنفسه^(٤).

→ وفي العام (١٩٦هـ / ٨١٢م) وقعت حروب في الشام وتفاقم الأمر، وطال القتال بين الناس. ومات من جرائها نائب الشام عبد الملك بن صالح بن علي^(٥).

→ وفي العام (٢٢٧هـ / ٨٤٢م) خرج رجل من أهل الثغور في الشام، يقال له أبو مبرقع اليماني، وقيل إنه السفيناني؛ فخلع الطاعة ودعا لنفسه، فأتبعه خلق كثير، واستفحل أمره؛ وتبعه نحو من مائة ألف مقاتل، فاحتال عليه أمير المعتصم إلى أن استطاع أسره^(٦).

→ وفي العام (٢٤٠هـ / ٨٥٥م) خرج أهل حمص على عاملهم، وقتلوا جماعة من أصحابه، وأخرجوه. فبعث المتوكل إليهم أميراً، ففعل الأعاجيب، وأهانهم غاية الإهانة^(٧).

وجدد أهل حمص المحاولة في العام ٢٤١هـ، إلا أن عاملهم ضرب ثلاثة منهم بالسياط حتى الموت، وصلبهم. وضرب عشرين منهم كل واحد ثلاثمائة، وأرسلهم مقيدين إلى سامراء. وأخرج كل نصراني في المدينة، لأنهم شاركوا في التمرد، وهدم كنيستهم^(٨).

→ وفي العام (٢٥٠هـ / ٨٦٤م) وثب أهل حمص على عاملهم فقتلوه؛ فوجّه المستعين بالله إليهم جيشاً، فهزمهم، وأحرق أماكن كثيرة من المدينة^(٩).

وقد حصلت سلسلة من الانتفاضات في مصر مع ازدياد الأعباء المعيشية في أواخر العصر الأموي. وكان الفلاحون قد أيدوا الثورة العباسية أملاً في التخلص من الظلم والاضطهاد. ولما لم يتغير شيء ابتدأت الحركات الفلاحية تحركاتها في مصر منذ العام (١٣٥هـ / ٧٥٣م)، واشتدت

(١) م . ن : ص ١٧٥ .

(٢) م . ن : ص ٢٠٦ .

(٣) م . ن : ص ٢٢٤ .

(٤) م . ن : ص ٢٢٧ .

(٥) م . ن : ص ٢٣٥ .

(٦) م . ن : ص ٢٩٥ .

(٧) م . ن : ص ٣١٩ .

(٨) م . ن : ص ٣٢٣ .

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٦ .

في الأعوام (١٤٩هـ/٧٦٧م) و(١٥٦هـ/٧٧٣م)، وبلغت متهى خطورتها في العام (٢١١هـ/٨٢٦م). أما في الأعوام (٢١٥ و ٢١٨هـ/ ٨٣٠ و ٨٣٢م) فاتخذت طابع الثورة الفلاحية الشاملة، فأحدث المأمون بهم مذبحة كبرى^(١).

لعبت الخلافات القبلية دوراً في إثارة هذه الثورات بين عرب الشمال المؤيدين للأمين، وعرب الجنوب المؤيدين للمأمون. وهذا ما أعطى الفرصة للفلاحين المصريين أن يثوروا ضد العرب^(٢):

→ ففي العام (١٧٨هـ/٧٩٥م) جرت فتنة عظيمة في مصر. وفيها وثبت طائفة من قيس وقذاعة على عامل مصر، فقاتلوه. فبعث الرشيد إليهم جيشاً فأذعنوا بالطاعة^(٣).

→ وفي العام (٢١٠هـ/٨٢٦م)، وبأمر من المأمون، إستنقذ عبد الله بن طاهر مصر من أميرها، الذي تغلب عليها، فاستعادها منه بعد حروب طويلة^(٤).

→ وفي العام (٢١٣هـ/٨٢٩م) ثار عبد السلام وابن حليس، فخلعا المأمون، واستحوذا على الديار المصرية، وتابعهما طائفة من القيسية واليمينية^(٥). وفي العام ٢١٤هـ إنتزعت مصر منهما، وقُتلا^(٦).

→ وفي العام (٢٣٨هـ/٨٥٣م) غزا الفرنج مصر، وأسروا نحواً من ستمائة امرأة؛ وأخذوا من الأسلحة شيئاً كثيراً. وغرق في بحيرة تنيس أكثر ممن أسروه^(٧).

→ وفي العام (١٧٨هـ/٧٩٥م) خرج الوليد بن طريف بالجزيرة، وحكم فيها، وقتل خلقاً من أهلها، واشتدت شوكته. فبعث إليه الرشيد من قاتله حتى قتله^(٨).

→ وفي العام (٢٣٠هـ/٨٤٥م) خرجت بنو سليم حول المدينة، فعاثوا في الأرض فساداً، وقتلهم أهل المدينة فهزموها. واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة من المناهل والقرى. فقاتلهم بغا

(١) دلو، برهان الدين: مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي: دار الفارابي: بيروت: ١٩٨٥: د.ط: ص ٢٩٤.

(٢) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ٣): م. س: ص ١٧٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠): م. س: ص ١٧١.

(٤) م. ن: ص ٢٦٥.

(٥) م. ن: ص ٢٦٧.

(٦) م. ن: ص ٢٦٨.

(٧) م. ن: ص ٣١٧.

(٨) م. ن: ص ١٧٣.

الكبير - أمير جيوش الواصل - وقتل منهم وأسرى، ودعاهم إلى الأمان، فاجتمع إليه منهم خلق كثير^(١).

→ وفي العام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) عاث بنو نمير في اليمامة فساداً، فقاتلهم بغا الكبير، فقتل جماعة منهم وأسرى أخرى. وانهزم بنو تميم. وفقد الخارجون ما ينوف على ألفي رجل. وعاد بغا إلى بغداد ومعه عدد من أعيانهم أسرى^(٢).

→ وفي العام (١٩١هـ/٨٠٧م) خرج ثروان بن سيف بسواد العراق، فقتل مع عامة أصحابه^(٣).

→ وفي العام (١٩٢هـ/٨٠٨م) تحرك شروان الحروري في البصرة، وقتل عاملها^(٤).

→ وفي العام (٢٠١هـ/٨١٧م) ثار أهل بغداد، وأخرجوا نائب الحسن بن سهل، وجرت حروب كثيرة. وفيهم عمّ البلاء بالعيارين والشُّطَّار والفسَّاق في بغداد، فاستباحوا الأموال والأنفس. واستطاع الحسن بن سهل أن يسيطر عليها بعد عدة أشهر^(٥).

→ وفي العام (٢٠٢هـ/٨١٨م) لما بويغ لإبراهيم بن المهدي ببغداد وخلع المأمون؛ ولما لم يستطع إبراهيم تأمين أرزاق الجنود، كثُر النهب والسرقة. وخرج مهدي بن علوان - الخارجي - فكسره إبراهيم وهزمه. وخرج أخو أبو السرايا، فقتل وأرسل رأسه إلى إبراهيم. وخرج سهل بن سلامة، وجمع الناس حوله، فقاتله إبراهيم.

→ جرت في الكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون، واقتتلوا قتالاً شديداً^(٦).

→ وفي العام (٢٦٢هـ/٨٧٦م) دخل يعقوب بن الليث واسط - منطقة في العراق - قهراً؛ فخرج إليه الخليفة المعتمد بنفسه من سامراء. فكانت الغلبة على يعقوب بعد قتال شديد^(٧).

→ وفي العام (٢١٩هـ/٨٣٤م) قاتل المعتصم الزط، الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة، وقطعوا الطرق ونهبوا الغلات، فمكث في قتالهم تسعة أشهر وقهرهم. فطلب الأمان سبعة

(١) م . ن : ص ٣٠٢.

(٢) م . ن : ص ٣٠٨.

(٣) م . ن : ص ٢٠٦.

(٤) م . ن : ص ٢٠٧.

(٥) م . ن : ص ٢٤٧.

(٦) م . ن : ص ٢٤٩.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . ن : ص ٣٥.

وعشرون ألفاً منهم. فنفاهم إلى عين رومة، فأغارت الروم عليهم، فاجتاحوهم ولم يفلت منهم أحد^(١).

اندلعت ثورة الزط في العام (٢٠٥هـ/٨٢٠م)، واستمرت حتى العام (٢١٩هـ/٨٣٤م). وكان الساسانيون قد استقدموهم إلى مناطق الأهواز في العراق، وكانوا يستخدمونهم في تربية الجاموس والبقر، ولما لحق بهم الجور، وأصبح وضعهم المعيشي سيئاً جداً تدمروا فتمردوا. وأخضعتهم الدولة بعد خمسة عشر عاماً من القتال^(٢).

→ وفي العام (٢٥٥هـ/٨٦٩م) إدعى كذباً رجل من البصرة أنه من الطالبيين. فالتف حوله خلق من الزنج - كانوا يكسحون السباح - واجتمع معه بشر كثير، فهزم جيش البصرة. وجرت وقعات كثيرة، وكان جيشه يكثر. قتل وأسر من أهل البصرة خلق كثير^(٣).

→ وفي العام (٢٥٦هـ/٨٧٠م) حاصر البصرة، فمنع عنها الأطعمة^(٤).

→ وفي العام (٢٥٧هـ/٨٧١م) هزم سعيد الحاجب صاحب الزنج، واستنقذ منه أسرى كثيرون، وأموالاً جزيلة. أما الزنج فقتلوا ناساً كثيراً من جيش سعيد، ودخلوا البصرة، فأحرق الجامع ونهب، فهرب ناس كثير وقتلوا. وأحرق الزنج الكلا^(٥). وفي العام (٢٥٨هـ/٨٧٢م) استمرت المعارك شديدة. وفي العام (٢٥٩هـ/٨٧٣م) هُزم الزنج، وقُتل وأُسِر منهم ناس كثير. إلى أن قُتل صاحب الزنج في العام (٢٦٠هـ/٨٧٤م)^(٦).

وعلى الرغم من ذلك، استمرت حرب الزنج شديدة في العام (٢٦١هـ/٨٧٥م)^(٧). وكذلك في العام (٢٦٢هـ/٨٧٦م). ووقعت بهم مقتلة عظيمة في العامين (٢٦٣ و ٢٦٥هـ/ ٨٧٧ و ٨٧٩م)^(٨).

د - الصراعات - الفتنة العباسية - الشيعية:

قبل البدء ببحث أحداث الصراعات - الفتنة العباسية - الشيعية نرى أنه لا يمكن أن نبحث هذا الموضوع بلقة من دون أن نحدد ما نفهمه من مصطلح "الشيعي". فتعبير الشيعي لم يكن

(١) م . ن : (ج ١٠) : ص ٢٨٢.

(٢) دلو، برهان الدين : م . س : ص ٢٩٤.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ١٩.

(٤) م . ن : ص ٢٤.

(٥) م . ن : ص ٢٨.

(٦) م . ن : ص ٣٠ - ٣١.

(٧) م . ن : ص ٣٢.

(٨) م . ن : ص ٣٥.

مصطلحاً مطلقاً بل هو نسبي؛ فهناك ما يجمع الشيعة هو تأييدهم لعلي بن أبي طالب. وهناك ما يفرقهم على مستوى العقيدة والسياسة والممارسة... وقد تعددت أساليب المعارضة لدى الفرق الشيعية بتعدد هذه الفرق، وأهمها: الإثني عشرية - الزيدية - الإسماعيلية - القرامطة - الفاطميون - الأدارسة...

شكل الحلف العباسي - العلوي - الفارسي القوة التي استطاعت أن تقضي على الدولة الأموية. وكان الاتفاق بين العلويين والعباسيين حول الإعداد لثورة ضد الأمويين قائماً على بث الدعوة باسم الرضا من آل البيت لتكون أكثر قبولاً عند الناس؛ وقد حددوا مركز الدعوة في خراسان والكوفة لأسباب من ولائهما لفكرة التشيع^(١).

لكن أنظار بني العباس كانت قد صوّبت تجاه الاستئثار بالخلافة لأسباب متعددة منها: سلسلة التنازلات التي قدّمها العلويون لبني أمية، مثل تنازل الحسن لمعاوية، ومبايعة محمد بن الحنفية ليزيد، أو وصية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية للإمام العباسي في الحميمية. وهذه الأسباب مجتمعة شكّلت نقطة التحول في العلاقات بين العلويين والعباسيين^(٢).

كانت خطبة الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٩٦٦-٩٧٠م)، عن أحقية آل العباس بالخلافة دون غيرهم^(٣)، إعلاناً لانتهاة العلاقات الودية بين العباسيين والعلويين. وخطب أبو داود - عم أبي العباس - من بعده، ومما قاله أن بني أمية ابتزوا حق بني العباس، واستأثروا بالفيء والصلقات "فركبوا الآثام وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم... ومرحوا في أعنة المعاصي... فمزّقوا كل ممزّق، فبعداً للقوم للظالمين... وظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه... فوجد أمامه ووراءه، وعن يمينه وعن شماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله... وردّ إلينا حقنا وإرثنا"^(٤).

لو لم نُحدّد قائل هذا النص لكان يمكن أن يكون ناطقاً باسم كل معارض سياسي - ديني كان من الممكن أن يستولي على السلطة من خصم سلطوي مهزوم. وسوف يتكرّر مضمون هذا الكلام في أقوال وأفعال خصوم السلطة العباسية ومعارضيهما على مرّ مئات السنين، كما مرّ في أقوال وأفعال من وصل إلى السلطة من قبلهم.

لما انفرد العباسيون بالسلطة، وقف الشيعة في الصف للمعارض لهم. واتخذ الصراع بينهما وجهين متميزين: الثورة المسلحة، والصراع الفقهي - الديني.

(١) الليثي، سميرة مختار: جهاد الشيعة: دار الجيل: بيروت: ١٩٧٨: ط ٢: ص ٤٥.

(٢) م. ن: ص ٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٥م): م. س: ص ص ٦٥ - ٦٦.

(٤) م. ن: ص ٦٧.

فأما حركة الصراع الفقهي - الديني فكانت بارزة في الرسائل المتبادلة بين العباسيين والعلويين، وفي مجالس المناظرة، وفي الاستعانة بالشعر، وهو كان أمضى الأسلحة في ذلك العصر، ثم في حركة تدوين الحديث^(١). ولم يكن لهذا الجانب من الصراع أية مظاهر للعنف، بل كان من المطلوب أن لا يمارس العنف، وبدلاً عن ذلك واستتاراً عن أعين السلطة العباسية، خوفاً من الملاحقة والسجن والقتل، فقد أقر جعفر الصادق - الإمام الشيعي الإثنا عشري - مبدأ التقية؛ كما حاول كل من جعفر الصادق وموسى الكاظم أن يثبوا زيد بن علي بن الحسين عن القيام بثورته المسلحة التي قام بها من دون الالتفات إلى نصائحهما في العام (١٢٢هـ/ ٧٤٠م)؛ ولهذا لم يبد أصحاب هذا الوجه من الصراع أي ميل إلى مقاومة العباسيين^(٢). وقد حذا حذو الإمامية فرقة شيعية أخرى - وهي فرقة الكيسانية التي تنسب إلى محمد بن الحنفية - وظهر ذلك بعد أن تنازل أبو هاشم - ابن محمد بن الحنفية - عن الخلافة للعباسيين في الحميمية بعد أن شعر بدنو أجله^(٣).

- الشيعة وأسلوب المواجهة المسلحة :

لقد تبنى هذا الأسلوب كل من الزيدية، المتسبون إلى زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين؛ وأبناء عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ والفرقة الإسماعيلية التي تنسب إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، بالإضافة إلى فرعين منها هما: القرامطة والحشاشون.

- الزيدية : كانت الأكثر اعتدالاً - بالنسبة إلى مواقفها من صحابة الرسول - بين الفرق الشيعية، فهم قد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة، سواء كانوا من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين. وأقروا بشرعية خلافة أبي بكر وعمر، وإن كان علي - حسب اعتقادهم - أفضل منهما. ولم يقرروا سياسة محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، بالاكتماء بالإمامة الروحية من دون إعلان الثورة. وقالت الجارودية، إحدى الفرق الزيدية: "من ادعى منهم الإمامة وهو قاعد في بيته مرخي ستره عليه فهو كافر مشرك؛ وكل من اتبعه على ذلك، وكل من قال بإمامته"^(٤).

وقال زيد بن علي: "ليس الإمام منا من أرخى عليه ستره، إنما الإمام من أشهر سيفه"^(٥).

(١) الليثي، سميرة مختار: م. س: ص ٢٤.

(٢) م. ن: ص ٢٥٢.

(٣) م. ن: ص ٣٨ - ٤٣.

(٤) م. ن: ص ٩٣.

(٥) المازندراني، محمد بن علي (ت سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م): مناقب آل أبي طالب: نقلاً عن: إيش، يوسف: الإمام والإمامة عند الشيعة: دار الحمراء: بيروت: ١٩٩٠: ط ١: ص ٦٣.

ولقد بدأت الزيدية "ثورة معتزلية" ضد الدولة الأموية، قادها إمام ثائر من أئمة أهل بيت الرسول على عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في العام (١٢٢هـ/٧٤٠م). ثم استمرت ممثلة للتيار الثوري في أمراء آل البيت، الذين قادوا تياراً فكرياً يتمذهب بأصول المعتزلة الخمسة في العقائد، مع اختلافات بسيطة في بعض المسائل السياسية الخاصة بمبحث الإمامة ... فهم معتزلة في الأصول؛ وهم تيار الثورة في آل البيت والاعتزال على السواء^(١).

وهنا سنستعرض، باختصار، تاريخ الحركات الشيعية المسلحة، منذ بداية العصر العباسي - أي منذ أواخر النصف الأول للقرن (٢ هـ/ القرن ٨م) - حتى أواسط النصف الثاني من (القرن ٣هـ/ القرن ٩م):

الحركات الشيعية في الأطراف:

→ في العام (١٤٠هـ/٧٥٨م) قتل عامل الخليفة المنصور، في خراسان، جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب، وحبس الآخرين^(٢).

→ وفي العام (١٧٦هـ/٧٩٣م) ظهر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم، واتبعه خلق كثير؛ وارتحل الناس إليه من الكوفة والأمصار؛ فانزعج الرشيد. واستطاع الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أن يقنعه بأمان الرشيد؛ فقدم إلى بغداد، فأكرمه، لكنه لم يعيش طويلاً ومات^(٣).

→ وفي العام (١٩٩هـ/٨١٥م) خرج حسن الهرشي في خراسان - في أثناء عهد المأمون - يدعو إلى الرضا من آل محمد، فجبى الأموال. فأرسل المأمون إليه جيشاً فقتلوه^(٤).

≈ وفي العام (٢١٩هـ/٨٣٤م) ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بالطالقان من خراسان، يدعو إلى الرضا من آل محمد؛ فاجتمع عليه خلق كثير، وقتله عبد الله بن طاهر مرات متعددة؛ ثم ظهروا عليه فهرب، وأُخذ، فحبسه المعتصم؛ ثم اختفى، ولم يُعرف عنه شيئاً^(٥).

≈ وفي العام (٢٣٥هـ/٨٥٠م) أتى المتوكل يحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان اجتمع إليه قوم من الشيعة، فأمر بضربه، ثم حبس^(٦).

(١) عمارة، محمد: تيارات الفكر الإسلامي: م. س: ص ٩٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠): م. س ك ص ٧٥.

(٣) م. ن: ص ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) م. ن: ص ٢٤٤.

(٥) م. ن: ص ٢٨٢.

(٦) م. ن: ص ٣١٤.

وبعد موت يحيى بن عمر في العام (٢٥٠هـ/٨٦٤م) رفض بعض الأهالي في ناحية طبرستان قبول جابر بن هارون بتسليم الأراضي فيها. فأرسلوا إلى الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فبايعوه؛ والتف حوله الديلم وجماعة من الأمراء، وسيطر على طبرستان بكاملها. ثم أخذ الري^(١)؛ إلى أن أسير في العام (٢٥٥هـ/٨٦٩م)^(٢).

→ وفي العام (٢٥٠هـ/٨٦٤م) ظهر في الري أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، ودعيا إلى الرضا من آل محمد^(٣).

→ وفي العام (٢٥١هـ/٨٦٥م) ظهر بأرض قزوین رجل من أهل البيت هو الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٤).

وفي المدينة

→ لما فشلت ثورة زيد بن علي في العام (١٢٢هـ/٧٤٠م) ضد الأمويين في الكوفة، وبعد أن فشلت ثورة ابنه يحيى في خراسان في العام (١٢٥هـ/٧٤٣م)، إنتهى أمر الزيدية إلى محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم^(٥). وكان للمعتزلة موقف مؤيد لمحمد النفس الزكية؛ وقد بايعه زعيمها: واصل بن عطاء (ت سنة ١٣١هـ/٧٤٩م)؛ وعمرو بن عبيد؛ إلا أن الأخير منهما كف عن متابعة محمد حين خرج محمد من المدينة في العام (١٤٥هـ/٧٦٣م)^(٦).

→ وفي العام (١٤٤هـ/٧٦٢م) لاحق المنصور إبراهيم ومحمد - أولاد عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - وكانا هارين منه. فحبس المنصور بني حسن في المدينة عن آخرهم. ثم نقلهم إلى العراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال. هلك كثير منهم في السجن، أما الباقي فقد خرجوا بعد موت المنصور في العام (١٥٨هـ/٧٧٥م)^(٧).

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٦.

(٢) م . ن : ص ١٥.

(٣) م . ن : ص ٦.

(٤) م . ن : ص ٩.

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١٥٦.

(٦) الإصفهاني: مقاتل الطالبين: نقلاً عن فهمي جدعان: المحنة: دار الشروق: الأردن: ١٩٨٩ : ط ١: ص ٥١.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٠) : م . س : ص ٨٥.

→ وفي العام (١٤٥هـ/٧٦٣م) خرج محمد بالمدينة على المنصور؛ وخرج أخوه ابراهيم في البصرة.

أما محمد فقد خرج في المدينة وسجن نائبها، فبايعه أهلها. وقد أفتى الإمام مالك ببيعته، فقليل له إن في أعناقنا بيعه المنصور، فقال: إنما كنتم مُكرهين وليس لمُكرِهٍ بيعه. ولما بلغ المنصور الأمر عن محمد قال: هلك والله وأهلك معه من اتبعه؛ فبعث المنصور إليه بكتاب ينصحه فيه بالتراجع عن موقفه، فردَّ محمد عليه: "أنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم إنما وصلتُم إليه بنا، فإن علياً كان الوصي وكان الإمام؛ فكيف ورثتم ولايته وولَّيْتُمه أحياء؟... وإنني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أباً، لم تُعرِّق في العجم، ولم تنزع في أمهات الأولاد... فأنا أولى بالأمر منك، وأولى بالعهد وأوفى به منك، فإنك تعطي العهد ثم تنكث ولا تقي... وكذلك فعلت في عمك عبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني"^(١).

أما أبو جعفر المنصور فقد أجابه أنه كان للرسول أربعة أعمام "فاستجاب له إثنان أحدهما جدنا، وكفر إثنان أحدهما أبوك - يعني جده أبا طالب"^(٢).

وبعث محمد إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته، فأبوا قائلين: "قد ضجرنا من الحروب، ومللنا من القتال". وقال بعض أهل المدينة: "كيف نبايعك، وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال نستعين به على استخدام الرجال؟"^(٣).

وأرسل المنصور إلى المدينة جيشاً من عشرة آلاف بقيادة عيسى بن موسى، فقتل محمداً، وحزَّ رأسه^(٤).

أما ابراهيم فقدم إلى البصرة في العام (١٤٥هـ/٧٦٣م)، وأظهر الدعوة لنفسه بعد مقتل أخيه، فبايعه عدد من الناس في البصرة؛ وقدم الناس من كل فجٍّ لمبايعته. فلما بلغ خبره المنصور، صار يقتل كل رجل في الكوفة إذا اتَّهم بأنه يؤيد ابراهيم؛ وكان رجاله يرصدون الطرقات فيقتلون الوافدين لمبايعه ابراهيم، ويصلبهم في الكوفة. ويُروى أن الراوندي - من أصحاب المنصور - قتل خمسمائة من مؤيدي ابراهيم. أما ابراهيم فأصاب سلاح ألفي فارس للمنصور، وانتهى إلى قصر الأمير في البصرة وسجنه، واستحوذ على بيت المال وفيه ستمائة ألف، وقيل ألفا ألف. وقد بايعه أهل الأهواز، وكذلك فارس والملائن والسواد. واستفحل أمره جداً، خاصة وإن المنصور وزَّع جيشه بين إفريقيا والحجاز والري. فأخذ يستقدمهم فيردُّون من نكث البيعة

(١) م . ن : ص ٨٥.

(٢) م . ن : ص ٨٥.

(٣) م . ن : ص ٨٦.

(٤) م . ن : ص ٨٩.

إلى الطاعة. وقدم إبراهيم من البصرة إلى الكوفة بمائة ألف، فلاقاه جيش المنصور، فاقتلوا قتلاً شديداً. وانهزم جيش المنصور، لكنهم جمعوا أنفسهم وعادوا إلى القتال، فقتل من الفريقين خلق كثير. وقتل إبراهيم، وحُمل رأسه إلى المنصور، وكان ذلك في العام ١٤٥هـ^(١).

→ وفي العام (١٥٦هـ/٧٧٣م) ظفر عامل المنصور على البصرة بعامل إبراهيم على فارس، فقطعت يده ورجلاه، وضربت عنقه، ثم صُلب^(٢).

→ وفي العام (١٦٩هـ/٧٨٦م) خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فالتف حوله جماعة فبايعوه؛ ولم يُجمع عليه أهل المدينة. بعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه، وقتلوا طائفة من أصحابه^(٣).

→ وفي العام (٢٧١هـ/٨٨٥م) دخل إلى المدينة محمد وعلي، ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقتلوا خلقاً من أهلها، وأخذوا أموالاً جزيلة^(٤).

وفي مكة :

→ في العام (١٧٦هـ/٧٩٣م) دخل أبو السرايا إلى مكة وسيطر عليها، وسوف نتكلم عن ذلك لاحقاً لأسباب منهجية.

→ وفي العام (٢٥١هـ/٨٦٥م) خرج في مكة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فهرب نائبها وانتهب منزله ومنازل أصحابه، وقتل جماعة من الجنود، وغيرهم من أهل مكة؛ وأخذ من الكعبة ومن الناس أموالاً. ثم خرج إلى المدينة فهرب نائبها. وعاد إلى مكة فحصر أهلها، وهلكوا جوعاً. ثم رحل إلى جدة، وحج إلى مكة. ويُروى أنه قتل من الحجيج ألفاً ومائة، وسلبهم أموالهم^(٥).

وفي اليمن :

→ في العام (٢٠٠هـ/٨١٦م) خرج في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويُقال له الجزار لكثرة من قتل من أهل اليمن. وحصلت في اليمن حروب كثيرة^(٦).

(١) م . ن : ص ص ٩١ - ٩٥.

(٢) م . ن : ص ١١٤.

(٣) م . ن : ص ١٥٧.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٩) : م . س : ص ٤٩.

(٥) م . ن : ص ١٠.

(٦) م . ن : (ج ١٠) : ص ٢٤٦.

→ وفي العام (٢٠٧هـ/٨٢٣م) خرج عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، ببلاد (عك) في اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وحصل ذلك لما أساء العمال السيرة، وظلموا الرعايا. فلما ظهر بايعه الناس. فبعث إليه المأمون ديتار بن عبد الله في جيش كثيف. فرضي بالأمان، وعاد إلى بغداد، ولبس السواد^(١).

وفي الكوفة :

→ في العام (١٩٩هـ/٨١٥م) خرج إلى الكوفة محمد بن إبراهيم، بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يدعو إلى الرضا من آل محمد. وكان القائم بأمره أبو السرايا. فاجتمع عليه أهل الكوفة ووافقوه. وهزموا جيش المأمون بقيادة زاهر بن المسيب. وفي اليوم التالي قُتل محمد، وقيل سمّه أبو السرايا، وأقام مكانه محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وانتشر الطالبيون في تلك البلاد. ودخلت جيوش أبي السرايا البصرة والمدائن. لكن الحسن بن سهل هزم أبا السرايا أكثر من مرة حتى رده إلى الكوفة، ووثب الطالبيون على دور بني العباس في الكوفة فنهبوا وخرّبوا ضياعها. وبعث أبو السرايا إلى مكة فهرب نائبها. وسيطر عليها حسين الأفطس - صاحب أبي السرايا - وأخذ ما في الكعبة من الأموال في العام ٢٠٠هـ. وتبع ودائع بني العباس. وقُتل أبو السرايا، وضربت عنقه، وقطعت جثته اثنتين، ودام خروجه عشرة أشهر^(٢).

→ وفي العام (٢٣٦هـ/٨٥١م) أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، وما حوله من المنازل والدور. ونودي في الناس بمنعهم عن المجيء إلى المكان^(٣).

→ وفي العام (٢٥٠هـ/٨٦٤م) ظهر أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فاجتمع إليه خلق من أهل الكوفة، فدخلها وفتح السجّين وأطلق من فيهما. والتف عليه قوم من الزيدية وغيرهم. قاتله عبد الرحمن بن الخطاب قتالاً شديداً، لكن يحيى هزمه، ودخل الكوفة، ودعا إلى الرضا من آل محمد. تولاه أهل بغداد من العامة وغيرهم ممن ينتسب إلى التشيع. وقُتل يحيى، فحزوا رأسه، وبعث به إلى سامراء، فبغداد^(٤).

(١) م . ن : ص ٢٥٩.

(٢) م . ن : ص ٢٤٥.

(٣) م . ن : ص ٣١٥.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٥.

→ وفي العام (٢٥١هـ / ٨٦٥م) خرج في الكوفة رجل من الطالبيين، وهو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فوجّه إليه المستعين بالله مزاحم بن مخاقان، فهزمه، وقتل من أصحابه، وحرّق ألف دار، ونهب أموال الذين خرجوا معه^(١).

→ وفي العام (٢٥٥هـ / ٨٦٩م) ظهر بالكوفة عيسى بن جعفر، وعلي بن زيد، الحسينيان، واستفحل أمرهما بها^(٢).

→ وفي العام (٢٥٦هـ / ٨٧٠م) خرج رجل في الكوفة، يقال له علي بن زيد الطالبي، واستفحل أمره^(٣).

عاشت الدولة العباسية - كما أيدته الوقائع - في ظل مناخ لاستقر طوال فترة حكمها: قتال مع دول الجوار في سبيل حماية الثغور الإسلامية (وهو موضوع لم نتطرق إليه في هذا البحث لأنه ليس من اختصاصه) - إقتال بين الدولة وأمراء أطرافها أو بين الأمراء بعضهم ضد بعض - إقتال الدولة مع شتى صنوف المعارضة. وعلى الرغم من أن الدولة كانت تنهك من كثرة الخارجين على سلطانها إلا أنها كانت تنتصر عليهم في نهاية المطاف. لكن كل ذلك ينبغي أن لا يُغيب عن البال كثرة الضحايا الذين كانوا يتساقطون بعشرات الآلاف، وكثرة الخسائر المادية، وفداحة الآثار الاجتماعية السلبية من كثرة الأرامل والأيتام...

لم يكن هناك من بين العديد من الذين خرجوا على الدولة صاحب مشروع سياسي جدي سوى الفرق الشيعية غير الإثني عشرية ولم تستطع أي منها أن تحقق ما تصبو إليه؛ إلا أنه - حتى الربع الأخير من القرن ٣هـ / القرن ٩م - مهّدت سلسلة الصراعات - الفتن المتواصلة، بالإضافة إلى غيرها من العوامل التي ليست من اختصاص بحثنا أيضاً، إلى مرحلة جديدة في تاريخ الصراع العباسي - الشيعي، وهي مرحلة بداية ظهور الدعوة الإسماعيلية، بشتى تشعباتها، والتي استطاعت أن تستلم السلطة وأن تسيطر على مساحات شاسعة من أراضي الدولة الإسلامية؛ إذ وصل الأمر إلى أن تعلن دولة الخلافة باسمها، وتحاصر الخليفة العباسي في بغداد لعشرات الأجيال.

ولأهمية تلك المرحلة في الصراعات - الفتن الداخلية، بين الشيعة الإسماعيلية والسنية العباسية، كان لا بد من إيلائها أهمية في هذا البحث.

(١) م . ن : ص ٩.

(٢) م . ن : ص ١٦.

(٣) م . ن : ص ٢٤.

الدعوة الإسماعيلية

كان التاريخ السياسي للدعوة الإسماعيلية من أهم مراحل تاريخ مختلف الفرق الإسلامية على الإطلاق؛ فقد احتلّ حيزاً طويلاً من التاريخ الإسلامي، فامتدّ ما يقارب من أربعة قرون - أي منذ العام (٢٧٨هـ/٨٩٢م) تقريباً، أي تاريخ بدء نشاط الحركة القرمطية، وانتهاءً بالعام (٦٧٢هـ/١٢٧٤م)، تاريخ القضاء على آخر معقل حركة الحشاشين (الإسماعيلية النزارية). وقد عاشت الإسماعيلية عصرها الذهبي منذ تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب، ثم انتقالها إلى مصر؛ فابتدأ تاريخ الدولة الفاطمية الفعلي في العام (٢٩٧هـ/٩١٠م) وانتهى في العام (٥٦٧هـ/١١٧٢م).

وافقت الإسماعيلية الشيعية الإمامية حول الأئمة الستة الأول - أي من الإمام علي بن أبي طالب إلى الإمام جعفر الصادق - إلا أنها ساقت الإمامة إلى أولاد اسماعيل (ت في السنة ١٤٢هـ/٧٦٠م) وهو الابن الأكبر لجعفر الصادق بدلاً عن أخيه موسى الكاظم (١٢٨هـ - ١٨٣هـ/٧٤٥ - ٧٩٩م)؛ فجعلت إسماعيل إماماً سابعاً وهو - كما تحسب الإسماعيلية - آخر الأئمة الظاهرين.

ولمدة قرن ونصف القرن تقريباً - بعد وفاة اسماعيل - ظل الأئمة الإسماعيليون مخبئين؛ ولم يكن يُعرف سوى القليل من أوجه نشاط دعائهم أو تعاليمهم. وبعد أن بدأ الخلفاء العباسيون يضعفون - منذ النصف الأول من القرن ٣هـ/القرن ٩م تقريباً - عندما تحولوا إلى أدوات عاجزة، وظهرت أسر إسلامية حكمت الأقاليم، وقامت سلطتهم على الابتزاز والاضطهاد، إستفاد الشيعة الإسماعيلية من هذه الظروف في الخروج إلى العلن.

إضافة إلى ذلك حدثت متغيرات اجتماعية واقتصادية، فكثر الثروة وجلبت القوة والغنى للبعض، والخيبة والفقر للبعض الآخر. فتمت في الريف الملكيات الكبيرة، وزاد الإفقار بصغار الملاكين. ومع تقدم التجارة والصناعة ولدت طبقة العمال المعدمين. فلم تستطع الشريعة الجافة، ولا الفلسفة المتعالية، أن تقدما أقل سلوى للمحرومين. فاستفادت الدعوة الإسماعيلية من الحالتين: إغناء فكرها من الثراء العلمي والفلسفي من جهة، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية من جهة أخرى^(١).

(١) لويس، برنارد: الحشاشون: دارآزال: بيروت: ١٩٨٦: ط٢: ص ص ٥٩ - ٦٣. (تعريب: محمد العزب موسى).

إتخذت الإسماعيلية، في بادئ الأمر، مقراً لها في منطقة الأهواز؛ ثم اتجهت نحو المغرب، ومهدت لقيام الدولة الفاطمية؛ فأنهت الإسماعيلية دور السر، وظهر الإمام عبد الله المهدي - مؤسس الدولة الفاطمية - في المغرب^(١).

ينقسم، إذاً، التاريخ السياسي للحركة الإسماعيلية، إلى مراحل ثلاث، أو إلى فرق ثلاث أساسية إلتقت في كنف العقيدة الإسماعيلية؛ لكنها كانت تمتاز، أحياناً، في الاتجاهات والطموحات السياسية. قد شهدت انقسامات، كما يلي:

- بعضها غلبت عليه الفلسفة: إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

- وغلبت على بعضها النزعة الاجتماعية الجماعية كالقرامطة.

- وغلبت على بعضها المحافظة كالفاطميين^(٢).

- وبعضها غلبت عليه أسلوب جماعات العمل المنظم (الحشاشون) في سبيل إرهاب الخصم^(٣).

كانت الدعوة الفاطمية - أكثرهم أهمية سياسية - تشكل القاسم المشترك، والحاضن الرئيس للفرق الإسماعيلية. ففي مراحل تأسيسها الأولى، تعايشت الدعوة الفاطمية - في خلال مرحلة تاريخية مشتركة - مع الحركة القرمطية؛ وفي مراحل انتهائها تعايشت مع حركة الحشاشين.

ويمكننا أن نحدد تلك الحقب على الشكل التالي:

- إبتدأت الحركة القرمطية في العام (٢٧٨هـ/٨٩٢م) وانتهت في العام (٣٧٥هـ/٩٨٦م).

- خرجت الدعوة الفاطمية إلى العلن في العام (٢٩٧هـ/٩١٠م) وانتهت في العام (٥٦٧هـ/١١٧٢م).

فالقرمطية، إذاً، سبقت تأسيس الدولة الفاطمية بحوالي العشرين عاماً. وأسست في البحرين دولة مستقلة عن الدولتين العباسية والفاطمية، وعاشت حوالي ٧٥ عاماً.

أما دولة الحشاشين (الإسماعيلية النزارية) فقد تأسست في العام (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وانتهت في العام (٦٧٢هـ/١٢٧٤م)، ورافقت الدولة الفاطمية حوالي ٨٤ عاماً، واستمرت حوالي القرن بعد انهيار الدولة الفاطمية.

(١) الليثي، سميرة مختار: م. س: ص ص ٢٣٨ - ٢٤١.

(٢) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣): م. س: ص ٥١٥.

(٣) بن عمر، سميرة: آل - موت أو أيديولوجيا الإرهاب الفلاني: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٩٢: ط ١: ص ١٩.

ولكن لم يكن بين الحركتين: القرامطة والحشاشين أي تاريخ مشترك.
أما عن العلاقة بين الإسماعيلية و القرمطية والحشاشين فكانت، في حدها الأدنى، أن
الدعوات الثلاث تنسب إلى الإسماعيلية - وهي الدعوة الأم. وسوف نرى، فيما يلي، عند
الكلام عنها مدى ما يجمعها وما يفرقها.

→ الدعوة القرمطية :

إلتبس الأمر عند بعض الباحثين في عدم التمييز بين الحركة القرمطية والدعوة الإسماعيلية؛
والسبب أن المعارضين للحركتين كانوا يتعمدون الربط بينهما، والقصد من وراء ذلك
اتهامهما معاً بالتدليس والخبث والمكر والاحتيال والخروج على الدين... لكن حقيقة الأمر أنه
كان بينهما علاقة مركبة ومعقدة^(١).

لقد نشأ القرامطة، كفرقة، في العراق في أول الأمر في العام (٢٧٨هـ/٨٩٢م) بعد إخماد
ثورة الزنج، أو قبل ذلك بقليل^(٢). وابتدأت الدعوة في أول الأمر على يد رجل ملقب بقرمط،
وكان يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول^(٣).

كان يوجد ثلاث فرق قرمطية، وهي: قرامطة سواد الكوفة - قرامطة بادية الشام - ثم
قرامطة البحرين. ولم تكن الفرق الثلاث موحدة البرامج^(٤).

فالدعوة القرمطية، التي قامت باسم المبادئ الإسلامية، ودعت إلى العدالة الاجتماعية،
لاقت قبولاً حسناً في منطقة واسط بين البصرة والكوفة. كان السكان هناك خليطاً من
الفلاحين العرب والنبط والأفارقة المتذمرين من سوء حالتهم الاجتماعية. ومن جنوب العراق
انتقلت الدعوة القرمطية إلى سائر الأمصار، وأهمها بادية الشام والبحرين.
اتصفت الحركة، بسبب حدة الاستغلال الطبقي، بالجزرية؛ ففرضت الضرائب
التصاعدية، وانتهت بإلغاء الملكية الفردية، وإقامة الملكية الجماعية، وضمان حق العمل للجميع
بما فيهم النساء والأولاد^(٥).

(١) بزّون، حسن: القرمطية بين الدين والثورة: دارالحقيقة: بيروت: ١٩٨٨: ط١: ص ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨٤: ط١٠: ص ٢٢٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري (ج ١٠): م. س.: ص ٣٤٤.

(٤) بزّون، حسن: م. س.: ص ٩٤.

(٥) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣): المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: ١٩٨٣: ط١: ص ٥١٧.

وقُضِيَ على قرامطة سواد الكوفة في العام (٣١٦هـ/٩٢٩م). وكان عددهم حينئذ عشرة آلاف، فأُسِرَ منهم كثيرون، وقُتِلَ أكثرُ ممن أُسِرَ^(١). وقامت بين حركة سواد الكوفة وبين الإسماعيلية روابط مهمة، لكن من دون أن تكون فرعاً منسجماً مع الإسماعيلية. لكن الإسماعيلية - التي كانت مازالت في دور الستر - كانت تعمل على أن تستفيد من الحركة القرمطية لخدمة سياستها وخطتها العامة. وافتُرقت الحركتان، بعد ذلك، في اللحظة المناسبة. وتفككت الحركة القرمطية في سواد الكوفة، وانفصل عنها زكرويه بن مهرويه، وقام باغتيال عبدان - زعيم الحركة - ووضع نفسه في خدمة الخطة الإسماعيلية بعد أن لجأ إلى بادية الشام ليؤسس حركته الجديدة^(٢). وكان أمرهم قد ابتدأ في البادية منذ العام (٢٨٩هـ/٩٠٢م). فأغاروا على القرى وقتلوا...^(٣).

→ ففي العام (٢٩٠هـ/٩٠٣م) هزم يحيى القرمطي - المعروف بالشيخ - جيشاً للعباسيين في دمشق، لكنه قُتِل. فاجتمع ما بقي من القرامطة حول أخيه الحسين، وأجابه أكثر أهل البوادي، فاشتدت شوكتهم، وسار إلى دمشق فقبض خراجاً، وانصرف عنهم. ثم سار إلى حمص فصالحهم، ثم إلى حماة فقتل أهلها - النساء والصبيان - ثم إلى بعلبك فقتل أهلها، ثم إلى سلمية فصالح سكانها، إلا أنه قتل كل بني هاشم والبهائم والصبيان. وسبى وقتل وأخاف في القرى التي حول سلمية. فاستفحل أمره إلى أن استطاع بدر - مولى ابن طولون - أن يهزمه ويقتل من أصحابه خلقاً كثيراً^(٤).

→ وفي العام (٢٩١هـ/٩٠٤م) إنهزم القرامطة، وقُتِلَ منهم خلق كثير، وأُسِرَ كثيرون منهم، ولم ينج إلا القليل، وأُسِرَ أميرهم - صاحب الشام - فاستقدم الخليفة المكتفي في بغداد جماعة من أعيان القرامطة ورؤوسهم في العراق، فقطع أيديهم وأرجلهم، وضرب أعناقهم. أما بالنسبة لأبي الشامه فقد قطع يديه، ووضع على خواصره خشباً مشتعلة، ثم ضرب عنقه، ورفع رأسه على خشبة ونصبت على الجسر^(٥).

→ وفي العام (٢٩٣هـ/٩٠٦م)، وبعد مقتل صاحب الشامه، تجمّع القرامطة في الشام، وتزعّمهم عبد الله بن السعيد، فأخذ عدداً من بلدات الشام، وقصد دمشق. فنهب القرامطة طبرية و السماوة وقتلوا وسبوا ونهبوا؛ واستمر الحال إلى أن قُتِلَ زعيمهم على يد رجل

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٤١.

(٢) بزّون ، حسن : م . س : ص ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٦م) : م . س : ص ٤٠٩.

(٤) م . ن : ص ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٥) م . ن : ص ص ٤٢١ - ٤٢٢.

قرمطي، تقريباً من الخليفة؛ فاقتتل القرامطة فيما بينهم، وعيّنوا لهم داعية جديداً. ثم دعاهم زكرويه بن مهرويه إلى الكوفة، فلبوا النداء، فنزلوا القادسية والتقوا بزكرويه، الذي كان مختفياً عن الأنظار، فسمّوه ولي الله. واقتتلوا مع جيش الخليفة فهزموه، ولم يسلم منه إلا من كانت دابته قوية؛ وقُتل منه أكثر من ألف وخمسمائة رجل، وغنم القرامطة شيئاً كثيراً.

→ وفي العام (٢٩٤هـ/٩٠٧م) قطع القرامطة، بقيادة زكرويه، طريق الحج؛ فقتلوا الحجيج وسبوا النساء. وبلغ مجموع ما قُتل من الحجيج عشرين ألفاً، وكانت غنائمهم ألفي ألف دينار؛ لكن جيش الخليفة هزم القرامطة أخيراً، وأسير زكرويه وجماعة من خواصه، فمات متأثراً بجراحه^(١).

وكانت حركة قرامطة البحرين من أهم الحركات القرمطية، التي ظهرت في العام (٢٨٦هـ/٨٩٩م) فاستقرت أحوالها في أواخر القرن ٣هـ/ القرن ٩م، عندما استولت على المناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية، وأنشأت شكلاً من أشكال الحكم الجمهوري فيها؛ واتخذت منها - لمدة تزيد على القرن - قاعدة للعمليات العسكرية والدعائية ضد الخلافة العباسية^(٢).

نزل رجل يدعى يحيى بن المهدي القطيف في العام (٢٨١هـ/٨٩٥م)، وادّعى أنه رسول المهدي إلى البحرين، فدفع أهلها له أموالاً إستجابة لرسالة من المهدي، ودفعوا له الخمس أيضاً. واستجاب أبو سعيد الجنابي لدعوة يحيى^(٣). وتدل استجابة أهل منطقة البحرين لدعوة يحيى، والمبادرة إلى دفع الأموال له على تعلق الناس بالنظرية المهدية.

كان الوضع السياسي في البحرين في صف المعارضة المناهض للخلافة العباسية منذ تاريخ طويل. وقبل ظهور الدعوة الإسماعيلية، كان التشيع الغالي قد شقّ طريقه لتقبّل الدعوة القرمطية الجديدة. وكانت استجابة أهل القطيف ليحيى بن المهدي تدل على رغبتهم في استعجال ظهور المهدي^(٤).

→ وفي العام (٢٨٧هـ/٩٠١م) عظم أمر القرامطة بالبحرين؛ فأعدّ المعتضد لهم جيشاً، فلحقت الخسائر بالطرفين، إلا أن المعركة كانت لصالح القرامطة، فقتل أبو سعيد الجنابي كل أسرى الجيش العباسي، وحرّقهم^(٥). وكان أبو سعيد قد استولى على الأحساء والقطيف

(١) م . ن : ص ص ٤٣٢ - ٤٣٤.

(٢) لويس ، برنارد : م . س : ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٦م) : م . س : ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٤) يزوّن ، حسن : م . س : ص ١٠٨.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٦م) : م . س : ص ٤٠٠.

والطائف، وسائر بلاد البحرين. لكنه قُتل في العام (٣٠١هـ/٩١٤م) على أيدي خادم له^(١). وأصبحت البحرين دولة مستقرة تحت حكم القرامطة، وكانت نقطة انطلاق لهم إلى بقية الأمصار، فكانوا منها يغزون أراضي العراق والحجاز.

→ ففي العام (٣١١هـ/٩٢٤م) غزا أبو طاهر القرمطي مدينة البصرة، فقتل صاحبها، ووضع السيف في أهلها، وقتل خلقاً كثيراً، وحمل معه مالا وأمتعة ونساءً وصبياناً، وعاد^(٢).

→ وفي العام (٣١٢هـ/٩٢٥م) إعرّض أبو طاهر طريق الحجاج ونهبهم. فأخذ جماعهم جميعاً وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، وعاد إلى هجر^(٣). ثم دخل الكوفة، وأقام فيها ستة أيام، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب^(٤).

→ وفي العام (٣١٥هـ/٩٢٨م) استولى على الكوفة، فأرسل المقتدر إليها جيشاً، فأسر أبو طاهر أمير الجيش وعدداً كثيراً من أصحابه؛ فدخل المنهزمون بغداد حفاة عراة. وتابع أبو طاهر سيره إلى الأنبار واستولى عليها. وأثار الرعب في بغداد. لكن جيش الخليفة العباسي منعهم من دخولها. وعن قلة عدد القرامطة وكثرة جيش الخليفة، قال المقتدر: "لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعماية". وللدلالة على قوة عقيدة القرامطة وصلاتهم، يُروى أنه قبض على قرمطي، فحقق الخليفة العباسي بنفسه معه، فأجاب: "ما صحبت أباً طاهر إلا لما صبح عندي أنه على الحق، وأنت وصاحبك كفار... ولسنا كالرافضة الإثني عشرية، الذين يقولون بجهلهم: إن لهم إماماً ينتظرونه..."^(٥).

→ وفي العام (٣١٦هـ/٩٢٩م) تابع أبو طاهر غزوه، فدخل الدالية والرحبة، فقتل من قتل. ثم نهب الأعراب في الجزيرة، فأخذ أموالهم، وقرّر عليهم إتاوة: على كل رأس دينار يحملونه إلى هجر. ثم أخذ الرقة فسنجار^(٦).

→ وفي العام (٣١٧هـ/٩٣٠م) إقتلع القرامطة الحجر الأسود، ورافق هذا العمل قتل للحجيج، وقطع طريق الحج^(٧). إلا أنهم أعادوا الحجر الأسود في إطار تسوية مع العباسيين - إلى مكة في العام (٣٣٩هـ/٩٥١م)^(٨).

(١) م. ن : ص ٤٨٢.

(٢) م. ن : (٧م) : ص ١٥.

(٣) م. ن : ص ١٨.

(٤) م. ن : ص ٢٣.

(٥) م. ن : ص ٢٤.

(٦) م. ن : ص ٢٨.

(٧) الطبري : تاريخ الطبري (ج ١١) : م. ن : ص ٤٦٤.

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م. ن : ص ٢٣٤.

واستمرت دولة القرامطة في البحرين على علاقات متذبذبة مع الدولة الفاطمية من جهة، ومع الدولة العباسية من جهة أخرى. وأنهى قرامطة البحرين آخر أيامهم في العام (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م).

→ ففي العام (٣٦٣هـ/ ٩٧٤م) سار القرامطة من الأحساء إلى مصر، بقيادة الحسن القرمطي، لمحاربة المعز لدين الله - الخليفة الفاطمي - فاجتمع إلى القرامطة جمع كثير، فنهبوا البلاد. لكن المعز لدين الله استطاع أن يقهرهم بالحيلة؛ وذلك أنه استطاع رشوة قائد من قوادهم، فعاد الحسن القرمطي بعد هزيمته إلى الأحساء^(١).

لما انهزم القرمطي أمام جيوش المعز قصد دمشق فلاحقته جيوش المعز وحاصروه فيها، فانهزم؛ واعتقل أمير دمشق القرمطي وابنه. واعتقل رجل كان يتكلم في الفاطميين، وأُحضِر إلى المعز فأمر بسلخه بين يديه، وحُشِيَ جلده تبنًا، وصُلب بعد ذلك. وبعد أن انتصر قائد المعز على القرامطة، أقبل نحو دمشق، فأفسد أصحابه من المغاربة ونهبوا وقطعوا الطرقات؛ فاجتمع العامة للقتال، وحصلت فتنة بين أهل الشام والمغاربة، وطال القتال بينهم إلى العام (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م). ومات على إثر ذلك كثير من الفقراء في الطرقات من الجوع والعطش^(٢).

→ وفي العام (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م) قدم الحسن القرمطي لمساعدة الفتكين التركي - مولى معز الدولة بن بويه - بناءً على طلبه، وكان الفتكين قد استولى على بلاد الشام من أيدي الفاطميين؛ فقدم الحسن القرمطي المساعدة لمواجهة جيوش العزيز، الخليفة الفاطمي، بقيادة جوهر، فهزموه، وطارده إلى الرملة وعسقلان. فقاد العزيز جيشاً في العام (٣٦٧هـ/ ٩٧٨م) واستطاع أن يهزمهما، لكنه أحسن إلى الفتكين وأكرمه. وأحسن إلى القرمطي، أيضاً، وأرسل إليه عشرين ألف دينار، وجعلها سنوية، فكان يرسلها إليه في الأحساء^(٣)، لكي يكف شره^(٤).

تعود العلاقة بين القرامطة والدعوة الإسماعيلية إلى العام (٣١٥هـ/ ٩٢٨م)؛ ويُستدل على ذلك من خلال رواية ابن الأثير، ومضمونها: أنه قُبِضَ على رجل قرمطي، فصرَّح أنه علني مذهب القرامطة لأنهم على الحق، وإن العباسيين كفاراً، وقال: "إمامنا المهدي محمد بن فلان... بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم في بلاد المغرب". وقد ميَّز هذا القرمطي

(١) م . ن : ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٣٥٥ - ٣٥٨.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١١) : م . س : ص ٢٨٢.

مذهبه عن الشيعة الآخرين قائلاً: "ولسنا كالرافضة الإثني عشرية، الذين يقولون بجهلهم أن هم إماماً ينتظرونه"^(١).

إلا أنه، على الرغم من أن القرامطة يتحذرون من أصول عقائدية إسماعيلية، فقد بدأت معارضتهم للتيار الفاطمي بعد قيام الدولة الفاطمية؛ وبلغت حدود الثورة عليها والقتال ضدها؛ وحاولوا غزو مصر لإزالة الدولة الفاطمية عدة مرات^(٢).

أما انتساب القرامطة إلى المعتقد الإسماعيلي فقد كان وسيلة لمحركهم ضد العباسيين؛ فاتخذوا من الدعوة إلى المهدي معتقداً دينياً لإضفاء الشرعية اللازمة على حركتهم. واستفاد الفاطميون - بدورهم - من نتائج الصراع الذي خاضه القرامطة ضد العباسيين^(٣).

وإنه على الرغم من أن الحركة القرمطية في البحرين كانت ذات أصل إسماعيلي، إلا أن زعيمها أبو سعيد الجنابي صاغ علاقات الحركة السياسية ومعتقداتها الدينية وفقاً لما يناسب مصالح حركته؛ والدليل على ذلك انتقالها من الإسماعيلية إلى الحنفية، فإلى التحالف المتقلب مع الفاطميين تارة، ومع العباسيين تارة أخرى^(٤).

علاقة الدعوة الإسماعيلية بالدولة الفاطمية :

قبل تأسيس الدولة الفاطمية، وفي العام (٢٦٧هـ / ٨٨٠م)، استطاعت بعثة إسماعيلية أن تستقر في اليمن، وتكتسب كثيراً من المؤيدين، وتحقق قاعدة لسلطتها السياسية هناك. ولما حصل انشقاق خطير في داخلها، عاد النفوذ العباسي إلى اليمن من جديد؛ وكانت نهاية تلك الحركة في العام (٣٠٣هـ / ٩١٦م)^(٥).

ومنذ أن تأسست الدولة الفاطمية في العام (٢٩٧هـ / ٩٠٩م)، إلى أن انتهت في العام (٥٦٧هـ / ١١٧١م)، قامت عدة دويلات ذات اتجاهات مذهبية، منها السني ومنها الشيعي. وعلى سبيل الاستفادة، وفي سبيل إلقاء ضوء على ما أصاب الأمة من تشتت فرقي، كان لا بد من أن نعرض بشكل موجز لتاريخ تلك الدويلات.

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٣٤.

(٢) الكيالي ، عبد الوهاب : موسوعة السياسة (ج٣) : م . س : ص ٥١٧. راجع: هشي، سليم حسن: في الإسماعيليين والدروز: دارلحد خاطر: بيروت: ١٩٨٥: ط٢: ص ٢٢.

(٣) بزّون، حسن : م . س : ص ١٦٥.

(٤) م . ن ك ص ١١٢.

(٥) هشي ، سليم حسن : م . س : ص ١٠٣.

ولأن الدولة العباسية كانت الغطاء التاريخي لتلك الدويلات، ستتجاوز الكلام عنها؛ وسينحصر عرضنا في الكلام عن الدويلات فقط:

- الدولة الحمدانية (٣١٧ - ٤٠٦ هـ/٩٢٩ - ١٠١٥ م)، وتأسست في بلاد الشام، وقد استمرت زهاء القرن، وهي شيعية المذهب. فلما ناءت تحت عبء الصراع ضد البيزنطيين من جهة، والفاطميين من جهة أخرى، ضمها آخر أمراءها - ابن لؤلؤ - إلى الدولة الفاطمية في العام (٤٠٦ هـ/١٠١٥ م)^(١).

- الدولة البويهية (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ/٩٣٢ - ١٠٥٥ م)، واستمرت لقرن وربع القرن تقريباً. تمكنت أسرة شيعية في إيران أن تؤسس الدولة، وأن تستولي على بغداد، فتضع الخليفة العباسي تحت السيطرة الشيعية. لكن البويهيون احتفظوا بالعباسيين كخلفاء صوريين. وقرروا عدم الاعتراف بأي مطالب علوي بالخلافة، بدعوى أن الإمام الثاني عشر اختفى منذ سبعين عاماً تقريباً^(٢).

- الحشاشون: أو الإسماعيلية النزارية (٤٨٣ - ٦٦٨ هـ/١٠٩٠ - ١٢٧٠ م)، واستمرت إلى ما يقرب من القرنين من الزمن. وستكلم عنها لاحقاً.

- دولة المرابطين (٤٤٨ - ٥٤١ هـ/١٠٥٦ - ١١٤٦ م)، وحكمت في المغرب زهاء قرن من الزمن. سيطر فقهاء المذهب المالكي على الحياة الفكرية والدينية في البلاد. وعُدَّت كتب أبي حامد الغزالي (٤٥١ - ٥٠٥ هـ/١٠٥٩ - ١١١١ م) من الفكر المتحرر، فأحرقت، وحُرِّمَ تدريسها^(٣).

- دولة الموحدين (٥٢٤ - ٦٦٨ هـ/١١٢٩ - ١٢٦٩ م)، وتميَّزت بسلفيتها الرافضة للبدع، وشبهات التشبيه والإشراك بالله. وبقدر من الاستنارة رفضوا تشدد الفقهاء وجمودهم، كما كان الحال عند المرابطين.

ورثت دولة المرابطين، ووحدت أمصار المغرب العربي: مراکش - الجزائر - تونس. وعلا في بلاد الموحدين نجم كوكبة من الفلاسفة والمفكرين، ومن بينهم ابن طفيل وابن رشد^(٤).

- الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ/٩٠٩ - ١١٧١ م):
في العام (٢٨٩ هـ/٩٠١ م) عظم أمر أبي عبد الله الشيعي في إفريقيا، فواجهه أميرها، وسقط في المعارك بينهما خلق عظيم^(٥). وبعد أن انتشرت الدعوة الشيعية - الإسماعيلية في

(١) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٢): م. س: ص ٧١٢.

(٢) لويس، برنارد: م. س: ص ٦٠.

(٣) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٢): م. س: ص ٧٢٣.

(٤) م. س: ص ٧٢٥.

المغرب، وبعد أن سيطر أبو عبد الله على أجزاء منها، استدعى عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤م) من سلمية - وقد عُهِدَت الخلافة إليه - بكتاب يشره فيه بما فُتِحَ عليه في المغرب^(١).

ولما حضر عبيد الله وقع في أيدي أمير سلجقاسة؛ فبادر أبو عبد الله إلى احتلال المدينة وخلص المهدي؛ وكان قد سيطر على كل إفريقيا بعد قتال شديد، وضحايا كثيرة؛ فزال ملك بني الأغلب وملك بني رستم؛ ومَلَكَ المهدي جميع ذلك في العام (٢٩٧هـ / ٩٠٩م)^(٢). وبعد أن استتب الأمر للمهدي قتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه العباس، وذلك بعد أن بدأت الشكوك تساور الطرفين. وقال الذي قتلها: "الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك". فثارت فتنة بسبب قتلها، وراح ضحيتها الكثير من الأرواح^(٣).

عمل المهدي على توسيع رقعة خلافته، ولهذا سِيرَ في العام (٣٠١هـ / ٩١٣م) جيوشاً إلى مصر، فأخذ أكثرها؛ ولكن المقتدر بالله - الخليفة العباسي - أجلاهم عنها^(٤). وأعاد الكرة في العام (٣٠٢هـ / ٩١٤م) فاقتل الجيشان في أكثر من أربع وقعات؛ وانهزم أصحاب المهدي، فبلغ عدد القتلى سبعة آلاف مع الأسرى. فقتل المهدي، نتيجة للهزيمة، قائد حملته على مصر، فخالفه عروبة الكتامي في القيروان وقد جمع حوله كثير من البرابر. فأخرج إليه المهدي جيشاً، فاقتلوا قتالاً شديداً. فقتل عروبة، وقُتِلَ عالم لا يُحْصَوْنَ^(٥). وعاد المهدي إلى غزو مصر في العام (٣٠٧هـ / ٩١٩م)، وهلك كثيرون في المعارك، وفُشِلَ غزو مصر^(٦). إلا أنهم احتلوها في العام (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) على يد جوهر الصقلي، فنقلت مركز الخلافة إليها. وبهذا قويت الدولة الفاطمية، وشمل نفوذها المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي وصولاً إلى اليمن فمكة فدمشق، بل وبلغ سلطانها الموصل - في العراق - وكادوا يقتحمون بغداد على خلفاء بني العباس^(٧).

سقطت الدولة الفاطمية، من بعد أن لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدعوة الإسلامية، بفعل العديد من العوامل، كان من أهمها: سيطرة أمير الجيوش الفاطمي على الحكم الفعلي، فأضحى الخلفاء الفاطميون صوريين كالخلفاء العباسيين. وبعد وفاة آخر خليفة فاطمي في العام

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٦م): م. س: ص ص ٤١٤ - ٤١٥.

(١) م. ن: ص ٤٥٣.

(٢) م. ن: ص ٤٦١.

(٣) م. ن: ص ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٤) م. ن: ص ٤٨٣.

(٥) م. ن: ص ٤٨٦.

(٦) م. ن: ص ٥٠١.

(٧) الكيالي، عبد الرهاب: موسوعة السياسة (ج ٢): م. س: ص ٧١٩.

(٥٦٥هـ/١١٧٠م) أمر القائد الكردي صلاح الدين الأيوبي بالدعاء للخليفة العباسي في بغداد. وهكذا أعلن رسمياً إلغاء/انتهاء الخلافة الفاطمية بعد عمر ناهز القرنين ونصف القرن تقريباً^(١).

دولة الحشاشين (٤٨٣ - ٦٥٤هـ/١٠٩٠ - ١٢٥٦م) :

إعتق الحسن بن الصباح (٤٨٣ - ٥١٨هـ/١٠٩٠ - ١١٢٤م) الدعوة الإسماعيلية، وسافر إلى القاهرة - مركز الخلافة الفاطمية - ولخلاف حصل بينه وبين أمير الجيوش الفاطمي، أبعاد عن القاهرة في العام (٤٧٤هـ/١٠٨١م)، وعاد إلى بلاد فارس لينشر الدعوة الإسماعيلية فيها على قاعدة إيجاد مستقر له يحمي فيه، فكانت قلعة (أل - موت) في شمالي إيران مناسبة لهذا الغرض^(٢).

وفي العام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) واجهت الدعوة الإسماعيلية أزمة كبرى؛ فقد مات الخليفة الفاطمي المستنصر في القاهرة تاركاً خلفه نزاعاً على الوراثة. فرفض إسماعيلية فارس الاعتراف بخليفته على العرش الفاطمي، وأعلنوا إيمانهم بأن الخليفة الشرعي هو ابنه الأكبر المطرود نزار^(٣). فنشأت الإسماعيلية النزارية - المؤيدة لخلافة نزار - وكان الحسن بن الصباح من أوائل الذين أسسوها.

أدرك الصباح أنه لا يمكن لدعوته أن تقتصر في وجه الأكثرية الأصولية، التي يمثلها الإسلام السني، إلا بما يمكن لقوة صغيرة منظمة ومنضبطة أن تلجأ إليه في مواجهة عدو أقوى، خاصة وقد أصبح خارج دائرة الحماية الفاطمية بعد انفصاله عنها؛ فكان الإرهاب هو الوسيلة. وأما الفكر الذي يلهمه، فلم يكن غريباً عن دعوته. ومثل هذا الفكر، في مثل المجتمع الإسلامي في القرن ٥هـ/القرن ١١م - حيث لا فصل بين الدين والسياسة - لا يمكن أن يتموضع إلا في نطاق الدين^(٤). وتقول بن عمرو عن محتوى هذا الفكر: هو التصور الخاص لمفهوم الجهاد ونظرية الإمامة. وفي سبيل انتصار الإمامة الحقيقية عنده كان لابد من استخدام أسلوب الاغتيال، الذي يندرج في إطار الجهاد ضد معتصي الإمامة^(٥).

(١) لويس، برنارد: م. م. ص: ص ٧٠-٧٢.

(٢) م. م. ن: ص ٨٠-٨٥.

(٣) م. م. ن: ص ٩٦.

(٤) بن عمرو، سميرة: م. م. ص: ص ١٩.

(٥) م. م. ن: ص ٢١.

كان هدف فرقة الحشاشين القضاء على الدولة الإسلامية السنية، وتكوين دولة إسلامية شيعية؛ وذلك عن طريق تصفية رؤوس الدولة السنية ورموزها (مثل الخلفاء - كبار رجال الدولة - الذين يقفون مع السلطة...) ^(١).

إنطلقت فرقة الحشاشين، بزعامة مؤسسها الحسن بن الصباح، وسيطرت على قلعة (أل - موت) في شمالي إيران، وعمل على إخضاع المقاطعات المجاورة. وعلى أيدي الحشاشين قُتل الخليفة المسترشد بالله في العام (٥٢٩هـ/١١٣٥م). ثم قُتل نجله الراشد بالله في العام (٥٣٠هـ/١١٣٦م). ومنذ ذلك التاريخ لم يجرؤ أحد من الخلفاء العباسيين على الظهور أمام الرعية. واستمرت دولة الحشاشين من العام (٤٨٣ - ٦٦٨هـ/١٠٩٠ - ١٢٧٠م)، وسقطت على أيدي هولاكو الذي وطّد العزم على إبادة الإسماعيلية التي كانت تمتلك أكثر من أربعين قلعة حصينة ^(٢).

(١) الكيالي، عبد الوها: موسوعة السيامة (ج ٢): م . س: ص ٥٤٦.

(٢) بن عمرو، سميرة: م . س: ص ٤٢ - ٥٤.

الفصل الرابع

إفتراق الأمة عقائدياً

(العلاقة الجدلية بين الصراعات السياسية وافتراق الأمة إلى مذاهب دينية)

تمهيد

وضعت التناقضات حول مسألة الخلافة، وكذلك الحاجة لحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الوافدة، التشريع الإسلامي أمام مهمة وضع حلول لها. ولأن العقيدة الإسلامية - كما يعتقد المسلمون - تتضمن حلولاً لكل المشكلات، أي لكل ما له علاقة بالدنيا والآخرة، عمل الفقهاء على استنباط حلول من الكتاب والسنة؛ لكنهم اختلفوا فافترقوا بالنتائج، وأخذ الالتباس دوره حينما حاولوا تزويج الدين بالسياسة.

- فالقائم بالخلافة كان بحاجة إلى مختلف الحجج، دينية وسياسية وفلسفية، لتبرير سلطانه.
- والمعارض الطامح للوصول إلى السلطة يشعر أنه بحاجة إلى ما يدعم معارضته ومطالبه.
- والجائع والمغبون، اقتصادياً - اجتماعياً - عرقياً، كان يفتش عما يدعم حججه للمطالبة بحقوقه.

لذلك كان هؤلاء جميعهم، في ظل دولة تحكم بالإسلام، بحاجة إلى أدلة إسلامية/دينية.

نتيجة لهذه الأسباب، وغيرها، تكاثرت الفرق الدينية - السياسية، فاصطدمت ببعضها تارة، وبالسلطة تارة أخرى. وحصل تحت ستار النصوص الدينية كثير من حالات تزويج المتناقضات بين الفرق ذاتها من جهة، أو بين الفرق وبين السلطة من جهة أخرى. وحصلت حالات من التصارع والتناقض في وجه السلطة السياسية، منها ما كان مُسلحاً، ومنها ما كان من دون سلاح؛ ومنهم من كان ناقماً على السلطة لاغتصابها للخلافة، ومنه من كان ناقماً عليها لما يحصل من تجاوز للتقاليد والقيم الدينية، ومنه من كان ناقماً على حرمانه من حقوقه السياسية.

جاء، في هذه المرحلة، حديث الفرقة الناجية من النار - المنقول عن الرسول - ليدفع بحركة الصراع الملهي إلى أقصى مدياته. فتزاحم المسلمون - على شتى مذاهبهم وفرقهم، منذ البواكير الأولى للصراع السياسي على الخلافة - في سبيل احتلال موقع الفرقة الناجية من النار. لم يكن هذا التسابق عادياً، وإنما كانت مسألة الحسم فيه لمصلحة هذه الفرقة أو تلك يعني تحديد مصيرها في الدنيا والآخرة. فليس هناك حلاً وسطاً: فإما أن تكون الفرقة في النار أو أن تكون في الجنة. ولأن الفرقة الناجية هي واحدة، ولا يحتمل الحديث النبوي أية تسوية ما بين الكفر والإيمان - فالمؤمن في الجنة، والكافر في النار، وليس بمنزلة بين المنزلتين، كما تحسب فرقة المعتزلة. فإما أن تكون الفرقة ناجية أو لا تكون وهي فرقة واحدة وليست فرقتين. لذلك كان اكتساب صفة المؤمن أو الكافر هي السلاح الذي سُل من قرابه في الحرب الضروس بين الفرق الإسلامية بالذات، وليس بين المسلمين أو المشركين. فكل فرقة تعتقد - مُدَّعِمة عقائدها بالنص الديني - أنها المؤمنة الوحيدة، وكل الفرق الأخرى، غيرها، هي الكافرة. وفي هذه الحال لا صلح بين مؤمن وبين كافر. بل من واجبات المؤمن أن يقتصر من الكافر، خاصة إذا كان مسلماً، فهو ليس بكافر عادي بل هو كافر مرتد، وحكم المسلم المرتد هو القتل. فلنفتح صفحات التراث ولننظر فيها، فماذا سوف نرى يا ترى؟

١ - الفرق المذهبية الإسلامية واتجاهاتها العقائدية

نرى أنه من المفيد أن نتناول بالبحث أوضاع الفرق المذهبية الإسلامية في سياقاتها التاريخية؛ على أن نُمَيِّز - في أثناء مراحل نشوئها - بين الفرق التي نشأت في العصر الأموي، ونتناولها بالدرس بمعزل عن الفرق التي نشأت في العصر العباسي.

فإذا كانت الفرق بذرة غُرِسَتْ منذ عهد الخلافة الراشدة، وبتحديد أكثر منذ وفاة الرسول مباشرة، فقد كان العصر الأموي يمثل - بالنسبة لنشأة الفرق - المرحلة الانتقالية بين مرحلة انغراس البذرة ونموها لتصبح - في العصر العباسي - شجرة مكتملة النمو في اتجاهاتها العقائدية والسياسية على حد سواء.

١ - اتجاهات الفرق الإسلامية في العصر الأموي

باستثناء الفرعين الرئيسيين: السنة والشيعة - أي من يقول بالنص على خليفة للرسول، ومن ينكر ذلك - تكونت في العصر الأموي بذور فكرية وعقائدية أسست لما جاء بعدها، وكان الرائد فيهما: فرقتي المرجئة والقدرية اللتين أسستا لفرقة المعتزلة - كأهم فرقة كلامية في تاريخ الإسلام - لكنهما لم يلعبا دوراً سياسياً بقدر ما كانت اتجاهاتهما عقائدية - كلامية. فأما الفرقة التي لعبت دوراً كبيراً - عقائدياً وسياسياً - فهي فرقة الخوارج.

→ فرقة المرجئة : لما استلم الأمويون الخلافة في العام (٤١هـ/٦٦٢م) أسس جمهور من الناس اتجاهاً عقائدياً أكثر منه فرقة منظّمة - في مقابل الخوارج. كان اتجاه هذه الفرقة في مقابل الخوارج - القائلين بتكفير صاحب الكبيرة -: لا نعلم ما في باطن الناس، ولا ندري حقيقة من هو المسلم، ومن هو الفاسق. وبما أن الجميع مسلمون في الظاهر، لذلك نسميهم مسلمين، ونرجئ ثوابهم وعقابهم إلى يوم القيامة ليحكم الله في ذلك.

إستفاد الأمويون، سياسياً، من هذه الفرقة؛ وأصبحت سبباً في توطيد دعائم الحكم الأموي. وما إن انهار هذا الحكم حتى فقدت تلك الفرقة القوة والمنزلة^(١). فهي لم تُقَرَّ بإمامة

(١) مشكور، محمد جواد: موسوعة الفرق الإسلامية: م . س : ص ٤٥.

علي ولا بخلافة معاوية. ونُقِلَ عن سعيد بن جبير أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "المرجئة يهود هذه الأمة"^(١).

→ فرقة الجبرية: إن "الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى ... فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً..."^(٢). وهم يعتقدون بأن العباد ليسوا من أصحاب الأفعال؛ وينسبون الخير والشر إلى الله^(٣). وقد انتهت الجبرية في أوائل القرن الرابع للهجرة^(٤).

كانت أفكار الجبرية سلاحاً دينياً في يد الأمويين للدفاع عن مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية؛ فإنما الخلافة التي وصلت إليهم كانت أمراً من الله لا يد لهم فيه^(٥).

→ فرقة القدرية: تقول "بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، ولا لشيء من أعمال الحيوانات؛ وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير"^(٦).

نشأت القدرية في أثناء العصر الأموي بعد أن بدأت ملامحها تتضح في العهد الراشدي. والقدرية هي مبدأ حرية الاختيار، كما أنها تتضمن بعداً سياسياً يطال حكم الأمويين، وفيها دعوة إلى الثورة عليهم واقتلاع ظلمهم^(٧).

لم يكن أصحاب فرق المرجئة والجبرية والقدرية، على العكس من فرقة الخوارج، أصحاب مشاريع سياسية - دينية، وإنما استفاد منهم السياسيون.

→ فرقة الخوارج: كان للخوارج مشروعاً سياسياً مدعماً بالنص الديني، وعملوا على تطبيقه بقوة السيف. فكل ما وصل إلينا أنهم كانوا من أصحاب علي بن أبي طالب، ولما اتخذوا موقفاً - وكان يُعدُّ موقفهم الأول - من مسألة التحكيم، فبنوا عليه نصاً واعتقادات أخرى ومن ثم تابعوا صياغة مشروعهم السياسي، وناضلوا من أجله. وهم على خلاف ما ظهر عليه المشروع الشيعي، الذي ابتداءً سياسياً، بتأييده لعلي بن أبي طالب، وانتهى إلى صياغة معتقد مذهبي - ديني خاص به. أما الأمويون فلم يكن لديهم مشروعاً دينياً - مذهبياً خاصاً بهم سوى ما حازوا عليه من تأييد فئة من المسلمين لهم من جهة، وكانوا على الطرف النقيض

(١) م . ن : ص ص ٤٦٠ - ٤٦٥.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (١م) : م . س : ص ٨٥.

(٣) مشكور ، محمد جواد : م . س : ص ٤٥.

(٤) تامر ، عارف : معجم الفرق الإسلامية : م . س : ص ٤٨.

(٥) دكرو، برهان الدين : م . س : ص ٣٧٠.

(٦) البغلاوي ، عبد القاهر : م . س : ص ٩٤.

(٧) مروة ، حسين : النزعات المادية... (ج ١) : م . س : ص ٥٦٤.

للمشروع السياسي العلوي من جهة أخرى. أما العلويون فقد نشأت دعوتهم على تلازم المشروعين السياسي والديني معاً، وحسبوا أن الخلافة/ الإمامة منصوب علىهما في القرآن والسنة النبوية؛ وأنها ليست شأنًا سياسياً منفصلاً عن الدين، أو شأنًا دينياً منفصلاً عن السياسة، وإنما كانت الإمامة - كما يحسب الشيعة - أصلاً من أصول الإسلام.

ولأننا تكلمنا - بما يكفي حاجة بحثنا هذا - عن مشروع الخوارج السياسي، واقتناهم - في سبيل تأسيسه - مع الأمويين والزبيريين والشيعة؛ فقد أتى المكان المناسب للكلام عنهم كفرقة دينية. وقد جاء عنهم ما يلي:

نشأت فرقة الخوارج في العام (٣٧هـ/٦٥٨م) على إثر التحكيم في معركة صفين. وانتشرت، لاحقاً، في الأمصار التالية: عُمان - البصرة - الكوفة - الحجاز - حضرموت - اليمن - شرقي إفريقيا - الخليج العربي - إيران - بعض مناطق خراسان^(١). استمر تأثيرهم، نسبياً، حتى القرن ٦هـ/ القرن ١١م، بعد أن زال عهد الدولة الإباضية في المغرب عندما سيطر الفاطميون على شمالي إفريقيا^(٢).

ومن معتقداتهم أنهم كفّروا علياً وعثمان ومعاوية والحكمين؛ وأجازوا الخلافة في غير قريش، وجوّزوا خلافة غير العربي، وكذلك خلافة العبيد بشرط التقى والعدل والشجاعة^(٣). وقالوا: نضحّي بأرواحنا لنحصل على الجزاء الأخروي استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ (البقرة ٢: ٢٠٧). والآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ (التوبة ٩: ١١١)^(٤). لكن الخوارج اختلفوا فيما بينهم، فصاروا مقلد عشرين فرقة كل واحدة تُكفّر سائرهما^(٥):

كان ما يجمعهم - على افتراق مذاهبهم - إكفار علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكمين، والإكفار بارتكاب الذنوب، ووجوب الخروج على الإمام الجائر^(٦).

ومن بعض خلافاتهم أن الأزارقة - اتباع نافع بن الأزرق، وهم أكبر فرق الخوارج - تقول بأن مخالفهم من هذه الأمة مشركون. أما المحكّمة الأولى فتقول أنهم كفرة. لا

(١) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ص ٦٠ - ٦١.

(٢) م. م. ن: ص ٦٢.

(٣) م. م. ن: ص ٢٣٩.

(٤) م. م. ن: ص ص ٢٢٨ - ٢٣٩.

(٥) البغدادي، عبد القاهر: م. م. س: ص ١٥.

(٦) م. م. ن: ص ٥٥.

مشركون؛ وقالت، أيضاً، أن القَعْدَةَ - ممن كان على رأيهم - عن الهجرة إليهم مشركون وليسوا كُفَّاراً^(١). وأما النجدات فقد أكفروا من قال بإكفار القَعْدَةَ عن الهجرة^(٢).

زعم نافع بن الأزرق واتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر، ويجوز فيها قتل النساء والأطفال^(٣). وقد هاجم النجدات المدينة والقطيف، فسبوا النساء والذرية^(٤). وعلى العموم فإنه من المفيد أن نتكلم عن أهم فرق الخوارج، وأهم ما يميز معتقدات كل منها:

≈ الأزارقة: "يمكن القول أنهم كانوا أصحاب آراء ومعتقدات نابغة في أصولها من كتاب الله، ويصح تصنيفها في باب الفقه والاجتهاد"^(٥). وأهم آرائهم أن زعيمهم نافع بن الأزرق قد كفر مخالفيه "ولم يقبل منهم إلا الهجرة إليه، ليهجروا بذلك ديار الكفر ويدخلوا ديار الإسلام، وإلا فالسيف لأعناقهم، لأنهم ككفار العرب الذين لم يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. ومن لم يهاجر إليه من الخوارج فهو بمنزلة الكفار أيضاً"^(٦).

وكفر الأزارقة علياً وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس، وصوبوا قتل ابن ملجم لعلي. واستحلوا دماء أطفال المشركين^(٧). وقد نشبت بينهم خلافات خطيرة، وكثر التخاصم والجدل فيما بينهم؛ فكفر بعضهم بعضاً لأسباب^(٨).

→ النجدات: ردوا على الأزارقة الحجة بالحجة، والرأي بالرأي، واستخرجوا آيات من القرآن تدفع ادعاءات الأزارقة. وعلى الرغم من الحوار الذي دار بين زعيمهم لم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر باجتهاده ورأيه^(٩). وارتكب النجدات أخطاء في الاجتهاد واختلفوا ووقع الانقسام بينهم^(١٠).

→ البيهسية: إنقسموا عن الأزارقة لخلافات فقهية بينهم. وقالوا إن ديار مخالفيهم من أهل القبلة هي ديار كفر؛ فأباحوا قتلهم وأخذ أموالهم. وكانوا يكفرون الرعية بكفر إمامها؛

(١) م . ن : ص ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) م . ن : ص ٦٧.

(٣) م . ن : ص ص ٦٣ - ٦٤.

(٤) م . ن : ص ٦٧.

(٥) معروف ، نايف : م . س : ص ٢٢٢.

(٦) م . ن : ص ٢٢٣.

(٧) م . ن : ص ٢٢٥.

(٨) م . ن : ص ٢٢٦.

(٩) م . ن : ص ٢٢٨.

(١٠) م . ن : ص ٢٣١.

وحينئذ يستحلون من أهل القبلة قتل رجالهم، وسبي نسائهم، واغتصاب أموالهم. لقد كفر بعضهم من يشرب من بئر نزلت فيه قطرة خمر سواء عرف بذلك أو لم يعرف. أما بعضهم الآخر فقد أباحوا السكر، ولم يروا إقامة الحد على السكران^(١).

→ الصفرية: إنشعبت، أيضاً، عن ابن الأزرقي^(٢). ولم يكفروا القعدة عن القتال. وأجازوا التقية. ولم يروا قتل النساء والأطفال^(٣). لكنهم كفروا تارك الصلاة، والفار يوم الزحف. وافتقت إلى أكثر من فرقة^(٤).

→ الإباضية: تفرعت عن الأزارقة. وهي فرقة معتدلة، وهذا ما يفسر استمرارها حتى اليوم في بعض مناطق شمال إفريقيا وعمان وزنجبار^(٥). وهم يتابعون أسلافهم في تكفير علي، وأكثر الصحابة. وتفرقوا إلى فرق مختلفة^(٦).

ومما يلفت الانتباه أن مسائل الخلاف بين فرق الخوارج لا تمس عقائدهم السياسية. ويدل ذلك على أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حُدّدت شروط ممارستها^(٧). ويصح القول أن الخوارج كانوا جماعة ثورية، تحمل مثلاً دينية سيطرت على مشاعرهم^(٨).

يقول الشهرستاني أن للخوارج بدعتان: أنهم جوزوا أن تكون الخلافة في غير قريش، ووقوفهم ضد تحكيم الرجال^(٩). وفي مقابل تكفير الخوارج لمخالفهم، فإن الأمة - يقول البغدادي - قد أكفرتهم في هذه البدع^(١٠).

كان من الطبيعي أن تجمع الفرق الإسلامية الأخرى على تكفير الخوارج، خاصة وأنه لم يستثنوا من الاتهام بالتكفير سوى القليل من صحابة الرسول أولاً؛ ولأنهم كانوا أحد أربعة من الأفرقاء المسلمين الطامحين إلى استلام الخلافة (الأمويون - شيعة علي بن أبي طالب - الزبيريون - الخوارج)، فتميزوا بمشروع سياسي جدي يقاتلون من أجل تطبيقه ثانياً؛ وإنهم استطاعوا أن

(١) م . ن : ص ص ٢٣١ - ٢٣٣.

(٢) م . ن : ص ٢٣٤.

(٣) م . ن : ص ٢٣٦.

(٤) م . ن : ص ٢٣٧.

(٥) م . ن : ص ٢٣٩.

(٦) م . ن : ص ٢٤١.

(٧) م . ن : ص ٢٤١.

(٨) م . ن : ص ٢٤٣.

(٩) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١١٠.

(١٠) البغدادي ، عبد القاهر : م . س : ص ٦٤.

يستقطبوا عشرات الآلاف من المسلمين في البصرة وأرض فارس^(١) ثالثاً؛ ولأنهم حاربوا على أكثر من جبهة - لسنين طوال - كلاً من شيعة علي، والزبير، والأمويين، رابعاً؛ إلى أن حُصِرَت حركتهم وأُنْهَكَت في أواخر العهد الأموي.

وعلى العموم، رُوِيَ عن الرسول ذم القدرية والمرجئة والخوارج^(٢). يقول البغدادي إن المتأخرين من الصحابة "أوصوا أخلافهم بأن لا يسلّموا على القدرية، ولا يصلّوا على جنائزهم، ولا يعودوا مرضاهم"^(٣).

٢ - اتجاهات الفرق الإسلامية في العصر العباسي.

بعد أن انتهى أمر الخوارج والزبيريين، وبعد أن أصبح الحكم الأموي يتجه نحو السقوط، حتى كانت بذرة افتراق الأمة قد أخذت تتجذّر وتفرّخ فرقاً جديدة؛ وقد ساعدت عوامل أخرى على تنمية هذا التفريخ من غير العوامل الذاتية، وكان أهمها:

- إنفتاح العرب المسلمين على قوميات وجنسيات أخرى.

- إنفتاح العلماء المسلمين على حضارات واتجاهات فكرية متعددة.

كان من أهم ما حصل - على الصعيد الثقافي - بدء عصر التدوين، الذي ابتدأ يهتم بتسجيل الأحداث السابقة؛ ولهذا السبب سُجِّلَت أحداث المرحلة السابقة، من تاريخ الإسلام، متأخرة عن حصولها قرناً ونصف القرن.

وما إن أطلَّ العصر العباسي حتى أخذت مسألة افتراق الأمة إلى مذاهب تشق طريقها بثبات... ثم ابتدأت مرحلة بنائها واكتملت.

كان العصر العباسي يُعَدُّ عصر التضخم في تعدد المذاهب الإسلامية واتجاهاتها. فاستفحل أمرها، وساعدت على المزيد من التفسخ والفرقة؛ حيث كانت الأجواء مساعدة على ذلك. ففتح الناس عيونهم، فرأوا الأمة الإسلامية الواحدة ممزقة الأوصال، تتوزعها فرق وكيانات شتى، يرمي بعضهم بعضاً بالكفر والزندقة^(٤).

كانت الصراعات - الفتن السياسية تسير جنباً إلى جنب الصراعات العقائدية - الدينية فتتغذى إحداها من الأخرى. ومع أن للصراع السياسي علاقة جدلية مع الصراع العقائدي، يغذيه ويتغذى منه، إلا أن أرجحيته في التأثير كانت بارزة: ففي يده المال والسلطة، العصا

(١) م . ن : ص ص ٦٤ - ٦٦.

(٢) م . ن : ص ٥.

(٣) م . ن : ص ١٥.

(٤) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ٨.

والجزرة. ولكن كان مما لا شك فيه أن السلطة السياسية كانت تستمد شرعيتها من قوة تأييد الشريعة لها؛ فكان الفقهاء/ العلماء المسلمون يلعبون هذا الدور مسلحين بالنص الديني؛ وكانت المعارضة تستمد شرعيتها، أيضاً، من تأييد الشريعة لها، مسلحة بالنص الديني أيضاً...

كان من أهم مظاهر الصراع أن انكب كل من السلطة والمعارضة - فقهاء السلطة وفقهاء المعارضة - على تدوين ما يحسبون أنه أصول السُّنة من حوادث حصلت في عهد الرسول ومما جاء من أحاديث منسوبة إليه من جهة؛ والاعتماد على تفسير القرآن من جهة أخرى. فكانت الفرق الإسلامية - عقائدياً وسياسياً - تتغذى من الكتاب والسنة. وإذا كان الكتاب قد سلم من الروايات المتعددة، إلا أن السُّنة وقعت فريسة سهلة لأغراض شتى الفرق الإسلامية فنجلت الأحاديث النبوية إلى درجة أن أصبحت تتناقض مع بعضها البعض؛ فوُقت - كما نحسب - أكبر محنة في الحديث النبوي، فكيف حصل ذلك؟ وما هي تأثيراته على وحدة الإسلام؟

كانت "مشكلة الفكر السياسي الإسلامي الأولى تتجسد في الخلافات التي وقعت بين المسلمين حول الحديث النبوي وتفسير القرآن وروايات التاريخ، وخاصة حوادث الصدر الأول من الإسلام. فقد تسببت المصالح في إيجاد واقع غير سليم للمسلمين في عهود المصالح السياسية"^(١). وكان "اختلاف المسلمين في السُّنة ظاهرة غير طبيعية أوجدت الخلافات بين المسلمين وافتراقهم إلى فرق... فقد نُسبَ إلى الرسول ﷺ أنه نهى عن كتابة أحاديثه. ومما يُروى عنه بهذا الخصوص قوله ﷺ: (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج) ... وهناك أحاديث أخرى تشير إلى السماح بكتابة أحاديثه ﷺ منها: حديث أنس (قلوا العلم بالكتاب)، وحديث رافع بن خديج: قلت يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها؟ قال: أكتبوا ولا حرج"^(٢).

إلا أنه، وعلى الرغم من تناقض الحديثين المذكورين، فقد اتجه الفقهاء والخلفاء إلى تدوين الحديث - بغزارة - في القرنين الأول والثاني؛ وكان القرن الثالث من أهمها، لأن حركة الجمع والنقد نشطتا، أيضاً. وفيه أُلِّفت أهم كتب الحديث، وهي: صحيح البخاري (ت في السنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م). وصحيح مسلم (ت في السنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م). وسنن ابن ماجه (ت في السنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م). وسنن أبي داود (ت في السنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م). والترمذي (ت في السنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٣م). وسنن النسائي (ت في السنة ٣٠٣هـ/ ٩١٦م). وقد أصبحت هذه الكتب مصدراً أساسياً لكل الكتب التي جاءت فيما بعد^(٣).

(١) حسن، حسن عباس: الصياغة المنطقية للفكر السياسي الإسلامي: م. س: ص ١٩٦.

(٢) م. ن: ص ١٩٧.

(٣) أمين، أحمد: ضحى الإسلام (ج ٢): م. س: ص ص ١٠٨ - ١٠٩.

وضع الأمويون - فعلاً - أو وُضِعَتْ لهم أحاديث تخدم سياستهم من فواح متعددة، منها أحاديث في زيادة مناقب عثمان، ومنها استغلال الفتن من مقتل عثمان، ووقعة الجمل، وفتن الخوارج، وفتنة ابن الزبير^(١).

وجرى في عصر العباسيين ما جرى في العصر الأموي، فكان للوضع في الحديث شأن "فالخلافة أصبحت مجالاً لضعفاء المحدثين من كل جانب، يضعون فيها ما يوافق مذهبهم. فالسُّنِّيُّون يرون أن النبي ﷺ لم يعهد بالخلافة لأحد، وأن النبوة والخلافة لا تورثان، كما لا يُورث مال الأنبياء... والشيعية لا يرون ذلك، ويرون النص على علي وولده؛ والسُّنِّيُّون يرون أن الأئمة في قریش، والخوارج يرون أنها في كل المسلمين، يختار منهم أصلحهم ولو كان عبداً حبشياً كان رأسه زبيبة..."^(٢).

ولقد جرت انقسامات كثيرة في داخل صفوف الفقهاء. فهناك انقسام بين أهل الحديث وأهل الرأي. وهناك انقسامات في داخل أهل الحديث، وانقسامات في داخل أهل الرأي. فاختلاف أهل الحديث وأهل الرأي حمل بعض الفقهاء من أهل الحديث على وضع ما كان ينقصهم ملء الفراغ الذي لم يرد فيه نص.

وانقسام المذاهب الكلامية (الرأي) إلى معتزلة ومرجئة وشيعية وخوارج وأهل سنة حملت كثيرين على تأييد مدعاهم بأحاديث لم تصح^(٣).

وأدى انقسام أهل الحديث إلى التوسع في شروط صحته، أو التضيق في هذه الشروط؛ مما أدى إلى اتباع وسائل النقد لتحديد الأحاديث الصحيحة، فنُوْقِشَت الأسئلة التالية: "هل معناه مما يصح أو لا يصح؟ وهل الظروف الاجتماعية التي قيل فيها الحديث تؤيد أنه صحيح أو موضوع؟ وهل هناك احتمال الوضع لأسباب سياسية أو مذهبية أو شخصية؟ وهل الحديث يتفق وقواعد الإسلام أو لا يتفق؟"^(٤).

وكانت الخصومة دائرة بين المحدثين والفقهاء من أصحاب الرأي "والذي أثار هذه الخصومة هم المحدثون، وشنَّعوا على أصحاب الرأي لأنهم يستنبطون الأحكام بناء على رأي أو قياس، ولأنهم يُقلِّون من رواية الحديث. وكان مظهر هذه الخصومة على أتمها بين الحجازيين والعراقيين

(١) م . ن : ص ١٢٣.

(٢) م . ن : ص ١٢٥.

(٣) م . ن : ص ١٢٦.

(٤) م . ن : ص ١٣٠.

في عهد مالك وأبي حنيفة . فأهل الحجاز - غالباً - أهل حديث؛ وأهل العراق - غالباً - أهل رأي. واستمر ذلك في العصور التي بعدهما، حتى ترى المحدثين لا يروون كثيراً للحنفية^(١). وكانت الخصومة أشد وأعنف بين المحدثين والمتكلمين، وسبب ذلك أن منحى المتكلمين منحى عقلي، ومنحى المحدثين منحى نقلي^(٢). يقول ابن قتيبة في صدر كتابه (تأويل مختلف الحديث): يعيب أهل الكلام أهل الحديث برواية التناقض "حتى وقع الاختلاف وكثر النحل... وتعادى المسلمون، وأكفر بعضهم بعضاً، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث"^(٣). بالإضافة إلى تصارع الفقهاء وأصحاب المذاهب حول تفسير آية أو الاستناد إلى حديث، إشتركت العامة في الجدل والصراع، ولكن على طرائقهم الخاصة. وحول هذا يروي ابن الأثير ما حصل في العام (٣١٧هـ/٩٢٩م) كما يلي: "وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المرزوي الحنبلي وبين غيرهم من العامة، ودخل كثير من الجند فيها. وسبب ذلك أن أصحاب المرزوي قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿عسى أن يعثلك ربك مقاماً محموداً﴾ (الإسراء: ٧٠). هو أن الله سبحانه يُقْعِدُ النبي ﷺ معه على العرش. وقالت الطائفة الأخرى: "إنما هو الشفاعة". ف وقعت الفتنة واقتتلوا، فقتل بينهم قتلى كثيرة"^(٤).

وكان الحنابلة أصحاب شأن في السيطرة على العامة، والاستناد إليهم في افتعال الفتن مع المذاهب الأخرى؛ وتأتي المذاهب السنية على قائمة الذين كان الحنابلة يصطدمون بهم من أجل الخلافات في التفسير أو الفقه. ويذكر بعضاً من هذه الحوادث كل من ابن الأثير وابن كثير^(٥).

ومما يرويه ابن الأثير عن دور العامة، التي كانت تؤيد الحنابلة، أنه لما توفي أبو جرير الطبري في العام (٣١٠هـ/٩٢٢م)، دُفِنَ ليلاً بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وادَّعوا عليه الرفض، ثم ادَّعوا عليه الإلحاد؛ والسبب في ذلك أن بعض الحنابلة تعصبوا عليه لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل؛ ولما سُئِلَ عن تجاهله أجاب أنه لم يكن فقيهاً، وإنما كان محدثاً، فاشتدَّ عليه الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة في بغداد، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا^(٦).

(١) م . ن : ص ١٣٤.

(٢) م . ن : ص ١٣٤.

(٣) م . ن : ص ١٣٥.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٥٧.

(٥) راجع: - ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ١١٤.

- ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٢) : م . س : ص ١٠٢ و ١٨٧.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٨.

أما فقهاء الإمامية - الشيعة الإثني عشرية - فقد عرّفوا السُّنة بأنها: أوامر المعصوم ونواهيه وتعليماته التي فاه بها - أفعاله وأعماله التي قام بها - تقريراته التي أقرّ بها من يعمل من أصحابه عملاً بمحض ومنظر منه^(١).

فلما ثبت لفقهاء الإمامية أن المعصوم من آل البيت يجري قوله مجرى قول النبي من كونه حجة على العباد واجب الاتباع، فقد توسعوا في اصطلاح السُّنة إلى ما يشمل قول كل واحد من المعصومين أو فعله أو تقريره^(٢).

وعلى العموم فقد انتشرت الفرق الإسلامية، في العصر العباسي، انتشاراً واسعاً، فبلغت المئات. ويردُّ معظم الدارسين أصول هذه الفرق إلى ما حصل من انشقاقات سياسية في داخل صفوف المسلمين بعد وفاة الرسول.

يأتي الصراع على الخلافة على رأس هذه الأسباب: لمن تكون؟ وكيف تكون؟ فتدور أسباب إنبات البذرة الأولى في ذلك الصراع حول أحقية آل بيت الرسول في الخلافة، أم أنها في كل قریش. فنشأ في بدايات الصراع إنشقاق بين تيارين: تيار آل بيت الرسول ويتزعمه صهره وابن عمه علي بن أبي طالب، وبعض الصحابة المؤيدين. وتيار صحابة الرسول الآخرين، وعلى رأسهم من تولى الخلافة الراشدة قبل علي، واستمر بقيادة بني أمية؛ فعُرفَ التيار الأول بالتيار الشيعي، وأما التيار الثاني فعُرفَ بأهل السُّنة والجماعة.

وعن التيارين الرئيسين، السنة والشيعة، أخذت تتوالد فروع وفرق متعددة، بحيث يحافظ هذا أو ذاك من تلك الفروع على قضايا الصراع - الأم، وتتمايز عن بعضها البعض بخلافات عقائدية، أحياناً، وخلافات سياسية، أحياناً أخرى. وقد أدت عمليات الانشقاق إلى ولادة عشرات الفروع، واستطاعت اتجاهات دينية وسياسية إسلامية ذات أعراق قومية، وذات أصول دينية سابقة على الإسلام، أن تأخذ دورها وتدخل إلى الإسلام - كما عدّه فقهاء المسلمين من التيارين الرئيسين - عقائد غريبة واتجاهات تخريبية...

وعلى هذا المتوال كانت تنشأ فرق، ثم تندثر؛ وما بقي منها - حتى الآن - لا يكاد يبلغ العشرين^(٣).

وعلى أي حال، ولأننا لن نخوض في الكلام حول عشرات الفرق - التي بلغت أكثر من مائة وخمسين - وهذا أمر عسير على بحث محدود مثل بحثنا هذا، فالعمل الموسوعي، لمن يريد التفصيل، هو خير وسيلة للإطلاع لمن يشاء.

(١) علي تقي الخليلي: أصول الإمتنباط: ص ١٢: نقلاً عن: حسن، حسن عباس: م. س: ص ١٩٦.

(٢) محمد رضا المظفر: أصول الفقه (ج ٣): ص ٦١: نقلاً عن: حسن، حسن عباس: م. س: ص ١٩٦.

(٣) مشكور، محمد جواد: م. س: للقلمة ص ١٠.

وتسهيلاً لعملنا في البحث - بغاياته المحدودة - سنستفيد مما قام به بعض الدارسين، من حيث أنهم حصروا أهم الفرق التي مازالت حيّة، فقاموا بتقسيمها إلى تيارات تبعاً لتأثيرها الواضح على مجرى التاريخ الإسلامي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم لا يخرج عن دائرة التيارين الرئيسين: السُّنة والشيعة. لهذا سنقوم باتباع هذا التقسيم، وسنخضع كلاً من الفرق - الفروع للتصنيف في دائرته الأساسية.

أ - الفرق السُّنِّيَّة :

جاء في موسوعة الفرق الإسلامية عن السُّنة والجماعة ما يلي: "أهل السنة هم أتباع سُّنة رسول الله ﷺ كما يقولون. وهم أربع فرق في الفروع والأحكام العملية، وهذه الفرق هي: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية. وكانت هناك مذاهب أخرى منسوخة، إنقرض أكثرها ... ويتبع أهل السنة سيرة النبي ﷺ والصحابة والخلفاء الراشدين؛ ويقولون بأن كل ما وصل عنهم فهو سُّنة، وإلا فهو بدعة"^(١). وتعتقد "السُّنة" بأن هذه المذاهب الأربعة عندما يتفق أصحابها يكون حق وصواب"^(٢).

وهم يؤمنون بأنه يجب أن "يُكف" عن ذكر الصحابة إلا بخير"، و"أفضل البشر بعد نبينا: أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى..."^(٣). ويرون أن "النصوص من الكتاب والسنة تحمّل على ظواهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد وكفر. والاستهانة بالشرعية والاستهزاء بها كفر. والياس من الله تعالى كفر. والأمن من الله كفر. وتصديق الكاهن بما يخبره عن الغيب كفر..."^(٤).

وجاء في تعريف أهل السنة والجماعة، ما يلي: "والصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمع المُرّين بحدوث العالم، وتوحيد صانعه، وقُدَميه، وصفاته، وحكمته، ونفي التشبيه عنه، ونبوة محمد ﷺ، ورسالته. إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأن كل ما جاء به حق، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وإن الكعبة هي القبلة التي يجب الصلاة إليها. فكل من أقرّ بذلك كله، ولم يُشبهه ببدعة تؤدي إلى الكفر، فهو السُّني الموحّد"^(٥).

(١) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ٢٩٠.

(٢) تامر، عارف: م. م. س: ص ٩.

(٣) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ٢٩٣.

(٤) م. ن: ص ٢٩٣.

(٥) البغدادي، عبد القاهر: م. م. س: ص ١٠.

وجاء حول أصناف أهل السنة والجماعة، أنهم الذين سلكوا في علمهم "طرق الصفاتية من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل، ومن بدع الرافضة والخوارج ... وسائر أهل الأهواء الضالة... وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة..."^(١).

ويُجمع أهل السنة على إيمان المهاجرين والأنصار من الصحابة، ويحسبون أن موقفهم هو على خلاف ما زعم "الرافضة أن الصحابة كفرت بتركها بيعة علي، وخلاف قول الكاملية في تكفير علي بتركه قتالهم". وأجمعوا أيضاً على أن من شهد مع رسول الله ﷺ بداراً واحداً وبيعة الرضوان من أهل الجنة. وقالوا بتكفير كل من أكفر واحداً من العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة ... وأكفروا من أكفر بعض زوجات الرسول ﷺ ... وقالوا بموالاة الحسن والحسين والمشهورين من أسباط الرسول... وسائر أولاد علي من صلبه دون من مال منهم إلى اعتزال أو رفض^(٢).

يحدد البغدادي - وهو من أهل السنة، شروط الإمامة، كما يعتقد بها أهل السنة والجماعة، كما يلي:

- إن الإمامة فرض واجب على الأمة.
- إن عقد الإمامة للإمام يتم عن طريق الاختيار بالاجتهاد، وليس بالنص.
- من شروط الإمامة النسب من قریش، على خلاف الضرارية التي تزعم أن الإمامة تصلح في جميع أصناف العرب وفي الموالي والعجم.
- من شرط الإمام العلم والعدالة والسياسة. وليس من شرطه العصمة من الذنوب كلها، وذلك خلاف ما زعمت الإمامية بإجازة التقية للإمام، ويصحح له - في هذه الحال - أن يقول لست بإمام وهو إمام؛ فهذا أباحوا له الكذب في هذا مع قولهم بعصمته من الكذب.
- تنعقد الإمامة بمن يعقدها لمن يصلح للإمامة إذا كان العاقد من أهل الاجتهاد والعدالة.
- وقالوا لا تصلح الإمامة إلا لواحد في جميع أرض الإسلام إلا أن يكون بين الصقيعين حاجز من بحر أو علو.
- قالوا بإمامة أبي بكر الصديق؛ وقالوا بتفضيل أبي بكر وعمر وعلي من بعدهما لأنهم اختلفوا في التفاضل بين علي وعثمان. وقالوا بإمامة علي في وقته.

(١) م . ن : ص ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) م . ن : ص ص ٣٥٢ - ٣٥٤.

- قالوا في تصويب علي في حروبه بالبصرة وصفين والنهروان. وإن طلحة والزبير تابا. وإن عائشة قصدت الإصلاح بين الفريقين. وإن معاوية وأصحابه بغوا علي بن أبي طالب وأخطأوا فيه ولم يكفروا بخطئهم. وقالوا: عمروق الخوارج لأنهم أكفروا الصحابة، ومن أكفر المسلمين وأكفر الصحابة، فهو الكافر منهم^(١).

يرد ابن حزم على الشيعة، بجميع فرقهم، الذين يقولون بأن الإمامة تعود إلى علي بن أبي طالب بالنص، وكذلك إلى ذريته من بعده، بأن "عمدة هذه الطوائف كلها في الاحتجاج أحاديث موضوعة مكنوبة، لا يعجز عن توليد مثلها من لا دين له ولا حياء". ويتابع ابن حزم فيبين عقم الاحتجاج عليهم بالروايات، وعقم احتجاج الشيعة على السنة برواياتهم، فإنه "لا معنى لاحتجاجنا عليهم برواياتنا فهم لا يصدقونها؛ ولا معنى لاحتجاجهم علينا برواياتهم فنحن لا نصدقها. وإنما يجب أن يحتج الخصوم بعضهم على بعض بما يصدقون الذين تقام عليه الحجة به، سواء صدقه المحتج أو لم يصدق، لأن من صدق بشيء لزمه القول به، أو بما يوجب العلم الضروري، فيصير حيثئذ مكابراً منقطعاً إن ثبت على ما كان عليه"^(٢).

ويصف البغدادي أن ما تقول به الفرق الأخرى، من غير أهل السنة والجماعة، هي بدع؛ ومن أهمها: عدم موافقة الصحابة، كمثّل النظام - زعيم القدرية - الذي طعن في أكثر الصحابة، فأوجب عليهم الخلود في النار. وكمثّل واصل بن عطاء الذي شك في عدالة عدد منهم. وعمرو بن عبيد الذي قطع بتفسيق فريقين حرب الجمل. وكمثّل الخوارج الذين أكفروا معظم الصحابة. وكمثّل الغلاة من الروافض وسائر الحلولية الذين يئنون خروجهم عن فرق الإسلام. وكمثّل الزيدية، والجارودية منهم بخاصة، الذين يكفرون أكثر الصحابة. وكمثّل الشيعة الإمامية الذين اتهموا الصحابة بالردة بعد النبي^(٣).

فالحكم على هؤلاء - كما يصدّره البغدادي - حكم دنيوي، فهو يقول: "وإن كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية أو الزيدية أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية أو المجسمة، فهو من الأمة في بعض الأحكام وهو جواز دفنه في مقابر المسلمين، وفي أن لا يُمنع حظه من الفياء والغنيمة إن غزا مع المسلمين، وفي أن لا يُمنع من الصلاة في المساجد. وليس من الأمة في أحكام سواها، وذلك ألا تجوز الصلاة عليه ولا خلفه، ولا تحل ذبيحته، ولا نكاحه لامرأة سنية. ولا يحل للسني أن يتزوج امرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم"^(٤).

(١) م . ن : ص ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(٢) ابن حزم : الفصل في الملل... () : م . س : ص ١٥٩.

(٣) البغدادي ، عبد القاهر : م . س : ص ص ٣٠٤ - ٣٠٩.

(٤) م . ن : ص ١١.

ولأن البغدادي يعمل جاهداً في مؤلفه على أن يبرهن على أن أهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية من النار، استناداً إلى حديث الرسول، يرى أنه قد وقع في التناقض مع نفسه في أحكامه تلك مع مضمون الحديث المذكور.

إن حديث الفرقة الناجية يفرض أحكاماً أخروية؛ وأما البغدادي فيفرض أحكاماً دنيوية. فحكم غير الفرقة الناجية أن يكون في النار، ونحن نعرف أنه لا يكون في النار إلا مرتد عن الإسلام أو مشرك أو كافر. أما حكم الكافر في الدنيا: إما أن يعلن إسلامه أو يُقتل. وحكم المرتد إما أن يتوب أو أن يُقتل.

لقد خفف البغدادي أحكامه على الفرق الأخرى - من غير أهل السنة والجماعة - فإذا كان أهل السنة والجماعة هم الفرقة الوحيدة الناجية من النار، فعلى الفرق الأخرى أن لا تنجو منها. وهكذا فإن من يدخل النار هو إما أن يكون مشركاً كافراً أو مرتدّاً عن الإسلام غير تائب. فمن أين دخلت الرحمة إلى قلب البغدادي كي يقوم بتخفيف أحكام النص فنحن لا ندري!!! ومع أن معظم فقهاء السنة يحسبون أن الفرقة الناجية من النار هم أهل السنة والجماعة، إلا أنه لم يثبت أنهم فرقة واحدة تقودهم مرجعية دينية إسلامية مركزية توحد أحكامهم، وتمنعهم من الوقوع في التناقض إلى درجة التقاتل.

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي تدل على ذلك.

لم تكن المذاهب، حتى أوائل العصر العباسي، قد تكونت؛ وإنما كان هناك جمهور من الفقهاء والمحدثين، وكانوا كثيرون العدد يتوزعون في مختلف الأمصار الإسلامية؛ ولم يكن هناك تشريع موحد للدولة الإسلامية، فلما جاء العصر العباسي أخذت المذاهب تتحدد أكثر فأكثر، وأخذ كل مذهب يستقل عن غيره من المذاهب الأخرى؛ وأخذ كل مذهب يُعرف باسم مؤسسه، فيتجمع من حوله تلاميذ وأتباع، يأخذون عنه ويقلدونه وينحون منحاها. وكانت هناك مذاهب وفرق كثيرة غير تلك التي نعرفها اليوم؛ فمات أكثرها لعدم وجود تلاميذ أقوياء ينصرونها، أو لعدم وجود الجاه والسلطان، وما إليهم، من يعتق هذا المذهب أو ذاك^(١).

لذلك لم يبق من مذاهب أهل السنة سوى أربعة منها، وهي:

→ الحنفية : وهم أتباع أبي حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ / ٧٠٠ - ٧٦٧ م). ألقاه المنصور (الخليفة العباسي) في السجن لأنه لم يقبل تعيين الخليفة له قاض لبغداد. كان يقول بالاجتهاد والرأي، وتبرأ من أهل الحديث. أقر الاستحسان والقياس (الرأي) كأصل، فأصبح ركناً رابعاً بعد

(١) أمين، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : م . س : ص ص ١٧٢ - ١٧٣.

القرآن والسنة والإجماع. ولم يُقَرَّ أكثر من سبعة عشر حديثاً^(١). لقد وسَّعت مدرسة أبي حنيفة الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزم ذلك من رأي وقياس واستحسان، في سبيل مواجهة المشاكل المعقدة التي قدمتها المدنية الضخمة في العراق بسبب وجود قوميات آشورية وكلدانية وفارسية، وغيرها...^(٢).

→ **المالكية** : وهم من أتباع مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ/٧١٢ - ٧٩٦م). لقد جلدته عم المنصور بالسوط لأنه قال بأن البيعة غير جائزة مع الإكراه والإجبار. كان يعتمد على القرآن والحديث، ويقبل الحديث حتى لو كان من خبر الواحد. كان يرجع إلى القياس أحياناً. يسود المذهب المالكي - اليوم - في المغرب العربي؛ ويبلغ أتباعه زهاء الخمسين مليوناً^(٣).

أثرت مدرسة مالك في الفقه بما نقلت من أحاديث وافرة بحكم قيام الرسالة الإسلامية في المدينة، وكثرة الصحابة بها، وبما قدمت من أشكال وأوضاع تداولها السكان جيلاً بعد جيل^(٤). وانتقده الشافعي لأنه كان يترك، أحياناً، حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأي نفسه^(٥).

→ **الشافعية** : وهم أتباع الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤هـ/٧٦٧ - ٨٢٠م). ومنهجه وسط بين المذهبين الحنفي والمالكي. وهو من المقرئين بالأدلة الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ ومن القائلين بالاستدلال. تفوق مذهبه على سائر المذاهب في مستهل القرن ١٠هـ/القرن ١٦م^(٦). لازم الشافعي مالكا، وأخذ عن محمد بن الحسين - صاحب أبي حنيفة - فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث^(٧).

أما منحاه في الاجتهاد فهو: "الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن قياسي عليهما. وإذا نُقِلَ الحديث عن رسول الله وصحَّ الإسناد فيه فهو سنة؛ والإجماع عنده أكبر من الخبر المفرد^(٨). أما إذا ثبت الحديث عن رسول الله، فإنه لا يتركه لأي قياس ولا لأي رأي، ولا لأي أثر يُروى عن صحابي كائناً من كان، أو عن تابعي كائناً من كان^(٩). وقد هاجم مالكا لأنه ترك، أحياناً،

(١) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) أمين، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : م . س : ص ٢١٨.

(٣) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ص ٤٤١ - ٤٤٢.

(٤) أمين، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : م . س : ص ٢١٨.

(٥) م . ن : ص ٢٢٤.

(٦) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ٣٠٠.

(٧) أمين، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : م . س : ص ٢٢٠.

(٨) م . ن : ص ٢٢٣.

(٩) م . ن : ص ٢٢٤.

حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة أو التابعين؛ وهاجم أهل الرأي لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس على خبر الآحاد^(١).

→ الحنبلية : وهم أتباع أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥ م). يقوم مذهبهم على خمسة أصول: الكتاب، والسنة، وفتاوى الصحابة، وأقوال بعض الصحابة المطابقة للقرآن، وجميع الأحاديث المرسلة والضعيفة، ويُعدُّ من مخالفي أبي حنيفة^(٢).

لقد عُذَّ ابن حنبل من كبار المحدثين، وحل خلاف حول عُدَّه من الفقهاء. إن فقهاء، على العموم، مبني على الحديث؛ فإذا وجد حديثاً صحيحاً لم يلتفت إلى غيره؛ وإذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها؛ وإذا وجد فتاوى لهم تخير أقربها إلى الكتاب والسنة؛ وإذا وجد حديثاً مرسلأً أو ضعيفاً رجَّحه على القياس، وهو لا يستعمل القياس إلا عند الضرورة القصوى^(٣).

ومن صفات المؤمن من أهل السنة، عند ابن حنبل، أنه الذي:

- لا يُكفِّر أحداً من أهل التوحيد بذنب...

- أرجأ ما غاب عنه من الأمور إلى الله...

- من ترخَّم على جميع أصحاب محمد - صغيرهم وكبيرهم - وحدث بفضائلهم، وأمسك

عماً شجر بينهم...

- الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، لذلك دعا المسلم طالباً منه: أن لا تخرج عليهم بسيفك،

ولا تقاتل بفتنة، وتلزم بيتك^(٤). والسبب عنده أن: "من غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسُمِّيَ أمير المؤمنين، فلا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برأ كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين"^(٥).

واستمر المذهب الحنبلي، وأتبع خطاه، وكان من كبار أركانهم: أحمد بن تيمية (٦٦١ -

٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م). ومحمد بن عبد الوهاب (ت في السنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م)^(٦).

يعتقد أهل السنة والجماعة أنه عندما يتفق أصحاب المذاهب الأربعة يكون حق وصواب؛ وعندما يختلفون يُحتمل الوقوع في الخطأ والانحراف، لأن كل مجتهد يخطئ ويصيب، والحق واحد لا يتغير^(٧).

(١) م . ن : ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٣) أمين، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : م . س : ص ص ٢٣٥.

(٤) نقلاً عن محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي : م . س : ص ص ١٣١ - ١٣٢.

(٥) م . ن : ص ص ٥٤.

(٦) مشكور، محمد جواد : م . س : ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٧) تامر، عارف : م . س : ص ص ٩.

ويعتقدون، أيضاً، أن "النصوص من الكتاب والسنة تُحمل على ظواهرها، والعلول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحاد وكفر. والاستهانة بالشرعية والاستهزاء بها كفر..."^(١).

وعلى العموم، لم يكن أصحاب المذاهب الأربعة متفقين حول مسألة الخلافة، كإشكالية رئيسة في الفكر الإسلامي؛ بل كان التناقض موجوداً بين ثلاثة من زعماء مذاهب أهل السنة والجماعة حول عدد من جوانب هذه المسألة: يأتي ابن حنبل بعد أبي حنيفة، ومالك بن أنس، فيناقضهما بمبدأ الخروج على الخليفة فيقول أنه لا يجوز للمسلم ذلك؛ فأما هما فأفتيا بإجازة الخروج عليه ولم يتورعا عن مساعدة الخارجين عليه.

- أما مالك بن أنس، وعلى الرغم من وجود خليفة، فأفتى ببيعة محمد النفس الزكية - المطالب الشيعي الزيدي بالخلافة - وأحلّ للمسلمين نكث بيعة المنصور، الخليفة العباسي، حيث قال لهم: إنما كنتم مكرهين، وليس لمكره بيعه^(٢).

- وأما أبو حنيفة فقد أجاز الخروج على الخليفة. يروي السيوطي أن أبا جعفر المنصور ضرب أبا حنيفة ثم سجنه، فمات بعد أيام. وقيل: إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه^(٣). ويرى أهل الحديث، على العموم، أن "السيف باطل، ولو قُتِلَت الرجال وسُيِّتَ اللرية؛ وإن الإمام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان"^(٤).

ويُروى أن أتباع مذاهب أهل السنة والجماعة، لم يحتكموا فقط إلى خلافت فقهاء عابرة، وإنما كانوا، أيضاً، يحتكمون، في حسم المنافسة بينهم إلى أساليب أخرى؛ وهذه بعض الوقائع: - كان مذهب الحنفية، بفضل من مرونته، أكثر ملائمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك^(٥).

- لما سيطر الحنابلة على بغداد، من دون سائر أهل السنة، واشتدوا في محاربة الشيعة، بنوا فيها مسجداً وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة^(٦). ولم توجه المشاغبة إلى الشيعة فحسب، وإنما كانت تُوجه، أيضاً، ضد أي مذهب آخر غير المذهب الحنبلي، حتى ولو كان من مذاهب أهل السنة. وسحول هذه المسألة يروي ابن الأثير ما يلي: إستظهر الحنابلة بالعميان، الذين كانوا يأوون

(١) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ٢٩٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠): م. م. س: ص ٨٥.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء: م. م. س: ص ٣٠٨.

(٤) الأشعري، أبو الحسن: مقالات الإسلاميين (ج ٢): ص ٤٥١ - ٤٥٢: نقلاً عن محمد عمارة: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية: م. م. س: ص ٦٤.

(٥) ميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١٩٠٠): م. م. س: ص ٣٩٣.

(٦) نقلاً عن: م. م. ن: ص ٣٩٤.

إلى المساجد؛ ففي العام (٣٢٣هـ/٩٣٥م) كان إذا مرَّ بهم شافعي المذهب، أغرى الحنابلة العميان به، فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت. ولما لم يمثل الحنابلة إلى تهديد صاحب الشرطة، هددهم الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ/٩٣٤ - ٩٤١م) بالضرب والتشريد والقتل والتبديد^(١).

- لما خرجت بلاد المغرب من أيدي الفاطميين في العام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) لم يقتصر البلاء على الشيعة وحدهم، بل شمل الأحناف السُّنَّيين، على أيدي أصحاب مذهب مالك، الذين سيطروا على المغرب في تلك المرحلة، ولا يزالون حتى الآن^(٢).

- وقعت في بغداد في العام (٥١٤هـ/١١٢٠م) فتنة بين الحنابلة والشافعية، اضطّر معها أحد فقهاء الشافعية لأن يترك بغداد من أجل إطفاء الفتنة^(٣).

- ويروى، أيضاً، أن أبو بكر الخطيب البغدادي (ت في العام ٤٦١هـ/١٠٦٩م) كان يتكلم على مذهب أحمد بن حنبل، فانتقل عنه إلى المذهب الشافعي، ثم صار يتكلم في أصحاب أحمد ويقدم فيهم. فأخذ ابن الجوزي يتنصر لهم، ويذكر مثالب الخطيب ودسائسه^(٤).

لكنه، على العموم، ومنذ أواخر العصر العباسي، بدأت الفروق بين المذاهب السنية تقل؛ فلم يعد هناك بين تلاميذ أبي حنيفة والشافعي ومالك فروق كالتّي كانت بين مالك وأبي حنيفة؛ والسبب هو غلبة رجال الحديث على رجال الرأي، خاصة وإن عهد المعتزلة قد ضَعُفَ بعد المتوكل؛ وكانت حركة الفلسفة والاعتزال حركتين نخبويتين. أما مدرسة الحديث فكانت أقوى لأن جمهور المسلمين كانوا لها أنصر^(٥).

ب - الفرق الشيعية :

عاملت الدولتان، الأموية والعباسية، الشيعة - بمختلف فرقهم - "بالعنف، وعاملتهم بأقصى مما يُعامل الكفرة والملحدون؛ فمن حين إلى حين تُحدثان فيهم مجزرة. ولا يكاد يحفّ دم حتى يسيل دم؛ وتفتنتا في ذلك، فقتل وصلب، وإحراق وتذرية، وإماتة بطيئة في السجون بحرمانهم من النور والهواء، والأكل والماء..."^(٦).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : ٢ - س : ص ١١٤.

(٢) ميتز ، آدم : الحضارة الإسلامية... (١م) : ٢ - س : ص ٣٩٣.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٢) : ٢ - س : ص ١٨٧.

(٤) م . ن : ص ١٠٢.

(٥) أمين ، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٢) : ٢ - س : ص ٢٤٢.

(٦) أمين ، أحمد : ضحى الإسلام (ج ٣) : ٢ - س : ص ٣٠١.

اتفقت مختلف الفرق الشيعية على النص بوجوب خلافة آل بيت الرسول؛ إلا أنهم اختلفوا حول ترتيب سلسلة الأئمة، وشروط التوارث بين الإمام السابق والإمام اللاحق من جهة، كما اختلفوا حول أسلوب العمل في سبيل إعادة حق آل بيت الرسول في الخلافة/الإمامة من جهة أخرى.

ولما كنا قد تناولنا تاريخ هذه الفروع في الفصل السابق، فسنقتصر في هذا الفصل على إلقاء ضوء على المعتقدات السياسية والدينية لها.

تفرعت الدعوة الشيعية إلى عشرات الفرق؛ إندثر أكثرها ولم يبق منها - من يجمع شرطي التأثير في التاريخ الإسلامي، والاستمرارية حتى الوقت الراهن - سوى ثلاث فرق رئيسة هي: الإمامية الجعفرية، الزيدية، والإسماعيلية؛ وتنسب إلى سلالة فاطمة بنت الرسول. أما الفرقة الحنفية، التي تنسب إلى محمد بن الحنفية - أحد أولاد علي من غير زوجته فاطمة - وعلى الرغم من اندثارها، وعدم إحداثها أي تأثير في التاريخ الإسلامي أو الاستمرارية، فستكلم عنها، باختصار، لما لمواقفها من بعض التمييز عن الفرق الشيعية الأخرى، سواء من عدم حصر الإمامة في أولاد علي من زوجته فاطمة، أو من حيث مبايعة آخر إمام فيها - قبل وفاته - للعباسيين بالخلافة.

- الفرقة الحنفية: وتنسب إلى محمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب). فهو لم يبايع ابن الزبير، بسبب أن الأمة لم تجمع عليه^(١). لكنه من جهة أخرى بايع عبد الملك بن مروان، بعد مقتل الزبير، وكتب إليه: "إني اعتزلت الأمة عند اختلافها، ففقدت في البلد الحرام الذي من دخله كان آمناً، لأحزر ديني وأمنع دمي، وتركت الناس... وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك، ونحن عصابة من أمتنا لا تفارق الجماعة، وقد بعثت إليك منا رسولا ليأخذ لنا منك ميثاقاً، ونحن أحق بذلك منك، فإن أبيت فأرض الله واسعة والعاقبة للمتقين". فكتب إليه عبد الملك ميثاقاً. وكتب إلى الحجاج بأن لا يتعرض له أو لأحد من أصحابه... فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبين في أيامه^(٢).

أما كيف ادعى ابن الحنفية أن الخلافة تصير إليه، فيروي ابن عبد ربه أن علياً بن أبي طالب أصر الأمر إلى الحسن، فأصاره الحسن إلى معاوية؛ وكره الحسين وابن الحنفية ذلك. ولما قُتل الحسين بن علي صار أمر الشيعة إلى محمد بن الحنفية، وقال بعضهم إلى علي بن الحسين...

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٥م): ٢. م: ص ص ١٠٠ و ١٠٨ و ١٠٩.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد (ج ٤): ٢. م: ص ١٨١.

أما محمد بن الحنفية فأوصى إلى أبي هاشم - ابنه عبد الله - الذي ظل قائماً بأمر الشيعة؛ واستخلف سليمان بن عبد الملك، فقضى سليمان حوائجه. ويروي ابن عبد ربه أن سليمان سمَّ أبا هاشم وهو في طريق عودته إلى فلسطين، فأوصى - قبل موته - بالإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس...^(١). وهكذا انتقل الحق بالخلافة - على يد الحنفية - إلى بني العباس.

أما عن الفرق الشيعية الأخرى، وهم الذين يُسمَّون بالغلاة، فقد اندثر أكثرها، ولم يكن لها أي تأثير يُذكر في التاريخ الإسلامي. وجاء في تعريفهم: إنهم الذين "غلوا في أئمتهم حتى بلغوا بهم مرتبة الربوبية، أو قالوا بحلول الجوهر الإلهي النوراني فيهم، أو قالوا بالتناسخ؛ وجميع فرق الشيعة - تقريباً - من الغلاة إلا الإثني عشرية، والزيدية، وبعض الإسماعيلية..."; وقد عدَّت أكثر الفرق الإسلامية أن الغلاة هم خارجون عن الإسلام بسبب عقائدهم الفاسدة^(٢).

ويعدُّ البغدادي الغلاة من الروافض وسائر الحلولية في عداد عبدة الأصنام، أو في عداد الحلولية من النصاري. وقال بأنه ليس لعبدة الأصنام ولا للنصارى، وسائر الكفرة بالصحابة أسوة ولا قلدوة^(٣). ومن هذه الفرق مثلاً: الجارودية من الزيدية، الذين يُكفِّرون أبا بكر وعمر وعثمان وأكثر الصحابة. واليمانية والبشرية من الزيدية يُكفِّرون عثمان وأصحاب الجمل^(٤).

أما الفرق الشيعية الرئيسة فقد ساقَت الإمامة لأبناء علي وفاطمة تحديداً. وكانت بينهم اختلافات كثيرة سنستعرضها في أثناء الكلام عن كل منها؛ والفرق هي:

→ الإمامية الجعفرية، وهي الأكثر انتشاراً؛ وكانت آخر الفرق الشيعية التي اكتمل بناؤها العقائدي - السياسي من بين الفرق الشيعية الأخرى؛ ويعود ذلك إلى تاريخ اختفاء/ غيبة آخر أئمتهم المهدي المنتظر في العام (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م).

→ الزيدية، والتي كانت الأكثر ثورية في الخروج على الحكام/ الخلفاء، في سبيل المطالبة بحق آل بيت الرسول في الخلافة.

→ الإسماعيلية، وكانت الأكثر تأثيراً في التاريخ السياسي الإسلامي على مستويين: مستوى تأسيسها لنظام سياسي (الدولة الفاطمية)؛ ومستوى توليدها لأكثر الحركات الشيعية دموية وتأثيراً في إرهاب الدولة العباسية (القرامطة والحشاشون).

(١) م. ن : ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) مشكور، محمد جواد : م. س : ص ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) البغدادي، عبد القاهر : م. س : ص ص ٣٠٧.

(٤) م. ن : ص ص ٣٠٨.

→ الشيعة الجعفرية الإثني عشرية : وتنسب إلى جعفر بن محمد الصادق (٨٠) - ١٤٨هـ / ٦٩٩ - ٧٦٥م). واكتملت فقهاً على يديه. أما على المستوى السياسي فقد اكتملت مع غياب آخر الأئمة المهدي المنتظر.

جاء في تعريف الشيعة ما يلي: "الشيعة هم الذين شايعوا علياً (ر) على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً؛ واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة، ويتنصب الإمام بنصبهم؛ بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه للعامة وإرساله. يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيب وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة عن الكبائر والصغائر..."^(١).

فالشيعة الإثني عشرية تعتقد أن وجود الإمام ضرورة يقتضيها الدين، فالإمامة أصل من أصوله، وهي "لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان النبي، أو لسان الإمام الذي قبله..."^(٢). وإن "الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً"^(٣). "يتلقى المعارف والأحكام الآلهية وجميع المعلومات من طريق النبي والإمام من قبله. وإذا استجد شيء فلا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه"^(٤). "وإن أمرهم أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه، وعدوهم عدوه"^(٥). ولا يصح أخذ المعارف إلا منهم، ومن يفعل غير ذلك، يُعدُّ عمله "ابتعاداً عن محجة الصواب في الدين..."^(٦).

تقول الشيعة الإثني عشرية بالتقية، وقد ردوا هذا المبدأ إلى قوله تعالى: ﴿إلا أن يتقوا منهم﴾ ، وقول الإمام الصادق: "من لا تقية له لا دين له". والسبب في قولهم بالتقية، أنه إذا ما أظهرت هذه الفرقة عقائدها وآراءها، فإنها كانت تتعرض إلى مضايقة المعاندين لها وملاحقتهم^(٧).

(١) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١٤٦.

(٢) المفطر ، محمد رضا : م . س : ص ١٠٣.

(٣) م . ن : ص ١٠٤.

(٤) م . ن : ص ١٠٤.

(٥) م . ن : ص ١٠٦.

(٦) م . ن : ص ١٠٧.

(٧) مشكور ، محمد جواد : م . س : ص ٨٥.

"كان التشيع حتى زمن الإمام الباقر، والإمام الصادق (ع)، ذا طابع سياسي...ولكن منذ زمن هذين الإمامين العظميين اتخذ التشيع والشيعية طابعاً مذهبياً في مقابل أهل السنة والجماعة"^(١).

انقطعت سلسلة الأئمة عند الشيعة الإثني عشرية منذ غياب الإمام الثاني عشر في العام (٢٦٠هـ/٨٧٤م). وأدّى هذا الانقطاع إلى امتناع هذه الفرقة عن المطالبة ببناء نظام سياسي إسلامي انتظاراً لعودته؛ فهو الوحيد، بعد ظهوره، القادر على أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

كانت الشيعة في عهد جعفر الصادق قد تحولت "إلى النشاط الفكري والديني، وابتعدت عن العمل السياسي الثوري، وذلك بعد أن تصاعد الاضطهاد الذي لحق بهم... هذا الأمر أدّى إلى انقسامات في آل البيت تمثلت في تيارهم الاعتزالي، الذي قاده زيد بن علي [عم جعفر الصادق]، ثم بتيار الإسماعيلية الذي تبلور من حول اسماعيل بن جعفر الصادق"^(٢).

ومع ذلك فقد كان للمذهب الإثني عشري تأثير في السياسة الإسلامية في العام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) عندما أقرّ المذهب الجعفري في إيران مذهباً للدولة، لكن التجربة لم تدم طويلاً^(٣).

أما في العام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م)، فأعلن أن هذا المذهب هو مذهب رسمي للدولة بدلاً من المذهب السني في العهد الصفوي "ولم يكن أمام سنة إيران، الذين خافوا من سيف الشاه اسماعيل إلا التسليم. لذلك اعتنقوا المذهب الشيعي طوعاً أو كرهاً"^(٤).

→ الفرقة الزيدية: وتنسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٧٣ - ١٢٢هـ/٦٩٨ - ٧٤٠م)، وهو عم جعفر الصادق. وكانت هذه الفرقة أسبق الفرق الشيعية في الخروج على الحكام، وأكثرها ثورية. وقد تلمذ زيد على يدي واصل بن عطاء - رئيس المعتزلة - ولذلك اتبع الزيدية من بعده أهل الاعتزال، وأقرّوا بمدرستهم^(٥).

يقول زيد بن علي أن الإمامة هي بالنص، ويُستدلُّ على ذلك برواية لابن الأثير، وجاء فيها أن زيدا أجاب سائليه عن رأيه في أبي بكر وعمر، فقال: "رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً. وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق

(١) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٢): م. س : ص ٦٨.

(٢) م. س : ن : ص ٣٢٩.

(٣) مشكور، محمد جواد : م. س : ص ٨٨.

(٤) م. س : ن : ص ٨٩.

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م. س : ص ١٥٥.

بسلطان ما ذكرتم من رسول الله ﷺ، ومن الناس أجمعين، فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً...^(١).

ساق الزيدية "الإمامة في أولاد فاطمة (ر)، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم؛ إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة، أن يكون إماماً واجب الطاعة: سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين^(٢).

ويقولون بإمامة المفضل مع قيام الأفضل؛ ومن الواضح أنهم تأثروا بالاعتزال، واشترطوا الاجتهاد بالأئمة. وهم لا يتبرأون من أبي بكر وعمر، إنما يصححون إمامتهما. يرفضون العصمة والتقية وغيبة الإمام، وجواز مبايعة إمامين في قطرين^(٣).

يُرتب الشرع عندهم "على وجه يُحتاج فيه إلى الإمام، ولا يُستغنى عنه، والحاجة إليه هي تنفيذ الأحكام الشرعية دون الأصول العقلية...^(٤).

يختلفون عن الإثني عشرية بأن الأوصاف، وليس النص، هي الشروط في تنصيب الإمام؛ لذا تنعقد إمامته "بعد اجتماع الأوصاف فيه، وليس ذلك النص الجلي على الوجه الذي تذهب إليه الإمامية... ولا يجوز كون إمامين في وقت واحد... وأول من جمع صفات الإمامة واستوفى شرائطها، وقرن الدعوة إليها بعد الحسن والحسين (ع)، ثم من سلك طريقهما... وتجرد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومباينة الظالمين، مع اجتماع الأوصاف فيه من ولد الحسن والحسين (ع)^(٥).

أما أوصاف الإمام فهي عندهم: "أن يكون ذا كراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عالماً... عديلاً، شجاعاً، ضابطاً غير خوار، ولا جزوع، سخيّاً... وأن يكون سليماً من الآفات"^(٦). ولأن الزيدية يعطون أولوية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قولاً وفعلاً، قال زيد بن علي: "ليس الإمام منا من أرخى عليه ستره، إنما الإمام من أشهر سيفه"^(٧).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ج ٤): م . س: ص ٤٥٢. راجع، أيضاً: تاريخ الطبري (ج ٧): م . س: ص ٩١.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): م . س: ص ١٥٤.

(٣) تامر، عارف: م . س: ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) بن عباد، صاحب: نصره مذاهب الزيدية: م . س: ص ١١١.

(٥) م . ن: ص ١١٢.

(٦) م . ن: ص ١٢٧.

(٧) المازندراني، محمد بن علي: مناقب أبي طالب: نقلاً عن يوسف إيش: م . س: ص ٦٣.

يقول صاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ / ٩٣٨ - ٩٩٥م): إجمعت لزيد بن علي صفات العلم والمعرفة، وصفة الشجاعة، وقد تقدّم جماعته "في زمانه بالشجاعة والثبات، وقوة القلب، والرغبة في الجهاد، والتشدد على الظالمين. فقد رُوِيَ عنه (ع) أنه قال لما خفقت الرايات فوق رأسه: الحمد لله الذي أكمل لي ديني، لقد كنت أستحي من رسول الله ﷺ أن أرد عليه ولم آمر في أمته بالمعروف، ولم أنه عن المنكر"^(١). ويتابع ابن عباد: "ويدل على أنه (ع) كان أفضل الناس في زمانه قول الله تعالى ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤: ٩٥). ولم يشاركه أحد في زمانه في السبق إلى الجهاد، ونيل الشهادة على الوجه العظيم الذي ناله"^(٢).

يشارك الزيدية - بشكل عام - في كثير من العقائد، إلا أنهم لا يعتقدون بالمهدوية، ولا ينتظرون الإمام الغائب، ويقولون أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار، ولا يعتقدون بمعجزات ولا بكرامات لأئمتهم؛ وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر واجب. ولا يؤمنون بالتقية؛ ويقولون بالقياس كأبي حنيفة؛ ويعتقدون أن الحسن والقبح عقليين كالمعتزلة^(٣).

كانت الزيدية، على العموم، تياراً علوياً انخرط في تيار المعتزلة تعبيراً عن اختيارهم للثورة طريقاً للتغيير... إلا أنهم تميزوا عنهم عندما غلب على المعتزلة تأييد الخلفاء العباسيين. قاموا بثورات عديدة - كما مرّ معنا سابقاً - أخفقت بمعظمها. أسسوا لهم دولة في اليمن منذ القرن ٣هـ / القرن ٩م؛ وانتهى حكمهم في العام (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م)^(٤).

→ **الفرقة الإسماعيلية:** تنتسب إلى اسماعيل بن جعفر الصادق (ت قبل أبيه في العام ١٤٣هـ / ٧٦٠م). أما الشيعة الإثني عشرية فقالت بإمامة أخيه موسى الكاظم (١٢٨ - ١٨٣هـ / ٧٤٥ - ٧٩٩م).

إختارت الإسماعيلية طريق الثورة سبيلاً للتغيير. وكانت الفرقة الأكثر تأثيراً في التاريخ السياسي الإسلامي بتأسيسها للدولة الفاطمية، التي كادت أن تقضي على الدولة العباسية من جهة، ولأنه منها وُلدت أكثر الحركات الشيعية دموية وتأثيراً في إرهاب الدولة العباسية (القرامطة والحشاشون) من جهة أخرى.

(١) بن عباد، صاحب: م. س: ص ١٧٢.

(٢) م. ن: ص ١٧٣.

(٣) مشكور، محمد جواد: م. س: ص ٢٧٠.

(٤) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣): م. س: ص ٥١٦.

إن أساس الخلاف بين الحركة الإسماعيلية والفرقة الإثني عشرية الشيعيتين - كما يقول مصطفى غالب -: "كان الإمام جعفر الصادق قد نصَّ على أن يتولى الإمامة من بعده ولده الأكبر اسماعيل، ولكن قيل إن اسماعيل توفي في حياة أبيه. وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، لأن الإمامة - حسب المفهوم الشيعي - لا تكون إلا في الأعقاب، ولا تنتقل من الأخ إلى أخيه... ومن ناحية ثانية كان محمد بن اسماعيل أكبر سنًا من عمه موسى الكاظم، فبناءً على التقليد الشيعي القديم الذي يوجب تسلسل الإمامة في أكبر أهل البيت سنًا، كان محمد بن اسماعيل، إذاً، أحق من عمه موسى الكاظم بالإمامة"^(١).

إستتر الأئمة الإسماعيليون، خوفاً من ملاحقة العباسيين لهم، إلى ما قبل العام (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م)، تاريخ خروجهم من مرحلة الستر إلى مرحلة العلن، فأسسوا الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا.

وللإسماعيلية عقيدة دينية خاصة عملوا على نشرها في العالم بالدعاية المنظمة تنظيمًا عجيبًا^(٢). وطغت بعض الاتجاهات الفلسفية على الفكر الإسماعيلي، لذا "يؤول الإسماعيليون آيات القرآن والأحاديث وأحكام الشرع؛ ولا يعتبرون ظاهرها صحيحًا، بل يميلون إلى باطنها... ولا يعتقد الإسماعيليون بالنعيم الجسماني المادي في الجنة، أو العذاب الجسماني في النار"^(٣).

وعلى العموم فإن الفرقة الإسماعيلية لا تتميز باعتقاداتها عن معظم الفرق الشيعية الأخرى في وجوب نصب الإمامة في علي بن أبي طالب وذريته من فاطمة بنت الرسول. فالنعمان بن محمد (٢٥٩ - ٣٥١هـ/ ٨٧٣ - ٩٦٢م)، وهو من أهم فقهاء الإسماعيلية، يُعيد تأسيس المذهب الإسماعيلي ارتكازاً إلى حديث الرسول: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا"^(٤). ويتساءل بالتالي عن علة اختلاف الناس بعد رسول الله، لكي يجيب: كان الرسول، في حياته، يبين للمسلمين ما اختلفوا فيه؛ أما بعد وفاته فقد وُلِّي الأمر من لا يعلم كل ما ورد عليه فيه؛ فكان الاختلاف من أجل ذلك؛ لكنهم - يقول النعمان: "لو سلّموا لولي الأمر، وأخذوا عنه لما اختلف إثنان في دين الله تعالى، كما لم يختلفوا في حياة رسول الله". وإته في عهد بني أمية، وبني العباس - يستطرد النعمان - وُلِّي أمور الناس منهم "من لا علم لهم بحلال الله وحرامه"^(٥). وأنفوا من رد ما اختلفوا فيه إلى الذين أمرهم

(١) غالب، مصطفى: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: م. س: ص ٧.

(٢) م. ن: ص ٥.

(٣) مشكور، محمد جواد: م. س: ص ١٠٨.

(٤) بن محمد، النعمان: اختلاف أصول المذاهب: دار الأندلس: بيروت: ١٩٨٣: ط ٣: ص ٧٠.

(٥) م. ن: ص ٣٢.

الله بالرد إليه؛ إلى أن جاء الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي - مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب في العام ٢٩٧هـ، وهو الذي بشر رسول الله به. وذكر ما يكون من إقامة دين الله على يديه وفي أيامه، حينما "يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً"^(١).

أسس الإسماعيليون، بعد قيامهم بأول دعوة مسلحة قاموا بها، أول حكومة إسماعيلية في اليمن في العام (٢٦٨هـ/٨٨٢م). كما استطاع عبيد الله المهدي - إمام الإسماعيلية - أن يفر إلى مصر في العام (٢٩١هـ/٨٩٩م) من وجه الخليفة العباسي، ثم هرب إلى المغرب، فبايعته قبيلة من البربر. وهكذا انتقلت الإسماعيلية من الخفاء إلى الظهور العلني في العام (٣٠١هـ/٩١٣م). ثم أسسوا - بعد مخاض عسير - الدولة الفاطمية في مصر منذ العام (٣٥٨هـ/٩٦٩م)^(٢). وتوسّعت، بعد ذلك، باتجاه الشام، إلى حين سقوطها في العام (٥٦٧هـ/١١٧١م)، بعد حكم دام أكثر من ٢٥٠ عاماً.

وفي العام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، حصل أول انقسام في داخل الدعوة الإسماعيلية؛ وكان السبب في ذلك أنه بعد أن عُزل نزار ابن المستنصر عن الخلافة، ونُصّب أخوه أحمد المستعلي؛ أخذ الحسن بن الصباح جانب نزار، وأسس الفرقة الإسماعيلية النزارية (التي عُرفت بفرقة الحشاشين)، تمييزاً لهم عن الإسماعيلية المستعلية (نسبة لأحمد المستعلي)^(٣).

يتوزّع الإسماعيليون، اليوم، في سوريا وإيران وأفغانستان والهند والباكستان ومسقط وزنجبار وتنزانيا. ويبلغ تعدادهم زهاء المليون ونصف المليون نسمة^(٤).

(١) م . ن : ص ٣٤.

(٢) مشكور ، محمد جواد : م . س : ص ١٠٥.

(٣) هشي ، سليم حسن : م . س : ص ٢٥.

(٤) مشكور ، محمد جواد : م . س : ص ١٠٦ - ١٠٨.

II - الإتجاهات اللاتقليدية في الفكر الإسلامي

١ - إتجاه المعرفة الجدلية وعلم الكلام.

أصبح من الواضح أن المسلمين، بعد وفاة الرسول، وبفعل الحاجة لمواجهة الاشكالات العديدة التي استجدت، ومن أجل التفتيش عن حلول لها، إنكب العلماء المسلمون على تلوين السُّنة النبوية من جهة؛ أو إعمال الرأي من جهة أخرى.

ولما لم يكن النص كافياً، أو لأنه - في بعض جوانبه - كان غامضاً، لجأ المسلمون إلى تأويله وتفسيره؛ فأصبح الرأي حاجة ضرورية لا بدُّ منها على الرغم من استياء وثورة أصحاب الحديث و النصوصيين ضد ما حسبه بدعة في الإسلام. فكانت المعتزلة هي أكثر الفرق/ التيارات الإسلامية إعمالاً للرأي؛ فعملت المعتزلة على استخدام الحجج الكلامية، وحسبوا أن علم الكلام هو السلاح الأفضل للدفاع عن الشريعة.

تميّز المعتزلة عن أصحاب الرأي والقياس من المحدثين والفقهاء بأنهم وضعوا قواعد عقلية لتأويل النص وتفسيره؛ وعملوا على تدعيم تلك القواعد بأسانيد من النص ذاته. فهم، بذلك، شكّلوا - من خلال قواعدهم الكلامية - وسط العنقود بين أصحاب الرأي والقياس من الفقهاء وبين الفلاسفة.

برزت الحاجة إلى علم الكلام بعد أن لاحظ المسلمون - ومنهم المحدثون، الذين مع تمسكهم الصريح بحرفية النص - المفارقات المنطقية الواضحة ما بين النص المنزل ومشاكل التفسير والتنسيق التي اضطروا إلى إثارتها^(١).

كان المعتزلة ورثة لفرقتي الجبرية والقدرية، اللتان تأسستا في العصر الأموي. وكان بين المعتزلة والقدرية من جهة، والجبرية من جهة أخرى، إختلافات في العقائد:

(١) فخري، ماجد: تاريخ الفلسفة الإسلامية: م . س : ص ٧٧.

فالجبرية يعتقدون بأن العباد ليسوا أصحاب الأفعال، وينسبون الشر والخير كله إلى الله. أما المعتزلة والقدرية فيقولون بأن الإنسان قادر على خلق أفعاله واختياره لها؛ فالإنسان عندهم مختار في فعله وعمله^(١).

فالقدرية، إذاً، في الفكر الإسلامي لقب وُصِفَ به من نفى التسليم بقضاء الله وقدره، مفضلاً إعطاء الإنسان حيزاً من المسؤولية ليستقيم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة. فالمعتزلة، الذين أطلق عليهم أهل العدل، يقولون: "إن الله لا يصدر عنه شر، وإنه يثيب الإنسان ويعاقبه حسب عمله"^(٢).

يتلخص مذهب الاعتزال في خمسة أصول: العدالة - التوحيد - الوعد والوعيد - المنزلة بين المنزلتين - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كانت أفكار المتكلمين، الذين ناصروا فكرة التخيير، ذات مضاعفات سياسية بسبب ما انطوت عليه هذه الفكرة من تحدٍّ لسلطة الخليفة؛ فيها لم يعد براءً من المسؤولية عن أفعاله الجائرة. ونتيجة لذلك أعيد معبد الجهني وغيلان الدمشقي في العهد الأموي: الأول بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م). والثاني بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م)^(٣).

كان مبدأ المعتزلة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يُعدُّ قمة العمل السياسي الذي يوجب الثورة المسلحة على الانحراف في المجتمع عن أصول العدل، التي حرص دين الإسلام على الدعوة إليها وتأكيداتها. وقد وقف مع المعتزلة، على أساس هذا المبدأ، كل من الزيدية والخوارج؛ ودار خلاف حوله مع بعض فرق الشيعة الإمامية^(٤).

يؤمن المعتزلة أن "الدخول في نطاق السعداء في الحياة الأخرى ليس متوقفاً على الإيمان بالله فحسب، بل يطلبون زيادة على ذلك التسابق في العمل، بأداء أوامر الله والعمل بها، واجتناب حرمانه على وجه صارم... فمن لم يؤدِّ الأعمال التي أمر الله بها في الشرع ولو في أمور تافهة فحسب، لا يجوز أن يعزِّي نفسه بتعرف عابر أو سطحي بالنار، كما يفسح له أهل السنة الأمل

(١) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ٤٥.

(٢) نجواة، أحمد: "القدرية" (١٠٦٨ - ١٠٧٣): عن: معن زيادة: الموسوعة الفلسفية الإسلامية (٢م):

م. م. س: ص ١٠٧٠ - ١٠٧١.

(٣) فخري، ماجد: م. م. س: ص ٧٧.

(٤) عمارة، محمد: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية: م. م. س: ص ٦٤.

في ذلك؛ بل معدود، بكونه فاسقاً أو عاصياً وبرغم إيمانه، من الفريق المخلّدين في النار، إلا أن يتوب وهو حي بعد توبة نصوحاً، ويندم ندماً صادقاً على آثامه مع التخلّي عنها^(١).

أما سياسياً فقد اختلفت فرق المعتزلة حول الإمامة؛ فجميع المعتزلة البغداديين يخالفون كلام البصريين؛ فالبعض من شيوخهم يميل إلى الروافض، ومنهم من يميل إلى الخوارج^(٢).

كانت آمال واصل بن عطاء (ت في العام ١٣١هـ/٧٤٩م)، "معلقة بأصدقائه المقربين إليه من الشخصيات العلوية المعتدلة كزيد بن علي وأولاده...الذين كانت تربطه بهم صلات وثيقة"^(٣). وقد بايع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، محمد بن عبد الله النفس الزكية... إلا أن عمرو بن عبيد كفّ عن متابعة محمد حين خرج بالمدينة في أيام أبي جعفر المنصور في العام (١٤٥هـ/٧٦٣م)^(٤).

على أن عمرو بن عبيد كان لا يعين أحداً على أمره، إلا من كان من أهل العدل والطاعة لله، سواء كان عباسياً أم أموياً أم علوياً. فقد نُقِلَ عنه أنه كان يقول: "لا أباع رجلاً حتى أختبر عدله"؛ ولهذا فقد أيد خروج أموي على خليفة أموي آخر^(٥).

وعلى العموم فثمة إجماع تام جازم على أن الدولة العباسية في عصر المأمون والمعتصم والواثق، أي منذ العام (١٩٨هـ/٨١٤م) إلى العام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) كانت اعتزالية. وإن المتوكل، منذ العام ٢٣٢هـ، قلب الوضع رأساً على عقب، ورجع إلى منهج أهل الحديث والسنة^(٦).

٢ - إتجاه المعرفة الصوفية والتجربة الروحية:

يرى التيار/ المذهب الصوفي أن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله، إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد، والتقشف، والتضامن في العبادة، والتجرد من كل رغبة أنانية، وإفناء الجزء في الكل إفناء كاملاً.

كانوا يدعون الناس إلى بساطة العيش، وكانوا يرفضون وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله. حتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة

(١) جولد تسيهر، أجتس : م . س : ص ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ٨٤.

(٣) جدعان ، فهمي : المحنة : م . س : ص ٥٠.

(٤) الأصفهاني : مقاتل الطالبين: نقلاً عن : فهمي جدعان: المحنة: م . س : ص ٥١.

(٥) جدعان ، فهمي : المحنة : م . س : ص ص ٥٥ - ٥٦.

(٦) م . ن : ص ٤٩.

التي تسمو فيها الروح، بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية، حتى تشاهد ذات الله العلية. فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد مع ذات الله نفسها^(١).

إذا كان الفقه يختص بالعلم الظاهر، فالتصوف يختص بالعلم الباطن دون إغفال للجانب الظاهر في الشريعة^(٢). ويعترف الصوفيون أنفسهم أنهم استملوا طريقهم الروحي من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، وإن لهم تأويلاتهم الخاصة، وموقفهم المنفرد، الذي اختصوا به دون غيرهم من الفرق الأخرى^(٣).

إن تعاليم التصوف الإسلامي لا تدعو إلى الرهبانية - بمعناها المسيحي - "بل هي رهبانية من نوع خاص تتفق مع شريعة الإسلام، وهي شريعة الدنيا والدين، فهي رهبانية أوضحها الرسول الأعظم، وهي الجهاد في سبيل الله"^(٤).

إستند المتصوفون في الإسلام إلى النص الإسلامي في تبرير اعتناقهم المذاهب الصوفية؛ ودفعوا عن أنفسهم شتى التهم التي ألصقت بهم؛ وسبب ذلك من خلال العرض الذي سنقوم به لأهم النماذج الصوفية.

كانت أوائل القرن ٤هـ / ١٠م، حبلى بالأحداث المثيرة، التي كانت تقض مضاجع الخلفاء العباسيين؛ ففيها كان القرامطة قد أبلوا بلاءً كبيراً في تهديد أمن الدولة من جهة، وكان الإسماعيليون قد أسسوا الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا من جهة أخرى. فأصبحت أية حركة غير مؤيدة للخليفة العباسي وكأنها تقع في دائرة العداء له. وكان المنخيف بالأمر وجود كثرة من الفرق الإسلامية المعادية للدولة العباسية، والتي استطاع البعض منها أن يؤسس، هنا وهناك، دويلات تعيق حركة الدولة المركزية في بغداد.

كانت السيادة المذهبية، في تلك المرحلة، معقودة اللواء لأهل الحديث من أهل السنة المؤيدين للخليفة العباسي. وكان هؤلاء، بدورهم، يشكلون عاملاً مؤثراً على الخليفة في سبيل إزاحة أخصامهم من أهل الكلام والتصوف. أو لم يتخلص أهل الحديث - بفوز الحنبلية على المعتزلة منذ العام ٢٣٢هـ - من أخصامهم اللوذين؟ وقد نال المتصوفون نصيبهم من الملاحقة والاضطهاد، أيضاً. بالغ الفقهاء في مراعاة الشعائر الظاهرة من وضوء وصلاة وزكاة، من غير تعرض كثير للنية ومحاسبة الروح؛ وبالغ الصوفية في الأعمال النفسية الروحية، ولم يهتموا كفاية بالأعمال الظاهرة. فكان هناك عداء بين الفقه والتصوف: فالصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبأون

(١) ديورانت، ول : قصة الحضارة (١٣م) : م . س : ص ٢١٤.

(٢) شرف، محمد جلال : دراسات في التصوف الإسلامي : م . س : ص ٩.

(٣) م . ن : ص ١٠.

(٤) م . ن : ص ١١.

سوى بالقشور من مظاهر الأمور؛ والفقهاء يرمون الصوفية في مبالغتهم في أحوال الروح، وسموهم أهل الباطن^(١).

كان الأمراء ينصرون الفقهاء على المتصوفة، لأسباب منها: أن الصوفيين الحقيقيين إنما يخضعون لله وحده، وهذا يُغضب السلطان عادة. وكانت دعوة الصوفيين إلى الزهد تعني أنها لو عمّت فلن يوجد من يعمل^(٢). كما وإن الدعوة إلى الزهد سوف تكون معارضة واحتجاجاً غير مباشر على سلوك الترف الذي كان يتميز به الخلفاء والأمراء ورجال الدولة. لكل تلك الأسباب كان الأمراء يقفون إلى جانب الفقهاء.

ففي العام (٣٠٩هـ/٩٢٢م) عمل الوزير حامد بن العباس - وزير الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/٩٠٨ - ٩٣٢م) - على إلصاق تهمة الردة على الحسين بن منصور الحلاج (وُلِدَ في العام ٢٤٤هـ/٨٥٩م) - الصوفي الشهيد - ونجح في ذلك "فَضْرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ فَمَا تَأَوَّه، ثُمَّ قُطِعَتْ يَدُهُ، ثُمَّ رَجُلُهُ، ثُمَّ يَدُهُ، ثُمَّ رَجُلُهُ، ثُمَّ قُتِلَ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ. فَلَمَّا صَارَ رَمَاداً أُلْقِيَ فِي دَجَلَةٍ وَنُصِبَ الرَّأْسُ بِبَغْدَادٍ"^(٣).

وعلى الرغم من كل ما قيل في ادعاءات نُسِبت للحلاج تخرج عن المعقول، وتبرر قتله^(٤)، فقد نُقِلَ عن ابراهيم بن شيبان أنه قال: دخلت على ابن سريج (القاضي والفقير الذي شارك في محاكمة الحلاج) يوم قتل الحلاج، فقلت: يا أبا العباس ماذا تقول في فتوى هؤلاء في قتل هذا الرجل؟ قال: لعلهم نسوا قول الله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾^(٥).

أسرف أنصار الحلاج، التأثير الروحي في الإسلام، في حبه وتقديسه؛ فكان هذا الحب وبالأعلى عليه، لأنه أثار نفوس البعض من مختلف المشارب والأهواء، من فقهاء أو صوفية أو متكلمين أو حكاماً أو رجال شرطة؛ فسعى الجميع إلى الخليفة يحذرونه من الحلاج وأنصاره، وأسرؤا إليه أنه يريد أن يغيّر نظام الحكم، وهو يمهد للعلويين ويدعو لأهل البيت. واتهموه بالسحر والشعوذة والاتحاد والحلول^(٦).

لم يكن مصرع الحلاج نهاية لمذهبه وحركته الحلاجية، بل كان بداية لقيام هذه الفتنة وانتشارها في أرجاء العالم الإسلامي^(٧). أما الذين أتوا بعد الحلاج من الصوفية فقد قبلوه ولم

(١) أمين، أحمد: ظهر الإسلام (ج ١): م. س: ص ٥٧.

(٢) م. ن: ص ٦١.

(٣) ابن، الأثير: الكامل في التاريخ (٧م): م. س: ص ٥ - ٦.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري (ج ١١): م. س: ص ٤٤٤ - ٤٥١.

(٥) شرف، محمد جلال: م. س: ص ٣٢٨.

(٦) م. ن: ص ٢٦٤.

(٧) م. ن: ص ٢٦٥.

ينكروا أحواله، ودافعوا عنه دفاعاً مجيداً يفخر له الحلاج ويعتزُّ به أمام أعدائه. فلو سمع الحلاج هذا الدفاع لتحرك في قبره طرباً^(١). قال القطب الرفاعي: "لو كان مشايخ العراق مشايخاً لأخذ السيف جنونهم كما أخذ الحلاج". وكان الغزالي من المدافعين عنه أيضاً^(٢).

وفي العام (٣٠٩هـ/٩٢٢م)، أيضاً، توفي أبو العباس الصوفي، وهو من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، وكان موافقاً للحلاج في بعض اعتقاده. ويُروى أن الوزير حامد بن العباس عاقبه بالضرب البليغ على شذقيه، وأمر بتزع خفيه وضربه بهما على رأسه حتى سال الدم من منخريه، ومات بعد سبعة أيام^(٣).

هناك من الصوفية من نجا وسلم من القتل؛ ولم يحدث له ما حدث للحلاج على الرغم من أن شطحياته لا تقل عن شطحيات الحلاج ويمثل هذه الفئة:

أبو بكر الشبلي (ت في العام ٣٢٤هـ/٩٣٦م). فلقد استتر وكتّم أحواله؛ وهو الذي قال: "أنا والحلاج شيء واحد، فخلصني جنوني، وأهلكه عقله". فعنون الشبلي هو في أنه لم يصريح بما شاهد وعان، وعقل الحلاج هو إذاعته ما كاشفه به الحق في تجليّه عليه^(٤).

وهناك المتصوف أبو الحسين النوري (ت في العام ٢٩٥هـ/٩٠٨م)؛ واتهم بالكفر والزندقة لقوله: "أنا أعشق الله ويعشقي"، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾^(٥). وكان إذا سمع نباح الكلب يقول: "لبك وسعديك". وتفسيره لذلك أن الله جلّ ذكره قال: ﴿وإن ما من شيء إلا يسبح الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. فالكلب وكل شيء يذكرون الله بلا رياء^(٦). لكنه كان - في كل مرة - يؤتى به إلى الخليفة فيسمعه ثم يزيل التهمة عنه^(٧).

٣ - اتجاهات المعرفة البرهانية والفلسفية :

عادةً تنتج النخبة فكراً؛ وتتسع دائرة النخب، التي تعتمد على العقل، كلما اتسعت دائرة المثقفين في المجتمع؛ ويتسع تأثير الفكر - أيضاً - كلما أصبح المجتمع مؤهلاً، تأهيلاً ثقافياً متقدماً، لاستيعاب الفكر الجديد. فبين اتساع دائرة النخبة المفكرة، وتأثير فكرها على المجتمع

(١) م . ن : ص ٢٦٥.

(٢) م . ن : ص ٢٧٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٧م) : م . س : ص ٦.

(٤) شرف ، محمد جلال : م . س : ص ٢٦٥.

(٥) م . ن : ص ٢٠٢.

(٦) م . ن : ص ٢٠٤.

(٧) م . ن : ص ٢٠٦.

الموجه إليه، وبين المستوى الثقافي ودرجته ونوعه عند المجتمع، علاقة جدلية لا يمكن غض الطرف عنها.

كان لعاملي انتشار علم الكلام بواسطة فرقة المعتزلة، وانتشار ترجمة كتب الفلسفة غير العربية - الإسلامية، وأهمها الفلسفة اليونانية، الأثر الأهم في الانتقال إلى مرحلة التفكير الفلسفي، ثم إلى إنتاج الفلسفة.

وإذا كان من غير المهم أن نتناول، في بحثنا هذا، شؤوناً فلسفية مجردة، فإن ما يفيدنا في مثل اتجاهات بحثنا هو أن نبحت عن مدى تفاعل الفكر الفلسفي مع المجتمع الإسلامي، فكراً وسياسة، ومدى تأثير هذا الفكر على هذا المجتمع ذي الثقافة الإيمانية الدينية؛ وبمعنى أكثر حصرًا: كيف كانت العلاقة بين الفلسفة والشريعة الإسلامية، وبالتالي علاقتها مع السلطة السياسية.

استحوذت على مشاعر الرعيل الأول من العلماء المسلمين روعة وقُدسية الكلام الإلهي والسنة النبوية، فانصرفوا إلى تنسيق أحكام الشريعة المقدسة؛ فنشأ بتأثير ذلك علم القراءات والتفسير والفقه وهي العلوم الأساسية الوحيدة، التي احتاجت لها الأمة الإسلامية في بادئ الأمر؛ ثم تحدرت علوم فرعية لخدمة هذه المهمة كالتحوي والبيان من أجل التوصل إلى تأويل مقبول للقرآن والسنة^(١).

إنكب العلماء المسلمون على دراسة النصوص وتحليلها، كما على تأويلها وكيفية تطبيقها. فكان المفسرون والمحدثون هم الذين جمعوا النصوص وعملوا على تحليلها؛ أما الفقهاء فقد عملوا على تأويل ما كان غامضاً عليهم.

لجأ بعض الفقهاء إلى استخدام القياس والرأي في حل القضايا المبهمة، لاسيما حين تعذر الحصول على نص صريح. وهنا نشأت مضاعفات بين النصوصيين وأهل الرأي. واشتدت الحاجة إلى الرأي كلما تكاثرت متطلبات العصور، ومنها بالأخص حاجة المجابهة مع الوثنية والمسيحية في دمشق وبغداد من جهة، والمسائل الأخلاقية والشرعية التي أثارها السلطة الآلهية المطلقة على العالم كما ارتسمت في القرآن، وصلتها بالمسؤولية المترتبة على الأعمال الإنسانية من جهة أخرى؛ وكانت محاولة التوفيق بين ما هو متعارض من نصوص القرآن من جهة ثالثة؛ فكانت هذه الأسباب هي الباعث الأساس لنشوء حركة علم الكلام في الإسلام^(٢).

واقتضت الحاجة من المسلمين اللجوء إلى ضروب من التفسير المجازي؛ على أن المضي في هذا النمط من المناقشات بصورة مفيدة دعا بطبيعة الحال إلى المزيد من التبهر، مما شكّل دافعاً

(١) فغري، ماجد: م. م. ص: ص ١٠.

(٢) م. م. ن: ص ص ١١-١٢.

إلى نقل الفلسفة اليونانية؛ ولم يتيسر هذا العمل إلا منذ قيام الدولة العباسية في أواسط القرن ٢هـ - القرن ٨م. ومن هنا نشأ صراع آخر بين العنصر التقلمي الذي سعى بإخلاص لإخضاع نصوص الوحي إلى تدقيق النظر الفلسفي، وبين العنصر المحافظ الذي عزل نفسه عزلاً تاماً عن الفلسفة^(١).

اكتسبت الاتجاهات الفلسفية صفتها الإسلامية - كما نحسب - لأن طلب الفلسفة كان ذا أغراض إسلامية بشكل رئيس؛ فتوزعت إلى تيارات حاول كل منها أن يتقارب، بشكل أو بآخر، أو يتباعد مع المسائل التي طرحها الإسلام، فكانت الاتجاهات/التيارات كما يلي:

أ - التيار الأمين على تقريب الفلسفة من العقيدة، مع إعطاء أرجحية مطلقة للنص العقيدي.

ب - التيار الذي وجد تعارضاً بل تناقضاً بين الفلسفة والدين.

ج - التيار الذي عمل على تخفيف وطأة التعارض والتناقض بين الفلسفة والإيمان الديني.

د - التيار الذي عمل على التوفيق بين الفلسفة والشريعة، وحسب أن للبرهان الفلسفي أرجحية على العرفان الديني.

من خلال ما سنعرضه حول هذه التيارات/الاتجاهات، سينصب اهتمامنا على المسائل التي تميز به كل تيار عن الآخر في أثناء معالجته للعقائد الإسلامية من جهة، وعلى من نحسب - من حركات وأشخاص - أنهم من أهم من مثل تياره من جهة أخرى.

أ - التيار الأمين على تقريب الفلسفة من العقيدة، مع إعطاء أرجحية مطلقة للعقيدة. ومن أهم رواده:

﴿الكندي : ولد في أوائل القرن ٢هـ/ القرن ٨م في الكوفة. كان والده وال عليها؛ وتوفي في العام (٢٥٢هـ - ٨٦٦م)، أو بعده بقليل. ويُعدُّ في طليعة المؤلفين الموسوعيين في الإسلام. وعده البعض أحد كبار أعلام الفلسفة العربية والكلام الإسلامي^(٢).

كان له دور في ردم الهوة بين الفلسفة والشريعة؛ وهو من الداعين إلى تسليط نور العقل على النصوص المنزلة. ورداً على تهمة الفقهاء للفلاسفة بالكفر والزندقة والسفسطة يقول: "إن أعداء الفلسفة جهلة وأغبياء وتجار دين، ومن يتجر بالدين ليس له دين، ومن خالف علم الأشياء

(١) م . ن : ص ١٣.

(٢) م . ن : ص ١٠٨.

بحقائقها، أي الفلسفة، وسمّاها كفرةً يسيء إلى الدين، ويصدُّ عن السبيل المؤدي إلى إثبات الربوبية^(١).

لم يشك الكندي قط في صحة النبؤات، بل وضع رسالة دَلَّلَ فيها على صدقها. ووضع حصافته الفلسفية برمتها في خدمة معتقداته الإسلامية؛ وبقي في مأمن يكاد يكون تاماً من غائلة التشكك الديني^(٢).

حظي الكندي برعاية المأمون والمعتصم والواثق، أي منذ العام (١٩٧هـ/٨١٣م) إلى العام (٢٣٢هـ/٨٧٤م). لكنه أصيب بنكسة في عهد المتوكل^(٣). فكان حاله حال موقف السلطة السياسية من تيار العقل في الإسلام، لأن هذا الموقف كانت له علاقة بالمصلحة السياسية للحكام؛ فكان موقف الحكام من التيار العقلي مرتبطاً بالمدى الذي يخدم فيه مصلحة النظام السياسية.

إنساق الكندي إلى حد تبني فيه قضية العقيدة بصورة تكاد تكون فيه غير مشروطة؛ وعمل على تشييد بنيان عقلي متماسك على أساس العقيدة^(٤).

﴿ أبو حيان التوحيدي (توفي في العام ٤١٣هـ/١٠٢٣م): إن الإيمان الديني في عرفه هو إلهام آلهي لا يفتقر إلى شيء من علوم الفلاسفة والمناطق والمنجمين. ولو كانت هذه العلوم من لوازم الديانة لحثنا القرآن على تحصيلها، وبدلاً من ذلك فقد حذرنا منها وأشار علينا بتجنبها^(٥).

والفيلسوف، عند أبي حيان، هو دون النبي؛ كما إن العقل دون الوحي. والوحي هو الأسلوب الذي يخاطب به الله البشر، وفي جملتهم الفلاسفة. فلو كان العقل جديراً ببلوغ الحق وحده لكان الإيمان فضلاً؛ لكن العقل، الذي يملكه جميع الناس، غير موزع عليهم بالتساوي؛ فإذا انعدم الوحي بقي الحق محجوباً عن البعض إلى الأبد^(٦).

﴿ إخوان الصفا : نشأت - كجمعية فلسفية دينية سرّية - في مدينة البصرة، في خلال القرن ٤هـ/القرن ١٠م، في عهد البويهيين (٣٣٤ - ٤٤٦هـ/ ٩٤٦ - ١٠٥٥م)، الذين ضمنوا، لأول مرة في الإسلام، سيطرة الشيعة. ونسب إخوان الصفا إلى الإسماعيلية.

(١) نقلًا عن: علي أبو ملحم: م. م. : ص ٤٤.

(٢) فخري، ماجد: م. م. : ص ١٣٥.

(٣) م. م. : ص ١٠٨.

(٤) م. م. : ص ٢٨٣.

(٥) م. م. : ص ٢٥٦.

(٦) م. م. : ص ٢٥٧.

كان إخوان الصفا مناوئين للسلطة السياسية القائمة، وناقمون عليها. فكانت حركتهم - شأن العديد من الفرق الكلامية الشيعية - تأخذ برأي المعتزلة في حرية الإرادة الإنسانية^(١). وقد حاولوا التوفيق بين الفلسفة والعقيدة الإسلامية. وهم، لهذا السبب، حاولوا أن يهدموا الحاجز القائم بين الفلسفة والعقيدة، وأن يهبطوا بالفلسفة من التجريد إلى البحث العملي؛ وصنفوا العقائد إلى ثلاثة أنواع: للخاصة - للعامة - والنوع الصالح لكلي الفريقين، فكان هذا هو النوع المفضل في رأيهم، لأنه ذا جذور ثابتة في العقل من جهة، ومؤيدة بالكلام الآلهي من جهة أخرى^(٢).

ب - التيار الذي وجد تعارضاً، بل تناقضاً بين الفلسفة والدين: وكان من أهم أعلامه:

→ السرخسي (ت في العام ٢٨٦هـ/٨٩٩م)، وهو تلميذ للكندي. قُتل بأمر من الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ/٨٩٣ - ٩٠٣م) بسبب تصريحه بشكوكه التي تنطوي على نوع من الزندقة^(٣).

→ ابن الريوندي : (٢٠٥ - ٢٤٥هـ/٨٢١ - ٨٦٠م). عاصر المعتزلة والحنابلة والشيعة والزنادقة والملحدين والفلاسفة والمتكلمين من شتى الصنوف، فتأثر بهم، وأثر في مدارسهم وأسلوب أفكارهم. وتقلب مع التيارات الفكرية، فكان معتزلياً، ثم شيعياً، ثم سياسياً معارضاً لسلطة الدولة. حاول أن يؤسس مدرسة عقلية جديدة؛ فاتهم، لكل ذلك، بالزندقة والكفر والإلحاد^(٤).

كان مفكراً متحرراً، سلك طريق الشك الديني، على وعورته، بجرأة منقطعة النظير. فقد أنكر القضايا الآلهية الكبرى المتصلة بالوحي والمعجزات، وجاهر بأن العقل البشري قادر على بلوغ معرفة الله، وعلى التمييز بين الخير والشر؛ وهو رأي يتفق مع تعاليم الكثرة من شيوخ المعتزلة الذي سبق له أن كان واحداً منهم^(٥).

→ أبو بكر الرازي: (٢٥٠ - ٣١٣هـ/٨٦٤ - ٩٢٥م). لقد تخطى ابن الريوندي بالجرأة؛ فكان أكبر خارج على العقيدة في التاريخ الإسلامي برمته.

(١) م . ن : ص ٢٤٥.

(٢) م . ن : ص ٢٤٧.

(٣) م . ن : ص ١٣٦.

(٤) الأعمش، عبد الأمير: تاريخ ابن الريوندي الملحد: دارالآفاق الجديدة: بيروت: ١٩٧٥: ط ١: ص ٧.

(٥) فخري، ماجد: م . س : ص ص ١٣٦ - ١٣٧.

فهو، إنسجاماً مع مقدماته العقلية، رفض رفضاً باتاً فكرة الوحي، وتنكّر لدور الأنبياء كوسطاء بين الله والإنسان. فالتبوة عنده: إما أن تكون غير ضرورية ما دام نور العقل الوارد من الله يفي بمعرفة الحق؛ أو أنها منكورة، لأنها آلت إلى الكثير من سفك الدماء، وإضرار الفتن بين جماعة اعتقدوا أن الله خصّهم بالوحي، وجماعة أخرى لم يظفروا بتلك الخطوة. لقد عرّضته آراؤه للنقمة الجماعية، ووصمته بالمروق والإلحاد^(١).

ج - التيار الذي عمل على تخفيف وطأة التعارض والتناقض بين الفلسفة والإيمان الديني:

أدّى التفاعل بين الفلسفة والعقيدة الدينية، في بعض الأحوال، إلى التعارض التدريجي بينهما. فقد حاول الفلاسفة النظاميون - أمثال الفارابي وابن سينا - تخفيف وطأة هذا التعارض بالتشديد على جوانب الاتفاق والاهتمامات المشتركة بينهما^(٢). ومن أهم أعلام هذا التيار هم:

→ أبو نصر الفارابي: (٢٥٩ - ٣٣٩هـ / ٨٧٢ - ٩٥٠م). قال الفارابي إن النبي والفيلسوف يستقيان المعرفة من مصدر واحد هو العقل الفعال، ولا يختلفان في موضوع تلك المعرفة أو في نوعها أو في كميتها؛ وإنما يختلفان في أمرين هما: وسيلة الإتصال بالعقل الفعال، وطريقة عرض تلك المعرفة على الناس.

فوسيلة اتصال النبي بالعقل الفعال يتم عن طريق المخيلة، بينما وسيلة اتصال الفيلسوف هي العقل المستفاد.

أما عرض تلك المعرفة فيتم بواسطة البرهان اليقيني في الفلسفة، وهذا يتلاءم مع عقلية الخاصة. أما الإقناع والتخيل بالمحاكاة والمثال في الدين فيتلاءم مع عقلية العامة^(٣).

يبقى موقف الفارابي، على العموم، حول العلاقة بين الفلسفة والعقيدة، مشوباً بكثير من الإبهام؛ لكننا متى أخذنا بعين الاعتبار دور العقل في مفهومه العام لنظام الكون، لا يمكن الاستنتاج إلى أنه يذهب إلى أن التوفيق بين المذاهب المتعارضة إنما هو من شأن العقل. لا الشرع^(٤).

إبن سينا: (٣٧٠ - ٤٢٨هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧م). بذل ابن سينا كل ما يستطيع للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين؛ فهو لم يرد القضاء على الدين من أجل الفلسفة

(١) م. ن : ص ١٤٥.

(٢) م. ن : ص ٢٨٣.

(٣) أبو ملحم، علي : م. س : ص ٤٥.

(٤) فحري، ماجد : م. س : ص ١٦٦.

أو بالعكس، بل يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده، غير متقيد مطلقاً بالدين؛ ويحلل
الوحي في ضوء قوانين الطبيعة.

يؤكد ابن سينا حاجة الناس إلى الأنبياء ليعينوا لهم قواعد الأخلاق في صور من
الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها. ولو أن النبي قد اقتصر على تصوير الجنة
تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه.

إن أرقى البشر - عند ابن سينا - وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة
تقوم على الحب الحر، الحب الذي لا ينبثق من الرغبة أو الرهبة؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن
هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم، بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم^(١).

د - التيار الذي عمل على التوفيق بين الفلسفة والشريعة، وحسب أن للبرهان
الفلسفي أرجحية على العرفان الديني. وكان من أهم أعلامه.

ابن رشد: (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م). كان ينتمي إلى أسرة عريقة في الفقه
والقضاء، وهو تلميذ لابن طفيل، الذي قدّمه للخليفة أبي يعقوب يوسف، الذي توفّر على
رعاية الفلسفة والعلم. وبعد وفاة أبي يعقوب لم يطرأ على مكانة ابن رشد أي تغيير إلا بعد
عشر سنوات من خلافة ابن أبي يعقوب، المعروف بأبي يوسف. نقم أبو يوسف عليه؛ إما
استجابة للجمهور الذي نادى بتكفيره، وإما لأسباب تبذله في الحديث معه؛ فأمر بإحراق
كتبه، وأبعده إلى شمالي شرق قرطبة مع عدد من المشتغلين بالفلسفة والكلام، وأصدر أمراً يحظر
فيه تدريس هذه المواضيع^(٢).

كانت مسألة التوفيق بين الفلسفة والشريعة، منذ عهد الكندي، إحدى المسائل الكبرى
التي أثارت حفيظة المتكلمين ضد الفلاسفة، وألقت ظلاً قائماً على نزعة التفلسف في البلاد
الإسلامية. إستحدث ابن رشد أسلوباً كلامياً صارماً فاق أسلوب أسلافه دقة، بحيث تمكن من
معالجة هذه المسألة بدقة^(٣).

كانت نقطة الإنطلاق عنده هي القول بوحدة الحقيقة على اختلاف مظاهرها. فما هو
مفهوم وحدة الحقيقة؟

أثارت آيات القرآن، التي ينطوي على التشبيه، مشكلة هذه الوحدة. فإشارات القرآن إلى
الاستواء على العرش، وإلى رؤية الله يوم القيامة، حملت علماء الكلام الميالين إلى التذرع

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة (١٣م): م. س: ص ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) فخرى، ماجد: م. س: ص ٣٧٢.

(٣) م. ن: ص ٣٧٦.

بأسباب العقل إلى تأويلها تأويلاً يضمن تنزيه الله عن الجسمانية، فأروا أن الاستواء هو الملك والجبروت، ورؤية وجه الله بمعنى المشاهدة الصوفية.

أما الفقهاء والمفسرون، بحكم إيمانهم المطلق بقدسية النص القرآني، وبمعصيته عن الخطأ، إكتفوا بالتسليم بصحة هذه الآيات دون أخذ ورد. فلم يرو هذا الموقف غليل المتكلمين العقلين، فضلاً عن الفلاسفة، إلى أن اتخذ ابن رشد رأياً في هذه المسألة^(١).

قال ابن رشد بعصمة القرآن، إلا أنه لم يكن أقل إيماناً بوحدة الحقيقة كقضية بديهية، وهي ضرورة التذرع بالتأويل، والإقرار بتكافؤ الفلسفة والشريعة، أو العقل والوحي، من حيث هما مصدران أوليان وصادقان للحقيقة المطلقة.

أعان ابن رشد على اتخاذ الموقف بالتكافؤ بين العقل والوحي أمران: التمييز القرآني بين الآيات المتشابهات والآيات المحكمات، والافتقار إلى سلطة تعليمية عليا في الإسلام (السُّنِّي) تنفرد بحق تحديد مضمون العقيدة الإيمانية.

لم يعان الشيعة من غياب هذه السلطة، لأنه أسند هذا الحق إلى الإمام، الذي يُعدُّ رئيس الأمة الزماني والروحي، فضلاً عن كونه المعلم المعصوم. لهذا لم يتخذ الخلاف بين الفلسفة والشريعة شكلاً حاداً في الأوساط الشيعية.

أما من هي الهيئة التي يقترحها ابن رشد، والتي ستتولى السلطة العقائدية؟ هنا يجد الذريعة العقلية في القرآن. فالقرآن يقول: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات... وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ (آل عمران ٣: ٧). أما من هم الراسخون في العلم؟ فهذه العبارة - عند ابن رشد - لا تتحمل إلا تأويلاً واحداً هو أنهم الفلاسفة. فالتأويل عنده، إذاً، هو من اختصاص الفلاسفة، ومن شروط التأويل، كما يرى، هي التالية:

- الأول: يقول ابن رشد إن التأويل ليس من اختصاص المتكلمين (المعتزلة والأشاعرة)، ولا الحشوية (وهم أهل الظاهر)، ولا الباطنية (الإسماعيلية وأصحابهم)، بل هو من اختصاص الفلاسفة.

- الثاني: إن الكتاب الذي يخاطب طبقات الناس الثلاث (الفلاسفة، المتكلمين، جمهور الناس)، يستعمل أشكال القياس الثلاثة (البرهاني للفلاسفة - الجدلي للمتكلمين - الخطابي لجمهور الناس)^(٢).

(١) م . ن : ص ٣٧٧.

(٢) م . ن : ص ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

فابن رشد يرى أنه إذا بحثت الفلسفة موضوعاً ما، وتوصلت إلى معرفته، فهناك احتمالان: فإذا كانت الشريعة قد سكنت عنه فلا تعارض بينها وبين الفلسفة. وإذا كانت قد عرضت له، وكان ظاهر النطق مخالفاً للمعرفة الفلسفية وجب تأويل النص. أما الحل الذي يقترحه ابن رشد، لحل التعارض بين النص الديني والفلسفة، فهو التأويل، أي تأويل نصوص الشريعة بحيث تتفق مع الفلسفة. وبهذا يكون ابن رشد أميل إلى العقل منه إلى النقل^(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن ابن رشد لا يقرُّ للفيلسوف، إذ يعمل على التوفيق بين الحكمة والشريعة عن طريق التأويل، بحق وضع عقائد جديدة، أو برفض عقائد صريحة واردة في الكتاب والسنة^(٢).

وأخيراً، ورداً على تهمة الفقهاء للفلاسفة بالكفر والزندقة والسفسطة، يقول ابن رشد: "إن من نهى عن النظر قد صدَّ الناس عن الباب الذي دعا الشرع فيه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى"^(٣).

(١) أبو ملحم، علي: م. س: ص ٤٧.

(٢) فخرى، ماجد: م. س: ص ٢٨١.

(٣) نقلاً عن علي أبو ملحم: م. س: ص ٤٤.

III - السياسيون والعقائديون في موقع الصراع مع الاتجاهات التقليدية

من المتفق عليه أن الاحتكاك بين العقل والنقل كان سابقاً للمعتزلة: إما بتيار الإرجاء، الذي وإن لم يقف إلى جانب العقل، إلا أنه لم يؤيد تيار النقل تماماً حينما أرجأ أحكامه، على من حسبهم مخطئين، إلى الآخرة. وإما بتيار القدرية الذي قال بحرية الإرادة لدى البشر. فالمعتزلة، عبر عشرات الأجيال والعديد من المراحل السياسية والفكرية، أدخلوا القياس العقلي في تحديد أحكام الشريعة، في محاولة منهم لاجتناب ثغرات النقل، أو للإجابة على الأسئلة التي عجز النقل عن الإجابة عليها.

فإذا كان للمعتزلة من فضل على حركة العقل، فهو أنها وقفت في وجه النصوصيين، وصمدت عشرات السنين من دون كلل، ومهدت عبر أطروحاتها العقلية السبيل أمام التفكير الفلسفي؛ وهذا بدوره تسلّق على الأسس النظرية والبنية الفكرية، التي كان لعلم الكلام فضل سبق في بنائها، لكي يمضي بها ومعها ومنها إلى البناء عليها بشكل أكثر تقدماً وأكثر جرأة وتأثيراً.

في خضم ذلك الصراع الهاديء، والبطيء أحياناً، والعنيف أحياناً أخرى، لم يستسلم تيار الرأي والعقل بل استمر متعزراً أحياناً، ومختزقاً طريقه ولو بصعوبة أحياناً أخرى. لم يمر الصراع بين العقل والنقل من دون تأثيرات واضحة حيث "إن التقليد الأصلي، في شكله البدائي الخالص، الذي جرى عليه الفقهاء والمفسرون، كان قد ولّي إلى غير رجعة"^(١). وسوف نرى ذلك واضحاً في المنهج الأشعري، ومن بعده في مناهج كل من البغلاطي وابن حزم والشهرستاني. ويأتي الغزالي، أخيراً، لكي يتّوج النتائج التي توصل إليها بثقافة كلامية وفلسفية واسعة.

(١) فحري، ماجد: م. م. س: ص ٢٨٢.

إستهلك الصراع قروناً طويلة من الحركة، التي وإن لم تتسارع، إلا أنها لم تكن جامدة؛ وإذا لم تنتصر في ميدان الصراع، إلا أنها لم تنهزم أيضاً. فحقق أهل الكلام انتصاراً سياسياً لمنهجهم في بعض المحطات السريعة في التاريخ الإسلامي، عندما أخذ المأمون جانب المعتزلة في القول بخلق القرآن. لكنه لم يدم أكثر من ثلاثين عاماً.

فعلى الرغم من أن المأمون كان نصيراً أساسياً لتيار نقل الحضارة الفكرية والعلمية، وتأتي الفلسفة على رأس الحضارة المنقولة؛ وعلى الرغم من نصرته لتيار المعتزلة، كانت له مآرب و أوطار يريد النفاذ منها إلى مكاسب سياسية تصب في مصلحة ولايته في الخلافة من جهة، ولم تكن المكاسب لتصب في مصلحة المعتزلة لأنهم كانوا بعيدين عن القرار داخل السلطة من جهة أخرى^(١).

وفي مجمل القول لم يستطع تيار العقل أن يؤمن لنفسه موطئ قدم ثابت في السلطة السياسية، لأنه - ربما - كان يمثل فكر النخبة المثقفة، وهي قليلة العدد؛ فهي في مثل هذه الحالة لن تكون مؤثرة في دعم السلطة السياسية بقواعد شعبية واسعة. بينما كان تيار النقل يمثل القاعدة الجماهيرية الأوسع المؤمنة بتقليد الفقهاء والمحدثين، إستناداً إلى تحريمهم الخوض في مناقشة النص، وهذا مما يسهل الأمر أمام العامة التي لن تستسيغ أعمال عقلها و إتعابه.

وكان من الثغرات التي وقع بها المعتزلة هي أنهم إما بتأثير من المأمون - كسلطة سياسية - حولوا مقولاتهم إلى نص مقدس، وإما أنهم كانوا هم أنفسهم مقتنعين بهذه القدسية، وسيان كانت الدوافع أو الضغوطات فإنهم - بشكل مشابه للنصوصيين - أخضعوا التيارات الأخرى للمحاكمات الشبيهة بمحاكمات المتهمين بالردة؛ فحولوا مسألة القول بخلق القرآن إلى محنة أنزلت، بواسطتها وبسبب عدم القول بها، صنوف التعذيب والقهر والإبعاد عن موقع السلطة والشرعية لكل الرافضين لها. فهم بذلك، وفي الوقت الذي كان مطلوباً منهم كأصحاب عقل أن يفسحوا الحرية للآخرين بأن يفكروا من دون عوائق أو مخاوف، قد انزلقوا إلى تيار نقلي لنص وضعوه بأنفسهم، وأدخلوا يحاكمون الآخرين على أساسه؛ فكانهم بعملهم هذا قد خلقوا شروطاً لردة أخرى لا تتميز عن الردة المعروفة إلا بقواعدها وشروطها الجديدة.

فعلى العموم، عرف المنهج اللاتقليدي/العقلي والصوفي، طوال مسيرته، الكثير من محطات الصراع ضده، وكذلك ضد الفرق الإسلامية المخالفة لمذاهب السلطة السياسية على أكثر من جبهة:

- جبهة الخصوم السياسيين من خلفاء ووزراء وغيرهم.

(١) جلدعان، فهمي: م. س: ص ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

- جبهة المتخرجين من مدرسة علم الكلام الخارجين عليها.

١ - جبهة الخصوم السياسيين : أطلق الخلفاء المسلمون في العصر الأموي، وبشكل خاص في العصر العباسي، العنان لحرية الفقهاء والمحدثين، وعلى رأسهم المؤيدين للسلطة. فكان موقف الخلفاء يتحدد من هؤلاء، إبعاداً لهم أو تقريباً، إعتزافاً بهم واحتضانهم، أو ملاحقتهم والحجر عليهم، بمدى تأثيرهم، في وسط العامة والخاصة، سلباً أو إيجاباً، على أمن السلطة السياسية.

كان العباسيون - مثلاً - يفسحون بحرية العمل للفقهاء والمحدثين من دون حدود إذا ما بقوا بعيدين عن التدخل في الشأن السياسي، وبما يؤثر سلباً على استقرار سلطة الخليفة. فالخلفاء، إذاً، لم يحجروا على حرية الفقهاء وتفكيرهم ما داموا بعيدين عن مسائل الخلافة وما إليها^(١).

إنطلاقاً من ذلك تراوحت مواقف العباسيين من الفرق الدينية والتيارات الكلامية أو الفلسفية، بين غض الطرف عن نشاط فرقة، أو ملاحقة فرق أخرى بالتهديد والوعيد، أو محاكمة البعض وإنزال العقوبة بهم إلى حدود القتل والتمثيل بالجثث. لم يفعل الخلفاء ذلك إلا وكان الغطاء الشرعي/الديني ملازماً لهم: فقهاء من أصحاب المذاهب المؤيدة، وشعياً من قبل أوساط العامة المقلدة لأصحاب تلك المذاهب.

ولأن الأحداث - الشواهد كثيرة، وهي ستطيل البحث وترهقه، سوف نتناول أمهات الأحداث وأشدّها دلالة:

- تحددت الأبعاد السياسية لمبدأ الإختيار، الذي قال به المعتزلة، وكان يمثل الموقف الفكري المناهض "لمبدأ الجبر" بأبعاده السياسية. فهنا يُروى أن غيلان الدمشقي المعتزلي كتب إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠٢هـ / ٧١٧ - ٧٢٠م) منتقداً بوادع النهاون مع أفراد أسرته، فيكلفه عمر بن عبد العزيز بمهمة الإشراف على بيع الثروات المصادرة من الأسرة الأموية الحاكمة في مزاد علني كان أشبه بالتظاهرة السياسية ضد الأمويين. فيقف غيلان في هذا المزاد ينادي في جماهير الناس، ويقول لهم: "تعالوا إلى متاع الخونة... تعالوا إلى متاع الظلمة...". لكن عدالة عمر بن عبد العزيز، وهي ظاهرة نادرة في التاريخ الأموي، لم تتم فصلاً لغيلان الذي يدفع حياته ثمناً لموقفه بعد أن يتولى الحكم هشام بن عبد الملك (١٠٦ - ١٢٦هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م)، فيصلبه على باب دمشق، ثم يقطع يديه ورجليه، ثم يقطع لسانه^(٢).

(١) أمين، أحمد: ضحى الإسلام (ج ٢): م. س ك ص ٢٣٧.

(٢) ابن المرتضى، أحمد بن يحيى: النية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل: ص ص ١٦ - ١٧. نقلًا عن محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية: م. س: ص ص ١٥١ - ١٥٢.

- أصدر المأمون في العام (٢١٧هـ/٨٣٢م) أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خُلِقَ في وقت بعينه. وأتبع هذا بأمر آخر يقضي بالآل يُعَيَّن قاضياً في المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة، أو أن تقبل شهادته. وصدرت، بعد هذين القرارين، قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأي العين، وانتهى الأمر بأن جعل هذه العقائد من الجرائم التي يُعاقب مرتكبها بالإعدام^(١).

وكان ممن خضعوا لتجربة المحنة أحمد بن حنبل، الذي رفض القول بخلق القرآن على الرغم مما ألحق به من الأذى بالتعذيب والسجن^(٢).

- ولما جاء المتوكل في العام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) إستند إلى الشعب والأثراك، وكان الترك حديثي عهد بالإسلام، حاقدين على الفرس، غريبين عن الفكر اليوناني، فاندفعوا لتأييد السياسة التي ترمي إلى نصرة الدين بحد السيف.

ألغى المتوكل القرارات التي أصدرها المأمون، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحددين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية؛ وحرّم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة في الأدب والفلسفة؛ وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلي غير مخلوق، واضطهد الشيعة، وهدم مشهد الحسين^(٣).

ولم يكن ما فعله المتوكل صادراً عن إيمان وتقى وتعلّق بالشرعية، وإنما السياسة أولاً وأخيراً^(٤).

- كثرت الخصومات، في خلال القرن ٤هـ/القرن ١٠م، بين الشيعة والسنة، وبشكل خاص في بغداد^(٥). ولم تظهر المنافسة بين المذاهب في صورة شديدة إلا في القرن ٥هـ/القرن ١١م، وذلك أن المذاهب الصغرى قد فنيت وبقيت المذاهب الكبرى وحدها في الميدان؛ وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان^(٦):

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة (١٣م): م. س: ص ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (ج ١٠): م. س: ص ٣٣٢.

(٣) م. س. ن: ص ٢٠٢. - راجع، أيضاً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٦م): م. س: ص ١٠٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (٦م): م. س: ص ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٥) ميتز، آدم: م. س: ص ص ١٢٧ - ١٤١.

(٦) م. س. ن: ص ٣٩٥.

→ ففي العام (٤٠٦هـ/١٠١٦م)، وقعت فتنة بين أهل السنة و الروافض (الشيعة) بسبب عاشوراء^(١). واحترق مشهد الحسين في العام (٤٠٧هـ/١٠١٧م). وفيها قُتِلَت الشيعة الذين ببلاد إفريقيا، ونُهِبَت أموالهم ولم يُترك منهم إلا من لا يُعرَف^(٢).

→ وفي العام (٤٠٨هـ/١٠١٨م) وقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض في بغداد، قُتِلَ فيها خلق كبير من الفريقين^(٣).

بالإضافة إلى كل ذلك كانت الدولة البويهية، في بلاد فارس (٣٢٠ - ٤٤٧هـ/ ٩٣٢ - ١٠٥٥م)، الشيعة المذهب، تقف على كنف الخلافة العباسية في بغداد.

دفعت كل تلك الأسباب بالخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ/ ٩٩٢ - ١٠٣١م)، في العام ٤٠٨هـ، إلى اتخاذ قرار اختصر فيه العقل الديني نفسه إلى نص هو قرار، عندما ألزم كل الفرق الإسلامية والمتكلمين والفلاسفة باتباعه تحت طائلة الاتهام بالردة (التكفير والتفسيق)^(٤). فماذا حصل حول ذلك؟

جاء في رواية ابن كثير ما يلي: إستتاب الخليفة القادر فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع، و تبرأوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام؛ وأُخِذَت خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوا أُجِلَ فيهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم. وامثل محمود بن سبكتكين أمر الخليفة، واستن بسننه، في بلاد خراسان وغيرها، في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، فصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على المنابر، وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام^(٥).

- صدر، في العام (٤٣٣هـ/١٠٤١م)، في بغداد كتاب آخر سُمِّيَ الاعتقاد القادري. وقرئ في الدواوين؛ وكتب الفقهاء خطوطهم (تواقيعهم) فيه، مُقرِّين بأن هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر. وكان هذا نهاية تطور علم الكلام. وبعض ما جاء في الكتاب: إن الله "متكلم بكلام، لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين... ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق... ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر..." و "يجب أن نحب أصحاب النبي ﷺ كلهم، ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ، وإن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله ﷺ أبو بكر

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٢) : م . س : ٢ .

(٢) م . ن : ص ص ٤ - ٥ .

(٣) م . ن : ص ٦ .

(٤) طرايشي، جورج: "نهاية النبوات تؤسس مملكة البشر" (٢١): جريدة النهار: بيروت:

تاريخ ٢٩/١٠/١٩٩٨ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٢) : م . س : ص ٦ .

الصدق... ألخ... ومن سب عائشة فلا حظ له في الإسلام... ولا ندخل في شيء شجر بينهم... "لا يكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها... فلان من تركها بغير عذر فهو كافر..."^(١).

- ولن ننسى، في هذا المجال، محنة التيار الصوفي التي تجسدت في قتل الحسين بن منصور الحلاج على يدي المقتدر - الخليفة العباسي - في العام (٣٠٩هـ = ٩٢٢م).
لقد ظهرت حدة الخلاف بين الفقهاء والصوفية، وبالتالي بين السلطة والصوفية من خلال ما سُمي بالحنة التي ألحقها غلام الخليل؛ وكان مهرجاً في بلاط الخليفة العباسي في النصف الثاني من القرن ٣هـ = ٩م. كان غلام الخليل من المتشددين في الحديث، وكانت تربطه صلات شخصية برجال البلاط. وقد ألب العامة والسلطة على الصوفية، فقتل منهم ثيف وسبعين صوفياً، وسبق الكثير منهم إلى السجون، كالجنيد (ت في العام ٢٩٨هـ = ٩١١م)^(٢).

٢ - جبهة الخارجين على مدرسة علم الكلام :

يأتي الكلام في هذه الفقرة عن مواقف التيارات الإسلامية السنية، التي وقفت في صف العداء للتيارات الإسلامية اللاتقليدية، من موقع مناقشة الحجة بالحجة، أي باستخدام أسلوب اللاتقليديين ومنهجهم في القياس العقلي، خاصة منذ القرن ٥هـ = ١١م، بعد أن استطاع هذا المنهج أن يطغى على غيره من المناهج التقليدية، على الرغم من أنه لم يحقق النتائج ويصل إلى النهايات التي عمل من أجل الوصول إليها. وفي هذه الدائرة من الصراع ينخرط كل من :
- طبقة الإسلاميين السنيين، أي الذين دافعوا عن أهل السنة والجماعة. وكان حديث الفرقة الناجية من النار محورياً أساسياً في مناقشاتهم.
- طبقة الأشاعرة الذين ولدوا من رحم المعتزلة وعلم الكلام.
- ويأتي، أخيراً، تيار أبي حامد الغزالي الذي توج مراحل الصراع بفرض الانكفاء على حركة العقل والفلسفة.

أ - تيار تكفير الفرق الإسلامية على قاعدة حديث الفرقة الناجية من النار:

يمثل هذا التيار كل من : - عبد القاهر البغدادى (ت في العام ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م). - ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤م). - الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ = ١٠٨٧ - ١١٥٤م).

(١) ميتز، آدم : م . س : راجع النص الكامل للقرار في ص ص ٣٨١ - ٣٨٤.

(٢) أمين، أحمد : ظهر الإسلام (ج ٢) : دار الكتاب العربي : بيروت : ١٩٦٩ : ط ٥ : ص ٦٩.

ترافق التسابق على تحديد الفرقة الناجية من النار مع مجمل التطورات السياسية التي هدّدت وحدة الخلافة العباسية، ووحدة الدولة الإسلامية بتعلّد الدويلات المذهبية التي انتشرت في معظم أرجاء الدولة من جهة، وبعد استفحال أمر الفرق الإسلامية وتجزّرها العقيدي وانتشار تأثيراتها على كل القوى الشعبية التي انسأقت في شتى طرق التعصب لهذه أو تلك من الفرق المذهبية من جهة أخرى . وبعد أن أخذت المذاهب الفلسفية والصوفية تشق طريقها بجديّة وثبات، لكن بهدؤ وتؤدة من جهة ثالثة.

كان قرار القادر - الخليفة العباسي - بتكفير غير أهل السنة والجماعة يعبر، تماماً، عن طبيعة الصراع الحاد بين أهل السنة والجماعة - كطرف - وبين المذاهب الإسلامية والتيارات الكلامية والفلسفية، كطرف آخر.

ولأننا سوف نُقرّد، في بحثنا هذا، مكاناً مناسباً لبحث المراحل التي تصارعت فيها الفرق الإسلامية حول التسابق على حيازة، أو ادّعاء حيازة، موقع الفرقة الوحيدة الناجية من النار، والتي عبّرت عنها الشخصيات الثلاث أصدق تعبير، سنؤجّل البحث عن تيار تكفير الجماعات الإسلامية إلى مرحلة لاحقة.

ب - التيار الأشعري، أو التيار السني المولود من رحم مدرسة علم الكلام :

أسسه أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ / ٨٧٣ - ٩٣٥)، بعد أن أعلن تخليه عن الاعتزال في العام (٣٠٠هـ / ٩١١م).

في القرن ٣هـ / ٩م، كان أهل السنة ينظرون إلى المعتزلة بعين الكراهية والاحتقار. فخرج الأشعري، في أواخر القرن ٣هـ - ٩م تقريباً، عن المعتزلة بعد أن كان منهم، وبدأ يحاربهم بسلاحهم^(١).

يعود انتصار المذهب الأشعري لجملة من الأسباب، منها:

- أن الناس ملّوا من كثرة المناظرات والمباحكات في أعقاب محنة القرآن.

- كان أبو الحسن جديلاً قوي الحجة، فأنجذب إليه من عدلوا عن الاعتزال.

- تخلّت السلطة الحكومية، منذ عهد المتوكل، عن نصرة المعتزلة. ولما كان أغلب الناس

يمالئون الحكومة أينما كانت، ويخافون أن يعتقروا مذهباً لا ترضاه، هربوا من الاعتزال إلى الضفة الأخرى.

- كان لأبي الحسن الأشعري أتباع أقوياء^(٢).

(١) ميتز، آدم : م . س : ص ٣٧٧.

(٢) أسين : أحمد : ظهر الإسلام (ج ٤) : م . س : ص ٦٦.

استخدم الأشعري الأدلة الكلامية لإثبات عقائده الدينية، على الرغم من أن أصحاب السُّنة والحديث قد نهوا عنها. بيد أنه كان يوفق بين مباديء تلك الأدلة وبين عقائد أهل السُّنة والجماعة؛ وقد أسس على ذلك المذهب الأشعري^(١). فكانت الحركة الأشعرية وسطاً بين الاعتزال والسُّنة، أي أنها لا تنحرف نحو العقل الفلسفي الجاف، ولا بالتسليم الساذج بالنص^(٢).

وإعلاناً عن تمسكه بالسُّنة يقول: "قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله، وسُّنة نبيّه، وما رُوي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، وبما عليه أحمد بن حنبل، ونحن بأقواله قائلون، ولمن يخالف قوله قوله مجانبون". وعلى الرغم من ذلك، لم يُرضِ موقفه ومنهجه بعض كبار أهل السُّنة، وقد شنع عليه ابن حزم الأندلسي بلسان حاد في كتابه "الملل والنحل"^(٣).

حسب الأشعري أن في مقدوره أن يوفق بين مذهب أهل السُّنة وبين العقل، فأعلن تمسكه بمذهب الحنابلة، إلا أنهم خاصموه^(٤). فكان لا بدّ للأشاعرة من أن يدرأوا هجمات الحنابلة، الذين كان شيخهم يلعن، حوالي العام (٤٠٠هـ / ١٠١٩م)، أبا الحسن الأشعري أمام الملأ وينال من الأشاعرة^(٥).

يقول الأشعري بقدرة الله المطلقة وسلطته الشاملة في الكون. فمن حق الله وحده أن يُدبّر شؤون البشر كما يشاء؛ ومن واجب "العبد" أن يطيع دون استفسار. وخلافاً لدعوى المعتزلة، ليس للفاعل البشري أي دور في عملية الاختيار أو الفعل... لأن ذلك يطل كونه الله الخالق والرب الوحيد للعالم؛ وهذا يؤدي - بالتالي - إلى إثبات خالقين إثنين على غرار المانوية أو المجوس^(٦). ومع أن الأشعري "رفض أن يكون الإنسان فاعلاً وخالقاً لأفعاله، لكنه اعترف بأن للإنسان قدرة على كسب الأفعال"^(٧).

(١) مشكور، محمد جواد: م. م. س: ص ١١٠.

(٢) تامر، عارف: م. م. س: ص ٣٤.

(٣) أمين، أحمد: ظهر الإسلام (ج ١): م. م. س: ص ٥٢.

(٤) ميتز، آدم: م. م. س: ص ٣٧٨.

(٥) طبقات السبكي (ج ٣): ص ١١٧؛ نقلاً عن آدم ميتز: م. م. س: ص ٣٨٠.

(٦) فخري، ماجد: م. م. س: ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٧) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ١): م. م. س: ص ٢٠٤.

و للأشعري موقف سُني بالنسبة للخليفة والخلافة يتعارض مع موقف المعتزلة، ومع عدد من الفرق الإسلامية الأخرى، فهو يقول: "إن السيف باطل، ولو قُتلت الرجال وسُيِّت الذرية، وإن الإمام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً..."^(١).

قوي المذهب الأشعري بعد صدور كتب أبي حامد الغزالي (٤٥٠ - ١٠٥٨هـ/١١١١م) على الرغم من اعتراض الحنابلة والماتريدية والمعتزلة، ومحاربة البويهيين له، بسبب ميلهم إلى التشيع. وقد أصبح له أتباع كثيرون بعد استيلاء السلاجقة (٤٢٩ - ٥٨٢هـ/١٠٣٧ - ١١٨٦م) على الحكم، وكانت الشيعة والمعتزلة قد ضعفتا في بغداد وخراسان^(٢).

ج - أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ١٠٥٨هـ/١١١١م) : من الواضح أن الغزالي كان رائداً للتيارات التي تصدّت لعلم الكلام والفلسفة من منطلق الهجوم عليهم بأسلحتهم للدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة، مستنداً إلى قاعدة فكرية صوفية. فهو، إذاً، وخلافاً لكل محصور علم الكلام والفلسفة وقف إلى جانب الاتجاه الصوفي.

إضافة إلى التأثيرات الفكرية التي اقتنع بها قد يكون الغزالي قد بدأ في صياغة أفكاره السياسية، بأبعادها الميتافيزيقية واللاهوتية متماهياً مع السلطة. ومع أنه انتهى داعياً للابتعاد عنها، إلا أن هذه السلطة تركت تأثيرها المهم في فكره، ذلك أنها حدثت من حريته في بناء قناعات خاصة به بعيداً عن التقرب والخوف والممالة؛ وحدّد قربه منها إطاراً له لم يستطع الخروج منه^(٣).

حظي الغزالي بلقاء نظام الملك - وزير السلطان السلجوقي ملك شاه (٤٦٤ - ٤٨٥هـ/١٠٧٢ - ١٠٩٢م) - وكان هذا الوزير الكبير متعصباً للدفاع عن المذهب السني، لذا عمد إلى مناهضة الحركة الشيعية (الإسماعيلية)، التي أخذت بها الخلافة الفاطمية المنافسة لها في القاهرة. ولكي يحقق هذا الغرض، أسس نظام الملك عدداً من المدارس الدينية في أرجاء الشطر الشرقي من العالم الإسلامي، حيث كان الفقه الشافعي، والكلام الأشعري يدرّسان بعناية خاصة؛ فاضطلع الغزالي، بعد موت أستاذه الجويني (ت في العام ٤٧٨هـ = ١٠٨٥م)، بمهمة النود عن المذهب السني^(٤).

(١) مقالات الإسلاميين (ج ٢): ص ٤٥١ - ٤٥٢. نقلاً عن محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي:

م. س: ص ٥٤.

(٢) مشكور، محمد جواد: م. س: ص ١١١.

(٣) شحيتلي، عبده: السببية والحكمة الالهية في فكر الغزالي: رسالة دبلوم غير منشورة:

الجامعة اللبنانية (الفرع الخامس): ١٩٩٤: ص ١١٩ - ١٢٠.

(٤) فحري، ماجد: م. س: ص ٢٩٩.

كانت المذاهب السُّنِّيَّة، في ذلك العصر محاصرة، بشكل خاص، من قِبَلِ الدولة الفاطمية ذات المذهب الشيعي الإسماعيلي. كما كانت فرقة الحشاشين، التي تفرعت عن الدولة الفاطمية، منذ العام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، من أكثر الجماعات التي نشرت الذعر في كثير من البلاد الإسلامية في عهد السلاجقة^(١).

تميّز السلاجقة بتعصبهم الشديد للإسلام بتأثير من يبتتهم البدوية، وأثر ميلهم المفرط إلى أهل السُّنَّة والجماعة، بعد اعتناق المذهب السُّنِّي، في ولائهم للخليفة العباسي^(٢). حصل الغزالي علم الكلام للدفاع عن عقيدة أهل السُّنَّة، ودرء هجمات أهل البدعة عنها. ولهذا السبب نقض أساليب الكلاميين، وعقائد المذهب الإسماعيلي. ومع أن رده على الإسماعيلية كان شديد اللهجة، فإن ردوده على الفلاسفة العرب كانت أشد إحكاماً وأبعد غوراً^(٣).

حسب الغزالي أنه لن يقف على فساد الفلسفة إلا من يتبحر فيها؛ وهكذا فعل في سبيل دحضها فوضع كتاب "تهافت الفلاسفة". وكان السبب الذي حفزه على تأليفه هو ما رآه من انصراف بعض الطوائف عن فرائض الإسلام، وإنكارهم للمعتقدات الإسلامية، إلا أنه ميز بين العلوم الطبيعية و الآلهية. وقد عيّن من هذه المسائل ثلاثاً يذكر أنها - من الناحية الدينية - منكّرة جداً؛ ولذلك أوجب تكفير أصحابها، ومقاضاتهم بالحدود الشرعية التي تنص على معاقبة المرتدّين عن الإسلام. وهذه المسائل هي: القول بأزلية العالم - حصر علم الله بالكليات - إنكار حشر الأجساد^(٤).

لهذا فقد تصدّى الغزالي للفلسفة "وأبان تهافتها واتهم أصحابها - وبخاصة ابن سينا - بالكفر والزندقة والإلحاد"^(٥).

وفي معرض محاولته للتوفيق بين العقيدة والتصوف، دعا الغزالي إلى المحافظة على الشريعة الظاهرة؛ كما دعا إلى أنها لا قيمة لها ما لم تُدعّم بالنية الحسنة. فكان له الفضل في إزالة العداء بين الفقهاء والصوفية^(٦).

(١) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج٣): م. س: ص ٤٣١.

(٢) م. ن: ص ٤٢٣.

(٣) فخري ن ماجد: م. س: ص ٣٠٢.

(٤) م. ن: ص ٣٠٤.

(٥) شرف، محمد جلال: م. س: ص ٨.

(٦) أمين، أحمد: ظهر الإسلام (ج١): م. س: ص ٦٢.

IV - من تكفير الفرد إلى تكفير الجماعة :

(الردة وحديث الفرقة الناجية من النار)

١ - ماذا جاء في النص حول الفرقة الناجية من النار؟

جاء في القرآن الكريم، أن الإسلام واحد: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون ﴾ (المؤمنون ٢٣ : ٥٢). ولكن المسلمون فرقوا دينهم، بإرادتهم، شيعاً وأحزاباً: ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (المؤمنون ٢٣ : ٥٣).

وإن الله يتبرأ من الذين فرقوا دينهم ﴿ إن الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ (الأنعام ٦ : ١٥٤).

لم يشأ الله أن يتدخل فيما فعلوه من شرك ومن اقتال، لكنه لو شاء أن يتدخل لما سمح لهم أن يشركوا أو أن يقتتلوا: - ﴿ ولو شاء ربك ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (الأنعام ٦ : ١٠٧). ﴿...ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ (البقرة ٢ : ٢٥٣).

ولو اختلف المسلمون فيما بينهم، فإن حسابهم على الله، وهو الذي يحكم بينهم يوم القيامة: ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ (الرعد ١٣ : ٢٧). وإن دور المسلمين/المؤمنين، الذين لم ينخرطوا في القتال أن يصلحوا بين إخوانهم ﴿ إنما المؤمنون إخوة، فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ (الحجرات ٤٩ : ١٠).

وقد جاء في الحديث النبوي ما يؤكد حتمية افتراق الأمة، إذ يقول الرسول: "إفترقت بنو إسرائيل إلى إحدى وسبعين فرقة، وإفترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي

إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من هم على ما أنا عليه وأصحابي^(١).

يُستدلُّ من مضمون الحديث أن الرسول شمل أصحابه جميعهم؛ وهذا ما يؤكد على اتباع سلوك جميع أصحابه واجب على المسلمين أن يتفكروه. وتؤكد هذا المضمون رواية وردت في صحيح مسلم، وفيها قيل أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه"^(٢). وجاء: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر"^(٣). وجاء، ما يلي: "ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة"^(٤).

وجاء، أيضاً: "ليدخلن الجنة من أمي سبعون ألفاً أو سبعماية ألف (لا يدري أبو حازم - الراوي - أيهما). قال: متماسكون أخذ بعضهم بعضاً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم"^(٥).

فلو كانت أمة الإسلام هم كل الذين أعلنوا إسلامهم، حتى لو أخطأ بعضهم لأن شفاعته لهم عند الله كفيلاً بإنقاذهم؛ وجاء في الحديث النبوي أنه لما استشفع الرسول ﷺ بأمة الإسلام، أمام الله عز وجل، وبكى؛ ولما سأله جبريل عن سبب بكائه: "فقال الله يا جبريل، إذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمك ولا نسوؤك"^(٦).

وما جاء في حديث الحوض، حول أصحاب الرسول تخصيصاً، لا يدل على أن جميعهم سوف ينجون من الحساب ومن العقاب؛ قال الرسول: "أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم. فأقول: إنهم مني. فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سحقا، سحقا لمن بدل بعدي"^(٧).

يُستدلُّ من جملة الآيات القرآنية، ومن جملة الأحاديث النبوية، أن أمة الإسلام لن تبقى واحدة، وإنها سوف تفترق. فهل أمة الإسلام هي ما أمر به الله حين قال: ﴿كنتم خير أمة

(١) مسند أحمد (ج ٣) : ص ١٢٠ و ١٤٥.

(٢) صحيح مسلم (ج ٧) : ٢ . م : ص ١٨٨.

(٣) م . ن : (ج ١) : ص ٥٨.

(٤) م . ن : ص ١٣٩.

(٥) م . ن : ص ١٣٧.

(٦) م . ن : ص ١٣٢.

(٧) م . ن : (ج ٧) : ص ٦٦.

أُخْرِجَت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾ آل عمران ٣: ١١٠ .
وهل هي كل المسلمين، بجميع فرقهم، أم أن مصطلح أمة - هنا - تعني فرقة منهم من أصل
ثلاث وسبعين فرقة فقط؟

فلو كانت الأمة هي كل المسلمين، الذين أعلنوا الشهادتين، ولم يشركوا بالله، والذين
ولدوا بالفطرة - حسب تعبير الفقهاء - فكيف نتأول حديث الحوض الذي نُسِبَ للرسول؟ فهل
شفاعة الرسول تشمل جميع أصحابه، الذين دلَّ عليهم حديث الفرقة الناجية من النار، في
الوقت الذي يدل فيه الحديث على خلاف ذلك؟

فلو كانت الأمة تشمل كل المكلفين من المسلمين، وفي الوقت الذي قال فيه تعالى: ﴿اللَّهُ
يُحْكَمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ، فلماذا تصرفت الفرق الإسلامية، على
اختلاف مذاهبها، على أن كل فرقة كلَّفت نفسها بمحاكمة الآخرين على أساس ما تحسب أنه
مقدس؟

أما لو كانت الأمة هي الفرقة الناجية من النار، أي فرقة واحدة من أصل ثلاث وسبعين،
أي بمقدار سبعين ألفاً، أو سبعمائة ألف مسلم - كما نصَّ عليه الحديث الآخر - يكون النص
قد حدَّد العدد، لكنه لم يحدِّد ما يجب أن تعتقه تلك الفرقة من معتقدات بدقة على غرار ما تم
تحديد عدد أفرادها بدقة متناهية إلا ما لم يستطع الراوي أن يسمع أو يميز، تماماً، الفرق بين
العدد سبعين أو سبعمائة.

إن على فقهاء المسلمين مهمة الفصل في إشكالية التناقض بين الحديثين المنسوين للنبي من
جهة، وبينهما وبين الآية القرآنية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من جهة أخرى. على
الفقهاء أن يتخذوا من مهمة الفصل بين الحديثين أو غيرهما من الأحاديث الأخرى، التي تحمل
الكثير من التناقضات، واجباً دينياً ملحاً، هذا إذا وُجدت مرجعية دينية موحدة؛ لا أن يُترك
الأمر سائماً، وفي متناول أي قارئ له ملكة الحفظ والكلام فيأخذ ما يستسيغ مزاجه أو ما
يدغدغ أهواءه من الأحاديث متجاوزاً حالة التناقض التي تلف تلك الأحاديث فتصبح مضللة
بدلاً عن أن تكون هادية مرشدة.

إن حديثي الفرقة الناجية من النار، وتحديد عدد أفراد أمة محمد، يحملان إشكالية خطيرة،
ليس من السهولة بمكان أن يتم تجاوزها إذا حاولنا الجمع بينهما. فكيف يتم التوفيق بين الفرقة
الواحدة الناجية، وبين حديث السبعين ألفاً أو السبعمائة ألف؟ فالأول يحدد نوعية من يدخل
الجنة، من دون تحديد مواصفات هذا النوع؛ أما الثاني فيحدد العدد، أي أن الله قد خصَّص
لأمة محمد مقاعد محدودة يمكن أن تكون قد امتلأت منذ مراحل الدعوة الأولى في الوقت الذي

أسلم فيه - حتى الآن - مئات الملايين من البشر. أما إذا لم يكتمل العدد - حتى الآن - فهنا الطامة الكبرى، فلماذا؟

يبلغ تعداد المسلمين في العالم - في هذا العصر - قرابة المليار من المسلمين، فأي أمل هو الذي يحدو بالمسلمين بدخول الجنة، في الوقت الذي لم يبق فيه الأمل سوى لبضع مئات أو لبضع آلاف على أبعد تقدير، هذا إذا بقي من السبعين ألفاً أو السبعماية ألف أي مقعد؟ أما إذا اكتمل العدد المطلوب فلا بد أن الجنة أقفلت أبوابها؛ أما إذا لم يكن العدد قد اكتمل، فإن من مات منذ مئات السنين لا بد في أنه ينتظر الآخرين لأنه لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم.

والأمر، في مثل هذه الحالة، لا أن تتزاحم الفرق الإسلامية على دخول الجنة فحسب؛ بل أن يتزاحم المتممون إلى الفرقة الناجية في سبيل الدخول، لأن عدد الواجب دخولهم محدد تحديداً دقيقاً، فالأمكنة المخصصة للمسلمين في الجنة قد تمتلئ في أية لحظة. وهنا تتساءل عن مصير الفرقة الناجية من بعد أن يدخل الجنة منهم العدد المحدد في الحديث المذكور؟

من الواضح أن حديث الفرقة الناجية له مضمون ديني، ولا يمكن أن يُأول إلا بأسانيد دينية من النص الإسلامي، أي بمعنى تحديده تحديداً دقيقاً. أما تلك الأسانيد فلم تكن واضحة على الإطلاق، لا في النص القرآني ولا في النص النبوي. فعلى الرغم من أن الخلاف كان سياسياً بين مختلف الفرق الإسلامية، تزامناً على الخلافة وأحقيتها، إلا أن الغطاء لن يكون شرعياً إلا إذا دُعِمَ بالنص الإسلامي - القرآن والسنة - ولهذا انبثت التيارات السياسية الإسلامية، منذ وفاة الرسول، إلى العمل في سبيل تأسيس نص ديني يُدعّم الاتجاهات السياسية لكل فرقة. فأخذت أولى مظاهر التأسيس طريقها في العصر الأموي، فكان منها عدد محدود من الفرق التي لم تكن معتقداتها قد اكتملت، وإنما كانت بذوراً أسست للعصر العباسي، وفيه اكتمل بناء أكثرية الفرق سياسياً وعقائدياً.

أخذ، في العصر العباسي، اهتمام عدد من الفقهاء المسلمين ينشد اتجاه الحديث النبوي، الذي يشر فيه بالفرقة الناجية من النار، متأثرين بعدة عوامل، من أهمها:

- عامل انتشار الفرق وتفرعها وصراعها بين بعضها البعض، واستفحال أمرها ليطال هيبة الخلافة في بغداد.

- عامل انتشار علم الكلام وتأثيراته السياسية والدينية. وتبين هذه التأثيرات أكثر عندما نستذكر الاهتمام بالفلسفة، وبدء ولادة التفكير الفلسفي، بتأثير من بداية موجة الشك ببعض ما كان يدور حول غموض النص الديني من جهة والشك بما نَجَل منه وفيه وحوله.

- ولادة نماذج من الأنظمة السياسية - الدينية التي تتمذهب بغير المذهب السُّني، وهو المذهب الرسمي المعلن للدولة العباسية.

ولأن الدولة العباسية كانت تميل إلى المذهبين الظاهري والأشعري، ويحظى علماؤها بتأييد العباسيين، فقد حاول هؤلاء - ما وسعهم الجهد - أن يرموا مخالفينهم بتهمة الكفر والزندقة^(١).

ولهذا نجد أن أشهر من كتب في مجال الفرقة الناجية من النار - المقياس الذي على أساسه يتم تكفير الفرق الأخرى - ومن الذين تأثروا بما أنتجه علم الكلام والفلسفة، هم: البغدادي - ابن حزم - الشهرستاني^(٢). وقد توفي أولهم في العام (٤٢٩هـ = ١٠٣٧م)، وآخرهم توفي في العام (٥٤٨هـ / ١١٥٤م). ويدل هذا على أن الاهتمام بموضوع الفرقة الناجية من النار قد جاء متأخراً جداً عن بدء الدعوة الإسلامية، أي بعد أربعة قرون ونصف تقريباً. فلماذا استفاق العلماء المسلمون على هذا الحديث في مثل هذا الوقت؟

جاء هذا الاهتمام في مرحلة شديدة الحساسية، أي مرحلة التفكك العقائدي - الديني، والسياسي - الديني.

لما كنا في الفصل الثالث من هذا البحث قد تكلمنا ببعض التفصيل عن المجازر، التي أوقعتها الفرق الإسلامية ببعضها البعض: سواء كان على صعيد أصحاب السلطة ضد المعارضة؛ أو في ردود المعارضة على أصحاب السلطة؛ أو في الصراع الذي خاضته الفرق الإسلامية، غير السُّنية، ضد الدولة العباسية ونالت في نهايته جازئتها الكبرى عندما أسست أنظمة سياسية حاكمة على أساس من عقائدها الفرقية الخاصة بها، والتي كانت على الصعيد الديني - الإسلامي منافسة للفرق السنية؛ وتأتي الدولة الفاطمية - الإسماعيلية على رأس هذه الأنظمة.

كانت كل تلك المظاهر/الوقائع تدل على عمق الخلاف السياسي - الديني القائم على قاعدة الخلاف العقائدي - المذهبي. أو جاء الخلاف المذهبي مدعماً للخلاف السياسي. ولهذا وجدنا أن علماء/فقهاء الفرق المؤيدين للسلطة السياسية للعباسيين، أو المؤيدين لغيرها، جاؤا في أبحاثهم وكتاباتهم لكي يُدعموا الجهة التي يؤيدونها بشرعية النص الديني. وكانت جُلُّ

(١) مشكور، محمد جواد: م. س. : ص ٧.

(٢) راجع مقدمة كتاب الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١) : م. س. : ص ٤.

أبحاث الفرق الإسلامية السُّنَّية تدور حول تحديد هوية الفرقة الناجية من النار؛ وكان الوصول لمعرفة وتحديد ثابته ديني أساسي في سبيل إثبات الشرعية السياسية لأي نظام سياسي إسلامي. فالفرقة الناجية من النار في الآخرة هي حكماً الفرقة التي يجب أن تحكم المسلمين في الدنيا. فماذا جاء في وقائع البحث حول هذه المسألة؟

٢ - أهل السُّنة والجماعة هم الفرقة الوحيدة الناجية من النار:

قام عدد من الفقهاء السُّنة بتأليف كتب تمحورت مواضيعها حول البحث عن الفرقة الناجية من النار :

﴿ قام البغدادي بعدد من الحسابات حول الفرق الإسلامية وفروعها؛ فجمع بعضها مع بعض، وأسقط البعض منها، واختزل البعض الآخر، فوصل إلى نتيجة حسائية عبّر عنها بما يلي: "فهذه الجملة التي ذكرناها، تشمل على ثنتين وسبعين فرقة منها: عشرون روافض، وعشرون خوارج، وعشرون قدرية، وعشر مرجئة، وثلاث نجارية وبكرية وضرارية وجهمية وكرامية، فهذه ثنتان وسبعون فرقة. فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة من فريق الرأي والحديث... وكلهم متفقون على مقالة واحدة... وهم الفرقة الناجية..."^(١).

ثم قام البغدادي بتقسيم التهم، ضد كل من خالف أهل السنة والجماعة، إلى درجات كما يلي: التجهيل - الجحد - التضليل - المعاندة - الكفر والإلحاد. وقد انتقى التهم ضد المخالفين واحدة واحدة^(٢).

أما نحن فنحسب أنه لن تكون عقوبة المتهم في منزلة بين المنزلتين، فهو - حسب نص الحديث - إما أن يكون مع الفرقة الناجية فتكون الجنة هي داره الآخرة؛ وإما أن يكون مع الفرقة الضالة - مخالفاً للفرقة الناجية - فداره النار.

أما كيف حصل الاختلاف بين الفرق؟

﴿ يقول ابن حزم: اختلف الناس فيمن يكفر ولا يكفر، فيجيب:

- ذهب البعض "إلى أن من خالفهم في شيء من مسائل الاعتقاد، أو في شيء من مسائل الفتيا فهو كافر".

- وذهب البعض الآخر "إلى أن من خالفهم في مسائل الاعتقاد فهو كافر، وإن من خالفهم في مسائل الأحكام والعبادات فليس كافراً ولا فاسقاً، ولكنه مجتهد معذور، إن أخطأ مأجور بنيته".

(١) البغدادي، عبد القاهر: م . س : ص ص ١٩ - ٢٠.

(٢) للمزيد من التفصيل حول الأحكام الصادرة بحق كل فرقة، راجع: عبد القاهر البغدادي: م . س : ص ص ٢٠٩ - ٢٥٢.

- وقال البعض الثالث "قيم من خالفهم في مسائل الاعتقادات - إن كان الخلاف في صفات الله عز وجل - فهو كافر. وإن كان دون ذلك فهو فاسق".

- "وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول يقوله في اعتقاد أو فتيا، وإن كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنه الحق، فإنه مأجور على كل حال؛ إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد". وهذا قول أبي ليلى، وأبي حنيفة، والشافعي... وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة، وما نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلاً إلا ما ذكر من اختلافهم في تكفير من ترك صلاة متعمداً، أو ترك أداء الزكاة، أو ترك الحج، أو ترك صيام رمضان، أو شرب الخمر^(١).

→ أما الشهرستاني، فكأننا به يريد - في معرض تحديده للفرقة الناجية من النار - أن يضع قاعدة مضمونها أنه كلما اقتربت الفرقة الإسلامية من النص، واستبعدت العقل، كلما كانت مؤهلة أكثر للوصول إلى موقع الفرقة الناجية من النار؛ وهو هنا يرمز للعقل بإبليس، الذي - بعد امتناعه عن السجود لآدم - صدرت عنه الشبهة الأولى، أي التمرد على الله عز وجل. وفي هذا المعنى يقول: "وانشعبت من هذه الشبهة سبع شبهات، وسارت في الخليفة، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة... ومن هذه الشبهات هي التي يوجهها إبليس للملائكة بشكل أسئلة:

- الأول: أنه [أي الله] قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني ويحصل مني، فلما خلقتي أولاً؟ وما الحكمة في خلقه إياي؟

- والثاني: إذ خلقتني على مقتضى إرادته ومشيتته، فلمَ كلفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في هذا التكليف بعد أن لا يُنتفع بطاعته، ولا يُتضرر بمعصيته؟^(٢).

ثم يردف الشهرستاني فيقول: "فلم يخف في هذه الأمة أن شبهاتها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن الرسول ﷺ، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهي، فصارت الاعتراضات كالبنور، وظهرت منها الشبهات كالزروع"^(٣).

- ثم يعدد الاختلافات التي حصلت فيقول عن الاختلاف الأول والثاني، وهي التي حصلت في حال مرض الرسول: عندما طلب أن يكتب كتاباً للمسلمين - وعندما طلب أن يجهزوا جيش أسامة: "وأما الاختلافات الواقعة في حال مرضه ﷺ، وبعد وفاته، بين الصحابة

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ٢): ٢٠٠ م: ص ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (ج ١): ٢٠٠ م: ص ص ١٦ - ١٧.

(٣) ٢٠٠ م: ص ص ٢١ - ٢٢.

(ر)، فهي اختلافات إجتهدية كما قيل، كان غرضهم منها إقامة مراسم الشرع، وإدامة مناهج الدين^(١).

- والخلاف الثالث: بعد موته، عندما قال عمر بن الخطاب: "من قال أن محمداً قد مات قتله بسيفي هذا"^(٢).

- الخلاف الرابع: في موضع دفنه بين مكة والمدينة وبيت المقدس^(٣).

- الخلاف الخامس: في الإمامة "إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان"^(٤).

- الخلاف السادس: في أمر فلك، والتوارث عن النبي ﷺ.

- الخلاف السابع: في قتال مانعي الزكاة. طلب قوم أن لا يُقاتلوا قتال الكفرة. وقوم عارض ذلك. فردَّ عمر في أيام خلافته السبايا والأموال والمحجوسين والأسرى^(٥).

- الخلاف الثامن: في تنصيب أبي بكر عمراً بالخلافة وقت الوفاة^(٦).

- الخلاف التاسع: في أمر الشورى، واختلاف الآراء فيها على عهد عثمان عندما امتنع عن سماع آراء الصحابة من المسلمين^(٧).

- الخلاف العاشر: في زمان علي بن أبي طالب، وبعد البيعة له، ثم خروج طلحة و الزبير وعائشة وحصول حرب الجمل. ثم الخلاف بينه وبين معاوية. ثم مسألة التحكيم ومخالفة الخوارج^(٨).

أما حول مسألة الخلافة/ الإمامة، وما حصل من تنازع، فيقول البغدادي إن المسلمين أخذوا "في شروط النبوة والإمامة يكفر بعضهم بعضاً، فصَحَّ تأويل الحديث في افتراق الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة"^(٩). ويستطرد قائلاً إنه رُوِيَ عن الخلفاء الراشدين - إضافة إلى حديث

(١) م . ن : ص ٢٢.

(٢) م . ن : ص ٢٣.

(٣) م . ن : ص ٢٣.

(٤) م . ن : ص ٢٤.

(٥) م . ن : ص ٢٥.

(٦) م . ن : ص ٢٥.

(٧) م . ن : ص ٢٦.

(٨) م . ن : ص ٢٧.

(٩) البغدادي ، عبد القاهر : م . س : ص ٧.

الرسول - أنهم ذكروا افتراق الأمة بعلهم فِرَقاً، وذكروا أن الفرقة الناجية منها فرقة واحدة، وسائرهما على الضلال في الدنيا والبوار في الآخرة^(١).

٣ - الشيعة هم الفرقة الناجية من النار :

كان المحور الذي دارت حوله أسباب الفرق الشيعية في تكفير الآخرين يتعلّق بشكل أساسي في موضوع الإمامة. وحول هذه المسألة سنستعرض أقوال فقيه شيعي إثني عشري، وأقوال فقيه إسماعيلي.

﴿ جاء عند محمد بن يعقوب الكليني (ت في العام ٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، في كتابه "الحجة"؛ الأقوال التالية:

- عن أبي جعفر قال: "إنما يعرف الله عز وجل ويعبده، من عرف الله، وعرف إمامه منا أهل البيت. ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الإمام منا أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله"^(٢).

- وعن أبي جعفر قال: "من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل ظاهر عادل، أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق"^(٣).
- قال أبو عبد الله: "من عرفنا [أي أهل رسول الله] كان مؤمناً، ومن أنكرنا كان كافراً"^(٤).

- قال أبو عبد الله: "وبعبادتنا عبادة الله عز وجل، ولولانا ما عبّد الله"^(٥).
- ينقل الشيعة حديثاً للرسول يقول فيه: "الأئمة بعدي إثني عشر، أولهم علي و آخرهم القائم، خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج الله على أمّتي بعدي، المُقرُّ بهم مؤمن، والمنكر لهم كافراً"^(٦).

﴿ جاء عند النعمان بن محمد (٢٥٩ - ٣٥١هـ/ ٨٧٣ - ٩٦٢م) الفقيه الإسماعيلي، ما يلي^(٧): إن المسلمين لم يختلفوا في حياة الرسول ﷺ، لأنه كان يجيبهم عما اختلفوا فيه. لكن "من

(١) م . ن : ص ٥.

(٢) كان الكليني شيخ الشيعة الإثني عشرية في وقته؛ وانتهت إليه رئاسة الإمامية في أيام الخليفة المقتدر. وكان عالماً متعمقاً، ومتحدثاً ثقة. نقلاً عن يوسف إيش: الإمام والإمامة عند الشيعة: دار الحمراء: بيروت: ١٩٩٠: ط ١: ص ٢٥.

(٣) م . ن : ص ٢٦.

(٤) م . ن : ص ٢٩.

(٥) م . ن : ص ٣٤.

(٦) م . ن : ص ١٠.

وُلِّيَ الأمر بعده لا يعلم بكل ما ورد عليه فيه. فكان الاختلاف من أجل ذلك؛ ولو سَلَّموا لولي الأمر، وأخذوا عنه لما اختلف منهم إثنان في دين الله تعالى، كما لم يختلفوا في حياة رسول الله؛ فهذا ما رُوِيَ في الاختلاف في بدء الأمر. وأما ما كان بعد ذلك فإنه وُلِّيَ أمور الناس من بني أمية، وبني العباس، من لا علم له بحلال الله وحرامه... وسَلَّموا أمر الدين للمتفقيين من العوام... فكان ذلك مما أرضوهم به، واستمالوهم بسببه، إلى بغيتهم، على ما لا يعلمونه فيهم... وتشعبت لهم الأهواء^(١).

وقد حصل ذلك لأنهم "تنافسوا في المراتب، وكثروا وترأسوا في الناس، واختلفوا إذ عجزوا عن علم الكتاب والسنة، فاستنبطوا أحكاماً من ذات أنفسهم للأمة..."^(٢). واستمروا هكذا إلى "أن قام مهدي الأمة من أهل بيت الرحمة، الذي جاءت الأخبار عن رسول الله بالبشرى بقيامه، وذكر ما يكون من إقامة دين الله على يديه وفي أيامه"^(٣). وهو يُلَمَّح في ذلك إلى عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا.

فالفرقة الحق - كما يحسب النعمان - هم الذين قلّدوا من أمر الله بتقليدهم، وهم ليسوا "غير أولي الأمر الذين أقامهم بعد الرسول في السمع والطاعة؛ ونصّبهم لبيان ما أشكل على الأمة من فرائض دينه وأحكامه، واحداً بعد واحد، في كل زمان وعصر، قائم منهم وشاهد. فمن ردّ إلى من لم يأمر الله جلّ ذكره بالرد إليه، وقلّد من لم يأذن الله بتقليده، فاتّبعه، وقال بقوله، وتدين به، ولم يأمر الله جلّ ذكره، فقد اتخذ آلهاً من دونه، وأشرك به..."^(٤).

إذا اعتقد المسلمون بصحة حديث الفرقة الناجية من النار، كنص مقسّس، فإن هذا الاعتقاد يصبح واضحاً لا لبس فيه. وإن ذلك يعني أن افتراق الأمة الإسلامية هو أمر محتوم ومكتوب، فلا مجال، إذاً، للجدال فيه. وفي مثل هذه الحالة لا يمكن غير القول بأنه يتناقض مع ما ورد من آيات تنص على أن الأمة الإسلامية أمة واحدة.

فهذه الأمة، أينما جاء ذكرها في النص، تعني الإسلام وليس غير الإسلام. فهي خير أمة أخرجت للناس ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ٣ : ١١٠). وهي الأمة الوسط

(٧) كان النعمان بن محمد من أشهر فقهاء المذهب الإسماعيلي. وكانت مؤلفاته من الأسس التي بنى عليها من جاء بعده من علماء المذهب الإسماعيلي. وهو مؤسس أسرة النعمان التي اشتهرت في الفقه الإسماعيلي. راجع مقدمة كتابه:

إختلاف أصول المذاهب: م. س: ص ٩.

(١) بن محمد، النعمان: م. س: ص ٣٢.

(٢) م. ن: ص ٣٤.

(٣) م. ن: ص ٣٤.

(٤) م. ن: ص ٥٥.

التي خلقها الله حجة على الناس، ﴿وكذلك جعلناكم خير أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة ٢: ١٤٣). فجاء حديث الفرقة الناجية لكي يحوّل معنى الأمة إلى معنى الفرقة/ الجماعة. فأصبحت الفرقة/ الجماعة هي الحجة، وهي خير أمة، وهي الأمة الوسط.

من شروط الفرقة الناجية أن تعتقد بإسلام صادق وأمين، ويرتبط هذا الاعتقاد بما جاء في الكتاب والسنة. لكن لم يكن كل ما جاء في المصدرين الرئيسيين مُحكماً، وإنما كان بعضه متشابهاً يعسر فهمه إلا على الراسخين في العلم؛ فاختلف المسلمون حتى في تعريف من هو الراسخ في العلم. وفي هذا الصدد يُقال: "لو كانت أحكام الشريعة قد أُعطيَتْ كلها من خلال الكتاب والسنة، ضمن صيغ وعبائر واضحة صريحة لا يشوبها أي شك أو غموض..."، لكأن عملية استخراج الحكم الشرعي ميسورة لكثير من الناس^(١).

ويُقال، أيضاً إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليبهم في كلامهم... ومع هذا لم يكن كله في متناول الصحابة جميعاً، بحيث يستطيعون أن يفهموه - إجمالاً وتفصيلاً - بمجرد أن يسمعوه. ففي القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى، وفيها آيات غامضة، وهي التي سُميت متشابهاً، صُعِبَ فهمها فاختلف الصحابة فيها^(٢). وبعد أن أصبح التفسير علماً قائماً بذاته، إنخرطت شتى الفرق التي تستند في التفسير إلى المأثور، أو التي تستند إلى الرأي، لكي يصبح لكل فرقة تفسير خاص بها، وهكذا "تشتت الآراء، واختلفت المذاهب، وأصبحوا يُخضعون القرآن للمذهب، بعد أن كانت المذاهب تخضع للقرآن"^(٣).

نتيجة لذلك إنخرط المسلمون، على شتى انتماءاتهم، في معركة التأويل والتفسير، فافترقوا إلى مذاهب متنازعة. فالإفتراق في التفسير دفع كل من الفرق المتعددة - وكأنه مصداق لحديث الفرقة الناجية - لأن تحسب نفسها، باعتقاد جازم وصارم، أنها الفرقة الوحيدة الناجية من دون غيرها من الفرق الأخرى؛ والسبب - في اعتقاد كل منها - أنه استطاعت أن تحصل على الحقيقة الإسلامية الصحيحة دون غيرها، وحيازة الحقيقة - أو ادعاء حيازتها - تُعدُّ شرطاً لازماً وضرورياً، وجواز مرور إلى الجنة.

ولما كانت كل فرقة من الثلاث والسبعين تحسب أنها الناجية وحدها، يعني ذلك أن الفرق الأخرى قد كفرت بأصل أو أكثر من أصول العقيدة الإسلامية؛ ومن المعروف أن من ترك أصلاً - فرداً كان أم جماعة - فهو مرتد عن الإسلام والمرتد ينال عقاباً حاداً القتل.

(١) الصدر، محمد باقر: الفتاوى الواضحة: دار التعارف: بيروت: ١٩٨٣: ط ٨: ص ٨٨.

(٢) أمين، أحمد: فجر الإسلام: م. س: ص ص ١٩٥ - ١٩٧.

(٣) أمين، أحمد: ظهر الإسلام (ج ٢): م. س: ص ٤٥.

إستنتاجاً، وقياساً على أدنى قواعد المنطق، تُعدُّ كل الفرق الإسلامية مرتدَّة، لأن كل فرقة منها تجد أن الأخريات قد تركت أصلاً من أصول الإسلام؛ فلها لن تنجو واحدة من هذا الحكم لأنه لن يكفيها حجة أنها مقتتعة، ذاتياً، أنها تسلك سبيل الحق والصواب. فالاعتقادات المذهبية تقود إلى منع النجاة عن أية فرقة، فكل منها ناجية بنظر نفسها، وضالَّة بنظر غيرها.

إنقسم المسلمون إلى طوائف وأحزاب "وقامت بينهم المعارك والحروب، أُرِيقَت فيها الدماء، واستبيحت الأعراض، وتبدلت المفاهيم، واختلفت القيم. وما زال المسلمون يعانون من آثار هذا الانحراف المتاعب والانقسامات ... وتخطَّت مسألة الإمامة إلى غيرها من المسائل المتعلقة بأصول الدين وفروعه؛ وأصبح من المتعسّر، تقريباً، على أي كان إصلاح ما حدث... ما دام كل فريق يحرص، بكل ما أوتي من قوة وتفكير، لتأييد مذهبه وانتشاره"^(١).

جاء حديث الفرقة الناجية من النار، إذاً، لكي ينقل الاتهام بالردة من دائرة الفرد (من ارتد منكم عن دينه فاقتلوه) إلى دائرة اتهام الجماعة، بل الجماعات بالجملة، بالردة، وتكفيرها!! السبب الذي دفع كل فرقة من الفرق الإسلامية كافة، ومن دون أي استثناء، لأن تلجأ إلى تكفير الفرق الأخرى بفتاوى فقهية تستند إلى دلائل شرعية أولاً، ثم تعمل على الفتك بالفرق الأخرى، واستحلال دمها وأموالها وأعراضها من جهة أخرى.

فما هي النتائج التي حصدتها العقيدة الإسلامية بسبب تطبيق مبدأ الردة، منذ البداية وحتى نهاية العصر العباسي؟

(١) الحسيني، هاشم معروف: م. س. ص: ١٩٤.

v - ماذا جنى الإسلام والمسلمون من مبدأ الإتهام بالردة؟

إن أي فكر جديد تنتجه نخبة ما، أو أفراد نخبويون، في المجتمع لن تُكتبَ له الحياة - كما نحسب - ما لم تتوافر عوامل تساعد على الاستمرار فالتجاح. ومن هذه العوامل والوسائل:

أ - قد يكون الفكر صُورِيًّا أو مجرداً، أو مما يتعسر فهمه على جميع الناس؛ وإنه إذا لم يكن موجَّهاً لصالح حركة التغيير والتطوير فلا جدوى منه؛ والنتيجة هي موته واضمحلاله. أما إذا كان مما يعكس الحاجات الفعلية، ويرمي إلى تغيير ما أصبح متخلفاً عن مواكبة حاجات العصر، فإنه عايش وسوف يعطي ثماره مهما طال الزمن، ومهما كثرت العوائق في طريقه. فأهمية الفكر، إذاً، أن يكون معبراً عن حاجات المجتمع.

ب - إذا كان الفكر بمستوى من التجريد، أو مما يعسر فهمه على كل الناس، فلن يكون بمتناول شرائح واسعة من المجتمع الموجه إليه. فلا بُدَّ - والحال كذلك من وجود نخبة مثقفة وبسيطة تعمل متفاعلة مع هذا الفكر لتتيج، بدورها، وسائل إيصاله إلى المجتمع.

ج - عادة ما يأتي أي فكر جديد على أنقاض أفكار سبقت، وشكلت جزءاً من سلوكيات المجتمع واتجاهاته؛ والنتيجة تكون في الصدام بين الفكر القديم السائد والفكر الجديد. وهذا مما يدخل في دائرة صراع المتناقضات.

د - لكي يصبح، إذاً، فكر النخبة المجلدة فكراً يومياً للمجتمع كان لا بُدَّ من أن تتوفر له مميزات وشرائط، ومنها: التعبير عن حاجات المجتمع - أن تتوفر له وسائل نشره وتعميمه بين النخبة المنتجة للفكر وبين المجتمع الموجه إليه - قبوله من قبل المجتمع، ومن ثم التفاعل معه ليصبح ثقافة شعبية تنعكس على سلوك المجتمع.

فهل توفرت هذه المميزات والعوامل عندما ابتدأ العقل النقدي يأخذ دوره في تاريخ الدعوة الإسلامية؟ حول ذلك سنبدلي رأي، نحسب أنه يسهم في تقريب الإشكاليات، التي عانت منها الدعوة الإسلامية، من مرافيء الحل.

جاءت الثقافة الإسلامية لتحل محل بعض ما كان متخلفاً في جوانب الثقافة الجاهلية. فمِنذ بدء الدعوة في مكة - وفي خلال عشرين عاماً تقريباً - ساد الإسلام في أصقاع الجزيرة العربية بأكملها، فماذا يعني ذلك؟

في خلال عشرين عاماً حَلَّت ثقافة محل ثقافة أخرى، وبأية وسائل؟
إننا لا نحسب أن ثقافة ما تحل محل ثقافة أخرى بمثل تلك السرعة؛ ويستحيل الأمر إذا كانت وسائل التغيير الثقافي قائمة على شرائط التسليم بالدعوة تحت ضغط التهديد: إما بالسيف في الحياة الدنيا، وإما بالخلود في النار في الحياة الآخرة.

فإذا قال قائل محتجاً أن الدعوة الإسلامية لم تقم بمجد السيف - كخطاب مثالي تعبوي متعصب^(١) - فليرجع القائل إلى قراءة الفصل الأول من هذا البحث، أو فليستزد ما شاء له من كتب التراث وهي أكثر من أن تُحصى.

حتى أنه بعد أن استتب الأمر للإسلام في الجزيرة العربية، لم تكن وسائل وشرائط نشر الثقافة الإسلامية تتجاوز حدود التسليم لأولي الأمر وتقليدهم، فطلب العلم لم يكن فرض كفاية بل كان فرض عين، فإذا تعلّم الفقيه فإنه ينوب عن العامة من المسلمين^(٢).

إلا أنه، ومنذ انتشار الإسلام في خارج الجزيرة العربية، كانت الدعوة إلى الإسلام تتم: إما بالاستجابة، أو بالسيف، أو بدفع الجزية، أو بدفع الخراج... وهنا بدأ صراع آخر بين الثقافة الإسلامية من جهة، وبين ثقافات الأمم الخاضعة من جهة أخرى. وانطلاقاً من ذلك أخذ العقل النقدي ينبت من رحم الحاجة لحل إشكاليات جديدة لم يرد فيها نص إسلامي. ومن رحم هذه الإشكاليات وُلِدَ تيار أهل الرأي في التفسير والتشريع فدخل في مواجهة حادة مع تيار أهل الحديث.

كان تيار أهل الرأي، وموطنه العراق - بجمع حضارات أخرى غير عربية ولا إسلامية - هو أحد أهم نتائج صراع الثقافات. أما تيار أهل الحديث فكان لا يزال يُعبر عن البيئة الأساسية - البيئة العربية - أي بيئة التسليم الديني فالثقافي الإسلامي.

هنا ابتداء صراع في داخل دائرة الثقافة الإسلامية حول هل إن النص كان كافياً لإعطاء حلول لإشكالات المجتمع الإسلامي الجديد، أم أنه يمكن الاستعانة بأدوات فكرية غير إسلامية، وهي تلك الأدوات التي يظن التقليديون أنها مشكوك بشرعية استخدامها؟

(١) راجع أحد النماذج التعبوية، عند أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج ١): م. س: ص ٤٥٦.
(٢) راجع بحثنا: "ما بين العروبة والإسلام.. ." (١٢٠ - ١٥١): مجلة الفكر العربي: بيروت: العدد ٧٦: ص ١٢٩.

لم تكن العودة إلى النص الإسلامي ذات أهداف تشريعية دينية خالصة؛ بل كان العامل السياسي يلعب دوراً ويؤثر في صياغة تلك الاتجاهات؛ كأن يندفع النصوصيون، وفعل مثلهم أهل الرأي، إلى صياغة الكثير من الفتاوى الدينية المستندة إلى النص الإسلامي في سبيل تشريع ما يصب في مصلحة السياسيين؛ وكان السياسيون، بدورهم، يبادلون خدمات الفقهاء بالاعتراف بمذاهبهم وتغليبها على المذاهب الأخرى.

لم يكن العامل السياسي يعني أهل السياسة وحدهم، بل كان يؤثر في صياغة اتجاهات المعارضة أيضاً. فأخذ كل من الطرفين: فقهاء السلطة وفقهاء المعارضة، ينهل من الحديث أو ما يستجيب لأهوائه من وسائل التأويل والتفسير. لهذا كله كان النص الإسلامي يتراكم، وتتراكم معه وسائل وشرائط تدعيمه، فكثُر النحل في الحديث والروايات، وتفرقت أساليب واتجاهات التفسير مذاهب شتى، متافرة، متناقضة، يلغي بعضها البعض الآخر بالتكفير والتبديع والتضليل...

وهكذا كان الصراع يتراكم بين أهل الحديث وأهل الرأي، وهم يعيشون في داخل دائرة واحدة، وكل منهم ينهل من ينبوع نفسه، لكي يُدعم أسس الدعوة الإسلامية بما يتوافق مع أهوائه واتجاهاته. وكان كل طرف يحسب أن أدواته هي الأفضل والأكثر قدسية، فيسبغ عليها الشرعية الدينية مستنداً إلى نصوص من القرآن والسنة. وعلى هذا المنوال كان النصوصيون يشككون بشرعية أدلة أهل الرأي، فيقابلهم أهل الرأي بتسفيه آرائهم، وكل منهم يرى النص ويجد فيه ما يُعزز فتاواه.

كانت الفرق تتخذ اتجاهات عقائدية دينية - سياسية، لها علاقة بشرعية السلطة تارة، ولها علاقة بسلوكات أهل السلطة تارة أخرى، فافترقت الأمة عقائدياً وسياسياً، وتمسكت كل فرقة بما لديها، وأخذت تدفع باتجاه بناء أسسها العقائدية والسياسية كفرقة تُعبر - كما تحسب - عن الإسلام الحقيقي أصديق تعبير من جهة، وتلصق التهم بغيرها من الفرق إلى حدود تكفيرها من جهة أخرى.

إرتفعت وتيرة الصراع عندما أخذ أصحاب الرأي يتجهون نحو النظر الفلسفي - ما يُسمى بعلم الكلام - السبب الذي قاد الجميع، حتى أهل الحديث والنصوصيين، إلى أن ينهلوا من معين الثقافات الأخرى للأمم والشعوب التي دخلت في حرم الإسلام، وأصبحت من رعايا الدولة الإسلامية، لكي يُدعموا آراءهم النقلية من خلال هجومهم ونقضهم لآليات النظر الفلسفي والعقلي.

كانت الهوة تزداد اتساعاً بين النصوصيين وبين أصحاب الاتجاه النقدي كلما كان العقل العربي - الإسلامي يتجه نحو مدرسة النظر الفلسفي. كانت، في خضم هذا الصراع، نخبتان تتقاتلان:

- نخبة النصوصيين، الذين على الرغم من محاربتهم لآليات الرأي والعقل إلا أنهم لم يستغنوا عن خدماتهما في معركتهم.

- نخبة الكلاميين، ثم أصحاب النظر الفلسفي، فأصحاب العقل الفلسفي.

أية قوة كان يمتلك كل من الطرفين المتنازعين؟

هنا دخلت إلى معترك التكفير والتضليل والتجهيل و التبديع طائفة الصوفية والفلاسفة، فألصقت بها تهم الردة عن الإسلام، وسُلّ السيف على رقابهم. ولما كانت العقوبة هي القتل إنحني عدد كبير من الفلاسفة أمام العاصفة حتى لا تقتلعهم. فموازين القوى بين الطرفين: النصوصيون وأهل الرأي والعقل، لم تكن متكافئة، فالوقائع الميدانية تدل على ذلك بوضوح:

→ الفريق النصوصي : كان ينتج نخبات واسعة من الفقهاء وتلاميذهم، أي الرأس النخبوي ووسائط اتصالهم بالعامّة من المجتمع. وكانت القاعدة الشعبية، أي العامة، تنفعل وتتفاعل مع تقليد الثقافة الدينية التي تُنتج لأجلها؛ فهي معفاة بذلك من تعب التفكير وعبه واحتمال وزره من جهة، وهي أكثر ميلاً وهوى للخلاص في الآخرة عن أيسر السبل، خاصة وأن الانتماء الديني ليست عملية معقدة، بل ميسورة وسهلة الكسب من جهة أخرى.

فالثقافة السائدة كانت هي الثقافة الإسلامية، التي أثر في ترسيخها عدة عوامل:

فالعوامل الذاتية، كالأمية والفقر والتعرض للاضطهاد المادي والمعنوي (الالتهام بالردة في الدنيا وعقوبتها القتل - وعذاب النار في الآخرة).

والعوامل الثقافية الدينية، كالتسليم والتقليد، وهي لا تتطلب عناء التفكير أو تحمل مسؤولياته.

والعوامل السلطوية - السياسية، التي كانت عادة ما تقهر غير المسلمين كالزنادقة وأتباع الأديان الوثنية، وحتى أصحاب الكتاب من مسيحيين ويهود.

وكثيراً ما كان أصحاب المذاهب و وسائطهم يستقرون بالعامّة ضد مناوئهم من أصحاب الرأي والعقل والصوفية والتفكير الفلسفي؛ ولم ينبج من تعسف النصوصيين السنين، وتحريضهم واضطهادهم، بعض الفرق ممن يُحسب على أهل السنة والجماعة.

فكان بعض أصحاب المذاهب يستخدمون العامة سلاحاً، كما حصل مع الطبري، والشافعية، والشيعة، والمالكية، على أيدي الحنابلة. وكثيراً ما كان أصحاب المذاهب يستقرون

بالسلطة لقمع واضطهاد وتكفير أصحاب الملل والنحل المعارضة، كما حصل مع الحلاج الصوفي، وأحمد بن حنبل النصوصي، وابن رشد الفيلسوف...

كان إنتاج طبقة المحدثين والفقهاء يتم بشكل أيسر وأسهل من إنتاج متكلم أو فيلسوف واحد؛ ويُعدُّ هذا أمراً غير مُستغرب إذا وضعنا شروط الإنتاج الفكري/العقلي في كفة الميزان مقابل شروط الإنتاج النقلي/النصوصي في الكفة الأخرى.

← الفريق اللاتقليدي : من متصوفة كبار وفلاسفة. فكان ضئيل الإنتاج في رؤوس النخبة ووسائطهم، وبالتالي كان ينعكس على إضعاف قاعدة المؤيدين... السبب الذي لم تنتشر فيه الثقافة العقلية أفقياً، وبشكل لا يمكن مقارنة قوة تيار العقل في أوساط العامة، مع قوة تيار النقل في الأوساط ذاتها.

لقد طال الإتهام بالتبديع والتكفير المتصوفة الكبار والفلاسفة على الرغم من أن الغزالي قد استطاع أن يدرأ - فيما بعد - الخطر عن التصوف.

إنتهت نتائج العراك بين النقل والعقل لصالح أصحاب النقل، فانكفأ العقل الفلسفي بذلك مع انتهاء دور الخلافة العباسية، الذي يعني سقوط دور العرب السياسي؛ ومن المثير للتساؤل أن يسقط الإثنان معاً. فالنتيجة كانت أن استولى العنصر غير العربي، بشكل نهائي ومحكم، على كرسي الخلافة، فأصبح الخليفة إسماعياً شرعياً يتلظى الماليك، ثم الأتراك العثمانيون تحت عباءة شرعيته الدينية من جهة، ويمسكون بفتاوى الفقهاء لصالح تدعيم سلطتهم بنص ديني إسلامي من جهة أخرى.

كان حرق الكتب في بغداد، في منتصف القرن ٦ هـ/ القرن ١٢ م، وحرق كتب ابن رشد في أواخر القرن ذاته، بدءاً لنهاية الحضارة العربية، ونقطة تحول مهمة، فقد حُسم الصراع لصالح التيار المحافظ الخائف من الاشتغال بعلوم الأقدمين... ولم يعد الاشتغال بالعلوم مسموحاً به باستثناء الطب والحساب، فتابع التيار الديني طريقه من خلال الفقه والتصوف^(١).

لقد حصلت حالة من التشابه بين موقف المسيحية من العقل وموقف المسلمين منه: "ففي المسيحية، ابتداءً من مجمع "نيقيا" اختصر العقل الديني نفسه، إلى نص هو قرار، في حوالي مئة كلمة، صادر عن مجمع "نيقيا" يلخص قانونه في أن: من آمن به فهو مسيحي، ومن خالفه فهو كافر وزنديق ويستحق القتل. حصل مثل هذا تماماً في الثقافة العربية الإسلامية في العام (٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م)، حيث جمع الخليفة "القادر بالله" العلماء والنساك ومدرسي الدين في ديوان

(١) زيناتي، جورج: "ابن رشد بين العرب والغرب" (٣٧ / ٥٤): مجلة الباحث: باريس: العدد الأول: ١٩٧٨ : ص ٤٦.

الخلافة، ووقعوا نصاً جمعياً (تسمية على الطريقة المسيحية) سُمِّيَ "بالاعتقاد القادري"؛ ووقع تحته العلماء بخطوطهم، فقالوا: هذا هو اعتقاد المسلمين، فمن خالفه كفرَ وفسق^(١). ولهذا أخذ المفكرون يُؤرِّخون لتاريخ الجمود "بموت ابن رشد في نهاية القرن ١٢هـ/ القرن ١٣م". لكن: "ليس ابن رشد هو وحده الخاسر الأكبر في هذه المعركة [بين الفكر الفلسفي والنقل الأصولي] وإنما المجتمعات العربية والإسلامية بأسرها، فهي لا تزال تدفع ثمن هزيمة الفكر حتى هذه اللحظة"^(٢).

(١) طرايشي ، جورج : م . س .
(٢) أركون ، محمد : "حوار مع محمد أركون" : م . س : ص ٣٧.

الفصل الخامس

الغرب المسيحي يجتاز مسافة الردة

تمهيد

في دائرة قوله بضرورة تأويل الآيات القرآنية المتشابهات، أوجب ابن رشد حصر المهمة بالفلاسفة، من دون المتكلمين والفقهاء. ووصف الفقهاء، الذين اتهموا الفلاسفة بالكفر والزندقة، أنهم غاية في الجهل والبعد عن الله تعالى. نتيجة لقوله بمثل هذه الأفكار، وبغيرها مما يتناقض مع تأويلات الفقهاء، حُكِمَ عليه بالنفي عن مكان إقامته، وأمرَ بإجراق كتبه وحُرِّمَت قراءتها وتلخيصها. لما توفي ابن رشد في العام (٥٩٥هـ / ١١٩٨م) كانت ترجمة آثار الفلاسفة الإسلاميين والعرب تنتقل إلى الغرب المسيحي؛ كما نُقِلَت آراء أرسطو إلى اللاتينية من خلال شرح ابن رشد لها، وقد حصل ذلك في الوقت الذي كان فيه بعض آباء الكنيسة المسيحية يتجهون نحو الإصلاح الديني.

جاءت آراء أرسطو، من خلال شروحات ابن رشد لها، لتوازر أصحاب النظر الفلسفي الأوروبي من جهة، ولكي تشكل صدمة للكنيسة والمصلحين معاً من جهة أخرى. فنرى توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م / ٦٢٢ - ٦٧٢هـ) وهو أول رجل دين مسيحي ينزل إلى ساحة التوفيق بين الدين والفلسفة، مثلاً، يقوم بلور المحارب ضد آراء ابن رشد تحديداً.

وبعد أن تبدأ ساحة الصراع بين الثقيلين والعقلين المسيحيين، ينال الرشديون الأوروبيون العقاب، فيُتهمون بالهرطقة والردة عن المسيحية، إرهاباً روحياً وجسدياً، فيُحكم على بعضهم بالحرق - على أيدي محاكم التفتيش - وعلى كتبهم أيضاً.

في هذه المرحلة كان الشرق الإسلامي قد استسلم لانتصار النصوصيين والسلفيين على الدعوات العقلية. وترافق هذا مع سيطرة الماليك على السلطة (١٢٥٠ - ١٥١٧م/٦٤٧ - ٨٢٣هـ) وصلُّوا تقدُّم جيوش المغول المخيفة الزاحفة باتجاه الشرق الإسلامي، فاستسلم المسلمون لقيادتهم مع تخلفهم الثقافي وقسوتهم في سفك الدماء.

استسلم الشرق الإسلامي للنظام السياسي الجديد تحت حجة مبادئ فقهية لبعض العلماء المسلمين، ومضمونها جواز قيام نظام سياسي يحظى بتأييد الشريعة بشرط قيامه بحماية الثغور (حدود الدولة الإسلامية) وحماية الشريعة. فحمى النظام الإسلامي المملوكي الثغور، وسخر الشريعة لخدمة مصالحه.

وما إن أطلَّ النظام العثماني (١٥١٧ - ١٩١٨م/٨٢٣ - ١٣٣٦هـ) حتى كان الشرق الإسلامي يسير في ظلال المبادئ الفقهية الموروثة عن المرحلة المملوكية.

في مثل تلك المرحلة كانت مراجل الغرب المسيحي تغلي تحت حدة الصراع بين الفكر السلفي المسيحي وبين العقل والفلسفة. ففي الوقت الذي صدر الشرق الإسلامي - طبعاً بدون رضى السلفيين الإسلاميين - شعلة الثورة الفكرية إلى الغرب المسيحي، وفي الوقت الذي بقي فيه الشرق مستسلماً وراضٍ بما حققه من نصر على الفكر الفلسفي، كان الغرب المسيحي يحقق انتصاراً للعقل والفكر الفلسفي، لكن من دون إلغاء للإيمان الديني.

هنا نجد أوجه التشابه - بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي - وأوجه التمايز: - فأوجه التشابه تتضمن أن الإسلام والمسيحية شهرا سيف مبدأ الردة عن الدين ضد من يتجرأ على اقتحام أسوار النص والتقليد بنور العقل ... وإن تمايز الطرفين في درجة الممارسة إلا أنهما توحدتا في النوعية.

- أما التمايزات: فكان استسلام الشرق الإسلامي إلى انتصار النقل والسلفية وجودهما طوال الفترة الممتدة بين آخر إعدام لكتب الفلاسفة - بإعدام كتب ابن رشد - (منذ أواخر القرن ١٢م/أواخر القرن ٦هـ) و(أوائل القرن ٢٠م/١٤هـ) أي ما يقارب الثمانية قرون من الزمن، وما زالت المرحلة مستمرة إلى الآن، وإن كانت بحدّة أقل.

أما الغرب المسيحي فقد اجتاز مسافة الردة، والوصول إلى مصالحة بين العقل والنقل، على قاعدة الحوار الفكري الحر من دون استخدام لسيف الردة من قبل اللاهوتيين، أو إلغاء للدين من جانب العقليين.

١ - الردّة في المسيحية

نشأ القانون الكنسي، شيئاً فشيئاً، من العادات القديمة، ومن فقرات في الكتاب المقدس، وآراء آباء الكنيسة، وقوانين روما، وقرارات المجالس الكنسية، وقرارات الباباوات وآرائهم^(١).

١ - الردة في نص الكتاب المقدس:

جاءت في الكتاب المقدس (العهد القديم - سفر التشريع) النصوص التالية:

[١] - إذا قام بينكم متنبئ أو رائي حلم، فأعطاكم آية أو معجزة. [٢] ولو تمت الآية أو المعجزة التي كلمك عنها، وقال لك تعال بنا إلى آلهة غريبة لم تعرفها، فنعبدها. [٣] فلا تسمع كلام هذا المتنبئ أو رائي الحلم، فإن الرب آلهكم ممتحنكم ليعلم هل أنتم تحبون الرب آلهكم من كل قلوبكم ونفوسكم. [٥] وذلك المتنبئ أو رائي الحلم يُقتل لأنه تكلم ليزيفكم عن الرب آلهكم.. ويغويكم عن الطريق التي أمركم الرب آلهكم بأن تسيروا فيها، فاقبلوا الشر من بينكم. [٦] وإن أغراك في الخفاء أخوك ابن أمك، أو ابنك، أو ابنتك، أو امرأتك التي في حجرك، أو صديقك الذي هو كنفسك قائلاً: تعال نعبد آلهة أחר لم تعرفها أنت وآباؤك. [٨] فلا ترضى بذلك ولا تسمع له، ولا تشفق عليه عينك، ولا تصفح له، ولا تسر عليه. [٩] بل اقله قتلاً، يدك تكون عليه أولاً لقتله، ثم أيدي سائر الشعب أخيراً. [١٠] ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه حاول أن يغويك عن الرب آلهك...^(٢).

٢ - الردة في النص الكنسي:

بعد أن لعب الباباوات دوراً، ولعبت الدولة دوراً موازياً، حدثت المجامع الكنسية العقوبات التي يجب أن تُفرض على المرتدّين عن الدين المسيحي. ومرّت هذه العقوبات بدورين، وبشكل يتناسب مع التحديات التي تواجهها الكنيسة مع المرتدّين.

(١) ديورانت ، ول : قصة الحضارة (١٦م) : م .س : ١٩٦٥ : ط ٢ : ص ٤٥.

(٢) الكتاب المقدس (العهد القديم) : للطبعة الكاثوليكية : بيروت : د.ط : ص ٣٢٢.

أ - الدور الأول: الإرهاب الروحي: على العموم كان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المنسوب إلى المسيح: "من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يرى" (مرقص: إصحاح ١٦: الآية ١٦). ووصل القديس أوغسطين إلى النتيجة القائلة: إن من مات من الأطفال قبل التعميد ماله النار^(١).

كان الميدان الذي يشغله القانون الكنسي أوسع من الميدان الذي يشغله قانون مدني معاصر، فهو يتناول شؤون الدين والدنيا^(٢). وكانت الكنيسة ترى من الواجب على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا له؛ وإن من حقها أن توقع على كل من خرج على أي شيء منه، مختلف العقوبات البدنية أو الروحية، باستثناء عقوبة الإعدام. وكانت تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي، لذا فقد فرضت العقوبة بالحرمان، وبأبني الحرمان على مستويين:

- الحرمان الأصغر: وهو حق لكل رجل دين. ومعناه العذاب الدائم في النار إذا مات الأثم قبل العفو عنه.

- أما الحرمان الأكبر: فلا يصدره إلا مجلس ديني. ومعناه حرمان المسيحي من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي؛ ومن تأثيراته على الذي تُنزل العقوبة عليه أنه لا يستطيع أن يُقاضي، أو يرث، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية؛ ويجوز لغيره أن يقاضيه. ويحرم على أي مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه، وإلا حُقَّ عليه الحرمان الأصغر^(٣).

كثرت قرارات الحرمان والتحریم حتى أصبحت ضعيفة الأثر في (القرن ١١م/القرن ٦ هـ). فبلغت قرارات الحرمان بالجملة (للغش في أموال الزكاة التي كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين) من الكثرة التي جعلت أقساماً كثيرة من المجتمع المسيحي محرومة كلها في وقت واحد^(٤).

كان قانون الدولة البيزنطية - الكنيسة الشرقية - في القرن ١٠م/القرن ٤ هـ يقضي بقتل المسيحي إذا غير دينه. ولم يكن القانون المسيحي يُجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصراني، لئلا تتقل هي وأولادها إلى غير المذهب؛ ولا كان للنصراني أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية^(٥).

ب - الدور الثاني: الإرهاب الجسدي: أما في الكنيسة الغربية - روما - لم يستطع الأساقفة المكلفون - قبل القرن ١٣م، القضاء على الضالين لاعتبارات كثيرة، بل ازداد الضلال

(١) ديورانت، ول: م. س: (١٦م): ص ٥.

(٢) م. ن: ص ٤٥.

(٣) م. ن: ص ٤٧.

(٤) م. ن: ص ٤٨.

(٥) ميتز، آدم: (١م): م. س: ص ٧٦-٧٧.

على الرغم من المحاكمات الشعبية والحكومية والأسقفية^(١). فأُسِّست محكمة التفتيش في العصر الوسيط للبحث عن الهرطقة ومحاكمتهم؛ وقد وضع مجمع فيرونه في العام (١١٨٣م/ ٥٧٨هـ) الأسس التي بُنيت عليها هذه المحكمة، ثم امتد تأثيرها في سائر البلاد المسيحية الأوروبية^(٢).

وفي العام (١٢٣١م/ ٦٢٨هـ) إتفقت الدولة والكنيسة على أن الضالين، الذين لا يتوبون عن ضلالهم، خونة يجب أن يُعاقبوا بالإعدام، وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسمياً تحت سلطة الباباوات^(٣).

كان الحكم بالإعدام على المارقين من الدين سابقاً لقانون الكنيسة المسيحية؛ فكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين - أي الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية - جريمة كبرى يُعاقب عليها بالإعدام. وهذا هو القانون الذي حُكِمَ به على سقراط بالموت. وكانت القوانين ذاتها سائدة في روما القديمة (روما الوثنية) التي كانت تحكم بها على المارقين من الدين. ومن هذه الإجراءات - واستناداً إلى نصوص الكتاب المقدس - أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق، في العصور الوسطى، شكلها واسمها^(٤).

وكلما كانت تظهر أعمال محكمة التفتيش عدم جدواها، إما بتلكو القائمين عليها، وكان المال نقطة الضعف فيهم، كان الباباوات يقومون بتنشيط أعمالها، إما بإصلاح تنظيمها، وإما بالضغط على الأجهزة المختصة في سبيل هذا التفعيل. ففي العام (١٤٥٢م/ ٨٥٦هـ)، وبعد أن ضعُفَ عمل المحاكم، أعادها البابا بولس الثالث للعمل، ووضعها تحت رقابته في إيطاليا، تساعده اللجنة المقدسة. وتتألف هذه اللجنة من ستة كرادلة يرأسهم البابا نفسه؛ ومهمتها السهر في جميع البلاد الكاثوليكية، على الدين الخفيف. وكان باستطاعة المفتشين العامين أن يجوبوا مختلف البلاد. وقامت هذه اللجنة بعملها بكل شِدَّة وصرامة. ولم تكف بمحاربة الإصلاح بالنار، بل أرادت أن تخلق الحرية العلمية والفلسفية. وأسست في العام (١٥٥٩م/ ٩٦٦هـ) لجنة التثيت، ووظيفتها أن تنظم قائمة بأسماء الكتب التي تحرم قراءتها، وأحرقت كميات كبيرة منها. وبهذا تحول الإصلاح الكاثوليكي إلى مكافحة النهضة^(٥).

(١) م. ن. : ص ٩٥.

(٢) حاطوم، نور الدين: تاريخ عصر النهضة الأوروبية: دار الفكر: دمشق: ١٩٨٥: د. ط: ص ٢٠٠.

(٣) ديورانت، ول: قصة الحضارة (١٦م): م. س. : ص ٩٦.

(٤) م. ن. : ص ٩١.

(٥) حاطوم، نور الدين: م. س. : ص ٢٠١.

عُيِّنَ في العام (١٤٧٨م/٨٨٣هـ)، في أسبانيا، هيئة محكمة التفتيش من ستة قسّس ليحققوا في تهم الهرطقة، ويعاقبوا عليها^(١). وكان تشكيل الهيئة من صلاحيات الملوك؛ وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين في أسبانيا^(٢).

شجعت المحكمة في أسبانيا الذين يبلغون عن أي هرطيق بأن تحافظ على سرّيتهم. ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة أن يأتي إلى المحكمة في خلال "مهلة صفح" ويعترف بها، فيُحكم عليه بغرامة، أو تُفرض عليه كفارة؛ ويُصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هرطقة آخرين. وإذا اقتنعت المحكمة بإدانة شخص، فإنها تأمر بالقبض عليه، وتسجنه مقيّداً بالسلاسل، وتمنع عنه أية زيارة؛ وتلقي على المقبوض عليه عبء إثبات براءته، ولا يُبلغ المتهم عن التهم الموجهة ضده، إنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره؛ وإذا أبى الاعتراف سُمح له باختيار محامين للدفاع عنه. وفي كثير من الأحوال كان يُعذب ليكره على الاعتراف؛ إلا أن وسائل التعذيب التي كانت تستعملها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة^(٣).

أما في إنجلترا، وبعد أن ساد المذهب الأنجليكاني - في خلال (القرن ١٦م/ القرن ١٠هـ) - فقد جُرّدت حملة شرسة ضد الكاثوليك. وقد أصدر البابا بيوس الخامس في رومه مرسوماً، في العام (١٥٧٠م/٩٧هـ)، يُحرم فيه اليزايث ملكة إنجلترا من الكنيسة، وأحلّ رعاياها من الولاء لها. وقد سنّ البرلمان الإنجليزي قوانين أشدّ صرامة ضد الكاثوليك تصل إلى حدود الإعدام^(٤). فكان الارتداد إلى الكاثوليكية - حسب قانون البرلمان الإنجليزي الصادر في العام (١٥٨١م/٩٨٩هـ) - خيانة عظمى يعاقب عليها بتهمة الخيانة العظمى. وكان كل من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يُعاقب بدفع عشرين جنيهًا في الشهر^(٥).

أما في أسبانيا - ذات المذهب الكاثوليكي - فكانت محكمة التفتيش تفرض العقوبة القصوى بإحراق صاحب الهرطقة الكبيرة، والتي لا توبة عليها، في المحرقة^(٦). ومن أعمال محكمة التفتيش في أسبانيا سنورد عدداً من الأمثلة:

(١) ديورانت ، ول : قصة الحضارة (٢٣م) : د.ت. د.ط. : ص ٧٨.

(٢) م . ن : ص ٧٩.

(٣) م . ن : ص ص ٨٠ - ٨٢.

(٤) م . ن : (٢٨م) : ١٩٧٥ : د.ط. : ص ٢٧.

(٥) م . ن : ص ٣٠.

(٦) م . ن : (٢٢م) : ص ٨٣.

- حصلت أول محرقة في العام (١٤٨١م/٨٨٦هـ)، وأُحرق فيها مائتان وثمانية وتسعون هرطيقاً، وسُجِن تسعة وسبعون مدى الحياة^(١).

- ومنذ العام (١٤٨٣م/٨٨٨هـ) حتى العام (١٤٨٦م/٨٩١هـ)، أُحرق إثنا وخمسون شخصاً؛ وأُحرقت رفات ألف وستماية وخمسين تائباً، وصُوِّدِرَت أموال حوالي الألف، وعُوقِب مائة وثلاثة وثمانين تائباً^(٢). وبلغ عدد الضحايا بين العامين (١٤٨٠ - ١٥٠٨م/٨٨٥ - ٩١٣هـ): فأُحرق ٣١٩١٢؛ وعُوقِب ٢٩١٤٩٤ شخصاً. ولقد كانت هذه العملية تشكّل ضغطاً عقلياً لا نظير له في التاريخ^(٣).

لقد تعرّضت محكمة التفتيش في بعض مناطق أسبانيا للمقاومة، لكن من دون جدوى^(٤). وتعرّض المفتشون للسخرية، فقد أُطلق عليهم إسم كلاب الله (الصيادين)، وكان بعضهم مرضى ساديين؛ إذ حكم أحدهم في يوم واحد من العام (١٢٣٩م/٦٣٦هـ) على مائة وثمانين شخصاً ليُحرقوا أحياء^(٥).

لقد تضافرت جهود الكنيسة والدولة والطبقات المالكة وعامة الشعب على ملاحقة من يُتهم بالهرطقة للاقتصاص منهم تبعاً لنص الكتاب المقدس الذي يرخص قتل المرتد عن المسيحية. وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة تصرفت الكنيسة في إبادة الهرطقة في القرن (١٣م/٧هـ)، وما بعده. وكانت تلك اللعنة الآلهية بمثابة شهادة معتمدة بما قامت به محاكم التفتيش من إحراق^(٦).

أما مشاركة الدولة في اضطهاد الضالين، فلأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة من جهة، وإلى خوفها من أن يخفي الضلال الديني التطرف السياسي وراءه من جهة أخرى^(٧).

حازت لجان التفتيش على رضا الطبقات المالكة لأنها كانت وسيلة للدفاع ليس ضد الهرطقة فحسب، بل ضد النظريات الاجتماعية الانقلاية أيضاً^(٨).

(١) م. ن. : ص ٨٦.

(٢) م. ن. : ص ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) م. ن. : ص ٩٠.

(٤) م. ن. : ص ٨٧.

(٥) م. ن. : (١٦م) : ص ٩٧.

(٦) م. ن. : (٢٤م) : د. ت. : د. ط. : ص ١٤٤.

(٧) م. ن. : (١٦م) : ص ٩٣.

(٨) حاطوم، نور الدين : م. س. : ص ٢٠٢.

كان العامل الأهم، الذي أسهم في انتشار مبدأ محكمة التفتيش في أسبانيا يسر، هو أن عقولهم كانت أكثر خضوعاً لحكم العادة والخيال. وعلى العموم فقد اعتقد جميع مسيحيي القرون الوسطى، منذ طفولتهم، بأن الكتاب المقدس هو من وحي الله بكل نقطة فيه. وأن الإيمان بغير المسيحية يُعدُّ كبيرة في حق الله، فاعتقلوا أن في إزهاق روح هرطيق إنما يُنقذون الهدى الكامن فيه^(١).

لقد لعبت الغوغاء دوراً في عقاب الضالين قبل أن تشرع الكنيسة في اضطهادهم بزمان طويل، وكان الأهالي، في بعض الأحيان، يحتطفون المنشقين من أيدي القساوسة الذين يحملونهم^(٢).

أما السبب الذي عجل على أن تتخذ الكنيسة قراراتها بملاحقة الهرطقة، فإنه ظهرت - في القرن ١١ و ١٢ م / ٥ و ٦ هـ - شيع من المسيحيين تُنكر كثيراً من المعتقدات المسيحية، فأحرق بعض المنتسبين إليها؛ وأحصي من هذه الشيع مائة وخمسين شيعة في القرن ١٣ م^(٣).

كان يحصل أحياناً بعض الخلاف بين الكنيسة والسلطة حول صلاحيات وأعمال محاكم التفتيش. فقد نظر الباباوات إلى اصطناع هذه المحاكم كأداة من أدوات الدولة؛ وحاولوا أن يوقفوا الإفراط في أعمالها. وكمثال على ذلك: فقد أصدر البابا بكستوس الرابع في العام (١٤٨٢ م / ٨٨٧ هـ) منشوراً بابوياً، شكاً فيه من أن المفتشين يبدون طمعاً في الحصول على الذهب أكثر من الإخلاص للدين.

فصدرت، نتيجة لذلك، فتاوى شرعية من رومة، وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش في أسبانيا، أو حكمها على بعض المنتصرين، فتجاهلتها المحكمة لأنها كانت محمية من الملك؛ ودفع هذا السبب الباباوات كي يهملوا الفتاوى، لأنهم كانوا بحاجة إلى المنحة المالية السنوية من أسبانيا^(٤).

كان الاتهام بالهرطقة/ الردة يطال المسيحيين وحدهم. فالضال - في أعين الحكام الدينيين - كان شراً من المسلم أو اليهودي. فهذان إما أنهما يعيشان في خارج العالم المسيحي، أو يخضعان لقانون صارم؛ أما الضال المسيحي فهو خائن في داخل البلاد^(٥). لذا وجهت محاكم

(١) ديورانت ، ول : (٢٣م) : ص ٧٨.

(٢) م . ن : (١٦م) : ص ٩٣.

(٣) م . ن : ص ٧٦.

(٤) م . ن : (٢٣م) : ص ٨٨ - ٨٩.

(٥) م . ن : ص ٩٢.

التفتيش أهوالها إلى المنتصرين، الذين يُشكُّ أنهم ارتسّوا إلى اليهودية أو الإسلام، وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة^(١).

ذهبت الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية في معاداتها للمسيحيين، الذين يخالفون رجالها في التفكير، أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة.

فعلى الرغم من أن الإمبراطور ثقفور، بعد أن افتتح بلاد الشام في القرن ٤هـ/١٠م، قد وعد الأهالي بحمايتهم من مضايقة الكنيسة، إلا أنه ضايق اليعقوبيين، واضطّرهم إلى الخروج من إنطاكية. ولذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون بطارقة إنطاكية بأنهم أضلُّ من فرعون، وأشدُّ كفرًا من مجنون. ولم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقتهم بعد دخول المذهب الملكاني. وكثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات^(٢). وأخيراً يقول ديورانت: إذا وازنا بين اضطهاد المسيحيين الضالين في أوروبا من العام (١٢٢٧م/ ٦٢٤هـ)، إلى العام (١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ)، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين في القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح، لحكمنا من فورنا بأن هذا أخفُّ وطأة وأكثر رحمة من ذاك". ويتابع ديورانت قائلاً: "ولا بدُّ لنا أن نضع محاكم التحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كلها، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش"^(٣).

(١) م. ن. : (٢٣م) : ص ٧٩.

(٢) ميتز، آدم : (١م) : م. س. : ص ٨٩ - ٩٠.

(٣) ديورانت، ول : (١٦م) : ص ١٠٦.

II - قراءة تاريخية في تطور الكنيسة واللاهوت

جاء في إنجيل متى - الفصل الثالث - ما يلي: [١] في تلك الأيام أقبل يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية. [٢] ويقول توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات. [١١] أنا أعمدكم بالماء للتوبة، وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني، وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه، وهو يعمدكم بالروح القدس والنار.

وجاء في الفصل الرابع ما يلي: [١٧] ومنذ أن ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات.

وجاءت التطويبات في الفصل الخامس: [٣ - ١١] للمساكين - للودعاء - للحزان - للجوع والعطاشى - للرحماء - للأنقياء القلوب - لفاعلي السلام - للمضطهدين. ويتابع قائلاً إنه أتى ليتمم لا ليغير: [١٧] لا تظنوا أنني أتيت لأجّل الناموس والأنبياء، إني لم آت لأجّل لكن لأتمم.

ودعا إلى مقاومة الشر بالتي هي أحسن: [٣٨] قد سمعتم أنه قيل بالعين بالعين، والسن بالسن. [٣٩] أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر. [٤٠] ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فحلّ له رداءك أيضاً.

وأخيراً يخاطب تلاميذه - في الفصل العاشر - ليتموا رسالته؛ ودعا المسيحيين لأتباعهم قائلاً: [٤٠] من قبلكم فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل الذي أرسلني^(١).

ظلّ المسيح زمناً طويلاً لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود^(٢). إلى أن حلت القطيعة بينه وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر. لقد كان أتباعه يعتقدون أنه المنقذ الذي سيرفع

(١) راجع "إنجيل متى" (١ - ٥٦): الكتاب المقدس (العهد الجديد) : م . س .

(٢) ديورانت ، ول : (١١م) : ص ٢٢٩.

نير الرومان عن إسرائيل، ويسيطر حكم الله على الأرض. ولما سُئِلَ عن ذلك كان يرد بإجابات غامضة حول الموعد الذي يُرَدُّ فيه الملك لإسرائيل^(١).

وبعد أن سُجِنَ يوحنا المعمدان، لأسباب ظن الرومان فيها أنه يهدد أمن دولتهم، ولما تابع المسيح دعوته، خاف اليهود أن يؤثر المسيح على عواطف الجماهير فتثور على السلطة الرومانية "ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتي وحرية دينية. ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهالين [أعلى مجلس ديني لليهود] إلى الاجتماع؛ وقال: "إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها". ووافقت أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح^(٢).

لم يشير المسيح بدولة جديدة، بل إنه كان يضع الخطوط الرئيسة لمبادئ أخلاقية مثالية صالحة لاستقبال موعد ملكوت الله، أي أن يتميز الناس بتلك الأخلاق ليكونوا خلائقاً بالدخول في هذا الملكوت. ونجد أنه كان يمجّد الوداعة، والفقر والرقّة والسلام، فهو ينصح بأن يدير الإنسان نفسه الثاني...^(٣).

كان متى من أصحاب المسيح، وكان عاملاً على الخراج من قِبَلِ الرومان، فلم يطعن على الحكومة المدنية، وكان ينصح بالكياسة البعيدة أشدّ البعد عن الثورة السياسية؛ وقد نصح الناس بأن يعطوا "ما لقيصر لقيصر وما لله لله"^(٤).

كان ثمة عقيدة مشتركة وُحِّدَتِ الجماعات المسيحية المنتشرة في أنحاء العالم، وهي: أن المسيح ابن الله، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض، وإن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة. لكن المسيحيين اختلفوا حول موعد عودته^(٥).

إنقسم أتباع المسيح، في القرون الثلاثة الأولى من ظهوره، إلى مائة عقيدة وعقيدة؛ واضطرت الكنيسة إلى أن تصممها واحدة بعد واحدة بالكفر^(٦). وحول هذا الأمر قال أحد

(١) م. ن. : ص ٢٣٢.

(٢) م. ن. : ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) م. ن. : ص ٢٢٨.

(٤) م. ن. : ص ٢٢٧.

(٥) م. ن. : ص ٢٩٠.

(٦) م. ن. : ص ٢٩١.

المسيحيين، في القرن ٢م، إن المسيحيين: "تفرقوا شيعاً كثيرة، حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً"^(١). ومن أهم أسباب الخلاف، ومظاهره، ما يلي:

- قبلت الكنائس الغربية بسفر الرؤيا، ورفضته الكنائس الشرقية.

- قبلت الكنائس الشرقية بالإنجيل كما يقول به العبرانيون، وبرسائل يعقوب؛ أما الكنائس الغربية فقد رفضته^(٢).

- حصل خلاف بين الكنائس الشرقية والغربية حول الاحتفال بعيد القيامة، فلم يلتزم أساقفة آسيا الصغرى بقرار بابا روما في العام (١٩٠م/٤٣٢ ق.هـ). وحصل خلاف بين قساوسة روما أنفسهم فأنشأ عدد منهم كنيسة وبابوية في العام (٢١٨م/٤٠٤ ق.هـ)؛ وزادت الخلافات المذهبية، إلا أن الانشقاق انتهى لصالح بابا روما في العام (٢٥٥م / ٣٨٧ ق.هـ)^(٣).

- إنتشر، قبل القرن ٤م/٢٢٢ ق.هـ، عدد من العقائد الدينية المسيحية، يقول ديورانت عنها: "كل ما في وسعنا أن نفعله هو أن نرثي لهذه السخافات التي امتلأت بها حياة الناس". وكان من أهم هذه الفرق: الفرقة المانيّة **manicheism**، وكانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشیطان، والخير والشر، والضوء والظلام^(٤).

- أحسّت الكنيسة، منذ القرن ٢م، أن عليها أن تحدد مبادئها، وأن تعلن على الناس شروط العضوية فيها، وكان لا بد من خطوات ثلاث: وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس — تحديد العقائد — تنظيم السلطة^(٥).

- تكرر اجتماع المجالس والجامع الكنسية في القرن ٢م، واقتصر في القرن ٣م على الأساقفة؛ واعترف أن هذه المجالس هي الفيصل الأخير، فتغلب الدين القديم على البدع الدينية لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة. وبقيت مشكلة التنظيم تنحصر في تحديد مركز هذا السلطان^(٦).

- إدعت كنيسة روما أن الذي أنشأها هو الرسول بطرس؛ وقد فوضه عيسى المسيح، قائلاً: "فكل ما تربطه على الأرض يبقى مربوطاً في السموات، وكل ما تحلّه على الأرض يكون

(١) م. ن. : ص ٣١٤.

(٢) م. ن. : ص ٣١٥.

(٣) م. ن. : ص ٣١٧.

(٤) م. ن. : (١٢م) : ص ٩٨.

(٥) م. ن. : (١١م) : ص ٣١٤.

(٦) م. ن. : ص ٣١٥.

محلولا في السموات". وقيل إنها عبارة مدسوسة عليه. وعلى الرغم من ذلك، كثيراً ما كان الأساقفة الآخرون يتحدثون أسقف روما في الإشراف على قراراتهم^(١).

وصل الخلاف إلى داخل قساوسة روما أنفسهم، فأنشأ عدد منهم كنيسة وبابوية في العام ٢١٨م/٤٠٤ق.هـ. وزادت الخلافات المذهبية، وانتهى الانشقاق لصالح بابا روما في العام ٢٣٥م/٣٨٧ق.هـ. وثبتت دعائم سلطة كرسي روما الأسقفي على العالم المسيحي بأجمعه؛ وكان الجميع يستشيرونه في كل ما يصادفهم من المشاكل الخطيرة. وأصبح يُقَدِّم - من تلقاء نفسه - على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة^(٢).

ولما تَوَجَّع الصراع بين الكنيسة المسيحية والأباطرة الرومان في العام ٣١١م/٣١١ق.هـ. بالتسامح مع المسيحيين، والاعتراف بالمسيحية ديناً مشروعاً^(٣). ولما صدر "مرسوم ميلان" في العام ٣١٣م/٣٠٩ق.هـ، ليؤكد التسامح الديني، ووسَّع نطاقه ليشمل الأديان كلها^(٤)؛ استطاعت الكنيسة في روما (في حدود القرن ٤م/٢٢٢ق.هـ) أن تصبح أقوى من السلطة الزمنية؛ إذ لم يلبث الأساقفة - لا الحكام الرومان - أن صاروا هم مصدر النظام والقوة والسلطان في مدائن الإمبراطورية. وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم؛ كما أنه قد حل، أيضاً، بجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات^(٥).

أما في روما نفسها فقد حصل تنازع على كرسي البابوية. ومما يُروى أنه في النصف الثاني من القرن ٤م كان الغوغاء يتنازعون أيضاً حول تأييد المتنازعين من الباباوات؛ وقد بلغ النزاع من العنف أنه قُتِلَ في يوم واحد، وفي كنيسة واحدة، ١٣٧ شخصاً^(٦).

لم يكن في وسع بطاركة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بسلطان أسقف روما لسبب واضح هو أنهم كانوا خاضعين، منذ زمن بعيد، لأباطرة الروم. وهؤلاء الأباطرة لم يتنازلوا حتى العام (٨٧١م/٢٥٧هـ) عن دعواهم بأن لهم السيادة على روما ومن فيها من الباباوات^(٧).

(١) م. ن. : ص ٣١٦.

(٢) م. ن. : ص ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) م. ن. : ص ٢٨١.

(٤) م. ن. : ص ٢٨٥.

(٥) م. ن. : ص ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٦) م. ن. : (١٢م) : ص ١٠٤.

(٧) م. ن. : (١٤م) : ص ٣٥٧.

ففي القسطنطينية، لم يبق للوثنية أثر، في خلال القرن ٤م، بيد أن المسيحية تفرقت شيعاً؛ وكانت بدع دينية خارجة عن الدين لا تنقطع عن الظهور، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصة في الدين. وفي ذلك يقول أحد المعاصرين لتلك المرحلة: "هذه المدينة ملاءى بالصُّناع والعبيد، وكلهم من المتفكرين في الدين الذين يعطون الناس في الشوارع والخوانيت"^(١).

بعد أن صبّت تلك التحولات التاريخية في مصلحة الكنيسة المسيحية، بعد القضاء على الوثنية؛ وبعد الاعتراف بالمسيحية من قبل الأباطرة الرومان؛ لم تشكل عاملاً كافياً لمنع الفرق والشيوع المسيحية من الانتشار والتكاثر. ففي خلال القرن ٤م، انتشرت فرقة المارقين الدوناتيين في أفريقيا، وتنتسب إلى أسقف قرطاجة دوناتوس **Donatos** (٣١٥م/٣٠٧هـ)، الذي أنكر ما للعشاء الرباني من أثر في الخطيئة، وعلى الرغم من محاربتها، فقد انتشرت في شمالي أفريقيا، وتحولت إلى ثورة اجتماعية. لقد حاربها الأباطرة والكنيسة بكل ما أوتيتا من قوة؛ وردّاً على ذلك تألفت منها عصابات مسيحية - شيوعية، وسُمّيت باسم الجوّابين **circumcelliones**، وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق، فألغت الديون وحرّرت العبيد، وحاولت أن تُعيد المساواة المزعومة التي كان يتمتع بها الإنسان البدائي؛ فكانوا، مثلاً، إذا رأوا عربة عبيد، أركبوا العبيد في العربة، وأرغموا سيدهم على أن يجرّها خلفه. وقد انغرس في نفوسهم حب الموت لأنه يضمن لهم الجنة، وفعلوا ذلك إلى الحد الذي كانوا معه يعترفون أنهم مارقون، ويطالبون بالاستشهاد، إلى أن وصل بهم الأمر إلى إلقاء أنفسهم بالنار طلباً للموت^(٢).

ومن الخلافات العقائدية، ما حصل لنسطوريوس (ت في العام ٤٥١م/١٧١ق.هـ)، وكان قد بشر بفكرة أن مريم ليست أم الطبيعة الإلهية في المسيح بل أم طبيعته البشرية؛ لذلك خير للمسيحيين أن يقولوا أنها أم المسيح لا أم الله. وقد جاء في قوله ذاك ردّاً على الفكرة المسيحية التي تقول: إذا كان المسيح آلهاً، كانت مريم قد حملت في الله، أي أنها أم الله. ولما طلب من نسطوريوس أن يعود عن آرائه، ولم يفعل، عُزل في العام (٤٣١م/١٥١ق.هـ)، وحُرم من الكنيسة المسيحية. فقامت تظاهرات صاعبة ابتهاجاً بقرار حرمانه. ورُحِّل إلى إنطاكية. وبعد وفاته أشاد أتباعه كنائس في شرقي سوريا؛ وأنشأوا مدرسة الرها، وانكبوا على ترجمة الفلسفة اليونانية. ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى بلاد فارس، وأنشأوا مدرسة نصيبين^(٣).

كانت آخر الشيع المارقة الكبرى، في القرن ٥م. وكان أعظمها أثراً في تاريخ المسيحية هي تلك التي أنشأها أوتيكيوس **eutyches** - رئيس دير قريب من القسطنطينية - الذي كان يقول:

(١) م. ٢. ٥ : (١٢م) : ص ١٢٢.

(٢) م. ٢. ٥ : ص ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) م. ٢. ٥ : ص ص ١٠٠ - ١٠١.

إن المسيح ليست له طبيعتان، بشرية وآلهية، بل إن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الآلهية. أنكر بطريق القسطنطينية هذه البدعة؛ ودعا إلى مجمع محلي مقدس، فحرم أوتيكيوس من المسيحية؛ وأصدر مجلس آخر، في العام (٤٤٩م/١٧٣ق.هـ)، قراراً يلعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح^(١).

وإن كانت الوثنية قد سقطت، فإن عدداً من طقوسها بقي متبّعاً في الكنيسة المسيحية، وهذه بعض الأمثلة:

- حلّت عبادة القديسين محل شعائر الآلهة الوثنية. وحفلات العنصرة محل عيد الزهور - عيد جميع القديسين محل عيد قديم للأموات - وورثت المسيحية، أيضاً، استخدام البخور والأنوار والأزهار والمواكب والملابس والترانيم...

احتجّ أوغسطين، وعارض عبادة القديسين. وارتفعت المعارضة للتماثيل والصور، لكن قوة الشعور العام تغلبت على المعارضة.

عارضت الكنيسة السحر والتنجيم والتنبؤ بالغيب، وما لبث القساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد في طرد الشياطين.

لا يتحمل رجال الدين مسؤولية إفساد الشعب في مثل هذه الأمور، يقول ديورانت: "بل إن الشعب هو الذي أقنع رجال الدين بما يريد. ذلك أن نزوع الرجل الساذج لا يتأثر إلا عن طريق الخواص والخيال"^(٢).

عرفت الكنيسة، منذ القرن ٤م، تنظيمًا تسلسلياً في الرتب الكهنوتية: البطارقة: وكانوا يقيمون في القسطنطينية وإنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية، وروما.

- المطارنة: ويشرفون على الأساقفة في ولاية بأكملها.
- الأساقفة: وهم المسيطرون على الكنائس في القرى والمدن.

أما بالنسبة للمجامع المقدسة، فهي على الشكل التالي: مجمع الولاية - المجمع الكلي أو العام، إذا كان يمثل الشرق والغرب - المجمع الأكبر إذا كانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين. فكانت الوحدة الناشئة من هذا النظام، هي التي أكسبت الكنيسة إسم الكاثوليكية أو العالمية^(٣).

في سبيل رأب الصدع، الذي كان حاصلاً بين الشرق والغرب المسيحيين حول: خضوع للدولة أم موالاتها، أو بين أن يكون للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتين، سعى الإمبراطور

(١) م. ن. : ص ١٠٢.

(٢) م. ن. : ص ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) م. ن. : ص ٩٣.

هرقل، في العام (٦٣٨م/١٧هـ)، أن يوفّق بين الشرق المسيحي ذي المذهب اليعقوبي القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة، وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثرة الأساسية، والقائل بأن للمسيح طبيعتين.

أصدر هرقل منشوره الذي يعرض فيه على أن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة. فقبله المسيحيون الشرقيون، ونذّد به الغربيون. لكن المجمع المسكوني السادس، الذي اجتمع في القسطنطينية في العام (٦٨٠م/٦٠هـ) رفض المذهب الجديد، وحكم على البابا هونوريوس، الذي قبل منشور هرقل، بأنه يحايي الخارجين على الدين. ووافقت الكنيسة الشرقية على هذا الحكم^(١). يبدو أن هذا التوافق انعكس سلاماً دينياً بين الشرق والغرب. لكن هذا لم يدم، لأن إذلال البابوية على أيدي أباطرة الشرق من جهة، والتوسع الإسلامي الذي قوبل بانحسار مسيحي من جهة أخرى، دفع بالبابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية، وأن تتجه نحو الفرنجة. وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسية غاية في الخطورة، وذلك عندما لبّى يمين النداء، ومنح البابوية جميع إيطاليا الوسطى في العام (٧٥٦م/١٣٨هـ)؛ وبفضلها قامت سلطة الباباوات الزمنية، التي شيئاً فشيئاً كانت تُوطّد نفوذها فتزايد سلطانها^(٢).

(١) م. ن. : (١٤م) : ص ٣٥٢.

(٢) م. ن. : ص ٣٥٣.

III _ قراءة تاريخية في علاقة الكنيسة مع الدولة

كانت الكنيسة، في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، ترفض الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة؛ وترى في عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام؛ لذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما يلحقهم من الأذى بسبب هذا الرفض. ولهذا عُدَّت الكنيسة المسيحية أنها تسعى لقلب نظام الحكم.

ففي عهد نيرون، قُتل كل من بطرس وبولس في العام (٦٤م/٥٥٨ق.هـ)، وأُحرق كثيرون من المسيحيين، وتعرضت الكنيسة إلى الكثير من المحن. واشتد النزاع بين الكنيسة والسلطة المدنية التي كانت تُدين بالوثنية. على أن المعارضة المسيحية قد جاءت من قبل الشعب، أكثر مما جاءت من قبل الدولة. إن الشعب أهاب بحكامه أن يعاقبوا أولئك الملحدين - المسيحيين - الذين يهينون الآلهة^(١).

كان الصراع يهدد أحياناً، ويضطرم أحياناً أخرى بين الكنيسة والقيصرية. فكان المسيحيون، مثلاً، في العام (٢٤٩م/٣٧٣هـ)، يمتنعون - بتحريم ديني - عن أداء الخدمة العسكرية، مما دفع الأباطرة الرومان إلى التضييق على المسيحيين واضطهادهم^(٢).

كانت نتائج الصراع أن أصدر الإمبراطور جُلوريوس، في العام (٣١١م/٣١١ق.هـ)، مرسوماً يدعو فيه للتسامح مع المسيحيين، واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعاً^(٣). واستُكمل هذا الإجراء، في العام (٣١٣م/٣٠٩ق.هـ)، بصدور "مرسوم ميلان" الذي أكد على التسامح الديني، إذ وسَّع نطاقه ليشمل الأديان كلها^(٤).

واستطاعت الكنيسة في روما - في حدود القرن ٤م - أن تصبح أقوى من السلطة الزمنية؛ إذ لم يلبث الأساقفة، لا الحكام الرومان، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان

(١) ديورانت، ول: (١١م): ص ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

(٢) م. ن: ص ٣٧٧.

(٣) م. ن: ص ٢٨١.

(٤) م. ن: ص ٢٨٥.

في مدائن الإمبراطورية. وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات، إن لم يكونوا قد حلّوا محلّهم؛ كما حلّ مجمع الأساقفة محلّ جمعيات الولايات^(١).

ففي القرن ٦ و٥ م كانت الكنيسة الكاثوليكية تمثل القوة المعنوية الوحيدة التي ظلّت متماسكة أمام عوامل الاضطراب والفوضى والتخريب، وذلك بعد أن تداعى المجتمع الروماني، فزالت الوطنية الرومانية، وتجمّع الناس حول الكنيسة، فغدّت هي والقومية الرومانية شيئاً واحداً^(٢).

وبعد أن اعتنق كلوفيس (٤٦٦ - ٥١١ م/١٥٦ - ١١١ ق.هـ) الكاثوليكية عمل على التدخل في شؤون الكنيسة، واستطاع أن يتحكّم بشؤونها؛ فنخضعت الأسقفية لسلطة الملك - على الأقل في القرن ٦ م - لكنه، في الواقع، كان يصعب تمييز الكنيسة عن الدولة لأن المجال العائد لكل منهما كان غير محدد بوضوح. وأكثر من ذلك، لم يهتم الطرفان بتحديد نطاقهما، ولم يكن أحد ليستغني عن الآخر. فكان الأسقف يتدخل في كل شيء، ومن العبد تعداد وظائفه. ولم يكن يُشترط بالأسقف أن يتدرّج كهنوياً ليصل إلى موقعه، وإنما كان بعض العلمانيين ينالون هذا الموقع بالرشوة.

لم تحرز الكنيسة في الغرب أي موقع في أمور العقيدة طوال قرنين من الزمن - منذ منتصف القرن ٦ م إلى منتصف القرن ٨ م - وعبثاً حاول الإمبراطور إعادة أسقف روما إلى دور بطريرك القسطنطينية^(٣).

كان المسيحيون، بشكل عام، قبل أن يحتلّ أسقف روما موقعه المتقدم في الكنيسة والسلطة، يؤكّدون أنهم رعايا الإمبراطورية الرومانية، أمناء على عهدها، ويحترمون السلطات القائمة استناداً إلى قول المسيح: "ملكوتي ليس من هذا العالم"؛ وقال: "أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله". وذهب القديس بولس أبعد من ذلك فكان يعلم أنه "لا سلطة إلا من الرب"، وإن من يعارض السلطة يقاوم النظام الذي أقرّه الرب". وعلى الرغم من ذلك فإنهم رفضوا حرق البخور أمام تماثيل الآلهة الرومانية، وتقديم الضحايا على مذابح المعابد، ورفضوا إحلال عبادة الإمبراطور^(٤).

لم يكن في وسع بطاركة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بسلطان أسقف روما، لسبب واضح هو أنهم كانوا خاضعين - منذ زمن بعيد - لأباطرة الروم. ولم ينزل هؤلاء الأباطرة، حتى العام (٨٧١ م/٢٥٧ هـ)، عن دعواهم بأن لهم السيادة على روما ومن فيها من الباباوات.

(١) م. ن. : ص ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا (ج ١): دار الفكر: دمشق: ١٩٨٢: د. ط: ص ١٣١.

(٣) م. ن. : ص ص ١٣٢ - ١٣٥.

(٤) م. ن. : ص ٦٨.

ومع ذلك كان الباباوات، من حين إلى حين، يوجهون النقد إلى الأباطرة، ويعصون أوامرهم بل ويشهرون بهم. لكن الأباطرة هم الذين كانوا يعيّنونهم في مناصبهم، ويُخرجونهم منها، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد، وينظّمون شؤون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين. ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق - في العالم المسيحي الشرقي - إلا سلطان الرهبان، ولسان البطريرك، واليمين التي يقسمها الإمبراطور - حين يُتوجّه البطريرك - بأن لا يتدع بدعة ما في الكنيسة^(١).

توطدت في روما سلطة الباباوات بعد أن وضع البابا نيقولاس الأول (٨٥٨ - ٩٦٧م/٢٤٣ - ٢٥٣هـ) معادلة جاء فيها: إن أين الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها؛ وإن أساقفة روما ورثوا سلطان بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل. لذا فإن البابا، ممثل الله على الأرض، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على المسيحيين - حكاماً كانوا أم محكومين - إي شؤون الدين والأخلاق، إن لم يكن في جميع الشؤون^(٢).

بلغ شأن نيقولاس كبيراً، فكان يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى؛ ولم يجرؤ أحد على معارضته سوى فوتيوس بطريك القسطنطينية^(٣).

كان الصراع، في العصور الوسطى، يدور حول تثبيت سيطرة البابا على الملوك لجمعهم، وتوحيدهم كلهم، تحت رايته^(٤). لكن عهد فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م/٥٩٠ - ٦٤٧هـ) أصبح النقطة التي أخذ منها النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجري مجراه^(٥). إذ كان فريدريك يعمل على بسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها، ثم يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود؛ ولعله كان يتغنى أيضاً أن يجعل روما - كما كانت قبل - عاصمة العالم الغربي السياسية والدينية معاً. فدعا إلى مجمع كريمونا Cremona في العام (١٢٢٦م/٦٢٣هـ) ليحقق هذا الغرض. فاصطدم طلبه مع إرادة البابا جريجوري، الذي ألّب المقاطعات الإيطالية ضد انعقاده، وبهذا لم يجتمع المجمع قط.

وقف البابا جريجوري التاسع ضد أطماع فريدريك، ووقف إلى جانب خصومه - مع انهم من الملحنين - وذلك من أجل الحفاظ على سلطة الباباوات الزمنية من الانهيار. فأصدر

(١) ديورانت، ول : (١٤م) : ص ٣٥٧.

(٢) م. ن : ص ٣٥٥.

(٣) م. ن : ص ٣٥٦.

(٤) م. ن : (٣٠م) : ص ٣٠٤.

(٥) م. ن : (١٥م) : ص ٢٩٢.

منشوراً اتهم فيه فريدريك بالكفر والتجديف، وبالرغبة في القضاء على سلطة الكنيسة، ثم اصدر قراراً بحرمانه في العام (١٢٣٩م - ٦٣٦هـ)، وأعفى رعاياه من عيّن الولاء له؛ فردّ عليه فريدريك، واتّهمه بأنه يريد أن يُخضعَ الملوك لسلطان البابوية.

أظهر ملوك أوروبا عطفهم على فريدريك، وانحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدنها إلى طاعتهم الإقطاعية. أما الطبقتان الوسطى والدنيا فانحازتا إلى جانب البابا^(١).

استمرت الحرب بين فريدريك والبابا أنوسنت الرابع - خليفة البابا جريجوري - في العام (١٢٤١م / ٦٣٨هـ)؛ فأطلق فريدريك العنان لحقده وانتقامه : فصادر ثروات الكنيسة، وقلع عيون خصومه وبتّر أعضائهم ثم قتلهم؛ وكان يقطع أيدي رسل البابا وأرجلهم أينما وجدهم^(٢). ومات فريدريك في العام (١٢٥٠م / ٦٤٧هـ)، ولم يحقق حلمه، لكنه ترك أثراً كبيراً في الأحداث التي أعقبت موته؛ فوصف أنه كان "رجل النهضة" قبل أن يحلّ عهد النهضة بمائة عام^(٣).

استمر الاقتتال في إيطاليا بعد موت فريدريك، فاستعان البابا أربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م / ٦٥٩ - ٦٦٢هـ) بلويس التاسع ملك فرنسا، الذي حسم الوضع، فتحول لصالحه إذ انتقلت زعامة أوروبا إلى فرنسا^(٤).

حتى العام (١٢٩٤م / ٦٩٣هـ) كانت البابوية لا تزال أقوى الحكومات الأوروبية^(٥). وبه ابتدأت علامات الشقاق بين البابا بنيفاس وفيليب، ملك فرنسا، حول مسألة فرض ضرائب على الكنيسة لاستخدامها في قتاله مع ملك بريطانيا. عارض الرهبان إرادة الملك، وبعثوا يستنجدون بالبابا. وعلى الرغم من أن فرنسا كانت من أهم أعمدة البابوية، إلا أن البابا أحسّ أن الأساس الاقتصادي للبابوية لن يلبث وينهار إذا ما انتزع منها إيراداتها؛ فعارض طلب ملك فرنسا، فألح الأخير، فاعترف البابا بحق الملك^(٦). لكن سرعان ما اختصم الإنسان، وكان السبب: أن ملك فرنسا حاكم المثلوب البابوي في فرنسا في العام (١٣٠١م / ٧٠٠هـ). فطلب البابا من الملك أن يُطلق سراح مندوبه، وإلا فالامتناع عن تسليم الإيرادات الكنسية للدولة.

(١) م . ن : ص ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٢) م . ن : ص ٢٩٤.

(٣) م . ن : ص ٢٩٦.

(٤) م . ن : ص ٢٩٨.

(٥) م . ن : (١٦م) : ص ١٦٠.

(٦) م . ن : ص ص ١٦٢ - ١٦٣.

فلم يستجب فيليب، فطلب منه البابا أن يطيعه في كل الشؤون حتى الزمنية منها؛ فردَّ فيليب متهمًا البابا بالحماقة، رافضاً الخضوع له في الشؤون الزمنية^(١).

وفي العام (١٣٠٢م/٧٠١هـ) حرق فيليب مرسوم البابا؛ فدعا هذا إلى مجمع كنسي صدر عنه "أن ليس للمسيح إلا جسد واحد ورأس واحد؛ وإن الرأس هو المسيح، ومثله البابا الروماني. فردَّ عليه فيليب في العام (١٣٠٣م/٧٠٢هـ) بإصدار وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسمياً بأنه ظالم وساحر وكافر^(٢). فكانت نتيجة الصراع في هذه المعركة أن أسقط بنيفاس، وانتصر الملك. فكانت نتائج هذه المعركة انتصاراً للقومية على ما فوق القومية، وللدولة على الكنيسة^(٣).

لم يكن الصراع بين الملوك والباباوات العامل الوحيد الذي قوَّض أركان العقيدة المسيحية، في القرن ١٤م = القرن ٨هـ، وإنما كان للفلسفة دور مهم^(٤).

فهذا ولیم الأوكهامي - الفيلسوف الإسباني - (ت في العام ١٣٤٩م/٧٥٠هـ) لم يُسلم في الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل. فهو قد رأى أن المسيحية في حاجة للعودة من الكنيسة إلى المسيح، ومن الثروة والسلطان إلى البساطة في الحياة؛ وقال بأنه يجب أن لا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم، بل يجب أن تضم المجتمع المسيحي بأسره. وأن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب، فهو وحده الذي يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض^(٥).

ظهر، في النصف الأول من القرن ١٤م/ القرن ٨هـ، عدد من الفلاسفة، الذين أسهموا في التمهيد لمعركة الإصلاح السياسي؛ ومنهم بيير ديبوا، الذي دعا إلى تجريد البابوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزماني، ودعا حكام أوروبا إلى رفض الخضوع لسلطان البابا؛ ودعا إلى أن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون. يقول ديورانت: "ليس من شك أن ديبوا من زمرة المشتغلين بالشرعية، الناهضين الذين كانوا يطمحون إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة. وقد فاز في معركته، ونحن نجني اليوم ثمار انتصاره"^(٦).

وهذا مارسيلوس البادوي يُصير في العام (١٣٢٤م/٧٢٤هـ) أعظم رسالة أثرت على السياسة في العصور الوسطى، وهي "المدافع عن السلام". ومضمون الرسالة أن النزاع الدائم بين

(١) م. ن : ص ١٦٤.

(٢) م. ن : ص ١٦٥.

(٣) م. ن : ص ١٦٩.

(٤) م. ن : (٢٣م) : ص ١٤١.

(٥) م. ن : ص ١٤٦.

(٦) م. ن : ص ١٤٩.

الدولة والكنيسة يقوِّض السلام في أوروبا؛ وإنه يمكن استعادة السلام والمحافظة عليه إذا وُضعت الكنيسة - بكل ممتلكاتها والعاملين فيها - تحت السلطة الإمبراطورية، أو الملكية مثل باقي الجماعات. ومن الخطأ أن تقتني الكنيسة ممتلكات، فليس في الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء. عرّف البادوي الكنيسة - كما فعل أوكهام - بأنها طائفة المسيحيين بأكملها. وكما كان الشعب الروماني، صاحب السيادة الحقيقية في القانون الروماني، وكان هو الذي يفوض الأباطرة والشيوخ والقناصل، فعلى الجماعة المسيحية أن تفوض سلطاتها إلى ممثليها من رجال الأكليروس؛ وعلى هؤلاء أن يكونوا مسؤولين أمام الشعب الذي يمثلونه. وعارض ادّعاء البابا بأنه يستمد سلطته من بطرس، لأن بطرس لم يكن أقوى سلطة من باقي الرسل. فعلى رجال الأكليروس - بمن فيهم البابا - أن يخضعوا للقضاء المدني والقانون في جميع الأمور الدنيوية^(١). إنتهز الحكام الزمانيون فرصة انحطاط سلطة الكنيسة، وعملوا على السيطرة على كل وجوه الحياة في ممالكهم. وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح؛ ويُعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية في العصور الوسطى^(٢).

كان للفكر السياسي، الذي ساد في النصف الأول من القرن ١٤ م/ال٨هـ، في أوروبا، أثر كبير في توجيه السياسة الإنجليزية. فكان رأي البرلمان الإنجليزي - في النصف الثاني من القرن ذاته - والذي كان مناهضاً للكنيسة أشد المناهضة، أن استيلاء الملك على ثروة الكنيسة مجالاً لتقوية الجيش وتوفير مبلغ للملكية^(٣).

ولما كانت فرنسا تستعد لغزو إنجلترا، شكّل حجة أمام الملك والبرلمان لتفيل مآربهم. فافتى ويكليف الإنجليزي (١٣٢٠ - ١٣٨٤ م/٧٢٠ - ٧٨٦هـ) بشرعية امتناع الدولة من وصول أموالها إلى بلاد أجنبية. وأجاب على سؤال للبرلمان بمنشور كان في الواقع دعوة لفصل الكنيسة الإنجليزية عن البابوية. وقد جاء في المنشور: "إن البابا لا يستطيع أن يطلب هذا المال إلا على سبيل الصدقة... ولما كان أهل البلاد أولى من غيرهم بهذه الصدقات، فإن توجيه صدقات الدولة إلى البلاد الخارجية، إذا كانت البلاد نفسها في حاجة إليها، يخرج عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة"^(٤).

سرى الغضب على ويكليف بين رجال الدين، وبحول البابا مجلس الأساقفة في العام (١٣٧٨ م/٧٨٠هـ) لمحاكمته. إعتضت الحكومة، واعترض الشعب الإنجليزي، وأعلنوا أنه لن

(١) م. ن. : ص ١٥١.

(٢) م. ن. : ص ١٥٢.

(٣) م. ن. : (٢٢م) : ص ٦٨.

(٤) م. ن. : ص ٦٩.

يُسَمَح بقيام أية محكمة تفتيش في إنجلترا. فتخلص ويكلييف بذلك؛ وازدادت حملاته على الكنيسة شراسة^(١).

وفي هذا الصدد قال إن مشكلة الكنيسة لا تُحَلُّ إلا بتجريدتها من كل الأملاك والسلطات المادية، وإذا لم تفعل ذلك وجب على الدولة أن تتدخل فتصادر أملاكها، وأن لا تكثر للعنات الكنيسة، فالملوك مسؤولون أمام الله وحده^(٢). ولم ينج ويكلييف من عقاب الكنيسة؛ ومع أنه توفي قبل المثل بين يدي البابا أربان السادس، إلا أن عظامه نُبِشت من قبره في العام (١٤٥٠م/٨٥٤هـ)، وأُلقيت في مجرى ماء قريب من هذا القبر. ودار البحث عن كتاباته، وأُيِّدَ كل ما عُثِرَ عليه^(٣).

استمر الصراع بين الكنيسة والدولة في إنجلترا إلى أن حُسمَ في أواسط القرن ١٦م/ال ١٠هـ، وفي عهد هنري الثامن، الذي في أوج ثمره على الكنيسة، أمر بترجمة كتاب "المدافع عن السلام"، ونشره على نفقة الحكومة. لكنه بدلاً من اقتراح مارسيلْيوس وأوكهام ولوثر باستبدال سلطة الكنيسة بسلطة الشعب، استبدلها بسلطة الحكومة. ودعا إلى الديمقراطية في مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة، فدعا كل طائفة إلى اختيار ممثل لها في مجالس الكنيسة، وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك^(٤).

أما في ألمانيا فكان الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية^(٥). فقد شكّا الإمبراطور ماكسيميليان في العام (١٥٠٠م-٩٠٥هـ) من أن البابا سحب من ألمانيا دخلاً يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجنيه منها^(٦).

(١) م . ن : ص ٧٠.

(٢) م . ن : ص ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) م . ن : ص ٧٦.

(٤) م . ن : (٢٣م) : ص ١٥٢.

(٥) م . ن : ص ٢٨٠.

(٦) م . ن : ص ٢٨٢.

IV - الإصلاح الديني يمهد الطريق أمام الفلسفة

١ - العوامل التي أسست لمرحلة الإصلاح الديني:

ليس في تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ما هو أعظم أثراً في النفس من الدين؛ فإنا نراه في كل مكان، ويكاد يكون أعظم القوى في تلك العصور. كانت حياة الناس في المقابل مليئة بالفوضى والعوز من جهة، وسادت عند المسيحيين واليهود خرافات وأسرار خفية ووثنية، وسلامة وسداحة طوية من جهة أخرى^(١).

كان يحدو الناس أمل بأن يظفر الخير بالشر في العالم كله. وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة الدينية؛ فانتظر الناس هذا اليوم - يقول روجر بيكون Roger Bacon في العام (١٢٧١م / ٦٦٩هـ): "إن العقلاء من الناس يرون أن نهاية العالم قد قرّبت، فكان كل وباء شامل، وكل كارثة مدلهمة، وكل زلزال مُروّع، وكل مذنب يظهر في السماء، وكل حادثة غير عادية، كان كل شيء من هذا القبيل يُعدُّ نذيراً بنهاية العالم"^(٢).

كان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المعزو إلى المسيح: "من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يرى" [مرقس ١٦ : ١٦] . ووصل الأمر بالقديس أوغسطين إلى أن يقول إن من مات من الأطفال قبل التعميد ماله النار^(٣). وكانت كل دولة أوروبية تأخذ بالمسيحية تُرغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة^(٤).

وترجع قوة الدين المسيحي إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة، والفن لا العلم، والجمال لا الحقيقة؛ ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التي ينطق بها

(١) م. ن. : (١٦م) : ص ١.

(٢) م. ن. : ص ٢ - ٣.

(٣) م. ن. : ص ٥.

(٤) م. ن. : ص ١٠.

رجال الدين. ولو اعترفت الكنيسة بأنها تخطيء تارة، وتصيب تارة أخرى، لفقدوا ثقتهم فيها^(١).

كان أكبر فضل للكنيسة في العصور الوسطى - من الناحية الأخلاقية - هو ما وضعته للصدقات من نظام واسع النطاق. وعلى الرغم من أن الوثنيين قد قرروا إعانات من أموال الدولة للأسر الفقيرة، وكان أعيانهم يساعدون مواليتهم وفقراءهم، لكن العالم لم يشهد نظاماً لتوزيع الصدقات كالنظام الذي أقامته الكنيسة؛ فقد كانت تساعد الأرملة واليتامى والمرضى والعجزة والمسجونين وضحايا الكوارث الطبيعية؛ وعرفت العصور الوسطى مبادرات فردية واسعة في هذا الإطار^(٢).

وإن رضيت الكنيسة، من جانب آخر، بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب، لكنها عملت على التخفيف من شرور الرق، فكانت تشجع على عتق العبد؛ فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب، وعلى الرغم من ذلك بقي الاسترقاق قائماً طوال العصور الوسطى؛ ولما مات لم يكن لرجال الدين فضل في موته^(٣).

وفي العصور الوسطى، أيضاً، كان يخالج الكنيسة شك في أن بقاءها يتطلب تنظيمها؛ وهذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية؛ وإن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررّة ثابتة؛ فحدّدت من أجل ذلك عقيدتها في قواعد مقررّة لا تبديل فيها. وجعلت الشك في هذه القواعد ذنباً، وتورّطت في نزاع لانهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة^(٤).

ففي القرن ١٢ م/٦هـ، حدّدت الكنيسة الأسرار المقدسة بسبعة: التعميد - تثبيت العماد - الكفارة - القربان المقدّس - الزواج - رتبة الكهنوت - المسح بالزيت قبل الوفاة^(٥). إلا أنه يجب عدم المغالاة في الاعتقاد بتقوى الناس في تلك العصور، إذ كان هناك كثير من المشكّكين والمتسائلين^(٦). لكن الكثرة الغالبة منهم كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية^(٧).

(١) م. ن. : ص ١٢ - ١٣.

(٢) م. ن. : (١٢م) : ص ١٥٧.

(٣) م. ن. : ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٤) م. ن. : ص ١٥٨.

(٥) م. ن. : (١٦م) : ص ١٤.

(٦) م. ن. : ص ١٠.

(٧) م. ن. : ص ٨.

كانت الكنيسة قوية، وفي الوقت ذاته، وبأخطاء ارتكبتها، وبظروف ومتغيرات كانت تحصل في أوروبا، أخذت تتجه نحو الضعف. فمن عوامل الصراع مع السلطة السياسية، إلى عامل الصراع مع العقل والفلسفة، إلى الأخطاء التي كانت ترتكبها، أخذت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تنحدر باتجاه فقدان مواقعها واحداً تلو الآخر. لذا استمرت قوية من العام (٨١٤م / ١٩٨هـ) إلى العام (١٣٠٣م / ٧٠٢هـ)، أي ما يقرب من الخمسة قرون من الزمن. تكاثرت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية؛ وأخذت تتجمع بعد قرون من التعويق والاضطهاد في دوامة تقذف بأوروبا في أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما. ومن هذه العوامل:

- إضعاف البابوية والانقسام في صفوفها، والترف الذي يرفل فيه البطارقة، وبيع صكوك الغفران...

- إنتصار الإسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية.
- تدفق العلم العربي والفلسفة العربية - الإسلامية.
- الشك الذي مارسه عدد من الفلاسفة وعلى رأسهم أوكهام.
- اختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة.
- إدراك التناقض بين فقراء الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش.
- ثراء ألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادي، ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين.

- تدفق الأموال إلى روما من جبايات الدول التابعة للكنيسة.
- التأثير القومي للغات، والآداب، والآداب الشعبية، وبروز المسألة القومية.
- المطالبة الصوفية بالتخفف من الطقوسية في العبادات...^(١).

كانت الكنيسة في القرن ١٤م = ٨هـ تعاني من الذل السياسي والانحيار الخلقي - بعد أن لعبت دوراً إيجابياً - فأخذت تنجسط حتى لم يعد لها إلا المحافظة على مصالحها الكنسية، والمحافظة على بقائها وأموالها^(٢).

كان الباباوات قد تفتنوا في وسائل الحصول على الأموال، ومن الأقوال التي جاءت حول ذلك:

(١) م. ن. : (٢٣م) : ص ٢٨٤.

(٢) م. ن. : (٢٢م) : ص ١٨.

﴿ إن كنيسة روما قد ساءت سمعتها في جميع الأقطار حتى أصبح الناس يعلنون في خارجها أن جميع من تضمهم من الرجال: من أكبرهم مقاماً إلى أصغرهم شأنًا قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع... ﴾

﴿ إن الذئاب تسيطر على الكنيسة، وتمتص دماء الشعب المسيحي.

﴿ إن خليفة الحواريين قد وُكِّلَ بأن يقود غنم الرب إلى المراعي، لا أن يجرَّ صوفها^(١).

إضافة إلى ذلك فقد حصلت خلافات بين الباباوات أنفسهم؛ فلما كانت روما مركزاً للبابوية، تسلسل الخلاف إلى الجمع البابوي في العام (١٣٧٨م = ٧٨٠هـ) حول اختيار البابا، إذ حصل ضغط رسمي وشعبي في سبيل انتخاب بابا من روما، وأقله أن يكون إيطالياً؛ فارتاع الجمع وانتخب إريان السادس، فكان في أثناء ولايته مستبدًا ومتفردًا^(٢). وعلى إثر ذلك اجتمع الكرادلة الفرنسيون في العام (١٣٧٩م/٧٨١هـ) وأعلنوا أن انتخاب إريان باطل لأنه تم تحت ضغط غوغاء روما، وانضم إليهم الكرادلة الطليان. فانتخب كليمنت السابع، واتخذ له مقاماً في مدينة أفينيون الفرنسية. كان هذا الانقسام، على صورة النتائج التي أسفر عنها قيام الدولة القومية؛ وكان لفرنسا مأرب سياسي في الاحتفاظ بعون البابوية^(٣).

وفي محاولة إعادة الوحدة للبابوية، استمرت تسعاً وثلاثين سنة، إنتخب على أثرها مارتن الخامس، فتحققت وحدة الكنيسة؛ لكن هدف إصلاحها لم يحصل لأن مارتن الخامس استمسك بكل ما لها من سلطات وامتيازات^(٤).

كثرت المشاحنات بين الكرادلة والبابا، الذي خلف مارتن الخامس، ويدعى يوجينوس الرابع. فعقد في مدينة بازل في سويسرا مؤتمر في العام (١٤٣١م/٨٣٤هـ). فكانت الكثرة الغالبة من المندوبين الذين حضروا المجلس من الفرنسيين، وكان همهم إما أن ينتزعوا الكرسي الرسولي من الإيطاليين، وإما أن يجردوا البابا من سلطاته بحيث لا يهمهم أين يكون مقره. فلم يُدعن البابا وإنما حلَّ المجلس؛ أما المجلس فردَّ عليه بخلع في العام (١٤٣٩م/٨٤٢هـ). وقد لعب شارل السابع - ملك فرنسا - دوراً في ذلك، وقد عقد جمعية من رجال الدين والأمراء ورجال القانون من الفرنسيين في العام (١٤٣٨م/٨٤١هـ)، التي أقرت مبدأ سيادة المجالس على الباباوات بأن تملأ المناصب الكهنوتية بالانتخاب. وبذلك أوجد هذا التنظيم، في واقع الأمر،

(١) م. ن. : ص ١٩.

(٢) م. ن. : (٢٠م) : ص ٣.

(٣) م. ن. : ص ٤.

(٤) م. ن. : ص ١٣.

كنيسة فرنسية مستقلة رئيسها ملك فرنسا نفسه. وتبع ذلك كنيسة مستقلة في ألمانيا، ثم كنيسة في بوهيميا. فلاح ساعته أن صرح الكنيسة كله قد تحطم^(١).

ومع اقتراب الأتراك إلى القسطنطينية، اندفع البيزنطيون إلى محاولة توحيد الكنيستين: اليونانية والرومانية، لحماية القسطنطينية؛ فحصلت مساومات قادها أنصار الذين يقولون أن المجلس الكنسي أعلى سلطة من البابا. فقبل البابا البيزنطي يوجينوس بالعرض، فعقد في مدينة البندقية في إيطاليا في العام (١٤٣٨م / ٨٤١هـ) لأول مرة منذ انقسام الكنيستين في العام (١٠٥٤م / ٤٤٥هـ). وتم في المؤتمر الاتفاق على عدد من القضايا، وأعلن المرسوم الذي وحد الكنيستين في العام (١٤٣٩م / ٨٤٢هـ)، مُعترفًا بسلطة روما على جميع العالم المسيحي.

إلا أنه بعد عودة الإمبراطور اليوناني وحاشيته قُوبِلوا بالإهانات والشتائم؛ فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع إلى روما^(٢). وعلى الرغم من تأخر إعلان مرسوم الاتحاد حتى العام (١٤٥٢م / ٨٥٦هـ) ظلّ الشعب يتجنب الاتصال بالكنيسة الكبرى. ولعن معارضو الاتحاد من رجال الدين كل من يؤيدونه، وكل من حضروا قراءة المرسوم. وأعلن بطاركة الإسكندرية وبيت المقدس وإنطاكية رفضهم له^(٣).

أخذت ردائل البلاط البابوي تزداد كلما اقترب القرن ١٥م - ٩هـ من نهايته، وذلك على الرغم من الجهود التي بذلها عدد من الباباوات^(٤). وما إن أطلّ القرن ١٥م حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم الربا، بعد أن حصلت الثورة الاقتصادية في أوروبا. وحلّ المحامون ورجال الأعمال - شيئاً فشيئاً - محل رجال الدين، وزادت سلطة المحاكم الزمنية على حساب سلطة محاكم الأبرشيات^(٥).

أما الشكوى التي أشعلت نار الإصلاح الديني في آخر الأمر فقد كانت بيع صكوك الغفران؛ ومفادها ادعاء رجال الدين أن من حقهم أن يغفروا للتائب المعترف بذنوب خطاياهم، وما يترتب عليها من عقاب في نار جهنم^(٦). فكيف؟

(١) م. ن. : ص ص ١٧ - ١٩.

(٢) م. ن. : ص ص ٢٠ - ٢١.

(٣) م. ن. : ص ٢٢.

(٤) م. ن. : (٢٢م) : ص ٣٠.

(٥) م. ن. : ص ٣٥.

(٦) م. ن. : ص ٤٨.

خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يُحصى من الفضائل؛ وهذه الفضائل - كما تقول الكنيسة - يمكن أن تُعدَّ بمثابة كنز يستمدُّ منه البابا ما يشاء ليمحو جزءاً من الآثام التي ارتكبتها الناس في الدنيا.

كانت الكفارة التي تضعها الكنيسة عادة تكرر بعض الأدعية أو إخراج الصدقات، أو التبرع بالمال، أو العمل ببعض المشروعات الاجتماعية... وكان التائب المعترف، إذا أدى بعض المال لنفقات الكنيسة، يتسلم صك غفران جزئي أو كلي؛ والحالة هذه تعني أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية (أي غير الأبدية) التي يتعرض لها صاحب الخطايا التي غُفِرَ إثمها في أثناء عملية الكفارة.

لكنه سرعان ما تبدّل شأن هذه النظرية بفضل سذاجة الناس أو شراهة الغافرين، الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران، وذلك لأنه كان يُسمح للموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تُدره من المال. وكان يُطلب من المؤمنين، بعد أن يشهدوا مراسم التكفير، أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم. وأصبح المال، في بعض الحالات، الشرط الأساسي لغفران الذنوب^(١).

اتخذت صكوك الغفران، شيئاً فشيئاً، صورة الصفقات المالية؛ وأدى هذا إلى كثير من النزاع مع السلطات الزمنية، التي كانت تطلب على الدوام حظها من هذه الموارد. وكان الفقراء يعجزون عن شراء صكوك الغفران، مما جعل الأغنياء وحدهم يرثون ملكوت السموات^(٢).

لم تكن حال الكنيسة في ألمانيا أقل سوءاً من حال الكنيسة بشكل عام؛ فكانت صورتها، في خلال القرن ١٥م، على الشكل التالي:

- أصبح كبار رجال الدين على استعداد لأن يتقبلوا النقد الموجه إلى الكنيسة.
- وُجد متصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان.
- أكدوا على أهمية التجربة الدينية الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس.
- كان هناك جيوب صغيرة تُنكر التفرقة بين القسس والعامّة.
- كان هناك بعض من يصف البابا بأنه خصم للمسيحية.
- أستنكر البعض صكوك الغفران، ووصفها بأنها أمر يدعو إلى السخرية.
- أعلن جوهان فون فيسل أن الجبر والاختيار بفضل الله؛ ورفض الاعتراف بصكوك الغفران والقربان المقدس والصلوات للقديسين؛ واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على

(١) م. ٢٠: ص ص ٤٩ - ٥١.

(٢) م. ٢٠: ص ٥٢.

العقيدة. وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص. فأدانت محكمة التفتيش ومات في السجن في العام (١٤٨١ م / ٨٦ هـ) ^(١).

- كانت الأسرة في ألمانيا، بشكل عام، متدينة؛ وكان بعض رجال الدين متدينين مخلصين للعقيدة؛ وكان منهم الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة للإصلاح الديني، وهم الطائفة التي اختار مارتن لوثر أن ينتمي إليها عندما قرّر أن يصبح راهباً ^(٢).
- كانت الشكاوى ضد رجال الدين موجهة إلى الأثرياء من البطارقة المنغمسين في النعيم الدنيوي.

- وكان الاتهام الموجه إلى الإيطاليين أنهم يستزفون دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات ^(٣).
- إنضمّ بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ضد الترف الذي يعيش فيه كبار رجال الدين ^(٤).

٢ - الإصلاح الديني خطوة على طريق إنهاء دور الكنيسة السياسي:

كمثل ما أدى تراكم الأسباب والعوامل - على مدى زمني طويل - إلى انحطاط الكنيسة؛ كان الوصول إلى مرحلة الإصلاح الديني قد تراكم عبر مسافات زمنية طويلة.
كنا في الفقرات السابقة قد وجّهنا ضوءاً - نحسب أنه كافٍ - على دوافع الإصلاح الرئيسة؛ أما العوامل التي ساعدت على إنجاح خطوات تلك المرحلة فهي التالية:
- إبتعاد الناس عن الكنيسة: ففي القرن ١٦ م / ١٠ هـ، أصبح - مثلاً - في مدينة فيينا منصبّ القس في العشرين سنة السابقة على بداية حركة الإصلاح لا يجد من يشغله؛ وأصبح لقب قس أو كاهن أو راهب من أشد الإهانات ^(٥).

فبسبب الفساد الذي انتشر في الكنيسة ارتفعت الأصوات مطالبة بالإصلاح. ولطالما حاولت الأديرة والمجالس - استجابة لصرخة الناس - أن تُصلح الكنيسة فكان الباباوات يعارضون. وإذا حاول بعض الباباوات أن يقوموا بذلك الإصلاح، كان الكرادلة ورجال الإدارة البابوية يمنعون ذلك، إلى درجة أن البابا ليو العاشر قد شكّا في العام (١٥١٦ م /

(١) م. ن. : (٢٣م) : ص ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) م. ن. : ص ٢٧٨.

(٣) م. ن. : ص ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٤) م. ن. : ص ٢٨٣.

(٥) م. ن. : (٢٢م) : ص ٥٣.

٩٢٢هـ) من إخفاق هذه المحاولات. فكثُر التنديد بمعايب الكنيسة، وازداد يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، حتى قُضيَ على ما كان للكنيسة من احترام. واكتسحت أوروبا ثورة دينية عارمة كانت أوسع مدى وأعمق أثراً من جميع الانقلابات السياسية^(١).

- وسائل التفسير الحديثة: ظهرت نزعة الإصلاح في إيطاليا - منذ منتصف القرن ١٤م - وقد عمل الدعاة الأوائل على تطبيق الأصول الحديثة في التفسير التي تعتمد على الفلسفة والتاريخ والنصوص القديمة. وامتدَّت هذه الحركة إلى هولندا على يد أوزاموس الذي دعا في كتابه "كتاب الفارس المسيحي"، الذي نشره في العام (١٥٠٤م/٩٠٩هـ)، وأعلن فيه فكرته القائلة بأن اللاهوت الحديث يجب أن يعتمد على دراسة الكتاب المقدس وحده؛ ويجب أن يكون دارس الكتاب المقدس فقيهاً في اللغة ومؤرخاً^(٢).

- نشر الإنجيل باللغات القومية: كان الحادث الأهم في عصر النهضة هو نشر الإنجيل باللغة القومية، مما أدى إلى وضعه تحت تصرف من يقرأ أو من يسمع. وكان السبَّاق إلى مثل هذا العمل هو مارتن لوتر، الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية؛ فجعل بترجمته هذه لغة مشتركة للشعب الألماني. وكذلك تمَّ نشره باللغة المحلية في إنجلترا^(٣).

- انتشار التفكير الفلسفي والسياسي: لقد كان من المحتم أن تُثير نهضة الفلسفة في القرن ١١م/٥٥هـ معارضة النُسَّاك الذين يرون أن الحياة المسيحية المؤسسة على الإيمان تقتضي جهداً مستمراً نحو الكمال. وإن تبرير العقيدة بحجج العقل إنما هو إسراف غير مفيد لوقت ثمين؛ ولذا فمن الأفضل أن يُبحث، عند تأمل الكتاب المقدس، عن غذاء أخلاقي معنوي يغذي الروح^(٤).

فعندما بدأت المعرفة تنتشر في الحقول العلمية لم تعد القضية - في القرن ١٦م/١٠هـ في نظر الفلاسفة الأوروبيين قضية كثرلكة ضد بروتستانتية، بل قضية المسيحية نفسها^(٥).

بداية كانت مرحلة الشك قد ابتدأت مع نفر قليل من الربوبيين (الإيمان بالله بغير الاعتقاد بديانات مُنزَّلة)، الذين أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. والأيقوريين في ألمانيا الذين سخروا من يوم الحساب^(٦).

(١) م. ن. : ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) حاطوم، نور الدين: تاريخ عصر النهضة الأوروبية: م. ن. : ص ١٦١.

(٣) م. ن. : ص ٩.

(٤) حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا: م. ن. : ص ٩٠٧.

(٥) ديورانت، ول: (٣٠م) : م. ن. : ص ٢٨٣.

(٦) م. ن. : ص ٢٨٥.

إبتدأت الفلسفة بأنسلم وأبلار (١٠٧٩ - ١١٤٢م/٤٧١ - ٥٣٦هـ)، وبلغت ذروتها مع القديس توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م/٦٢٢ - ٦٧٢هـ). وكانت قد جاءت الكتب المتتابعة - العربية واليونانية - في القرنين ١٢ و١٣م/٧ و٦هـ، بما تحتويه من فلسفة تحمل أفكاراً جديدة، لتُشكّل تحدياً للأفكار المسيحية، وهي تختلف عنها؛ فأصبح اللاهوت المسيحي مهدداً إذا لم تُنشأ المسيحية فلسفة مناهضة لها. وكانت عوامل نمو الثروة، وتحرر المدن ذات الحكم الذاتي، وقيام الجامعات، تُشكّل مناخاً مناسباً لانتشار الفلسفة^(١).

٣ - أعلام الإصلاح الديني في أوروبا، وانقسام الكنيسة :

→ كان أبلار (١٠٧٩ - ١١٤٢م/٤٧١ - ٥٣٦هـ) من أهم أعمدة الفلسفة في عصر الإيمان. تأثر بأنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩م/٤٧١ - ٥٠٢هـ)، الذي دافع دفاعاً جيداً عن الكنيسة. وكان لا يرغب في شيء سوى التفكير والصلاة؛ وكان الشك أبعد الأشياء عنه، بل كان الإيمان عنده هو الحياة. ولهذا كان يتساءل: "كيف يستطيع عقل محدود أن يأتي عليه يوم يفهم فيه الله؟". وفي هذا يقول، كما قال أوغسطين: "لست أسعى للفهم لكي أعتقد، بل إنني أعتقد لكي أفهم"^(٢).

عشق أبلار الفلسفة، وعمل على التوفيق بين نصوص آباء الكنيسة ونصوص الكتاب المقدس بالاعتماد على العقل^(٣). ولهذا فقد أثنى على المفكرين الوثنيين - مثل أفلاطون - فهو لم يكن بوسعهم أن يعتقد أن جميع العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة؛ وأصرّ على أن الله يفيض حبه على جميع الناس، ومنهم اليهود والكفار. واستمرّ يدافع عن تحكيم العقل في أمور الدين، ودعا إلى ردّ الملحدين عن إلحادهم بالعقل والمنطق، وليس بالعنف^(٤).

وكان الذي أزعج الكنيسة من أبلار هو افتراضه أن لا أسرار في الدين؛ وإن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل^(٥). فأتهم بالإلحاد^(٦). وثار عليه الجماهير^(٧). وحُكِمَ عليه بالحجز في أحد الأديرة^(٨).

(١) م . ن : (١٧م) : ص ٩٣.

(٢) م . ن : ص ٦١.

(٣) م . ن : ص ٧٥.

(٤) م . ن : ص ٧٨.

(٥) م . ن : ص ٨٦.

(٦) م . ن : ص ٨٧.

(٧) م . ن : ص ٨٨.

→ وليم الكوشي: (١٠٨٠ - ١١٥٤م/٤٧٢ - ٥٤٨هـ). هاجم الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن في الإيمان الساذج ما يكفيهم؛ فهو يقول عن هؤلاء: "هم لا يطيقون أن يبحث غيرهم عن شيء ما، ويريدون منا أن نؤمن كما يؤمن السذج والهمج من غير أن يسأل عن السبب، لكي يكون لهم رفاق في الجهالة" (١).

يقول الكوشي: "إن من واجبنا أن نبحث لكل شيء عن علة، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة وكُنَّا الأمر إلى... الروح القُلس وإلى الإيمان". لكن أولئك السذج يقولون: "لسنا نعرف كيف يكون هذا، ولكننا نعرف أن في قدرة الله أن يفعل" (٢).

→ بوليكراتس polycraticus ، وقد وضع في العام (١١٥٩م/٥٥٤هـ) كتاباً يُعدُّ الأول في العالم المسيحي عن الفلسفة السياسية؛ وانتقد فيه أخطاء الكنيسة وأخطاء الحكومات (٣).

→ توماس الأكوييني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م/٦٢٢ - ٦٧٢هـ) وقد بدأ دراسته الجامعية في العام (١٢٣٩م/٦٣٦هـ) في جامعة نابولي، في الوقت الذي كان فيه أساتذتها ينكبُّون على ترجمة ابن رشد وأرسطو. وكانت الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية والعربية والعبرية، والتي كانت تصبِّد بالآفكار المسيحية.

نال درجة بكالوريوس في علوم الدين من جامعة نابولي في إيطاليا؛ وأخذ يعرض فلسفة أرسطو في ثياب مسيحية. ولما كانت فلسفة ابن رشد تلعب دوراً مؤثراً في جامعة باريس في فرنسا، كان توماس من الذين كُلفوا في العام (١٢٥٩م/٦٥٧هـ) بمقاومة هذه الدعوة. وكأنه كان يقلد طريقة الأشعري والغزالي في الرد على الفلسفة تحت شعار الرد على الفلاسفة بسلاحهم ذاته (٤).

يعتقد الأكوييني بأن المعرفة نتاج طبيعي يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات؛ وهي معرفة محدودة. فليس، إذاً، في مقدور العقل أن يعرف من طريق مباشر العالم فوق المحسوس. أما عالم ما فوق الطبيعة - حيث يوجد الله - فليس في مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئاً إلا من طريق الوحي الإلهي؛ ويكشف

(٨) م. ن : ص ٨٩.

(١) م. ن : ص ٩٤.

(٢) م. ن : ص ٩٥.

(٣) م. ن : ص ٩٧.

(٤) م. ن : ص ١١٧.

الله لنا عن هذا العالم في كتبه المقدسة. وكما أنه من الحق أن يقول الفلاح أن نظرية الفلسفة كاذبة لأنه يعجز عن فهمها، كذلك يكون من الحق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحي الإلهي بحجة أنه يبدو له في بعض النقاط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية. ومن الخطأ أن نقول أن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة في الفلسفة وصحيحة في الدين، وذلك لأن الحقائق كلها تأتي من عند الله وهي واحدة. لذا يجب على الفلاسفة والعلماء، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة لأنها هي المكان الذي أودع فيه الله الحكمة الإلهية. وقد أعطى الأكويني البابا الحق في أن يُصدر أحكاماً نهائية في شؤون الدين حتى يأخذها الناس جميعاً بإيمان لا يتزعزع^(١).

وهكذا يكون التفكير الحديث قد بدأ بتزعة أبلار العقلية، وسما إلى ذروته الأولى في وضوح توما الأكويني ومغامرته^(٢). فتعرض الأكويني للفلسفة عن طريق البرهان الفلسفي، لكنه تعرض بدوره إلى هجمات زملائه الرهبان، الذين لم يكونوا يثقوا بالعقل، وقد رفضوا قوله أنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية^(٣).

لقد صدمت فلسفة الأكويني مشاعر الكثيرة الغالبة من الرهبان الذين كانوا يسلكون طريق الحب الصوفي لمعرفة الله؛ أما هو فقد رفع العقل فوق الإرادة، والفهم فوق الحب^(٤).

ففي العام (١٢٧٧م/٦٥٧هـ) أصدر أسقف باريس، بإيعاز من البابا يوحنا الحادي والعشرين، مرسوماً تُعدُّ فيه ٢١٩ قضية من قضايا الأكويني خروجاً عن الدين^(٥). وقد أنهكته السجلات بينه وبين زملائه، فامتنع عن الكتابة في سنيه الأخيرة^(٦). ولم يفلح في التوفيق بين أرسطو والمسيحية؛ وعلى الرغم من ذلك، يقول ديورانت أن الأكويني "وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام، فقد قاد العقل أسيراً إلى قلعة الدين، ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان"^(٧).

فمنذ القرن ١٣م/٧هـ كانت الكنيسة ومحكمة التفتيش، التي تأسست منذ العام (١١٨٩م/٥٨٥هـ)، جزءاً من البيئة المحيطة بالعلوم الأوروبية. وكانت الجامعات في الأغلب الأعم تحت

(١) م. ن : ص ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) م. ن : ص ١٥٧.

(٣) م. ن : ص ١١٧.

(٤) م. ن : ص ١٤٥.

(٥) م. ن : ص ١٤٦.

(٦) م. ن : ص ١١٨.

(٧) م. ن : ص ١٤٩.

سلطان الكنيسة ورقابتها^(١). كما وعُدَّت أوائل القرن ١٤م / ٨هـ نهايةً لعصر الإيمان الذي خلَّف آثاراً سلبية وأخرى إيجابية. فأما من الآثار السلبية فكانت العقائد التحكُّمية القائمة على غير أساس من العقل، والتي أدَّت إلى التعصُّب وإلى محاكم التفتيش؛ وهي التي تركت آثارها السيئة في المجتمع الأوروبي، لأنها جعلت من التعذيب جزءاً مُقرَّراً مُعترفًا به في الإجراءات القضائية، وردَّت الناس من مغامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبعث من الخوف^(٢).

وعلى الرغم من هذا الجو المظلم، الذي ساد فيه أسلوب القهر على كل ما يمتُّ بصلَة إلى العقل، كانت الكنيسة تأكل فيها حتى أبناءها المدافعين عنها، كمثُل ما حصل مع الأكوييني، وكما سوف يحصل مع غيره، استمرت مسيرة العقل الذي كان يشقُّ طريقه أحياناً بشكل مستقلٍّ عن اللاهوت، إذ قام بعض الفلاسفة الأوروبيين، مثل مارسيلْيوس البادوي وبيير ديبوا وويليم الأوكهامي، وقد عاشوا جميعهم في النصف الأول من القرن ١٤م / ٨هـ، بقفزة جديدة على طريق تمييز السلطة الزمنية عن السلطة الدينية، وإخضاع هذه لتلك.

→ مارسيلْيوس البادوي: أُلْفَ في العام (١٣٢٤م / ٧٢٤هـ) أعظم رسالة أثرت على السياسة في العصور الوسطى، وهي رسالة "المدافع عن السلام". وأنكر فيها على الكنيسة أن تقتني ممتلكات؛ ودعا إلى إخضاعها للسلطة الزمنية. كما إنه دعا إلى سلطة الشعب، وحقه في محاسبة الأكليروس^(٣).

→ بيير ديبوا: دعا إلى تجريد الكنيسة من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمني. ودعا حكام أوروبا إلى رفض الخضوع للبابا، وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما، وتخضع للسلطة الزمنية والقانون^(٤).

→ ويليام الأوكهامي: (ت في العام ١٣٤٩م / ٧٥٠هـ). كان لا يُسلِّم في الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل. وقال بأن العقائد الأساسية للدين المسيحي لا يمكن إثباتها إلا به؛ لذا فقد تراجع أمام هدم العقل لللاهوت، فرأى التضحية بالعقل على مذهب الإيمان. أما في الجانب السياسي فقد دعا إلى سلطة الشعب، وإرادته هي فوق سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة^(٥).

(١) م. ن. : ص ١٦٦.

(٢) م. ن. : ص ٣٨٤.

(٣) م. ن. : (٢٣م) : ص ١٥١.

(٤) م. ن. : ص ١٤٩.

(٥) م. ن. : ص ص ١٤١ - ١٤٧.

استمرّ الصراع مع الكنيسة - من داخلها وخارجها - في إنجلترا وألمانيا وفرنسا؛ وكان كل داعية للإصلاح يُسلم ما ترك إلى غيره. ومن أهم الذين عملوا في سبيل ذلك سنختر منهم ثلاثة نماذج:

→ جون ويكلييف (الإنجليزي) (١٣٢٠ - ١٣٨٤م/٧٢٠ - ٧٨٦هـ). لقد كانت إنجلترا تعمل في سبيل الانفصال عن البابوية في فرنسا؛ وظهر ذلك عندما أبقى إدوارد الثالث في العام (١٣٣٣م/٧٣٣هـ) أن يستمرّ في أداء الجزية التي تعهّد بها جون - ملك إنجلترا في العام (٢١٣م/٤٠٩ق.هـ) - بأدائها للباباوات. ولهذا حاول البرلمان الإنجليزي أن يضع حداً - في العام (١٣٥١م/٧٥٢هـ) - لسلطان الباباوات على موظفي الكنيسة الإنجليزية، وإيرادات ممتلكاتها^(١). فاستخدم البرلمان تنديد ويكلييف بثروة الكنيسة في سبيل العمل للامتناع عن دفع الجزية إلى البابا^(٢).

بنى ويكلييف عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير، الذي قال به أوغسطين؛ وحول ذلك يقول: إن الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء؛ وقد كتب على كل إنسان مصيره المحتوم منذ الأزل قبل مولده. وكتب عليه الخسران أو النجاة إلى الأبد. أما عن العلاقة القائمة بين الله والإنسان فهي علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط؛ فهو يرفض كل ما تدّعيه الكنيسة أو أي قس، من أن تكون هي أو هو واسطة لا بدّ منها.

يتابع ويكلييف أنه واضح مما جاء في الكتاب المقدس أن المسيح قصد أن لا يكون للحواريين ولمن خلّفهم أملاك. وإذن، فكل كنيسة وكل قس يمتلكان شيئاً فإنهما يعصيان أوامر الله^(٣).

وأنكر ويكلييف ضرورة الاعتراف أمام القس، لأن الحق الذي لا ريب فيه أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب. كما وإنه أظهر شكّه بالعشاء الرباني لأن القس سواء كان صالحاً أم طالحاً فهو لا يستطيع أن يحوّل الخبز المقدّس إلى جسم المسيح ودمه^(٤).

لكن ويكلييف تخلص من غضب الكنيسة، ومن الدعوة إلى محاكمته في العام (١٣٧٨م/٧٧٩هـ). بمساعدة من الموقف الحكومي والشعبي في إنجلترا^(٥). وعلى الرغم من ذلك لم تنج

(١) م. ن. : (٢٢م) : ص ٦٤.

(٢) م. ن. : ص ٦٧.

(٣) م. ن. : ص ٦٦.

(٤) م. ن. : ص ٧٣.

(٥) م. ن. : ص ٧٠.

عظامه وكتابات، لأنه في العام (١٤٥٠م/٨٥٤هـ)، نُبِشَ قبره، وأُيِّدَ ما عُثِرَ عليه من كتاباته^(١).

↔ مارتن لوثر (ألمانيا) (١٤٨٣ - ١٥٤٦م/٨٨٨ - ٩٥٣هـ). قد تكون حادثة أشهر صكوك الغفران، التي أصدرها البابا ليو العاشر في العام (١٥١٧م/٩٢٣هـ)، هي التي كانت القشة التي عُبِّرَ عليها لوثر لكي يلعب دوراً مهماً في عملية الإصلاح الديني. وقصة هذه الصكوك: أن البابا ليو أراد أن يقوم بإنشاء كنيسة جديدة للقديس بطرس؛ ولهذا منح صكَّ غفران لكل من يسهم في نفقات تكملة هذا المعبد العظيم. وهذا ما أثار مخاوف ملوك كل من إنجلترا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا من استنزاف موارد بلادهم؛ فأرضاهم البابا بأن أعطاهم قسماً من العائدات^(٢).

وبعض ما جاء في صكَّ الغفران الشهير: "وبقدر ما يمتدُّ نطاق سلطان الكنيسة المقدَّسة، أعفيك من كل عقاب تستحقُّه في المطهر بسبب هذه الآثام، وأعيدك إلى القربان المقدَّس للكنيسة، وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما في العباد"^(٣). وبلغ الاستياء من صكَّ الغفران هذا أن أثارت شائعة كانت تُنقلُ عن لسان تيتزل - الكاهن الذي كان يوزع الصكوك - في العام (١٥٠٠م/٩٠٥هـ)، يقول فيها: "إنه إذا حدث المستحيل، واغتصب رجل أم الرب، فإن صكَّ الغفران كفيلاً بأن يمحو عنه هذا الإثم"^(٤).

جاء عدد من الذين اشتروا هذه "الرسائل البابوية" بها إلى مارتن لوثر - أستاذ علم اللاهوت في الجامعة - وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها، فرفض^(٥). ومن هنا أخذ يبرز اسم لوثر. فمن هو لوثر، وما هو تأثيره في مجرى الصراع من أجل إصلاح الكنيسة؟ لقد أسهم دين قائم على الفرع في بيت يحتفل بالتأديب الصارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية. تأثر لوثر بأوكهام الذي يذهب برأيه إلى أن الباباوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطيء. وعاش حياته إلى حد الانغماس في الشهوات. ولكنه نذر عهداً، أنه لو بُنجا من كارثة طبيعية تعرَّض لها، أن يصبح راهباً^(٦).

(١) م . ن : ص ٧٦.

(٢) م . ن : (٢٤م) : ص ٤.

(٣) م . ن : ص ٥.

(٤) م . ن : ص ٦.

(٥) م . ن : ص ٧.

(٦) م . ن : ص ص ١٠ - ١٢.

وفي العام (١٥٠٨ - ٩١٣هـ) استرعت انتباهه عبارة وردت في رسالة القديس بولس إلى الرومان [١: ١٧] "إن الحق يحيا بالإيمان". فقادته هذه العبارة إلى أن يعتقد أن الإنسان يمكن أن ينجو، لا بالأعمال الطيبة، بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر. ووجد في تعاليم أوغسطين أن الله قدير - حتى قبل الخلق - أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص، وأن يُزج بالباقي في جهنم^(١).

ولما جاء إلى روما في العام (١٥١٠م/٩١٦هـ) فوجيء بالأخلاق المنحلة لرجال الكهنوت الكبار. وأخذت آراؤه الدينية تتحول ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة في خلال الفترة بين (١٥١٢ و١٥١٧م/٩١٨ و٩٢٣هـ). فهو في العام (١٥١٥م/٩٢١هـ) عزا ما أصاب العالم من فساد إلى رجال الكهنوت؛ ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلال سذاجة الفقراء^(٢).

فكما وجد لوثر مؤيدين لآرائه^(٣)، فإنه قد وجد محاررين ضدها^(٤). فاتهم بالخروج على النظام وبالمهرطقة^(٥)؛ وطلب منه أن يسحب أقواله وآراءه، التي أدانتها الكنيسة، فرفض واستمر في حملته المعادية للبابوية^(٦).

بلغت الثورة حداً بعيداً في ألمانيا؛ ووجد لوثر مؤيدين له، فوجهوا حملة قاسية ضد البابا. وقابل لوثر تطرف الكنيسة بالتطرف؛ وقال في العام (١٥٢٠م/٩٢٦هـ): "إذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق، ونلقي بالمهرطقة في النار، فلماذا لا نهاجم، أيضاً، بالأسلحة أساتذة الدمار... أعني هؤلاء الكرادلة، وهؤلاء الباباوات... ونغسل أيدينا في دماهم"^(٧).

أصدر البابا ليو العاشر، في العام (١٥٢٠م/٩٢٦هـ)، نشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر، وأمر بأن تحرق، علناً، مؤلفاته التي ظهرت فيها. وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه، وأن يعود إلى حظيرة الدين^(٨).

(١) م. ن. : ص ١٣.

(٢) م. ن. : ص ١٥.

(٣) م. ن. : ص ١٦.

(٤) م. ن. : ص ١٨.

(٥) م. ن. : ص ١٩.

(٦) م. ن. : ص ٢٠.

(٧) م. ن. : ص ٢٦.

(٨) م. ن. : ص ٢٧.

فردُ لوثر مهاجماً "الجدران الثلاثة"، التي شيدتها البابوية حول نفسها، وهي: التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين - حق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه - وحق البابا المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة^(١).

كما دعا لوثر إلى رفض دفع الجزية الدائمة إلى بابا روما؛ ودعا رجال الدين لأن يتخلّصوا من تبعيتهم له، وأن يُنشِؤا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفتهم^(٢). فأصدرَ مرسوم يُحرّم لوثر من غفران الكنيسة^(٣). وبعد إحراق كتبه قرّر لوثر أن يردّ على رجال الكنيسة بالمثل، فأحرق نشرة البابا، وقذف بها في النار مع بعض المراسيم الكنسية^(٤).

قام لاهوت لوثر على تصديق حرفية ما جاء في الكتب المقدسة؛ فهو يعود باللاهوت إلى عصر الإيمان. فكانت ثورته موجّهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية^(٥).

أما موقفه من السلطة الزمنية فبدأه بأسلوب وديٍّ للغاية؛ فأقرّ عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدني والأصل الآلهي للدولة. ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة، التي تقول بالحرية الكاملة للمسيحيين^(٦). فالواقع أن لوثر كان محافظاً ورجعياً في السياسة والدين، بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى^(٧).

قال لوثر: "إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس... فيجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق... إن الله هو المتصرف بالروح، ولن يُسمَح لأحد سواه أن يسيطر عليها"^(٨). وأوصى في العام (١٥٢٠م/٩٢٦هـ) بأن تخفّف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفي. وكتب في العام (١٥٢١م/٩٢٧هـ): "لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل"^(٩). وفي العام (١٥٢٩م/٩٣٥هـ)، قال: "لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضرراً؛ لكنه - يتابع - "ويجب أن يُكره الجميع، بمن فيهم الكفار، على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة في الكنيسة، والتلاؤم معها في ظاهر

(١) م. ن. : ص ٢٨.

(٢) م. ن. : ص ٢٩.

(٣) م. ن. : ص ٣٠.

(٤) م. ن. : ص ٣٤.

(٥) م. ن. : ص ٥٨.

(٦) م. ن. : ص ٦٨.

(٧) م. ن. : ص ٧٠.

(٨) م. ن. : ص ١٤٠.

(٩) م. ن. : ص ١٤١.

السلوك". وبهذا وافق لوثر الكنيسة الكاثوليكية في أن المسيحيين بحاجة إلى يقين ثابت، ومذاهب محدّدة^(١).

وفي العام (١٥٣٠م/٩٣٦هـ) وصِفَ لوثر بأنه أصبح بابا آخر، حين دعا الحكومات إلى إعدام الهرطقة - من خلال تفسيره للزمور الـ ٨٢ - الذين ينادون بإثارة الشغب أو مناهضة الملكية الخاصة، لأنهم بهذا يعارضون تعاليم مادة واضحة في العقيدة^(٢). وأخيراً، وعلى يد مارتِن لوثر، ولِدَ المذهب البروتستانتي المسيحي.

→ جان كالفن: (١٥٠٩ - ١٥٦٤م/٩١٤ - ٩٧١هـ): فرنسا.

وصلت تأثيرات حركة لوثر إلى فرنسا منذ العام (١٥٢٠م/٩٢٦هـ). كانت فرنسا في تلك المرحلة مؤهّلة لتكون مركزاً لنشاط الدين الجديد بسبب من وفرة المطابع فيها. لكن كلية باريس الدينية، وملك فرنسا، قاوما الحركة الجديدة. فصدر أمر ملكي، مدعماً بقرار للبرلمان، حكم فيه على نظريات لوثر بالبطلان، وحُرِّقَت كتب كثيرة^(٣). وعلى الرغم من الاضطهاد، اتخذت حركة الإصلاح في فرنسا شكلاً أصيلاً على يد مصلح صلب وقوي الشكيمة هو حنا كالفن^(٤).

أصدر كالفن كتابه "النظام المسيحي" فكان أقوى وأكمل أثر في الديانة البروتستانتية في ذلك العهد؛ ولذا صدر في ثلاث طبعات بين العامين (١٥٣٦ و ١٥٥٩م/ ٩٤٢ و ٩٦٦هـ)^(٥). ويستند مذهب كالفن إلى مذهب لوثر في نقاطه الأساسية: التبرير بالإيمان - العبادة البسيطة التي تقتصر على الصلاة والوعظ - الاعتماد على الكتاب المقدس وحده^(٦).

ذهب كالفن إلى أبعد مما ذهب إليه لوثر، حتى أن لوثر عدَّ بجانبه معتدلاً:

- تسامح كالفن بالنسبة للتمائيل والصور، أما لوثر فقد جرَّد الكنائس منها.
- لم يُبقِ كالفن إلا سرّين هما: التعميد والقربان المقدس. ورفض، خلافاً للوثر، سر التوبة.
- حافظ كالفن على فكرة الجبرية والإيمان بالقضاء والقدر، كما فعل لوثر؛ لكنه وسَّع الفكرة إلى أقصى نتائجها، حيث يقول: إن الإنسان محكوم عليه بالشقاء، بشكل لا يمكن علاجه بسبب الذنب الأصلي. وإن إرادة الله - أي العناية الإلهية - وحدها هي التي تنقذ

(١) م. ن. : ص ١٤٣.

(٢) م. ن. : ص ١٤٥.

(٣) حاطوم، نور الدين: تاريخ عصر النهضة الأوروبية: م. ن. : ص ١٧٩.

(٤) م. ن. : ص ١٨٠.

(٥) م. ن. : ص ١٨١.

(٦) م. ن. : ص ١٨٢.

المخلوقات البشرية البائسة؛ فالإنسان لا شيء، والله كل شيء. وإذا نسبنا إلى أنفسنا بعض الفضل فهذا يعني أننا سلبناه مجده وعظمته^(١).

إن أساس الكالفينية هو نظرية الخلاص الإلهي المقدر للبعض، واللعنة المقدرة على البعض الآخر. وكان كالفن غير متسامح - على الإطلاق - تجاه كل العقائد الدينية الأخرى. فبناءً على أوامره أُعيد ميشيل سيرفيه على الخازوق في العام (١٥٣/م ٩٦٠هـ)^(٢).

أما نظام الكنيسة الكالفينية فهو نظام اتحاد الكنائس: رئيسها واحد هو المسيح، وقاعدتها واحدة هي الكتاب المقدس. أما نظام الكنيسة الرومانية فهو بسط نفوذ وتسلسل وطبقات. يقول كالفن إن علاقات الدولة مع الكنيسة هي علاقة مساواة بين عالمين مختلفين على الكنيسة أن تتولى أمر الأرواح؛ وعلى الدولة أن لا تتدخل في الأمور الدينية والأخلاقية، بل أن تدعم الكنيسة^(٣).

توسعت الكالفينية في كل أوروبا، وخاصة في فرنسا وهولندا واسكتلندا^(٤). أما إنجلترا فقد أتبعَت الديانة الأنجليكانية، التي هي ديانة متوسطة بين الكاثوليكية والبروتستانتية، فلم تُرضِ الطرفين. وأما في إيطاليا وأسبانيا فلم يلق الإصلاح نجاحاً كبيراً، فقد حافظت الدولتان على الإصلاح الكاثوليكي^(٥).

كان من المستحيل أن تتحول إيطاليا إلى البروتستانتية، فقد كانت عامة الشعب متعلقين بالدين، وإن لم يؤموا الكنائس. وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً، ومصلحة إيطالية راسخة. فليس هناك أي إيطالي يحنون يرى مصلحة لإيطاليا في القضاء على هذه المنظمة الجارية للجزيرة. وقد أعان خضوع إيطاليا السياسي لأسبانيا المغالية في التدين على إبقاء شبهي الجزيرة كاثوليكيين^(٦).

٤ - الإصلاح الكاثوليكي والإصرار على محاربة المرتدين:

حاولت الكنيسة الكاثوليكية الإصلاح الذاتي، فقام هذا الإصلاح على ثلاثة إجراءات:

(١) م. ن : ص ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) م. روزنتال (و. ي. يودين: الموسوعة الفلسفية: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨١: ط ٣: (تعريب سمير كرم): ص ٣٨٥.

(٣) حاطوم، نور الدين: تاريخ عصر النهضة الأوروبية: م. س: ص ١٨٧.

(٤) م. ن: ص ١٨٩.

(٥) م. ن: ص ١٩٣.

(٦) ديورانت، ول: (٢٧٧): م. س: ص ١٩١.

- الأول : وهو الاعتراف بجمعية اليسوعيين: فكان لهذه الجمعية نظام عسكري يتطلب من أعضائه الإطاعة العمياء، والتنازل الكلي عن إرادتهم الخاصة والثقافة العميقة. وعقدت العزم على سحق الإصلاح والمهرطقة والفكر الحر، وذلك في سبيل تأمين الخضوع التام للكنيسة الرومانية. وقررت أن تكافح العقل بسلاح العقل^(١).

- الثاني: تفعيل محكمة التفتيش: أعيد نظام محاكم التفتيش في العام (١٤٥٢م/ ٨٥٦هـ)، مستفيدين من تجربة أسبانيا^(٢).

- الثالث: عقد مجمع ترانت، في العام (١٥٤٥م/ ٩٥٢هـ)، والذي انقسمت مقرراته إلى قسمين: العقائد والأنظمة.

العقائد: تحدت في العمل ضد البروتستانت - مصادر الإيمان هي الكتاب المقدس حسب الترجمة اللاتينية للنص الإغريقي الصادر في القرن ٤م. وأبقى على الأسرار السبعة التقليدية: التعميد - التثبيت - القربان المقدس - التوبة - المسحة الأخيرة - الكهنوت - الزواج. أما البروتستانتون فأرجعوها إلى اثنتين^(٣).

الأنظمة: أبقى المجمع على اللغة اللاتينية في الصلاة والقداصات العامة. وحرّم المجمع بين الوظائف - إقامة الكهّان والأساقفة في كنائسهم - التبشير مرة كل أسبوع على الأقل...^(٤).
كان انقسام الوحدة الدينية في أوروبا - في القرن ١٦م - من أهم الصفات المميزة لبدء الأزمنة الحديثة. وكان هذا الانشقاق نتيجة أزمة الإصلاح الديني، الذي قام به المصلحون الدينيون؛ فهم في الوقت الذي عملوا فيه في سبيل إصلاح الكنيسة الأم أسسوا لكنائس جديدة. فكان هذا الانفصال أشد خطراً على الكنيسة الأم من انفصال الكنيسة الشرقية - الأرثوذكسية في العام (١٥٥٤م/ ٤٤٥هـ)^(٥).

(١) حاطوم ، نور الدين : تاريخ عصر النهضة الأوروبية : م . س : ص ١٩٩ .

(٢) م . ن : ص ٢٠١ .

(٣) م . ن : ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٤) م . ن : ص ٢٠٤ .

(٥) م . ن : ص ١٥٨ .

٧ - قراءة تاريخية في صراع اللاهوت مع العلم والفلسفة

١ - مصطلحات لا بد من تعريفها:

أ - اللاهوت: معنى علم اللاهوت المتعارف عليه - منذ القرن ١٣م - هو اللاهوتيات التي تُدرَك على مستوى ما فوق الطبيعة؛ أي توضيح مسلمات الوحي بعقل أشرق الإيمان فيه^(١). فاللاهوت (theologie) أو علم الله، هو نسق من المعتقدات القطعية في دين معيّن. ويقوم اللاهوت المسيحي على أساس الإنجيل، ومراسيم المجالس المسكونية، وآراء القديسين، والأسفار المقدّسة، والتقاليد المقدّسة. وهو ينقسم إلى:

- لاهوت أساسي (أصول الدين وعلم الكلام).

- العقائد والأخلاق والعبادات...

والسمات البارزة لللاهوت هي القطعية المتطرفة والنزعة التسلطية والمدرسية. وترتبط باللاهوت ارتباطاً وثيقاً فلسفة الدين التي تحاول أن تبرهن على أن اللاهوت يمكن أن يتفق مع العلم^(٢). والفلسفة المدرسية مصطلح يُطلق على "فلسفة المدرسة" - في العصور الوسطى - التي كان أتباعها يحاولون أن يقدّموا برهاناً نظرياً للنظرة العامة الدينية للعالم. وكانت تعتمد على أفكار الفلسفة القديمة: أفلاطون، وخاصة أرسطو، اللذان كانت الفلسفة المدرسية تُكيّف آراءهما مع أغراضها الخاصة.

كانت المنازعات، التي حصلت بين اللاهوتيين الكاثوليكين والبروتستانتين - والتي وقعت في أواخر عصر الفلسفة المدرسية (في القرنين ١٥ و١٦م) - انعكاساً للصراع الذي شنته الكنيسة الكاثوليكية ضد حركة الإصلاح الديني^(٣).

(١) غرديه، لويس (و) ج. قنواي: فلسفة الفكر الديني (ج ٢): دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٦٧: ط ١: (تعريب جبر والصالح): ص ٥٠.

(٢) م. روزنتال (و) ي. يودين: م. س: ص ٤٠٨.

(٣) م. ن: ص ٣٥٠.

ب - الفلسفة : إن الفلسفة هي العلم بمحقائق الأشياء، والعمل بما هو أصح. وتتميز بالصفات التالية: الشمول - الوحدة - التعمق في التفسير والتعليل - البحث عن الأسباب القصوى والمبديء الأولى^(١).

والعلاقة بين الفلسفة والعقل البشري من جهة ما هو متميز عن موضوعاته، ففيها قسم يشمل البحث في أصل المعرفة وقيمتها، وفي مبادئ اليقين وأسباب حدوث الأشياء. وقيل إن الفلسفة نظرية القيم، وموضوعه البحث عن قيمة الحقيقة^(٢). إن الفلسفة فعالية فكرية خالصة تحاول فهم العالم بما هو كل؛ وإن ما تتصف به من شمولية وتجريد يجعلها ذات طابع إنساني يتخطى حدود القوميات والأوطان، ويجعلها من أهم وسائل التفاهم والتعاون والتآخي الفكري بين أبناء البشر.

وبما تتميز به الفلسفة من نزعة إلى النقد، تزعزع اعتقادات الإنسان الراسخة، وتحرر تفكيره من سلطان التقليد والنقل، فلا تعود الأفكار النقليّة نهائية ومطلقة تسمو على النقاش، بل على إنها لم ولن تبلغ درجة اليقين النهائية، ولذلك تستهدف دائماً المراجعة والتعديل^(٣). تميّزت الفلسفة في العصور التي نقوم بالبحث فيها بما يلي:

- العصر الوسيط (من القرن ٥ - ١٥ م/ القرن ١ ق.هـ - ٩ هـ): إنشغلت الفلسفة بالمسائل الدينية؛ وعملت على التوفيق بين العقل والنقل، أو الإيمان والفكر.
- عصر النهضة (من القرن ١٥ - ١٨ م/ ٩ - ١١ هـ): وهو عصر انتعاش الفكر الإنساني من مقولات الفكر القديم وقيوده.
- عصر التنوير (القرن ١٨ م/ ١٢ هـ): ويتميز بوضع أنسقة فلسفية متكاملة عن العالم واستخدام المناهج العلمية في البحث^(٤).

٢- العوامل التي مهّدت للفلسفة، وسبقت بناء الصرح الفلسفي في أوروبا

لا بد من التذكير بأن المرحلة التي امتدت - منذ أواخر القرن ١٢ م/ ٦ هـ، إلى أواخر القرن ١٣ م/ ٧ هـ - تُعدُّ العصر الذهبي للمسيحية في العصر الوسيط^(٥).

(١) صليبا، جميل: المعجم الفلسفي (ج ٢): دار الكتاب اللبناني: بيروت: ١٩٨٢: د.ط: ص ١٦٠.

(٢) م. ن: ص ١٦١.

(٣) زيادة، معن: م. س: ص ٦٦١.

(٤) م. ن: ص ٦٦٠.

(٥) حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا (ج ٢): م. س: ص ١٣٩.

فعلى إثر الغنى وحب الثراء والكسب، الذي مارسه الكنيسة، ظهر أدب هجائي وشعبي يُشهر بحياة اللين والبذخ التي يعيشها الحبر أو الأب الأكبر. ومارس الأكليريكيون الشدة في تحصيل الرسوم الثقيلة على المؤمنين (العُشر - التقدمة - الهدايا)؛ كان يحصل ذلك في الوقت الذي كان من الواجب على هؤلاء أن يضربوا المثل في الحياة الإنجيلية الحق^(١). فتغلغت الهرطقة في كل مكان^(٢).

جاء إينوسان الثالث - منذ أن اعتلى العرش الحبري في العام ١١٩٨م/٥٩٤هـ - وقرّر هدي الهرطقة؛ فعهد إلى الأساقفة، الذين كلّفهم مجمع لاتران في العام ١٢١٥م/٦١١هـ، بتنظيم جولات عبر الأبرشية. وفي الوقت ذاته شدّد آباء الجامع الدينية العقوبات ضد الهرطقة الذين لا يتوبون، وذلك بمصادرة أموالهم لصالح سيّلتهم. أما الهرطقة فيُحكّمون بالسجن مدى الحياة، أو يُسلّمون إلى السلطة الزمنية ليلقوا في النار. وتبيّن أن هذا التدبير لا يكفي، لهذا قرّر غريغوار التاسع أن يعهد بملاحقة الهرطقة إلى مفوضين رسوليين مُقلّدين بسلطات واسعة، وهؤلاء هم المفتشون. وكانوا قد اختيروا لهذه المهمة في العام ١٢٣٢م/٦٢٩هـ^(٣). وعلى أيديهم اشتدّت فظائع محاكم التفتيش؛ وهذا ما سبق وأشرنا إليه في موقع سابق من هذا الفصل. مع أجواء التعسف الكنسي، وفي ظل أجواء الاستياء الشعبي مؤيّداً من قبل شريحة من رجال الدين، جاءت عوامل أخرى لتساعد في تشديد الهجوم ضد الكنيسة، وتعمل على تقويض سلطاتها المطلقة، فيؤلّد تيار فكري جديد ويقف في موقع الندد للنند مع اللاهوت المسيحي، فما هي أهم هذه العوامل؟

أ - الثورة الاقتصادية والتجارية:

منذ القرن ١٣م/٧هـ حصلت ثورة تجارية بالنسبة لأوروبا في العصر الوسيط، أسهمت فيها تقدّم وسائل النقل^(٤). فاستطاع التجار الوصول إلى مناطق بعيدة، وفتّحت أمامهم الأسواق^(٥). وأدّت سعة المبادلات الجديدة إلى تداول كتلة نقدية عظيمة، ومحاصيل وافرة للتصدير^(٦). وقد أدّى هذا التطور الاقتصادي إلى تحولات مهمة في توزيع الدخول^(٧).

(١) م. ن. : ص ١٤١.

(٢) م. ن. : ص ١٤٧.

(٣) م. ن. : ص ١٥٠.

(٤) ديورانت، ول : (١٧م) : م. ن. : ص ١٤.

(٥) م. ن. : ص ١٦.

(٦) م. ن. : ص ١٧.

(٧) م. ن. : ص ٣٨.

وبالإجمال عرفت معظم مناطق أوروبا - في خلال القرن ١٤م - ٨هـ - تطوراً اقتصادياً مهماً؛ وتحت راية هذا التطور غَلِيَتْ مراحل حرب الطبقات: بين السادة الملاك وعبيد الأرض، وبين النبلاء ورجال الأعمال، وبين الغرف التجارية ونقابات العمال، وبين الرأسماليين والصُّناع، وبين الكهنوت والعلمانيين، وبين الكنيسة والدولة...^(١).

أدخلت الثورة الاقتصادية شيئاً من التغيير في ميدان التعليم، وبشكل خاص كان العمل بالتجارة والصناعة بحاجة إلى موظفين ذوي تدريب وخبرة؛ ولهذا السبب أنشئت، على الرغم من المعارضة القوية من جانب الكنيسة، مدارس زمنية يُعَلَّم فيها مدرِّسون علمانيون^(٢).

ب - تطور حركة التعليم وانتشار الثقافة:

لما ابتدأت الكنيسة تشق طريقها في الإمبراطورية الرومانية، أخذت تُنشِئ - منذ القرن ٦م - مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحي، ولقساوسة المستقبل. وحملت مدارس الأديرة وحدها - في أول الأمر - هذا العبء كله تقريباً^(٣).

واستمرَّ احتكار الكنيسة، في إنشاء المدارس والجامعات والإشراف عليها، حتى بدايات القرن ١٥م/٩هـ. أما قبل هذه البدايات وبعدها فقد حصلت جملة من التطورات والتغيرات، التي انعكست آثارها بشكل إيجابي على تطور حركة التعليم والثقافة في أوروبا. ومن جملة هذه التغيرات، مايلي:

- الانتقال من أوحدية اللغة اللاتينية إلى اللغات القومية: حافظت الكنيسة - حتى حدود القرن ١١م/٥هـ - إلى حد ما، على وحدة أوروبا التي حققتها الدولة الرومانية؛ فكان المتعلمون - قبل هذا القرن - من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية في مراسلاتهم على شكل واسع ووحيد، وكذلك في أعمالهم التجارية والدبلوماسية والقانون والعلم والفلسفة^(٤).

لكنه مع سقوط الدولة الرومانية انفصمت العلاقات بين المناطق الأوروبية؛ فأخذت الاختلافات في الكلام تظهر، وما لبثت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين بها بعضهم عن بعض^(٥). ومن هنا بدأت اللغات القومية تأخذ مكانها بين شعوب دول أوروبا.

(١) م. ن. : (٢٢م) : ص ٢٥٥.

(٢) م. ن. : (١٧م) : ص ٢٧.

(٣) م. ن. : ص ٢٣.

(٤) م. ن. : ص ١.

(٥) م. ن. : ص ٢.

- إنتشار الجامعات: يُعدُّ القرن ١٣م/٧هـ في الغرب قرن تأسيس الجامعات، الواحدة بعد الأخرى، في شتى مدن أوروبا. وعلى الرغم من سيطرة اللاهوت المسيحي على مناهج التعليم في تلك الجامعات، إلا أنها كانت تُخرج أقلية من الرجال المتعلمين الذين لم تكن آراؤهم مما يرضي الكنيسة على الدوام. فيها هو القديس برناردينو يقول في العام (١٤٢٠م/٨٢٣هـ): "إن كثيراً من الناس، إذا نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات، وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم... ولا يرون أن ما ورد في الكتب عن الدين صادق وصحيح..."^(١).

فهذه جامعة بولونيا، مثلاً، قد انطبعت - في القرن ١٣م/٧هـ - بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة^(٢). لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التي تُدمر كل شيء في سبيلها. أما الجامعات التي خلّفتها لنا عصر الإيمان، بكل ما فيها من عناصر التنظيم، فهي تُكيّف نفسها حسب التطورات التي لا مفر منها^(٣).

- إختراع الطباعة: كان التعليم كله، تقريباً - قبل مخترع الطباعة جوتنبرغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨م/٨٠٢ - ٨٧٢هـ) - في يد الكنيسة. وكانت الكتب باهظة الثمن والنسخ بجهداً^(٤).

وازداد الطلب على الكتب بازدياد المدارس، وانتشار القراءة؛ وما إن جاء العام (١٣٠٠م/٦٩٩هـ) حتى كان الوقت الذي لا يستطيع القراءة فيه غير رجال الدين قد ولى أو كاد؛ وكانت صناعة الورق قد عمّت معظم دول أوروبا في حلول القرن ١٤م/٨هـ^(٥).

انتشرت الطباعة في كل أنحاء أوروبا بين العامين (١٤٦٤ و ١٤٩٠م/٨٦٨ و ٨٩٥هـ) تاريخ وصولها إلى القسطنطينية؛ وسرعان ما أصبح نصف سكان أوروبا من القارئ كما لم يحدث ذلك قط من قبل^(٦).

لقد مهّدت الطباعة الطريق لعصر التنوير، وجعلت الكتاب المقدس ملكاً شائعاً، وهبّات الناس للدعوة لوثر بالتحول من الاحتكام إلى الباباوات إلى الإنجيل. وسمحت، بعد ذلك، بدعوة العقلين، بدلاً من الاحتكام إلى الإنجيل، إلى الاحتكام إلى العقل. وبهذا قضت على الاحتكار الكهنوتي للتعليم، وعلى سيطرة القساوسة على التربية. وشجعت آداب اللهجات المحلية، لأن

(١) م. ن. : (٢٢ م) : ٣٦ ص.

(٢) م. ن. : (١٧م) : ٣٢. لمزيد من المعلومات عن جامعات أوروبا، راجع: ص ص ٢٣ - ٤٨.

(٣) م. ن. : ص ٥٧.

(٤) م. ن. : (٢٢م) : ص ٢٧٦.

(٥) م. ن. : ص ٢٧٧.

(٦) م. ن. : ص ٢٨٠.

الجمهور الكبير الذي تتطلبه لا يمكن الوصول إليه عن طريق اللغة اللاتينية. ويسّرت الطباعة، أيضاً، الاتصال والتعاون الدوليين بين العلماء. وأثّرت في نوع الأدب وقوامه بإخضاع المؤلفين لحاجات الطبقات الوسطى وأذواقها، بدلاً من إخضاعهم لمن يرعاهم من الطبقتين العليا والكهنوتية^(١).

ج - حركة الترجمة عن الحضارات الأخرى : منذ أوائل القرن ١٢م / ٦هـ بدأت حركة نقل الثقافات الأخرى إلى اللغة اللاتينية. فكانت على رأس تلك الثقافات تأتي الثقافة العربية؛ حتى إن الثقافة اليونانية كانت تُنقل عبر الترجمات العربية لها^(٢).

رافق تأسيس الجامعات في أوروبا حركة الترجمة إلى اللاتينية؛ وأصبحت الترجمة منتظمة تتناول شتى حقول المعرفة. فعرف الغرب ابن سينا وابن الهيثم والكندي والفارابي والغزالي. أما الترجمات التي ستلعب الدور الأهم فهي شروحات ابن رشد لكتب أرسطو^(٣).

أحدث الترجمة كلها، في أوروبا اللاتينية، ثورة عظيمة الخطر؛ ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استشارة العلماء الذين بدأوا يستيقظون من سباتهم. وأحدثت الترجمة - بدورها - تطورات في بنى اللغة اللاتينية، وأسهمت بنصيب في نشأة الجامعات ونماؤها في القرنين ١٢م و١٣م / ٦هـ و٧هـ. ودخلت مفردات عربية كثيرة إلى اللغة اللاتينية^(٤).

أما عن تأثير حركة الترجمة بشكل عام، فقد كان لعلم الهيئة اليوناني والعربي شأن خطير؛ فهو قد أحدث توسعاً في علوم الدين عند الأوروبيين، وفي تعديل أفكار العلماء عن الآله؛ وبلغ مداه الأوسع بعد عهد كوبرنيك - منذ أواخر القرن ١٥م / ٩هـ^(٥).

وفي إشارات روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢م / ٦٣٨ - ٦٩١هـ) لابن رشد وابن سينا والفارابي للدليل على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد، وفي ذلك يقول: "لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب". وسنرى أن الذي دعا توماس الأكويني لتأليف كتابه الجامع في اللاهوت، هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية. وبهذا التأثير للحضارة العربية - الإسلامية في أوروبا تكون قد ردت إليها ما أخذته عن اليونان بطريق الشام.

(١) م . ن : ص ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) م . ن : (١٧م) : ص ص ١٣ - ٢٠.

(٣) زيناتي، جورج: رحلات داخل الفلسفة العربية: دار المتعبد العربي: بيروت: ١٩٩٣: ط١: ص ١٤.

(٤) ديورانت ، ول : (١٧م) : ص ٢١.

(٥) م . ن : ص ٢١.

أثارت هذه التراجيح عقل أوروبا وحفزته إلى البحث والتفكير، وأرغمته على أن يُشيد ذلك الصرح العقلي الخطير، صرح الفلسفة المدرسية. وبذلك ينهار نظام العصور الوسطى الفلسفي، منذ القرن ١٤م / ٨هـ، وبهنا تبدأ الفلسفة الحديثة تشق طريقها^(١).

أما نظام العصور الوسطى فكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية على حساب الثقافة العقلية^(٢). وتزعمت فرنسا - في العصور الوسطى، وفي خلال القرنين ١٢م و١٣م / ٦هـ و٧هـ - الثقافة العقلية؛ فقد كانت لمدارس كاتدرائياتها - منذ القرن ١٥م / ٩هـ - شهرة عظيمة؛ ونمت حتى أصبحت جامعة باريس العظيمة^(٣).

د - فلسفة ابن رشد كانت الرائد المؤثر في تغيير الاتجاهات الفلسفية القروسطية:

بعد دخول أفكار أرسطو إلى أوروبا - منذ القرن ١٢م / ٦هـ - اندفع علماء الدين الكاثوليك إلى محاولة التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليوناني وعلم اللاهوت المسيحي، كما فعل من قبلهم المفكرون الإسلاميون والمفكرون اليهود^(٤).

وبعد أن تسربت آراء ابن رشد تكاثر أصحاب النزعة العقلية القائلين بأن الله، بعد أن خلق العالم، تركه لتسييره القوانين الطبيعية. وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة، وإن الصلاة لا تستطيع تغيير مسلك العناصر...^(٥).

كادت آراء ابن رشد - في حوالي العام ١٢٤٠م / ٦٣٧هـ - تصبح الطراز العصري بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين في إيطاليا. وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعي يحكم العالم دون تدخل من قبل الله. وإن العالم كله مخلد كالله، وإنه لا يوجد إلا نفس واحدة خالدة هي عقل الكون الفعال^(٦).

شكل إدخال التفسيرات الطبيعية للظواهر صدمة لكل التراث الفكري الحضاري الذي بناه الغرب في خلال ثمانية قرون، من حيث كانت الكنيسة تملك وحدها العلم على مدى كل تلك العصور في أوروبا؛ وكان اللاهوت هو المسيطر، وقال أنسلم - أسقف كانتبري المتوفي في العام

(١) م . ن : ص ٢٢.

(٢) م . ن : ص ٢٣.

(٣) م . ن : ص ٣٦.

(٤) م . ن : ص ص ١٠٠ - ١٠١.

(٥) م . ن : ص ١٠٤.

(٦) م . ن : ص ١٠٦.

١١٠٩م/٥٠٢هـ - بأن الفلسفة هي خادمة اللاهوت، بمعنى أن العقل يجب أن يُسخَّر باستمرار للدفاع عن الإيمان. لذا باءت بالفشل كل المحاولات في الغرب لإقامة فلسفة مستقلة عن الدين. لكنه بعد ترجمة كتب أرسطو - كما شرحها ابن رشد - خَلَفَ في الغرب صراعاً بين نص مقلِّس وعلم وثني؛ بين علم مكرَّس بأكمله للدفاع عن اللاهوت وبين علم لا يأخذ بعين الاعتبار إلا نور العقل^(١).

بدأت شمس جديدة تشرق في الغرب الأوروبي، وبدأ شروقها مع عصر الرشدية اللاتينية، التي بدأت في جامعة باريس - منذ منتصف القرن ١٣م/٧هـ - حيث انقسم أساتذتها، وكانوا كلهم من رجال الدين، بين مؤيد للرشدية وبين معارض لها. وحاول توما الأكويني أن يقف موقفاً وسطاً، بحيث يتبنى أرسطو وابن رشد في النظريات التي لا تصدم الكنيسة^(٢).

كانت القضيتان الأساسيتان اللتان ارتكزت إليهما الرشدية اللاتينية، في القرن ١٣م، هما: وحدة العقول أو النفوس، وقضية قَدَمِ العالم.

- فوحدة العقول، في نظر ابن رشد هي: أن العقل البشري حين يتصل بالعقل الفعَّال المفارق يستطيع أن يأتي بالجديد من العلم، فيزداد أفق المعرفة الإنسانية. وعندما يتم هذا الاتصال لا يعود هناك ما يميِّز بين عقل فردي معين وعقل آخر، إذ يصبح عقل الفرد على اتصال مباشر بالعقل المفارق اللاهيو لاني: وفي حال الاتصال هناك، إذاً، وحدة للعقول، إذ ليس من فرق بين عقل فرد وآخر.

ويتصل بهذه المسألة المتعلقة بالمعرفة مشكلة خلود النفس. فابن رشد يسلو أنه فهم موقف أرسطو على أن ما يبقى ويخلد هو ثمرة هذا الاتصال، أي أن البقاء هو للنوع لا للفرد؛ وبتعبير أوضح فإن الخلود هو لكتب أرسطو، مثلاً، وليس لشخص أرسطو^(٣).

كان من الواضح أن هذا الرأي يتعارض مع تعاليم الكنيسة، لذا شنَّ توما الأكويني حرباً مريرة ضد هذه النظرية. واستند في حربه إلى علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم، وليس إلى وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين. كان هذا السبب كافٍ لكي يفتح عليه زملاؤه الرهبان، الذين لم يكونوا يثقون بالعقل، ويرفضون التوفيق بين أرسطو والمسيحية، فوجهوا إلى توما أشدَّ اللوم لربطه اللاهوت المسيحي بفلسفة إنسان وثني^(٤).

(١) زيناتي، جورج: م. س: ص ص ١٥ - ١٦.

(٢) م. ن: ص ١٧.

(٣) م. ن: ص ١٩.

(٤) ديورانت، ول: (١٧م): ص ١١٨.

- أما بالنسبة لقضية قِدَمِ العالم ، فنأدى بها الرشديون اللاتين، أي بأزليته، بمعنى أنه غير مخلوق في زمان معين بل كان دوماً. وعند أرسطو فإن الله - المحرك الأول - يحرك ولا يتحرك؛ والعالم، بسبب شوقه للكمال أي للمحرك الأول، تحرك وأخذ - منذ القدم - شكله، أي أنه ليس هناك من فاصل زمني بين الله والعالم.

نادت الأديان السماوية كافة بالخلق من العدم. أما ابن رشد فيقول بخلق العالم، ولكن منذ القدم ومن مادة قديمة؛ ويستشهد على ذلك بآيتين: ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء ﴾ (هود ١١: ٧). ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ (فصلت ٤١: ١١). فالخلق جاء من مادة قديمة هي الدخان؛ كما أن الماء كان موجوداً قبل الخلق. فالخلق لم يكن من عدم، إذاً، بل من مادة أزلية^(١).

كان القرن ١٦م - ١٠هـ قرن الإصلاح الديني، يتمثل بأيديولوجية جديدة هي الحركة الإنسانية، أي تلك الحركة التي تجعل من تراث الإنسانية - وهو وثني بغاليتها - أمراً يستحق التقدير؛ وكان همُّ هذا الموقف أن يرفع شعار الإنسان الرائع الناجح ضد شعار الإنسان المكبل بالخطيئة الأصلية^(٢).

كان القرنان ١٣ و ١٤م - ٧ و ٨هـ - بشكل خاص - بحاجة إلى الوقوف في وجه هيمنة الفكر اللاهوتي، الذي ساد كل القرون الوسطى، وحين عثر على شروح ابن رشد أيقن أنه وجد ضالته؛ فاستخدم الرشدية من أجل التعبير عن الإنسان المتحرر من هيمنة فكرة الخطيئة، وتأكيد قدرة العقل الإنساني وعظمته^(٣).

أخذت الرشدية السياسية مداها مع مارسيليو البادوي Marsile de Padoue (١٢٧٣ - ١٣٤٣م / ٦٧١ - ٧٤٣هـ) الذي جاء بمفهوم جديد للقانون حين أسس شرعية كل قانون، لا على إقامة المصلحة العامة فحسب، بل على رضا الشعب وقبوله لمثل هذا القانون. وأهميته أنه جعل من العودة للشعب مصدراً للتحرك السياسي في سبيل التخلص من السلطة التي تحكم بقوانين لا يرضاها الشعب لنفسه. وفي هذا يخالف فكر العصر الوسيط المتمثل بالأكوييني الذي يعتقد أن القانون نظام العقل غايته المصلحة العامة. فبدل العقل المجرد - حسب مارسيليو - أصبحت هناك إرادة شعبية تنتج قانوناً له صفة الإلزام والقهر. وهكذا يصبح مارسيليو رائداً في إبراز القانون الوضعي الذي لا يصدر عن عقل عام يرى الخير والشر، بل عن مجموعة من الناس ارتأت لنفسها أن تعيش في ظل قانون اشترعته هي، وأرادته ملزماً لها.

(١) زيناتي، جورج: م. س: ص ٢٠.

(٢) م. ن: ص ٢٧.

(٣) م. ن: ص ٢٩.

قاد مارسيليو معركة استقلالية الفلسفة عن اللاهوت آخذاً البعد الاجتماعي، من حيث أنه جاء بمفهوم جديد للقانون، وكان رائداً من رواد الديمقراطية. وأصبح كل همّة نزع الصلاحيات من رجال الأكليروس عدا السلطة الروحية. لذا فهو يقول بأنه لو ارتكب إنسان هرطقة دينية فسيحاكم الله صاحبها في اليوم الآخر. أما إذا كان للهرطقة تأثيراً اجتماعياً سلبياً، فليس على الكنيسة أن تتحرك، بل على السلطة المدنية أن تتحرك وتطبق قوانينها الوضعية.

فتح مارسيليو آفاق الحداثة، وكسر المفهوم المونوليتيكي *monolithique* للأمة؛ وآمن بأن في العالم قوميات متعددة مختلفة متباينة من حقها أن تؤسس دولاً عديدة تختلف عن بعضها البعض حسب اختلاف عاداتها وتقاليدها ولغاتها. وهذا المفهوم فتح الطريق أمام التعددية في المسيحية^(١).

٣ - الفلسفة في مواقع الهجوم العقلي، والكنيسة في موقع الدفاع بسيف الردة.

تالت قرارات تحريم قراءة كتب أرسطو منذ العام (١٢١٠م/٦٠٦هـ)، وانتهى الأمر - بعد أكثر من نصف قرن بقليل - بالطلب من المتقدمين لنيل درجة في الآداب في جامعة باريس بدراسة جميع مؤلفات أرسطو دراسة وافية شاملة^(٢).

لم يكن هذا السماح لقناعة بإعطاء الفكر حريته، بقدر ما كان الأمر الواقع يفرض نفسه على الكنيسة. فها هي مجدداً منعت تدريس كتب أرسطو، ومنها كتاب الميتافيزيقيا. وأصدرت فرماناً يدين بحمل التعاليم الرشدية في العام (١٢٧٠م/٦٦٨هـ)^(٣). وعلى الرغم من المنع فقد ازدهر التفكير الديني الحر، واندفع معظم عمال الصناعة ورجال التجارة والمال والمحامين وأساتذة الجامعات في تيار المتشككين^(٤).

فهذا، على سبيل المثال، بطرس الأبانوي *Peter of Abano* (١٢٥٠ - ١٣١٦م/٦٤٧ - ٧١٥هـ) يحاول أن يوفق بين النظريات الطبيعية والفلسفية، فيتهمه رجال محاكم التفتيش بالإلحاد؛ فينجو بأكثر من وسيلة، إلى أن حظيت المحكمة بحجته في القبر فأمرت بإحراقها^(٥).

(١) م. ن. : ص ص ٢٥ - ٢٧.

(٢) ديورانت، ول : (١٧م) : ص ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) زيناتي، جورج : م. س. : ص ١٧.

(٤) ديورانت، ول : (١٧م) : ص ١٠٦.

(٥) م. ن. : ص ١٠٧.

واستمر الصراع من دون توقف، ويزداد العقل إصراراً على أن يأخذ دوره، وتزداد الكنيسة إصراراً على قمع العقل من أن يأخذ هذا الدور. فبعد مقررات مجمع ترانت في العام (١٥٤٥م / ٩٥٢هـ)، وتطور أعمال محكمة التفتيش، أصبحت الدراسات العلمية عملية شاقة وخطرة بصورة متزايدة. ولم تستطع حتى البروتستانتية أن تؤيد العلم لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم^(١).

كانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة في العالم المسيحي بأسره: الكاثوليك والبروتستانت. ففي العام (١٥٧١م / ٩٧٨هـ) شكّلت الكنيسة لجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة لحماية المؤمنين من الكتب التي تُعدّ مسيئة للكنيسة. ولم تكن الرقابة البروتستانتية أقل شدة^(٢).

لم يكن، بالإجمال، القرن ١٦م / ١٠هـ بالزمان الصالح للفلسفة، فقد استغرق اللاهوت المفكرين النشيطين، وسير الإيمان العقل في ركابه بعد أن سيطر على كل شيء. ورفض لوثر العقل لأنه ينزع بصاحبه إلى الكفر^(٣).

وعلى الرغم من ذلك، وعندما بدأت المعرفة تنتشر في الحقول العلمية، لم تعد القضية - في القرن ١٦م / ١٠هـ - في نظر الفلاسفة الأوروبيين قضية كثرية ضد بروتستانتية، بل قضية المسيحية نفسها: قضية الشك والرفض والإنكار لأعزّ الأساسيات في العقيدة القديمة. ولم يعد مفكرو أوروبا - وهم طلائع العقل الأوروبي - يناقشون سلطة البابا، بل كانوا يناقشون وجود الله^(٤).

إن مبدأ المحاكمة العقلية، أو تكوين رأي خاص، هو المبدأ الذي اتهمته الكنيسة الكاثوليكية، وأقرته البروتستانتية. وهو المبدأ ذاته الذي قوّض، أخيراً، أركان العقيدة. لقد تقاتلت الشيع المتزايدة وفضحت بعضها بعضاً، وتركت الديانة عارية في مهبّ ريح العقلانية؛ وهكذا أنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان^(٥). وقام بهذه الخطوة - في العصور اللاحقة - صفوة من الفلاسفة الأوروبيين. وهكذا بعد أن كانت خاضعة لسلطة الدين، أصبحت الفلسفة - منذ القرن ١٦م - زمنية جريئة تجهر بتشككها^(٦).

(١) م. ن. : (٢٧م) : ص ١١٥.

(٢) م. ن. : (٢٨م) : ص ٢٣٠.

(٣) م. ن. : (٢٧م) : ص ١٧١.

(٤) م. ن. : (٣٠م) : ص ٢٨٣.

(٥) م. ن. : ص ٢٨٤.

(٦) م. ن. : (٢٢م) : ص ٣٧.

VI - الغرب المسيحي يجتاز مسافة الردة، فينال العقل الأوروبي استقلاله.

١- العقل الأوروبي يتقدم لحيازة موقع التوازن مع اللاهوت.

حتى وإن كانت الحضارة الفكرية العالمية سلسلة متصلة الحلقات، يني فيها اللاحق على السابق، فتسارع الخطي باتجاه التغيير؛ إلا أن العقل، أحياناً، وبسبب من امتلاكه المقدرة على اكتشاف الحقائق منفرداً، مستنداً إلى ما يحيط به من وقائع محسوسة، ينظر إليها بعقل الناقد المبدع، فيستطيع السباحة في بحر الواقع البشري الملموس، فيعمل على وضع تصورات لتطويره بمحاكمة عقلية سليمة.

فاستباقاً لعصر النهضة والإصلاح الديني وعصر التنوير الفلسفي، هذا ماسكوت الإيرلندي يُولف - بين العامين ٨٦٢ و ٨٦٦م / ٢٤٧ و ٢٥١هـ - كتابه "أقسام الطبيعة". ولأول مرة يطالب فيها فيلسوف أوروبي بحق العقل بقوة^(١).

وتتوالى على الفكر الأوروبي عوامل التطوير والتغيير في مواجهة ما كان سائداً من مسلّمات دينية وغير دينية تستند إلى الإيمان بالمستور الذي كان يسيطر على الأذهان؛ هذا الإيمان الذي كان يفسّر كل حدث شاذ بأنه ليس إلا تدبيراً من الله أو من الشيطان؛ كان ذلك مسيطراً إلى الدرجة التي شارك فيها شخص مثل لوثر عامة الناس في نسبة معظم الأمراض إلى الأرواح الشريرة^(٢).

لم يكن المؤمنون يصدقون بأن هناك نظريات، أو وقائع علمية يمكن أن تحصل في الكون من دون إرجاع أسبابها إلى قوى الغيب.

(١) حاطوم ، نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا (ج ١) : م . س : ص ٢٩٢.

(٢) ديورانت ، ول : (٢٧٣) : م . س : ص ١١٥.

- ولما طلع كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣م/٨٧٧ - ٩٥٠هـ) بنظرته حول أن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض، وإن الأرض تدور حول الشمس، فقد لاقى معارضة شديدة من الإصلاحيين مثل لوثر الذي قال عنه: "هذا الأحق يريد أن يقلب نظام الفلك... ولكن الكتاب المقدس يُنبؤنا بأن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تقف". وقال كالفن: "فمن يجرؤ على ترجيح شهادة كوبرنيك على شهادة الروح القدس؟"^(١).

لقد كانت ثورة كوبرنيك أشدّ عمقاً من حركة الإصلاح البروتستانتي؛ وكانت أقوى تحدّ في تاريخ الدين. إنها جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية تبدو تافهة^(٢).

- وابتدأ عصر العقل مع فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢١م/٩٦٨ - ١٠٣٠هـ)، الذي دعا إلى تعليم عام متحرّر يشمل الأدب والفلسفة، لأنه يهيء للوصول إلى حكم سليم على الغايات التي تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمي^(٣). ودعا، أيضاً، إلى التجديد الكبير في صياغة منهج التعليم. وأحسّ بأن المنهج القديم - عند أرسطو - قد أبقى العلم راكداً بتوكيده على الفكر النظري أكثر منه على الملاحظة. أما منهج بيكون الجديد فيقوم عن طريق الخبرة والتجربة؛ فيمهد بثورته الاستقرائية، ويضع مفتاح التجريبية في يد هوبز، ولوك، و مل، و سبنسر^(٤).

ويدعو بيكون إلى أن نكتسح من أفكارنا المعتقدات والتعاليم التقليدية السائدة - الحيل المنطقية والحماقات اللفظية للتفكير الغامض - إلى طريق الملاحظة أو التجربة، وليست الملاحظة العابرة، ولكن الخبرة المطلوبة للتجربة^(٥).

- ماريانا (١٥٣٦ - ١٦٢٤م/٩٤٢ - ١٠٣٣هـ): توافق مع ثورة بيكون في المنهج العلمي، وأسّس لثورة في المنهج السياسي. فهو على الرغم من تأييده للملكية، فقد أجاز استخدام القيود لها. ولهذا يقول بأنه على الملك أن يكون مقيّداً بالقانون والضوابط الدينية والأخلاقية؛ ويحقّ للشعب أن يعزله إذا طغى. وعلى الملك أن لا يقرّر شيئاً بشأن الدين، وإنما عليه أن يحمي ديانة البلد الذي يحكمه^(٦). ويجوز - عنده - أن يُعزّل الطاغية، أو يُقتل في بعض الظروف^(٧).

(١) م. ن : ص ١٣٠.

(٢) م. ن : ص ١٣٩.

(٣) م. ن : (٢٨م) : ص ٢٦١.

(٤) م. ن : ص ٢٦٢.

(٥) م. ن : ص ٢٦٣.

(٦) م. ن : (٣٠م) : ص ٣٠٦.

(٧) م. ن : ص ٣٠٧.

- غاليليه (١٥٥٨ - ١٦٤٨ م / ٠٦٥ - ١٠٥٨ هـ). لقد انتشر السحر، بشكل واسع، في عصره؛ وازداد اهتمام السلطات المدنية والدينية في سبيل مكافحته، لذا عمدت إلى أقصى الإجراءات في محاكمة المتهمين وتعذيبهم لتنتزع منهم الاعترافات. وكانت تُستخدم مجموعة خاصة من آلات التعذيب، ومنها آلة الضغط على الإبهام، التي وصفها بعض رجال الدين: أنه بواسطة هذه الآلة يحنُّ الله علينا بكرمه بإظهار الحق^(١).

كانت، في عهده، الرقابة على المطبوعات عامة شاملة؛ فقد شكَّلت الكنيسة، في العام (١٥٧١ م / ٩٧٨ هـ) لجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة، وذلك لحماية المؤمنين من الكتب التي تُعدُّ مسيئة للكنيسة، ولم تقصُر الرقابة البروتستانتية عن أن تلعب الدور ذاته^(٢).

إستند غاليليه إلى كوبرنيك؛ فهو يرى أن الكتاب المقلَّس يتطلب تفسيراً يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ، فكتب قائلاً: "أعتقد أن العمليات الطبيعية التي ندرکها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة، أو نستنتجها بالدليل المقنع، لا يمكن دحضها بآيات من الكتاب المقلَّس"^(٣).

وقال، أيضاً، بعد أن رفض أن يصرح بأن رأي كوبرنيك هو مجرد فرضية، كشرط لرفع تهمة الهرطقة عن نفسه: "إنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا، أو تثبت لنا البراهين الضرورية، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى الكتاب المقلَّس"^(٤).

وأضاف: "إنني لا أشعر بأني مضطر للإيمان بأن الله الذي أمدنا بالإحساس والعقل والفكر، قصد بنا أن نضيّع فرصة استخدامها والانتفاع بها"^(٥).

نتيجة لأفكاره، أُحيلَ غاليليه إلى محكمة التفتيش في العام (١٦٣١ م / ١٠٤٠ هـ)؛ وأدين بالهرطقة والتمرد والعصيان. فتمراً من نظرية كوبرنيك، فلم يصادق البابا، عندئذ، على حكم المحكمة^(٦). إلا أن غاليليه، في الواقع، لم يُهزَم. وعلى العكس من ذلك لأن كتابه انتشر في كل أنحاء أوروبا في أكثر من عشر لغات تُرجم إليها^(٧).

- وهذا، أيضاً، فيلسوف آخر يدفع حياته على مذبح العقل. لقد كان كوبرنيك قد وسَّع الكون؛ فمن ذا الذي يمكن أن يوسَّع الله - يقول ديورانت - لقد فعل جيوردانو برونو (١٥٤٨ -

(١) م . ن : ص ٢٢٥.

(٢) م . ن : ص ٢٣٠.

(٣) م . ن : ص ٢٧٣.

(٤) م . ن : ص ٢٧٤.

(٥) م . ن : ص ٢٧٥.

(٦) م . ن : ص ٢٧٩.

(٧) م . ن : ص ٢٨٠.

١٦٠٠م / ٩٥٥ - ١٠٠٨هـ) ذلك. يقول برونو: لما كان الكون لانهائياً، فإنه لا يمكن أن يكون هناك لانهايان؛ فإذاً يكون الله اللانهائي، والكون اللانهائي شيئاً واحداً^(١).

أُحيل برونو إلى محكمة التفتيش في العام (١٥٩٢م / ١٠٠٠هـ)، واتُّهم بالهرطقة؛ وعندما أصرَّ على موقفه الفكري حُكِمَ عليه، وجُرِّد من ثيابه، ورُبط لسانه، وشُدَّ إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب، وأُحرق حياً على مشهد من جمع غفير. لكنه، في العام (١٨٨٩م / ١٣٠٦هـ)، أُقيم له تمثال، جُمِعَت له التبرعات من مختلف أنحاء الدنيا^(٢).

وما أن يُطلَّ القرن ١٧م / ١١هـ، حتى تفقز الفلسفة قفزات نوعية أخرى. فقد جاء دور:

- رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠ / ١٠٠٤ - ٦٠هـ) الذي طرح مبدأ الشك في كل شيء. فأحدث ثورة كبيرة في التفكير، وقال تعبيراً عن شكِّه: "أنا أفكر، فإذاً أنا موجود". وتعدُّ هذه أشهر عبارة في الفلسفة، ولم يقصد بها ديكارت أن تكون قياساً منطقياً، بل بحيرة مباشرة لا سبيل إلى إنكارها.

إستند ديكارت، عندما حدَّد منهجه الجديد في الفلسفة، إلى أن يحلَّل الأفكار المركَّبة إلى مكوناتها حتى تصبح العناصر الغير قابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جليَّة^(٣).

لم يأت الهجوم عليه من الكنيسة الكاثوليكية، بل من رجال اللاهوت الكالفينيين، فقد علَّوا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تُسيء إلى القضاء والقدر^(٤).

حرَّر ديكارت الفلسفة من أغلال الزمن، وأطلقها لتبحر في جرأة وشجاعة في بحر مكشوف. وليس معنى ذلك بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل، فإن التقاليد والأسفار المقدَّسة كانت أكثر ثباتاً وقوَّة^(٥).

لقد أخذت المناظرة الكبرى بين العقل والإيمان، تتخذ شكلاً واعياً^(٦). فقد وجدت الديكارتية نفسها منتشرة، في أواخر القرن ١٧م / ١١هـ، في أوساط مثقفة واسعة؛ وعلمت بعض الطوائف الدينية فلسفة ديكارت في مدارسها، على أساس إخضاعها للوحي الإلهي كما فسَّره الكنيسة الكاثوليكية.

(١) م . ن : ص ٢٩٦.

(٢) م . ن : ص ٣٠٠.

(٣) م . ن : ص ٣٢٥.

(٤) م . ن : ص ٣٣٢.

(٥) م . ن : ص ٣٣٤.

(٦) م . ن : ص ٣٣٦.

تقبلها البعض على أساس أنها توفيق رائع بين الدين والفلسفة؛ أما البعض الآخر فقد عدّها وسيلة مأكرة لتقويض أركان العقيدة الدينية. وتراجعت جامعة السوربون عن قرارها حرمان ديكارت من حماية القانون بعد أن تصدّى لها عدد من المفكرين بالنقد.

وفي العام (١٦٦٥م/١٠٧٥هـ) حرّم لويس الرابع عشر - ملك فرنسا - تدريس الفلسفة في الكلية الملكية. وفي العام (١٦٧١م/١٠٨١هـ) حظّر تدريسها في جامعة باريس^(١).

وبدا أن كل اكتشاف جديد في العلوم يؤيّد "آلية" ديكارت، ويضعف الثقة في اللاهوت؛ ولم يوجد مكان لرب إبراهيم وإسحق ويعقوب في الصورة التي وضعها ديكارت للكون. كما أن المسيح لم يكن ماثلاً فيها أيضاً. ولم يبق فيها إلا رب عملاق أعطى العالم دفعة أوليّة^(٢). ومن شك ديكارت في فرنسا، بذلت الفلسفة جهداً لتحل مكان العقيدة الدينية مع سبينوزا الإنجليزي.

- سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م/١٠٤١ - ١٠٨٨هـ). وهو الذي بذل أجراً محاولة في التاريخ الحديث، للعثور على فلسفة يمكن أن تحل محل عقيدة دينية^(٣).

رفع سبينوزا من مقام المعرفة العقلية، المؤسسة على العقل، فوق النظام الأدنى للمعرفة المستمدة من الحواس، وقلّل من الدور الذي تلعبه التجربة.

وصف سبينوزا إدراك الحقيقة، أو حلّس العقل، بأنه أسّى غمط للمعرفة العقلية. وقد فعل الكثير لترويج تطوير الإلحاد والتفكير الحر، العلمي منه والديني. ونادى بأن غرض الدين ليس فهم الأشياء بل مجرد المبادئ الأخلاقية السامية. وفي هذا يكمن السبب في أنه لا ينبغي للدين أو الدولة المساس بحرية الفكر. وهولا يعبّد الملكية، بل الحكومة الديمقراطية أسّى شكل للسلطة^(٤).

تعرّض سبينوزا للضغط من حالته اليهودية، في أمستردام - هولندا، في سبيل أن يتراجع عن مواقف المهرطقة ضد المسيحية واليهودية معاً، خوفاً من أن تفقد هذه الجالية نعمة التسامح الديني الذي أنكرته عليهم سائر الأقطار المسيحية باستثناء هولندا^(٥). ولما لم يرتدع أصدروا في حقه عقوبات دينية، وجرت محاولة لقتله^(٦).

(١) م. ن. : (٣٤م) : ص ٧٥.

(٢) م. ن. : ص ٧٦.

(٣) م. ن. : ص ١٠٥.

(٤) م. روزنتال (و.ي. يودين : م. س. : ص ٢٤٣.

(٥) ديورانت ، ول : (٣٤م) : ص ١٠٧.

(٦) م. ن. : ص ١٠٨.

٢ - العقل الأوروبي يكسب الجولة (تقدّم العقل الفلسفي والنحسار تأثير سيف الردة).

تُعَدُّ محطات التغيير عبر التاريخ متباعدة جداً، إذا ما قيسَت مع حياة الإنسان القصيرة. إن ما نتكلم عنه في صفحات قليلة إنما هو عصارة القرون، وليس الأجيال أو السنين القصار. وتفصل بين محطة وأخرى من محطات التغيير في أوروبا - أي نتائج الصراع بين العقل والنقل - قرن، وأحياناً، قرون من الزمن.

بعد انتصار المسيحية على الوثنية، مرّت قرون عديدة سيطر فيها النقل/الوحي السماوي على ثقافات الشعوب الأوروبية، عقيدة وسلوكاً ونظماً سياسياً ودينياً واقتصادياً؛ فوصلت المسيحية في أوروبا - عبر نظامها الكنسي - إلى حدود استلام زمام الأمور الدينية والدينية لقرون عديدة من تاريخ أوروبا. ووصلت الأمور إلى أن أصبح بابا روما زعيماً روحياً وزمنياً على أوروبا بكاملها. ثم انتقل التاريخ الأوروبي إلى مرحلة تقاسم السلطة - ولو بشكل نسبي وبالتدريج - بين الملك الزمني والبابا الروحي.

لم يدم التوافق طويلاً بين الملوك والباباوات في أوروبا حول اقتسام السلطة وتوزيع غنائمها بينهما؛ فلعبت المصالح السياسية والاقتصادية دورها في التمهيد لتفسيخ هذا الحلف، ومن ثم دخل طرف ثالث، متميّز بالفكر والمصلحة عنهما في آن واحد، لكي يعلن الحرب عليهما معاً، فكان هذا الطرف متمثلاً بالفكر الفلسفي. وراح هذا الطرف يعمل حفراً في البنى الثقافية الموروثة، ومن أهمها الثقافة الدينية، فكان من أشد تأثيراته أنه بدأ يحفر في أذهان وطرائق التفكير عند أهل الكنيسة ورجالاتها.

ولأنه كان للحركة الفكرية الجديدة صوت صدى رنّ في أوساط النخب المثقفة وفي الأوساط الشعبية على حد سواء، سارع طرفا التحالف التقليدي، البابوي - الملكي، إلى تنسيق الجهود في سبيل مقاومة الخصم الجديد والقضاء عليه. فيصبح هذا الخصم في دائرة الملاحقة والمطاردة، ويصبح رأسه مطلوباً بالحاح من قبل السلطين الدينية والزمنية.

إستخدمت السلطان أساليب الإكراه النفسي تارة، والتعذيب الجسدي تارة أخرى. فكانت محاكم التفتيش المرعبة أداة لاقتحام أسوار المتعقلين والعمل على إكراههم على الإيمان حسب إرادة الكنيسة؛ وكانت الكنيسة في حملتها تلك كثيراً ما أكلت من أبنائها الذين حاولوا الدفاع عنها بسلاح العقل والنظر الفلسفي.

كانت ردّات فعل العقل تظهر بمظهر المتصالح مع مسلّمات الإيمان الديني أحياناً، فيُستخدَم العقل في ميادين البرهنة على صحة مسلّمات النص والنقل؛ وأحياناً أخرى يُرفضُ العقل على الإطلاق حتى ولو كان خادماً أميناً في بلاط النص. وتارة كان العقل يتمرد على سلطة النص والنقل فيشطّح باتجاهات الإلغاء الكلي لمسلّمات الإيمان، ويَتَوَجَّح فيه العقل ملكاً يسيطر على كل ما عداه.

وصلت نتائج الحراك العقلي والنقلي - كما نحسب - إلى مصالحة أخيرة، أي أن يعترف كل من المتصارعين، ولو على كره منهما، بدور الآخر. فتنتقل المباراة إلى ملعب الحوار الهاديء الواقعي البعيد عن الترهيب والترغيب والإلغاء - ولو بشكل نسبي - بحيث يمارس العقل حريته، ويمارس الإيمان حريته، لكن من دون أن يتجاوز الطرفان حدود التعقل إلى المبالغة والتعصب...

حصل، في خلال القرن ١٨م/١٢هـ، تطوران مهمّان:

- إنهيار النظام الإقطاعي القديم.

- الانهيار الوشيك للدين المسيحي الذي أضفى على النظام الإقطاعي سنده الروحي

والاجتماعي...

فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة، وبدأ أن سقوط الواحد يجرُ الآخر إلى مأساة مشتركة^(١). فتلقّفت كل من إنجلترا وفرنسا - بشكل أساسي ورائد - هذين التطورين.

أ - ماذا حصل في إنجلترا؟

لعبت إنجلترا الفصل الأول في ناحيتي التغيير. وسبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ - ١٦٤٩م/ ١٠٥٢ - ١٠٥٩هـ) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاماً في خلع الأرستوقراطية الإقطاعية. أما في مجال الدين، فقد سبق نقد الربوبيين للمسيحية الحملة الفولتيرية في فرنسا بنصف قرن. وبعد أن عاش فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م/ ١١٠٥ - ١١٩٢هـ) ثلاث سنوات في إنجلترا، من ١٧٢٦م إلى ١٧٢٨م، رأى أن الكاثوليكية قد ذلّت، والبروتستانتية قد تفرّقت شيئاً مُستضعفاً، والربوبيون يتحلّون كل شيء في المسيحية إلا الإيمان بالله، قال: "في فرنسا ينظر الناس إليّ على أنني مُقلّ في الدين، وفي إنجلترا على أنني مسرف فيه"^(٢).

(١) ديورانت، ول : (٣٥م) : ص ١٦٧.

(٢) م . ن : ص ١٦٧.

يقول أحد اللوردات الإنجليز عن الحالة التي وصلت إليها المسيحية في العام (١٧١٨م/ ١١٣٠هـ): "إن خرافة المسيحية هذه... قد نسفت الآن في إنجلترا، حتى ليكاد أي رجل عصري... ينجل من الاعتراف بمسيحيته... وحتى النساء كن يفخرن... على أن يفهمن الناس أن الميول المسيحية هي ما يحتقرن الالتزام به"^(١).

كان كل الإنجليز ملزمين بالعبادة الأنجليكانية حسب نص القانون. وتفرض غرامات على أي متخلف. وكانت العبادة الكاثوليكية مُحَرَّمَةً قانوناً تحت طائلة العقوبات التي تصل إلى حدود النفي عن لندن، وصولاً إلى النفي خارج إنجلترا^(٢).

أما البروتستانت فكانوا مشتبين طوائف عدَّة. ويصف فولتير المشهد الديني في إنجلترا قائلاً: "أنظر إلى بورصة الأوراق الملكية في لندن... هناك يجري اليهودي والمسلم والمسيحي معاملاتهم معاً وكأنهم من دين واحد، ولا ينعنون بالكفر غير المفلسين"^(٣).

أما العوامل التي تضافرت على تقويض صرح العقيدة المسيحية في إنجلترا فهي التالية: ازدياد الثروة - دولية الأفكار بفضل التجارة والسفر - الإلمام المتزايد بالأديان والشعوب غير المسيحية - تكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها - تطور العلم - الدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس - كف الدولة عن رقابة المطبوعات - مكانة العقل الصاعدة - المحاولات الجديدة للفلسفة في تفسير العالم والإنسان تفسيرات طبيعية - حملة الربوبيين لاختزال الكنيسة إلى مجرد الإيمان بالله والخلود^(٤).

ومن أمثلة الهجوم على اللاهوت، ما قاله الفيلسوف الإنجليزي ماثيو تالداي في العام (١٧٣٠م/ ١١٤٢هـ): "لِمَ أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود، وجعله حكراً عليهم أربعة آلاف سنة؟ ثم أرسل إليهم ابنه بوحى آخر ما زال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرأ على أقلية من الجنس البشري. وأي آله رهيب هذا الذي عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا؟. ولِمَ استخدم الكهنة وسطاء له بدلاً من أن يتحدث مباشرة إلى نفس كل إنسان؟ ولمَ سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد وإرهاب؟. إن الوحي الحقيقي موجود في الطبيعة ذاتها، وفي عقل الإنسان المنروح من الله"^(٥).

(١) م . ن : ص ١٦٨.

(٢) م . ن : ص ١٧٠.

(٣) م . ن : ص ١٧١.

(٤) م . ن : ص ١٧٢.

(٥) م . ن : ص ١٧٤.

لم تمر الردة في إنجلترا من دون أن تجد من يواجهها من رجال الدين الحجة بالحجة. إلا أن كثيراً من رجال الكنيسة أشاروا بالكف عن هذا الجدل. وقد صدر في العام (١٧٤٢م/ ١١٥٥هـ) كتاب هنري دوديل " المسيحية دون أساس من الجدل"، يرفض فيه الجدل العقلي في المسائل الروحية، لأنه لا يهدي إلى الحقيقة، وأقل من ذلك إلى السعادة^(١).

ب - ماذا حصل في فرنسا ؟

كان تعريف الفلسفة، في النصف الأول من القرن ١٨م/ ١٢هـ، في فرنسا ملتبساً كمفهوم معادٍ للمسيحية؛ وإن كثيرون من فلاسفتها كانوا معادين للمسيحية كما عرفوها. إلا أنه ينبغي أن نأخذ بعين الواقع أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله، ومع ذلك - كقولتيير مثلاً - كان يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله^(٢).

لم يكن الجدل مجرد صراع بين الدين والفلسفة؛ بل كان في فرنسا - في ذلك العصر - بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي غيضاً مكتوماً، إنه الغيظ المكظوم في قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جرأء ما لطّخت به الديانة سجلها من الوقوف في وجه التقدم، والمعرفة، والاضطهادات، والمذابح.

كان الفلاسفة الفرنسيون نتاجاً جديداً: كانوا، قبل كل شيء، واضحين. ولم يكونوا جماعة منعزلة داخل فئة معينة من الناس. كانوا أدباء عرفوا كيف تتألف الأفكار والآراء في الألفاظ؛ وولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقيا، ونحو طرائق الفلسفة؛ فلم يكتبوا أبحاثاً مطوّلة معقّدة، بل كتبوا في موضوعات قصيرة، ومحاورات مسئّية^(٣). ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة.

أصبح الإيمان بالعقل، الذي نادى به فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن، أساس الفكر المتحرر: أي من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة؛ وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان؛ وعرض إصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والاقتصاد والحكومة^(٤).

أصبح في فرنسا، في النصف الثاني من القرن ١٨م/ ١٢هـ، في مقدور الإنسان أن يحرّر نفسه من معتقدات القرون الوسطى؛ كما أصبح قي مقدوره أن يهزّ كتفيه استخفافاً

(١) م . ن : ص ١٨٢.

(٢) م . ن : (٣٨٨) : ص ١.

(٣) م . ن : ص ٢.

(٤) م . ن : ص ٣.

باللاهوت المربك المرعب، حرّاً في أن يشك، وفي أن يحقق ويدقق؛ حرّاً في أن يفكر ويجمع ألوان المعرفة وينشرها؛ حرّاً في أن يقيم دنيا جديدة حول مذبح العقل لخدمة البشر^(١).

فكيف كانت حال الكنيسة في خلال القرن ١٨م/١٧٢هـ؟

كانت الكنيسة قوية تملك نصيباً كبيراً من الثروة الوطنية؛ وتستنزف مزيداً من الثروة من أيدي العلمانيين - لاتدفع الضرائب - تسرق آلاف الفلاحين - إستكرت، على أنها هرطقة، كل تعليم يتعارض مع تعاليمها، واستغلت الدولة في فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة، وبذلت غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا. وارتكبت الحملات الوحشية، وارتكبت المذابح؛ وفوق هذا كله حملت الملايين من ذوي العقول الساذجة على الاعتقاد أنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة، وأنها ورثت وحيّاً آلهياً، وأنها تمثل الله على الأرض الملهم المعصوم عن الخطأ، وأن جرائمها كانت بإرادة الله، مثل حسناتها.

تخطى الفكر الفرنسي المتحرر الإصلاح الديني، وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوروبية إلى عصر الاستنارة؛ فالذهن الفرنسي لم ينعطف بثورته إلى البروتستانت، بل انعطف مباشرة إلى ديكارت^(٢).

في هذا يقول الماركيز دارجنسون في العام (١٧٥٣م/١١٦٦هـ): ستكون الثورة في فرنسا شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن الإصلاح الديني، الذي جاءنا من ألمانيا بخليط مشوش من الخرافة والحرية؛ بل إن فرنسا استنارت بطريقة متباينة: ستطرد رجال الدين، وتلغي مهنة القساوسة، وتتخلص من كل الوحي، وكل الأسرار الغامضة؛ فلا يتحدث المرء في مصلحة رجال الدين، ولا يسألهم، وإلا كان موضع سخرية واستهزاء، وعُدَّ جاسوساً لمحاكم التفتيش^(٣).

إعترف ديلرو في العام (١٧٤٧م/١١٦٠هـ) بخدمات الكنيسة في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، لكنه في المقابل رأى انه على حين تنهي عن الجرائم البسيطة تبعث على اقتراف الجرائم الكبيرة، فهو يقول: "سيأتي، عاجلاً أم آجلاً، الوقت الذي نرى فيه أن نفس العقيدة التي حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد تكون سبباً في قتل ألف شخص.

(١) م . ن : ص ٤ .

(٢) م . ن : ص ص ٥ - ٦ .

(٣) م . ن : ص ص ٧ - ٨ .

تعويض رائج III؛ ويتابع قائلاً: "الناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والآله الذي لا يرونه". لكن ديدرو نفسه يقول: "بأن الإيمان بوجود الله سيقى" (١).

- فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م / ١١٠٥ - ١١٩٢ هـ). كان رجال الدين الكاثوليك في أيامه يتمتعون بسلطة مطلقة؛ بحيث يُحرّم على أي بروتستانتي أن يتولّى أية مهنة، حتى أن يكون خادماً؛ فحصلت حوادث قتل كثيرة لغير الكاثوليك في خلال القرن ١٨ م. وهذا ما أثار الغضب عند فولتير الذي صرخ قائلاً: "إسحقوا العار".

حرك فولتير فرنسا ضد مظالم الكنيسة، ودعا أصدقاءه قائلاً: "وحدوا أنفسكم، واقهروا التعصب والأوغاد، واقضوا على الخطب المضلّة والسفسطة المخزية، والتاريخ الكاذب... لا تتركوا الجاهل يُخضع العلم، سيدين لنا الجيل الجديد بعقله وحرية".

عرضت الكنيسة عليه قبعة كاردينال في محاولة للوصول معه إلى تسوية. فرفض العرض، وأوقف رسائله التي كانت تصدر تحت عنوان "إسحقوا العار"؛ وبدأ في توزيع رسالته عن التسامح الديني، وقال: إنه ما كان ليهم لو اقتصر رجال الدين على إقامة شعائرهم، وتسامحوا مع الذين يختلفون عنهم في المذهب؛ وإن موقفهم المتعصب الذي لا نجد له أثراً في الإنجيل هو مصدر النزاع الدامي في التاريخ المسيحي. وأردف قائلاً، ومنتقداً طريقة الدعوة للإيمان: "إن الإنسان الذي يقول لي آمن كما أؤمن أنا وإلا فإن الله سيعاقبك، سيقول لي الآن آمن كما أؤمن وإلا سأغتالك" (٢).

فإلى جانب ما أبداه الفلاسفة الفرنسيون من حرارة في الدفاع عن دور العقل في قيادة موكب المعرفة، لم يقف رجال الدين مكتوفي الأيدي في الرد على موجة العقل التي توسّع انتشارها. وحول ذلك سننقل بعض الوقائع ذات الدلالة.

- نُشِرَ في فرنسا بين العامين (١٧٠٥ و ١٧٨٩ م / ١١١٧ و ١٢٠٣ هـ) نحو من تسعمائة كتاب دفاعاً عن المسيحية (٣).

(١) م. د. : ص ٧٤.

(٢) ديورانت ، ول: قصة الفلسفة: مكتبة للعارف: بيروت: ١٩٨٥: ط ٥: (تعريب فتح الله المشعشع): ص ٢٩٤-٢٩٦.

(٣) ديورانت ، ول : (٣٨٨) : م. د. : ص ٢١٩.

- في القرن ١٨م/١٢هـ، وفي فرنسا، كان غليوم برتنيه هو أرق شخصية في المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين. فلم يُسلم بالحقيقة المطلقة للعقل، لأن السعي في سبيل إخضاع الكون، أو معتقدات الناس التقليدية هو فهمها^(١).

- قال كاترين فريرون - أقدر خصوم الفلسفة وأشجعهم - : "أليس التعصب للكفر، وهدم الدين، أشد سخفاً وخطراً من التعصب للخرافة؟"^(٢).

كان فريرون ناقداً لاذعاً، فلم يدخر وسعاً في تحطيم غرور الفلاسفة الحساس، وجرح كبريائهم؛ وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لآرائهم^(٣).

- وصفت الأجواء الفكرية للصالونات في فرنسا في العام (١٧٦٥م/١١٧٨هـ) على لسان أحد المدافعين عن الكنيسة: "هناك آله واحد، وهناك ملك واحد يجب القضاء عليهما. والرجال والنساء جادون في تدميرهما. إنهم يظنونني ديناً لأن لدي بقية من إيمان... والفلاسفة لا يُطاقون، وهم سطحيون متطرسون متعصبون، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة، وهم يجهرون بالإلحاد"^(٤).

- تعبيراً عن واقع الارتداد عن الدين، يصف أحدهم الحال التي سادت، في النصف الثاني من القرن ١٨م، قائلاً: إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء، وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة؛ وتغاضى كل موظفي الإدارة - في جميع مصالح الحكومة - عن انتشارها وتداولها، أو قل إنهم رحبوا بهذا وذلك^(٥). ووصلت الحركة الجديدة، في باريس، إلى كل طبقة؛ وكان عدااء العمال يزداد ضد الكنيسة، وكانت المقاهي قد طردت الرب منذ زمن بعيد^(٦). وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة^(٧).

يقول ديورانت عن المرحلة التي وصل العقل فيها إلى اكتساب دوره غير مسيرة طويلة ومريرة: "إننا مدينون لفلاسفة القرن ١٨م/١٢هـ، وربما للفلاسفة الأكثر عمقاً في القرن ١٧م -

(١) م . ن : ص ٢٢٣.

(٢) م . ن : ص ٢٢٧.

(٣) م . ن : ص ٢٢٨.

(٤) م . ن : ص ٢٥٨.

(٥) م . ن : ص ٢٥٧.

(٦) م . ن : ص ٢٥٨.

(٧) م . ن : ص ٢٥٧.

١١ هـ، بالحرية النسبية التي ننعم بها [في الغرب] في الفكر والكلام والعقائد... وبسببهم استطاعت ديانتنا [المسيحية] أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكثيرة، واللاهوت الذي يتهيج بالتعذيب... وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل، ولو مع شيء من اللوم" ^(١).

(١) م. ن. : ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

الفصل السادس

هل يمكن المقاربة بين الردة وعصرنا الحاضر ؟

تمهيد

من أين نبدأ ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين الميلادي، وقطعنا شوطاً من أوائل القرن الخامس عشر الهجري؟ ومن غير الجائز، وليس من الواقع في شيء، أن يسود منطق التناقض حول التساؤل التالي: هل أمتنا متخلفة، أم هي غير متخلفة؟

تعترف الأمة بالإجماع، أن الأمة متخلفة - عربية كانت أم إسلامية - ويتأيد هذا الاعتراف بأقوال كل أبنائها، نقليون وعقليون؛ مؤمنون - متدينون وعلمانيون؛ نخبويون وعاميون...

وهل تعترف الأمة أنه من الواجب أن تنتقل إلى مصاف الشعوب المتقدمة أم لا؟ ومرة أخرى تعترف الأمة أن الواجب يقضي بضرورة أن تتقدم. فالأمة متخلفة، وقدرها - بإرادة أبنائها - أن تتقدم، ولكن كيف؟

من هنا تبدأ الإشكالية، ومن هنا يأخذ التناقض مداه بين آراء أبنائها. فكل خلافاً، إذاً، يدور حول علامة الاستفهام: "كيف؟" فأبناء الأمة متفقون حول تشخيص الواقع الراهن، لأنهم يقيمون فيه وبه ومعه، فالواقع شاخص واضح تحت السمع والبصر وكل الحواس الأخرى... وفي القلوب والعقول.

أما الخلاف فيدور حول تشخيص الماضي، كنقطة انطلاق لتشخيص الأمراض، من جهة؛ وعلى استشراف صورة المستقبل من جهة أخرى. فتشخيص الماضي له علاقة وثيقة بتشخيص المستقبل، لماذا؟

ينطلق النصوبيون/السلفيون من أن التخلف الحاصل كان نتيجة للابتعاد عن الدين - وتحديدًا الابتعاد عن سيرة السلف الصالح - فالشفاء من الأمراض لن يكون إلا بالعودة إلى تقليدهم تقليدًا صحيحًا؛ فصورة المستقبل عندهم مرتبطة بالعودة إلى الأصول السلفية التي أثبتت صلاحها لخير الأمة.

لم يُنقل الماضي بدقة وموضوعية، بل غلبت على نقله الأهواء المذهبية والسياسية والطبقية؛ فلم يبق منه إلا محطات رئيسة واضحة، ونتائج ملموسة مخيبة للآمال.

لقد نقلنا من الماضي، في خطابنا الراهن - وليس في بحثنا النقدي والموضوعي - الصورة المشرقة، مع أنه لا ريب في إشراق بعض الصورة. وكان النقل الخطابي ذا علاقة بمرحلة التحرر والاستقلال، فوضعت الصورة الماضية المشرقة في خدمة الخطاب التعبوي؛ وهذه مسألة في غاية الأهمية، إلا أنها ليست الأهمية كلها. فلو استمرت - وهي مستمرة حتى الآن - فإنها تتحول، بلا ريب، إلى أحلام وأوهام وسراب...

فلو كان الماضي مشرقًا، إلى الدرجة التي وصفه الخطاب التعبوي، لما كان من المنطقي أن تسود الحاضر أية مسحة من الظلام. فالتائج التي تحصدتها الأمة اليوم هي أوضح علامة تؤكد أن التاريخ الماضي لم يكن مشرقًا إلى الدرجة التي أوصله إليه الخطاب التعبوي.

فإذا كان للخطاب السياسي أو الديني أو السياسي - الديني أهدافه المرحلية، فإن البحث الرصين عليه أن يرى صورة التاريخ كما كانت بالفعل.

إمتنع بعض النخبويين - من أبناء الأمة - وانعكس امتناعهم تضليلاً على وعي الجماهير الواسعة، وهي إنفعالية يحكم طبيعتها الثقافية الموروثة، عن النظر إلى الجانب المظلم من الصورة، كرد فعل على ما شاب أبحاث عدد من المستشرقين الأجانب من ضلالات ذات استهدافات مسيئة لأمتنا. ولكن علينا أن لا ننسى أن المادة التي استخدمها المستشرقون حتى استطاعوا الوصول إلى النتائج المسيئة كانت مواداً أولية استخرجوها من عجين التاريخ الذي سجله مؤرخو تاريخنا، من جهة؛ ومن الثغرات الموجودة في جدراننا العقائدية - المذهبية، أو من تراثنا السياسي والطبقي والاجتماعي من جهة أخرى؛ فتسللوا منها في سبيل النيل منا...

أما الخلاف حول استشراف المستقبل، فلم يكن أقل حدة من الخلاف الدائر حول تشخيص جزء الصورة القائم، فبدا والحال كذلك - وهو صحيح كما نحسب - وكأن تقييم الماضي واستشراف المستقبل يرتبطان ارتباطاً جلياً.

أما نحن فنحسب أن العلاقة بين الماضي والمستقبل صحيحة، فأساس الخلاف يستند إلى افتراقات عقائدية: منها المذهبية الدينية، ومنها السياسية الطائفية، ومنها القطرية والقومية والأمية...

فالتاريخ، سواء كان في جوانبه العقائدية - الدينية، أو الأيديولوجية السياسية، خضع إلى أهواء هذه أو تلك من الفرق الدينية؛ أو هذا وذاك من المذاهب السياسية الفتوية؛ لذا أخذ كل اتجاه يغرف من التاريخ ما يُدعم اتجاهاته وأهوائه.

وكان من أخطر ما دار الخلاف حوله - ولا يزال مستمراً حتى الآن - هو البحث العقائدي الديني الإسلامي المذهبي، والذي أسبغ عليه كل فريق صفة القدسية... فكما فرّخ هذا الخلاف وتفرّع في الماضي، جاء الحاضر الراهن ليشهد استمرار التفريخ والتفريع...

إصطدمت كل دعوات التجديد، والبحث عن أسباب التخلف، بموجات التقديس للماضي - تاريخاً وعقائد - فأصبح المستقبل مرتبطاً بعودة المقدس ولا شيء غير ذلك. ولهذا قُمِعَت كل اتجاهات التجديد بفتاوى الاتهام بالردة. فما زالت الردة - حتى الآن - سلاحاً يمتشقّه الأصوليون كلما أعجزهم الرد على كل فكر جديد. فهل يمكن المقاربة بين مبدأ الردة وعصرنا الحاضر؟

١ - الضياع بين السلطة والمعارضة يسبق حركة التبشير بالإحياء الإسلامي.

١ - المذهبية في خدمة السلطان:

بعد أن انتصر المماليك (٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٦ م) على التار في معركة عين جالوت في العام (٦٩٠ هـ / ١٢٦٠ م)، وقضوا على آخر المعاقل الصليبية في الشرق في العام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م، جددوا الخلافة العباسية ليستمدوا شرعية حكمهم منها، لكن الخلفاء ظلوا هيكلية رمزية ضرورية لاستمرارية الدولة الإسلامية، بينما بقي الحكم، فعلياً، في أيدي الطبقة العسكرية الحاكمة في جميع الميادين^(١).

بايع السلطان المملوكي بيبرس في العام (٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م) الخليفة العباسي المنتصر بالله؛ وحكم باسمه، وبهذا أحاط عرش المماليك بالقداسة، وأصبحت سلطته شرعية، وخاصة عندما استبقى الخليفة في القاهرة. وهكذا أعيدت الخلافة العباسية، وعاشت في القاهرة طيلة حكم المماليك، لكنها كانت بلا حول ولا قوة ولا رأي في سياسة الأمور^(٢).

إنقسمت الدولة العباسية، في ذلك العهد، إلى دول رئيسة ثلاث: دولة المماليك في سوريا والعراق ومصر، ودولة المغول في إيران، ودولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى.

أصيب المغول بالحيرة إلى أي المذاهب الإسلامية ينتمون في سبيل تدعيم الموقع السياسي لدولتهم، فاختاروا المذهب السني في البداية، ثم انتقلوا إلى المذهب الشيعي، إلى أن استقر اختيارهم، أخيراً للمذهب السني.

(١) ضومط، انطوان خليل: الدولة المملوكية: دار الحديث: بيروت: ١٩٨٢: ط٢: ص٧.

(٢) شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج٥): مكتبة النهضة المصرية: القاهرة: ١٩٨٦: ط٧: صص ٢٤٤ - ٢٤٥.

أما الأتراك العثمانيون، فقد حاولوا تدعيم شرعية سلطتهم باختيار التيار الصوفي، إلى أن استقر اختيارهم، أخيراً للمذهب السني الحنفي.

أما الماليك فاعترفوا بالمذهب السني الأربعة مع ترجيحهم كفة المذهب الشافعي، فلماذا؟ بعد الانتصارات التي حققها الماليك عملوا على كسب تأييد النخب الدينية والفئات الشعبية لمواجهة التحديات العسكرية. ولما كانت المذاهب السنية الأربعة ممثلة للإسلام السني على المستوى الشعبي، احتضن الماليك المذاهب الأربعة؛ فذلك يعني احتضاناً للإسلام السني كله، وعلى المستويات كافة. ولأن الشافعية كانوا كثرة بين الناس، فقد احتفظ الماليك لهم ببعض الامتيازات بين القضاة الأربعة^(١).

إعترف بيبرس بالمذهب الحنبلي، وعيّن فم قاض أسوة بالمذاهب الأخرى؛ بيد أن الحنابلة، ممثلين بأهم أعلامهم أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)، إستشاروا نقمة المذاهب الأخرى بسبب ادعائهم أنهم الممثلون للعقيدة الخالصة الرشيدة، إلى أن دفعوه إلى المحاكمة، فصدرت بحقه عدة أحكام بالسجن^(٢).

ولكي يقنع الأحناف السلطان المملوكي بتحويل المذهب الحنفي إلى قانون للدولة، عمل الطرسوسي الحنفي في حوالي النصف الثاني من القرن ٨ هـ / القرن ١٤ م، وذلك عندما وضع رسالته المسماة "تحفة الترك"، والتي برهن فيها على شرعية سلطة الترك، إذ لم يشترط فيها أن يكون السلطان مجتهداً ولا قرشياً^(٣)، بينما الشافعية - كما يحسبون - تشترط في السلطان أن يكون مجتهداً وقرشياً^(٤)، إلا أنه في حقيقة الأمر، أجاز المارودي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ / ٩٧٤ - ١٠٥٨ م)، وهو شافعي، شرعية إمارة الاستيلاء بحجة "حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام المدنية"^(٥).

لم يكن يعني الماليك ما يجري من صراعات وخلافات بين المذاهب السنية الأربعة، بل كان جل ما يستحوذ على اهتمامهم هي تلك الفتاوى التي تصب في صالحهم - كمثل أموال الأيتام وإجازة الزكاة فيها كما تقول الشافعية، ويخالفهم الأحناف^(٦).

(١) السيد، رضوان: "الفقه والفقهاء والدولة" (١٢٩ - ١٥٩): مجلة الاجتهاد (العدد ٣): بيروت: ١٩٨٩: ص ٣٠.

(٢) بروكلمان، كارل: م. م. ص: ٣٧٠.

(٣) السيد، رضوان: "الفقه والفقهاء والدولة": م. م. ص: ١٤٠.

(٤) م. م. ن: ص ١٤٤.

(٥) م. م. ن: ص ١٤٥.

(٦) م. م. ن: ص ١٥٢.

ولا يرى الشافعية أيضاً توريث ذوي الأرحام، أي الأقرباء غير المباشرين، وفي ذلك مصلحة للدولة المملوكية حيث يحق لها أن تضع اليد على الأموال في مثل هذه الحالة. ولهذا السبب تولى الشافعية ديوان الأموال الحشرية^(١).

أما الدولة الصفوية، فتأسست في العام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) في بلاد فارس، وأعلن مؤسسها الشاه اسماعيل الصفوي التشيع ملهياً رسمياً للدولة^(٢). واستقر الأمر لها إلى نهاية العام (١١٤٩هـ/١٧٣٦م) حين سقطت، بعد اضطرابات داخلية، على أيدي (بنادر طهماسب قولي خان) فأنهى العقائد الشيعية باعتبارها مخالفة للمذاهب أسلافه^(٣).

أما في العهد التركي، بعد سليم الأول، فقد أخضع الأتراك الهيئات القضائية والدينية إلى سلطة مفتي إستانبول بوصفه شيخ الإسلام. وكانت هذه السلطة نظرية بالكامل، لأن تثبيت سلطته، على رأس الإدارة برمتها، جاء للاستفادة منه فقط كلما أُلّت بالسلطين أحوال عسيرة كإصدار فتوى تبرّر للسلطان بعض الأعمال الحربية^(٤).

٢ - الفرق الصوفية تنازع علماء الدين دورهم :

أخذ شيوخ الطرق الصوفية (الدرأويش)، منذ القرن ١٢هـ/١٨م، ينازعون علماء الدين احترام الشعب لهم. وكان العلم احتكراً لأسر معينة، وقد منع رجال الدين أي تجديد في عالم الفكر حتى أنهم لم يسمحوا بطباعة الكتب الدينية عندما تأسست أول مطبعة عربية في العام (١١٥٠هـ/١٧٣٧م)^(٥).

وعلى العموم كان معظم كبار العلماء يتحدثون من عائلات محمية ثرية أو ميسورة؛ واشترى أكثرهم عقارات وأملاكاً بمبالغ طائلة؛ ووجد بعضهم في المهن والحرف والتجارة، بشكل أساسي، مجالات واسعة لتنمية إمكانياتهم وزيادة مداخيلهم. وكان لعلاقتهم مع السلطة تأثير مهم في زيادة نفوذهم، وتحصيل المزيد من المناصب والخيرات^(٦).

(١) م. ن. : ص ١٥٣.

(٢) بروكلمان، كارل: م. ن. : ص ٤٩٧.

(٣) م. ن. : ص ٥٢٦.

(٤) م. ن. : ص ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٥) المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة: الدار الأهلية: بيروت: ١٩٨٧: د. ط: ص ١٣.

(٦) عماد، عبد الغني: "العلماء والمجتمع في بلاد الشام": جريدة السفير: بيروت: تاريخ ٢١ و ٢٢/ ٧/ ١٩٩٣.

من الصعب أن ندرك ظهور المتصوفة والأولياء على الساحة الاجتماعية من دون الوقوف على التناقضات التي طبعت المجتمع الذي ظهرت فيه؛ إذ لم يكن منطقياً أن يعرف التصوف نمواً وانتشاراً من دون أن يكون له طرح اجتماعي يلامس عواطف الفئات المتضررة^(١).

إنعكس الوضع الاجتماعي - الاقتصادي على تكاثر التكايا التي ينتسب إليها الآلاف، فاضطر السلاطين العثمانيين للإتفاق على هذه المؤسسات بأن خصصوا لها أوقافاً من الأملاك والأرض^(٢). كان الثمن فادحاً في المجال الروحي بعد أن ساد التطرف؛ وكان النظام الصوفي عاجزاً عن تطوير الخبرة الروحية لدى كل ممارسيه. وتزخر آداب القرنين ١١ و١٢هـ/١٧ - ١٨م بشخصيات قدسية من كل الأنواع والطبقات، وبأمثلة من قلراتهم الخارقة وكراماتهم الخاصة؛ فانساق الدراويش إلى أعمال الغش، وكان رجل الشارع يضع ثقته في قوة معجزاتهم^(٣).

انتشرت الطرق الصوفية في كل من المغرب والمشرق بشكل متواضع مع انتشار التفاوت الطبقي بين الطبقة العامة البائسة والطبقة الخاصة الميسورة. فقد تجلّت الأزمة الثقافية في المغرب في محاربة التيار العقلاني، خاصة بعد أن تسرّب الفكر الغزالي فيه، وأسهم في تكوين قاعدة صلبة لنشوء التصوف. وانتشرت البدع والمنكرات، وسادت مظاهر الانحلال والتفسخ، والانغماس في ألوان البذخ والترف^(٤).

أما في المشرق فقد جاءت التطورات السياسية، في القرن ١٦هـ/١٢م، من جراء حرب الحدود المستمرة، لكي تسهم في تكوين منظمات محلية من الغزاة/المجاهدين في سبيل العقيدة، وقام المتصوفة برعاية جمعيات مماثلة^(٥).

ولما كانت القبائل التركية تعتنق المسيحية والزرادشتية والبوذية والمناوية، ولما وجدوا أشكالاً عدة من المذاهب الإسلامية كان عليهم أن يختاروا واحداً منها. ولأن جماعات "الفتوة"، وهي منظمات الجهاد في سبيل العقيدة، كانت متأثرة بالتصوف فإنها كانت الأقرب إلى خلفياتهم الدينية والاجتماعية السابقة لإسلامهم فانخرطوا في صفوفها^(٦).

(١) بوتشيش، إبراهيم القادري: المغرب والأندلس في عصر المرابطين: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٣: ط١: ص ١٢٧.

(٢) جب، هاملتون: المجتمع الإسلامي والغرب (ج ٢): الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٩٠: د.ط.: (تعريب: أحمد عبد الرحيم مصطفى): ص ٣٧٨.

(٣) م . ن : ص ٣٨٠.

(٤) بوتشيش ، إبراهيم القادري : م . س : ص ١٢٨.

(٥) جب ، هاملتون : م . س : ص ٣٤٤.

(٦) م . ن : ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

تُبَيَّنَ أن اندماج تنظيم "الفتوة" في القيادة الصوفية أخرج إلى حيز الوجود أنشط وأنجح تنظيم اجتماعي ظهر في القرون المضطربة الممتدة أربعة قرون، امتدت من القرن ٥ - ١٠هـ/ ١١ - ١٦م؛ بحيث اعتمد كل من الترك العثمانيين والصفويين بتوسيعهم على أيدي هذه المنظمات. واعتمد السلاجقة، بدورهم، على الاتجاهات السُّنِّيَّة في مواجهة موجات المروق، فنقلوا الفقهاء إلى الأناضول، الذين - بدورهم - شكّلوا هيئات "فتوة" جديدة سمحت لرؤسائها بالسيطرة على الريف في المجالين الاقتصادي والديني^(١).

وفي القاهرة، وفي أثناء القرن ١٣هـ/ ١٩م، تمتت علاقة التجار والحرفيين مع زعماء الطرق الصوفية؛ وكان الأزهر، منذ القرن ١٠هـ/ ١٦م، مركزاً للتجمّعات الصوفية؛ و تمتت علاقة المجموعات الثلاث: العلماء والطوائف المهنية والجماعات الصوفية، فشكّلت تياراً قوياً في التأثير على السلطة^(٢). وبلغ من تأثير البكري - أحد مشايخ الصوفية، أنه كانت له اليد الطولى في اختيار شيخ الأزهر. وكان لديه كثير من الأتباع، حتى أنه كان كل العلماء وزعماء التجار يقبلون يديه ويُجِّلونه. وكان لشيخ الصوفية - السادات و البكري - القدرة على جمع قوة شعبية مسلّحة تتكون من سبعين إلى ثمانين ألف رجل مسلّح في يوم واحد. و كانا على قدر كبير من الغنى ومن التأثير السياسي في مصر منذ القرن ١٢هـ/ ١٨م إلى أواسط القرن ١٣هـ/ ١٩م^(٣).

وبالإجمال، ومنذ القرن ٦هـ/ ١٢م، إنتشرت طرق الدراويش - ذات الأفكار الصوفية - على نطاق واسع، فاعتنقها العوام والأميون من المدن، وغدت مؤسسات اجتماعية ومراكز ثقافية وحركات سياسية يُحسَب لها حساب. فأثارت الشكوك في نفوس العلماء، فناصبوها العداء؛ لذا سعى مؤسسوها إلى حماية أنفسهم بأن أعلنوا ولائهم لأحد الأئمة الكبار من أهل السُّنة. لكن العداء لها زاد من شعبيتها، وانتشرت زواياها بشكل واسع في شمال أفريقيا (تونس، الجزائر، ليبيا). وانتشرت، أيضاً، في العراق وسوريا ومصر. وبلغت الطرق الصوفية شأواً بعيداً، في أثناء القرن ١٢هـ/ ١٨م، فانضمَّ إليها أعداد كبيرة من العلماء الذين أصبحوا شيوخاً متصوفين. وفي المقابل أصبح شيوخ المتصوفة أمثلة صارخة في الفساد، فعمت روح اللامبالاة واللامسؤولية، وأصبحت البلاد في انحطاط ثقافي عام^(٤).

(١) م . ن : ص ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) السيد، عفاف لطفى: "العلماء و دورهم في مصر مطالع القرن التاسع عشر" (٢١٥ - ٢٣٧): مجلة الاجتهاد: بيروت: العدد ٤: ١٩٨٩: ص ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٣) م . ن : ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٤) المحافظة ، علي : م . س : ص ص ١٦ - ٢٠.

فالدارس لا يستطيع أن يحدد المباديء المميزة لكل طريقة بدقة، فالطرق كانت تتميز بمرونة لامتناهية، بعضها ابتداءً سُنيًا وانتهى شيعيًا، وأصبحت المباديء من التلاخل بحيث يصعب فصلها. فالإسلام، في القرن ١٢هـ/١٨م، كان يشبه سجادة متعددة الألوان، لا يقوم نموذجها على القرآن والسنة والحديث، والوجدان الحلاجي، والتفسير الباطني ووحدة الوجود عند ابن عربي، والحساسية الجمالية عند ابن الرومي، والطقوس المختلطة عند الطرق التي تتميز بالهيام الصوفي فحسب، بل اتكأت على الفلك والسحر، أيضاً؛ وفوق هذا كله تقديس الأولياء، أحياء وأموات^(١).

٣ - المذهبية النصوصية في خدمة المعارضة :

يرى محمد عمارة أن الحضارة العربية الإسلامية، التي تبلورت من الفكر الإسلامي، كما صاغها المتكلمون العقلانيون، تركز على قاعدتين:

- العروبة بالمعنى الحضاري لا العرقي، أي ضد التطرف الشعبي من جهة، وضد التعصب الذي أحيطه الدولة الأموية من جهة أخرى.

- العقلانية، التي تحول بها الإسلام إلى موقع المحجوم ضد التيارات الفكرية المعادية، وهيئات له الانتشار دون إكراه.

وما إن أحل الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢م) عنصر الموالي من الترك المماليك في الجيش قيادة وجنوداً؛ ولما كان هؤلاء أبعد ما يكون عن الاهتمام بالتفكير العقلي والفلسفي، وكانوا أميل إلى "العامة"... خصوصاً وأن التيار العقلاني كان منحازاً إلى جانب الثورة ضد أئمة الجور، على حين رفض السلفيون/ النقليون الثورة كطريق للتغيير؛ حينئذٍ انفتح الطريق، بسيطرة المماليك، أمام الانقلاب الفكري، فاستبدلت السلفية بالمعتزلة، وحلت النصوص محل العقلانية والرأي والتأويل. وعندما أراد المتوكل أن يملأ الفراغ، الذي حدث بإقصاء المعتزلة عن جهاز الدولة، إستشار الإمام أحمد بن حنبل، فقدم قليل العلم من السلفية على علماء الكلام؛ فالأول - وفق معايير - سُني ذو دين، أما الثاني - مع علمه - يضر الناس في الدين. وهكذا ساد نهج السلفية النصوصي في البحث والتفكير.

أتت، بعد ابن حنبل، أجيال من النصوصيين، فكان من أهمهم في العهد المملوكي: ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/١٢٦٣ - ١٣٢٨م)، وابن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ/١٢٩٢ - ١٣٥٠م). فواصلت الحركة السلفية على أيديهما السير على منوال العقائد التي صاغها ابن حنبل ومعاصروه.

(١) جب ، هاملتون : م . س : (ج ٢) : ص ٣٧٦.

ولكن لم تنجح عملية الإحياء بواسطتهما فيما نجح فيه أحمد ابن حنبل؛ فلم تصبح مذهباً للدولة، وإنما ظلت حركة معارضة يلقي أعلامها السجن والعنت والاضطهاد^(١).

أما في العهد العثماني فقد برز من هذه الحركة أعلام مشهورون، منهم: محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م)؛ وهو الذي أسس المذهب الوهابي - وهو اليوم المذهب الرسمي للمملكة العربية السعودية.

وعلى الرغم من اختلاف النصوصيين - الحنابلة في بعض الأحكام لكن منهجهم النصوصي بقي ثابتاً مع إضافات اقتضتها الاستجابة لمشكلات العصر الذي عاشوا فيه. وحول ذلك يقول ابن تيمية، بعد أن انتشر في عصره كثير من البدع والخرافات - حسب ظنه - وطمست نقاء الإسلام: "إن جماع الدين أصلاً: أن لا يُعبدَ إلا الله، ولا نعبدُه إلا بما شرع، لا نعبدُه بالبدع..."^(٢).

ويصف ابن القيم الجوزية ابن حنبل: "أنه إمام أهل السنة على الإطلاق... وإن أئمة الحديث والسنة، بعده، هم أتباعه إلى يوم القيامة"^(٣). وقد صاغ ابن الجوزية أصول المنهج النصوصي بخمسة أركان: النصوص - ما أفتى به الصحابة - إذا اختلفت الصحابة يتتقى من أقوالهم ما كان أقربها إلى السنة - الأخذ بالمرسل من الحديث الضعيف - القياس للضرورة"^(٤).

وبسبب من القداسة التي أضفاها المنهج السلفي على النصوص يقول ابن الجوزية: "إن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذَ بها من فتاوى التابعين؛ وفتاوى التابعين أولى من فتاوى تابعي التابعين، و هلمَّ جراً... وكلما كان العهد بالرسول أقرب كان الصواب أغلب"^(٥).

يرى عمدة عمارة أن النصوصيين يقعون في التناقض، أيضاً، عندما يقطعون بالحكم على أساس النص، ثم يُقرُّون في الآن ذاته بأن الفتاوى والأحكام تتغير وتختلف بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعقائد^(٦).

ولهم موقف مُستغرب من الدولة، حيث يحسبون أنها، وإن بلغت من الظلم مبلغاً عظيماً... وحيث أقدم أعلام سلفية العصر الوسيط على نقد الدولة ومعارضتها، إلا أنهم أحجموا عن نزع الشرعية عن جهازها الظالم، فدعوا إلى طاعته ونهوا عن الثورة ضده^(٧).

(١) عمارة، محمد: تيارات الفكر الإسلامي: م - س: ص ص ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) م . ن : ص ١٣٧.

(٣) م . ن : ص ١٣٧.

(٤) م . ن : ص ١٣٨.

(٥) م . ن : ص ١٣٩.

(٦) م . ن : ص ١٤٧.

(٧) م . ن : ص ١٥٢.

II - حركة التبشير بالإحياء الإسلامي: تيارات وتنظيمات

١ - تيارات التبشير بالإحياء الإسلامي:

أدت حركة تراكم التأثير الخارجي، مع مساعدة من عوامل التخلف الداخلي، إلى ولادة تيار إسلامي ناقد، فأخذ يتجه نحو العمل في سبيل الإصلاح الديني. كانت مصادر التأثير الخارجي تهب من أوروبا بعد الثورة الحضارية التي انتشرت فيها، تحديداً بعد فصل النزاع الدامي بين النقل المسيحي والعقل الأوروبي لصالح العقل. أما عوامل التخلف الداخلي فشملت شتى النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية...

إنعكست، منذ النصف الثاني من القرن ١٣هـ/١٩م، تأثيرات المتغيرات الحضارية الخارجية، وعوامل التخلف الداخلي، وتفاعلت في وجدان وعقول نخبة من علماء الدين المسلمين. وأخذت إشكالية التقدم والتخلف تظهر في حركة هؤلاء العلماء الفكرية، فأتتحت تياراً نقدياً حاول أن يضع بعض أسس التغيير في التفكير والعمل. وربما باستعراضنا لأهم أعلام هذا التيار ينير أمامنا - إلى حد ما - مسار التغيير الذي بدأت تسلكه الحياة العقلية الإسلامية والعربية منذ قرن ونصف القرن تقريباً.

(جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧) : نادى بتوحيد الأديان الثلاثة فاصطدمت فكرته بالموانع والعراقيل التي يضعها - كما يقول: "بأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة"، ورأسماها: "ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية" بحيث أن أي رجل يجسر على مقاومة هذه التفرقة، أو هذه التجارة، لن يكون إلا كافراً، جاحداً، مارقاً^(١).

(١) جدعان، فهمي: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث: المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: ١٩٨١: ط٢: ص ١٥١.

أما كيف يتم إصلاح الأمة؟ هل بنشر المعرفة أم بنشر المدارس، وهذه تتطلب - كما يرى الأفغاني - إمكانيات مادية وأوقات طويلة^(١). إلا أنه يصل أخيراً إلى أن العلاج الناجع يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته^(٢). وإن هذه العودة لن تكون سوى بتخليص المعتقدات مما لحق بها من تشويه وسوء التأويل - وهنا يحدد الأفغاني بعض أسباب تخلف المسلمين بما يلي:

- إستسلام المسلمين "للقضاء والقدر"، التي إن عُدَّت من أصول دينهم، إلا أنهم أساؤا التمييز بين الاعتقاد بالقضاء والقدر، وبين الاعتقاد بمذاهب الجبرية القائل: "إن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله"^(٣). ويخلص قائلاً إن الاعتقاد: "بالقضاء والقدر إذا تجرَّد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام... وبذل الأرواح في سبيل الحق"^(٤).

- إنما بالإضافة إلى ما نجم عن الاعتداءات الخارجية على الأمة الإسلامية، أدَّت بعض التصرفات الداخلية لسياسي المسلمين (فساد الأخلاق - الاستبداد...) دوراً لا يقلُّ حسماً في عملية التدهور^(٥).

- كان لفساد العامل الأخلاقي دوراً في الانحطاط؛ فلما اتبع المسلمون "الأمواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتموا عظام المنكرات... فأخذهم الله بذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتدين". أما السلف فتحلَّى بأخلاق وفضائل رفعتهم إلى شاطئ الوجود؛ فعلى - كما يدعو الأفغاني أن نقتفي أثر السلف^(٦).

ففي إطار عقيدته الفكرية، كأساس للتمدن، يظل الأفغاني أولاً وأخيراً "هذا المفكر الذي اعتقد اعتقاداً جازماً أن التمدن الحقيقي مكافئ تماماً للدين؛ وإن السعادة الحقيقية... لا يجوز أن تُلتَمَس إلا في الدين الخالص الذي هو الإسلام... وهو الذي يسمح ببناء نظام اجتماعي متماسك يسعى لخير المجموع"^(٧).

أما التمدن المرادف للمكتسبات العلمية، التي لا يترتب عليها إلا "الفائدة" و"الكسب" و"الربح"، فليس هو التمدن الحقيقي^(٨).

(١) م . ن : ص ١٥٢.

(٢) م . ن : ص ١٥٣.

(٣) م . ن : ص ١٥٧.

(٤) م . ن : ص ١٥٨.

(٥) م . ن : ص ١٥٨.

(٦) م . ن : ص ١٦٢.

(٧) م . ن : ص ١٦٥.

(٨) م . ن : ص ١٦٦.

وفي إطار عرضه لمقاومة الغرب في الصراع الذي كان دائراً، يرى الحل في الدعوة إلى جامعة إسلامية. وفصل مشروعه بالنقاط التالية: إن الغرب عدو مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص، وذلك بسبب استمرار التعصب المسيحي — عمل الدول الأوروبية المستمر لإبقاء الشرق متخلفاً — تصوير النصرانية لآمال المسلم ورغباته بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء...

فلكل تلك الأسباب - يدعو الأفغاني - إلى اتحاد الشرق الإسلامي اتحاداً دفاعياً للذود عن كيانه؛ وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية دعا إلى اكتناه أسباب التقدم في الغرب^(١).
(عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤ هـ/ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م). يقرر أن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية و توسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه. فحث العلماء على أن يقوموا بدورهم في عملية النهوض بالأمّة، وأن يقوموا بدور بارز في شؤون السياسة^(٢).

(عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م). كانت حاله كحال معاصريه، فقد أحسّ معاصروه بحالة انحطاط الأمّة. وقال أنه لو لم يكن الإسلام متين الأساس لما احتفظ بوجوده في خلال أكثر من ألف عام من الانحطاط^(٣). وقد حدد بؤر الانحطاط بثلاث: الدين و الأخلاق والسياسة. إلا أنه حسب أن الأسباب السياسية للتدهور هي الأكثر حسماً؛ وقد بيّن ذلك في كتابه (طبائع الاستبداد)، فيعدد فيه الأسباب التالية:
بعد أن كانت السياسة الإسلامية نياية اشتراكية، أي ديموقراطية تماماً، صارت بعد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم صارت أشبه بالملقة^(٤). فالسياسة المطلقة، وفقدان الحرية والعدل، وغياب الشورى... هي المظاهر الأساسية التي يتولّد عنها الفتور العام لدى المسلمين. وليست هذه المظاهر سوى وجوه مختلفة للاستبداد السياسي^(٥).
فالاستبداد - يتابع الكواكبي - لا يصدق مطلقاً على الدين الإسلامي^(٦)؛ فهو قد تكوّن عندما أسلم أهل الإسلام الجاهلين الأمر للمستبدّين الذين اتخذوه وسيلة لتفريق الأمّة من جهة، وقوى تقليد الآخرين دعائم الاستبداد بشكل مخالف تماماً لتعاليم الإسلام مثل (احترام الأعاضم

(١) م . ن : ص ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) م . ن : ص ١٧٥.

(٣) م . ن : ص ٢٨٩.

(٤) م . ن : ص ٢٩٠.

(٥) م . ن : ص ٢٩٢.

(٦) م . ن : ص ٢٩٣.

احترام عبادة - طاعة الكبراء على العمياء مما يمثّل حال البابوية - محاكاة الرهبنة واصطناع الفقر والتصوف - سد باب الاجتهاد... من جهة أخرى^(١).

(محمد عبده ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ٨٤٩ - ١٩٠٥ م): لم يظهر في علم الكلام، منذ القرن ١٠ هـ / ١٠ م، كتاب جديد. يرى فهمي جدعان أنه من بين المؤلفات الحديثة إنفرد كتاب (رسالة التوحيد)، الذي صنّفه محمد عبده، بعناصر كلامية^(٢).

للعقل عند محمد عبده حدوداً لا يتخطّاها، لأنه لا يدرك إلا عوارض بعض الكائنات. أما الوصول إلى كنهها وحقائقها فأمر يمتنع عليه. وفاعليته، أيضاً - أي العقل - وجدانية لا تخضع لعملية البرهان المنطقي المنظم. وإنه لأمر مؤكّد - كما يرى محمد عبده - أن سلطة الوجدان على الإنسان أقوى من سلطة العقل؛ إذ ما هو الذي يثير النفس الفردية ويدفعها إلى حالة يغلب فيها الخير على العمل؟ ولا يتيسّر هذا كله إلا "بالعقيدة الدينية"؛ بهذه العقيدة وحدها يمكن للعيون أن تبكي وللقلوب أن تخشع^(٣).

أما دور العقل عنده فيضمن صحة أصول العقيدة، بينما الوجدان يحمل الإنسان إلى العمل الأخلاقي. لذا فإن العقل وحده لا يستقلّ بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد آلهي^(٤).

ويرى محمد عبده أن الانحطاط لا يرجع إلى العقيدة الإسلامية نفسها، وإنما يرجع إلى توقف فاعلية العقيدة نفسها بسبب من توقف فاعلية أهلها أنفسهم. ومن أسباب ذلك: - تحول الإسلام من "دين عربي" إلى "علم عربي" فحسب؛ وقد تمّ ذلك عندما استعجم العرب وانقلب أعجمياً. وهؤلاء لم يحفلوا بالعلم ولا بأهله الحقيقيين. - ويعود، أيضاً، إلى عقيدة "القدر"، التي لجأ إليها جيش من المضلّين لإيهان العزائم، وتثييط النفوس، وغلّ الأيدي عن العمل^(٥).

- وهناك جمود التعليم، ويتحمّل مسؤوليته فريقان: فريق المعلمين على الطرق الجديدة، الذين ضُفّفَ إيمانهم بما سرى إلى عقولهم من التعليم الأجنبي. وفريق المعلمين على الطرق

(١) م . ن : ص ٢٩٤.

(٢) م . ن : ص ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) م . ن : ص ١٩٨.

(٤) م . ن : ص ١٩٩.

(٥) م . ن : ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

الرسمية الدينية، الذين جَمَدَ التعليم عندهم عند العلوم القديمة، فأنكروا كل جديد^(١).
وبذلك زرعوا اليأس في النفوس من أي تجديد^(٢).

(محمد رشيد رضا (ت في العام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م): تابع سياسة أسلافه الأفغاني
ومحمد عبده، فدعا إلى الوحدة الإسلامية؛ وعمل على البحث في جزئيات البدع وتفصيل
القول في التعاليم الفاسدة والعقائد الزائفة والتربية المقيدة. ودعا في العام (١٣١٧هـ/١٨٩م)
إلى أن للجامعة الإسلامية طرفان:

- أحدهما: يضم المعتقدين بالدين الإسلامي، ويتم توثيق العرى بينهم وذلك بأن يدرس
أهل كل بلاد إسلامية تاريخ البلاد الأخرى. ودعا إلى تأسيس صحافة، واستثمار موسم الحج
للاتفاق على وحدة التربية والتعليم التي يحسب أن تعميم اللغة العربية كملاً لها. ودعا إلى
الاشتراك في المشروعات والأعمال النافعة.

- أما الثاني: فهو ارتباط المسلم وغيره من أرباب الملل برابطة الشريعة العادلة التي
يُحكمون بها بالمساواة؛ حيث يتم اشتراك المسلمين مع مواطنيهم، الذين يُحكمون معهم
بمحكمة واحدة، بكل ما يعود على وطنهم وبلادهم بالعمران^(٣).

إنطلق محمد رشيد رضا من أن العمل السياسي المباشر لإقامة الجامعة الإسلامية ينطوي
على محاذير؛ لذا حسب أن الأمر يمكن أن يتحقق عن طريق الإصلاح الديني والإصلاح
التربوي:

- أما الإصلاح الديني، فهو ما يؤدي إلى المحافظة على الدين والعمل به وجمع المسلمين؛
وهذا لن يتم بالشكليات كعمارة المساجد وبالإنعام على بعض الشيوخ... بل لا بد من أعمال
تُناط بالحكام، وأعمال تُطلب من العلماء، وأعمال تتعلق بالبلاد الحجازية.

وأهم أركان الإصلاح هي: جمع كلمة المسلمين على عقيدة واحدة، وأصول أديّة
واحدة، وقانون شرعي واحد، ولغة واحدة هي العربية. ويتوقف هذا الإصلاح على تأليف
جمعية إسلامية تحت حماية الخليفة؛ ويكون لها شعب في كل قطر إسلامي، وتكون أعظم
شعبها في مكة المكرمة؛ وتكون أهم اجتماعاتها في موسم الحج؛ وأن يكون لها أعمال رئيسة
ثلاث: تلافي البدع والتعاليم الفاسدة - إصلاح الخطابة - الدعوة إلى الدين^(٤).

(١) م . ن : ص ٢٠٦.

(٢) م . ن : ص ٢٠٧.

(٣) م . ن : ص ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) م . ن : ص ٢٦٤.

ولا يتم الإصلاح بمجرد الدعوة إلى وحدة إسلامية بواسطة التربية والتعليم، بل لا بد من أن تتوفر فيها شروط معينة: طبيعة الحكم التي يجب أن تكون شورية - إستعداد الأمة للإصلاح - طريقة المسلمين في الدعوة إليه^(١)، وذلك بتأليف الجمعيات السياسية السرية والجهرية والدينية والخيرية والعلمية والفنية والمالية^(٢).

فالتقدم والانحطاط - عند رشيد رضا - يخضعان لقوانين طبيعية ذاتية في الأمم، ولا يرتدان إلى مجرد الانتماء إلى الدين؛ إذ على المسلمين أن لا يتوهموا أن في الدين سرّاً روحانياً غير معقول يمدّ الآخذين به بالنصر والقوة، ويعطيهم الغلبة والخوارق والكرامات^(٣).

لقد بدأت الحركة الإصلاحية على يد الأفغاني مستترة تعتمد على العقل خاصة عند محمد عبده، على الرغم من انتماءاتها السلفية والصوفية، تدعو إلى الأخذ بأساليب التقدم الحديث، العلم والصناعة؛ وتدعو إلى تأسيس نظم سياسية تقوم على الحرية والديموقراطية ممثلة بالمجالس النيابية، والحكومات الدستورية والملكيّات المقيّدة إن استحالت النظم الجمهورية^(٤).

ثم خبت الحركة الإصلاحية - كما يرى حسن حنفي - إلى النصف عند محمد عبده ارتداداً عن الثورة السياسية الشاملة، وإثارةً لمناهج التربية والإصلاح الديني والخلقي، ونكوصاً عن التغير السياسي في جيل واحد، ورغبة في حركة طويلة الأمد تمتدّ عدة أجيال^(٥). ثم خبت إلى المنتصف مرة أخرى على يد تلميذه رشيد رضا الذي تحولت الحركة الإصلاحية على يديه إلى سلفية مُعلّنة؛ فعاد إلى رموز الحنبلية وصولاً إلى أحمد بن حنبل بالذات. فبدلاً من الانفتاح على أساليب المدنية الحديثة، وعن الدفاع عن الاستقلال الوطني للشعوب، وكردّ فعلٍ على الحركات العلمانية في تركيا، راح يدافع عن الخلافة بعد إصلاحها؛ فضعّف العقل لصالح النبوة، وقلّ تحليل الواقع ووصف حركة التاريخ إلى شرح للنصوص. وهنا ظهر حسن البنا - تلميذ رشيد رضا - فأخذ السلفية، وحاول العودة بها إلى حماس الأفغاني ونشاطه^(٦). وسوف نتكلّم عن حركة حسن البنا في موقع لاحق من هذا الفصل.

(عبد الحميد الزهراوي (١٢٨٨ - ١٣٣٤هـ/١٨٧١ - ١٩١٦م). بينما قام الكواكبي بمكافحة الاستبداد السياسي، قام الزهراوي بمكافحة التحجر الفقهي و"العطالة الصوفية"،

(١) م . ن : ص ٢٦٥.

(٢) م . ن : ص ٢٦٧.

(٣) م . ن : ص ٢٦٨.

(٤) حنفي ، حسن: الحركات الإسلامية في مصر: المؤسسة الإسلامية للنشر: بيروت: ١٩٨٦: ط١: ص ٢٤.

(٥) م . ن : ص ٢٥.

(٦) م . ن : ص ص ٢٥ - ٢٦.

"تقديس التاريخ والأزمة المتقدمة"؛ وهي جميعاً وجوه للاستبداد لا بد من التخلص من حدودها وقيودها في سبيل الخروج إلى الحرية والتقدم والترقي، ولهذا وضع رسالة في "الفقه والتصوف" كاد نشرها يودي بحياته؛ ذلك أنه يعدُّ أن هذين العلمين ليسا من العلوم النافعة للمسلمين في دينهم ودنياهم، لا بل يذهب صراحة إلى أن كل واحد منهما ينطوي على مخاطر لا يمكن للشاعرين بالأحوال، الراغبين في الإصلاح، السكوت عليها^(١).

أما الفقه عند الزهراوي فيشمل على العبادات والمعاملات التي هي أعمال خاصة أمر الشارع بفعلها كما كان يفعلها النبي وأصحابه؛ وهو قد انتهى على أيدي الفقهاء إلى موسوعات طويلة حافلة بالخلافات المنهية التي لا حد لها، في الوقت الذي لا تتجاوز في النص آيات معدودات. وإن ما قال به الفقهاء يناسب أزمته وأمكتهم فقط. فأزمانهم غير أزماننا. فكفى - يقول الزهراوي - مؤونة السلاسل التي ربط الناس بها أقوام كتبوا الكتب بأيديهم، ثم قالوا: هذه من عند الله... إن هناك أمم ليس عندها هذه الكتب قد أغناها الله، بفضل عقولها، في تدبير التجارة... والمعاهدات وإدارة المنافع العامة... وتنظيم الجيوش...^(٢).

يتابع الزهراوي قائلاً: إنها مهنة اتخذها الكثيرون ديدناً في كل عصر ومصر. وهي لم تكن في يوم من الأيام موضع إجماع؛ فكيف يتم تقديسها وهي تعكس التحزب والتشيع للرؤساء والمذاهب والأجناس، فحارب هؤلاء بعضهم بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً^(٣).

إن أكثر ما يقوله الفقه والفقهاء يستند إلى "الظن والتخمين والفرض والتقدير". وإن الإجماع بشأنه هو مما لم يقع، ويمتنع أن يقع؛ وإن الفقه لا يخلو من تمحلات عجيبية وتخيلات غريبة في لغة العقل والنقل؛ من هنا ينبغي - لتحقيق الإصلاح الديني - أن يكون للمتأخرين حق في أن يجتهدوا^(٤).

وإذا تدبنت الدولة بدين معين - هو الإسلام - فلا ينبغي أن يكون حائلاً بين الجماعات الصغيرة - التي تدين بدين آخر - وبين شعور الانتماء والإخلاص، والعمل للأمة والوطن^(٥). ولا ينبغي، أيضاً، أن تلقى سمعاً للذين يقولون إن تدبنت الدولة بدين الإسلام هو عشرة في سبيل

(١) جدعان، فهمي: أسس التقدم... م. س: ص ٣٠٦.

(٢) م. ن: ص ٣٠٦.

(٣) م. ن: ص ٣٠٧.

(٤) م. ن: ص ٣٠٩.

(٥) م. ن: ص ٣١٧.

ارتقاؤها، لأن الإسلام دين قوانين واجتماع يساعد العقل بما فيه من الشرائع والآداب الرامية^(١).

ويرى الزهراوي أن الفكر العمومي هو الذي يوجد الجماعات، وجماعة العرب على وجه التحديد. والذين يقودون الجماعة، هم الذين يعملون على تحقيق الروح العمومية^(٢). وعلى الرغم من الصعوبة في تبيين الروح العمومي - بسبب اختلاف الأديان والمشارب والمذاهب - يمكن أن توجد بعض وجوه الاتفاق. ولذا فقد كان الزهراوي في (حزب اللامركزية الإدارية العثماني) يرى ضرورة ربط الإصلاح الاجتماعي بالإصلاح السياسي ربطاً عضوياً حازماً؛ وإن هذا الربط يقع على عاتق الحكومة. وإنه كلما كانت مشاركة الشعب للحكومات أكثر كان وجوده أضمن؛ وأفضل شكل لها هو الدستوري، وأفضل أشكال الدستوري هو اللامركزية^(٣).

(علي يوسف (١٢٧٩ - ١٣٣١ هـ/ ١٨٦٣ - ١٩١٣ م). وهو على الرغم من أنه تعلق ببعض جوانب الفلسفة الوضعية الفرنسية، لم يكن تعلقه مطلقاً؛ لأنه ما يلبث أن يُكَيِّف هذه الفلسفة مع النظرية الدينية الإسلامية، التي يريد لها أن تنادي بالتقدم المستمر، وأن تربط هذا التقدم في التمدن بالإرادة الآلهية^(٤).

(أحمد رضا (١٢٨٩ - ١٣٧٢ هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٥٣ م). وتأثر هو، أيضاً، بالأوساط الوضعية الكونتية (نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي عمانوئيل كانت) التي تلح على التقدم في مضمار المدنية. ولكنه دافع عن الأصالة الشرقية، وعن الإسلام بالذات، في وجه شبه خصومه المتعددة - مما يتصل بالتعصب وبالجهاد وبوضع المرأة وبالجزيرة - فإنه كان يؤمن مع كانت Kant بأن المستقبل هو للعقلية الوضعية^(٥).

(عبد الرحمن البرزاني (١٣٣١ - ١٣٩٣ هـ/ ١٩١٣ - ١٩٧٣ م). وتميَّز بأنه تقدّم بمفهوم "عربي" للإسلام، حيث وحد فيه بين الإسلام والقومية العربية، جاعلاً من الإسلام ديناً قومياً عربياً خالصاً. وهو عندما أقدم على ذلك كان يخشى أن يرميه أحد الفريقين بالجمود والمحافظة، بينما سيرميه الفريق الثاني بالخروج عن الإسلام^(٦).

(١) م . ن : ص ٣١٨.

(٢) م . ن : ص ٣١٩.

(٣) م . ن : ص ٣٢٠.

(٤) م . ن : ص ١٧٢.

(٥) م . ن : ص ١٦٧.

(٦) م . ن : ص ٢٨١.

انطلق المفكرون المسلمون المحدثون من التوحيد النظري بين الإسلام والمدنية، لكن بقي عليهم أن يحددوا - نظرياً، الأساس أو الأسس الجوهرية التي ينبغي التعويل عليها من أجل تحقيق التقدم بهذه المدنية^(١).

لقد امتلك هذا الرعيل من المفكرين المسلمين إراثاً ثقافياً إسلامياً تاريخياً، وكانت لديهم ثقافات الغرب التي كانت سائدة في عصرهم، إلا أن ذلك كله لم يجنبهم - يقول جدعان - كل المخاطر والمزالق النظرية والعلمية. فكان تعقد الإرث الثقافي وتباين مشاربه، وتضارب التجارب والخبرات، يزيد في إمكانية وقوعهم في المحاذير والمخاطر^(٢).

كان مفهوم التوحيد الكلاسيكي "قد انتهى، في الأعمال الحديثة، إلى صيغة دينامية حيّة صريحة كفت فيها العقيدة عن أن تكون مجرد مبادئ فلسفية، وأدلة منطقية جافة، كما كان الحال في علم الكلام؛ وأصبح يعني، من خلال فهم جديد "للشهادة" معاناة وجدانية ترفد الدليل العقلي أو تستقل بنفسها. وأما الدين نفسه فقد أصبح ذا وظيفة إجتماعية صريحة، اتخذت أحياناً شكل الوظيفة السياسية الخالصة أيضاً. لكن مشكلة رواد هذا التطور أنهم لم يتابعوا بالجدية الكافية سير العلم الحديث والفلسفة الحديثة وتطوراتها من أجل تأسيس المبدأ نفسه مبدأ التوحيد. فهم قد ظلوا في الغالب الأعم يدورون في حلقة الأدلة القديمة التي لم تعد تعني في الواقع شيئاً ذا بال في عالم بات يلزم أهله بإعادة النظر في أنماط المعرفة والعقل الموروثة كافة^(٣).

٢ - تيار الصراع بين التغريب والتقليد.

انتشرت موجة التغريب بشكل رئيس في كل من لبنان ومصر. كان المفكرون المسلمون، الذين سقطوا سقوطاً كاملاً في أحضان المنظومة الليبرالية العلمانية التغريبية، يفتقرون إلى قوة في النفوس ونفاذ في الرؤية وبعد النظر وحس نقدي على درجة عالية من التوازن. ووقف، في المقابل، المفكرون الدينيون التقليديون باستسلام كامل لسلطة الماضي وللقيم التقليدية، ولمفاهيم دينية كفت عن الفاعلية والتأثير، ولمناهج وقفت عند الأقدمين^(٤).

(١) م . ن : ص ١٨١.

(٢) م . ن : ص ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣) م . ن : ص ٥٤٤.

(٤) م . ن : ص ٣٢٥.

وبالإضافة إلى هذين الفريقين - التغريبيين والتقليديين - أخذ المستشرقون ذور الأغراض السياسية يثون دعوات مشبوهة؛ ومنها ما يتعلق بتفرع اللغة العربية كما تفرعت اللغة اللاتينية^(١).

وفي إطلالة سريعة على هذا الصراع، سنتخذ مثلاً ممن تصدّوا له في محمد كرد علي، الذي وصف في العام (١٣٤٣هـ/١٩٢٥م) الصورة التي كانت سائدة في الأوساط الفكرية العربية - الإسلامية في الربع الأول من القرن ٢٠م: كان النزاع واقعاً بين أنصار القديم من المتدينين، الذين لا يعترفون بغير علوم الدين التقليدية، وبين أنصار الحديث، الذين لا يريدون الأخذ بفنون الغرب العسكرية والتقنية، فحسب؛ وإنما بجملة مثله وفلسفاته وعاداته.

حول هذا النزاع يقول محمد كرد علي: "ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، والأمة شطرين: شطر هو إلى البلاهة والغباوة، وشرط إلى الحمق والنفرة. وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد"^(٢).

وهنا لا بُدَّ من أن نُميِّز بين فريقين من علماء الدين المسلمين، الذين دعوا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية:

- فريق مُتَزَمِّتٌ يقول بالتحريم على طول الخط... وقد عزا ضعف المسلمين إلى عدم تمسكهم بتعاليم دينهم... وهذه التعاليم التي يقصدونها هي حالة النفور والجحود من كل جديد ولو كان نافعا^(٣).

ويرى هذا الفريق أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان. ويردُّ علي أبو الفتوح - كان من كبار رجال القانون في عصره - على الذين يتوهمون أن الأحكام الموجودة في القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها في الأصول الإسلامية، قائلاً: "... إن أسلافنا وصلوا في الرفاهية، وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأراً قلما يجاريهم فيه أحد"^(٤).

- وفريق لا يمنع معتنقي الدين الإسلامي من الأخذ بأسباب المدنية كلها، وبجارة الفرنجة في ميادين العمل المختلفة؛ ومن رأيهم فتح باب الاجتهاد على مصراعيه.

(١) م . ن : ص ٣٣٢.

(٢) م . ن : ص ٣٣٢.

(٣) كيلاني، محمد سيد: "ذيل الملل والنحل": ١٠٩ صفحات : ص ٦٤.

- راجع الشهرستاني: الملل والنحل (ج ٢) : م . س . بعد الصفحة ٢٦٥.

(٤) م . ن : ص ٦٦ - ٦٧.

وكان الشيخ محمد عبده على رأس هؤلاء، ويؤثر عنه انه قال: "أما ما جاء في القرآن فعلى العين والرأس، وأما ما جاء في الحديث فعلى العين والرأس، وأما ما قاله الأئمة فهم رجال ونحن رجال" (١).

و يجاريه، في ذلك، تلميذه محمد رشيد رضا قائلاً: "لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من حُجر الضبّ الذي دخلت فيه إلا بالاجتهاد، ووجود المجتهدين" (٢).

يقول عبد المتعال الصعيدي، داعياً إلى عدم التقيد بالإجماع الذي لم يتحقق ثبوته في أي عصر من العصور: "لأننا إذا أبقينا الاحتجاج بالإجماع رأينا أنفسنا أمام إجماع لأهل السنة، وإجماع للشيعة، وإجماع لغيرهم من الفرق المختلفة" (٣).

وتحت ذريعة أن الإسلام - كما حددته التقليديون - فيه جواب لكل مشاكل العالم في كل زمان ومكان؛ ولأن بعض المفكرين الإسلاميين والعرب قد تناولوا بالنقد بعض المسلمات الدينية الإسلامية، سياسية واجتماعية، حصل النزاع بين الطرفين.

فهذا قاسم أمين (١٢٨٢ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٦٥ - ١٩٠٨ م)، الذي رفع شعار تحرير المرأة - سواء كان متأثراً بالغرب أم لا - وجد من كان يرى في دعوته كفراً صريحاً، وخروجاً على أحكام الدين الحنيف (٤).

وهذا علي عبدالرزاق (١٣٠٦ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٨ - ١٩٦٦ م) - قاضٍ بمحكمة المنصورة الشرعية - يتعرض إلى محاكمة عقلماء الأزهر، بعد أن أصدر كتابه (الإسلام ونظام الحكم) في العام (١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م)، فيصدر حكم بتكفيره بسبب قوله في الكتاب المذكور: "إن هذه المسألة - الخلافة - دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية... ولم يرد بيان صريح في القرآن، ولا في الأحاديث النبوية في كيفية نصب الخليفة وتعيينه، وشروط الخلافة ما هي..." (٥). لكنه صدر، في العام (١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م)، عفو عنه، فأصبح مسلماً بعد أن كان كافراً في العام (١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م) (٦).

كان الدافع إلى إصدار الكتاب المذكور هو سعي الملك فؤاد في العام (١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م) إلى تنصيب نفسه خليفة على المسلمين من بعد أن ألغى مصطفى كمال أتاتورك

(١) م . ن : ص ٦٤ .

(٢) م . ن : ص ٦٥ .

(٣) م . ن : ص ٦٧ .

(٤) م . ن : ص ٦٧ .

(٥) م . ن : ص ٧٣ .

(٦) م . ن : ص ٧٩ .

الخلافة العثمانية. وبذلك أثار عبد الرزاق إحدى المعارك الفكرية الكبرى في تاريخنا الحديث^(١).

وسيان كان الموقف إلى جانب علي عبد الرزاق أو ضده، فإنه، بعد أن هدأت العاصفة، شقَّ الطريق نحو تفكير "نقدي" على درجة من الوعي. فمن جاء بعده انصرف إلى دراسة القانون الوضعي الحديث، وإلى مقارنته بأحكام الشريعة الإسلامية؛ وتخلَّى البعض عن فكرة الخلافة التي لم تكن تخلو من ذبول "ثيوقراطية"؛ واستبدلت بها فكرة حكومة إسلامية ديمقراطية تمثيلية شورية؛ ومن هؤلاء عبد الحميد بن باديس في الجزائر؛ وعبد الرزاق السنهوري، وحسن البنا، وعبد القادر عودة، في مصر؛ وعبد الرحمن البزّاز في العراق؛ وعلال الفاسي في المغرب^(٢).

فسواء كان دعاة التجديد: تغريبيين (مقلدين للغرب بالكامل)، أو مجددين (الاستفادة من الغرب بما يستحق الإفادة منه)، نجد أن الفكر السلفي لن ينظر بعين العطف إلى أية دعوة تتجاوز المسلمة التي تقول: "لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". فجُلُّ ما يُنتج الفكر النهضوي للسلفية، إذاً، هو أن تصبح النهضة (بعثاً للماضي) وليس خلق أي جديد. أما الفكر الليبرالي، الذي يدعو إلى تقليد الغرب، فهو دعوة إلى توريث العربي تاريخاً غير تاريخه^(٣).

ونحسب، بلورنا، أن تكون العلاقة بين فكر وآخر علاقة دينامية، أي أن لا يكون الموقف من الفكر الغربي رفضاً بالطلق أو قبولاً بالطلق، فهو ليس صفقة بالجملة، أي إما أن يكون غزواً يحمل العداء أو إشعاع يحمل الحقيقة كلها. فالمسألة ليست اغتراباً يتم تقريره بطريقة جامدة وانفعالية، أو هو تغريب بقرار فقهي يدّعي امتلاك الحقيقة كاملة، بحيث ينظر إلى الآخر، دائماً، بعين الريبة والشك والعداء^(٤).

٣ - الانتقال من التبشير إلى التنظيم في حركة الإحياء الإسلامي.

تقلّصت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وانحسرت، لكنها نشطت من جديد في أوساط جماعة الإخوان المسلمين - بشكل خاص - في عدد من الأقطار العربية؛ ولدى بعض الحركات الإسلامية في الهند - مثل تلك الدعوة التي تزعمتها شخصيات من أمثال أبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي - وقد بدت الدعوة

(١) الكيلبي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج٤) : مؤسسة الدراسات العربية: ١٩٨٦: ط١: ص١٨٨.

(٢) جدعان، فهمي: أسس التقدم...: م. س: ص ٣٤٤.

(٣) الجاهري، محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨٨: ط٣: ص٣٦.

(٤) أنظر بحثنا: في سبيل علاقة سليمة بين العروبة والإسلام: تحت الطبع

إلى الجامعة الإسلامية، هذه المرة، ذات طبيعة متشددة تماماً. ولعل ذلك كان عائداً إلى ظهور دول جديدة إلى الوجود ذات طابع إسلامي خالص، كدولة باكستان مثلاً^(١).

تميز القرن العشرون بعدة من التحولات التي كان لها تأثير بالغ على مجرى الواقع السياسي والفكري الإسلاميين. فكان من أهمها المسألتان القومية والديموقراطية منذ بداية تأثيرهما في الفكر العربي ابتداء من القرن ١٩م؛ وقد لحقت بهما مسألة إلغاء الخلافة الإسلامية بعد انهيار الدولة العثمانية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وبذلك أخذ العديد من الإشكاليات يواجه المسلمون والدعوة الإسلامية. وانفتحت آفاق الصراع في داخل صفوف النخب العربية، بشكل رئيس، عندما أخذ الفراغ الحاصل في غياب خلافة حكمت العرب والمسلمين أكثر من ألف وثلاثمائة سنة.

كانت الخلافة تعبيراً عن رمز سلطوي يدير شؤون الدولة الأمية الإسلامية، وكانت تعبيراً عن النظام السياسي للدعوة الإسلامية. ترك هذا الفراغ المفاجيء بلبلة شديدة في أوساط السياسيين، ووضع النخب المثقفة أمام مأزق كبير لم يكونوا يُعلنون أنفسهم لمواجهة. فمنذ أواخر مراحل انهيار الدولة العثمانية الإسلامية كانت صورة النظام السياسي البديل غير واضحة لدى تلك النخب.

إنطلاقاً من هذه البداية حصل النزاع بين شكل النظام الإسلامي الأمي من جهة، وشكل النظام القومي من جهة أخرى. وفي المقابل حصل نزاع بين شريعة الوحي كقانون إلهي وبين شرائع النظم السياسية القادمة من الغرب كقوانين وضعية من صنع البشر. أصبح النزاع - منذ الربع الثاني من القرن ٢٠م - قائماً بين الداعين للمحافظة على الأصول الإسلامية والداعين إلى التغريب عن الأصالة؛ ووقفت بينهما تيارات سياسية وفكرية كانت تحاول التوفيق بين الاغتراب والتغريب، التي طغى على مواقفهم شد وتجاذب بين الأولويات الحاسمة في عملية التوفيق، حيث لعبت المسألتان القومية والديموقراطية دوراً رئيساً في عملية النزاع. ولأنه ليس من شأننا، في هذا البحث، أن نخوض في البحث عن البدائل بمساراتها التفصيلية، فإننا سنكتفي بالإضاءة على أهم الخطوط العامة للإشكاليات الرئيسة السائدة في تلك المرحلة.

في مواجهة ما حُسيب أنه استفزاز مُوجّه، من التغريبيين المنتصرين لحضارة الغرب ضد الأصوليين المنتصرين للتراث التشريعي الإسلامي بكل ما فيه، نشأت عدّة من الحركات

(١) جدعان، فهمي: أسس التقدم...: م . س : ص ٢٨٦.

الإسلامية الأصولية المنظمة؛ و برز عدد من المفكرين الإسلاميين، الذين حسبوا أنهم يقومون بدور المجتهدين، وهو حق لهم.

ولأن دور الحركات المنظمة هو الأكثر تأثيراً وفاعلية، والأكثر انتشاراً على المستويين العربي والإسلامي، سنسلط بعض الأضواء على أهمها، ومنها: حركة الإخوان المسلمين - حزب التحرير الإسلامي - حركة الثورة الإسلامية في إيران.

"إن إقامة دولة الإسلام هدف ثابت عند معظم الحركات الإسلامية، وهي هدف صريح ومباشر يهيمن على نشاطها ويطلع علاقاتها بالأنظمة الحاكمة بطابع المنافسة والريّة إن لم يكن بطابع العداوة والتصادم؛ وقد يكون عند بعض الحركات هدفاً مقصوداً على مراحل، ومُرجحاً تحقيقه إلى حين: إما لاستحالة التحقيق في الأمد القريب، بسبب التفاوت الكبير في ميزان القوى بين الحركات الإسلامية والأنظمة... وإما أن تتعلل الحركات الإسلامية في إرجائها بأن الهدف لا يمكن طلبه بمعزل عن حالة المجتمع الإسلامي، وما به من أوضاع التخلف والانحلال والتبعية... فلا بد من تقديم السعي إلى إصلاح المجتمع على السعي إلى تحكيم الشريعة" (١).

انقسمت الحركات الإسلامية المعاصرة إلى فريقين:

- فريق المتصلبين الذي يرى أن الجهاد هو الوسيلة الباقية بعد أن فشلت سائر الوسائل، وإن التغيير لم يبق منوطاً بإصلاح الأوضاع... وقد ذهب هذا المذهب جماعة الإخوان المسلمين في سوريا و مصر...

- فريق المعتدلين الذي يميل إلى العمل الاجتماعي الطويل، الرامي إلى تأهيل الأفراد والجماعات بالتربية الإسلامية وبالتقويم الأخلاقي (٢).

إنحصرت مواقف هذه الحركات في جدلية الرفض والتكفير للأنظمة الحاكمة، وكانت المقاصد المطلوبة هي تغيير هذه الأنظمة. فمن الطبيعي أن تكون العلاقة مطبوعة بالتصادم حيناً، وبالمهادنة أحياناً أخرى... ولا يصلح عامل الزمن إلا للتربص وإتمام الاستعداد للإطاحة بالطرف المقابل. وقد تولّد عن ذلك الصراع ما لا يزال يتجدد من آيات النضال والقمع، ومن مظاهر الإرهاب والإرهاب المضاد، ومن صنوف التعذيب والبطش والإجرام والاستشهاد، ما لا يمكن القطع بأن حلقاته قد انتهت، وأن زمانه قد ولّى (٣).

(١) الفيلاي، مصطفى: "...الصحة الدينية للمعاصرة..." (٣٣٣ - ٤٠٨) : الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي: مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت: ١٩٨٧: ط١: ص٣٦٩.

(٢) م . ن : ص ٣٧٠.

(٣) م . ن : ص ص ٣٧١ - ٣٧٢.

أ - حركة الإخوان المسلمين:

إرتبطت نشأة حركة الإخوان المسلمين بالحركة الإصلاحية التي ابتدأت مع الأفغاني؛ وقد أخذ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) - مؤسس الحركة - في العام (١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م)، السلفية عن أساتذته في الحركة الإصلاحية، وبشكل خاص عن محمد عبده، وحاول أن يعود بها إلى حماس الأفغاني ونشاطه ونظراته الشمولية وعدائه للاستعمار والتخلف؛ وحاول أن يكمل ما نقص عند الأفغاني محققاً هدفه في تجنيد الجماهير الإسلامية. فأسس جماعة الإخوان المسلمين - كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة - والتي خرجت منها الجماعات الإسلامية الحالية^(١).

لم تكن الحركة الإصلاحية الدينية هي الوحيدة التي احتلت الساحة الفكرية في مواجهة أهم متغيرين حصلاً: فشل استمرار الدولة الأمية الإسلامية من جهة؛ وانتشار أسس الحضارة الغربية في أوساط النخب المثقفة الإسلامية والعربية من جهة أخرى. فقد سار، إلى جانب تيار الحركة الإصلاحية، تياران آخران، وهما: التيار الليبرالي الذي أسسه رافعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣ م)، والتيار العلماني. شكّل هذان التياران حافزاً مباشراً في نشأة الحركة الإسلامية الإصلاحية المعاصرة.

إنفتح التيار الليبرالي على التراث الغربي، وأحيا الفكر الفلسفي العقلاني عند الحكماء دون العقلاء؛ فجاء طه حسين وانكب على منهج الاستنارة العقلية، وتحولت الليبرالية على يديه إلى أعمال للعقل في نقد التراث الأدبي، ونقد الأوضاع الاجتماعية. وهنا خبا الإسلام لصالح الغرب، وقد أثارت هذه النتيجة التيار الإسلامي السلفي، وبدأت موجات التكفير.

ثم انتهت الليبرالية تماماً، وظهر كتاب إسلاميون، أقرب إلى السلفية منهم إلى العقلانية، يكفرون طه حسين، ويضعون الإسلام في مواجهة العقل والعلم والنظم الديمقراطية، ويظهرون جوانبه الآلهية على حساب الجوانب العقلانية. فانتهت الليبرالية وسادت موجات التكفير لكل فكر جديد؛ وأصبح كل اجتهاد بدعة. وقد تاب عدد من الليبراليين مثل علي عبد الرزاق ونخالد محمد نخالد؛ وأعطى هذا الانقلاب في الحركة الليبرالية دفعة جديدة للأصولية الإسلامية^(٢).

أما التيار العلماني فقد شطح كثيراً تجاه الغرب والحضارة الغربية؛ وبدأت النظم العلمانية الغربية كالإشراكية أو القومية تظهر كبديل عن النظام الإسلامي. وقد خلف هذا التيار ردود

(١) حنفي، حسن: الحركات الإسلامية في مصر: م. س: ص ٢٦.

(٢) م. ن: ص ٢٧.

فعل لدى الأصولية الإسلامية، فأظهرت العداء الشامل للغرب. وفي المقابل تحول التيار العلماني إلى المادية والإلحاد والطعن على الإسلام والمسلمين؛ وهكذا انتهى فجر النهضة الإسلامية العربية الحديثة لصالح الأصولية الإسلامية، وسادت روح المحافظة الدينية^(١).

شقت حركة الإخوان المسلمين - بقيادة حسن البنا - طريقها بيسر وسهولة، منذ تأسيسها حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢م في مصر؛ وامتازت بعدد من الخصائص، منها:

- إرتباطها بالحركة الوطنية المصرية، خاصة في الأربعينات من القرن ٢٠م، وكان ينظر إليها الاستعمار على أنها العدو الرئيس له. وشارك أعضاؤها في حرب فلسطين.

- إصطدامها بالملكية، لأن الإسلام - حسب اعتقادها - لا يقبل النظام الملكي، أو يعترف بإمام للمسلمين لا تقوم ولايته بيعة وشورى.

- شعبية الدعوة وتغلغلها في أوساط العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين. وصياغة برنامج إصلاحي شامل.

- نشاط الدعوة وفاعلية تنظيمها.

- الانفتاح على العالمين العربي والإسلامي.

- مثلت الجماعة دعوة ظاهرة ونظيفة في أذهان الناس بالمقارنة مع الأحزاب التي كانت قائمة^(٢).

إصطدمت حركة الإخوان مع الملكية في مصر، وقُتل بنتيجة الصدام حسن البنا - مؤسس الحركة - . وفي المرة الثانية مع ثورة ٢٣ يوليو/ تموز وذلك على إثر محاولة الاغتيال التي نفذتها الحركة ضد جمال عبد الناصر؛ وقد برز نتيجة للصراع سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م)، الذي مثل - قبل إعدامه في العام ١٩٦٦م - قمة النضج الفكري عند الإخوان المسلمين^(٣).

أصبح كتاب سيد قطب (معالم في الطريق) يُعبرُ أصدق تعبير عن حال الدعوة الإسلامية في ظروف الاضطهاد. وهو يمثل محورا أساسيا في تطور فكر الإخوان^(٤). وفيه يرسم بوضوح منهاج الدعوة:

- هناك تعارض شديد بين فكرتين وتصورين، ومجتمعين ونظامين وحقيقتين: الإسلام والجاهلية، الإيمان والكفر، ولا بقاء لطرف إلا بالقضاء على الطرف الآخر.

(١) م . ن : ص ٢٩.

(٢) م . ن : ص ص ٣٣ - ٣٥.

(٣) الكيلى، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣) : المؤسسة العربية للنشر: بيروت: ١٩٨٣: ط ١: ص ٣٩٨.

(٤) حنفي، حسن: الحركات الإسلامية في مصر: م . س : ص ٤٧.

- فالإسلام هو الحق والخير والعدل؛ هو مجتمع الإيمان حيث تكون فيه الحاكمية لله؛ ونظام الدولة القائم هو مجتمع الكفر.

- لا يمكن إحداث التغيير إلا عن طريق الانقلاب، والقضاء على أئمة الكفر، ووضع أئمة الإيمان محلهم؛ ويقوم بهذه العملية الصفوة المؤمنة، وهي مفروضة فرضاً عينياً على كل مسلم ومسلمة^(١).

لقد تأثر سيد قطب بأبي الأعلى المودودي - الباكستاني الأصل، وخاصة في بلورة فكرة الجهاد. إنحصرت مستويات الرؤية للمودودي في الآتي: "إن حاكمية الله هي ضد حاكمية البشر، وإن ألوهية الله في مواجهة ألوهية البشر، ثم ربانية الله في مقابل العبودية لغيره من البشر، وأخيراً وحدانية الله في مقابل الاعتماد على أي مصدر آخر في تيسير أمور الحياة". وقد مثلت فكرة (الحاكمية لله) ما يشبه المسلمة الفكرية والحركية بالنسبة لتنظيمات الإخوان المسلمين، حيث كانت الحاكمية تعني تكفير الحاكم والمؤسسات المحيطة به، وشرعية الانقلاب عليه، لأنه يستند إلى حاكمية أخرى غير حاكمية الله وهي (حاكمية البشر) التي تسمح أحياناً بالديموقراطية، وأحياناً أخرى بالاشتراكية وبالعلمانية^(٢).

وعلى العموم، فقد انتشرت حركة الإخوان المسلمين - بالإضافة إلى مصر - وبشكل أساسي في كل من سوريا والجزائر. وسيان كانت الأسباب فقد انقسمت الحركة إلى تيارات عدة يجمع بينها الدعوة إلى إقامة الدولة الإسلامية، وتتمايز بعضها عن بعض في أسلوب الوصول إلى الهدف. وهذه أهم تياراتهم:

(السلفيون: وهم الداعون بالقلب. ويحسبون انه لا سبيل إلى مواجهة السلطة؛ فدعوا إلى إنكار ما تفعله، على أن لا تتجاوز الدعوة القلب إلى اليد واللسان؛ وهم يصلون إلى الهدف بالترية الدينية. ويستندون إلى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة ٥ : ١٠٥). وانطلقوا من أن السلف الصالح هو النموذج البشري الذي يجب أن يُقتدى به^(٣).

(١) م . ن : ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: رياض الريس للكتب والنشر: لندن: ١٩٩١: ط١: صص ١٩ - ٢٠.

(٣) خلف الله، محمد احمد: "الصحوة الإسلامية في مصر" (٣٥ - ١٠٤): الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي: م. س: صص ٦٥ - ٦٦.

(الإخوان المسلمون والدعوة باللسان: تخلّى هذا التيار عن أسلوب الحركة الأول في امتلاك التنظيم السري وأدوات القتال وأساليب الاغتيال. وأصبح سبيلهم في محاربة الانحراف والفساد الدعوة باللسان، أي تعليم الناس، حاكمين ومحكومين، الكتاب^(١)).

(الإخوان المسلمون: جماعة التكفير والهجرة: وقد ظهرت إلى الوجود في العام ١٣٩٧هـ=١٩٧٧م)^(٢). وتحسب هذه الجماعة نفسها أنها الفرقة الناجية من النار. ودعت إلى النضال ضد الدولة الكافرة التي تحكم بغير ما أنزل الله. ويمر النضال عندهم بمراحل ثلاث: - مرحلة الدعوة إلى إعلاء كلمة الله، وهي مرحلة علنية.

- المرحلة التي يبدأ فيها الصراع، ويشتدُّ البلاء. وفي أثنائها يهاجر المؤمنون إلى أرض تحفظ عليهم إيمانهم وأرواحهم؛ وفيها يتربون تربية قتالية في سبيل العودة لقتال الكافرين. - الثالثة: وهي مرحلة العودة بعد أن يشتدُّ عود المهاجرين، وحينها سوف ينتصرون على جند الشيطان حتماً^(٣).

وتقوم دعائم دعوتهم - كما وردت في اعترافات أمير الجماعة شكري أحمد مصطفى أمام محكمة أمن الدولة العسكرية العليا في مصر في العام ١٩٧٧م - على ثلاث: - الأولى: ما يتصل بإيجاب التماس الهدى والعلم من الله وحده. - الثانية: ما يتصل بمجد الإسلام.

- الثالثة: تحديد الغاية الإسلامية، وأسلوب السعي إليها بالطريقة الشرعية^(٤). والحاكمة هي، أيضاً، من فكر هذه الجماعة، ولكنهم يطبقونه بأسلوب العزلة وليس القتال^(٥). تُحرّم الجماعة كل ما يُسمّى بعلم وليس بعلم إن لم يتصل سنده بالله. و دلائل علم الله - عندهم - أربعة: الفطرة - خلق السماوات والأرض - الرسل - الكتب^(٦).

ومنهاج الإسلام - عندهم - يعتمد على المطالبة بالدليل والحجة، وليس على إغلاق باب النقاش/الاجتهاد^(٧). ولذلك - يحسبون - أنه منذ أن تركَّ التلقّي من القرآن والسنة - إقفال

(١) م . ن : ص ٦٦.

(٢) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م . س : ص ١٩.

(٣) خلف الله، محمد أحمد: م . س : ص ٦٧.

(٤) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م . س : ص ٥٤.

(٥) حنفي، حسن: الحركات الإسلامية في مصر: م . س : ص ١٠٥.

(٦) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م . س : ص ٥٤.

(٧) م . ن : ص ٥٥.

باب الاجتهاد - واقتصر الأمر على تقليد الرجال وآرائهم الذين يسمونهم الأئمة، فإنه قد سقط الإسلام^(١).

يحسب أحمد شكري مصطفى - أمير الجماعة - أن أكثر المعاهد الأزهرية الدينية - في ما يتصل بالجوانب الفقهية بالذات - منحرف كل الانحراف^(٢)، لأنها تقرر دراسة فلسفة ابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم على طلبة الكليات بما فيها من انحراف متعمد^(٣). فالعلم عنده "من الله وحده، وإن ما عداه فهو ظن، وعليه فإننا نُخرج كل ما لا يتصل سنده بالله من دائرة العلوم - وإن أسموه علوماً - كعلوم الفلسفة والاجتماع... إن العلم الذي أجاز الله تعلمه للناس إنما هو على سبيل الحصر: العلم الذي يربطهم بالتكليف الوحيد الذي لم يكلفهم الله إلا به وهو عبادته سبحانه... وأول سورة أنزلها ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ (...هي نهى عن التعليم إلا للعبودية"^(٤). و"بُتَّ أن الأعلم بالله والأتقى له هو الأقل علماً بأمور الدنيا"^(٥). و"يُحرَّم تعليم الكتابة في الجماعة المسلمة إلا بقدر الحاجة العملية الواقعية لما يتصل بالكتابة، وتعلّم الكتابة الزائدة حرام"^(٦). وهو يحسب أن مضار العلوم الدنيوية حجة: "إن البشرية كلها الضالة، التي دمرها الله تعالى، لم تكن تزهر إلا بالعلم، ولم تكن تتعالى على الله إلا بثمره هذا العلم المتعبد بعبادة الله وحده"^(٧).

تُبطل جماعة التكفير والهجرة شرعية أي دستور غير قائم على الشريعة الإسلامية^(٨)، حتى ولو جاء فيه أن الشعب هو مصدر السلطات؛ فإن التشريع لا يمكن أن يكون لأي مخلوق أو أمة أو شعب، فهو لله وحده. فالرسول - كما يزعم شكري مصطفى - رفض رفضاً كاملاً أن يكون الشعب هو الذي يختار الخليفة^(٩)؛ والسبب هو أن الدين الإسلامي يعلم أن عموم الناس لا يملكون الإمكانات الصحيحة، سواء من القدرات العقلية، ولا من المعلومات الواردة، على اختيار الأصلح لهم^(١٠).

(١) م . ن : ص ٥٦.

(٢) م . ن : ص ٧٠.

(٣) م . ن : ص ٧١.

(٤) م . ن : ص ٩٣.

(٥) م . ن : ص ٩٤.

(٦) م . ن : ص ٩٥.

(٧) م . ن : ص ٩٦.

(٨) م . ن : ص ٨٩.

(٩) م . ن : ص ٩٠.

(١٠) م . ن : ص ٩١.

إن مظاهر معصية الله الآن في الأرض - كل الأرض - وفي المجتمعات - كل المجتمعات ... هو مثل الدساتير المستمدة من غير شرع الله تبارك وتعالى، والمنبثقة من إرادة الشعوب بزعمهم؛ وإننا نقرر الآن [يستطرد شكري مصطفى] أنه لا ظل لدين الله في الأرض ... فكان على المؤمنين أن يبعثهم الله... بعد أن يضرب ضربته سبحانه ويبطش بطشته انتقاماً لألوهيته وعزته..."^(١).

ولا تُعجز الجماعة قتال اليهود، ولهذا طلبوا إعفائهم من الخدمة العسكرية في الجيش المصري، لأن الجيش لا يقاتل في سبيل الله، و"قتال العرب الآن لليهود لا يمكن بحال أن يُسمى قتالاً إسلامياً؛ حيث أن القتال الإسلامي - كما نعرفه - هو القتال في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، يعني لغرض الحكم بما أنزل الله، وليس من الممكن أن يقاتل قوم لا يحكمون أنفسهم بكتاب الله، ليحكموا غيرهم بكتاب الله..."^(٢).

لهذا، وحتى لو دخل اليهود مصر - يتابع شكري مصطفى - "فليس بالضرورة أن يكون سلوكي هو تقديم شباب جماعة المسلمين للموت في هذه المعارك، إنما قد يكون سلوكي ترك مصر وينتهي الأمر..."^(٣). و"نخطتنا هي الفرار من العدو الوافد تماماً كالفرار من العدو المحلي وليس مواجهته..."^(٤).

أما بخصوص بقاء بعض أفراد الجماعة في الجيش، أحلال هو أم حرام، فيقول: "فإنه عندنا حرام من الناحية الشرعية"^(٥).

تحكم الجماعة بالكفر على كل من لا يقتنع بفكرها ومذهبها، بسبب تكذيبه بآيات الله و سنة رسوله القاطعة، والتي يزعم شكري مصطفى أنه يسوقها آية تلو آية، ودليلاً تلو دليل^(٦).

وتحكم، أيضاً، بكفر أي إنسان بعد البلاغ وإقامة الحجة؛ ولكنهم - كما يقول - لا يحل لهم قتله الآن، وإذا قتله أحد من جماعته فلا يستحق القود استناداً إلى ما جاء في حديث الرسول "لا يُقتل مؤمن بكافر"^(٧).

(١) م . ن : ص ٩٢.

(٢) م . ن : ص ٩٨.

(٣) م . ن : ص ٩٩.

(٤) م . ن : ص ١٠٠.

(٥) م . ن : ص ٩٩.

(٦) م . ن : ص ١٠٢.

(٧) م . ن : ص ١٠٣.

(الإخوان المسلمون: تنظيم الفنية العسكرية: أنشيء في العام (١٣٩٣هـ=١٩٧٣م)، وأعيد أميره صالح سرية في العام ١٩٧٥م على إثر قيامه بمحاولة لقلب نظام الحكم^(١) .
يعتقدون أن الجهاد لتغيير الحكومات الكافرة، وإقامة الدولة الإسلامية، فرض عين على كل مسلم ومسلمة^(٢) . لكنهم يُحيزون للمسلم أن يشارك في هكذا حكومات على مختلف المستويات إذا كان واحداً من ثلاث:

- إذا كان واضحاً في عقيدته مصرّحاً بأنه يعمل لإقامة الدولة الإسلامية.
- أن يدخل في مختلف اختصاصات الدولة بأمر من الجماعة، إذا كان العلق غير ممكن.
- إذا وطّد العزم على أن ينضمّ إلى الجماعة الإسلامية الحقّة حين يجدها^(٣) .
يكفر عندهم كل شخص: يشترك في الأحزاب والجمعيات ويعتق مبادئها العقائدية - وكل من يوالي الدولة والأحزاب الكافرة - كل من أعدّ القوانين المخالفة للإسلام أو أسهم في إعدادها، أو طبّقها من دون اعتراض - المعارضون لأحكام الإسلام مهما كانت - الاعتزاز بآثار الكفر - حصر الدين بالعبادة - كل من سبّ الله أو الدين أو النبي - كل من ترك أركان الإسلام، وكل من أنكر إحدى عقائده^(٤) .

أما القواعد التي اعتمدها التنظيم لتكفير الناس فهي ثلاث:
- الأولى: إن الإيمان بالله يقتضي بأنه وحده الذي يرسم منهاج الناس وشرائعهم^(٥) .
- الثانية: إن الإسلام كل متكامل، من آمن ببعضه وترك البعض الآخر فهو كافر به^(٦) .
- الثالثة: يتم الحكم على الإيمان بثلاثة أركان، كما يقول السلف: " الإقرار بالجنان، والتكلم باللسان، والعمل بالأركان، فإن اختلّ ركن واحد من هذه الأركان حكمنا بالكفر"^(٧) .

(الإخوان المسلمون: جماعة الجهاد: وقد ظهرت إلى الوجود في العام ١٩٧٣م؛ وتفرّع عنها جماعة الجهاد الإسلامي في العام (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، وهي التي نفذت اغتيال أنور السادات في العام ١٩٨١م^(٨) .

(١) م . ن : ص ١٩ .

(٢) م . ن : ص ٤٢ .

(٣) م . ن : ص ص ٤١ - ٤٢ .

(٤) م . ن : ص ص ٤٢ - ٤٦ .

(٥) م . ن : ص ٤٦ .

(٦) م . ن : ص ٤٩ .

(٧) م . ن : ص ٤٩ .

(٨) م . ن : ص ١٩ .

أما جماعة الجهاد الإسلامي فهي جماعات متعددة، لا يضمها إطار تنظيمي واحد، بل تفرقت بها السبل إلى عدة تنظيمات صغيرة لا يجمعها إلا (عقيدة الجهاد) ، وقاتل الحاكم وتكفير مؤسساته المختلفة؛ ولم يعد لقيادة بعينها داخل تنظيم الجهاد الأم سلطان مطلق على شتى جماعات الجهاد الإسلامي^(١).

يقوم فكرها على عقيدة الجهاد، تلك الفريضة الغائبة التي تركها المسلمون، وتقوم ممارستها على قتال الحاكم الظالم، فرداً كان أو جماعة، مواجهة أو اغتيالاً بناءً على تكفير الحاكم^(٢). وعماد عقيدة الجهاد يستند إلى فكرة الحاكمية، التي يؤمن بها كل أعضاء الجماعة سواء من يؤيد العنف منهم، أو من يسلك طريق النصيحة^(٣).

و الحاكمية ليست للسلطة أو للحاكم بل للشريعة؛ أما السلطة فهي مجرد أداة لتنفيذ شرع الله^(٤). وعن فكرة الحاكمية ينتج تكفير النظام، وتكفير الحاكم ووجوب الخروج عليه، وجواز قتاله، واغتنام أموال الدولة، ومحاربة الجيش والبوليس لأن الخدمة فيهما كفرًا. فلا طاعة إلا لإمام، ويجب عصيان إمارة الكفر والسفاهة والجاهلية. ويتم تكفير الحاكم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٥).

تري جماعة الجهاد أن القتال ضد السلطة الكافرة واجباً دينياً لا يمكن التقصير في القيام به. ووجوب قتال الحاكمين عندهم يستند إلى أنهم ارتكبوا عن دينهم حينما حكموا بغير ما أنزل الله؛ ويُعدُّ قتل المرتد واجب ديني؛ وإنه ليس من حق المسلم أن يتخلّى أبداً عن قتل المرتد، وعلى هذا الأساس يجب أن يبدأ المسلمون.

انتقدت جماعة الجهاد جماعة التكفير والهجرة، وهم يُذكرونهم بأنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ...﴾ (البقرة ٢ : ٢١٦). وانتقلوا، أيضاً، الواقفين بالإسلام عند حدود التقوى والعبادة والنسك، وقالوا بأن قمة العبادة في الإسلام هو الجهاد؛ فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر؛ ومن يقف عند حدود العبادة فهو إما أنه لا يفهم الإسلام أو هو جبان.

(١) سيد أحمد، رفعت: الثائرون: رياض الريس للكتب والنشر: لندن: ١٩٩١: ط١: ص١٨٦.

(٢) حنفي، حسن: الحركات الإسلامية في مصر: م. س. : ص ١٠١.

(٣) م. ن. : ص ١٠٣.

(٤) م. ن. : ص ١٠٤.

(٥) م. ن. : ص ١٠٥.

ويردُّون على الذين يدعون إلى توجيه الطاقات الإسلامية لتحرير مقدَّسات المسلمين وأوطانهم من الاستعمار والصهيونية، بأن الطريق إلى تحرير القدس يمر عبر تحرير البلاد من الحاكم الكافر^(١).

إن الطابع الغالب على قراءات الجماعة هو فكر الفقهاء، وفي مقدمهم مجموعة فتاوى ابن تيمية وتلاميذه^(٢).

يحدد عبود الزمر - أمير جماعة الجهاد - في العام (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) وسائل الوصول إلى بناء دولة إسلامية بمرحلتين: مرحلة البناء والتكوين، ومرحلة الحركة.

ففي المرحلة الأولى تهتم الجماعة بالتعليم الشرعي والتعليم الواقعي من جهة، وبالتربية الروحية والبدنية من جهة أخرى، وإعداد الأعضاء قتالياً واختصاصاً من جهة ثالثة.

أما في المرحلة الثانية، أي الحركة، وهي مجموعة الأعمال التي تقوم بها الجماعة للوصول إلى الغاية العظمى؛ وتتمثل بالدعوة إلى الله - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ثم الجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام^(٣).

وعن أهمية الجهاد يتكلم محمد عبد السلام فرج - الأمين العام لتنظيم الجهاد في العام ١٩٧٩م/١٩٨١م - في وثيقة الفريضة الغائبة، وهي من أهم معتقداتهم، فيقول: إن إقامة الدولة الإسلامية فرض أنكره بعض المسلمين، وتغافل عنه البعض مع أن الدليل على فرضية قيام الدولة واضح بين في كتاب الله: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة ٥: ٤٨). ويقول، أيضاً: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ٥: ٤٤)^(٤). ومن أجل ذلك فقد أمر الله المسلمين بالقتال، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ (البقرة ٢: ٢١٦). أي أن القتال فرض، وهو واضح بالنص القرآني: أي للمواجهة والدم. فالجهاد، إذاً، هو فرض عين^(٥).

ب - حزب التحرير الإسلامي : تأسس في العام (١٣٧١هـ/١٩٥٢م) "بهدف استئناف الحياة الإسلامية، وذلك بإقامة دولة إسلامية؛ أو بعبارة أخرى عودة الخلافة لتطبيق الإسلام، لأن الإسلام لا يمكن أن يعود للحياة إلا بدولة تقوم على تطبيق أحكامه في المجتمع". ويرى الحزب أنه لا بد من مراحل ثلاث، كأساس لتطبيق أفكاره:

(١) خلف الله، محمد أحمد: م . س : ص ص ٦٧ - ٧٠.

(٢) حنفي، حسن : الحركات الإسلامية في مصر: م . س : ص ١٠٩.

(٣) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م . س : ص ص ١١٩ - ١٢٣.

(٤) م . ن : ص ١٢٨.

(٥) م . ن : ص ١٣٨.

- تهيئة ناس أكفيا مؤمنين بهذه الفكرة، وعندهم الاستعداد الكامل للتضحية بكل ما يستطيعون لنصرة الإسلام.

- تهيئة الأمة لتقبل ما يريد هؤلاء الناس من تطبيقه...

- مرحلة إقامة الدولة الإسلامية^(١).

حَسِبَ الحزب أنه اجتاز بنجاح المرحلتين الأولى والثانية، فأخذ منذ العام (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) ينازع السلطة لاستلام الحكم في أي قطر يستطيع الحصول عليه فيها. وقد حاول في الأردن مرتين، وعدة محاولات في العراق، لكنه لم يُوفق في عمله^(٢).

يدعو الحزب المسلمين كافة إلى إِبصار الطريق الذي حدّده الشرع والرسول، وهو طريق لا يخضع لتغير الزمان والمكان^(٣). قال تعالى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، (أي لا أقوم ولا أسير بشيء إلا بما يوحيه الله ليسير الناس عليه. فهذه الآيات قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، في بيان وحصر أن ما يأتي به الرسول للناس، وما ينذرهم به، وما يدعوهم إليه، وما ينطق ويتلفظ به في تبليغ الرسالة، كله صادر عن الوحي من الله، ولا يحتمل غير ذلك من تأويل أو تفسير)^(٤). وإن كل من يدعو إلى عدم الأخذ بالسنة النبوية إنما هو عدو للإسلام^(٥). ولذلك "فإن إنكار حُجَّةِ السُّنة، قولية كانت أو فعلية، أي إنكار جعلها كالقرآن دليلاً شرعياً، وأصلاً من أصول الإسلام، التي تُؤخذ منها العقائد والأحكام الشرعية كفر صراح"^(٦).

ومع ذلك، فلا يرى الحزب - مثلاً - أن لبنان يصلح لقيام دولة إسلامية، لأنه لا يوجد فيه مقومات دولة إسلامية تعيش ولو ليوم واحد. ففي مثل هذه الحالة يعمل الحزب على تهيئة الناس لانضمامه إلى قطر آخر يصلح لهذا^(٧).

وعلى الرغم من موقف الحزب في شأن لبنان إلا أنه يعلن أن كثيراً مما هو سائد فيه من الأنظمة السياسية والقانونية مخالفة لتعاليم الإسلام:

(١) حزب التحرير الإسلامي: الحركات الإسلامية في لبنان: ملف مجلة الشراع: بيروت: ١٩٨٥ : د. ط: ص ١٧٠.

(٢) م . ن : ص ١٧١.

(٣) م . ن : ص ١٧١.

(٤) حزب التحرير الإسلامي: مذكرة من حزب التحرير مقدمة إلى العقيد القذافي: كراس منشور: د. ن: ١٩٧٨/٩/٩م: ص ٩ - ١٠.

(٥) م . ن : ص ٤.

(٦) م . ن : ص ١٥.

(٧) حزب التحرير الإسلامي: الحركات الإسلامية في لبنان: م . ن : ص ١٧٧.

- يشمل مشروع قانون الزواج المدني بعض المسائل التي تؤكد بشكل قاطع أنه قانون كفر. وإن الدعوة إليه كفر. وكل من يرضى به عن طيب نفس هو كافر.
- "كان الواجب على المسلمين رفض كل القوانين اللبنانية المخالفة للقرآن".
- على العلماء "أن يرفضوا أن يكون رئيس الجمهورية نصرانياً، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَبْصَرٍ وَلَئِن جَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١).

بالإضافة إلى كل ذلك، يتخطى حزب التحرير كل ما هو إقليمي، وكل ما هو قومي، وكل ما هو وطني، لأنه - كما يزعم - حزب مبدئي يتخطى حتى المذهبية^(٢)؛ فالبلاد "الإسلامية" هي بنظر الحزب بلد واحد، كذلك الحزب في كل الأقطار حزب واحد، بقيادة واحدة، وانتظام واحد، ولا يخرج عن ذلك أحد، كل ما تبناه قيادة الحزب، الجميع ملزمون به"^(٣).

ج - المذهب الوهابي يعني نظامه السياسي: محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ / ١٧٠٥ - ١٧٩٢م) هو الزعيم الروحي للمذهب الوهابي. إنتشر المذهب في منطقة نجد وما حولها في داخل الجزيرة العربية.

الوهابية هي من أولى حركات الإصلاح الديني في الوطن العربي. وهي بحث للاتجاه السلفي المحافظ في الفكر الإسلامي، الذي يأخذ بظاهر النصوص الأصلية، ويرفض البدع كلها، وينفر من الفلسفة والتأويل؛ وكان ابن حنبل هو الذي أسس هذا الاتجاه/ المذهب وتابعه فيه أحمد بن تيمية.

فالمذهب الوهابي واحد من حركات اليقظة العربية المناوئة للعثمانيين. ولما قُبِضَ له أن ينتسب إليه محمد بن سعود - أمير الدرعية في الحجاز - أصبح له أمراء يسعون لتكوين دولته، وقد انتصر المسعى بتكوين المملكة العربية السعودية في العام (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م)^(٤).

لقد شهد تجديد (علم التوحيد) بداياته الأولى على يد محمد بن عبد الوهاب؛ وتُعَدُّ الحركة الوهابية استئناف للاحتجاجات الحنبلية، التي عبّر عنها تقي الدين بن تيمية، وتحقيقاً عملياً لانتقاداته المعارضة للبدع المستحدثة في الحياة الدينية والاجتماعية اليومية. وقد بدا هذا

(١) حزب التحرير الإسلامي (ولاية لبنان): قانون الزواج المدني هو قانون كفر: بيان منشور: د. ن: ١٩٩٨/٣/١٩.

(٢) حزب التحرير الإسلامي: الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ١٧٤.

(٣) م. ن: ص ١٧٨.

(٤) الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٧): م. س: ١٩٩٤: ط ١: ص ٣٥٧.

الاحتجاج في مظاهر متعددة، منها: الدعاء والاستغاثة والاستعاذة والحلف بغير الله غير جائز؛ وزيارة القبور إذا كانت مصحوبة ببدع أو إذا كانت لطلب الخوائج أو الشفاعة من أصحابها. لم يُعَنَّ الوهابيون إطلاقاً بالتدليل على وجود الله أو نبوة الرسل أو على إثبات المعاد وما أشبه ذلك من قضايا علم الكلام الإسلامي التقليدي - كما فعل المعتزلة - وهو أمر يلزم بالقول بالتوحيد العقلي. وإنما كان التوحيد الوهابي ذا مضمون نفسي اجتماعي متحرر من الخرافات والأوهام. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت الوهابية حبيسة أطر ثقافية عاجزة أصلاً عن استخدام الينايع الأولى لأغراض العالم الحديث^(١).

دخلت الوهابية ساحة الصراع الدائر بين الفرق الإسلامية حول حيازة موقع الفرقة الناجية من النار. وهنا يُعرَّف عبد الله التركي - أحد كبار مشايخ الوهابية - الطائفة المنصورة (الناجية)، كما يلي: "هي الجماعة القائمة بأمر الله، العاملة بكتابه، المهتدية بسنة رسوله، وهي الملة المنصورة التي أخبر عنها المصطفى (ﷺ)، والفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة التي ذكر الرسول أن أمته ستفترق عليها". ويقول، أيضاً، إن كثيراً من المسلمين: "انحرفوا عن الجادة، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً، وابتعدوا عن الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة، واستوردوا مناهج عملهم من أعدائهم". أما المملكة العربية السعودية فتتميز بواقعها وخصوصياتها، وأنها "ليست في حاجة لأي فكر وافد أو منهج من أي جماعة أو حزب، فقد أغناها الله بمنهج الإسلام وطريقة رسول الله عن أي منهج آخر". ولهذا فقد نصح شباب المملكة أن يوهلوا أنفسهم لحمل الرسالة وفق ما تدين به المملكة وتسير عليه^(٢).

ومن دون أن نخوض في ما يوجهه بعض التيارات الإسلامية من نقد للمذهب الوهابي، فلا بد من أن نؤثر على تأثيرات المذهب على المسلمين، من خلال ما قاله أحد الصحفيين المصريين نقلاً عن المهاجرين المصريين إلى السعودية، الذين يعودون بأفكار عنصرية تجاه المسيحيين؛ حيث ينقل العائدون ملاحظات كثيرة تنتشر في مصر، وتدل دلالة مباشرة على مكن الخطورة، وذلك بأن هؤلاء يفتخرون بأنه لا توجد في السعودية أية كنيسة؛ وكأن ذلك مبعث فخر ألا توجد هناك كنائس، بينما توجد القواعد العسكرية الأمريكية، وشركات البترول المتعددة الجنسيات؟^(٣) ||

(١) جدعان، فهمي: أسس التقدم... م. س : ص ص ١٨٩ - ١٩٢.

(٢) التركي، عبد الله: "الطائفة المنصورة" (٤٦) : مجلة الوطن العربي: فرنسا: العدد ١١١١ : ١٩٩٨/٦/١٩.

(٣) عيسى، إبراهيم: "ماذا جرى للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مصر" (٢٠ - ٢) : مجلة روز اليوسف: القاهرة: العدد ٣٤٢٤: تاريخ ١٩٩٤/١/٢٤ : ص ٢٢.

د - الشيعة الإثني عشرية تتبنى خط التنظيم الحزبي الإسلامي:

يُميّز مرتضى المطهري (ت في العام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) - أحد رجالات الثورة الإيرانية - خصائص الحركات الشيعية عن الحركات الإصلاحية السُّنَّية بما يلي: قلما يقتصر المحيط الشيعي على طرح الكلام عن الإصلاح أو النظريات الإصلاحية، وقلَّ ما بُحِثت مواضيع حول: ما العمل؟ ولكن مع ذلك فقد ظهرت عند الشيعة حركات إصلاحية، خصوصاً حركات مضادة للديكتاتورية والاستعمار^(١). و تكلم، في المقابل، علماء الدين السُّنة عن الإصلاح، ولم يقودوا حركات ثورية في سبيله؛ وعلى العكس من ذلك قاد علماء الدين الشيعة الحركات الثورية من دون أن يطرحوا نظريات إصلاحية^(٢).

يعيد المطهري أسباب ذلك، فيقول: "هو ارتباط هذه القضية بالنظام الخاص (لرجال الدين الشيعة) و (رجال الدين السُّنة). يقع جهاز رجال الدين السُّنة - تقريباً - بيد الحكام الذين يعتبرونهم من (أولي الأمر)... فجهاز رجال الدين السُّنة جهاز متم وتابع، والجهاز المنتمي والتابع لا يستطيع أن يقف ضد القوة التي ينتمي إليها... في حين أن جهاز رجال الدين الشيعي هو جهاز مستقل بحد ذاته. فمن الناحية المعنوية يتكوى على قدرة الله، ومن الناحية الاجتماعية يعتمد على قوة الناس، ولهذا السبب كان رجال الدين الشيعة، وعلى طول التاريخ، قوة تعارض وتحارب الظالمين"^(٣).

من الواقعي أن يقف السُّنة في صف الموالية لنظام إسلامي كان يتبنى المذاهب السُّنَّية مذهباً رسمياً، وبشكل خاص في العهود العباسية والعثمانية، وأن يقف الشيعة في صف المعارضة لنظام لم يكن يعترف بمذهبهم. وتنقلب المواقف في العهد الفاطمي. ولو بقي المطهري حياً، بعد انتصار الثورة الإيرانية، لكان من المنطقي أن يقف في صف الموالية للنظام القائم وليس في صف المعارضة. وإنه على العكس مما قاله المطهري فقد وقعت بعض الحركات السُّنَّية في صف الثورة ضد النظام السني، وقد مرّت معنا وقائع في البحث تؤيد هذه النتائج.

وعلى العموم - يرى المطهري - أن الثورة هي من فضيلة (نهضات الأنبياء)، أي أنها تقوم على أساس الشعور الألهي الذي نجد جذوره في أعماق الفطرة البشرية، وينبع من الضمير الباطني

(١) المطهري، مرتضى: الحركات الإسلامية في القرن الأخير: دار الهادي: بيروت: ١٩٨٢: ط ١: (تعريب صادق العبادي): ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) م . ن : ص ٧٦.

(٣) م . ن : ص ٧٧.

للإنسان^(١). أما جنود الثورة فتبت عندما تقع أحداث تصب في غير مصلحة الأهداف الإسلامية السامية^(٢).

تعود بداية التفكير الشيعي الإثني عشري بسلوك الخط التنظيمي الحزبي الديني إلى العام (١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م) ؛ وقد كانت البداية هي تأسيس حزب الدعوة الإسلامي - الشيعي في العراق، وانتقل إلى لبنان في النصف الثاني من الستينات من القرن ٢٠م. وكان قد تم تأسيس الحزب على قاعدة شرعية أن يتسلم العلماء الحكم ويقومون به، وأن يعتنوا بالسياسة والاقتصاد، وأن يطلبوا قيام دولة إسلامية عالمية^(٣).

ومن وسائل الحزب التنظيمية أن يجمع طالب العلم بين التحصيل الديني، وبين أنشطة حياة عادية؛ ويُعدُّ هذا الجمع ضروري للدعوة وحزبها^(٤). فالداعي يقوم بنشاط التدريس الديني، ومشاركة الناس في أعمالهم، ومعايشة همومهم وقضاياهم^(٥). بالإضافة إلى ذلك، فقد تدرَّب أعضاء الحزب على العمل المسلح في أوائل السبعينات من القرن ٢٠م^(٦)؛ وتخرج منهم عدد من الانتحاريين^(٧).

عمل حزب الدعوة، ومن بعده "حزب الله" - منذ أوائل الثمانينات من القرن ٢٠م - على بناء الشخصية الإسلامية التامة من خلال المدارس والحوزات، وإعداد "الملتزم الرسالي"^(٨). ويتحصَّن المجتمع الإسلامي عندهم، أي مجتمع "الحكم الشرعي" العامل بولاية الفقيه "الإمام قائد الأمة"، بالمسجد أو بالنادي الحسيني^(٩).

وبسبب من ندرة المعلومات عن حزب الدعوة، وبعد تأسيس حزب الله في أوائل الثمانينات، نطنُّ أن التنظيمين قد أصبحا تنظيمًا واحدًا، بحيث أصبح تنظيم حزب الله وحيداً في الواجهة السياسية والعقائدية الشيعية.

أما المنطلقات الأساسية لحزب الله: "هم أصحاب رسالة، والأساس في بنيتهم العقائدية هو القرآن الكريم. إذن، الرسالة التي يحملونها هي الرسالة التي يجب أن تعمَّ العالم، حتى تعيش

(١) م . ن : ص ٨٥.

(٢) م . ن : ص ٨٨.

(٣) شرارة، وضاح: دولة "حزب الله": دار النهار: بيروت: ١٩٩٨: ط٣: ص ٦٨.

(٤) م . ن : ص ٨٩.

(٥) م . ن : ص ٩١.

(٦) م . ن : ص ١٠٩.

(٧) م . ن : ص ١١٠.

(٨) م . ن : ص ١٢٢.

(٩) م . ن : ص ١٩٦.

الإنسانية مبادئ وتشريعات وأخلاق القرآن ... من هنا يتحدد نوع العمل، عمل تحكمه الرسالة ولا يحكمه الإنسان...^(١).

فالإسلام ليس "رسالة تبشيرية فقط، وإنما رسالة تبشيرية ورسالة لإقامة مجتمع العدالة في الأرض"؛ لهذا تعمل جماعة حزب الله "من أجل مجتمع سياسي متجدد، ومستقل في هويته وشخصيته الحضارية؛ وهذا يفرض - بالتأكيد - حالة صراع مع كل التجمعات البشرية التي ترفض أن تتعامل مع الإسلام كرسالة للحياة"، وقد سبقت هذا الهدف "محطات تاريخية مذهلة جداً، وفيها ما يكفي لبناء مجتمع يحمل روحية الثورات..."^(٢).

وفي سبيل العمل من أجل هذا الهدف، كما يقول أحد قادتهم: 'نحن اليوم ندرس مشروعاً إسلامياً مبنياً على الفكر والرسالة؛ فالمشروع المطروح على العالم اليوم/ هو مشروع الأمة، دولة الإسلام الكبرى... نحن مقبلون على حالة وعمل توحيدي للشعوب في المنطقة ... [وهناك] توجد كل الفرص لاستمرار وتوسيع هذا المشروع، وهذا ما عبر عنه الإمام الخميني بتصدير الثورة"^(٣).

وعن قيادة المشروع، يقول: "فالقيادة تتمثل في الرسول وفي الأئمة المعروفين، وبعد الأئمة الفقهاء الأولين. وفي الوقت الحاضر نحن نعيش على غيبة الإمام المنتظر؛ فالقيادة في هذا العصر تتمثل في قيادة الفقهاء العدول"^(٤).

أما كيف يمكن للدعوة الإسلامية - حسب وجهة نظر حزب الله - أن تعالج إشكاليات العلاقة بين المذاهب الإسلامية، ومع أصحاب الديانات السماوية الأخرى، ومع الأحزاب والحركات القومية؟

- حول العلاقات بين السنة والشيعة: "نستطيع القول أن هناك حالة شكلية طائفية أو مذهبية، أكثر منها حالة اختلاف في خلفيات فكرية عميقة... بل نشعر بوجود حدود نفسية، ربما تعود في بعض الحالات إلى ابتعاد السنة عن الشيعة في مجتمعاتهم، جغرافياً وتاريخياً... لكن أعتقد أن الزمن يجعل كثيراً من هذه المشاكل"^(٥).

(١) السيد، إبراهيم الأمين: "حزب الله حركة شعب وليس تنظيمًا حزبيًا": الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ١٤٥.

(٢) م. ن: ص ١٤٦.

(٣) م. ن: ص ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) م. ن: ص ١٤٦.

(٥) فضل الله، محمد حسين: الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٢٥٤.

- وحول العلاقات مع أصحاب الديانات السماوية: "إذا كانت القضية قضية ما تعتبرونه انتقاصاً من كرامة المسيحي في نظام أهل الذمة، فيمكن عندئذ التفكير في هذا، من خلال إدارة الحوار في طبيعة الطرح الإسلامي في هذا الموضوع. وما حدث في التاريخ... هل كان مرده إلى الخط الإسلامي، أم إلى إساءة في التطبيق؟" (١).

- وحول العلاقة مع الحركات القومية: "ربما كان بعض أسباب نجاح الحركات القومية في الساحة العربية - على الأقل - مرتبطاً بقضية التحرر من الاستعمار، ومن ضغط الاستبداد الذي كانت تمارسه الخلافة العثمانية" (٢). ومع ذلك: "لا نشعر أن القومية العربية - كإطار ومضمون - شيء واقعي. ولكن إذا وُجدت جماعات تفكر قومياً، نحن لا نمانع أن نتعاون معها كمسلمين أو كإسلاميين في مواجهة الاستعمار... ولا يعني تعاونك مع أي فريق في مرحلة ما، أنك تعترف بشرعية فكرته... نحن نشعر أننا لا نستطيع في كل القضايا أن نقوم بها وحدنا" (٣).

كانت الدعوة إلى مركزية الدولة الإسلامية واضحة لا لبس فيها في بدايات مراحل تأسيس "حزب الله"، فالدين عند الله الإسلام؛ ولهذا قام الدعاة للحزب على حمل تابعيهم على تجاوز كل ما هو عائلي ووطني، ودعوا إلى الانتساب لله وحزبه من جهة، والإقرار بمركزية الثورة الإسلامية في إيران، كنواة لبناء الدولة الإسلامية، من جهة أخرى (٤).

وقد شهد الحزب تحولات في مواقفه، فبعد أن اشترك الحزب في تظاهرة ترفع شعار (لا حاكمية إلا لله) (٥)؛ أخذت تحولات على المواقف تظهر - منذ أوائل التسعينات من القرن ٢٠م - في اتخاذ مواقف سياسية جديدة، وذلك بالانخراط في المعركة الإصلاحية، والدعوة إلى ضمان الحريات السياسية والفكرية والإعلامية (٦).

ومن الحاكمية لله تصبح القيم الإسلامية "قيم واقعية، وليست مثالية، ليست قيماً مطلقة، لأنه ليس في الحياة من مطلق...؟" ويصبح الإسلام والمسيحية والماركسية "...طروحات فكرية تتسع لجميع الناس! وكل فكر يمكن أن يقبله بعض الناس ويرفضه بعض الناس..." (٧).

(١) م . ن : ص ٢٥٥.

(٢) م . ن : ص ٢٦٠.

(٣) م . ن : ص ٢٦٧.

(٤) شرارة، وضاح: م . ن : ص ٣٣٥.

(٥) شرارة، وضاح: م . ن : هوامش الفصل ١٥ (رقم ٩٠) : ص ٣٨٨.

(٦) م . ن : ص ٣٦٨.

(٧) فضل الله، محمد حسين: "أخطأنا كما أخطأ غيرنا..." (٣٥ - ٤٢) : مجلة الحساء: بيروت: العدد ١٣٥١ : ١٩٨٩/١/٢٧ : ص ٣٧.

III - حركة الإحياء الإسلامي وسيادة مبدأ الاتهام بالردة

إذا لم تكن الرؤى حول المقدّس موحّدة، فهي لن تكون موحّدة. فالأولى بالمقدّس أن يكون، بل يجب أن يكون، بعيداً عن تعدد الآراء. وإلا فالنتيجة أن يصبح المقدّس تائهاً عن الحقيقة، فتضيع قدسيته.

إن ما يصح على الوضعي ليس بالضرورة أن يصح على المقدّس. فالوضعي هو من صنع البشر الذين يخطئون؛ أما المقدّس فهو من صنع الله المتعالي عن الخطأ. فأين يقف المسلمون من النص القرآني المقدّس؟

"إذا استثنينا وحدة الرؤية النظرية الإيمانية في الجوانب الماورائية والأخلاقية، نرى أن التمزّق والتجزئة في الرؤى السياسية للأنظمة والحركات الإسلامية هي السمة السائدة؛ وقد تكون هذه الثنائية - وحدة إيمانية وتفتيت سياسي - نابعة من سكونية الحركة في فكر بعض الأصوليين الإسلاميين عندما تشرنقوا في داخل الدوائر التي حسبوا فيها أنهم امتلكوا الحقيقة المطلقة دون غيرهم، فأغلقوا الأبواب في وجه عقيدتهم في ثنائيات لا تقبل الجدل والتفاعل"^(١).

يحول دون وحدة الدولة الإسلامية، أو قيام نظام سياسي إسلامي موحّد، عدد من الإشكاليات التي استعصت على الحل منذ بدء الخلاف الديني - السياسي في عهد الخلافة الراشدة حتى عصرنا الراهن. ويدل عدم إمكانية بناء دولة إسلامية واحدة ذات قواعد سياسية واحدة، متّفق عليها من مختلف التيارات والمذاهب الإسلامية - وعلى الرغم من النوايا الصادقة للكثير من علماء الدين المسلمين، وعلى الرغم من الخطاب السياسي الإسلامي المعلن المملوء بالأمل - على عمق التناقضات التي تحكم علاقة المذاهب والفرق الإسلامية بين بعضها البعض.

(١) راجع مقالنا: "العلاقة الجدلية بين المؤثرات الذاتية والخارجية في واقع التفتيت القومي والإسلامي" (٢ - ١٤) : مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ١١/١٢: ١٩٩٨: ص ٦.

إن حلمنا الجميل بالوحدة الإسلامية - دولة واحدة وقانوناً موحداً - لم تُثبت فعاليته وإمكانية حصوله القرون المديدة من عمر الدعوة الإسلامية. ولما جاء القرن ١٩ م/١٣ هـ حمل معه آمالاً جديدة بالإحياء الإسلامي عبر اتجاهات جديدة لعدد من العلماء المسلمين، أرادوا منها الوصول لوحدة سياسية إسلامية تقي الأمة غوائل التخلف والقهر والتجزئة. وقد شهدت أوائل القرن ٢٠ م ولادة تيارات إسلامية رفعت مبادئ، حسبت من خلالها أنها تحدد مساراً صالحاً لبناء نظام سياسي إسلامي يحقق الأحلام المنشودة - المفقودة. وعلى الرغم من كل ذلك، وبإضافة نوايا جديدة إلى تجربة طويلة لم تثبت نجاحها، لم يولد حتى الآن أمل يؤشر على وجود نقاط اتفاق أو مسودة مشروع اتفاق جذبي تجمع شمل المسلمين بمذاهبهم الإسلامية المتشعبة؛ ويجول دون ذلك - كما نحسب - إشكاليات كثيرة سنحاول الإلمام بما نستطيع أن نلّم به منها:

١ - هل يمكن تأسيس مرجعية دينية إسلامية مركزية ملزمة؟

تعدّ من البديهيات أن أية دعوة تستهدف تنظيم شؤون المجتمعات وتوحيدها، ولكنها لا تمتلك مرجعية مركزية فكرية أو سياسية تشكّل الحُكم الفصيل في الخلافات والاجتهادات والآراء، سوف تُبنى على أساس مهتز تتقاذفه عوامل التمزق والتفتيت؛ ويصبح الأمر التنظيمي والتوحيدي أكثر صعوبة وأكثر استحالة، ومظاهر التفتيت والتجزئة أكثر بروزاً، إذا كانت تعددية الآراء مبنية على ما يسمى بالقاعدة القدسية فيتحول الأمر، بدلاً من الوحدة، إلى نصوص مقدسة أو ملوثة بصبغة القداسة تواجه نصوصاً أخرى مقدسة أو ملوثة بصبغة القداسة تتناقض معها إلى الحدود التي لن تتنازل فيها إحدهما عن قدسياتها للأخرى. فكيف يتم ذلك؟

أ - لم يكن النص الديني الإسلامي واضحاً أو جامعاً أو مانعاً لكي يغني بذاته عن أي تفسير أو تأويل. لهذا كثرت الاجتهادات المستندة إليه؛ ولأنه يُعدّ نصاً مقدساً أسبغت كل فرقة إسلامية صفة القدسية على اجتهاداتها الخاصة؛ فغابت المرجعية المركزية، سواء منها النخبوية أو الشعبوية، وحسب كل تيار اجتهادي أنه يمتلك الحقيقة المقدسة بمفرده. فارتفعت السدود بين التيارات، وتشكّلت المذاهب، وأصبح كل مذهب يحسب نفسه أنه الفرقة الوحيدة الناجية من النار. وهذه بعض الأمثلة التي توضح الصورة أكثر:

(يقول محمد باقر الصدر (ت في العام ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ) أنه "لو كانت أحكام الشريعة قد أعطيت كلها من خلال الكتاب والسنة، ضمن صيغٍ وعبائر واضحة صريحة لا يشوبها أي

شك أو غموض لكانت عملية استخراج الحكم الشرعي من الكتاب والسنة ميسورة لكثير من الناس، ولكنها في الحقيقة لم تُعطَ بهذه الصورة المتميزة الصريحة" (١).

(يقول محمد حسين فضل الله (مفكر إسلامي معاصر) : إن المسلمين - حتى أيامنا الحاضرة - يشعرون "بالحرج الكبير أمام فقدان الضوابط التي تمنع انتشار الكتب التي تتحول إلى ما يشبه "الكشاكيل الفكرية" الحاملة للخرافات والتفاهات والأفكار المغلقة... مما يخلق لنا كثيراً من ألوان الفوضى في الفكر والعمل، ويدخلنا في مجالات الصراع الداخلي، الذي يهرب منه الفكر لنعيش في أجوائه سذاجات القداسة الغارقة في ضباب الزيف الروحي والفكري" (٢).

(يقول السيد سابق (مفكر إسلامي معاصر) إنه أصبح لكل إمام نص يفوق قدسية النص المقلّس: "وقد بلغ الغلو في الثقة بهؤلاء الأئمة حتى قال الكرخي: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ" (٣).

(يقول الشهرستاني إنه إذا كانت النصوص متناهية "والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهي لا يضبطه ما يتناهي" (٤).

(يقول النعمان بن محمد عن كل من قال أن هناك ما ليس موجوداً في كتاب الله وسنة رسوله، إنه قول: "يكذبه الكتاب والسنة، كمثل ما جاء في آية ﴿وَمَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام ٦ : ٣٨) (٥).

(يقول زكي أحمد (مفكر إسلامي معاصر) : "نحن نعتقد اعتقاداً قاطعاً لا ريب فيه أن الإسلام فلسفة متكاملة لحضارة الإنسان ، ولم ينزل لنا الإسلام كأصول كلية، بل شرح لنا أدق المسائل الجزئية في كل تفاصيل حياة الإنسان المسلم؛ ولم يهمل أي حاجة للإنسان، وهذا ما يتوضّح لنا في الأحاديث الشريفة المنصوصة عن الرسول وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام. وهذه الصفة الأساسية مفقودة تماماً في كل المدارس الفكرية الوضعية؛ وهذا يعني أن الإسلام لا يحتاج حتى إلى الأمور الصغيرة، فكيف بالأمور الكبيرة" (٦).

(١) المصدر ، محمد باقر : م . س : ص ٨٨.

(٢) فضل الله ، محمد حسين: قضايانا على ضوء الإسلام: دارالزهراء: بيروت: ١٩٨٥: ط٦: ص ٥٦.

(٣) السيد سابق : فقه السنة (١م) : م . س : ص ١٣.

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١٩٨.

(٥) بن محمد ، النعمان : م . س : ص ٣٩.

(٦) أحمد ، زكي: الحركة الإسلامية ومعالم المنهج الحضاري: دار البيان العربي: بيروت: ١٩٩١: ط١: ص ٣٠.

(لكن محمد حسين فضل الله يرى وعلى العكس مما يقوله زكي أحمد بأن القيم الثابتة/ الأصول الكلية ليست مطلقة، والتفاصيل الجزئية ليست ثابتة أيضاً؛ فالقيم الإسلامية عنده "هي قيم واقعية، وليست مثالية، ليست قيماً مطلقة، لأنه ليس في الحياة من مطلق... والقيمة محدودة حتى لو كانت قيمة روحية كبيرة... ولهذا عندما نتحدث عن الثوابت، نقول إنها ثوابت متحركة، إنها ثوابت في العنوان، ومتحركة في التفاصيل وخط السير" (١).

(وفي خط السير نفسه يتابع محمد مهدي شمس الدين مُسبِغاً على الإسلام صفة الكمال والاكتمال حتى في أدق التفاصيل، لأنه في الإسلام - كما يحسب - يوجد "نظام حياتي كامل لا يترك مجالاً لأي نظام آخر، ولا يدع منفذاً للشعور بالحاجة إلى تنظيم جانب من جوانب الحياة، لأن الشريعة الإسلامية، بقواعدها الكلية العامة بالفقه الذي يُنْيَى على أصليها الكبيرين (الكتاب والسنة)، شاملة مستوعبة لكل ما تقضي به سنة الحياة إلى نظم وأحكام" (٢).

وعلى الرغم من ذلك فهو يدعو إلى التكامل مع الحضارات الأخرى، وهذا التكامل - بدون شك - لا بُدَّ وأن يشمل أنظمة فكرية وسياسية غير قائمة على قواعد وسُنن إسلامية، ومع ذلك فهي أنظمة أثبتت صلاحيتها في الاستجابة لحاجة البشر، وإلا لما كان دعا شمس الدين إلى التكامل معها؛ ومن هنا يصبح من المنطقي والواقعي أن نعترف للآخر أنه يمتلك ولو بعضاً من الحقيقة. ولهذا فهو يقول: "إننا نرى أن من غير الواقعي ومن غير الصحيح والمنطقي مواجهة العولمة [الحضارات الأخرى] بالانغلاق، أو برفض كل شيء أو بالعودة إلى النص من دون وعي" (٣).

(يقول شكري أحمد مصطفى (أمير جماعة التكفير والهجرة في حركة الإخوان المسلمين) ردّاً على سؤاله عن الحكم على من لا يستجيب لفكره ومذهبه ولم يدخل في ما دخل فيه: "... أحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده، بل لا يوجد سبب للكفر غيره، وهو تكذيبه بآيات الله وسنة رسوله القاطعة، والتي سقناها له آية تلو آية ودليلاً بعد دليل" (٤).

إنه وبمجرد المقارنة بين النصوص، التي وردت أعلاه، لا بُدَّ وأن نتوصل إلى أن أحكام الشريعة الإسلامية على مستوى الأصل، وعلى مستوى التفاصيل لم تكن بالدقة التي تستجيب

(١) فضل الله، محمد حسين: أخطأنا كما أخطأ غيرنا...: م. م. : ص ٣٧.

(٢) شمس الدين، محمد مهدي: العلمانية: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٨٠: ط ١: ص ٣٠.

(٣) شمس الدين، محمد مهدي: "موقف الإسلام من العولمة في المجال الثقافي والسياسي" (٦٠ - ٧٨) : مجلة

قضايا إسلامية معاصرة: العدد الثالث: بيروت: ١٩٩٨: ص ٧٦ - ٧٧.

(٤) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م. م. : ص ١٠٢.

إلى كل الحاجات البشرية في كل عصر وكل مصر. فالنصوص الأصلية - في حدها الأقصى - تُعبّر عن قيم ليست جامعة مانعة مطلقة، على الرغم من أن هناك من الإسلاميين الذين يُسبغون عليها حكم الحقائق المطلقة حتى بأدق تفاصيلها.

وعلى العموم فقد اتفق الجميع - في الحد الأدنى - على أن النصوص المتشابهة تحتاج إلى تأويل أو تفسير أو إعادة تنسيق وترتيب؛ وقد تركت هذه المهمة لأولي الأمر وللراشخين في العلم. ومن بوابات هؤلاء الراشخين وبأقلامهم وفتياهم دخل النص في نفق من الخلافات اللامتناهية، في الماضي السحيق والحاضر الراهن، وذلك بعد أن تعددت الاجتهادات والتفسيرات والتأويلات، وغابت عنهم جميعاً، أو قل رفضوا جميعهم، قيام مرجعية دينية إسلامية واحدة وموحدة تضبط اجتهاداتهم وتبث في اختلافاتهم.

ب - التباين حول مضامين الاجتهاد والتأويل والتفسير وشرائطها. فكيف حصل كل ذلك؟ لكل من السنة والشيعة طرائقه وشروطه الخاصة في الاجتهاد، وسنستعرض، بإيجاز كيف تحددهما كل فرقة :

(يرى أحمد علي حسن أنه "لم ينتشر مذهب من هذه المذاهب المتعددة بناء على قوة حجته، ورجاحة برهانه على غيره؛ ولم يتقلص مذهب منها لضعف سننه ودليله، أو خطأ في اجتهاده، لأن كل مذهب يستند (إلى) قول رسول الله وفعله"^(١). إنما السبب الذي جعل هذه المذاهب، التي تلاشت، تلاشى هي قوة السياسة إذ كان كل نظام إسلامي يفرض مذهباً ويحارب المذاهب الأخرى، كما حصل في العصر العباسي والفاطمي...والأندلس^(٢).

وسواء كانت جذور الخلاف سياسية صافية، أو دينية صافية، إلا أن طرفاً الإشكالية (الديني والسياسي) تبادلا عوامل الاستقواء أحدهما بالآخر، استناداً إلى النص الديني وتأويلاته. (يرى النعمان بن محمد أنه: "لم يأمر الله بتقليد أحد بعد رسول الله والأخذ عنه... غير أولي الأمر الذين أقامهم بعد الرسول على السمع والطاعة... فمن ردّ إلى من لم يأمر الله جل ذكره بالرد إليه، وقلّد من لم يأذن الله بتقليده، فاتّبعه، وتدين به... فقد اتّخذ ألهاً من دونه، وأشرك به..."^(٣). أما الأعلام، الذي شهد له الرسول بعلمه، ودلّ عليه فهو علي بن أبي طالب وذريته من بعده^(٤).

(١) حسن، أحمد علي: المسلمون العلويون في مواجهة التجني: ص ٢٠.

(٢) م. ن: ص ٢١.

(٣) بن النعمان، محمد: م. س: ص ٥٥.

(٤) م. ن: ص ٣١.

يقول محمد بن يعقوب الكليني: "فليست عصمة الإمام بأقلّ أولوية من عصمة الرسول، لأن الإمام إذا لم يكن معصوماً لاحتاج إلى إمام آخر...والشيعة لا يُسلمون بأن إكمال الدين وعصمة الرسول تغنيانا عن المعصوم لأن الأحكام متجلّدة، والأحوال مُتغيّرة، وحاجة الناس ليست فقط لإمام يحفظ الشرع، وإنما ليفسّر الأحوال المتجددة، ولا طريق إلى ذلك إلا بالمعصوم الذي لديه التفسير الذي يفيد اليقين"^(١).

أما عند السُّنة، فأصول الاجتهاد في الإجماع السُّني أربعة: الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس.

(يقول الشهرستاني، إنما تلقى الفقهاء الذين يُقرّون الأصول الأربعة صحة هذه الأركان من إجماع الصحابة؛ وتلقوا أصل الاجتهاد والقياس وجوازه منهم أيضاً. فإذا وقعت حادثة شرعية من حلال أو حرام، ابتدأوا بكتاب الله، فإن وجدوا فيه نصّاً أو ظاهراً فزَعوا إليه؛ وإن لم يجدوا فزَعوا إلى الاجتهاد. ومن شروط الاجتهاد الإجماع^(٢). ومن شرائط المجتهد أن يعرف "مواقع إجماع الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين من السلف الصالحين، حتى لا يقع اجتهداه في مخالفة الإجماع"^(٣).

(يقول صبحي محمّصاني (قانوني لبناني معاصر) إن "الإجماع عند جمهور الفقهاء هو أن يتفق على الحكم جميع المجتهدين المسلمين في عصر من الأعصار..."^(٤). فهل يحمل هذا القول من الصحة شيئاً؟

(يقول الشافعي : "إذا وجدتم لي مذهباً، ووجدتم خيراً على خلاف مذهبي، فاعلموا أن مذهبي الخير"^(٥).

(يقول مالك بن أنس أن المدينة دار الهجرة والصحابة، وإن أهلها أعلم بالوحي بأحوال صاحب الشريعة، وإن إجماعهم يُعملُ به وحده^(٦).

(أما أحمد بن حنبل، وداود الظاهري، فقالا إن الإجماع مختص بالصحابة دون غيرهم؛ وقد استدلاً بالحديث الشريف: "عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين"^(٧).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب: الإمام والإمامة عند الشيعة: ص ٩.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١٩٨.

(٣) م . ن : ص ٢٠٠.

(٤) محمّصاني، صبحي: فلسفة التشريع في الإسلام: دارالعلم للملّين: بيروت: ١٩٨٠: ط ٥: ص ١٧٨.

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ٢٠٧.

(٦) محمّصاني، صبحي : م . س : ص ١٧٨.

(أما عند أهل الرأي، فكان الفقهاء لا يأخذون من الأحاديث إلا قليلاً؛ وكانوا يرجعون في كثير من المسائل الفقهية إلى تحكيم العقل والرأي^(١). وكانت أكثر عنايتهم تنصب على "تحصيل وجه القياس، والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار"^(٢)).

(يقول الآمدي في تعريف الإجماع، أي الاتفاق: "ومنه ما يُقال: أجمع القوم على كذا، إذا اتفقوا عليه. وعلى هذا فاتفق كل طائفة على أمر من الأمور، دينياً كان أم دنيوياً، يُسمى إجماعاً"^(٣). لكن الإجماع عنده لا يمثل سوى "جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد في عصر من الأعصار على حكم واقعة من الوقائع. هذا إذا قلنا أن العامي لا يُعتبر في الإجماع؛ وإلا فالواجب أن يقال: الإجماع عبارة عن اتفاق المكلفين من أمة محمد..."^(٤)).

(وهنا يرد عبد الرحمن النجدي - من الوهابية: "على أن الحق لم يكن محصوراً في المذاهب الأربعة... ولو كان الحق محصوراً فيهم لما كان لذكر المصنفين في الخلاف، وأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم ممن خرج عن أقوال الأربعة فائدة"^(٥)).

(أما الفرق الشيعية فلها ردّ أيضاً، فهم: لا يقبلون الإجماع إلا إذا صدر عن أهل البيت، أي أهل النبي، أو إذا اشترك مع المجتهدين سيدهم الإمام المعصوم. فالإجماع على المشهور عندهم هو الاتفاق المشتغل على قول المعصوم عليه السلام، لا مجرد اتفاق العلماء على قول)^(٦).

(يقول محمد باقر الصدر: "...وأما ما يُسمى بالإجماع فليس مصدراً إلى جانب الكتاب والسنة، وإنما لا يُعتمد عليه إلا من أجل كونه وسيلة إثبات في بعض الحالات"^(٧)).

(وهنا يحدّد عبد الحسين شرف الدين الأسباب التي جعلت الشيعة يأخذون بمذاهب الأئمة من أهل بيت النبوة، قائلاً:

(٧) م . ن : ص ١٧٨.

(١) م . ن : ص ٣٦.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ٢٠٧.

(٣) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام (ج ٢) : م . س : ص ٢٨٠.

(٤) م . ن : ص ٤٠٢.

(٥) النجدي ، عبد الرحمن : الدرر السنية (ج ١) : م . س : ص ٢٧٣.

(٦) حمصاني ، صبحي : م . س : ص ١٧٩.

(٧) الصدر ، محمد باقر : م . س : ص ٩٨.

- إنه لا دليل للجمهور على رجحان شيء من المذاهب الأربعة. كما وإن الاجتهاد والأمانة والعدالة والجلالة غير محصورة بهم. وليس هناك من يجرؤ على تفضيلهم على أئمة بيت النبي.

- إن السلف الصالح لم يُدين بتلك المذاهب في كل عصر ومصر؛ فائمة المذاهب الأربعة وُلِدوا خارج القرون الثلاثة: فأولهم مالك وقد وُلِدَ في العام ٩٥هـ/٧١٤م، وآخرهم الأشعري وقد وُلِدَ في العام ٢٧٠هـ/٨٨٤م^(١).

(ويقول النعمان بن محمد - من الشيعة الإسماعيلية - مسائلاً أهل السنة: "كيف لكم بأن تكون الفرقة، التي شهد الرسول بالهدى، منكم دونكم، والشهداء لله على عباده من جماعتكم دون جماعتهم، حتى يكون إجماعكم حجة عليهم بلا دليل؟"^(٢)).

وعلى العموم، غابت المرجعية الواحدة - التي يُفترض فيها أن تُوحّد المسلمين، وتركت الساحة مفتوحة الأبواب أمام مصالح شتى المذاهب الإسلامية، التي بنت كل منها لنفسها مرجعيتها الخاصة بها، وهيئات استطاعت كل مرجعية مذهبية أن تلزم كل فروعها باجتهاد مُوحّد؛ وقد تعددت المرجعيات في داخل المذهب الواحد، فأصبح النص جامعاً بين ما هو آلهي وبين ما هو بشري... واستجابت شرائع المذاهب إلى أساليب التزلف والقربى من الله تعالى؛ وانحصر عمل الفقهاء، في سبيل كسب الأجر والثواب؛ فالفقيه لن يخسر بما أفتى شيئاً، وإنما هو الرابع في حالتي الخطأ والإصابة^(٣).

٢ - هل يمكن الاتفاق حول هوية النظام السياسي للدولة الإسلامية؟

لأن الخلاف التاريخي حول هوية النظام السياسي، بين شتى الفرق الإسلامية، ما زال قائماً حتى الآن، كان لا بُدَّ من أن نعيده من أهم الإشكاليات التي تثير أية وحدة إسلامية. ولهذا رأينا أن نوليه أهمية خاصة في هذا البحث:

(١) شرف الدين، عبد الحسين: م. م. ص: ص ٤٠ - ٤٢.

(٢) ابن محمد، النعمان: م. م. ص: ص ١٠٨.

(٣) راجع بحثنا: "هل يحقق الفقه المذهبي الإسلامي وحدة الدولة والقانون؟": مجلة دراسات عربية: العدد:

١٢/١١، تاريخ: ايلول، ت ١/ سبتمبر، أكتوبر ١٩٩٨

اتَّفَق جميع أهل السُّنة وجميع المرجئة وجميع المعتزلة وجميع الشيعة وجميع الخوارج - ما عدا النجيدات منهم - على وجوب الإمامة؛ وعلى الأمة فرض واجب الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله، ويسوس المسلمين بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله^(١).

ثم اتَّفَق هؤلاء على أنه لا يجوز مبايعة إمامين في وقت واحد، ولا تجوز إلا إمامة واحدة؛ واستندوا في ذلك على قول للرسول: "إذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منهما"^(٢).

(يقرر الخوارج صلاح من تتوفر فيه شروط الإمامة، وصلاحيته لكي يتولَّى هذا المنصب، بصرف النظر عن نسبه وجنسه ولونه؛ وهم، أيضاً، "جوزوا أن تكون الإمامة في غير قریش؛ وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثَّلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماماً... وجوزوا أن لا يكون في العالم إمام أصلاً. وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً"^(٣).

أ - مواقف الفرق السُّنية :

(يقول ابن حزم "إنما يجب أن يكون الإمام قرشياً بالغاً ذكراً مميزاً بريئاً من المعاصي الظاهرة، حاكماً بالقرآن والسُّنة فقط"^(٤). وفي ردِّه على الشيعة، الذين يُوجبون إمامة أهل بيت الرسول، يقول: "لا جزاء في الآخرة إلا على عمل، ولا يُتَفَعَّع عند الله تعالى بالأرحام، ولا بالولادات، وليست الدنيا دار فضل ولا جزاء، فلا فرق بين هاشمي وقرشي، وعربي وعجمي، وحبشي وابن زنجية"^(٥).

(أما البغدادي فيحدد شروط الإمامة - كما يعتقد بها أهل السُّنة والجماعة - بأنها فرض واجب على الأمة؛ ويتم عقدها عن طريق الاختيار بالاجتهاد وليس بالنص؛ وهي واجبة النسب إلى قریش؛ وليس من شروطها العصمة من الذنوب كلها؛ وهي تنعقد بمن يعقلها لمن يصلح للإمامة؛ وقالوا بإمامة أبي بكر الصديق، وقالوا بتفضيل أبي بكر وعمر وعلي على من بعدهما، وقالوا بإمامة علي في وقته^(٦).

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج٤) : م . س : ص ١٤٩.

(٢) م . ن : ص ٢٣٢.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل (ج١) : م . س : ص ١١٦.

(٤) ابن حزم : الفصل في الملل... (ج٤) : م . س : ص ١٨٠.

(٥) م . ن : ص ٢٣٢.

(٦) البغدادي ، عبد القاهر : م . س : ص ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(يقول أحمد بن حنبل: "من غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسُمِّيَ أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برأ كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين" ^(١)).

(وقف كل من مالك بن أنس وأبي حنيفة موقفاً يناقض ما أفتى به أحمد بن حنبل، فهما كانا قد أجازا الخروج على الخليفة ^(٢)).

(برهن الطرسوسي الحنفي - في حوالي النصف الثاني من القرن ٨هـ / ١٤م - في رسالته "تحفة الترك" على شرعية سلطة الترك، إذ لم يشترط في الخليفة أن يكون مجتهداً وقرشياً، وقد حسب من وراء ذلك أنه ينافس الشافعية في الحظوة لدى السلطان المملوكي ^(٣) . إلا أن الماوردي الشافعي كان - منذ القرن ٥هـ = ١١م - قد أجاز شرعية إمارة الاستيلاء ^(٤)).

(من المعروف أن ابن تيمية هو من التلامذة الحنابلة السلفيين، وعلى الرغم من أن عدداً من الجماعات الإسلامية المعاصرة - المتوالدة عن حركة الإخوان المسلمين - قد تأثروا أو تتلمذوا في كثير من اتجاهاتهم الفقهية على كتاباته، لكنهم اتخذوا اتجاهات، فيما له علاقة بشروط تنصيب الخليفة، تتناقض مع الاتجاهات الحنبلية.

(ففي وثيقة "حتمية المواجهة" الصادرة، في العام ١٩٨٧م/ ١٤٠٧هـ، عن جماعة الجهاد الإسلامي يحددون اتجاهاتهم على الشكل التالي:

أ - وجوب المواجهة في سبيل إعادة الخلافة الإسلامية: حددت الجماعة شروط الإمامة على قاعدة أن يكون الإمام/الخليفة ذكراً، حراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب، قرشياً.

وتؤكد السياسة الشرعية - حسب الجماعة - على وجوب الإمامة، وتنصيب الخليفة، وإقامة الخلافة الإسلامية. ولا يسع المسلمون ترك هذا الواجب أو التقاعد عنه ^(٥) .

(١) نقلاً عن محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي: م . س : ص ٥٤.

(٢) راجع ابن كثير : البداية والنهاية (ج ١٠) : م . س : ص ٨٥.

والسيوطي: تاريخ الخلفاء: م . س : ص ٣٠٨.

(٣) السيد ، رضوان : "الفقه والفقهاء والدولة" : م . س : ص ١٤٠.

(٤) م . ن : ص ١٤٥.

(٥) سيد أحمد ، رفعت : الثائرون : م . س : ص ٢٦١.

ب - إن الجهاد حتمية شرعية: استندت الجماعة على النصوص الدينية، ومنها الآية التالية: ﴿الذين يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾.

ج - حتمية قتال الحاكم الظالم المرتد : ويفرض هذه الحتمية وجود حاكم مبدل لشرع الله يحكم بلاد المسلمين. مُحَرَّفٌ لشرعية الإسلام، مبتعد عن الحكم بالقرآن، مُشَرِّعٌ من دون الله "وهو بذلك ينازع المولى عز وجل في ألوهيته، فيجعل لنفسه حق التشريع من دون الله" (١). و"إن ترك الحكم بشرعية الإسلام، والحكم بالقوانين الوضعية كفر بواح... والحاكم الذي يحكم بالقوانين الوضعية كافر مرتد" (٢). ولهذا السبب فمن الواجب على المسلمين القيام على الحاكم المستبد الكافر وقتاله وقلته (٣).

د - قتال الطائفة الممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام: تستند الجماعة إلى قول الإمام مالك: "الأمر عندنا أن كل من منع فريضة من فرائض الله تعالى، فلم يستطع المسلمون أخذها، كان حق عليهم جهاده حتى يأخذوها منه" (٤). وتستند، أيضاً، إلى قول بن تيمية: "أية طائفة انتسبت إلى الإسلام، وامتنعت عن بعض شرائعه الظاهرة المتواترة، فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين حتى يكون الدين كله لله" (٥).

لهذا تقول الجماعة: "إن الشرع الحنيف يأمر بقتال أي طائفة تمتنع عن شريعة من شرائع الإسلام: عن الصلاة أو الزكاة أو الحج أو عن التزام تحريم الخمر أو الربا أو الميسر، أو التي تعطل حدود الله وأحكامه" (٦). وإن هذه الطائفة التي تعاون الحاكم على كفره، وتعطل شرع الله... وكل من يقف في صفها، يحميها ويدود عنها، كلهم جميعاً قد حكم الإسلام بوجوب قتالهم (٧).

(١) م . ن : ص ٢٤٩.

(٢) م . ن : ص ٢٥٤.

(٣) م . ن : ص ٢٥٦.

(٤) م . ن : ص ٢٥٨.

(٥) م . ن : ص ٢٥٩.

(٦) م . ن : ص ٢٥٩.

(٧) م . ن : ص ٢٦٠.

وقد جاء في وثيقة "الخلافة"، الصادرة عن الجماعة في العام ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ، أن المنافقين هم العدو الحقيقي للإسلام، لأنهم متحصّنون بحصن الإسلام بلسانه وإيمانه؛ فهم ملعونون، وأينما تُقفوا أُخِذوا وقُتِلوا تَقْتِيلًا... وهم بطبيعة الحال أول المرتدّين^(١).

(أما جماعة تنظيم الفنية العسكرية - أحد فروع الإخوان المسلمين - فيعدّون أن الحكم القائم اليوم في جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر، فلا شك في ذلك؛ والمجتمعات في هذه البلاد كلها مجتمعات جاهلية. ويسوقون أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تؤيد معتقداتهم، ومنها: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ و ﴿من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(٢).

(ويتم اختيار الحاكم عند جماعة التكفير والهجرة - أحد فروع الإخوان المسلمين - استناداً إلى الروايات التالية:

- "فقد صحّ عن النبي (أنه أوشك أن يكتب كتاباً يعهد فيه بالخلافة بعده إلى أبي بكر الصديق (ر)، خشية أن يتطلع إلى الخلافة غيره، ثم قال: فقلت في نفسي: الله يأبى ذلك والمؤمنون".

- "وصح عن النبي - أيضاً - أن امرأة وعدها النبي (بوعدها إذا جاءت في وقت معيّن لتأخذه، فقالت: فإن لم أجذك - تعني الموت - قال: فمن هذا، وأشار إلى أبي بكر"^(٣).

- وبسؤال أمير الجماعة عن الطريقة الموافقة للشريعة الإسلامية التي يتم فيها تنصيب الإمام قال: "إن الخليفة الذي قبله إما أن يُعيّنه بالإسم، وإما أن يدخله ضمن ناس يُختار من بينهم، أو إما أن يأتي الاختيار تلقائياً من قبل المقرّين للخليفة الأول، فيختارون منهم واحداً... ولا يُترك للشعب بأن يستقي عليه"^(٤).

(يقول توفيق عبد الغني الرصاصي: إن "السيادة في الدولة الإسلامية تكمن في الشعب، فهو الذي يختار الخليفة، ويوجّهه، ويقدمه، وله أن يعزله من منصبه إذا حصل ما يوجب عزله. فالخليفة ليس إلا وكيلاً عن الشعب، يستمد سلطانه منه"^(٥).

(١) م . ن : ص ١٣٧.

(٢) سيد أحمد، رفعت: الرافضون: م . س : ص ٣٩.

(٣) م . ن : ص ٩٠.

(٤) م . ن : ص ٩١.

(٥) الرصاصي، توفيق عبد الغني: أسس العلوم السياسية في ضوء الشريعة الإسلامية: الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٨٦: د. ط: ص ٣٦.

(وعلى الرغم من تكفيره، قال علي عبد الرزاق في كتابه "الإسلام ونظام الحكم"، الذي أصدره في العام ١٩٢٥م/١٣٤٣هـ: "إن هذه المسألة - الخلافة - دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية؛ وإنها من مصلحة الأمة نفسها مباشرة؛ ولم يرد بيان صريح في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية، في كيفية نصب الخليفة وتعيينه، وشروط الخلافة ما هي."^(١)

ب - مواقف الفرق الشيعية :

اتفق الشيعة، بشتى فرقهم، على مبادئ عامة في مسألة الخلافة/الإمامة: يقول الشهرستاني، في تعريفه للشيعة، ما يلي: "الشيعة هم الذين شايعوا علياً (ر) على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً؛ واعتقلوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ويتنصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول (ع) إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله". ويجمع الفرق الشيعية القول "بوجوب التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبار والصغار..."^(٢).

وعلى الرغم من أن الشيعة تفرقوا إلى عشرات الفرق، ولم يبق منها - حتى يومنا هذا - إلا القلة القليلة، فسنلقي بعض الضوء على أهم هذه الفرق الشيعية في سبيل استقصاء قواعدها وشروطها في الإمامة والإمام:

(الزيدية : "ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة (ر) ، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم؛ إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي يخرج بالإمامة، أن يكون إماماً واجب الطاعة: سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين^(٣) . ولم يتبرأ الزيدية من أبي بكر وعمر، إنما يُصحّحون إمامتهما. ويرفضون العصمة والتقية وغيبة الإمام، وجواز مبايعة إمامين في قطرين^(٤) . ويختلفون مع الشيعة الإثني عشرية بأنهم يقولون إن الأوصاف وليس النص هي الشروط المطلوبة في تنصيب الإمام؛ فتعتقد إمامته "بعد اجتماع الأوصاف فيه، وليس ذلك النص الجلي على الوجه الذي تذهب إليه الإمامية..."^(٥) .

(١) نقلاً عن محمد سيد كيلاني: ذيل الملل والنحل (ج ٢) : للشهرستاني : م . س : ص ٧٣.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١) : م . س : ص ١٤٦.

(٣) م . س : ص ١٥٤.

(٤) تامر، عارف : م . س : ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٥) بن عباد، صاحب : م . س : ص ١١٢.

ولأن الزيدية يعطون الأولوية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قولاً وفعلاً، قال زيد بن علي: "ليس الإمام منا من أرخى عليه ستره، إنما الإمام من أشهر سيفه"^(١).

(الإسماعيلية : ويقولون: "كان الإمام جعفر الصادق قد نصرَّ علي أن يتولَّى الإمامة من بعده ولده الأكبر اسماعيل؛ ولكن قيل أن اسماعيل توفي في حياة والده. وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، لأن الإمامة - حسب المفهوم الشيعي - لا تكون إلا في الأعقاب، ولا تنتقل من الأخ إلى أخيه"^(٢)).

ولا تعاني الإسماعيلية من انقطاع الإمامة، كمثّل الإمامية، وإن كانت قد مرّت بمرحلة من الستر، فإن سلسلة الأئمة عندهم ما زالت مستمرة حتى يومنا الحاضر^(٣).

(الشيعة الإثني عشرية (الإمامية) : إفرقت الإمامية عن الزيدية بأنها ساقّت الإمامة بأولاد الحسين دون أولاد الحسن. وافرقت عن الإسماعيلية بأنها ساقّت الإمامة إلى موسى الكاظم (أخ إسماعيل) ، ومن بعده ذريته وصولاً إلى المهدي المنتظر الذي غاب غيبته الصغرى في العام (٢٦٠هـ/٨٧٤م) . ومن بعده انقطعت سلسلة الأئمة، وبقيت الشيعة الإمامية - حتى الآن - ينتظرون ظهوره.

لقد ربّت غيبة الإمام الثاني عشر - عند الشيعة الإمامية - عقائد سياسية ميّزتهم عن غيرهم من الفرق الشيعية الأخرى من جهة، وعن شتى الفرق والمذاهب السُنية من جهة أخرى.

لقد أعلن جعفر الصادق مبدأ التقية - كتدبير احترازي - لمنع تفاقم الاعتداء والقهر عن جمهور الشيعة من قِبَل السلطات التي كانت في أكثر الأحيان تدين بغير مذهبهم . ولهذا وبعد أن غاب الإمام الثاني عشر بقي الشيعة الإمامية رعايا في السياسة يخضعون لدول لا يؤمنون بصلاحيها، ويرونها دول جور وسلطات استبداد؛ فهم لم يشوروا على هذه الحكومات والدول، لا لضعف ورهة - فحسب - بل لأن الثورة عندهم موجّلة ومرهونة بظهور الإمام الغائب^(٤).

(١) المازندراني ، محمد بن علي : مناقب أبي طالب : نقلاً عن يوسف إيش: م . س : ص ٦٣ .

(٢) غالب ، مصطفى : م . س : ص ٧ .

(٣) راجع حول هذه السلسلة : مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية: م . س .

(٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين (ج ٢) : نقلاً عن محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي: م . س :

يتساءل محمد جواد مغنية أمام الذين يدعون إلى قيام دولة إسلامية، فيقول: إنه ليس هناك من مسلم يخلص لله ويأبى أن يكون للإسلام سلطان ينفذ أحكام القرآن، ولكن: "هل توجد هذه الدولة بمجرد رفع الشعارات، وإذاعة البيانات، أو بتكثير العمام على رؤوس الجهلاء والدخلاء؟... [وللمسلمين اليوم] قوميات متعددة، ومذاهب سياسية مختلفة، و فرق متباينة... ثم هل تكون هذه الدولة سنية أو شيعية أو منهما؟... فمن أخلص لله... أن يحصر جهوده كلها في العمل من أجل تعاون المسلمين على الخلاص أو التحرر من القوى الفاسدة الداخلية والخارجية، ومتى تحققت... فكّر المخلصون في دولة إسلامية أو غيرها مما فيه الله رضى، وللمسلمين صلاح... وإذا انتقل سلطان الإسلام عن السلف لتفرق أهوائهم، وشتات كلمتهم، فهل يعود إلينا ونحن أكثر تفرقاً وشتاتاً؟" (١).

لكنه منذ النصف الثاني من القرن ٢٠م/١٥هـ طرأ تطور مهم في داخل العقيدة السياسية للشيع الإمامية؛ وكان أبرز من أحدثه الخميني؛ وإننا نرى من المفيد أن نتوقف عند أهم ما جاء حول ذلك استناداً إلى كتابه "الحكومة الإسلامية - ولاية الفقيه"، والذي وضعه على شكل سلسلة من المحاضرات ألقاها على تلامذته في جامعة النجف في العام ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٨م:

بداية يهاجم الخميني المسلمين الذين يرفضون الجهاد كي لا يُتَّهمون بالخروج ضد الدولة والعدالة والنظام (٢). كما هاجم أيضاً الدعوات التي تعمل لفصل الدين عن السياسة (٣). جاءت الحاجة - كما يقول الخميني - إلى الخليفة لاحتياج الدولة الإسلامية "إلى رئيس، واحتياج القانون إلى مُجرٍ ومنفِّذ... هذه هي الناحية الخطيرة التي دعت النبي إلى تعيين الخليفة ... وبما أن الإسلام قد وضع القانون وتصدى للتشريع، فعليه أن يكمل هذه الناحية بجعل الولي على الأمة يكون منفذاً لهذا القانون، ومطبقاً لهذا التشريع" (٤). ومن الأسباب الأخرى التي يضيفها أنه بات المسلمون - اليوم - في يأس مريع، وأصبحوا مُستضعفين (٥). وهناك تشريعات جزائية وقضائية - غير العقائد الإيمانية كالصوم والصلاة -

(١) مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف (٧م) : م. س: ص ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) الخميني: الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه) : دارالقدس: بيروت: د. ت: د. ط: ص ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) م. ن : ص ٣١.

(٤) م. ن : ص ٣٠.

(٥) م. ن : ص ٤٠.

يجب تطبيقها، والناس لا يرضخون لها" تلقائياً ما لم يكن هناك قوة مُنفَّذة تتعهد بإجرائها بعدل ... الأمر الذي يحتم تشكيل حكومة قوية قائمة على أساس العلم والعدل" (١).

لماذا يدعو الخميني إلى قيام هذه الحكومة؟ وما هي المبررات التي دعت كمي يتعارض بذلك مع النظرية الشيعية التقليدية، التي لا تُجيز قيام أية دولة إسلامية قبل ظهور المهدي المنتظر؟ توضيحاً لذلك يقول: "إننا في عصر الغيبة الكبرى، وقد طال الأمد أكثر من ألفي ومائتي عاماً، وربما تطول أحقاباً من الدهر قبل أن تتحقق الظروف المناسبة لظهور الحجة المنتظر" (٢). أو لعله تأخر حتى آخر الدهر (٣).

فإذا كانت الأحكام الإسلامية قائمة، وإجرائها مرهون بالقوة التنفيذية... يتساءل الخميني: فما العمل في هذا العصر - عصر الغيبة - هل يُترك الناس يتخبطون خبط عشواء، كقطع غنم لا يرعاها راعٍ؟ ويجيب على ذلك: إن الإسلام فوض تولي أمور المسلمين إلى الفقهاء العدول. لذا فمن وظيفتهم تشكيل حكومة إسلامية (٤).

ما هي طبيعة هذه الحكومة، وما هي وظائف الفقهاء فيها؟ فيجيب: إن هذه الحكومة هي حكومة القانون... وإن حكام الإسلام هم المنفَّذون للقانون الإلهي ليس إلا (٥). ويأتي ذلك استجابة لسنة النبي لأنه "ليس اهتمام النبي (بتعيين علي (ع) خليفة من بعده آتياً من قبل حبه إياه... إنما هو الأمر الإلهي... [في سبيل] إجراء أحكام الشريعة من غير تغيير أو تحوير... وهكذا الإسلام مجموعة قوانين من عند الله... والولاية في الإسلام هم القائمون بتنفيذ الخطة القائمة من دون تدخلية لآرائهم الشخصية في شيء" (٦).

فإذا كانت ولاية الفقيه مشروطة بالامتناع عن إبداء آرائه/اجتهاداته الشخصية، فإلى أية أحكام يستند، إذاً؟

يقول الخميني: "إنما القانون الإلهي يتصدى بتنفيذه الحاكم الإسلامي، الذي جاء تعيينه من قبل الله" (٧). ويستدل الإمامية - خلافاً لسائر المذاهب - على "أولوية أئمتهم بالزعامة، بعلمهم وفضلهم، واحتياج الآخرين إليهم في معرفة أحكام الدين" (٨).

(١) م . ن : ص ٤١.

(٢) م . ن : ص ٤١.

(٣) م . ن : ص ٥٨.

(٤) م . ن : ص ص ٤١ - ٤٢.

(٥) م . ن : ص ٤٩.

(٦) م . ن : ص ٥٠.

(٧) م . ن : ص ٥١.

(٨) م . ن : ص ٥٠.

ولهذا فالفقيه، الذي تتوافر فيه شروط الولاية هو كل من أخذ من علوم الأئمة من بيت آل الرسول، حينئذٍ - يقول الخميني - : "بلزوم اتباع الفقهاء في إدارة الشؤون العامة... فتكون الزعامة الكبرى والرئاسة العليا للفقيه الجامع للشرائط... والبقية مأمورون مؤتمرون" ^(١). وبالتالي إذا "قام بالأمر فقيه عادل ذو كفاءة و دراية، ونهض بأعباء ولاية أمور المسلمين عن جدارة ولياقة، كان له من الزعامة الكبرى ما كان للنبي (ولالإمام (ع) ، وله نفس الامتياز الذي كان لهما في إطار الحكم والولاية. وعلى عامة المسلمين إطاعته والانقياد تحت قيادته الحكيمة" ^(٢).

أما إذا حالت ظروف ما دون تشكيل حكومة عامة بقيادة الفقيه "فلا أقل" - لحفظ الأحكام و صيانة الشريعة - من تشكيل حكومات محلية ذات النطاق المحدود... فالفقهاء المنتشرون في البلاد الإسلامية يشكلون حكومات محلية، كل في منطقة نفوذه، فيأمر وينهي و يجمع الضرائب الإسلامية، و يوزعها حيث مصاريفها المقررة شرعاً" ^(٣).

ومن اللافت أن هناك مرجعاً دينياً آخر هو محمد خاتمي - رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران، منذ العام ١٩٩٧م/ ١٤١٨هـ - وينتسب إلى المدرسة الخمينية، يقف من موضوع قيام دولة دينية إسلامية موقفاً مرناً يُمَيِّزُهُ عن الدعاة الإسلاميين، الذين يقولون بحتمية قيام مثل هذه الدولة تحت طائلة تكفير من يعتقد بغير هذا.

يررّ خاتمي موقفه بأنه "ليس هناك شكل واحد مُتَّفَق عليه بين الفقهاء والمفكرين الإسلاميين للحكم الإسلامي، ولا شرائط مخصوصة مُتَوَافِقاً عليها، لأن الفهم الموحد، والرؤية الموحدة للإسلام غير موجودين" ^(٤).

و يرى، أيضاً، أنه حتى لو قامت هذه الدولة فإنه لا يمكن لها "أن تقوم، ولا يمكن للحكومة الإسلامية أن تستمر" بمعزل عن الناس وإرادتهم، فللشعب الدور الأساس والحاسم في هذا المجال" ^(٥). والسبب في ذلك - كما يرى خاتمي مستنداً إلى نصوص دينية - أن "الدين قد حدّد الضوابط الأساسية والإطار العام، وأما الحكومة فأمر مرجعه إلى الناس. بل إننا نتصور أنه حتى في زمان المعصوم كانت إرادة الناس ورغبتهم شرطاً لحكومته... وفي نظرة دينية سنرى أن الناس هم من يُوجّه إليهم الخطاب، وانهم هم المطالبون بإقامة العدل والإحسان...

(١) م . ن : ص ٥١.

(٢) م . ن : ص ٥٤.

(٣) م . ن : ص ٥٥.

(٤) خاتمي، محمد: مطالعات في الدين والإسلام والعصر: دار الجديد: بيروت: ١٩٩٨: ط ٢: ص ٨٥.

(٥) م . ن : ص ٨٦.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾ (المائدة ٥ : ١٠٢) و ﴿ليعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (آل عمران ٣ : ١٦٤) و ﴿إنا أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ (الحديد ٥٧ : ٢٥)...

لقد استقامت حكومة الرسول، وقامت عندما بايعه الأوس والخزرج، أي كل أهل يثرب تقريباً... والإمام علي (ع) يقول: (لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يُقارُّوا على كِظَّة ظالم ولا سغب المظلوم، لألقيت حبلها على غاربها).
فحضور الحاضر وقيام الحجة ووجود الناصر شرط أساسي لقيامه بالحكم^(١).

والحال كذلك - يستطرد خاتمي - فإن للديموقراطية أوجهاً إيجابية: فإما الديمقراطية - إرادة الشعب - وإلا "فلن يكون أماننا سوى التمسك بالحكم عن طريق القوة والتسلط"^(٢). وإنه "إذا لم نكن متحجرين ومتعصبين، وكنا نعيش في زماننا ونعي أن الفكر قد تطور وتحول، وإنه لا يمكن حبس الأفكار في سجن من حديد، أقول: إننا لن نجد إذ ذاك طريقاً سوى الديمقراطية..."^(٣).

يتابع خاتمي أن الإسلام "لم يقل بأنه من الممكن لنا إجراء حكم الله بأية طريقة وأي شكل وبأي ثمن كان..."^(٤). لهذا فإذا لم يرد الناس حكومة دينية "وانتخبوا حكومة لا ضوابط إسلامية لها... فإن علينا احترام رأيهم... شريطة أن تصان آتخذ حريتي في نقدها، وإعلان ذلك دونما خوف..."^(٥).

ج - وللآخرين آراء حول الخلافة :

يرى محمد شيخاني - أحد الباحثين الإسلاميين - في بحث له، أن مسألة الخلافة/الإمامة، لم تكن محط اتفاق بين شتى التيارات الإسلامية - أفراداً وجماعات - فالبعض منهم أعطاهم أهمية وأولوية؛ والبعض الآخر لم يضعها في الموقع المهم... ويخلص إلى إعطاء رأيه، فيقول: "إن الخلافة ليست من مظاهر الإسلام حصراً. وإنما هي شكل من الأشكال التي حدثت في حقبة من تاريخ الفكر الإسلامي الطويل. وإنما الغاية هي أفضل السبل للحكم العادل ضمن حرية الجماهير الإسلامية، وما تصل إليه جموع المفكرين والعلماء والشعوب هي التي تحقق العدالة.

(١) م - ن : ص ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) م - ن : ص ٩٩.

(٣) م - ن : ص ١٠٠.

(٤) م - ن : ص ١٠٤.

(٥) م - ن : ص ١٠٦.

فإذا سُمِّيَ خليفة أو رئيساً أو أميراً أو قائداً ضمن حدود الشريعة دون سلطة مطلقة فهي النتيجة الرائدة للمفهوم الرئاسي في شريعتنا الإسلامية الكبرى^(١).

فبين قائل أن الخلافة ضرورة سياسية، أو قائل أنها حكم آلهي، أو قائل أنه يمكن ابتكار صيغ أخرى لكيفية الحكم في الدولة الإسلامية، تبقى إشكالية أي نظام سياسي نريد للإسلام مطروحة على بساط الحاجة الضرورية في سبيل توحيد رؤى شتى المذاهب الإسلامية. وسوف تبقى هذه الإشكالية مستمرة ما دام كل مذهب يُسبِّغ على الشروط، التي يضعها حول خلافة لا تخرج عن أسس العقيدة الإسلامية، صفة القداسة التي لا تناقش.

٣ - نماذج عن التناقضات بين صفوف الفقهاء المسلمين في داخل حركة الإحياء الإسلامي :

لم تنحصر التناقضات، حول مسألة الخلافة، بين الفرق/المذاهب الإسلامية، فحسب؛ وإنما انتشرت في داخل فقهاء كل فرقة/مذهب أيضاً. وكان العامل الجغرافي والإثني - الديني - المذهبي ذا تأثير في اتجاهات الفرق والفقهاء. وحول ذلك سنقوم بدراسة عدد من النماذج، وسوف نرى:

أ - النموذج اللبناني: تداخلت الرؤى بين مختلف التيارات الإسلامية الراهنة حول مبدئية إقامة دولة إسلامية في لبنان. وكانت الرؤى متناقضة بين المذاهب من جهة، وبين التيارات في داخل المذهب الواحد من جهة أخرى. فكيف حصل ذلك؟

يهون الأمر لو أراد المسلمون - بشتى مذاهبهم وفرقهم - أن يقرروا أي نظام يريدون في داخل دولة ذات أكثرية إسلامية مطلقة. ويهون الأمر، أيضاً، في تقرير مذهب ولي الأمر/الإمام/الخليفة، وتحديد أي مذهب إسلامي هو الذي يشكل المرجعية المركزية في حفظ الشريعة، في داخل دولة تنتسب الأكثرية فيها إلى مذهب/فرقة إسلامية ما :

- تستطيع إيران - مثلاً - بأكثرية سكانها الشيعة الإمامية أن تتحكم بتحديد المذهب الفقهي للدولة - كمرجعية دينية مركزية؛ وأن تحدد المذهب الشيعي مذهباً لولي الأمر فيها.
- وتستطيع السعودية - بأكثرية سكانها الوهابيين - أن تحدد المذهب الوهابي مذهباً للدولة.
أما لو تعلق الأمر بدولة - مثل لبنان - تتعدد فيها الأديان والطوائف والمذاهب، فتتعدد المشكلة كثيراً، وتتكاثر الآراء والفتاوى ، ولن تجد حلاً دينياً - سياسياً موحداً.

(١) شيخخاني، محمد: "نقد بعض المفاهيم لدى التيارات الإسلامية المعاصرة" (٦٢ - ٦٩) : مجلة الفكر الإسلامي: بيروت: العدد الأول/السنة ١٦: ٢٥/يناير ١٩٨٧: ص ٦٨.

فحول تحديد هوية النظام السياسي في لبنان، وحول تحديد دين أو مذهب رئيس الجمهورية/ولي الأمر، نجد أن الاتجاهات والفتاوى تتضارب - أحياناً - في داخل أصحاب المذهب الواحد إلى حدود التكفير؛ فكيف بالأحرى لو نظرنا إلى المسألة من زاوية رؤى كل مذهب في مواجهة رؤى المذاهب الأخرى؟

تتراوح الاتجاهات والآراء والاجتهادات للفقهاء المسلمين في لبنان : بين داعٍ لقيام نظام إسلامي بقيادة مسلم كفريضة دينية منصوص عليها نصّاً مُحكماً؛ وبين داعٍ إلى قيام النظام الإسلامي بشروط ومراحل؛ وبين داعٍ إلى التعايش بين الأديان - كواقع تاريخي - أياً تكن هوية النظام، وأياً يكن دين الرئيس/ولي الأمر أو مذهبه، وليس من شروط عليه إلا المحافظة على العدل والمساواة بين جميع المواطنين. وسندرس كل اتجاه على حدة:

(الإِتِّجَاهُ الَّذِي يَقُولُ بِوُجُوبِ قِيَامِ نِظَامِ إِسْلَامِي كَامِلٍ: وَهَذَا سَنَتَّخِذُ رَأْيَيْنِ أَحَدَهُمَا سُنِّيَ لَكِنَّهُ لَا يُمَثِّلُ كُلَّ السُّنَّةِ، وَالْآخَرُ شِيعِي لَكِنَّهُ لَا يُمَثِّلُ كُلَّ الشَّيْعَةِ.

(يقول سعيد شعبان - أمير حركة التوحيد الإسلامية في لبنان - : " إنطلاقاً من الأمر الإلهي يجب أن يُقام حكم الله تعالى في الأرض كلها، لا في لبنان فحسب...ومن يفكر أن يعيش بغير حكم إسلامي يكون قد كفر في كثير من النصوص القرآنية التي تؤكد ضرورة الحكم بما أنزل الله" و"...لا أرى أعظم من الإسلام ديناً وفكراً يمكن أن يجمع البشرية"^(١).

ورداً على المرحلين من الإسلاميين يقول: "الإسلام حق يجب أن يُطرح بعيداً عن الظروف السياسية والإقليمية والاجتماعية، لأنه هو السياسة والاجتماع والتشريع. لا نتظر فرعون أن يسمح لموسى. لم يستأذن موسى فرعون عندما طرح عليه الإسلام"^(٢).

ورداً على من ارتضى أن يكون رئيس الجمهورية في لبنان مسيحياً، يقول: "أعلنوا مشروعية الكفر في لبنان... ومن [جملتهم] دار الفتوى اللبنانية، التي باركت للرئيس الجديد، واعتبرت عهده عهداً مباركاً"^(٣). وهؤلاء خالفوا الحكم الشرعي الواضح الذي ينص على "أن الرئاسة الأولى للمسلمين لا يجوز أن تكون غير مسلمة... وإن كل مسلم يقف إلى جانب هذا أو ذاك من المتصارعين على السلطة يُعتبر مؤيداً للكفر...وهو القاتل سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

(١) شعبان، سعيد: "حكم الله لكل الأرض وليس للبنان وحده" (١٢٥ - ١٤١) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ١٢٥.

(٢) م. ن : ص ١٣٥.

(٣) شعبان، سعيد: في حديث له مع مجلة الوحدة الإسلامية: تاريخ ١٢/٨/١٩٨٩. نقلاً عن: الجمهورية الإسلامية في لبنان (ج ٣) : إعداد محمد شمس وحسين مرجي: الوكالة الشرقية للتوزيع: بيروت: ١٩٩٠: ط ١: ص ٨٨٨.

اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم ﴿...لذلك كان من واجب المراجع الدينية أن تبني حكم الله...[ومن] يؤيدون هذه الانتخابات [الرئاسية في لبنان]...لم يَعد مسلماً بنص القرآن، فمن يفتينا إذا كانت دور الفتوى أصبحت تعمل على تأييد الكفر في حياة الأمة؟" (١).

(يقول محمد علي الجوزو - من دار الإفتاء - وكأن المشكلة هي مشكلة ديمقراطية ولا علاقة لها بالنص الشرعي : أنه من أنصار قيام سلطة إسلامية في لبنان، لأنه "عالم مسلم يؤمن بالإسلام كدين ودولة، ولا يفصل بينهما" (٢) . ويتابع : "إذا طالبنا بإقامة جمهورية إسلامية في لبنان فإن من حقنا ذلك...إنه من حق الأكثرية وحلها أن تقيم الدولة التي تريد، والأكثرية إسلامية، ومن حق المسلمين أن [يقيموا] النظام الإسلامي" (٣) .

(يدعو حزب التحرير الإسلامي العلماء المسلمين "أن يرفضوا أن يكون رئيس الجمهورية نصرانياً، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَبْصَرٍ سَبِيلاً﴾ (٤) . ومن المستغرب أن يكون للحزب مثل هذا الموقف في الوقت الذي يعلن أنه لا يرى أن لبنان يصلح لقيام دولة إسلامية؛ فهو يرى أنه لا يوجد فيه مقومات دولة إسلامية تعيش ولو ليوم واحد. وهو لهذا السبب يعمل على تهيئة الناس في سبيل انضمامه إلى قطر آخر يصلح لهذا (٥).

(أما فتحي يكن - أمين عام الجماعة الإسلامية في لبنان - فيقول: "إن إقامة سلطة إسلامية تطبّق أحكام الشريعة فريضة شرعية في عنق المسلمين في كل مكان بما في ذلك لبنان؛ إنه مبدأ قرآني قطعي لا يجوز إخضاعه للاجتهاد" (٦) . إلا أنه - على الرغم من ذلك - يجد مخرجاً اجتهادياً - وكأنه يربط الأمر الآلهي بالمناحات الإقليمية - ، عندما يتابع قائلاً بأنه لا يستطيع أن يجزم بأن "المناح الإقليمي السائد حول لبنان ملائم لقيام سلطة إسلامية فيه" (٧) .

(أما صادق الموسوي، فيأتي - مهاجماً الذين يتقاعسون عن العمل في سبيل إقامة دولة إسلامية في لبنان - بحجج دينية إسلامية، وحجج عملية ظرفية:

(١) م . ن : ص ٨٨٩.

(٢) راجع : الحركات الإسلامية في لبنان : م . س : ص ٣١١.

(٣) م . ن : ص ٣١٥.

(٤) حزب التحرير الإسلامي (ولاية لبنان) : قانون الزواج المدني هو قانون كفر: بيان منشور بتاريخ ١٩٩٨/٣/١٩.

(٥) "حزب التحرير الإسلامي" (١٦٩ - ١٨٠) : الحركات الإسلامية في لبنان : م . س : ص ١٧٧.

(٦) يكن، فتحي: "حوار معه..." (١٩٥ - ٢٠٠) : الحركات الإسلامية في لبنان : م . س : ص ١٩٥.

(٧) م . ن : ص ١٩٩.

- أما من الحجج الدينية فيستشهد بعدد من النصوص قائلًا: إن الله تعالى حذر المسلمين من الخضوع لحكم النصارى واليهود ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾؛ ووضع الراضين بولاية وحكم النصارى في خيانة النصارى، وشطبهم من خيانة المسلمين ﴿...ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾^(١).

وهو لهذا السبب يهاجم الذين يلهثون من أجل تثبيت مواقع لأنفسهم في مجلس يُشرع نظاماً كافراً بالإسلام، والذين يوافقون على بقاء سلطة الكفار على المسلمين...، ويدعوهم إلى أن يبحثوا عن مبرر من أئمة أهل البيت، إذ قال الإمام الصادق: "من أحب كافراً فقد أبغض الله، ومن أبغض كافراً فقد أحب الله، وصديق علو الله علو الله"^(٢).

- أما الحجج العملية الظرفية، التي يسوقها الموسوي، دفاعاً عن دعوته إلى قيام جمهورية إسلامية في لبنان: فتتمثل في وجود أكثرية إسلامية فيه، و"إن الأكثرية لها الحق في الحكم دون الأقلية، والنظام الجمهوري قائم على مبدأ حكم الأكثرية"^(٣).

لكل تلك الأسباب - النقلية المقدسة، والعملية الواقعية - يدعو الموسوي إلى "التحرك اليوم قبل الغد للقضاء على هذا النظام [اللبناني]، ورفع راية الإسلام في هذا البلد الإسلامي المُغتصَب"، وهو على استعداد ليلتقي "مع كل العاملين في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي"^(٤).

□ الاتجاه الذي يدعو إلى قيام نظام إسلامي في لبنان بشروط وعلى مراحل:

يسير هذا الاتجاه مسترشداً بالعقيدة الإسلامية لبناء نظام سياسي إسلامي في لبنان، لكنه لا يستعجل الأمور، ولا يتخطى - كما يحسب أهم مملوه - المراحل والظروف المحيطة بلبنان خاصة وبالمنطقة عامة، وبوضع المسلمين في العالم بشكل أعم؛ وهذه بعض الشهادات:

(يقول إبراهيم أمين السيد - ناطقاً باسم حزب الله في لبنان - إن حزب الله يعمل "من منطلق بنية عقائدية كاملة؛ والرسالة التي يحملونها هي الرسالة التي يجب أن تعم العالم، حتى

(١) الموسوي، صادق: "حوار معه" (٣٢٣ - ٣٢٦) : الحركات الإسلامية في لبنان : م. س: ص ٣٣٠.

(٢) الموسوي، صادق: في مقال له في جريدة السفير اللبنانية بتاريخ ١٤/١١/١٩٨٩: نقلاً عن: الجمهورية الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٨٠١.

(٣) الموسوي، صادق: "حوار معه..." (٣٢٣ - ٣٢٦) : الحركات الإسلامية في لبنان : م. س: ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٤) م. ن : ص ٣٣٤.

تعيش الإنسانية مبادئ وتشريعات وأخلاق القرآن^(١). فالإسلام ليس رسالة تبشيرية فقط، وإنما رسالة تبشيرية ورسالة لإقامة مجتمع العدالة في الأرض^(٢).

وأما حول لبنان، فيقول: "نحن نعمل في لبنان، ليس لأجل مصالح مرحلية، أو مكاسب في الإدارات ... إنما في لبنان نخوض حرباً كبرى، هذه الحرب في اعتقادنا تتجاوز ما يُسمى الإصلاحات الداخلية"^(٣). بل "نحن اليوم ندرس مشروعاً إسلامياً مبنياً على الفكر والرسالة، فالمشروع المطروح على العالم اليوم، هو مشروع الأمة، دولة الإسلام الكبرى... نحن مقبلون على حالة وعمل توحيد للشعوب في المنطقة... [وهناك] توجد كل الفرص لاستمرار وتوسيع هذا المشروع؛ وهذا ما عبّر عنه الإمام الخميني بتصدير الثورة... وعلى هذا الأساس، نحن نعمل في لبنان، من خلال المسؤولية الشرعية، ومن خلال القناعة السياسية، أيضاً، حتى يصبح لبنان جزءاً من مشروع الأمة في منطقة الشرق الأوسط. ولا نعتقد أنه من الطبيعي أن يكون في لبنان دولة إسلامية خارج مشروع الأمة، وإنما نريد لبنان جزءاً من مشروع الأمة..."^(٤). أما - يتابع السيد - "إذا كانت أكثرية المواطنين في لبنان تريد الإسلام كشكل من أشكال النظام، فنحن مع هذا الخيار، وبالأصل نحن نعمل له. ولكن لا نريد أن نفرض هذا النظام على أحد. فالشعب هو الذي يختار شكل نظامه"^(٥).

(أما محمد حسين فضل الله - المرشد الروحي لحزب الله - فيقول أنه عندما نتحدث عن مشروع سياسي إسلامي في لبنان، فهناك نوعان من الحديث:

- المرحلي : ويتمثل بإسقاط النظام الطائفي وخلق ظروف للحوار.

- الاستراتيجي: ويتمثل بتحضير الساحة لكثير من شروط التصور الإسلامي، بما لا يجعل الساحة معادية للإسلام، بل للوصول إلى ساحة متعاطفة مع الإسلام؛ وهذا يحتاج إلى إعداد طويل - طويل جداً - وكبير - كبير جداً^(٦).

(١) السيد، إبراهيم أمين: "حزب الله" (١٤٣ - ١٦٥) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ١٤٥.

(٢) م. ن : ص ١٤٦.

(٣) م. ن : ص ١٤٨.

(٤) م. ن : ص ص ١٦١ - ١٦٢.

(٥) السيد، إبراهيم أمين: حوار معه أجرته مجلة المعهد (العدد ٥٤) : بيروت : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م: ص ٧: العامود الأخير.

(٦) فضل الله، محمد حسين: حوار معه أجرته مجلة المعهد (العدد ٥٣) : بيروت : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م: ص ٦: عامود ١ و ٢.

وعلى العموم - يتابع فضل الله: "نحن نشعر أن مشكلة المرحلة الحالية في لبنان، من ناحية واقعية، ليست مشكلة أن يحكم الإسلام أو لا يحكم، لأن الظروف الموضوعية غير متوافرة". أما الظروف الموضوعية فهي: "أن يخلق [الإسلام] لنفسه ساحة فكرية تستطيع أن تجعل الآخرين يفكرون فيه من هذا الموقع "لأنه" ربما يكون طرح الإسلام كسلطة وكحكم، في هذه المرحلة من شأنه أن يقضي على الشعار من الأساس، لأنه يُدخِلُه في إطار اللعبة الطائفية"^(١).

ومن هنا فإن "مسألة رئيس الدولة، إنما هي تنطلق وترتبط بواقع الناس، فإذا قبل الناس أن يكون رئيس الدولة مسيحياً فهذا شأنهم"^(٢). لكنه يرفض أن يُفرض هذا التدبير فرضاً من قبل جماعة محدودة التمثيل - كممثل مجلس النواب اللبناني - ولهذا فهو يرد داعياً إلى استفتاء شعبي حول هذه العقدة السياسية "لأن الشعب أصبح يمتلك وعياً سياسياً، وأصبح يعرف حقيقة الأمور"^(٣).

(ويقول حسن نصر الله - الأمين العام لحزب الله منذ العام ١٩٩٧م - في محاضرة له في العام ١٩٨٥م، إن "الأزمة في لبنان هي إحدى النماذج لسنن الله التاريخية. هناك مشكلة على مستوى البشرية ككل، منذ وجد الإنسان وحتى القيامة، هي مشكلة الابتعاد عن حكم الله، وبالتالي فإن السُّنة الإلهية التاريخية تحكم بأن أي مجتمع يُقام على أساس غير أساس الإسلام، سيواجه نفس النتائج التي نواجهها في لبنان. هذه السُّنة إلهية"^(٤). والحل لن يكون على أيدي العلمانيين، لأن "...العلمانيين كالأسرائيليين، والعلمانية تعني فصل الدين عن السياسة..."^(٥). فما هو الحل، إذاً؟

إن المطلوب هو "حركة تغيير شاملة في المنطقة، وحركة التغيير هذه ليست بعيدة، بل هي قائمة فعلاً؛ وإنما يُراد لها شمولية أكثر، كحركة التغيير التي بدأت من أرض إيران الإسلام ... وبدأت تتنامى من خلال الواقع في لبنان"، لذلك "...إن على المسلمين في لبنان أن يكونوا جزءاً من حركة التغيير التي ستشمل المنطقة. هذه الحركة المنطلقة من إيران، والتي تمثل

(١) فضل الله، محمد حسين: "حوار معه" (٢٤٣ - ٢٧٧) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٢٥٩.

(٢) فضل الله، محمد حسين: "اعطأنا كما أعطأنا غيرنا...": مجلة الحساء: م. س: ص ٣٧.

(٣) فضل الله، محمد حسين: "حوار معه بتاريخ ١٠/٧/١٩٨٩: نقلاً عن: الجمهورية الإسلامية في لبنان (ج ٣) : م. س: ص ٦٠٤.

(٤) نصر الله، حسن: في محاضرة له نشرتها مجلة العهد (العدد ٥٥) : بيروت: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م: ص ١٠: عامود ١.

(٥) م. ن: ص ١١ - عامود ٢.

الجمهورية الإسلامية مركزيتها... [فيجب] أن نعمل لبناء أمة مجاهدة... يجب أن نبني جيل صاحب الزمان المهدي المنتظر (عج) " (١).

(أما صبحي الطفيلي - أمين عام سابق لحزب الله - فيطلب: "أن تُعطى الحرية المطلقة الحقيقية للبنانيين جميعاً، لكي يختاروا شكل نظام الحكم، أي شكل يريدون، فلو أرادوا أن يطبقوا الإسلام، فتلك إرادتهم التي أملاها عليهم رأيهم، وليس قوة الحديد والنار. وإن أرادوا شيئاً آخر فيكون كذلك برأيهم. لكن في الحالة الثانية نحن لا نتحمل المسؤولية أمام الله إن اختاروا غير الإسلام؛ فساعتها يسقط التكليف الشرعي عن أنفسنا، ويتحمل الآخرون المسؤولية" (٢).

(وعباس الموسوي - أمين عام سابق لحزب الله - يوضح موقفه من المشاركة في السلطة قائلاً: "عندما نرى بلداً أُسسَ على أساس العدالة بين أبنائه؛ لا فرق بين مسيحي ومسلم... يتكلم المواطن كمواطن... نحن نقول لا مانع لدينا من المشاركة في المجلس النيابي أو غيره... قد يكون من أهدافنا هنا الوصول إلى مواقع القوة التي نستطيع من خلالها أن نفرض ما نريد" (٣).

(وحسين الموسوي - مؤسس ورئيس حركة أمل الإسلامية في العام ١٩٨٢م، وكان سابقاً من مؤسسي حركة أمل مع السيد موسى الصدر - يقول: "نجد واجباً علينا - كما على جميع المسلمين - أن نسعى لإقامة المجتمع الإسلامي، والمجتمع الإسلامي سيعزز ويُنشئ - بشكل أو بآخر، عاجلاً أم آجلاً - دولة إسلامية. لكن لا يجوز أن يُفهم من هذا أن الآن هدفنا أن نقيم دولة إسلامية في لبنان... نحن معنيون ببناء الأفراد وصنعتهم صناعة إسلامية، وأن يصبحوا مسلمين حقاً، وهذا سيشكل العائلة المسلمة والمجتمع المسلم؛ هذا المجتمع يستطيع - في لبنان - أن يُنشئ دولة، وسيرتبط بالإسلام المحيط بالمنطقة" (٤).

□ الاتجاه الذي يدعو إلى التعايش بين الأديان في لبنان كواقع تاريخي:

ويمثله عدد من علماء الدين السنة والشيعة:

(يقول عبد الله بابتي - المسؤول السياسي للجماعة الإسلامية في لبنان، التي تأسست في العام ١٩٦٤م - أن معالجة الوضع في لبنان تأتي ضمن صورة هذا البلد - الكثير الطوائف

(١) م . ن : ص ١١ - عامود ٣.

(٢) الطفيلي ، صبحي: في حوار مع مجلة العهد (العدد ٧٠) : بيروت: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م: ص ٢: عامود ٤.

(٣) الموسوي، عباس: حوار مع مجلة العهد (العدد ٣٦١) : بيروت: ١٤١١هـ-١٩٩١م: ص ٣: عمود ٣.

(٤) الموسوي، حسين: "حركة أمل الإسلامية (٢١٧ - ٢٣٣) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص

والأحزاب - وضمن مصلحة المسلمين، من دون التخلّي عن الإسلام كعقيدة ونظام ومبدأ^(١).
فكيف يحصل ذلك؟

لأن المسلمين في لبنان - يتابع بابتي - : "لهم مصلحة أن يبقى هذا البلد غير مقسّم وغير مُجزأ"^(٢). وذلك على أساس أن "أي مواطن... له الحق في حياة كريمة اجتماعية... دون أن يُنظر إلى هويته أو إلى دينه، أو إلى انتمائه، ذلك أن هذا البلد - على ضيقه - لا يمكن أن يكون لطرف دون آخر"^(٣).

(أما عبد الحفيظ قاسم - رئيس اتحاد العلماء المسلمين في لبنان - فيقول: "لا أستطيع إلا أن أكون من أنصار قيام سلطة إسلامية في لبنان"^(٤). وهو مع تأكيد على المبدأ الشرعي إلا أنه ينتقد من يطالب بقيام دولة إسلامية في لبنان في هذا الظرف، وكل من يفعل ذلك - يستطرد قاسم - قائلاً إنه "إنسان ينظر في هذه الآونة إلى الأمور بمنظار التبسيط والمثالية في القفز فوق الواقع"^(٥).

ويضيف قاسم سبباً عقيدياً يبرّر رأيه - غير السبب الظرفي - في ما ذهب إليه، لأن "النبي لم يرد عنه أي حديث يدعو فيه إلى قيام دولة إسلامية، فهذا المصطلح لم يرد في الكتاب ولا في السنة"؛ فجدّير بمن يريد أن يحقق هذا الأمر - يقول - أن ينتظر قرنين من الزمن^(٦).

(وعاكف حيدر - عندما كان نائباً لرئيس حركة أمل - يقول إن: "حركة أمل لا تفكّر بإقامة دولة إسلامية على غرار ما هو قائم في إيران اليوم. فالجمهورية الإسلامية في إيران لها ما يبرّر إقامتها، لأن الشعب هناك شعب مسلم هو صاحب القرار بالعودة إلى أصول الدين وإقامة دولة الإسلام. أما نحن في لبنان، فإننا نعرف تمام المعرفة أن هذا الوطن يضمّ عدة طوائف لها الحق في أن تمارس شعائرها على النحو الذي تريده"^(٧).

(وأحمد شوقي الأمين يرى أن تطبيق طرح دولة إسلامية في لبنان "صعب المنال في مجتمعنا اللبناني بالنظر إلى تداخل الفئات والمذاهب والقوى اللبنانية المختلفة..."^(٨). ولأن "المسلمين في لبنان عاشوا قروناً مع إخوانهم المسيحيين، وعاشوهم وقاسموهم الزاب ولقمة العيش، فتفاعلوا

(١) بابتي، عبد الله: "الجماعة الإسلامية (١٨١ - ١٩٤) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ١٨٤.

(٢) م. ن: ص ١٨٥.

(٣) م. ن: ص ١٨٧.

(٤) قاسم، عبد الحفيظ: "حوار معه..." (٣٣٧ - ٣٤٣) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٣٣٩.

(٥) م. ن: ص ٣٤٠.

(٦) م. ن: ص ٣٤١.

(٧) حيدر، عاكف: "حوار معه..." (٧٩ - ٨٦) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٨٣.

(٨) الأمين، أحمد شوقي: "حوار معه..." (٢٩١ - ٣٠٧) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٢٩٩.

في ما بينهم، وإياهم؛ وتداخلت تقاليدهم وعاداتهم ونظرتهم السياسية، بحيث توحدت الرؤيا والمضامين المختلفة في ميادين عدة؛ ونتج عنها تراث مشترك من الصعب تدميره، بحكم المنطق العقلاني أولاً، والمصلحة ثانياً^(١).

(وعبد الحميد الحر، يقول: "حيث لا يتوافر للإسلام أن يقيم سلطته الشاملة يمكنه أن يزود السلطة القائمة بوقود روحي و اشتراعي... يعطيها معنى العدل الذي قام على أساسه الإسلام. فاشتراطه العدل في السلطة المدنية عامل أساسي في تقبل الإسلام معها. وفي هذا الصدد نلتزم قولاً اجتهادياً عظيماً ورد في حديث (إمامي إرشادي) يتناقله المعنيون في الشرائع ونظام الإدارة في الإسلام (حاكم كافر عادل خير من حاكم مسلم جائر)"^(٢).

وهل يمكن أن تتصور الإسلام من غير دولة؟ يقول الحر إنه يمكن ذلك، مرحلياً، لأن الإسلام: "إذا فقد الدولة لم يفقد الدعوة... ولا أدري لماذا نخاف على الإسلام من أن لا يكون دولة"^(٣). فإنه "حتى لو كانت الدولة القائمة غير دولة الإسلام، يمكنها أن تتعايش مع بقية الطوائف متى راعت هذه الطوائف حق المسلمين بالحياة الكريمة"^(٤).

ب - النموذج المصري: ولكي لا تقع بالتكرار، نكتفي بإحالة القاريء إلى المقطع II من هذا الفصل: الفقرة ٣ - أ - حركة الإخوان المسلمين. وأيضاً إلى المقطع III - الفقرة ٢ - أ - مواقف الفرق السنية من هوية النظام السياسي للدولة الإسلامية.

ج - النموذج الجزائري :

يصطدم الباحث عن وضع الحركة الأصولية الإسلامية في الجزائر بصعوبة منهجية تتمثل في أن تاريخ الحركات الإسلامية المعاصرة في الجزائر لم يُكتب بعد بشكل منهجي توثيقي؛ وإن ما يُكتب - حتى الآن - لا يخرج عن إطار الريبورتاج الصحفي من جهة، ولندرة النصوص التي تتحدث عن البدايات الأولى لهذه الحركات من جهة أخرى^(٥).

وعلى العموم فإن الحركة الأصولية في الجزائر حديثة العهد؛ وكانت أول نشأتها في العام ١٩٦٨م / ١٣٨٨هـ، بفعل الفراغ الثقافي - السياسي الاجتماعي - الذي عرفته الجزائر، والذي

(١) م . ن : ص ٣٠٠.

(٢) الحر، عبد الحميد: "حوار معه..." (٢٧٩ - ٢٨٩) : الحركات الإسلامية في لبنان: م. س: ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) م . ن : ص ٢٨٦.

(٤) م . ن : ص ٢٨٧.

(٥) دحماني، مصطفى: "الأصولية في الجزائر" (٣ - ١٦) : مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ١٢: السنة ٢٨: ص ٤.

أدى، مع وجود التخلف الاجتماعي والفقر الاقتصادي والبطالة وتخلف وسائل التعليم وتعريه، إلى جرّ الأجيال الجديدة إلى أحضان الثقافة السهلة، التي تمثلت في الكتب الدينية الإسلامية السطحية^(١). إنفعلت الحركة الأصولية في الجزائر بفكر الإخوان المسلمين الذين قدّموا إلى الجزائر منذ بدء ملاحقتهم في مصر^(٢).

نتيجة للصعوبات المنهجية - من جراء افتقاد المصادر - سنعمل على إلقاء ضوء، حول التباين والتناقض بين تلك الحركات من خلال مقابلتين صحفيتين مع زعيمين إسلاميين لحركتين إسلاميتين جزائريتين، وهما: جبهة الإنقاذ الجزائرية، وحركة حماس الجزائرية.

(جبهة الإنقاذ الجزائرية : يبدو من خلال خبر جاء تحت عنوان (تطهير في قيادة الإنقاذ) ، أن الشيخ رابع كبير - رئيس الهيئة التنفيذية لجبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية - اختار تطهير الهيئة من العناصر المتطرفة المحسوبة على "جماعة الإخوان المسلمين" أو على "الأفغان"^(٣). يبدو أن الجبهة عرفت الانقسامات في داخلها منذ زمن؛ وحول هذا يقول أنور هدام - رئيس البعثة البرلمانية لجبهة الإنقاذ في واشنطن - : "نحن منذ البداية التزمنا بشرع وبسياسة شرعية...والعجيب أنه حين يحصل هناك تباين في الآراء في مؤسسة علمانية يُعتَبَر هذا ممارسة ديمقراطية؛ وعندما يحصل هذا في حزب إسلامي أو في الجبهة الإسلامية فيُعتَبَر انشقاقاً وتأويلات"^(٤).

إنخرط الإسلاميون في الجزائر في الانتخابات النيابية؛ وأحلّوا الديمقراطية البرلمانية محل الشورى في الإسلام. ولأن السلطة انتهكت هذه الديمقراطية بحسب أنور هدام أنه سوف تحصل ردّات فعل سلبية من الإسلاميين ضد المفاهيم الغير إسلامية، وإن "الشباب في العالم الإسلامي كله سيرفضون - من الآن فصاعداً - الدخول في انتخابات كهذه في المستقبل"^(٥). وتُضِح صورة جبهة الإنقاذ - أو غيرها - بشكل أفضل بعد أن نتابع ما تقوله حركة حماس الجزائرية:

(حركة حماس الجزائرية : يرى محفوظ فنحاح - زعيم الحركة - أن الجاني الأساس في الذي يحصل في الجزائر ينقسم إلى قسمين:

(١) م . ن : ص ص ٥ - ٧ .

(٢) م . ن : ص ص ١٣ - ١٤ .

(٣) أنظر : مجلة الوطن العربي: باريس: العدد ١٠٤٥ : تاريخ ١٤/٢/١٩٩٧ : ص ١٥ .

(٤) أنظر : مجلة الوطن العربي: باريس: العدد ٩٧٩ : تاريخ ٨/١٢/١٩٩٥ : ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٥) م . ن : ص ص ٢٠ - ٢١ .

: "الأول: معنوي يتعلّق بالتخلف، وعدم وجود تقاليد ديمقراطية في البلد، سواء عند السلطة أو عند المعارضة".

: "والثاني: هو أن ما يحدث من تجاوزات خطيرة، وإراقة للدماء، سببه في الأساس فقه استحلال الفروج والأموال والأرواح، لسبب رئيس وهو عدم وجود مؤسسات إسلامية يعود الناس إليها لتعطيهم الرأي السليم والحكم الشرعي" ^(١).

يتابع نحنناح ، حول حالة التسيّب التي تُغلّف بلباس الجهاد، قائلاً: "إننا نُميّز جيداً بين الإرهاب الذي يُراد من خلاله تحرير الأرض والحفاظ على العرض، وبين إرهاب يبتغي من وراء الإعلان عن الجهاد به تمزيق وحدة البلد وقتل المواطنين وسحلهم وذبحهم" ^(٢). إن نزييف الدماء قد "حرّض عليه بعض خطباء المساجد أو بعض السياسيين، أو من دعموه بالسكوت أو التأييد المعنوي، أو وافقت عليه بعض البلدان الأوروبية من خلال إعطاء اللجوء السياسي لبعض من تبنوا العمل المسلّح" ^(٣).

لم تكن الجماعة الإسلامية المسلّحة واحدة فقط، "ولمّا جماعات كثيرة تتقاتل مع غيرها، وتتقاتل فيما بينها، وتوفّر الأجواء لتشويه صورة الإسلام" ^(٤).

ليست قيادة جبهة الإنقاذ قيادة واحدة تجمعها مرجعية سياسية و عقيدية موحّدة: فبين القيادات في داخل السجون اختلاف في وجهات النظر؛ وكذلك الأمر بين من هم في خارج السجون؛ وهناك جهات قيادية أخرى لاجئة إلى خارج الجزائر - في أميركا وألمانيا وبريطانيا... لكنهم جميعاً لم تجمعهم فكرة واحدة ^(٥).

وهناك الحركات الإسلامية الراديكالية التي يهملها أن تزرع البلبلة والأحقاد، وتنطلق أساساً من التبديع... ثم تتحوّل إلى التكفير، ثم تمارس التقتيل والتذبيح ^(٦). وهي تأوي، من جهة أخرى، المجرمين والفارّين من العدالة. ولقد كان أكثر من قتل من مرتادي المساجد،

(١) أنظر: مجلة الوطن العربي: باريس: العدد ١٠٤٥: تاريخ ١٤/٣/١٩٩٧: ص ٤.

(٢) م . ن : ص ٥.

(٣) م . ن : ص ٨.

(٤) م . ن : ص ٨.

(٥) م . ن : ص ٦.

(٦) م . ن : ص ٨.

المعروفين بعدم اعتدالهم في فهم الإسلام، وإنهم "أناس من أهل الإيمان تسلل إلى أفكارهم فكر التكفير والتفسيق على غير فهمهم..."^(١).

٤ - حديث الفرقة الناجية من النار أصل يقف عليه المسلمون - أنظمة وفرقاً وعلماء - طلباً للنجاة وحدهم.

يسود خطاب إسلامي مُعلن - يصدر عن التيارات أو الفرق أو المفكرين أو العلماء أو الأنظمة - يدعو إلى بناء دولة الإسلام، وعلى تطبيق الشريعة الإسلامية - كأمر آلهي - وإلى توحيد الحركات الإسلامية في سبيل تحقيق هذا الأمر.

فإن اتَّفَق أصحاب هذا الخطاب على عمومية هذه الشعارات، فإنهم - عند الغوص في التفاصيل، أو في ما كان له علاقة بالخلاف التاريخي حول الإمامة/الخلافة - يرون أنفسهم غارقين حتى الأذنين في بحر الخلافات.

يَعِدُّ البعض من الإسلاميين أن هذه الخلافات تصب في مجرى التعددية في الآراء، وهو - كما يحسبون - دليل صحة وعافية، وليست أبداً دليل مرض؛ ونحسب نحن أن الخلافات بين الإسلاميين لا يصب في مجرى التعددية لأن ما يُعطى من آراء واجتهادات فتوية أو مذهبية أو فرقية يُسبغ عليها أصحابها الصفة القدسية والآلوهية؛ وكل ما له صفة القدسي أو الآلهي يستند إلى نص مقلَّس، وفيه يحسب كل صاحب مذهب أنه أُعطيَ دون غيره تأويل الوحي وتفسيره. ومن هنا تتوقف الحالة الحوارية - كإيجابية فكرية تعترف للآخر بحقه في إبداء الرأي - عند حائط مسدود يتراشق فيه أصحاب المذاهب الدينية بتهم التفسيق والتبديع والتكفير... وسنأخذ بعض النماذج عن بعض القضايا الأساسية لدراستها، ومقارنة المقدمات والنتائج:

أ - هل يلتقي نظامان إسلاميان في وحدة إسلامية سياسية وعقائدية؟

سنتناول، كمُنيّة للبحث، وضع نظامين إسلاميين: النظام الإسلامي في المملكة العربية السعودية - وعقيدته المذهب الوهابي - ، والنظام الإسلامي في الجمهورية الإيرانية - وعقيدته الشيعة الإمامية.

(١) م . ن : ص ٨.

(المملكة العربية السعودية: تأسست المملكة على قاعدة المذهب الوهابي الإسلامي، والملكي المتوارث، كقاعدة لنظام سياسي إسلامي. وهي على صلات مصيرية مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ أواخر النصف الأول من القرن ٢٠م/ أواخر القرن ١٥هـ.

- ورد في المادة ٦ من قانون المملكة الحجازية الأساسي، الصادر في العام (١٩٢٦م/ ١٣٤٤هـ)، ما يلي: " الأحكام تكون دوماً في المملكة الحجازية منطبقة على كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح"^(١).

لا يعني استناد الأحكام في السعودية إلى الكتاب والسنة أن النظام القائم على وفاق مع الفرق السنية الأخرى؛ بل يجري بين الطرفين: الوهابي والفرق السنية اتهامات واتهامات وصلت بالطرفين إلى حدود تكفير طرف للطرف الآخر.

يقول عبد الرحمن النجدي - من الوهابية - : "على أن الحق لم يكن محصوراً في المذاهب الأربعة"^(٢).

ويقول عبد الله التركي - من الوهابية - عن الطائفة الناجية من النار أنها ليست سوى المملكة العربية السعودية، التي تبين أنها " ليست في حاجة لأي فكر وافد، أو منهج من أي جماعة أو حزب، فقد أغناها الله بمنهج الإسلام وطريقة رسوله عن أي منهج آخر". وهو لذلك ينصح شباب المملكة إلى أن يؤهلوا أنفسهم لحمل الرسالة وفق مل تدين به وتسير عليه"^(٣).

وفي المقابل يقوم عبد الله الهرري - من أهل السنة والجماعة - بتوجيه انتقادات لاذعة للمذهب الوهابي، قائلاً في صاحب المذهب محمد بن عبد الوهاب - نقلاً عن والد محمد - أنه: "ليس من المبرزين بالفقه ولا بالحديث، إنما دعوته الشاذة شهرته، ثم أصحابه غلوا في محبته، فسموه شيخ الإسلام والمجدد، فتباً لهم وله"^(٤). ثم يتبع الهرري ذلك - في نهاية كتابه - بسردٍ عن ثلاثة وثمانين كتاباً، وهي بعض ما كُتب في مثالب الوهابية وفي الرد عليها"^(٥).

فإذا كانت الوهابية - المذهب الرسمي للمملكة العربية السعودية - قد تعرضت إلى هجوم أهل السنة، فإن مواقف الشيعة هو أوضح من أن يُذكر.

(١) الخوري، يوسف قزما: المشاريع الوحدوية العربية: مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت: ١٩٨٨: ط١: ص٥٢٥.

(٢) النجدي، عبد الرحمن: الدور السنيّة (ج١): م. س: ص ٢٧٣.

(٣) التركي، عبد الله: مجلة الوطن العربي: العدد ١١١: م. س.

(٤) الهرري، عبد الله: المقالات السنيّة في كشف ضلالات أحمد بن تيمية: م. س: ص ٤٦.

(٥) أنظر: م. ن: ص ٢٤٤ - ٢٥١.

- ورد في المادة ٤ من مشروع دستور العام (١٩٦١م/١٣٨١هـ) ، ما يلي: " - عرش الدولة ورأسي في ذرية المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، ويُنظم توارثه نظام خاص لا يجوز تعديله إلا بالطرق المقررة لتعديل هذا النظام الأساسي"^(١).

كان الأمير عبد العزيز (ت في العام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م) ، قد أحرز في العام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) نصراً في الرياض، فأعلن منادياً بأمر منه: "الله أكبر، الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعودي". وعلى إثرها أعلن والده عبد الرحمن تنازله عن الحكم لولده؛ فبايعه و تبعه الناس "فألقى على الأثر كلمة أكد فيها انه سيكون الحاكم المؤمن المخلص الذي يعمل لنشر كلمة التوحيد، و يقيم أحكام الدين، و يحارب البدع والخرافات"^(٢).

(الجمهورية الإسلامية الإيرانية : تأسست في العام (١٩٧٩م/١٣٩٩هـ) على قاعدة نظام إسلامي إثني عشري؛ وجمهوري يستند إلى انتخاب رئيس للجمهورية بواسطة الشعب مباشرة؛ وإلى اختيار مرشد أعلى للجمهورية يُنتخب من مجلس يُسمى مجلس الخبراء. كما يقوم النظام - بشكل أساسي - على قاعدة عدائية مطلقة ضد أميركا بشكل خاص^(٣) .
تطبق الجمهورية عقائد مذهب الشيعة الإثني عشرية، وركزتها الكتاب والسنة، لكن على قاعدة تفسير أئمة أهل بيت الرسول وتأويلهم لها.

يقول الخميني أنه لما امتنع المسلمون عن العمل بمحدث الثقلين: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عثرتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض"، وعندما عمدوا إلى إقصاء المفسرين الحقيقيين للقرآن، والمطلعين على "الحقائق، والآخذين جميع القرآن من النبي الأكرم"، فإنهم "جعلوا من القرآن الكريم وسيلة (لإقامة) حكومات معادية للقرآن...[و] أخرجوه من الساحة حتى كأنه قد فقد دوره في الهداية"^(٤).

وإن هذه "الحكومات المنحرفة الخارجة على تعاليم الإسلام، المعلنة ارتباطها بالإسلام كذباً، عمدت من أجل نحو القرآن...إلى طبعه بخط أنيق وإرساله إلى الأطراف...و" نرى أن الملك فهد [ملك المملكة العربية السعودية] ينفق سنوياً مبلغاً هائلاً...لطبع القرآن الكريم،

(١) الخوري ، يوسف قزما : م . س : ص ٥٢٦.

(٢) م سعيد، أمين: تاريخ الدولة السعودية (ج٢) : مطبوعات دار الملك عبد العزيز: الرياض: د. ت: د. ط: ص ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) الخميني : نص الوصية السياسية الآتية: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي: طهران: ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م: د. ط: ص ١٢.

(٤) م . ن : ص ص ٧ - ٨.

وللدعاية إلى المذهب المعادي للقرآن، ونشر الوهابية، هذا المذهب المليء بالخزعبلات والخرافات... " (١).

يتابع الخميني - في إطار تحديد المذهب الذي يجب على الجمهورية الإسلامية أن تتخذه نموذجاً للنظام الإسلامي - " نحن تفخر بأننا أتباع مذهب مؤسسه رسول الله بأمر من الله تعالى، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب... نحن تفخر أن الأئمة المعصومين... هم أئمتنا " (٢).

ثم يعلن عداؤه الشديد " لأعداء الله تعالى والقرآن الكريم، والإسلام العزيز... وعلى رأسهم أميركا " (٣). ويطلب من الشعوب المسلمة أن يقتلوا بالأئمة الأطهار، وأن " لا ينحرفوا قيد أنملة عن الفقه التقليدي الذي هو عطاء مدرسة الرسالة والإمامة... سواء الأحكام الأولية منه أم الأحكام الثانوية... وأن لا يصيخوا السمع إلى أي وسواس خناس معاند للحق والمذهب. وليعلموا أن أية خطوة منحرفة تشكل مقدمة لسقوط المذهب والأحكام الإسلامية، وحكومة العدل الآلهية " (٤).

لن يكتمل طريق الخلاص - في سبيل بناء الدولة الإسلامية - عبر تحديد وسائل بنائها، فحسب، وإنما وجوب كشف القناع عن الظالمين وعن الخارجين على الخط الصحيح يشكل الوجه الآخر للدعوة، أيضاً. وهنا يتابع الخميني قائلاً: " وتعلمون أن لعن بني أمية - لعنة الله عليهم - والحديث عن ظلمهم - مع أنهم انقضوا وراحوا إلى جهنم - إنما هو صرخة بوجه ظلمة العالم... ومن اللازم أن تذكر في النياحة [في ذكرى عاشوراء] فجائع ظلم الظالمين في كل عصر وفي كل مصر. [ويأتي] في هذا العصر... آل سعود خونة الحرم الآلهي - لعنة الله وملائكته ورسله عليهم - يجب أن يُذكر ظلمهم بشكل قارع (مقرون) باللعن " (٥).

- أما شكل النظام السياسي لجمهورية إيران الإسلامية، فيستند إلى نظرية ولاية الفقيه - أي نائب الإمام المهدي المنتظر - في خلال الغيبة الكبرى.

(١) م . ن : ص ص ٩ - ١٠.

(٢) م . ن : ص ص ١٠.

(٣) م . ن : ص ص ١٢.

(٤) م . ن : ص ص ١٣.

(٥) م . ن : ص ص ١٤.

ويحسب الخميني أن انتصار الثورة في إيران، وإقامة دولة إسلامية قد تحققت " بتأييد آلهي غيبي" ^(١). وأن "الإسلام، والحكومة الإسلامية هي ظاهرة آلهية، يضمن تطبيقها سعادة الأفراد في الدنيا والآخرة على أعلى المستويات" ^(٢).

وإنه بالمقارنة بين نظامين إسلاميين، يستند كل منهما إلى الشريعة الإسلامية (الكتاب و السنة) كناظم وحيد لشؤونهما، فهل نرى أي منفذ نخلص منه للاستنتاج بإمكانية توحيدهما؟ يستند النظام السعودي إلى: الوهابية كمنهج إسلامي لا يمتلك قواسم مشتركة تذكر مع المذاهب الإسلامية الأخرى - ملك متوارث بين أفراد عائلة واحدة من الصعب تبديله - وإلى صداقة مع أميركا تصل إلى حد الرضوخ الكامل لإرادتها.

ويستند النظام الإيراني إلى: المذهب الشيعي الإثني عشري الذي لا يربطه مع المذهب الوهابي أدنى صلة مذهبية - وإلى ولاية/خلافة قائمة على أساس نظرية الفقيه والتي تتناقض كلياً مع نهج الملكية المتوارثة في داخل عائلة واحدة - وإلى عداوة راسخة ضد أميركا.

ب - نصّ اجتهادي يكفر نصّاً اجتهادياً آخر.

لما كنا في فصول سابقة قد قمنا بمقارنات حول عقائد عدد من الفرق/ المذاهب الإسلامية - عبر التاريخ السحيق - وكانت نتائجها أن البعض يُكفر البعض الآخر، أو يصلح بحقه تهم التفسير والتبديع. ولما كان لهذه المسألة علاقة مباشرة مع عصرنا الراهن، إننا نتساءل: هل استطاعت المذاهب أو التيارات العقائدية الإسلامية - في عصرنا الحالي - أن تتجاوز محنة التكفير/ الردة؟

ولأن موجة التملّح واسعة شاسعة، اتّسع رقعة المجتهدين/ العلماء، سنحاول - منهجياً - القيام بانتقاء بعض النماذج من الذين عبّروا عن عقائد تياراتهم للمذهبية، في ما له علاقة بتكفير أو تبديع عقائد المذاهب الأخرى في المنشورات المعلّنة أو السرية. بعض تلك الكتابات نُشر في العلن وبعضها وُزِعَ في السر؛ والكثير الكثير منه ينتشر ثقافة شعبية بين متتبعي تلك المذاهب يقوم بتغذيتها فقهاء مجتهدون، أو معتمون ناقصو ثقافة ينقلون عن أسلافهم بدون وعي وتمحيص؛ أو متعصبون من العامة الناقصو وعي ومسؤولية، ويُحجّم القائمون بمثل هذا الدور عن نشر ما يتم تداوله في الشارع المذهبي. ولن نستطيع أحد أن يسيطر على هذا الفلتان إذا لم يمتنع القائمون بأمر الحقن الثقافي، لعامة الشعب، عن إمداده بالتغذية المتواصلة.

(١) م . ن : ص ١٥.

(٢) م . ن : ص ٢٦.

لن يكون لنا من دور - في هذه الفقرة - غير أن ننقل بعض ما هو منشور في عدد من المصادر. وهذه بعضها:

(يكتب محمد التيجاني السماوي - كاتب مسلم معاصر كان سُنيًا وتشيع - عن تجربته بين المذهبين:

- يقول عن تجربته السابقة لتشيعه: "نحن لا نعرف غير المذاهب الأربعة، وما عداها فليس من الإسلام في شيء" ^(١). فقد "تعودت على أن كلمة شيعة هي مسبة" ^(٢). وإن "الشيعة عندنا هم أشد على الإسلام من اليهود والنصارى، لأن هؤلاء يعبدون الله ويؤمنون برسالة موسى (ع)، بينما نسمع عن الشيعة أنهم يعبدون علياً ويُقدِّسونه؛ ومنهم فرقة يعبدون الله، ولكنهم يُنزِلون علياً بمنزلة رسول الله؛ ورُوِيَتْ [عنهم] قصة جبريل كيف أنه خان الأمانة - حسب ما يقولون - وبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أدّاها إلى محمد" ^(٣).

ويقول السماوي عن الوهابية: إن الوهابية، وهم علماء السعودية "خالفوا إجماع المسلمين بمذهبهم الجديد الذي ظهر في هذا القرن [٢٠م]، وقد فتنوا المسلمين بهذا الاعتقاد، وكفروهم وأباحوا دماءهم" ^(٤). وقد "وجدت عندهم حقلاً على الشيعة أكثر مما عندنا في تونس" ^(٥). وإنهم لا يوفِّرون من التكفير المذاهب الأخرى، وهنا يقول أحد مشايخ الوهابية عن أحمد التيجاني - شيخ الطريقة الصوفية في تونس - الذي يقلِّده أعداد غفيرة من المسلمين في تونس إنه: "عميل للاستعمار الفرنسي..." ^(٦).

وبعد أن أصبح السماوي شيعياً، على يدي المرجع الشيعي في النجف بحضور بعض الصبيان الشيعة، يقول: "تصورت أن عقول هؤلاء الصبيان أكبر من عقول أولئك المشايخ الذين قابلتهم في الأزهر، وأكبر من عقول علمائنا الذين عرفتهم في تونس" ^(٧).

(سعيد حوى) - عضو المكتب السياسي لأحد تيارات الإخوان المسلمين في سوريا - يقول في معرض انتقاده للخمينية: على عكس ما ادَّعى الخميني أن الثورة الإيرانية هي ثورة إسلامية

(١) السماوي، محمد التيجاني: م. س: ص ٥٤.

(٢) م. ن: ص ٤٦.

(٣) م. ن: ص ٥٦.

(٤) م. ن: ص ٦٨.

(٥) م. ن: ص ٨٦.

(٦) م. ن: ص ٨٥.

(٧) م. ن: ص ٥٥.

"فإذا بالخميني هذا يتبنى كل العقائد الشاذة للتشيع عبر التاريخ؛ وإذا بالمواقف الخائنة للشنوذ الشيعي تظهر بالخميني وبالخمينية، فكانت نكسة كبيرة، وخيبة أمل خطيرة" (١).

يتابع سعيد حوى: "جاءت الخمينية المارقة تحلّو حلو أسلافها من حركات الغلو والزندقة... فتظاهر بالإسلام قولاً، وتُبطِنُ جملة الشنوذ العقيدي والحركي... [ويعيد] إلى واقع المسلمين كل نزعات الشر والدمار، التي جسّدتها تلك الحركات المشبوهة الساقطة في شرك الكفر والزندقة والعصيان... وهي تدق صباح مساء إسفيناً بعد إسفين في أركان الأمة الواحدة... وتقيم فلسفتها جملة وتفصيلاً على قراءة منحرفة، قوامها التلفيق والتدليس لكل تاريخ المسلمين، فتأتي على رموزه وأكابر مؤسسيه هدماً وتشويهاً وتمويهاً" (٢).

(عبد الله الهرري المعروف بالحبيشي - فقيه إسلامي معاصر - وُلِدَ في مدينة هرر الحبشية في العام ١٩٢٠م / ١٣٣٨هـ؛ أخذ بالفقه الشافعي، وأخذ الإجازة بالطريقة الصوفية الرفاعية، وبالطريقة الصوفية القادرية.

يقول الهرري - في كتيب له منشور - حول حزب التحرير الإسلامي - من أصحاب أهل السنة والجماعة - ، ما يلي: "فقد ظهرت جماعة من الناس يُسمّون (حزب التحرير) يحرفون دين الله، وينشرون الأباطيل... وقد أسس هذا الحزب رجل... أدعى الاجتهاد وخاض في الدين بجهل، فوقع في التحريف والتكذيب لكتاب الله وسنة رسوله" (٣). يقع هذا الحزب في التحريف - كما يحسب الهرري - بسبب ما قال به عن مسألة القضاء والقدر، وهنا يتقل الهرري نص القول الذي يلعب إليه الحزب: " وهذه الأفعال - أي أفعال الإنسان - لا تدخل لها بالقضاء... لأن الإنسان قام بها بإرادته واختياره... فتعلق المثوبة أو العقوبة بالهدى والضلال يدل على أن الهداية والضلال هما من فعل العبد وليس من الله". فيقول الهرري ردّاً على دعوى الحزب إن هذا الكلام مخالف للقرآن والحديث الصريح (٤). ويتابع رده قائلاً إنه رُوِيَ عن ابن عباس (ر) أنه قال: "إن كلام القدرية كفر"؛ وعن عمر بن عبد العزيز، والإمام مالك بن أنس، والأوزاعي: "إنهم يُستتابون فإن تابوا، وإلا قُتلوا" (٥).

(يُسألُ شكري أحمد مصطفى - أمير جماعة التكفير والهجرة من الإخوان المسلمين - فإن دعوت إنساناً بعينه إلى فكرك ومذهبك، ولم يدخل في ما دخلت فيه، هل تعطيه الحق في أن

(١) حوى، سعيد: الخمينية (شنوذ في العقائد وشنوذ في المواقف) : د. ن: ١٩٨٧: ط ١: ص ٤.

(٢) م . ن : ص ص ٦ - ٧.

(٣) الهرري ، عبد الله: الغارة الإيمانية في رد مفاسد التحريرية: م ز : ص ٣.

(٤) م . ن : ص ٤.

(٥) م . ن : ص ١٣.

يستقل برأيه ليحاسبه الله على نيّته واجتهاده، أم تحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده؟ "؛
فُجيب بما يلي: "بل أحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده، بل لا يوجد عندنا سبب للكفر
غيره، وهو تكذيبه بآيات الله و سُنّة رسوله القاطعة، والتي سقناها له آية تلو آية ودليلاً بعد
دليل، والتي مضمونها حجة الله على عباده"^(١).

(١) سيد احمد، رفعت : الرافضون : م . س : ص ١٠٢.

IV - إشكالية مقارنة النص الإسلامي مع انتشار العولمة / الأُسنة

لو تطلعنا من شاشة التلفزيون، أو امتطينا صهوة موجة إذاعية، أو لو حككنا أزرار الأنترنت، أو رفعنا سماعة الهاتف، أو حجزنا مقعداً على متن طائرة تقلُّنا، بساعات، إلى أقصى مكان في المعمورة. . . لوجدنا أن العالم من أدناه إلى أقصاه قد أصبح بحجم قرية صغيرة. . . لأنه أصبح باستطاعة الإنسان، بلمسة زر، أن يُطِلَّ بسرعة على ما كان يحسبه أبعد من البعيد. . .

باستطاعتك أن تزور - في هذا العالم المترامي - وأنت جالس في مكانك، مستندفاً في فصل الشتاء، أو مستبرداً في فصل الصيف، من تشاء وما تشاء ومتى تشاء، متحدثاً إلى أي فكر أو مستطلعاً أية ثقافة أو متبعاً أي خير؛ وتكون مستمعاً - وأنت في مكانك - إلى ما تريد من أخبار وآراء وتحليلات. . . وتستطيع أن تبث آراءك إلى من تريد. وبهذا أصبحت ثقافات العالم أقرب إلى الإنسان من أسرته و مجتمعه.

من هنا نرى من الأفضل البدء في الكلام عن العولمة - التي يرفضها البعض بالكامل، ويقبلها البعض الآخر من دون تحفظات - إنطلاقاً من الاتجاهات النقدية التي تحاول أن تفهم القوانين التي تحكم العولمة، وهي تدرك سلفاً أن العولمة هي عملية تاريخية، حقاً، لكن ليس بمعنى التسليم بحتمية القيم التي تعيد إنتاج نظام جديد للهيمنة من قبل القوى الكبرى^(١).

نحن نرى أن أفضل الناظرين، بشكل إيجابي، إلى العولمة يقف في موقع رد الفعل وليس الفعل حقاً. فهل كُتِبَ علينا أن نمثّل، دائماً، دور الرادِّ على الفعل؟ فما نحن نرفض العلمانية كرد فعل ضد مظالم الاستعمار، ونرفض الديمقراطية من الزاوية ذاتها ... وما نحن نرفض العولمة انطلاقاً من ردود الفعل ذاتها.

(١) يسين ، السيد: "في مفهوم العولمة" (٤ - ١٣) : مجلة المستقبل العربي (العدد ٢٢٨) : بيروت: ١٩٩٨/٢ : ص ١٢.

إننا نجد في الواقع أن الغرب يمثل - بالنسبة إلينا في هذا العصر - مصدر إنتاج المبادئ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. . . وهي ليست غير النسخة التي يطبقها على أرضه وفي أوساطه الاجتماعية؛ و لن ننسى أنها قد أصابت نجاحاً في تغيير الكثير مما كان يعيق المجتمعات الغربية عن بلوغ التغيير الإيجابي من أجل تقدمه الإنساني والتكنولوجي. وقد أصابت هذه المبادئ تقدماً كبيراً في بناء الإنسان الغربي بناءً جديداً، وأصابت في بناء الصروح العلمية الهائلة.

بدأت تصل إلينا أولى طلائع الإنتاج الفكري السياسي - الاجتماعي - الاقتصادي - التكنولوجي، منذ أوائل القرن ١٨م/١٢هـ، أي منذ قرنين من الزمن. فاصطفت معظم النخب الإسلامية - العربية - منذ تلك اللحظة - بين رفض لها بالملطوق أو قابل بالملطوق، والقلّة كانت إلى جانب الدراسة والاختيار بعد النقد الموضوعي؛ وها نحن اليوم ننكب جميعاً، قابلين أو رافضين أو ناقدين، على هذا الإنتاج (الفكري والتكنولوجي) بشراهة لا مثيل لها.

منذ قرنين من الزمن - وما زلنا - نضع أنفسنا في موقع المستهدف بالمؤامرة، ويأتي على رأس أسلحة التآمر - كما نحسب - استيراد الإنتاج الفكري، الذي يصدره الغرب إلينا. فنحن لم نستقبل ما كان يأتي، بل رفضنا أن نستقبل، لأننا اخترنا موقع الراد على الفعل، وكل دورنا أن ندرأ المؤامرة القادمة من الغرب، لأننا نلعب دائماً دور الضحية و نحسب أن كل ما يُصدر إلينا موبوء بالجراثيم التي تستهدفنا؛ فيبقى الغرب هو الجلال دائماً ونبقى نحن الضحية إلى أجل غير معروف. فبتنا والحالة هذه في موقع الدفاع السليبي: أي أننا نمتنع عن الإنتاج من جهة، ونقاوم الإنتاج القادم إلينا من الخارج تحت ذريعة أن ما عندنا يكفي ونخاف عليه من التلوث. فلو كان ما نتوهم به أنه صحيح لما كنا في هذا المستوى من التخلف والجهل.

نحن لا ننكر أن الغرب - ببعض اتجاهاته الفكرية والثقافية وبكل حركاته الاقتصادية ومشاريعه السياسية الرسمية - يعمل على تأمين مصلحته بشكل مباشر، لكننا لن نقنع أن يكون كل ما يصل إلينا منه موبوء ومُثقل بأوزار المؤامرة.

ألم تحلّ العلمانية - مثلاً - أهم إشكالية كان الغرب يرزح تحت وطأتها قروناً عديدة؟ ألم تكن إشكالية الصراع بين الإيمان الساذج للكنيسة وبين عقل الفلسفة تربك مسيرة الحضارة في الغرب، بل وتدفعها إلى الوراء؟ لكنه لما انتصرت الفلسفة - أي كل أنواع التفكير الحر الذي لا يُقرّ مبدأ إلغاء التفكير الآخر بدوافع القدسية - لم تنهزم الكنيسة، والدليل على ذلك أنها - حتى الآن - ما زالت تلعب دوراً فاعلاً في البناء الروحي للإنسان، وتلعب دور الضمير المراقب على السلطات الزمنية. فالعلمانية "قامت لا على العداء للدين، ولا على إنكار القيم السماوية

المنزلة، بل قامت على معارضة الكنيسة كمؤسسة فكرية تعرقل حرية التفكير، وتلاحق العلماء وتكفّرهم في أقوالهم العلمية، وتحرق كتبهم..."^(١).

لما انتعق فكر العلماء والفلاسفة من إرهاب محاكم التفتيش الكنسية؛ ولما كُتِبَت السلامة لمؤلفاتهم من الحرق والمنع والتحريم؛ ولما أيقن الفيلسوف والمفكر والعالم والناقد العاقل أن رقابهم أصبحت بعيدة عن مقصلة التكفير، أخذت رقعة العلوم - سواء الإنسانية منها أم التكنولوجية - فأعطت ثماراً يانعة للتقدم والحضارة الغربية أولاً، وتقدم الحضارة الإنسانية ثانياً. يقول ول ديورانت: "إننا مدينون [في الغرب] لفلاسفة القرن ١٨م - وربما للفلاسفة الأكثر عمقاً في القرن ١٧م بالحرية النسبية التي ننعم بها في الفكر والكلام والعقائد... وبسببهم استطاعت ديانتنا [المسيحية] أن تتحرّر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكثيية، واللاهوت الذي يتهيج بالتعذيب... وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن [في الغرب] نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل، ولو مع شيء من اللوم"^(٢).

أما عندنا - في المجتمع العربي والإسلامي - فما زلنا نعيش مراحل محاكم التفتيش، بشكل أو بآخر، بصورة أو بأخرى؛ وهذا بيان لمجموعة من الكتاب والمثقفين والفنانين العرب صدر في العام ١٩٨٩م/١٤٠٩هـ، حيث عبّروا فيه عن واقع الحال قائلين: "تواصل قوى الظلام جهادها ضد العقل والمدافعين عنه، فتحرق الكتب، وتعليم كل من كتب كتاباً لا يعجبها، وتبيح دم كل مثقف عرف المسؤولية، تاركة الجهل يأخذ مداه الكامل... وها هي تتحرك طليقة في الشوارع والمدن والقرى مستقوية بأعداء العقل والإنسان الذين يريدون لشعوبنا أن تظل غارقة في ظلمات الجهل والخرافة"^(٣).

كما هي العادة، انهالت على العلمانية - كمبدأ سياسي يفصل الدين عن الدولة، من جهة؛ وكونه آتٍ إلينا من الغرب من جهة أخرى - شتى أنواع التهم؛ فكانت، بحدها الأدنى، تتنافى مع الشريعة الإسلامية وهي مُرسلة بمهمة تأمرية ضد الإسلام والمسلمين؛ وفي حدها الأقصى اتهام السائلين عنها والقائلين بها بأنهم كفرة ملحدون. أما في أحسن الأحوال فقد وُصِفَتْ بأنها مبدأ صالح للغرب المسيحي فقط لأن المسيحية تُقر (ما لقيصر لقيصر وما لله

(١) الفيلاي، مصطفى: "نظرة تحليلية في حقوق الإنسان من خلال الوثائق وإعلان المنظمات" (٧٨ - ١٠٨) :

مجلة المستقبل العربي: العدد (٢٢٣) : بيروت: ١٩٩٧/٩: ص ١٠٥.

(٢) ديورانت، ول: قصة الحضارة (٣٨م) : م. س: ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٣) راجع نص البيان الكامل في: العظم، صادق جلال: ذهنية التحريم: لندن: ١٩٩٢: ط ١: ص ٤٠٥ -

لله ، أي أن المسيحية هي دين للآخرة وليس للدنيا؛ وتتعارض العلمانية مع الإسلام لأنه دين ودنيا، فلا يمكن فيه الفصل بين الدين والسياسة.

وعلى الرغم من ذلك، فإننا كمسلمين، لم نُعطِ للغرب - ولأنفسنا أيضاً - نموذجاً فكرياً كاملاً، يصلح لبناء نظام سياسي إسلامي يكون نموذجاً يُحتذى لقيادة البشر في الدنيا ويوصلهم إلى الآخرة بأمان من جهة، ونستطيع أن ننافس فيه الأفكار القادمة من الغرب من جهة ثانية. كما إنه لم يتيسر بين أيدينا - عبر التاريخ الإسلامي كله - نموذجاً لنظام سياسي إسلامي نستطيع الاتفاق على أنه كان صالحاً لقيادة المسلمين بشكل سليم أولاً، ولكي نقوم بعولته في سبيل تصديره للغرب المسيحي فيشكل له تحدياً في عقر دار مبادئه التي يُصدِّرها إلينا ثانياً. كما إنه ليس بين الأنظمة الإسلامية القائمة حالياً ما يقنع قطاعاً واسعاً من المسلمين أنفسهم لكي يكون المثال المُحتذى، فكيف يمكننا إقناع الغرب المسيحي، وغيره من بلدان الشرق البوذية، مثلاً؟

حملت الدعوة الإسلامية عدداً من القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتنظيم شؤون البشر، وإن ممارسة الحكم على أساسها - وعلى شرط أن تدعمها مرجعية إسلامية مركزية تحمل قوة إلزام كل الفرق - يُمهّد الطريق أمام حكم عادل، بما يعني العلاقة بين الحاكم والمحكوم، "إلا أن ذلك هو من باب الحقائق الفكرية، ونعلم أن الواقع المشهود في التاريخ العربي - الإسلامي، للعلاقة بين الحاكمين والمحكومين، لم يقارب هذه الآفاق المثالية، إلا في فترات وجيزة... كان من باب الومضات الاستثنائية في الحقبة الطويلة من الاستهتار بالحقوق، ومن تعطيل الحريات والإبقاء على الأمية والسفاهة"^(١).

ألم يوفر الغرب المسيحي مئات من السنين من جهد علمائه وفلاسفته وعقلائه عندما استفاد من تجربة العقل الإسلامي - العربي و إنتاجه منذ أخذ ينقل تراثنا وإنتاج عقول علمائنا وفلاسفتنا؟

ألم تعط مبادئ الديمقراطية للشعوب الغربية المسيحية وغيرها فسحة واسعة لنقد ما لا يصلح لها من قوانين وأنظمة حكم؟ ألم تصبح الشعوب الغربية سيادة نفسها وسيدة أنظمتها السياسية بفعل تلك المبادئ؟

أما نحن، وحينما ابتداء الغرب ينتج فكراً متطوراً متقدماً مستفيداً من تراثنا وإنتاجنا، ثم أخذ يُصدِّره إلينا أو كنا نحن نساغر إليه لاستيراد إنتاجه، فقد أخذتنا ردات الفعل المتباينة: بين قابل ورافض وناقد... وكانت مسألة المبدأ الديمقراطي من أهم تلك المبادئ التي أثارت

(١) الفيلاي ، مصطفى : " نظرة تحليلية في حقوق الإنسان... " : م . س : ص ٩٥ .

اهتمامنا وأكثر موجات الجدل من حولها؛ وهو كنموذج حي يمكن أن يشكّل أبرز ما سنعمل على دراسته كحالة من حالات التفاعل الاجتماعي والفكري التي دار الجدل من حولها في أوساط أمتنا.

كان الأكثر مرونة بين الإسلاميين هو الذي أقرّ بهذا المبدأ لكن على أساس أنه ليس ابتكاراً مسيحياً غريباً، بل إن الشريعة الإسلامية هي التي كان لها قصب السبق في وضعه، ويستند هذا الفريق إلى أن مبدأ الشورى في الإسلام هو القاعدة المبدئية للديموقراطية. وإذا كان الكلام صحيحاً - كما يحسب قائلوه - فلماذا نأخذ، إذاً، عن الغرب مبادئ كنا نحن واضعوها؟ فهل من الصحة بمكان أن الإسلام قد وضع أسس المبادئ الديمقراطية؟ نحن نحسب أن هذا الرد لم يكن أكثر من رد فعل ساقه قائلوه كمبرر للامتناع عن أخذ ما ليس ذا أصول عقيدية إسلامية. وسرى، لاحقاً، عدم صحة تأويل من تأوّل أن الشورى في الإسلام هي مبدأ مواز للمبدأ الديمقراطي أو على الأقل لم يُجمع الإسلاميون على صحة هذا التأويل.

كانت الردود، حين استقبال المبادئ الديمقراطية، ذات الأصول الغريبة، متباينة ومتباعدة. كانت ردود فعل من حملوا النص الديني الأكثر تناقضاً؛ فهي قد تراوحت بين من يزاوج بين الشورى الإسلامية والديموقراطية الغربية استناداً إلى نصوص دينية إسلامية، وبين من يُكفّر القائلين بالديموقراطية مستندين في تكفيرهم إلى نصوص دينية إسلامية أيضاً. وتأتي العولمة - أخيراً وليس آخراً - لتستفزنا، فنقف - كما جرت العادة في صف الرّاد للفعل، وليس مُنتجّه... فهل لم نعد نملك سوى ردود الأفعال؛ وهل لم يبق لدينا إلا أن نصاب بوهم المؤامرة ضد واقع حضاري ندّعي أننا نمتلكه؟ إن المؤامرة - كما نحسب - ليست موجهة ضد حضارة نمتلكها، لأننا - اليوم - لا نمتلك إلا التخلف والجهل؛ لكننا نملك كنوزاً مادية لا نستطيع استثمارها بسبب هذا التخلف؛ ونحن - أيضاً - نعدّ سوقاً استهلاكياً واسعاً لا يشبع، ويأكل مما لا ينتج؛ فالغرب يمتلك العلم الذي يؤهله لاستثمار كنوزنا ويعيد إنتاجها ويبيعنا إنتاجه فيربح على وجهين: وجه نهب كنوزنا، ووجه يبعها لنا ثانية. فالمؤامرة بهذا المعنى ليست ضد حضارتنا في هذا العصر لأنه ليست لدينا حضارة، بل المؤامرة هي لإبقائنا هكذا من دون حضارة، لكي نبقي عاجزين عن الاستفادة مباشرة من ثرواتنا أولاً، وإعادة إنتاج السلع الضرورية منها ثانياً.

إن هاجس المؤامرة يسكن عقلاً وخيالنا وخطابنا اليومي؛ وإنه - كما نرى في بحثنا هذا - نعترف بوجود المؤامرة، لكننا ضيّعنا اتجاهاتها، فعلياً أن نصحح هذه الاتجاهات أولاً، ونعمل - مستفيدين من الحضارة الغربية، لأننا لن نجد خياراً آخر - في سبيل بناء أرضية حوارية جادة

تجعلنا نقبل الحوار الموضوعي مع الفكر الآخر فنأخذ منه ما يساعدنا على بناء قوة حضارية ذاتية مبنية على التطور السياسي - الاجتماعي - التكنولوجي، مما يصل بنا إلى مستوى الإسهام الفعلي في تقدم الحضارة العالمية الحديثة. وهنا لا بُدَّ من التمييز بين العالمية والعولمة:

عالم: جمعها عوالم، ويشترك منه فعل (عَوَّلَمَ) ، والاسم منه (عولمة) .
وفكرة العالم هي إنسانية وكونية، "فإذا مُثِّلَ العالم فإنما يُمَثَّلُ لإنسان كأقرب ما يكون منه، وأبعد ما يكون عنه في وقت واحد" (١).

كل قيمة عليا هي إنسانية/ عالمية... ولكي يكتسب أي مبدأ سياسي، اجتماعي، أو اقتصادي ... صفة الإنسانية/ العالمية لا بُدَّ له من أن يُنشرَ في خارج الدائرة التي نبت فيها إلى الدائرة الأقرب مباشرة، فالأبعد...حتى يَعْمُ كل بقعة في العالم البشري؛ وهكذا يُسبَغُ على هذه القيمة صفة العالمية، ويصبح فعل نشرها "عولمة" . فالعولمة هي العمل على تصدير القيمة/ المبدأ إلى العالم الأبعد، فإذا انتشر و قُبِلَ إكتسب صفة العالمية.

فالعالمية هي صفة لكل قيمة عليا، والقيم العليا مفطورة عند كل إنسان بالقوة، وتصبح قيمة بالفعل، حليَّة واضحة، كلما بدأ الصراع بين القيمة ونقيضها في سبيل القضاء على النقيض. فهل يمكن لعالمية القيم أن تتحقق؟

يمكن أن تكتسب المبادئ والقيم صفة انشمولية في القبول النظري، لكنها قد لا تكتسب صفتها الشاملة في التطبيق لأكثر من سبب. أما إذا حققت شموليتها في التطبيق، فهذا حلم أصبح حقيقة، وهذا يُعدُّ إنجازاً جميلاً و رائعاً. لكن الواقع الإنساني شيء آخر، من حيث اختلاف مستوى المجتمعات في الثقافة والوعي...

ولكي لا نسبح في محيط الأمل اللاواقعي، أو نفرق في لُجَّة اليأس القائم، يكفينا العمل في سبيل تأسيس قيم إنسانية - عالمية مقبولة على الصعيد النظري الذي يحمل إمكانية التطبيق؛ ومن ثم العمل على مقارنة هذه القيم من واقع التعدديات الثقافية والدينية بين المجتمعات شيئاً فشيئاً عن طريق الحوار القابل للتعديل والتطوير و ليس عن طريق الوهم بتحقيق ذلك عن طريق القسر والإكراه.

تُعدُّ العالمية صفة من صفات الأديان السماوية، بشكل خاص، و يندرج عدد من القيم الإسلامية في دائرة العالمية. فأين يقع الإسلام في العالم المعاصر؟ وأين يمكن مقارنة بعض ما يُعدُّ أنه قيم إسلامية عليا مع التعدديات الدينية والثقافية في هذا العالم؟

(١) خليل ، خليل أحمد: مفاتيح العلوم الإنسانية : م . س : ص ٢٧٥.

عمل الغرب، ويعمل - بحسه المادي (الربح والخسارة) - على تصدير السلع الاستهلاكية؛ ويعمل على تسويق هذه السلعة بواسطة ثقافة إقتصادية هدفها الأول فن الترويج للسلعة؛ ويستخدم، إلى جانب ذلك، قواه العسكرية، طامساً ما أنتج و صُدِّر من حضارة فكرية ذات أبعاد إنسانية. فحصل من جراء ذلك التباس شديد في مفهوم العولمة.

إستتبط الغرب - التاجر أسلوباً اقتصادياً قائماً على ثقافة إعلانية تدعمها وسائل الإعلام المتعددة الوجوه والأغراض. واستدعى هذا الأسلوب - في سبيل إنجاحه - عولمة لمفاهيم سياسية/اجتماعية/اقتصادية تصبُّ في دائرة ثقافة الاستهلاك السِّلعي، فيؤسس - بهذا - ثقافة للمستهلك كتابع للمنتج كل همه أن يلاحق السلعة الأفضل من خلال الدعاية والإعلان... وليس من هم لثقافة الإستهلاك غير أن تكون جذابة في الشكل، جاذبة للمستهلك بسهولة. فيَعِدُّ نفسه بسلعة تُيسِّر له الرفاهية والراحة فيصبح مستهلكاً مُتَرَفِّفاً أكثر منه راغب في ثقافة الإنتاج.

من هنا كانت العولمة، التي نأنف منها، فعل تصدير إقتصادي يستخدم عدداً من مبادئ السياسة والاجتماع لأغراض الربح التجاري. ولكننا يجب أن نُزيل الالتباس الحاصل بين العولمة - بمفهومها الاقتصادي الاحتكاري الاستعماري - وبين العولمة بمفهومها الفكري العالمي/الإنساني.

إن في العولمة - كما لحسب - فعل إيجابي، أيضاً. ويمكنها أن تكون كذلك إذا كانت فعل تصدير للقيم الإنسانية العالمية الفاضلة.

- فالمسيحية - منذ أن نشأت على أرض فلسطين - عملت على عولمة مبادئها وتعاليمها، فوصلت إلى أوروبا، ثم انتشرت في أصقاع الأرض.

- والإسلام - منذ نشأته في الجزيرة العربية - عمل في سبيل عولمة مبادئه و تعاليمه، فوصل إلى الصين شرقاً وجنوب أوروبا غرباً.

- وكل فلسفة قديمة كانت أو حديثة - منذ سقراط وحتى الآن - كانت تتعولم بطريقة أو بأخرى: تعولم أرسطو في الشرق الإسلامي، ثم انتقل إلى الغرب المسيحي بوسائط عربية - إسلامية. وعملت الفلسفة الأوروبية على عولمة نفسها فانتشرت من أدنى الكرة الأرضية إلى أقصاها، ولاقت صدىً واسعاً في الشرق العربي - الإسلامي منذ قرنين من الزمن.

- ومنذ تأسيس هيئة الأمم المتحدة، في العام ١٩٤٥م=١٣٦٤هـ، بفعل التقاء شعوب العالم - بأدوات حكومية - في اجتماعات دورية؛ وبفعل انفتاح شعوب العالم على بعضها البعض - بفعل التطور الهائل في وسائل الاتصال والمواصلات - ولِدَت مجموعة من المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أبرز إلى الواجهة حاجة المجتمع الدولي لتوحيد المفاهيم

حول هذه المصالح... فنشأت الحاجة إلى عولمة القوانين التي تضمن توحيد الرؤى السياسية والفكرية في أكثر من حقل يطمئن فيه المرء - أياً كانت جنسيته أو دينه أو اتجاهاته الثقافية والسياسية - على حريته وحياته وحقوقه أينما انتقل في أرجاء هذا العالم الفسيح.

ولأن البحث واسع جداً، ولأن طبيعة بحثنا محدودة تحديداً منهجياً، حول مسألة الردة عن الدين، فلا يمكننا إلا أن نطلّ فقط على ما يمس جوهر هذا البحث ويخدمه من خلال ما اصطُلِحَ على تسميته بـ "حقوق الإنسان".

ليس من السهولة صياغة تعريف دقيق للعولمة، نظراً إلى تعدد تعريفاتها، والتي تتأثر أساساً بانحيازات الباحثين الأيديولوجية، واتجاهاتهم إزاء العولمة رفضاً وقبولاً. كما إن هناك تنوع ضخّم في الظواهر التي تتعلق ببحث مفهوم العولمة: الاقتصاد، السياسة، الثقافة، الأيديولوجيا...^(١).

وفي سبيل الاقتراب من صياغة تعريفات للعولمة لا بد من الاستناد إلى عمليات ثلاث تكشف عن جوهرها: "العملية الأولى تتعلق بانتشار العولمة بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس. والعملية الثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول. والعملية الثالثة هي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات..."^(٢).

لقد جرت أول محاولة لعولمة قانون موحد لحقوق الإنسان، منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، في العام ١٩٤٨م = ١٣٦٧هـ، عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكان الإعلان المذكور منطلقاً لإصدار ثلاثة صكوك تضيف عليه القوة القانونية، وهي: العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العام ١٩٦٦م = ١٣٨٦هـ. والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية في العام ذاته. ثم صدر البروتوكول الاختياري. وفي العام ١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ صدرت اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.

للإعلان العالمي سلطان معنوي. أما العهدان فهما معاهدتان مُلزمَتان للدول التي تصدّق عليهما.

أثار الدور الذي تلعبه الأمم المتحدة شتى الهيئات في الشرق الغربي - الإسلامي، ودفعها - في أعقاب الحرب العالمية الثانية - إلى إصدار أكثر من خمسة عشر مشروعاً، ترجع المبادرة في صياغة معظمها إلى هيئات علمية من الجامعيين والدارسين و رجال الحقوق، وإلى بعض

(١) يسين، السيد: م. س: ص ٦.

(٢) م. ن: ص ٧.

المنظمات الإقليمية: مثل رابطة العالم الإسلامي، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، وإلى بعض الرابطات الوطنية للدفاع عن حقوق الإنسان.

يشارك معظم هذه المشاريع بطابع الخصوصية المرجعية التي تمتاز بها عن النصوص الأهمية، إلا أن بينها ميادين تطابق عديدة. وما يُميز هذه المشاريع عن النصوص الإسلامية فارق جوهري، بحيث تمتاز النصوص الإسلامية في منعها حق الارتداد^(١). وإن ما يُميز المواثيق الدولية أنها تنطلق من مبدأ النظام الطبيعي، وتنظر إلى الإنسان في واقعه الإنساني، وفي حاجياته المادية... بينما المواثيق الإسلامية تنظر إلى الإنسان بشمولية ذاته، وتنظر إليه من جانب احتياجاته المادية والروحانية. ففيها تُعدُّ الحقوق مئة ربائية، والحريات تخويلاً آلهياً...^(٢).

جاءت المواثيق الدولية لتسبغ على عدد من القوانين - التي لها علاقة بحقوق الإنسان - صفة العالمية؛ وصيغت - في سبيل ذلك - آليات تضمن التزام الناس بها^(٣).

وعلى العموم - علينا أن نأخذ بالحسبان - أن هيئة الأمم المتحدة تُشكل إطاراً دولياً عالمياً يُمثل أوسع تمثيل شتى الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم؛ ويأتي على رأس هذه الاتجاهات - والتي هي ميدان بحثنا - مسألة التعددية الدينية وما تؤمن به من مبادئ تناول حقوق الإنسان.

فعلى أية اتفاقية دولية لها علاقة بحقوق الإنسان أن تراعي القواسم المشتركة والاتجاهات المختلف حولها لشتى أديان البشر على الكرة الأرضية، آخذة بعين الاهتمام الأولى القيم الإنسانية العامة بشكل أساسي. وإنه إذا تضمنت هذه الاتفاقيات والعهود خصوصيات كل دين - ولكل دين نصوصه المقدسة - لامتعت الصفة العالمية عنها... ولأصبح من المستحيل عولمتها/ أنسنتها. فهل العولمة تتحقق في ظل تعددية النصوص المقدسة؟

لو كانت عولمة النصوص المقدسة ممكنة لقام كل دين، في شتى أصقاع الأرض، بعولمة قيمه وخصوصياته. وما ينطبق - في مثل هذه الحال - على الأديان السماوية يصح، أيضاً، على الأديان الرئيسة الأخرى، و عدد منتسبي بعضها لا يقل عن عدد منتسبي الأديان السماوية بل يفوقها عدداً.

فعلى الرغم من كل ما يُشغل عقول الباحثين والمفكرين من هواجس موضوعية حول ما يجري في عالمنا المعاصر، ويأتي على رأسها محاولات الدول الرأسمالية الكبرى، التي تُسخر كل القيم الثقافية في سبيل تسويق بضائعها المادية، فإنه يمكن لهؤلاء الباحثين والمفكرين، أن يُميزوا

(١) الفيلاي، مصطفى: "نظرة تحليلية في حقوق الإنسان..." م. س: ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) م. ن: ص ٨٥.

(٣) م. ن: ص ٩٥.

بين العولمة الإيجابية - ذات الطابع الإنساني التي تعمل لتصدير القيم الإنسانية، وبين العولمة السلبية ذات الأهداف التسويقية التجارية الاحتكارية.

قد تدفع المفكرين والباحثين، إلى تغليب جانب السلبية في تقييمهم مسألة العولمة، هي تلك التجربة التي تكون قد دلت "على أن الدول المشاركة في العضوية في منظمة الأمم المتحدة، لا تتساوى بينها في قابلية العمل بمواثيق المنظمة، وليست على درجة واحدة في نوعية القوانين الحاكمة، ولا في شمول الوعي السياسي، وفي مراتب انتشار التعليم، وتقلص الأمية؛ بالإضافة إلى ما بينها - غالباً - من التفاوت في الموارد الطبيعية و المالية، ومن القدرة على تسخير الوسائل الكافية لنشر التعليم وحفظ الصحة، ولتوفير فرص العمل، ولضمان الحق في السكن وضمان الأسرة، إلى غير ذلك من الواجبات الميسرة لمتنع المواطن بحقوقه^(١).

إن وجود فوارق في مستويات الاقتصاد والتقدم الاجتماعي والثقافي ليس مبرراً كافياً للوقوف سلباً في وجه العمل لنشر قيمة من القيم الإنسانية وتعميمها. فالاعتراف بحقوق الإنسان - كقيمة عليا - هي مسألة نظرية، فإما أن تؤيدها أو أن ترفضها لحسن أو لقبح عقلي فيها فهذه مسألة منطقية. أما أن ترفضها لصعوبة تطبيقها في مجتمع لا يمتلك شروط تطبيقها فهذه مسألة مختلفة جداً، ويكون الأمر مُستغرباً جداً.

إن الخلاف - غالباً - حول العولمة، التي لها علاقة بحقوق الإنسان، لا تدور بين تحسين أو تقييح عقلي و عملي؛ فمواطن الخلاف هي غير ذلك تماماً؛ فمحاسن حقوق الإنسان - عقلياً ونظرياً - هي أمر ليس موضوع خلاف، وإنما الخلاف يدور حول مضامين هذه الحقوق. فكيف يحصل هذا؟

في دائرة المقارنة بين مبادئ الإسلام حول حقوق الإنسان و بين الإعلان العالمي - تقول فوزية العشماوي - إن الإسلام أرسى المساواة المطلقة بين البشر من دون تفرقة أو عنصرية أو تمييز بسبب اللون أو العرقية أو اللغة. فالمبادئ التي أرساها الدين الإسلامي، وأعلنها الرسول محمد - منذ ١٤ قرناً - هي أشمل من المبادئ والمعايير التي أقرها الميثاق العالمي لحقوق الإنسان منذ خمسين عاماً. وهنا تقوم العشماوي بمقارنة بين النصين الإسلامي والعالمي:

- قال الرسول محمد: "كلكم لآدم و آدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أبيض على أسود، ولا لأسود على آخر إلا بالتقوى؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

(١) م . ن : ص ٨٣.

- تنص المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة على أن: "جميع الأفراد لهم نفس الحقوق والحريات بدون تفرقة من أي نوع، مثل الجنس أو اللون أو النوع أو اللغة أو الدين أو الآراء السياسية أو الوطنية، أو الوضع الاجتماعي أو الملكية أو البلاد أو أية أوضاع أخرى"^(١).
لقد فانت موضوعية المقارنة العشماوي. فالمقارنة لم تكن عادلة على الإطلاق: فوثيقة الأمم المتحدة قد أتت على ذكر مسألتين في غاية الأهمية رفض الإسلام الاعتراف بهما، وهما لبُّ الصراع الدائر بين الأديان كافة:
- نصّت الوثيقة على تساوي كل الأديان على كل الكرة الأرضية، وسجّلت اعترافها بها.

- ونصّت على المساواة في الحقوق السياسية والمدنية بين كل المتتبعين لكل الأديان من دون تفرقة أو تمييز.

من هنا نتساءل: هل يمكن المقاربة بين نصوص الشريعة الإسلامية وبين ما جاء في المادة ١٨ - الفقرة ١ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية؟

- لقد نصّت المادة ١٨ / الفقرة ١ على ما يلي: "لكل فرد الحق في حرية الفكر والضمير والديانة. ويشمل هذا الحق حريته في الانتماء إلى أحد الأديان أو العقائد باختياره، وفي أن يُعبّر، منفرداً أو مع آخرين بشكل علني أو غير علني، عن ديانته أو عقيدته، سواء كان ذلك عن طريق العبادة، أو التعبد أو الممارسة أو التعليم".

- وجاء في الفقرة ٢، ما يلي: "لا يجوز إخضاع أحد لإكراه من شأنه أن يُعطّل حريته في الانتماء إلى أحد الأديان أو العقائد التي يختارها".

كان الموقف الإسلامي واضحاً في ما له علاقة بمبدأ الانتماء الاختياري للدين إذ تميّزت المشاريع الإسلامية الخاصة بحقوق الإنسان في هذا الجانب برفض السماح بالارتداد عن الدين. و تبرز، من جهة أخرى، إشكالية مقاربة النص الإسلامي من العولمة، وهي مشكلة الاسترقاق و مشكلة الإمام.

- نصّت المادة الثامنة (الفقرة ١) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية على ما يلي: "لا يجوز استرقاق أحد، ويُحرّم الاسترقاق و الاتجار بالرقيق في كافة أشكالهما".
- وجاء في الفقرة ٢: "لا يجوز استعباد أحد".

(١) العشماوي، فوزية: "عالمية الدعوة الإسلامية" (٤١ - ٤٢): مجلة شؤون إسلامية (العدد ٤): لندن: ١٩٩٨.

- أما الشريعة الإسلامية فإنها لم تشجع على الاسترقاق ولكنها لم تحرمه. فالعبد في الإسلام كل من تحدّر من عبد سابق، أو من وقع أسيراً في الحرب... والعبد إنسان وشيء في آن واحد، إذ يمكن بيعه وإهدائه وتوريثه الخ... ولا حق له بالملكية... ويحق له الزواج إذا وافق سيده على ذلك...^(١). وانتشرت في العهد العثماني عادة تربية الغلمان - منذ القرن ١٤م = ٨هـ - وعلى الرغم من أنه تمّ القضاء عليها، في بداية القرن ١٨م/١٠هـ، فإنهم كانوا يُعَدُّون من عبيد السلطان...^(٢).

لقد كان نظام الاسترقاق معمولاً به منذ أيام الدعوة الإسلامية الأولى، ولم يُعدّل حتى الآن. فكان كل من أُسِرَ في الغزوات يجوز استرقاقه... ولما كثرت الفتوحات كثّر الاسترقاق من الأمم المغلوبة كثرة هائلة؛ وكان المُسترقّون، رجالاً و نساءً وذراري، يُوزَّعون على المسلمين الفاتحين. يقول المسعودي إن ابن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة... وكان يُعَدُّ هذا الرقيق مملوكاً للسيد المطاع، له الحق في بيعه وهبته؛ وإذا كان أمةً جاز للسيد أن يستمتع بها... ويصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد، كما يصح أن يكون في بيته عدد من الإماء...^(٣).

جاء في النص القرآني: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتَمُوهُمْ فَشَتُّوا الرِّقَابَ، فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ فَتْحٍ كَبِيرٍ، فَزِيْلَتُهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ بَلُغَ الذُّلِّ فَكَفَى﴾ (محمد ٤٧: ٤). وقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: "

(قال الخوارزمي، عندما سُئِلَ عن حكم أسارى المشركين: " أما عند أبي حنيفة وأصحابه أحد أمرين: إما قتلهم، وإما استرقاقهم أيهما رأى الإمام. ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية نزل ذلك في يوم بدر ثم نسيخ. وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق. ويجوز أن يُراد بالمنّ أن يُمنَّ عليهم بترك القتل و يُسترقوا، أو يُمنَّ عليهم فيُخلوا لقبولهم الجزية، وكونهم من أهل الذمّة. وبالفداء أن يُفادى بأسارهم أسارى المشركين؛ فقد رواه الطحاوي ملهبا عن أبي حنيفة؛ والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين. وأما "شافعي فيقول: للإمام أن يختار أحد أربعة - على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين - وهو القتل والاسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمنّ.

(١) كريتزر، كلوس: معجم العالم الإسلامي: المؤسسة الجامعية للدراسات: بيروت: ١٩٩١: ط١: (تعريب ج. كتورة): ص ٣٠٦.

(٢) م. ن: ص ٤٦٨.

(٣) أمين، أحمد: فجر الإسلام: م. س: ص ص ٨٨ - ٨٩.

ويحتج بأن رسول الله (من على أبي عروة الحنفي و على ابن أنال الحنفي، وفادى رجلاً
برجلين من المشركين، وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي" (١).

(وجاء عند ابن كثير ما يلي: "الظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله
سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء
والتقليل من القتل... ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المُنخِرة بين مفاداة الأسير والمن عليه
منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾... وقال
الآخرون - وهم الأكثرون ليست بمنسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على
الأسير و مفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل أن يقتله إن شاء... وزاد
الشافعي فقال: الإمام مُخَيَّر بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً... " (٢).

(وجاء عند محمد جواد مغنية: "...وعندئذ أحكموا أسر من بقي منهم كيلا يفلت ويعيد
الكرة عليكم؛ ومتى تم ذلك كان الخيار للنبي أو نائبه في إطلاق الأسير بفداء، أو من من غير
فداء حسبما تقتضيه المصلحة..." (٣).

أما جُلُّ ما فعله الإسلام بالنسبة لمسألة الرقيق - وهو غالباً ما كانت أعداده تتكاثر بسبب
كثرة الغزوات والحروب الكثيرة - أن جعل عتق الرقبة كفارة عن الذنوب، ولم يرد نص واضح
مُحكِّم يدل على تحريمه. وهذه آيتان من القليل الذي جاء في القرآن: ﴿والذين يُظَاهِرُونَ مِنْ
نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ (المجادلة ٥٨ : ٣). ﴿لَا
يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكُفَّارَتُهُ... أو تحرير رقبة﴾
(المائدة ٥ : ٨٩).

لا يستقيم الموقف إذا ادعى الفقهاء المسلمون أن موضوع الرقيق قد عفى عليه الزمن، من
بعد أن أصبح لاغياً بحكم الأمر الواقع، لأن النص وتأويلاته باقيان منهلان أساسيان أمام كل
مسلم ليأخذ منهما ما يتناسب مع الظروف التي يعيشها، فهو حرّ أن يستعبد من أسرى الحرب
من يشاء إذا شاء، ويفعل ذلك من دون أي حرج شرعي.

فعلى قلة المعلومات التي تُنشر عن موقف التيارات/ الجماعات الإسلامية بالنسبة للأسرى؛
لكنه تتسرّب من آن لآخر أخبار، حتى ولو كانت أخباراً صحفية، لها دلالة ويمكنها أن تضيء
على بعض جوانب الإشكالية. وهي تدل مباشرة على أن الأمر الواقع لن يعفي الفقهاء

(١) الخوارزمي : الكشف (ج ٣) : م . س : ص ٥٣١.

(٢) ابن كثير : تفسير ابن كثير (ج ٦) : م . س : ص ٣٠٩ - ٣١١.

(٣) مغنية ، محمد جواد : التفسير الكاشف (٧م) : م . س : ص ٦١.

المسلمين من اتخاذ موقف واضح من تأويل النص وتفسيره بدقة ووضوح لا لبس فيه، وبما لا يدع أية ثغرة لأي تيار أن يأخذ النص على ظاهره ليتسلل منه إلى ممارسة حقه الشرعي في إعادة نظام العبودية تحت ذريعة أن النص واضح محكم.

جاء على لسان أحد أمراء الجماعات الإسلامية في الجزائر ما يلي: "يعيش المتطرفون [الجماعات الإسلامية في الجزائر] في عالم صوفي. يعتبرون أنهم يمثلون اليد المسلحة لله؛ وبناء على هذه الصفة يسمحون لأنفسهم بأن يقتلوا مستندين إلى الكتاب المقدس، الذي بالكاد يعرفه معظمهم. يُطبّقون الخطوط الكبرى فيه من دون أن يهتموا بالفوارق الدقيقة الحساسة... ويعتبرون أن ضحاياهم ليست بريئة بل مُدانة بخطيئة أصلية تقريباً: خطيئة عدم الإيمان بالله. ما هي براهينهم؟ [يحسبون أنه] لا يحترم الجزائريون الشريعة والفقه الإسلامي، ولا يعيشون كمسلمين صالحين؛ يشاهدون برامج التلفزيون الكافرة، ويسمحون لنسائهم بالقيام بكل شيء... كان أعضاء الجماعات الإسلامية المسلحة يؤكدون أنه ينبغي حتى قتل الأطفال الرضع...". وكانوا يقومون بتعذيب الأسرى: إما باقتلاع أجزاء من جلدتهم بآلات حادة؛ أو دفنهم أحياء؛ أو قتلهم ذبحاً بالخناجر...^(١).

هل تُحلُّ مشكلة هؤلاء القتل إذا تبرأ كثيرون من العلماء المسلمين مما يفعله غيرهم؟ وهل هم لا يتحملون أية مسؤولية؟ وهل إن ما يحصل، وما يفعله إسلاميو الجزائر، إلا مستنداً إلى ما يتناقله الإسلاميون، كل الإسلاميين، من روايات ونصوص؟ وهل إسلاميو الجزائر إلا من المجتهدين الذين ينالهم أجر واحد إذا أخطأوا؟ وهل يُعدُّ ما يجري في الجزائر نتيجة لاستيرادهم مبادئ ومفاهيم غريبة؟

بلى يجب أن يتحملوا مسؤولياتهم، وإن المسؤولية التي يتحملها كل الفقهاء المسلمين، الذين يغسلون أيديهم من دم أولئك الأبرياء، هي أن ترتفع منهم صرخة حق جريئة - ليس باستنكار ما يجري، والادعاء بأن ما يفعله أولئك ليس من الإسلام في شيء - تحض على السماح بالنظر إلى النص بغير العيون التقليدية السلفية، التي بواسطتها ومنها، تتخذ معاهد التعليم الديني الإسلامي مادتها لتعليم الفقه والتشريع والتفسير وغيرها من علوم الدين؛ تلك المادة ذاتها التي يتلقاها إسلاميو الجزائر، واستناداً إليها يفتنون بما يحدد عخطواتهم بالعمل الذي به يقومون.

(١) راجع: [إتسام خير الدين: "اليد المسلحة لله..." (١٦): مجلة الكفاح العربي: بيروت: العدد ٢٩١٥: تاريخ ١٩٩٩/٢/٢. وفي المقال الصحفي تنقل الكاتبة مراجعة لكتاب صدر في باريس تحت عنوان (إعترافات أمير من الجماعات الإسلامية)؛ جمعه الصحفي الفرنسي باتريك فورستيه.

لم تنفرد الدعوة الإسلامية بموقفها اللائحة من إشكالية الرق، لأن المسيحية لم تقف موقفاً متميزاً بالنسبة للعبودية فهي علّمت أن عتق العبد يُعدُّ كفارة عن ذنوب المؤمنين؛ وذهب القديس أوغسطينوس إلى أن العبودية هي عقاب مفروض على الإنسان المذنب. إلا أن الخطيئة هي التي تجعل الإنسان يستعبد الإنسان طيلة حياته، ومثل هذا لا يمكن أن يحدث إلا بحكم الله الذي لا يعرف الظلم، والذي يعرف كيف يكيل العقاب لمن يستحقه^(١).

أما المواثيق الدولية، ومنها اتفاقية جنيف الرابعة، فتشكّل - كنص معلوم - ضماناً وحماية للمدنيين في الحروب، وكذلك للمحاربين: فهي قد حرّمت في مادتها ٣٣ معاقبة أي شخص عن ذنب لم يقترفه شخصياً. فهذه الاتفاقية قد حرّمت ما لم تحرّمه الأديان السماوية. فهل في ظل هذه الاتفاقية يمكن استرقاق المحاربين وأهاليهم؟ أو هل يمكن أن تُعدّ النساء رقيقاً يقرون ملك يمين المنتصر؟ وهل يجوز قتل الرجال والنساء؟ وهل يمكن استرقاق أطفال المحاربين؟

لم تُشرّع العقيدة الإسلامية حق الاسترقاق فحسب، وإنما منعت المساواة بين الأرقاء والأحرار، أيضاً:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ، الْحَرِّ بِالْحَرِّ، وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ، وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى...﴾ (البقرة ٢ : ١٧٨). وقد جاء في تفسير هذه الآية ما يلي:

(جاء عند محمد جواد مغنية: إن الحر لا يُقتل بالعبد، وإن الرجل لا يُقتل بالمرأة، أي إن الحر إذا قتل عبداً لا يُقتل به. وإذا قتل الرجل امرأة لا يُقتل بها، فهل هذا محل وفاق بين الفقهاء - يتساءل مغنية؟ ثم يُفصّل ما جاء عند الفقهاء:

- قال مالك والشافعي وابن حنبل: إن الحر لا يُقتل بالعبد.

- قال أبو حنيفة: بل يُقتل الحر بعبد غيره، ولا يُقتل بعبد.

- واتفق الأربعة على أن الرجل يُقتل بالمرأة، والعكس صحيح.

- قالت الإمامية: إذا قتل الحر عبداً لا يُقتل به، بل يُضرب ضرباً شديداً، ويُغرّم دية العبد. وإذا قتلت المرأة رجلاً عمداً كان ولي المقتول بالخيار بين أن يأخذ منها الدية إن رضيت هي وبين أن يقتلها. فإذا اختار القتل فلا يُغرّم أهلها شيئاً... وإذا قتل الرجل امرأة كان وليها بالخيار بين أن يأخذ الدية إن رضي القاتل، وبين أن يقتله الولي على أن يدفع لورثة القاتل نصف دية الرجل.

(١) الكيّل، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣) : ٢٠٠ م : ص ٨٦٩.

(وجاء عند ابن كثير أن الجمهور قد ذهب إلى أنه لا يُقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعة، لو قُتل خطأ لم يجب فيه دية، وإنما تجب قيمته.

- وذهب الجمهور أيضاً إلى أن المسلم لا يُقتل بالكافر.

- وقال أبو حنيفة إلى أنه يُقتل به لعموم آية المائدة^(١).

إعتراف الإسلام بالاسترقاق بامتناعه عن تحريره بنص مُحكم؛ والإقرار بشرعية الطبقية بين سيد و عبد ومنع التساوي بينهما؛ والحال كما هي عليه، فكيف يمكن التوفيق بين عالمية القوانين وعولتها وبين الشريعة الإسلامية؟

لقد جاءت النصوص العالمية لتُعبر - بشكل جلي - عن تحريم الاسترقاق و الاتجار به بشتى أشكالهما من جهة، ولكي تساوي بين جميع الأفراد بالحقوق والواجبات بدون تمييز من أي نوع كان من جهة أخرى. وجاءت لتؤكد - في المادة الثالثة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية - على مساواة الرجال والنساء بحق التمتع بجميع الحقوق المدنية والسياسية.

فهل يبقى من مخرج أمام الفقهاء المسلمين إلا أن ينتظروا الواقع لكي يفرض نفسه على الشريعة من دون أن يتجرأ أي واحد منهم على اتخاذ موقف تشريعي يواكب تطور الزمن؟ وهل يبقى دورهم واقفاً عند محطة انتظار الواقع لكي يفرض نفسه من دون أي تدخل منهم سوى الصمت وإدارة الظهر و دفن الرأس في الرمال؟

هذه حقيقة لم يستطع محمد جواد مغنية إلا أن يتوقف عندها، ولكن بلامبالاة، في أثناء تفسيره لآية تتعلق بالإماء وأحكامهن، حين يقول: "إن الحديث عن الإماء وأحكامهن أصبح بلا جدوى بعد إلغاء الرق"^(٢).

من هو الذي ألغى نظام الرق؟ وهل كان للفقهاء المسلمين فضل في ذلك؟ وهل صدرت مباركة منهم لهذا الإلغاء أم أنهم قابلوه بالصمت؟ فإذا كان هذا الإلغاء خطوة حسنة ألم يكن من واجب الفقهاء أن يباركوه ويتبعوه بخطوة اجتهادية جريئة تحرّمه تحريماً باتناً لا رجعة عنه؟

تحسب فوزية العشماوي - ومعها كل فقهاء المسلمين من جميع المذاهب - "أن الإسلام دين عالمي، يصلح لكل زمان ولكل مكان، والرسول محمد (هو رسول عالمي، لم يُرسل إلى قوم بالتحديد...". ولأن الأسس التي قام عليها الإسلام (إعترافه بحقوق الإنسان - وإن الإسلام دين عالمي) ليست معروفة لدى الغربيين، تدعو العشماوي إلى أنه قد "أن الألوان لكي يتحرك

(١) ابن كثير : تفسير ابن كثير (ج١) : ٢٠٢ : ص ٢٦٩.

(٢) مغنية ، محمد جواد : التفسير الكاشف (٢م) : ٢٠٢ : ص ٣٠٠.

المسلمون ... لينقلوا هذه الحقائق السامية إلى العالم... ليثبتوا... أن الإسلام دين عالمي يصلح لكل زمان وكل مكان... وإنه لا يتعارض مع التقدم..."^(١).

إننا لا نجتنب الحقيقة إذا قلنا أن النخبة الدولية - على الأقل - التي صاغت المواثيق الصادرة عن الأمم المتحدة، ذات العلاقة بحقوق الإنسان، لا تجهل موقف الشريعة الإسلامية من الاسترقاق؛ وإنها لا تجهل، أيضاً، قانون الردة في الإسلام، أصوله ونتائجه والعقوبات التي يرتبها على المسلم المرتد. فالمسألة ليست كامنة في أن الغريين - وخاصة النخبة منهم على الأقل - يجهلون الإسلام، حتى ولا الشرقيين، أيضاً. ونحسب أن إلغاء التمييز العنصري، وضمان حرية الانتساب إلى الأديان، لم يأت إلا رداً على قوانين الردة الدينية - التي أسبغت عليها صفة القدسية - والتي تتنافى مع حقوق الإنسان، والدين الإسلامي هو أحد هذه الأديان.

وذاك صوت إسلامي يرتفع متقلداً العولمة بأنها ذات نزعة مادية، ويحسب أن السبيل إلى مواجهتها، ولضرورة خسم المعركة ضدها "في وقت معقول، ولكي لا تشتت خسائرها على المسلمين، يجب على أمة الإسلام أن تنهض لرسالتها مقبلة على العلم والصناعة واستغلالهما في حماية رسالة الحق إلى العالم المضلل في شأن الإسلام"^(٢). والمستغرب في الأمر أن من يقارن بين الماديين والروحيين لا يستطيع أن يدافع عن صدق روحانيته سوى بالدعوة إلى بنية علمية صناعية!!

إننا بعيداً عن الخطاب التعبوي، الذي يدافع عن الدين بمفاهيم تتصف بالعمومية، نتساءل: هل يمكن في هذا العصر استكمال عصر الفتوحات الإسلامية؟ وهل يمكن الإقرار بشرعية استعباد الأسرى أو قتلهم أو استرقاقهم؟ وهل يمكن الإقرار بشرعية الإماء والتسري بهن؟ إذا كان ذلك أصبح منافياً لروح العصر، وأصبح لاغياً بحكم الأمر الواقع، إلا أنه لم يصدر عن أية مركزية دينية إسلامية ما يرفع الشرعية الإسلامية عن هذه التشريعات، إن الاستمرار بالصمت عن ذلك يُقيي التشريع شرعياً حتى لو أصبح بلا جدوى، لماذا؟

إنه - على الرغم من عدم توفر المعلومات الدقيقة - من المشروع أن يرتفع السؤال التالي: لماذا كلما غزت جماعة إسلامية قرية جزائرية يقتلون الرجال و يصطحبون النساء معهم حين انتهاء الغزوة؟

(١) العشماوي، فوزية: م. س.

(٢) ...: "العولمة بين دعوة الماديين والآلهيين" (٣٨ - ٣٩): مجلة شؤون إسلامية: العدد ٤: لندن:

١٩٩٨.

إنه ودرءاً لمخاطر عدم إلغاء بعض التشريعات الإسلامية، التي تأولها السلف من النص بفتوى فقهية مركزية، يبقى كل تيار إسلامي - عندما تسنح له الفرصة المناسبة، حتى ولو كانت مؤقتة - على أهبة الاستعداد لتطبيق أي نص وكما يحلو له التأويل ولو عُذَّ هذا التشريع بأنه أصبح بلا جدوى.

ولأن عولمة الثقافة والقوانين وتأسيس أرضية مشتركة للتعايش الشعبي الدولي تتعمق أكثر فأكثر، وفي شتى أصقاع الأرض، من جهة؛ ولأنه - حتى هذه الساعة - قد نمت عولمة كثير من المؤسسات الإنسانية والثقافية والقانونية، التي لها علاقة بتنظيم التعددية السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية السائدة على الكرة الأرضية من جهة أخرى، أصبحت الشعارات العامة الفضفاضة، والدعوات المثالية ليست إلا إغراق الخطاب الديني بالألفاظ التي لا تفيد أية حقيقة علمية موضوعية.

واستطراداً لمسألة عولمة القوانين لا بد من أن نُشير ما جاء في وثيقة حقوق المرأة في الاتفاقيات الدولية - التي صدرت عن هيئة الأمم المتحدة في العام ١٩٧٩م/١٣٩٩هـ - ما يلي: "تمنح الدول الأطراف المرأة في الشؤون المدنية أهلية قانونية مماثلة لأهلية الرجل، ونفس فرص ممارسة تلك الأهلية...".

وتنص المادة ٥ - الفقرة أ - على ما يلي: "تعديل الأنماط الاجتماعية والثقافية لسلوك المرأة والرجل، بهدف تحقيق القضاء على التمييز والعادات العرفية، وكل الممارسات الأخرى، القائمة على فكرة دونية أو تفوق أحد الجنسين...".

وتنص المادة العاشرة على ما يلي: "... القضاء على التمييز ضد المرأة، لكي تكفل للمرأة حقوقاً متساوية لحقوق الرجل في ميدان التعليم".

واستئنافاً للبحث في مسألة تنظيم الرق نرى أن آثار اللامساواة بين الحر والعبد في الحقوق قد طال المرأة، أيضاً. فقد أقرت السنة النبوية حق الرجل بالتسري بالمرأة، فأيد بهذا عادة ألفها العرب في الجاهلية. . . ولم يتساو الأولاد الذين يؤلدون من إماء بالأبناء الشرعيين في الحقوق. وكانت مكانة أم الولد منحطة، حتى أن المسلمين كانوا يطلقون عليها اسم أم الولد. وأباح القرآن، أيضاً، التسري مما ملكت يمين الرجل، وجاء ذلك في عدد من الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ . . ما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك.﴾ [من الكفار بالسبي كصفية وجويرية]... (الأحزاب ٣٣: ٤٩) ^(١).

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٢م) : دار المعرفة: بيروت: د. ت: د. ط: ص ٦٣٥.

رداً على عدم اعتراف عدد من الفقهاء المسلمين بشرعية المساواة في فرص التعليم بين الرجل والمرأة تقف نظيرة زين الدين لتعارض ما ذهبوا إليه في النهي عن تعليم المرأة مستنديين إلى أحاديث تُروى عن الرسول. وفي ردها تنقل عدداً من الأحاديث المذكورة، ومنها: "عن الترمذي الحكيم عن ابن مسعود أن النبي " قال: مرّ لقمان على جارية في الكتاب، فقال: لمن يُصقل هذا السيف؟ وأخرج الترمذي الحكيم من هذا الحديث أن فيه إشارة إلى علة النهي عن تعلم الكتابة؛ وهي أن المرأة إذا تعلّمتها توصلت بها إلى أغراض فاسدة، وأمكن توصل الفسقة إليها على وجه أسرع وأبلغ وأخدع من توصلهم إليها بدون ذلك. لأن الإنسان يبلغ بكتابته في أغراضه إلى غيره ما لم يبلغه رسوله، لأن الكتاب أخفى من الرسول، فكانت أبلغ في الحيلة وأسرع في الخداع والمكر، فلأجل ذلك صارت المرأة بعد الكتابة كالسيف الصقيل الذي لا يمر على شيء إلا قطعه بسرعة. فكذا هي بعد الكتابة تصير لا يُطلب منها شيء إلا كان فيها قابلية إلى إجابته إليه على أبلغ وجه وأسرع" (١).

وتنقل، أيضاً، الحديث التالي: "روى الحاكم وصحّحه البيهقي، أن النبي (قال: لا تُزِلُّهُنَّ في الغرف ولا تُعلِّمُهُنَّ الكتابة. وعلموهن الغزل" (٢).

وحتى اليوم يبرر بعض الإسلاميين تعليم المرأة بشروط، وذلك أن تطابق مواد التعليم فطرة المرأة. يقول البهي الخولي: "إننا لا ننكر أن للمرأة عقلاً كعقل الرجل، ولا نحدد أنها تفهم كما يفهم الرجل من العلوم والآداب ... ولكن القضية هي أننا نريد أن نوزع استعداداتنا الفطرية على أنواع العلوم والمعارف ... إن المرأة خُلِقَتْ لتكون زوجةً وأماً ... هكذا فطرها الله، وفي إرادته الخير كله. فأبي خير بنخيه إذا نحن ثَقَّفناها بغير ثقافة الزوجة والأم؟ ... لقد دخلت الفتاة كلية الزراعة ... فماذا جنت بنجاحها؟ ... لم تجن إلا أنها خرجت من نطاق الأنوثة التي خصتها بها الطبيعة إلى استرجال هي أول من يُنكره..." (٣).

لكن ما هو نوع التعليم المسموح به للمرأة، وما هو الغير مسموح به؟ هنا يستطرد الخولي قائلاً: "وإذا كانت الظروف تدعونا إلى أن يكون من الفتيات طبيبات أو مدرّسات، فلا بأس بذلك، فإننا نستحسن أن يكون الطبيب الذي يعالج المرأة امرأة مثلاً؛ والمدرس الذي يعلمها

(١) زين الدين، نظيرة: السفور والحجاب: مطابع قوزما: بيروت: ١٩٢٨: د. ط: ص ٣١٣.

(٢) م. ن: ص ٣١٤.

(٣) الخولي، البهي: الإسلام والمرأة المعاصرة: دار القلم: الكويت: ١٩٨٤: ط ٤: ص ٢١٥.

امرأة مثلها أيضاً ... أما تعليم الكيمياء والهندسة العليا، والزراعة والفلك وما إليها فضرب من التزويد لا يكون إلا على حساب المهمة الأصلية التي أعدت لها الفتاة" (١).

لكنه يأتي من يستند إلى النص، أيضاً، ليضيق الخناق، ليس على المرأة فحسب، وإنما ليضع تشريعاً يجد فيه من حرية التعلم على الرجل أيضاً. وهنا يقول شكري أحمد مصطفى - أمير إحدى جماعات الإخوان المسلمين - إن الإسلام "يُحرّم تعليم الكتابة في الجماعة المسلمة إلا بقدر الحاجة العملية الواقعية لما يتوصل بالكتابة؛ وتعلّم الكتابة الزائدة حرام" (٢). ويتابع قائلاً: "إن النبي قد أمر بتعليم بعض المسلمين الكتابة في حدود الحاجة". ويبرّر شكري ذلك فيقول: "إن البشرية كلها الضالة، التي دمرها الله تعالى، لم تكن تزهر إلا بالعلم، ولم تكن تتعالى على الله إلا بشجرة هذا العلم المنعدم الصلة بعبادة الله وحده؛ قال الله تعالى: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأزینت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتى أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تكن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ (الجمعة ٦٢: ٢). أما العلم في الإسلام فهو قوله تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب﴾ (الزمر ٣٩: ٩). ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون﴾ (الروم ٣٠: ٧) (٣).

(١) م . ن : ص ٢١٦.

(٢) سيد أحمد، رفعت : الرافضون : م . س : ٩٥.

(٣) م . ن : ص ٩٦.

في نتائج البحث

بعد ألف وأربعمائة سنة من التكفير والتكفير المضاد

﴿لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾
بعد ألف وأربعمائة سنة من التقاتل الدموي تارة؛ والتقاتل الفكري، القائم على التكفير والتبديع والتضليل والتفسيق، تارة أخرى، هل استطاع المسلمون أن يتفقوا على حدود وشروط
الفرقة الوحيدة الناجية من النار؟

لقد مرّت مئات السنين ولم تتغير النصوص المنهية، فلم تكثر النفوس المشتتة بين الفرق
إلا بما بين يديها وبما يتم تلقينها به. واستمرت السنين الطويلة المورقة في دورانها، ولم تكتمل
دورة العنف والصراع العنيف، تارة بالنص وتارة أخرى بالسيف.

استكانت المذاهب الإسلامية إلى الأمر الواقع، حيثما تعددت المذاهب في دولة تقاربت فيها
الأعداد، وتعايشت. واستمر العراك بينها حيثما كانت الغلبة لمذهب على المذاهب الأخرى.
أتعديدية هي تلك التنوعات في الأفكار المنهية؟ ندعو إلى الله من كل قلوبنا أن يكون ذلك
كذلك. لكن. . .

لا تعددية في المقلّس، فالمقلّس واحد؛ إذن، فالتعددية المزعومة في المذاهب هي مجرد سراب
ما دام سيف الردّة مسلط على كل كبيرة أو صغيرة. ولكي تصبح تعددية موضوعية فلا بد
أمامها إلا أن تسلك سبيل الحوار، أي الاعتراف بالآخر، والاعتراف بحريته في الاختيار بعيداً عن
تكفيره بحجة البعد عن النص.

ولأن النص يحتاج إلى التأويل، فمن غير المبرّر أن يكتسب التأويل صفة القدسية، مثله مثل
النص. إذن، فلو اقتنع المتمنّهون بأن التأويل ليس مقدّساً، لشقّ - حيثل - الحوار المتكافئ طريقه
بين المتمنّهين، فتصبح التعددية موضوعية ومفهومة بالفعل.

وإذا كنا نرفض المذهبية، كواقع للتفتيت، فإننا نرحب بالتعددية كطريق للإغناء وليس للإلغاء. أما أن تدعي كل فرقة بأنها الناجية وحلها من النار، فهي مؤمنة في الدنيا وتحمل مسؤولية إعادة الفرق الأخرى إلى الإسلام بالسيف أو بالاستتابة، فبذلك تصبح الفرقة هي الإسلام كله، أما الفرق الأخرى فتصبح الكافرة/المرتدة عن الدين. . . وبهذا يتحول دين الإسلام، كدين للفطرة، إلى معادلة جديدة ومُستغربة، لأنه فيها تصبح الفرقة/المذهب هي فرقة/مذهب الفطرة. فالدين ليس فطرة، بل الدين هو الاقتناع، فلا إكراه في الدين.

فالناسخ والمنسوخ في القرآن هو مبدأ للتجديد وليس مبدأ للتجميد. يقول ابن خلدون: "تُبِتَ في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل بها..."^(١).

وما تغير الأحكام في السنة النبوية، بين مرحلة وأخرى، إلا دليل آخر على العطف على مصالح العباد.

وما تغير أحكام أصحاب المذاهب و اقتناعهم بضرورة الاجتهاد - والتي جعلها اللاحقون بهم و علّوها مقدسات أخرى - إلا دليل آخر وعطف آخر.

أصبح واضحاً، من خلال نتائج بحثنا، أن اتفاق المسلمين - على حقيقة مذهب موحدٍ يُجمعون كلمتهم عليه فيصبح الجميع ناجين من النار - من المستحيلات. فأصبح لزاماً عليهم أن يعودوا بمبدأ الردة، الذي نُجِرَ على ملجئه ملايين المسلمين، إلى الثابت الإلهي الذي يُحلّر من استخدام الإكراه في الدين، ودعا الرسول لأن يكون مُبلغاً وليس مسيطراً. وإذا كان الإكراه ممنوعاً في الدين فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى المذاهب؟

إنه من أجل أن لا يعجب ربنا تعالى من الأسارى الذين يُقادون إلى الجنة بالسلاسل - كما يقول ابن كثير؛ نحسب أن إعادة النظر في مبدأ الردة - القائم على قتل المرتد - وفي مبدأ الفرقة الوحيدة الناجية من النار، يشكل متفهماً مرحلياً أمام المذاهب الإسلامية المختلفة كي يعترف بعضها ببعض الآخر، فيحترم خياراته. ولن يكون من نتائج ذلك إلا ندماً على دماء سالت في الماضي، وحققاً لدماء قد تسيل في الحاضر والمستقبل من جهة؛ وإبعاد المنافقين - الذين نجبرهم على النفاق - عن أن يكونوا مسلمين بالإكراه؛ فخير للمسلمين أن تنقص أعدادهم وأن تكون صفوفهم نظيفة من كل نفاق من أن يكون عددهم كبيراً وأن يكون مصدر ذلك عدد المنافقين الذين لن يفيدوا الإسلام في شيء إلا زيادة تضر ولا تنفع من جهة أخرى.

(١) ابن خلدون: المقدمة: دار الفكر: بيروت: ١٩٧٨: ط ١: ص ٤٤١.

وإنه ستحقق نتائج مذهلة في دفع الإسلام والمسلمين إذا اعترف الفقهاء بأن للعقل دوراً عليه أن يلعبه، وأن يتعدوا عن تعطيل مَلَكَةِ من أهم ما وهب الله للإنسان. أم هل يظن الفقهاء أن عين الله الساهرة تطمئن إلى ألسنة عشرات ملايين المقلدين التي تلهج باسمه خوفاً، أم تطمئن أكثر إلى عقل واحد يتهل إليه بلسان الوعي والإدراك؟

لقد حصلت مصالحة بين العقل والدين في الغرب المسيحي، يقول ديورانت: "إننا مدينون في الغرب [للفلاسفة] بالحرية النسبية التي تنعم بها في الفكر والكلام والعقائد ... وبسببهم استطاعت ديانتنا [المسيحية] أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكثيية، واللاهوت الذي يتهج للتعذيب ... وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن [في الغرب] نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل، ولو مع شيء من اللوم" (١).

وفي المقابل، وفي الشرق الإسلامي، واصلت: "قوى الظلام جهادها ضد العقل والمدافعين عنه، فتحرق الكتب، وتعلم كل من كتب كتاباً لا يعجبها، تبيع دم كل مثقف عرف المسؤولية، تاركة الجهل يأخذ مداه الكامل. . . . وها هي تتحرك طليقة في الشوارع والمدن والقرى مستفوية بأعداء العقل والإنسان الذين يريلون لشعوبنا أن تظل غارقة في ظلمات الجهل والخرافة" (٢).

هناك، إذاً، حضارة متقدمة من دون محاكم للتفتيش؛ وهنا تقبع محاكم التفتيش من دون حضارة، بل مع التخلف والجهل والأمية. لقد اجتاز الغرب مسافة الردة عن الدين، وها هو اليوم ينعم بعطايا الله سبحانه وتعالى. أما نحن فما زلنا نعيش ونحيا في زمن الردة وعقوباتها، لكننا لا نحظى من نعم الله بما حظي به الغرب؛ وليس ذلك فحسب، بل إننا ننكب - أصوليين وعلمانيين - على استهلاك إنتاج حضارته بشراهة لا مثيل لها!!!

إستقل العقل هناك فانتفتحت الأبواب أمام الإنتاج العلمي والفكري؛ وهنا يستمر التضييق على العقل بحجة أن النقل عن السلف يكفي حاجتنا وحاجات العالم معنا، فلم نستطع أن نسُد حاجتنا على الإطلاق، وبقينا نرتع في الجهل والتخلف والمرض... فإذا كانت الشراكة بين العقلين الديني والعلمي غير ممكنة، لكن لكل منهما "حقه وبذره وعُدّة عمله، ونتاجه..." (٣).

هل الفلسفة، كوسيلة من وسائل العقل، هدف قائم بذاته؟

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة (٣٨م) : م . س : ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) راجع النص الكامل لبيان مجموعة من الكتاب والمثقفين والفنانين العرب في: ذهنية التحريم: لصديق جلال العظم: م . س : ص ص ٤٠٥ - ٤٠٨.

(٣) خليل، خليل أحمد: العقل في الإسلام: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٣: ط١: ص ٤١.

إن الفلسفة وسيلة من وسائل العقل البشري للارتقاء بالمجتمع الإنساني من حال اجتماعية - فكرية متخلفة وغير مقبولة لتناقضها مع مقتضيات الواقع الحاضر، إلى حال أكثر تقدماً وأكثر استجابة لمصالح المجتمع البشري. وهي تمارس دورها - كوسيلة لا تتوقف - في سبيل سعادة البشرية. وتتوقف الفلسفة عن لعب هذا الدور في الحالة التي يبلغ الإنسان فيها سعادته المطلقة؛ فهو حينئذٍ يصل إلى حالة إشباع حاجياته المادية والروحية. . . لكن يُعَدُّ الوصول إلى مثل هذه الدرجة من الارتقاء طموحاً طوباوياً، فالمطلق ليس من خصائص الكائنات البشرية، فتبقى الفلسفة، إذاً، في موقع الوسيلة وليس الهدف.

لن نقف الفلسفة - كما نحسب - في مواجهة مع الدين، لأن الدين - أيضاً - هو وسيلة تبتغي قيادة الإنسان إلى بلوغ سعادته في الدنيا وفي الآخرة. ولأن السعادة المطلقة طوباوية فلم يصل الدين حتى الآن، ولن يصل، بالإنسان إلى هذه النتيجة المطلقة.

فإذا تحول الصراع بين الفلسفة والدين من صراع حدود إلى صراع وجود، يرتكب كل من المتصارعين خطأ كبيراً. لأنه في مثل هذا المشهد يقف كل طرف إلى جانب مبادئه بقوة مملوءة بالتعصب والانغلاق. فهل يمكن أن يكون الصراع بينهما صراع حدين متناقضين، أم صراع متكاملين، أم أن هناك حقيقة ثالثة؟

الهدف بين الطرفين واحد. فالفلسفة تعمل لبلوغ الهدف عن طريق العقل؛ والدين عن طريق الإيمان. فإذا وضع كل منهما مسلماته وبنى سلوده المضادة للاختراق، تكون النتيجة ولادة التعصب عند كل من الطرفين، وإذا أصبح التعصب مراساً لكل منهما، توقفت عملية التفاعل، فالتطور والتغيير.

أما بالنسبة للجانب الفلسفي - وعبر تاريخه الطويل - فقد أثبت أن الفلسفة تسير بخط صاعد متطور، يبني اللاحق على السابق، إما بنقده وإعطاء البديل، وإما بنقضه وإزاحته من الساحة؛ فلم يقف الصراع في داخل الفكر الفلسفي برهة واحدة في التاريخ، ولم يتوهم الفلاسفة مرة أنهم أمسكوا الحقيقة المطلقة من رقابها. ولم يدعوا أنهم أمسكوا حقيقة ممتنعة على النقاش، ولم يحكم فيلسوف على آخر بالحرق والقتل، ولم يأمر صاحب فكر بإحراق كتب مفكر آخر. . .

أما بالنسبة للجانب الديني - وعبر تاريخه الطويل - سواء كان ديناً سماوياً أم ديناً وثنياً فقد حفل تاريخ كل منها بالتعصب والقداسة ومحكمة الخصوم بالردة والتكفير والقتل والإحراق والإجبار على تجرع السم. . . ولم يقف الأمر عند هذه الحدود وإنما تجاوزتها إلى إنزال العقاب بالموت بحق أصحاب الفرق المتفرعة عن الدين ذاته.

لم تترك الأديان مكاناً للحوار مع الآخر، سواء كان ذلك مع أصحاب الأديان الأخرى أو مع الفرق المولودة من رحمها. لكننا اليوم نسمع من هنا أو هناك ما يُسمَّى بحوار الجحاملات بين

الفرق وبين الأديان، ويصح تسمية هذا الحوار بحوار التقية. ولكن هل، في مثل هذه الحال، من كلمة سواء؟

يدعو رجال الدين، أو علماء الدين، أو فقهاء الدين، إلى وحدة الأديان لكنهم لا يفعلون، وهم لن يفعلوا فسيُف الاتهام بالردة مسلط على رقابهم؛ فماذا يفعلون أمام ما يحسبونه نصاً مقدساً يأمر بقتلهم إذا ما اعتقدوا أن هناك أديانا أخرى تضارع دينهم و تضاهيها في الوصول إلى معرفة الحقيقة الآلهية؟

- يعتقد المسلمون بوجوب قتل كل من ارتد عن دينه. . .
- ويعتقد المسيحيون واليهود بوجوب قتل المرتد قتلاً، وأن تكون يدك عليه أولاً، ثم أيدي سائر الشعب؛ وسيان أن يكون المرتد من الأقربين أو من الأبعدين. . .

فأين هي الكلمة السواء؟ ألا تصب الدعوة، التي يطلقها الجميع، سوى في دائرة الجحالات في سبيل حفظ التوازن في الرعب الذي يزرعه كل طرف في نفس الآخر؟

عرف الجميع - تاريخياً - ويلات الاحتراب، فوضع - اليوم - كل منهم سيفه في قرابه. دفع الجميع الكثير والكثير من الدم والآلام والعذابات، ظناً من كل طرف أنه بالغ الوعد الآلهي - الذي يحسب أنه أعطي له وحده - فهذا شعب الله المختار، وذاك خير أمة أخرجت للناس...

من بعد أن استفاق الجميع على ما ولدته حروب إلغاء الوجود بين الأديان السماوية، ومن بعد أن رأوا الجثث والجماجم جبالاً، والدماء أنهاراً، وآلام نيران جهنم الدنيا تحتاج كل المؤمنين المتقاتلين وتنهش في نفوسهم عذابات لا تنتهي، إستسلمت الأطراف، فرفعت شعارات الوحدة، كهدنة غير ثابتة، لأن النص جاهز لفتح جبهات القتال الواسعة المقدسة. . . أو ليس هناك من يجرؤ على إعادة النظر في ما يحسبون أنه نص مقلّس يأمر بالقتل، فيبقى الإصبع على الزناد ... ؟

فإذا كنا نضرع إلى الله بملء حناجرنا لرؤية الإشكالية بوضوح، وليس بالدعوة إلى عقد اتفاق مؤقت، بين شتى الفرق والأديان المتحاربة، ليس لمنع استخدام أسلحة الدمار الشامل (الاتهام بالردة عن الدين) ، بل إننا ندعو إلى تدمير مصانع هذه الأسلحة في سبيل أن نضمن عدم إنتاجها، وإلا فإن كل دعوة غير ذلك لن تضمن إلا هدنة مؤقتة وهشة. لأننا نكون كمن يترع الفتيل ليُقي القنبلة جاهزة. فكيف يحصل ذلك؟

إستناداً إلى مبدأ الردة سوف يبقى الأمر بالقتل جاهزاً في يد أي رجل دين. وهذا المبدأ - كما يحسب أي متدين يأخذ بظاهر النص - هو أمر آلهي لا يجوز التردد في تنفيذه متى صدر الأمر بذلك. ويعلم كل رجال الدين وعلمائهم أن زمام الأمر لن يكون ممسوكاً، دائماً، من فقيه متعقل، بل يمكن أن يُعطي فقيه/رجل دين في لحظة من لحظات الغضب أو التعصب، حيث يحلم فيه أنه يُنفذ حكم الله، وهو لن يرى في مثل تلك اللحظة إلا أبواب الجنة مشرعة أمامه على

مصراعيها، ولن يتورّع متدين يأمره صاحب الفتوى بالقتل عن ارتكاب ذلك وإعداد نفسه بالجنة بشكل مضمون.

فهل ليس من حل أمام علماء الدين لحماية الدين إلا بقتل المرتدين أو المشركين؟
"إن الإبقاء على التقليد، الذي انتهى عصره، يعني فرض إطار ضيق على كيان الإنسان وروحه اللذين يتسعان إلى ما لا نهاية"^(١). ولهذا يجب أن ننظر إلى المستقبل بنظرتين: "أولاهما النظرة النقدية للتراث، والاستعداد لتقبل التغيير فيه. والثانية هي النظرة النقدية للحدثة باعتبارها مرحلة عابرة في تاريخ حياة الإنسان، وليست آخر مراحل التاريخ"^(٢).

"فالعقل النقدي هو الذي واجه الاستبداد السلطوي وحده، وأنتج نظرية علمية/عالمية للمعمورة؛ فتحرره أعطى فرصة للعقول الاعتقادية لكي تتحرر هي الأخرى، وتخرج من ظلمات المهجورة... وإن العقل العلمي هو عقل لا إمتاعي، لا إمتالي، لا سلطوي... والفرص متاحة لشراكة بينه وبين عقول اعتقادية متحررة من عقدة إلغاء الآخر واستئصاله..."^(٣).

خلق الله للبشر عقلاً ليستخدموه وسيلة في سبيل سعادتهم، وهو لن يعطّل نعمة أنعم بها على عباده. وهو لم يخلق عقلاً يهودياً ولا عقلاً مسيحياً ولا عقلاً إسلامياً ولا عقلاً بوذياً... بل هو، أيضاً، لم يخلق عقلاً كاثوليكياً وآخر بروتستانتياً أو أرثوذكسياً. وهو لم يخلق عقلاً خاصاً بالسنة ولا بالشيعة... بل خلق عقلاً واحداً للبشر كلهم... فلا تحبسوا العقل في قماقم المذهبية؛ ولا تعطلوا قواه، ولا تجعلوا له حدوداً تأسرونه فيها، لكن... فلتكن منكم هيئة رقابة واعية، أعضاؤها من المتعقلين الأحرار بعقولهم... الملتزمين بمصالح عباد الله...

١٥/٥/١٩٩٩.

(١) نحاسي، محمد: م. م. : ص ٧٤.

(٢) م. م. : ص ٧٨.

(٣) خليل، خليل أحمد: العقل في الإسلام: م. م. : ص ٤١.

كشفه بالمصادر والمراجع

(أ)

- ابن كثير : تفسير ابن كثير : دار الأندلس: بيروت: ١٩٨٤: ط ٥.
- البداية والنهاية : مكتبة المعارف: بيروت: ١٩٩٥: د. ط.
- ابن هشام : السيرة النبوية : دار ومكتبة الهلال: بيروت: ١٩٩٨: ط ١ .
- : مختصر السيرة النبوية: دار النفائس: بيروت: ١٩٧٩: ط ٢
- ابن عبد ربه : العقد الفريد : دار ومكتبة الهلال : بيروت : ١٩٩٠ : ط ٢ .
- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل: دار الجليل: بيروت: ١٩٩٦: ط ٢.
- أركون، محمد: "حوار مع محمد أركون..." (٣٥ - ٤٤): مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ٦/٥: آذار/مارس: ١٩٩٨ .
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون : دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٩٢: ط ١.
- : المقدمة: دار الفكر: بيروت: ١٩٧٨: ط ١.
- ابن الاثير: الكامل في التاريخ : دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٩٨: ط ٣.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى: دار صادر: بيروت: د. ت. د. ط.
- الأمدي: الإحكام في أصول الأحكام: دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٨٩.
- أمين، أحمد: فجر الإسلام : دار الكتاب العربي : بيروت: ١٩٧٥: ط ١١.
- : ضحى الإسلام: دار الكتاب العربي: بيروت: د. ت. ط ١٠.
- : ظهر الإسلام: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٦٩: ط ٥.
- إيش ، يوسف: الإمام والإمامة عند الشيعة : دار الحمراء: بيروت: ١٩٩٠: ط ١.
- أبو ملحم ، علي: الفلسفة العربية: مؤسسة عز الدين: بيروت: ١٩٩٤: ط ١.
- الأعسم، عبد الأمير: تاريخ ابن الربوندي الملحد: دار الآفاق الجديدة: بيروت: ١٩٧٥: ط ١.
- أحمد، زكي: الحركة الإسلامية ومعالم المنهج الحضاري: دار البيان العربي: بيروت: ١٩٩١: ط ١.
- الأمين، أحمد شوقي: "حوار معه..." (٢٩١ - ٣٠٧): الحركات الإسلامية في لبنان: ملف مجلة الشراع: بيروت: ٢١٩٨٥: د. ط.

- بن أنس، مالك : الموطأ : دار إحياء العلوم : بيروت : ١٩٨٨ : ط ١ .

(ب)

- البغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق: دار الآفاق الجديدة: بيروت: ١٩٨٠: ط ٤ .
- بزّون، حسن: القرمطية بين الدين والثورة: دار الحقيقة: بيروت: ١٩٨٨: ط ١ .
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨٤: ط ١٠ .
- بابتي، عبد الله: "الجماعة الإسلامية (١٨١ - ١٩٤): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.
- بوتشيش، إبراهيم القادري: المغرب والأندلس في عصر المرابطين: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٣: ط ١ .

(ت)

- تامر، عارف: معجم الفرق الإسلامية: دار المسيرة: بيروت: ١٩٩٠: د. ط.
- التركي، عبد الله: "الطائفة المنصورة" (٤٦): مجلة الوطن العربي: فرنسا: العدد ١١١١: ١٩٩٨/٦/١٩ .

(ج)

- الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨٧: ط ٤ .
- جولد تسيهر، أجنسس: مذاهب التفسير الإسلامي: دار إقرأ: بيروت: ١٩٨٣: ط ٢ .
- جدعان، فهمي: المحنة: دار الشروق: الأردن: ١٩٨٩: ط ١ .
- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: ١٩٨١: ط ٢ .
- جب، هاملتون: المجتمع الإسلامي والغرب: الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٩٠: د. ط: (تعريب: أحمد مصطفى).
- الجابري، محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨٨: ط ٣ .

(ح)

- حسين، طه: في الأدب الجاهلي: دار المعارف: مصر: ١٩٦٩: ط ١٠ .
- حسن، أحمد علي: المسلمون العلويون في مواجهة التجني: الدار العالمية: بيروت: ١٩٨٥: ط ١ .
- حنفي، حسن: من العقيدة إلى الثورة: دار التنوير: بيروت: ١٩٨٨: ط ١ .
- الحركات الإسلامية في مصر: المؤسسة الإسلامية للنشر: بيروت: ١٩٨٦: ط ١ .
- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام: مكتبة النهضة المصرية: القاهرة: ١٩٦٤: ط ٧ .

- الحكيمى، محمدرضا: سلونى قبل أن تفقدونى: مؤسسة الأعلمى: بيروت: ١٩٨٥: ط٧ .
- الحسينى، هاشم معروف: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: دار القلم: بيروت: ١٩٧٨: ط١ .
- حقي، فيليب: تاريخ العرب: دار غندور: بيروت: ١٩٧٤: ط٥ .
- حسن، حسن عباس: الصياغة المنطقية للفكر السياسى الإسلامى: الدار العالمية: بيروت: ١٩٩٢: ط١ .
- حاطوم، نور الدين: تاريخ عصر النهضة الأوروبية: دار الفكر: دمشق: ١٩٨٥: د. ط.
- تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا (ج١): دار الفكر: دمشق: ١٩٨٢: د. ط.
- حزب التحرير الإسلامى: (ولاية لبنان): قانون الزواج المدنى هو قانون كفر: بيان منشور بتاريخ ١٩/٣/١٩٩٨ .
- الحركات الإسلامية فى لبنان: (١٦٩ - ١٨٠): م. س.
- مذكرة من حزب التحرير مقدمة إلى العقيد القذافى: كراس منشور: د. ن: ١٩٧٨/٩/٩ م.
- حيدر، عاكف: "حوار معه..." (٧٩ - ٨٦): الحركات الإسلامية فى لبنان: م. س.
- الحر، عبد الحميد: "حوار معه..." (٢٧٩ - ٢٨٩): الحركات الإسلامية فى لبنان: م. س.
- حوى، سعيد: الحمينية (شلوذ فى العقائد وشلوذ فى المواقف): د. ن: ١٩٨٧: ط١ .

(خ)

- الخوارزمى، أبو القاسم: الكشاف: الدار العالمية: بيروت: د. ت. د. ط.
- خليل، خليل أحمد: مفاتيح العلوم الإنسانية: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٠: د. ط.
- العقل فى الإسلام: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٣: ط١ .
- خواجه، أحمد: "القدرية" (١٠٦٨ - ١٠٧٣): نقلاً عن: معن زيادة: الموسوعة الفلسفية الإسلامية (٢م): معهد الإنماء العربى: بيروت: ١٩٨٨: ط١ .
- الخمينى: الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه): دار القدس: بيروت: د. ت. د. ط.
- نص الوصية السياسية الآلهية: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامى: طهران: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م: د. ط.
- خاتمي، محمد: مطالعات فى الدين والإسلام والعصر: دار الجديد: بيروت: ١٩٩٨: ط٢ .
- الخورى، يوسف قزما: المشاريع الوجدوية العربية: مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت: ١٩٨٨: ط١ .
- الخولى، البهى: الإسلام والمرأة المعاصرة: دار القلم: الكويت: ١٩٨٤: ط٤ .
- خلف الله، محمد أحمد: "الصحوة الإسلامية فى مصر" (٣٥ - ١٠٤): الحركات الإسلامية المعاصرة فى الوطن العربى: مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت: ١٩٨٧: ط١ .

(د)

- دلو، برهان الدين: مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي: دارالفارابي: بيروت: ١٩٨٥ د. ط.
- ديورانت، ول: قصة الحضارة: جامعة الدول العربية: القاهرة: ١٩٦٤: ط ٢.
- قصة الفلسفة: مكتبة المعارف: بيروت: ١٩٨٥: ط ٥: (تعريب فتح الله المشعشع).
- دحماني، مصطفى: "الأصولية في الجزائر" (٣ - ١٦): مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ١٢: السنة ٢٨.

(ر)

- م . روزنتال (و) ي. يودين: الموسوعة الفلسفية: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨١: ط ٣: (تعريب سمير كرم).
- الرصاصي، توفيق عبد الغني: أسس العلوم السياسية في ضوء الشريعة الإسلامية: الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٨٦ د. ط.

(ز)

- زيناتي، جورج: "ابن رشد بين العرب والغرب" (٣٧ - ٥٤): مجلة الباحث: باريس: العدد الأول: ١٩٧٨.
- رحلات داخل الفلسفة العربية: دار المنتخب العربي: بيروت: ١٩٩٣: ط ١.
- زين الدين، نظيرة: السفور والحجاب: مطابع قوزما: بيروت: ١٩٢٨ د. ط.

(س)

- السيوطي: تاريخ الخلفاء: دار صادر: بيروت: ١٩٩٧: ط ١.
- السيد سابق: فقه السنة: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٨٣: ط ٥.
- السماوي، محمد التيجاني: ثمّ اهتديت: مؤسسة الفجر: لندن: ١٩٩١ د. ط.
- السيد، إبراهيم أمين: "حزب الله" (١٤٣ - ١٦٥): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.
- حوار معه أجرته مجلة العهد (العدد ٥٤): بيروت: ١٩٨٥ م.
- السيد، عفاف لطفي: "العلماء ودورهم في مصر مطالع القرن التاسع عشر" (٢١٥ - ٢٣٧): مجلة الاجتهاد (العدد ٤): بيروت: ١٩٨٩.
- السيد، رضوان: "الفقه والفقهاء والدولة" (١٢٩ - ١٥٩): مجلة الاجتهاد (العدد ٣): بيروت: ١٩٨٩.

- سعيد، أمين: تاريخ الدولة السعودية: مطبوعات دار الملك عبد العزيز: الرياض: د. ت: د. ط.
- سيد أحمد، رفعت: الرافضون: رياض الريس للكتب والنشر: لندن: ١٩٩١: ط١.
- الثائرون: رياض الريس للكتب والنشر: لندن: ١٩٩١: ط١.

(ش)

- شلي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي (ج١): مكتبة النهضة المصرية: القاهرة: ١٩٨٩: ط١٣.
- موسوعة التاريخ الإسلامي (ج٥): مكتبة النهضة المصرية: القاهرة: ١٩٨٦: ط٧.
- شرف الدين، عبد الحسين: المراجعات: مؤسسة الوفاء: بيروت: ١٩٨٠: ط٢١.
- الشهرستاني: الملل والنحل: دار صعب: بيروت: ١٩٨٦: د. ط.
- شمس الدين، محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٨٥: ط١.
- العلمانية: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٨٠: ط١.
- "موقف الإسلام من العولمة في المجال الثقافي والسياسي" (٦٠ - ٧٨):
- مجلة قضايا إسلامية معاصرة: العدد الثالث: بيروت: ١٩٩٨.
- شرف، محمد جلال: دراسات في التصوف الإسلامي: دار النهضة العربية: بيروت: ١٩٨٤: د. ط.
- شحيتلي، عبده: السببية والحكمة الآلفية في فكر الغزالي: رسالة دبلوم غير منشور: الجامعة اللبنانية (الفرع الخامس): ١٩٩٤.
- شينخاني، محمد: "نقد بعض المفاهيم لدى التيارات الإسلامية المعاصرة" (٦٢ - ٦٩): مجلة الفكر الإسلامي: بيروت: العدد الأول/السنة ١٦: ٢/يناير: ١٩٨٧.
- شعبان، سعيد: "حكم الله لكل الأرض وليس للبنان وحده" (١٢٥ - ١٤١): الحركات الإسلامية في لبنان.
- في حديث له مع مجلة الوحدة الإسلامية: تاريخ ١٩٨٩/١٢/٨. نقلاً عن:
- الجمهورية الإسلامية في لبنان (ج٣): إعداد محمد شمس وحسين مرجي: الوكالة الشرقية للتوزيع: بيروت: ١٩٩٠: ط١.
- شرارة، وضاح: دولة "حزب الله": دار النهار: بيروت: ١٩٩٨: ط٣.

(ص)

- الصدر، محمد باقر: الفتاوى الواضحة: دار التعارف: بيروت: ١٩٨٣: ط٨.
- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي: دار الكتاب اللبناني: بيروت: ١٩٨٢: د. ط.

(ض)

- ضومط، انطوان خليل: الدولة المملوكية: دار الحداثة: بيروت: ١٩٨٢: ط ٢.

(ط)

- الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن : دار الجيل: بيروت: د. ت: د. ط.
- : تاريخ الطبري: مؤسسة عز الدين : بيروت : ١٩٩٢: ط ٣ .
- طرايشي، جورج: "نهاية النبوات تؤسس مملكة البشر"(٢١): جريدة النهار: بيروت: تاريخ ١٩٩٨/١٠/٢٩.
- الطفيلي، صبحي: في حوار مع مجلة العهد(العدد ٧٠): بيروت: ١٩٨٦م: ص ٢: عمود ٤.

(ع)

- بن عربي، عبي الدين: تفسير القرآن الكريم : دار الأندلس: بيروت: ١٩٨١: ط ٣.
- بن عبد الوهاب، سليمان: تيسير العزيز الحميد: المكتب الإسلامي: بيروت: ١٩٨٢م: ط ٥.
- عودة، عبد القادر: التشريع الجنائي الإسلامي: مؤسسة الرسالة: بيروت: ١٩٨٥: ط ٦.
- العوحي، مصطفى: النظرية العامة للجريمة (ج ١): مؤسسة نوفل: بيروت: ١٩٨٤: ط ١.
- عمارة، محمد: تيارات الفكر الإسلامي: دار الوحدة: بيروت: د. ط.
- : المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية: دار الشروق: بيروت: ١٩٨٨: ط ٢.
- بن عباد، صاحب: نصرة مذاهب الزيدية: الدار المتحدة للنشر: بيروت: ١٩٨١: ط ١.
- العظيم، صادق جلال: ذهنية التحريم: لندن: ١٩٩٢: ط ١.
- العشماوي، فوزية: "عالمية الدعوة الإسلامية" (٤١ - ٤٢): مجلة شؤون إسلامية (العدد ٤): لندن: ١٩٩٨.
- عماد، عبد الغني: "العلماء والمجتمع في بلاد الشام": جريدة السفير: بيروت: تاريخ ٢١ و ٢٢/٧/١٩٩٣.
- عيسى، إبراهيم: "ماذا جرى للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مصر" (٢٠ - ٢): مجلة روز اليوسف: القاهرة: العدد ٣٤٢٤: تاريخ ١٩٩٤/١/٢٤.
- بن عمرو، سميرة: "آل - موت" أو أيديولوجيا الإرهاب القذافي: المؤسسة الجامعية: بيروت: ١٩٩٢: ط ١.

(غ)

- غالب ، مصطفى: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: دار الأندلس: بيروت: ١٩٧٩: ط ٣.

- غريب، حسن: "ما بين العروبة والإسلام. . ." (١٢٠ - ١٥١): مجلة الفكر العربي: بيروت: العدد ٧٦.
- راجع مقالنا: "العلاقة الجدلية بين المؤثرات الذاتية والخارجية في "واقع التفتيت القومي والإسلامي" (٢ - ١٤): مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ١١/١٢: ١٩٩٨ .
- راجع بحثنا: "هل يحقق الفقه المذهبي الإسلامي وحدة الدولة والقانون؟": مجلة دراسات عربية: العدد: ١١/١٢ (التاريخ: ايلول / ت ١ / ١٩٩٨
- : أنظر بحثنا: في سبيل علاقة سليمة بين العروبة والإسلام: تحت الطبع.
- غرديه، لويس (و) ج. قنواطي: فلسفة الفكر الديني (ج ٢): دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٦٧: ط ١: (تعريب جبرو الصالح).

(ف)

- فضل الله، محمد حسين: الإسلام ومنطق القوة: الدار الإسلامية: بيروت: ١٩٨١: ط ٢.
- : قضايانا على ضوء الإسلام: دار الزهراء: بيروت: ١٩٨٥: ط ٦. —
- : "أخطأنا كما أخطأ غيرنا..." (٣٥ - ٤٢): مجلة الحساء: بيروت: العدد ٢٧: ١٣٥١/١/١٩٨٩.
- : حوار معه أجرته مجلة العهد (العدد ٥٣): بيروت: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- : "حوار معه..." (٢٤٣ - ٢٧٧): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.
- : "حوار معه بتاريخ ٧/١٠/١٩٨٩: نقلاً عن: الجمهورية الإسلامية في لبنان (ج ٣): م. س.
- : فحري، ماجد: تاريخ الفلسفة الإسلامية: الدار المتحدة للنشر: بيروت: ١٩٧٩: د. ط: (تعريب كمال اليازجي).
- : الفيلاي، مصطفى: "نظرة تحليلية في حقوق الإنسان من خلال الوثائق وإعلان المنظمات" (٧٨) —
- : (١٠٨): مجلة المستقبل العربي: العدد (٢٢٣): بيروت: ١٩٩٧/٩
- : "...الصحة الدينية المعاصرة..." (٣٣٣ - ٤٠٨): الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي: مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت: ١٩٨٧: ط ١.

(ق)

- قاسم، عبد الحفيظ: "حوار معه..." (٣٣٧ - ٣٤٣): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.

(ك)

- الكليسي، محمد بن يعقوب: الإمام والإمامة عند الشيعة: دار الحمراء: بيروت: ١٩٩٠: ط ١.

- الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة (ج ٣): المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: ١٩٨٣: ط ١.
- موسوعة السياسة (ج ٤): م . س: ١٩٨٦: ط ١.
- موسوعة السياسة (ج ٧): م . س: ١٩٩٤: ط ١.
- كريزر، كلوس: معجم العالم الإسلامي: المؤسسة الجامعية للدراسات: بيروت: ١٩٩١: ط ١: (تعريب ج. كتورة).
- كيلاي، محمد سيد: "ذيل الملل والنحل" - راجع الشهرستاني: الملل والنحل (ج ٢): م . س. بعد الصفحة ٢٦٥.

(ل)

- لويس، برنارد: الحشاشون: دار آزال: بيروت: ١٩٨٦: ط ٢: (تعريب: محمد العزب موسى).
- الليثي، سميرة مختار: جهاد الشيعة: دار الجيل: بيروت: ١٩٧٨: ط ٢.

(م)

- مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨١: ط ٣.
- فقه الإمام جعفر الصادق: دار الجواد: بيروت: ١٩٨٢: ط ٤.
- مغنية، أحمد: خلاصة التفاسير في أوضح التعابير: المكتبة الحديثة: بيروت: د . ط: د. ت.
- المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية: دار الزهراء: بيروت: ١٩٨٣: ط ٤.
- المسعودي: مروج الذهب: دار الكتاب اللبناني: بيروت: ١٩٨٢: ط ١.
- معروف، نايف: الخوارج في العصر الأموي: دار الطليعة: بيروت: ١٩٨٦: ط ٣.
- مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية: دار الفارابي: بيروت: ١٩٨٠: ط ٣.
- مشكور، محمد جواد: موسوعة الفرق الإسلامية: مجمع البحوث الإسلامية: بيروت: ١٩٩٥: ط ١: (تعريب علي هاشم).
- ميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٦٧: ط ٤: (تعريب: أبوريعة).
- محمصاني، صبحي: فلسفة التشريع في الإسلام: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨٠: ط ٥.
- الموسوي، صادق: "حوار معه" (٣٢٣ - ٣٣٦): الحركات الإسلامية في لبنان: م . س - : في مقال له في جريدة السفير بتاريخ ١٤/١١/١٩٨٩: نقلاً عن: الجمهورية الإسلامية في لبنان: م . س.

- الموسوي، عباس: في حوار مع مجلة العهد (العدد ٣٦١): بيروت: ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م: ص ٣: عامود ٣.
- الموسوي، حسين: "حركة أمل الإسلامية (٢١٧ - ٢٣٣): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.
- المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة: الدار الأهلية: بيروت: ١٩٨٧: د. ط.
- المطهري، مرتضى: الحركات الإسلامية في القرن الأخير: دار الهادي: بيروت: ١٩٨٢: ط ١: (تعريب صادق العبادي).
- بن محمد ، النعمان :إختلاف أصول المذاهب: دار الأندلس: بيروت: ١٩٨٣: ط ٣.

(ن)

- النووي: شرح الأربعين حديثاً النووية: دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٨٣: د. ط.
- الناصري، محمد باقر: مختصر مجمع البيان في تفسير القرآن: بيروت: ١٩٨٠: ط ١.
- النيسابوري: "غرائب القرآن": راجع الطبري هامش: جامع البيان في تفسير القرآن.
- النجدي، عبد الرحمن: الدرر السنية (ج ١): دار العربي: بيروت: ١٩٨٢: ط ٢.
- نصر الله ، حسن: في محاضرة له نشرتها مجلة العهد (العدد ٥٥): بيروت: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(هـ)

- الهري، عبد الله: المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية: دار المشاريع: بيروت: ١٩٩٦: ط ٣.
- بغية الطالب : دار المشاريع : بيروت : ١٩٩١ : ط ٢ .
- الغارة الإيمانية في ردّ مفاصد التحريرية: دار المشاريع: بيروت: ١٩٩٤: ط ٢ .
- هشي، سليم حسن: في الإسماعيليين والدروز: دار لحد خاطر: بيروت: ١٩٨٥: ط ٢.

(ي)

- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: دار صادر: بيروت: ١٩٩٥: ط ٦.
- يكن، فتحي: "حوار معه..." (١٩٥ - ٢٠٠): الحركات الإسلامية في لبنان: م. س.
- يسين، السيد: "في مفهوم العولمة" (٤ - ١٣): مجلة المستقبل العربي (العدد ٢٢٨): بيروت: ١٩٩٨/٢.

(الموسوعات والمعاجم)

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس (العهد القديم): المطبعة الكاثوليكية: بيروت: د. د. ط.
- الكتاب المقدس (العهد الجديد) : المطبعة الكاثوليكية: بيروت: د. د. ط.
- تفسير الجلالين : الوحدة الإسلامية : القدس : ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- صحيح مسلم: دار المعرفة بيروت: د. د. ت. د. ط.
- دائرة المعارف الإسلامية: دار المعرفة: بيروت: د. د. ت. د. ط.
- الموسوعة الفلسفية الإسلامية: معهد الإنماء العربي: بيروت: ١٩٨٨: ط ١.
- مفاتيح العلوم الإنسانية: دار الطليعة: بيروت: ١٩٩٠: د. د. ط.
- الصحاح: دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٨٧: ط ٤.
- معجم الفرق الإسلامية: دار المسيرة: بيروت: ١٩٩٠: د. د. ط.
- معجم العالم الإسلامي: المؤسسة الجامعية للدراسات: بيروت: ١٩٩١: ط ١: (تعريب ج. كُتورة).
- موسوعة الفرق الإسلامية: مجمع البحوث الإسلامية: بيروت: ١٩٩٥: ط ١: (تعريب علي هاشم).

(الصحف والمجلات والدوريات العلمية)

- مجلة الفكر الإسلامي: بيروت: العدد الأول/السنة ١٦: ك ٢/يناير: ١٩٨٧.
- مجلة شؤون إسلامية: العدد ٤ : لندن : ١٩٩٨.
- مجلة قضايا إسلامية معاصرة: العدد الثالث: بيروت: ١٩٩٨.
- مجلة العهد (العدد ٥٣): بيروت: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
- (العدد ٥٤): بيروت: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- (العدد ٧٠): بيروت: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- (العدد ٣٦١): بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- مجلة الباحث: باريس: العدد الأول: ١٩٧٨.
- مجلة الاجتهاد (العدد ٣): بيروت: ١٩٨٩.
- (العدد ٤): بيروت: ١٩٨٩.

- مجلة دراسات عربية: بيروت: العدد ١٢: السنة ٢٨.
- بيروت: العدد ٦/٥: آذار / مارس: ١٩٩٨ .
- بيروت: العدد ١٢/١١: ١٩٩٨.
- مجلة المستقبل العربي : (العدد ٢٢٣): بيروت: ١٩٩٧/٩.
- (العدد ٢٢٨): بيروت: ١٩٩٨/٢.
- مجلة الفكر العربي: بيروت: العدد ٧٦.
- مجلة الوطن العربي: باريس: العدد ٩٧٩: تاريخ ١٩٩٥/١٢/٨.
- باريس: العدد ١٠٤٥: تاريخ ١٩٩٧/٣/١٤.
- باريس: العدد ١١١١: ١٩٩٨/٦/١٩.
- مجلة الكفاح العربي: بيروت: العدد ٢٩١٥: تاريخ ١٩٩٩/٢/٢.
- جريدة النهار: بيروت: تاريخ ١٩٩٨/١٠/٢٩.
- جريدة السفير : بتاريخ ١٩٨٩/١١/١٤.
- بيروت: تاريخ ٢١ و ٢٢/٧/١٩٩٣.
- مجلة روز اليوسف: القاهرة: العدد ٣٤٢٤: تاريخ ١٩٩٤/١/٢٤.
- مجلة الحساء: بيروت: العدد ١٣٥١: ١٩٨٩/١/٢٧.

أصبح واضحاً، من خلال نتائج بحثنا، أن اتفاق المسلمين - على حقيقة مذهب موحدٍ يُجمعون كلمتهم عليه فيصبح الجميع ناجين من النار - من المستحيلات. فأصبح لزاماً عليهم أن يعودوا بمبدأ الردة، الذي نُحِرَ على مذهب ملايين المسلمين، إلى الثابت الألهي الذي يُحذر من استخدام الإكراه في الدين، ودعا الرسول لأن يكون مُبلغاً وليس مسيطراً. وإذا كان الإكراه ممنوعاً في الدين فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى المذاهب؟

إنه من أجل أن لا يعجب ربنا تعالى من الأسارى الذين يُقادون إلى الجنة بالسلاسل - كما يقول ابن كثير - نحسب أن إعادة النظر في مبدأ الردة - القائم على قتل المرتد - وفي مبدأ الفرقة الوحيدة الناجية من النار، يشكل متفهماً مرحلياً أمام المذاهب الإسلامية المختلفة كي يعترف بعضها ببعض الآخر، فيحترم خياراته. ولن يكون من نتائج ذلك إلا ندما على دماء سالت في الماضي، وحقناً لدماء قد تسيل في الحاضر والمستقبل من جهة؛ وإبعاد المنافقين - الذين نجبرهم على النفاق - عن أن يكونوا مسلمين بالإكراه؛ فخير للمسلمين أن تنقص أعدادهم وأن تكون صفوفهم نظيفة من كل نفاق من أن يكون عددهم كبيراً وأن يكون مصدر ذلك عدد المنافقين الذين لن يفيدوا الإسلام في شيء إلا زيادة تضر ولا تنفع من جهة أخرى.

وإنه ستتحقق نتائج مذهلة في دفع الإسلام والمسلمين إذا اعترف الفقهاء بأن للعقل دوراً عليه أن يلعبه، وأن يتعدوا عن تعطيل ملكة من أهم ما وهب الله للإنسان. أم هل يظن الفقهاء أن عين الله الساهرة تطمئن إلى ألسنة عشرات ملايين المقلدين التي تلهج باسمه خوفاً، أم تطمئن أكثر إلى عقل واحد يتهل إليه بلسان الوعي والإدراك؟